

العقلية البدائية

تأليف **ليفي بريل**

ترجمة الدكتور محمد القصاص

مراجعة الدكتور حسن الساعاتي



تليجرام
هنا سور الازبكية
غواص في بحر الكتب
باحثون
محمد خطاب

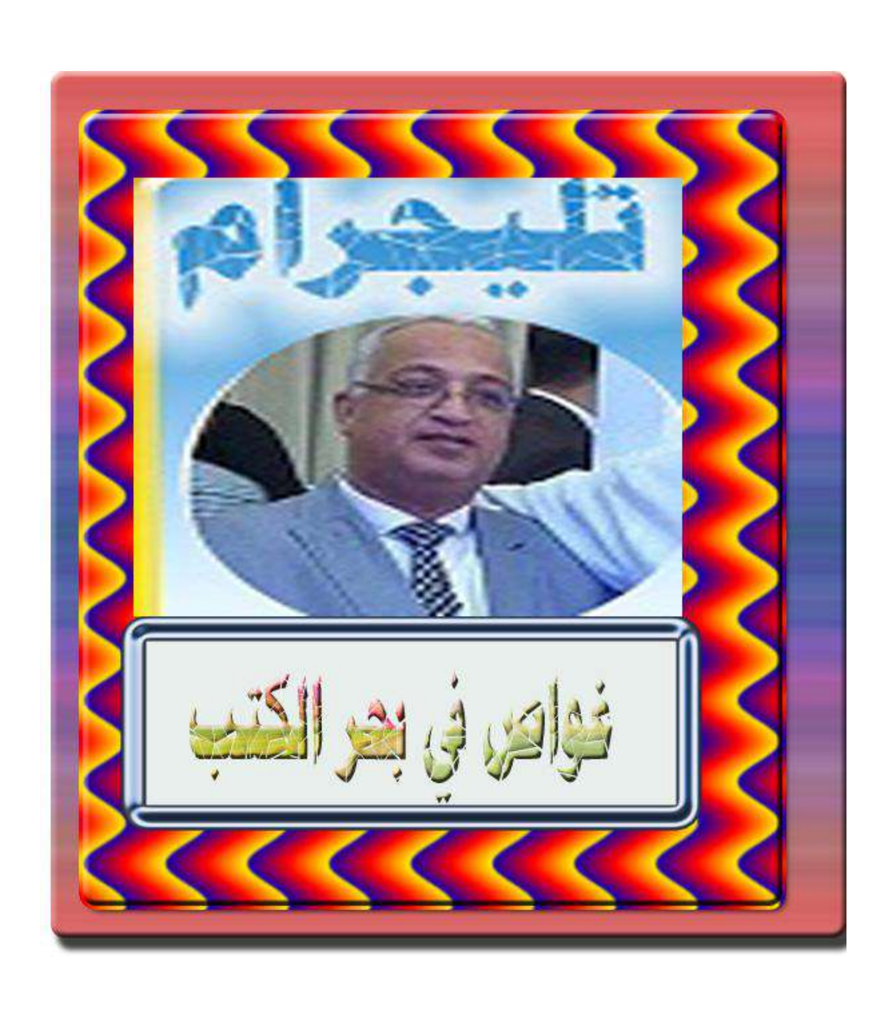
العقلية البدائية

تأليف
ليفي بريل

ترجمة
الدكتور محمد القصاص
استاذ بكلية الآداب
جامعة عين شمس

مراجعة
الدكتور حسن الساعاتي
استاذ مساعد بكلية الآداب
جامعة عين شمس

يطلب من
مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي "الفجالة"


تليجرام
غواص في بحر الكتب

مقدمة

كان فى عزمنا حين أصدرنا كتابنا «الوظائف العقلية فى الجماعات المنحطة» منذ اثنى عشر عاما، أن نطلق عليه اسم «العقلية البدائية». ولكن مصطلح «العقلية» ومصطلح «البدائية» أيضا لم يكونا قد تدوولا فى الاستعمال كما هما اليوم؛ لذلك عدلنا عن هذه التسمية. ولكننا نعود إليها الآن لنطلقها على هذا المؤلف. ويكفى ذلك للدلالة على أن كتاب اليوم يكمل الكتاب السابق. فكلا الكتابين يعالجان موضوعا واحدا، ولكن كلا منهما يعالجه من وجهة نظر تختلف عن الآخر إلى حد كبير. فكتاب «الوظائف العقلية» يتجه أولا وقبل كل شىء إلى دراسة قانون «المشاركة» من حيث علاقته بمبدأ «الوحدة الذاتية» وإلى البحث فى خاصة التغاضى عن التناقض التى تمتاز بها عقلية البدائيين. أما موضوع «العقلية البدائية» (١) فينحصر بالأخرى فى بيان فكرة البدائيين عن السببية والنتائج التى تترتب على هذه الفكرة.

ولسنا نزعم أن هذا الكتاب أو الكتاب السابق قد استوعبا دراسة العقلية البدائية من جميع وجوهها، وأحاطا بضروب التعبير العديدة التى تترجم بها هذه العقلية عن نفسها. ولكننا ننظر إلى هذا الكتاب نظرتنا إلى الكتاب السابق، أى على أنه مقدمة عامة فحسب. فقد اقتصرنا فيه على محاولة تحديد الاتجاه الخاص بالعقلية البدائية على أصدق صورة ممكنة، وبيان المدركات التى لديها وكيفية حصولها عليها ونواحى استخدامها إياها. وبالاختصار أردنا فى هذا الكتاب أن نحدد مضمون هذه العقلية والإطارات التى تتشكل فيها. وقد حملنا ذلك إلى الاجتهاد فى استخلاص بعض العادات العقلية المميزة للبدائيين ووصفها وبيان أسباب اختلافها عن عاداتنا وطبيعة هذا الاختلاف

---

(١) ألقينا بعض أجزاء من هذا الكتاب دروسا فى معهد نوبل.

وقد حرصنا على دراسة الخطوات التى تتبعها العقلية البدائية وهى متلبسة بالتفكير، إذا جاز لنا هذا التعبير. ولذلك عمدنا إلى اختيار أبسط الظواهر وأقلها غموضا لنقوم بتحليلها. وأردنا أن تساعدنا هذه الوسيلة، على تجنب كثير من الأخطاء التى يتعرض لها كل من يتصدون للبحث فى تلك المعادة المعقده، وعلى إيضاح المبادىء التى تسير عليها العقلية البدائية فى أثناء قيامها بعملها. ولذلك أخذنا على عاتقنا أن ندرس ماهية القوى الخفية بالنسبة إلى البدائيين الذين يحسون أنها تحيط بهم من كل جانب، وأن نبحث الأحلام والفؤول سواء أكانت عرضية أم مستثارة، وأن نناقش ضروب التحكيم «والموت السيء» وموقف الأهالى من الطب الأوربى والأدوات التى جاء بها البيض من بلادهم، وهلم جرا.

لذلك لا ينبغى للقارىء أن ينتظر منا دراسة العقلية البدائية من حيث علاقاتها بالفنون المهنية لدى الجماعات المتأخرة (مثل اختراع الأسلحة والآلات وتحسينها واستئناس الحيوانات وتشييد المبانى وفلاحة الأرض، وهلم جرا)؛ كما ينبغى له أن يعرف أننا لا نعنى بدراسة نظم البدائيين التى كثيرا ما تتسم بالتعقيد الشديد كالطوطية ونظام الأسرة.

فإذا كانت المقدمة العامة التى تتكون من هذا الكتاب مضافا إلى الكتاب السابق قد أصابت هدفها، فإنها ستسمح لنا برسم تحديد سليم للمسائل الكبرى التى أثارتها نظم البدائيين وصناعاتهم وفنونهم ولغاتهم. كما أن معرفتنا بعاداتهم العقلية من حيث اختلافها عن عاداتنا من شأنها أن تعيننا على صياغة هذه المسائل فى عبارات تمكننا من حلها، لأنها تستطيع أن تنير طريقنا وتيسر لنا فى كثير من الحالات على الأقل - تمييز الغايات التى يهدف إليها البدائيون بصورة شعوريه إلى حد ما، وأن تصحح فهمنا للوسائل التى ينساقون إلى استعمالها والتى كثيرا ما تبدو لنا صبيانية أو شنيعة. وبذلك نستطيع الاهتداء إلى العلل العميقة التى تفسر صور نشاطهم المعتاد، سواء أكان فرديا

أم جماعيا . وليست بعض فصول هذا الكتاب إلا محاولات لتطبيق تلك الطريقة على بعض الحالات البسيطة نسبيا .

ويبدو لنا أن النتائج التي وصلنا إليها في هذه الفصول تعضد التحليل التجريدي الذي عرضناه في كتاب « الوظائف العقلية » . والواقع أن اعتمادنا على هذا الكتاب قد ساعدنا على تفسير كثير من الظواهر التي لم تكن فسرت مطلقا حتى الآن أو التي كانت تفسر بفروض احتمالية ، بل تحكمية في كثير من الأحيان . وهكذا نرى أن الكتابين يعضد كل منهما الآخر . فكلاهما يقومان بجهود واحد لاستقصاء طرق التفكير وقواعد العمل لدى هؤلاء الناس الذين نسميهم بالبدائيين خطأ ، والذين هم جد بعيدين عنا وجد قريبين منا في آن واحد .

ليفي بريل

تمهيد

لا شك أن الفروق التى تميز بين العقلية البدائية وعقلية الأمم المتحضرة عديدة جدا . ولكن فرقا واحدا من بينها هو الذى استرعى انتباه عدد كبير من الباحثين الذين توفروا على دراسة الجماعات البدائية فى خير الظروف ملاءمة لهذا البحث ، أى قبل أن يؤثر فيها الاحتكاك الطويل بالأوربيين فقد لاحظ هؤلاء الباحثون أن البدائيين ينفرون أشد النفور من الاستدلال العقلى ، ومما يسميه المناطقة بالعمليات المنطقية للتفكير ، كما لاحظوا أيضا أن هذا النفور لا يرجع إلى قصور أصيل أو عجز طبيعى فى إدراكهم ، بل بالأحرى إلى مجموعة العادات العقلية التى درجوا عليها ، أى إلى طريقتهم فى التفكير . فالآباء اليسوعيون الذى سبقوا غيرهم إلى رؤية الهنود الغربيين لم يسعهم إلا أن يجهروا بهذه الملاحظة ، فيقولون : « لا شك أن الأروكيين عاجزون عن التفكير المنطق الذى يباشره الصينيون والشعوب المتحضرة الأخرى التى اهتدت بتفكيرها المنطق إلى نور العقيدة وحقيقة الإله . ولكن الأروكى لا ينقاد للأدلة العقلية بأية حال . وأول خوف يعتريه من مقاربة الأشياء هو الشعلة الوحيدة التى يستضىء بها فى حياته . أما الحجج الباعثة على التصديق التى يستعملها علم الكلام عادة لإقناع العقول العنيدة ، فإنها لا تنفذ إلى عقله مطلقا . بل كثيرا ما نراه يصف حقائقنا الكبرى بالكذب . كما أنه فى العادة لا يصدق إلا ما يرى(١) ! » ثم يردف هذا الباحث نفسه فيقول بعد ذلك بقليل : « ما كان هؤلاء الناس ليقبلوا حقائق الأنجيل لو أنها اعتمدت على الفطرة السليمة والاستدلال المنطق البحت فحسب . ولسنا ننكر أنه قد يوجد بينهم عقول تقف على قدم المساواة مع العقول

---

(١) Relations jesuites ، (Thavailes) ، مجلد ٥٧ ، ص ١٢٦ (١٦٧٢ — ١٦٧٣) .

الأوربية فى قدرتها على تقبل العلوم . ولكن تربيتهم وحاجتهم إلى البحث عن رزقهم تجعلان استدلالهم لا يتعدى ما يمس صحة أجسامهم وما يعنيهم من أمور الصيد والحرب وتبادل السلع . وهم يعتبرون هذه الأمور تجارب يهتدون بها فى تفكيرهم ، لا فيما يتعلق بمساكنهم ومهامهم وطرائق سلوكهم فحسب ، بل أيضا فيما يتعلق بخرافاتهم وآلهتهم . »

إذا قارنا هذه الفقرة بالفقرة السابقة استطعنا الحصول على العناصر الضرورية لتحرير وصف دقيق لعقلية « الأروكيين » من الناحية التى تهمنا . فليس الاختلاف الأساسى الذى يفرق بين هؤلاء « المتوحشين » وبين غيرهم من الوثنيين الذين يفوقونهم فى درجة الحضارة لا يرجع إلى انحطاط عقلى خاص بهم ؛ بل يرجع إلى حالة واقعية ينحصر تفسيرها تبعاً لرأى الآباء اليسوعيين فى حالتهم الاجتماعية وتقاليدهم . وكذلك يقول المبشر « جرانتس » Grantz عن سكان « جرينلند » : « إنما يدور تفكيرهم وابتكارهم حول المشاغل الخاصة ببقائهم . وكل مالا يتصل بذلك اتصالا وثيقا لا يسترعى تفكيرهم بأية حال . ولذلك يمكننا أن نصفهم بنوع من البساطة الخالية من الحق وبشىء من سلامة التقدير الفطرى الخالى من فن الاستدلال(١) . » يريد « جرانتس » أن يدل بهذا الكلام على أن سكان « جرينلند » لا يتبعون أى فن من فنون الاستدلال القائم على التجريد مهما كان قليلا ؛ لأنه من غير المشكوك فيه أنهم حينما يتابعون المهام الضرورية لعيشهم يفكرون ويعملون على تهيئة الوسائل التى تؤدى إلى الغايات المنشودة . وقد تكون تلك الوسائل معقدة فى بعض الأحيان ، ولكن العمليات العقلية التى يقومون بها لا تنفصل عن الأشياء المادية التى استثارتها وتنقطع بمجرد الوصول إلى الغايات . فهم لا يمارسونها لذاتها ،

(١) جرانتس The History of Groenland ، جـ ١ ، ص ١٣٥ (١٧٦٧) .

ولذلك يبـــدو لنا أنها لا تسمو إلى مقام ذلك الشيء الذى نسميه نحن « تفكيرا » بمعنى الكلمة » . وهذا مايوضحه لنا باحث آخر عاش بين إسكيمو القطب الشمالى إذ يقول : « لا يشغلهم شيء آخر غير صيد القيطس والصيد البرى والغذاء . أما فيما عدا ذلك فإنهم يعتبرون التفكير بوجه عام مرادفا للهم . » ويقول أيضا : « خرجت يوما للصيد فرأيت رجلا من الإسكيمو وخلت أنه غارق فى تأملاته فسألته قائلا : فيم تفكر ؟ فضحك من سؤالى وقال : ما أغرب أحوالكم يا معاشر البيض ! إنكم تشغلون أنفسكم بالتفكير إلى أقصى حد . أما نحن معاشر الإسكيمو فإننا لا نفكر إلا فى مخابىء لحومنا وفيما إذا كان ما لدينا منها يكفى ليالى الشتاء الطويلة أم لا . فإذا كانت كمية اللحم التى لدينا كافية لم تبق لنا حاجة إلى التفكير . وإنى أعلم علم اليقين أن لدى من اللحم أكثر مما أحتاج ! ففهمت أنى جرحت إحساسه حين اتهمته بالتفكير (١) . »

وقد ترك لنا الباحثون الأولون الذين درسوا سكان إفريقية الجنوبيـة الأصليين ملاحظات تشابه الملاحظات السابقة كل الشبه . فهناك أيضا لاحظ المبشرون « أن الأهالى لا يصدقون إلا مايرون . وليس من النادر أن تسمع الشخص من الأهالى يتساءل قائلا : أتستطيع أبصارنا أن ترى إله البيض ؟... وإذا كان « موريمو » Morimo (الله) هذا لا يُرى ، فكيف يجوز لشخص عاقل أن يعبد شيئا خفيا ؟ (٢) فنسمع الشخص منهم يوجه إليك مثل هـذه الأسئلة ومن حوله طغام قومه يضحكون ويقرعون أكفهم . وكذلك الحال لدى « البسوتو » حيث نسمع بسوتا بسيطا يقول متهكما : أما أنا فلا بد أن أصعد إلى السماء لأتحقق من وجود الإله ، ولن أومن حتى أراه بعينى(٣) . »

---

(١) كن . رازمش Kn Ramussen: New Menschen ، ص ١٤٠ — ١٤١ .

(٢) Missions évangéliqus ، مجلد ٢٣ (١٨٤٨) ، ص ٨٣ (شرح Schrumpf .

(٣) المرجع نفسه مجلد ١٤ (١٨٣٩) ، ص ٥٧ .

ويسرف مبشر آخر في الحديث عن غفلة البسوتيين وانعدام التفكير عندهم فيقول : « يكاد يكون التفكير معدوما لدى هؤلاء الناس . وإذا اتفق لهم أن يفكروا لم يسم تفكيرهم إلى ما فوق الأمور المادية التافهة . . . والحقيقة أنهم يجعلون بطنهم إلههم[1] » . كذلك يكتب « برتشل » Burchell عن قبائل البشمان فيقول : « من العسير على الأشخاص الذين استضاءوا بنور الحضارة الأوربية أن يتصوروا مقدار ما يصح أن يسمى « ببلادة المتوحشين » حين يريدون أن يتجاوزوا أبسط الأفكار وأتفه المعاني ، سواء أكان ذلك يتعلق بالأمور المادية أو المعنوية . ولكن الواقع أن حياة هؤلاء المتوحشين تكاد تخلو من الأحداث ، وأن مشاغلهم وأفكارهم ومهامهم تقتصر على عدد قليل من الأشياء ، ومن ثم صارت أفكارهم بطبيعة الحال ضئيلة محصورة . وكنت في كثير من الأحيان لا أكاد ألقي بضع كلمات من « ماشنكا » Machunka حتى أراني مضطرا إلى إخلاء سبيله ، وذلك بعد أن بدا لي أن أقل مجهود فكري يبذله في الالتفات أو مواصلة العمل كان يعجل باستنفاد قدرته على التفكير ويعجزه عجزا تاما عن مواصلة البحث في الموضوع الذي يشتغل به . فقد كان يبدو عليه في هذه المناسبات من انصراف الذهن وشروده ما يدل على أن الأسئلة التجريدية المفرطة في البساطة لا تلبث أن تعود به إلى مستوى الأطفال الذين لم تستيقظ عقولهم بعد . ولذلك كان يسارع بالشكوى من صداع في رأسه . . . [2] » ولكن هذا السائح نفسه يصف لنا قبائل البوشمان في حديث آخر فيقول : « ليسوا ثقلاء ولا بلداء . بل إنهم على العكس من ذلك يتمتعون بحظ وافر من سرعة

imp.

---

(١) المرجع نفسه مجلد ٢٧ (١٨٥٢) ، ص ٢٥٠ (فريدو Frédoux) .

(٢) و . ح . برتشل : Travels into the Interior of Southern Africa ج ٢ ص ٢٩٥ . وكذلك تيوسبكس Spix وماريتوس Martius ما نصه : « لايكاد المرء يلقي عليه بعض أسئلة عن لغته حتى ينفذ صبره ويشكو صداعا في رأسه ويظهر عجزه عن مواصلة المجهود . » Reisen Brasilien جـ ١ ، ص ٣٨٤ .

الخاطر . وإذا كان الحديث يتعلق ببعض الأشياء التي جعلتها طريقة حياتهم في متناول ملاحظتهم ، أظهروا كثيراً من الفطنة والذكاء (١) . » . تدلنا هذه الرواية على أن نفوذ البدائيين من عمليات الاستدلال الفكرية المنطقية لا يرجع إلى نقص في تكوينهم ، بل إلى مجموعة العادات التي تتحكم في تفكيرهم شكلا وموضوعا . وكذلك يحدثنا المبشر مفات Moffat عن الهوتنتوت مثل هذا الحديث . ونحن نعلم أن مفات قضى سنين طويلة بين سكان إفريقية الجنوبية الأصليين وأنه كان يتكلم لغتهم بطلاقة . فيقول : « من العسير أن نتصور مبلغ جهل المستنيرين منهم بالمواضيع المألوفة لصغار الأطفال عندنا . ولكننا بالرغم من هذه المظاهر العامة لا نستطيع أن ننكر عليهم أنهم يفكرون بإمعان وأنهم يعرفون كيف يلاحظون الأشخاص والأخلاق (٢) . »

ويقول مبشر آخر عن هؤلاء « الهوتنتوت » أنفسهم : « من المحقق أن أصدقاءنا الأوربيين قد لا يصدقون الأمثلة التي يمكن سردها عن بلادة عقول هؤلاء الناس وعجزها عن التفكير والفهم ووعى ما قد تفهمه . بل كثيراً ما تستولى الدهشة على أنا الذى أعرفهم منذ زمن طويل ، حين أشهد الصعوبة التي يعانونها في إدراك أبسط الحقائق ، ولا سيما إذا حاولوا أن يقوموا هم أنفسهم بإجراء استدلال ما . هذا إلى أنهم سرعان ما ينسون ما فهموا (٣) . »

ولعل أهم ما ينقصهم هو القدرة على تطبيق تفكيرهم بطريقة معتادة على أشياء أخرى غير التي تقع تحت حواسهم . أو استهداف غايات أخرى غير الغايات التي يدركون نفعها الفوري . ومن هذا القبيل ما ذكره الأستاذ « كامبل » عن حياة الإفريقي ، حيث يقول : « كان إذا سئل عن الفكرة التي

---

(١) المرجع نفسه ، جـ ٢ ، ص ٥٤ — ٥٥ .

(٢) ر . مفات Missionary Labours and Scenes in South Africa: R . Moffat (١٨٤٢)، ص ٢٣٦ .

(٣) Berich'e der sheinisehen Missions gesellschaft (١٨٤٢)، ص ٢٣٧ .

كانت لديه عن الإله قبل أن يتلقى نعمة التربية المسيحية ، أجاب بأنه لم تكن لديه أية فكرة عن هذا النوع من الموضوعات ، وأنه لم يفكر فى شىء آخر غير ماشيته (١) . » وقد روى الأستاذ مفات مثل هذا الاعتراف عن إفريقى آخر ، وكان رئيسا قويا مهابا عظيم الذكاء .

ولما احتك أهالى إفريقية الجنوبية بالأوربيين ، اضطروا إلى بذل شىء من التفكير التجريدى الذى كان جديدا عليهم . وكان من الطبيعى فى هذه الحال أن نراهم يسعون إلى اختزال الجهد الذى يبذلونه فى ذلك إلى أدنى حد . فكانوا لا يتوانون عن استخدام ذاكرتهم القوية ، كلما ساعدتهم على التخلص من عناء التفكير والاستدلال ، كما نرى من المثل الآتى : « اتجه المبشر « نتسل » Nezel إلى « أوبنجوان » وقال له : لقد سمعت خطبة الأحد الماضى فقص على ما وعيته منها . فتروى « أوبنجوان » بعض الوقت ، كما هو شأن أفراد « الكفرة » دائما ، ثم انطلق يسرد الأفكار الرئيسية التى تضمنتها الخطبة بالحرف الواحد . وبعد ذلك بأسابيع أخذ المبشر يراقبه أثناء الخطبة ، فرآه مشغولا بقد قطعة من الخشب فى يده ، وكأنه منصرف عن سماع الخطبة . ولم يكد المبشر ينتهى من خطابه حتى ذهب إليه وسأله قائلا : ماذا وعيت من خطبة اليوم ؟ فأخرج الوثنى قطعة الخشب وراح يتلو أفكار الخطبة واحدة بعد أخرى مستعينا بالحزوز التى كان قد قدها عليها (٢) . »

ويبدو هذا الميل إلى الاستعاضة بقوة الذاكرة عن الاستدلال بقدر الإمكان لدى أطفال البدائيين الذين يترسمون فى عاداتهم العقلية خطى والديهم بطبيعة الحال . ونحن نعلم أن أطفال الأهالى فى جميع الأقطار التى فتح فيها المبشرون بعض المدارس يتعلمون على وجه التقريب بنفس السرعة التى يتعلم

(١) ر . مفات : المرجع نفسه ، ص ١٢٤ .

(٢) الدكتور فاجمان

Die Berliner Mission im Zululand : Wagemann (١٨٦٥) ، ص ٣٦٣ .

بها الأطفال فى أقطارنا ، أو أنهم على الأقل يسيرون بهذه السرعة إلى أن يبلغوا سناً معينة ، ثم يبطؤ نموهم ويتوقف . وقد أورد القس البروتستنتى « جونود » الذى أقام بين قبائل « التنجا » Thorga فى إفريقية الجنوبية الملاحظة الآتية عن هؤلاء الأطفال : « من اليسير على الأطفال أن ينجحوا إذا كان النجاح يتوقف على مجهود الذاكرة . وإلى ذلك يرجع السبب فى سهولة حفظهم للموازين والمقاييس الإنجليزية رغم ما فيها من عمليات اختزالية معقدة ، مع إخفاقهم فى استيعاب النظام المترى رغم أنه أبسط من الأول وأقرب منه إلى المعقول . وذلك لأن النظام الإنجليزى يتطلب استظهار النسب التى بين الوحدات المختلفة من ياردات وأقدام وبوصات وجالونات وبنتات : الخ . ولكن إذا نجح الطفل فى حفظها عن ظهر قلب أصبح فى وسعه أن يطبقها بصورة آلية بحتة ، وهذا ما يتطلبه الأهالى . أما النظام المترى فينطوى على فكرة الوحدة التى تسرى فيه بأسره ، ولذلك ينبغى لاستخدامه استعمال قدر ما من التفكير العقلى .

« وهذا المقدار من التفكير هو السر فى كراهية تلاميذنا الإفريقيين للنظام المترى . وتزداد هذه الصعوبة عندهم إذا وصلوا إلى المسائل ووجب عليهم أن يستنبطوا من تلقاء أنفسهم ما إذا كان حل المسألة التى أمامهم يحتاج إلى عملية جمع أم إلى عملية طرح . ولذلك تبدوا دراسة الحساب فى نظرهم من الأمور الهينة ما دامت لا تحتاج إلا إلى إعمال الذاكرة ؛ ولكنها تصبح عملا شاقا لا يطاق إذا احتاجت إلى التفكير المنطقى (١) . » . وقد جاءتنا عن البارتستين ملاحظة مماثلة للسابقة ، وهذا نصها : « لا شىء يثير الحماس فى قلوب صبياننا الزمبزيين أكثر من مادة الحساب . وهذه هى الحال أيضالدى البسوتيين وسكان إفريقية الجنوبية على وجه العموم ، فهم لا يعرفون شيئا يعلو على الأرقام ، وهى عندهم علم العلوم ومعيار التربية الحسنة الذى

---

(١) هو ا. جونود The life of a south African tribe .H,A Junad ص ١٥٢ .

لا ينازع . أتعرف نظام المقاييس والموازين الإنجليزى المعقد البالى الذى لا يزيده قدمه إلا وقارا واحتراما ؟ إن صبيان أقاليم الزمبيزى يهيمون به حبا . وما عليك إلا أن تكلمهم فى الجنيهات والفارذنجات والبنسات والأوقيات والدرخمات حتى ترى أعينهم تلمع من البهجة ووجوهم تضىء من الرضى . ولكنك إذا أعطيتهم مسألة تتطلب قليلا من التفكير المنطقى فى أبسط درجاته ، رأيتهم واجمين كأن سدا منيعا قد انتصب أمامهم ، ثم لا يلبثون أن يقولوا لك : « لقد هزمنا ! » لأنهم يظنون أنهم معفون من كل مجهود عقلى . والواقع أن سكان الزمبيزى لا ينفردون بهذه الظاهرة (١) . » « وإذا أردت أن تعلم أطفال « النمكوا » Nomaquas شيئا عن العدد ، ضاعت كل مجهوداتك سدى . ولكنهم يظهرون تفوقا ملحوظا فى كل ما يعتمـــد على الذاكرة ولا يتطلب تفكيرا أو تعقلا (٢) . » . وكذلك الحال أيضا فى حوض النيجر . « إذ لا يدور فى خلد أى فرد من قبائل المس Mosi أن يسأل عن سبب الأشياء ، وإذا كنا نرى أن أطفالنا لا يفتأون يسألون عن الأشياء التى تقع تحت أبصارهم ، وأنهم كثيرا ما يثقلون علينا بهذه الأسئلة ، فإنك لا تجد أحدا من أفراد « المس » يوجه إليك سؤالا من مثل : لماذا تأتى هذا الأمر أو ذاك ؟ أو : لماذا كان هذا الشىء هكذا ولم يكن على نحو آخر ؟ كما أنهم يكتفون بأول جواب يلقى إليهم .

« وعدم التفكير هذا هو السبب فى تأخر هـــذا الشعب عن ركب الحضارة . . . وهو السبب أيضا فى قلة الأفكار عنده . إذ لا يكاد حديثهم يخرج عن دائرة النساء والطعام والزراعة فى فصل الأمطار . فدائرة أفكار

---

(١) Missions évangéliquès مجلد ٧٦ ج ١ (١٩٠١) ، ص ٤٠٢ — ٤٠٣ — وقارن المرجع نفسه مجلد ٧٧ (١٨٩٧) ، ص ٣٤٦ ، بيجان Bèguin) .

(٢) Berichte derrhirisehe Missons geseltschaft ، ١٨٨٠ ، ص ٣٢٠ (مقال للمبشر شريدر Reiso : schro-der nach der Nagmi See) .

المسيين جد محصورة . ولكنها قابلة للاتساع ، لأنهم يعتبرون من الأذكياء (١) . »

ولنختتم هذا الحديث عن الجماعات الأفريقية بعبارات المبشر و . ه . بنتلى الذى نعرف أنه باحث مدقق ، وقد رأى أن يلخص تجاربه فى هذا المجال فقال: «لا يفكر الإفريقيون ولا يتعقلون ولا يعللون، مادامو ا يستطيعون الاستغناء عن ذلك ؛ ويستوى فى هذه الخاصة الزنوج وأفراد البنتو . وهم مشهورون بقوة الذاكرة ، كما أن الطبيعة قد وهبتهم قوة الملاحظة والقدرة على المحاكاة وسهولة التعبير . هذا إلى أنهم يتحلون بكثير من الصفات الحميدة . وقد يكون الواحد منهم خيرا ، كريما ، محبا ، نزيها ، متفانيا، وفيا ، شجاعا ، صبورا ، مثابرا، ولكن مواهب التعليل والابتكار عنده فى حالة ركود . ومن اليسير عليه أن يدرك الظروف المحيطة به فى اللحظة الراهنة وأن يهيء نفسه لها ويؤدى لها ماتتطلبه ؛ ولكنه يعجز عن وضع خطة جديدة أو القيام باستنباط يستند على الذكاء (٢) » وقد لا يكون من نافلة القول أن نوضح هذا العجز عن التفكير بمثال جلى نستعيره من بنتلى نفسه إذ يقول : «فاجأنا أهل الساحل برغبتهم الملحة فى تعلم القراءة والكتابة . . . وقد ظللنا زمنا طويلا نبحث عن علة لذلك من غير جدوى . وكان من عادة هؤلاء الأهالى أن يحضروا حاصلاتهم إلى الشاطىء لبيعها ، فيذهبون بها إلى مخزن الشراء حيث يقوم أحد العمال بوزنها أو كيلها ثم يكتب لهم شيئا ما على ورقة فيحملون هذه الورقة إلى عامل آخر فى المخزن الذى يحتوى على سلع المبادلة . ويقوم هذا العامل بدفع الثمن إليهم... فاستنبطوا من ذلك أنهم لو عرفوا الكتابة والقراءة لما احتاجوا إلى إحضار حاصلاتهم ، ولكفاهم أن ينقشوا بضع علامات على قصاصة من الورق (كما يفعل العامل الأول) ثم يقدموها إلى مخزن البضائع فيحصلوا على مايريدون . وهذا هو

---

(١) الأب أوجين منجان Les Mossi : Eugène Margin فى مجلة Anthropas مجلد . ا — ١١ ، ص ٣٢٥

(٢) و . هـ . بنتلى Pioneering on the Congo : W.H.Bentley ، ج١ص ٢٥٦

السبب الذى دفع أهل «سان سلفادور» إلى طلب تعلم الكتابة والقراءة .»

وبالطبع لم يكن فى نية هؤلاء الناس أى اتجاه للسرقة . فالإفريقى لا يفكر فى شىء حتى نهايته قط ، اللهم إلا إذا اضطر إلى ذلك اضطرارا . وهذه هى نقطة الضعف التى تسيطر عليهم والسمة التى تميزهم . ولكنهم لا يعرفون شيئا من تجارة البيض التى تختلف عن تجارتهم كل الاختلاف . فظنوا أن الرجل الأبيض إذا احتاج إلى نسيج مثلا ، فتح لفافة ما ، فوجد فيها ما يريد « ونحن نعرف عنهم ذلك من أن جميع السكان فى تلك البلاد يقررون أن النسيج من صنع أموات يقيمون فى قاع البحر . وقد اختلطت هذه الأمور فى أذهانهم بكثير من التصورات الخفية السحرية اختلاطا محيرا ، حتى أصبحت أفكارهم لا تتجاوز المدى الذى تصل إليه بصارهم . ولذلك اعتقدوا أن مجرد تقديم الورقة وعليها شىء من الكتابة يكفى لحمل العامل على تسليمهم النسيج . وإذن فليتعلموا الكتابة على الورق » .(٣)

وقد لاحظ الأستاذ « ولاستون » حديثا هذه الملاحظة نفسها لدى سكان « غنيا الجديدة » فيقول : « كان التجار يطلعون الحمالين قبل أن ينطلقوا بأحمالهم على الشىء الذى سيمنحونه ثمنا لجهدهم ، سواء أكان سكينا أم فأسا أم غير ذلك . وكانوا إذا أوصلوا أحمالهم إلى المكان المعلوم رجعوا عدوا إلى «باريمو» Parimau ومعهم قصاصة من الورق . . . فلما رأى بعض سكان القرية الكسالى أن زملاءهم يتسلمون السكين أو الفأس بمجرد تقديمهم قصاصة الورق لحارس المعسكر فى «باريمو» ظنوا أنهم يستطيعون الحصول على مثل هذا الجزاء دون كد . ولشد ما كانت دهشتهم حينما رأوا أن قصاصات الورق التى قدموها لم تعد عليهم إلا بالملام الشديد (١) .» ولكن حيلتهم هذه كانت تافهة ساذجة بحيث

---

(٣) المرجع نفسه ، ج ١ ، ص ١٥٩ — ١٦٠ .

(١) ا : ر . ولاستون : Pygmies and Papuans ، ص ١٦٤ . وقارن راولنج The Land of the Newguinea Pygmies : Rawling ص ١٦٦ — ٦٧

لا تستحق إثاره الغضب فى نفس أى شخص مهما كان ، بل إنها خالية من كل خبث منزهة عن كل مكر . وقد فهمها الأستاذ «بنتلى» وفسرها جيدا لأنه كان أنضج تجربة من الأستاذ «ولاستون» . فليس هذا التفكير إلا مظهرا من آلاف المظاهر الأخرى التى من نوعه . ولكنه قد يكون أبلغ من غيره فى الدلالة على تلك العادة المتأصلة فى نفوس البدائيين والتى تجعلهم يتوقفون لدى أول إدراك يتلقونه عن الأشياء ويفرون من التحليل كلما وجدوا إلى ذلك سبيلا .

ومن اليسير أن نذكر ملاحظات عديدة من هذا القبيل عن جماعات متأخرة أخرى فى أمريكا الجنوبية واستراليا الخ. فيقول الأستاذ «باركنسون» Parkinson «ليس من الهين أن يتابع المرء أفكار الميلانيزيين وأن يساير تسلسلها . فهم فى غاية التأخر من الناحية العقلية ، وغير أهل للتفكير المنطق فى كل الحالات تقريبا . كما أنهم ينظرون إلى كل مالا يدركونه فورا بوساطة الحواس على أنه من أمور السحر والشعوذة ؛ ولذلك يجدون من العبث أن يقفوا عنده ويفكروا فيه (٢) » .

يبدو من كل ماتقدم أن مجموعة العادات العقلية التى تنفر البدائيين من التفكير التجريدى والتحليلى بمعناه الصحيح تعتبر من الأمور المشتركة بين عدد كبير من الجماعات المتأخرة ، كما تعد من السمات الجوهرية التى تميز العقلية البدائية .

— ٢ —

كيف تأتى للعقلية البدائية أن تصل إلى هذا الحد من العزوف عن الاستدلال والنفور من عمليات الفكر المنطقية ومن التعليل والتفكير ، مع أننا نكاد نعتبر هذه العمليات من الوظائف الطبيعية المستديمة للعقل الإنسانى ؟ الواقع أن ذلك لا يرجع إلى قصور أو عجز أصيل ؛ إذ أن الباحثين الذين وصفوا لنا حالة هذه

---

(٢) ر. باركنسون Dreilsig Jahre in der Suedsee ، ص ٥٦٧.

العقلية يقررون بصراحة أنه «يوجد بين البدائيين عقول مستعدة للتفكير العلمي بقدر استعداد العقول الأوربية له» كما أننا نرى الأطفال الاسترالين والميلانيزيين وغيرهم يتعلمون دروس المبشرين بنفس السهولة التي يتعلم بها أطفال الفرنسيين أو الإنجليز. كذلك لا ترجع هذه الحال إلى خمود عقلي عميق أو شلل يشبه مرض النوم الذي يستعصى على الشفاء، لأن أولئك البدائيين أنفسهم الذين يعدون أقل تفكير تجريدي عبثا لا يطاق ويظهرون عزوفهم التام عنه يبدون في الوقت نفسه ذكاء ودقة وحنكة ومهارة، بل أربا وفطنة نفاذة، إذا حزبهم أمر من الأمور، ولا سيما إذا كان هذا الأمر يتعلق بغاية يودون الوصول إليها بشغف شديد [1]». وهكذا نرى أن هذا الباحث الذي كان يتكلم عن «بلادتهم» منذ برهة لا يلبث أن يشيد بحذقهم ورقة إحساسهم. لذلك لا ينبغي لنا أن نفهم من كلمة «البلادة» معناها الحرفي: أو بالأحرى يجب علينا أن نتساءل من أين تأتيهم هذه البلادة الظاهرية؛ وما الشروط التي تحقق وجودها لديهم؟

رأينا فيما سبق أن المبشرين أنفسهم يقترحون تفسيراً لهذه الحال حين لاحظوا أن البدائيين ينفرون من أبسط العمليات المنطقية، وقرروا أنهم استنبطوا ذلك من أن السكان الذين شاهدوهم لا يفكرون ولا يريدون أن يفكروا إلا في عدد محصور من الأشياء اللازمة لحاجاتهم وحاجات ماشيتهم وصيدهم البري والبحري الخ. والواقع أن العادات التي يكتسبها البدائيون هكذا لا تلبث أن تتمكن من نفوسهم وتصبح من القوة بحيث لا يمكن لشيء آخر غيرها أن يسترعي انتباههم، ولا سيما إذا كان يتسم بالطابع التجريدي. «إنهم لا يصدقون إلا ما يرونه بأبصارهم، كما أن أفكارهم لا تتجاوز المدى الذي تصل إليه حواسهم، وكل ما لا يدركونه في اللحظة الراهنة لا يستطيعون التفكير فيه، وهلم جرا». ولكن ذلك لا يعد حلا للمسألة؛ بل لعلها تزداد

---

(١) «من الأكيد أن سكان غينيا الجديدة يستطيعون استخراج النتائج الضرورية من كل ما يرونه بسرعة فائقة ولا يكاد يخفى عليهم شيء ومما يهمهم شخصيا . . . وقد يدهش من يسمعهم أحيانا لكثرة المعلومات التي لديهم» هـ. نيوتن: In fa. New gwnea ص ٢٠٢

تعقداً إذا صحت الملاحظات التي يوردونها : ونحن نعتقد أنها صحيحة . وذلك لأن أقوال المبشرين لا تشرح لنا السبب في أن البدائيين لا يسعون إلا وراء المصالح المادية البحتة ، ولا تكشف لنا السر في أن قلة المواضيع التي تحيط بها تصوراتهم تؤدي بالضرورة إلى عجزهم عن التفكير ونفورهم من التعليل . إذ أنه كان من المنتظر أن تؤدى هذه القلة إلى عكس الواقع بالفعل : فإن تخصص المرء في عدد محصور من المسائل وتركيز انتباهه فيها دون غيرها من شأنه أن يهيئه باستعداد طبيعى عقلى صحيح لاستيعاب هذه المسائل وتقصيها من جميع وجوهها . وكان ينتظر من الشطر العقلى لهذا الاستعداد أن يؤدى إلى زيادة الحذق وشحذ التفكير والمهارة فى تطبيق أنجع الوسائل للوصول إلى الغاية المنشودة . والحقيقة أن هذا هو الواقع فى غالب الأحيان .

نعم كثيراً ما شكا المبشرون من أن هذا الاستعداد الذى شاهدوه لدى البدائيين كان مصحوباً بانصرافهم الشديد عن الأمور التى لا تربطها علاقة ظاهرة بمصالحهم المباشرة . ولكن مجرد عجزهم عن فهم تعاليم الإنجيل ورفضهم الإنصات إليها لا يكفيان للدلالة على نفورهم من العمليات المنطقية ، ولا سيما إذا عرفنا أن هؤلاء الأشخاص أنفسهم يبدون نشاطاً عظيما إذا فكروا فى الأشياء التى تهمهم أو تتعلق بماشيتهم ونسائهم .

هذا إلى أنه من المجازفة أن نعلل هذا النفور الذى أشرنا إليه بتوفرهم على المدركات الحسية ، ولا سيما إذا كان المبشرون أنفسهم يخبروننا بأن هؤلاء البدائيين من أشد الناس إيماناً ، وأنه من المستحيل أن ننتزع ما فى نفوسهم من إيمان راسخ بعدد لا نهاية له من الأحداث والكائنات الخفية التى يعتقدون أنها حقائق واقعية . فيخبرنا الأستاذ « لفنجستون » Levingstone بأنه كثيراً ما تملكه العجب من إيمان الزنوج الإفريقيين إيماناً جارفاً بأشياء لا تدركها الحواس : كالقوى والأشباح والنفوس والأرواح وغيرها . وقد كشف لنا الباحثون عن وجود هذه الحقائق فى كل مكان تذرعوا فيه بالصبر الطويل ، وفى كل بقعة تغلبوا فيها على تحفظ الأهالى الشديد فى كل ما يمس مقدساتهم .

وليس إيمانهم فى غالب الأحيان من ذلك الإيمان المتقطع غير المتصل ؛ لأنه إذا كان لمؤمنى الأوربيين أيام وأماكن خاصة يخلون فيها إلى رياضتهم الروحية ، فإن البدائى لا يفرق بين عالم الغيب وعالم الشهادة ، ولا بين الواقعي المحسوس وبين ما يختفى وراءه ؛ ولكنه يعيش حقاً مع الأرواح غير المنظورة والقوى غير المحسوسة . بل إن الحقائق الغيبية أكثر واقعية فى نظره عما عداها . هذا إلى أن عقيدته تكشف عن نفسها فى أتفه أفعاله وأهمها على السواء . فكل حياته وسلوكه مشبعان بهذه العقيدة .

فإذا كانت العقلية البدائية تجهل العمليات المنطقية وتفر منها وتتجنب التعليل والتروى ، فإن ذلك لا يرجع إلى عجز البدائى عن تجاوز ما يدركه بالحواس ، كما لا يرجع إلى تعلقه التام بعدد قليل من الأشياء المادية البحتة . وذلك لأن نفس الشواهد التى تثبت لنا اصطباغ العقلية البدائية بهذا الطابع تتيح لنا ، بل تحتم علينا أن نطرح هذه التفسيرات وراء ظهورنا . فيجب علينا أن نبحث عن التفسير الحقيقى فى غير هذا الميدان . ويتحتم علينا لكى نوفق فى بحثنا أن نبدأ بصياغة المسألة فى عبارات تساعد على إيجاد حل منهجى لها .

imp.

لا ينبغى لنا شحذ خيالنا لإحلال أنفسنا محل البدائيين الذين ندرسهم ، فنجعلهم يفكرون كما كنا نفكر نحن لو وجدنا فى مكانهم . فهذا النهج لا يمكن أن يؤدى بنا ، إذا نجحنا فى اتباعه ، إلا إلى فروض شبيهة بالحقيقة ولكنها محشوة بالزيف . لذلك يجب علينا ، على العكس من ذلك ، أن نبذل قصارى جهدنا فى تجنب التأثر بعاداتنا العقلية ، وأن نركز جهودنا فى اكتشاف عادات البدائيين أنفسهم مستعينين بتحليل تصوراتهم الجماعيه والروابط التى تصل بين هذه التصورات .

إذا سلمنا بأن تعقل البدائيين للأشياء يتبع نفس الاتجاه الذى يتبعه تعقلنا لها وأن عقلهم يتأثر بالإدراكات التى يتلقاها من الخارج تأثر عقلنا بها ، فقد سلمنا ضمناً بأنه لابد لهذا العقل أن يفكر فى ظواهر الكون وكائناته ويفسرها على نحو ما يفعل عقلنا تماماً ، ولكننا نلاحظ أنه يفكر ويعلل على غير هذا

النحو . ولذلك ترانا نلجأ فى تفسير هذا الشذوذ الظاهرى إلى عدد ما من الفروض مثل : خمول الذهن البدائى أو ضعفه أو اختلاطه أو بلادته أو انغماسه فى جهالة الطفولة . وهلم جرا . ولكن جميع هذه الفروض لا تكفى لتفسير الوقائع تفسيراً مقنعاً . لذلك يجب علينا أن نصرف نظرنا عن هذه المسلمات الأولية ونتخلى عن الارتباط بأية فكرة سابقة ، وأن نتوفر على الدراسة الموضوعية للعقلية البدائية كما تتجلى فى نظم الجماعات المتأخرة أو فى التصورات الجماعية التى صدرت عنها هذه النظم . ومعنى ذلك أنه لا يجوز لنا أن نفسر بادئ ذى بدء نشاط البدائيين العقلى بأنه صورة بدائية من نشاطنا . وأنه يكاد يكون صبيانياً ومعتلا . بل سوف يبدو لنا ، على العكس من ذلك أنه أمر طبيعى بالنسبة إلى الظروف التى تكتنفه ، وأنه نشاط معقد قد بلغ درجة لا بأس بها من النمو على طريقته . وهكذا تستطيع هذه الطريقة أن تساعدنا على تحديد عمليات هذا النشاط تبعاً لمظاهره فحسب وعلى تجنب إرجاعه إلى طابع ليس له . وبذلك يسلم وصفنا إياه وتحليلنا لعناصره من تشويه معالمه .

الفصل الأول

انصراف العقلية البدائية عن الأسباب الطبيعية
أو (العلل الثانية)

— ١ —

إذا رأى العقل البدائى نفسه أمام شيء يهمه أو يقلقه أو يخيفه ، فإنه لا يسلك تجاهه نفس المسلك الذى يسلكه عقلنا . بل يسير على الفور فى طريق مختلف عن طريقنا . وذلك لأن حسّنا الدائم بوجود الضمان العقلى قد بلغ درجة من الاستقرار لا تجعلنا نتوهم إمكان اختلاله . فإذا فرضنا أن ظاهرة لا نعرفها قد ظهرت أمامنا بصورة مفاجئة وأن أسبابها تخفى علينا فى بادىء الأمر خفاء تاما ، فإن ذلك لا يزلزل اقتناعنا بأن جهلنا بها أمر مؤقت وأن هذه الأسباب موجودة بالفعل ويمكن اكتشافها إن عاجلا وإن آجلا . وهكذا يمكننا أن نجزم بأن الطبيعة قد أصبحت فى الوسط الذى نحيا فيه موضوعا للتأمل منذ البداية ، وأنها نظام وعلة كالعقل الذى يفكر فيها ويجول فى مضمارها . ويشير نشاطنا اليومى فى أتفه تفاصيله إلى ثقتنا التامة فى عدم قابلية القوانين الطبيعية للتفاوت .

أما مسلك العقلية البدائية فيختلف عن ذلك المسلك كل الاختلاف ، لأن الطبيعة التى تعيش فى أحضانها تمثل أمامها فى مظهر مختلف تمام الاختلاف . فجميع الأشياء والكائنات التى تتضمنها متشابكة مختلطة بأمور غيبية . ومن هذا التشابك يتكون بناؤها ونظامها . وهو الذى يبدأ بالظهور أمام انتباه البدائى ويستوقفه . فإذا استرعت اهتمامه إحدى الظواهر ولم يقتصر على إدراكها بطريقة سلبية خالية من رد الفعل ، اتجه ذهنه فورا وبما يشبه أن يكون حركة عقلية عكسية إلى وجود قوة خفية غير مرئية ، وجعل تلك الظاهرة مظهرا من مظاهرها . يقول الأستاذ « نساو » Nassau : « كلما بدا للإفريقى شيء غير

معتاد ، اتجه عقله توا إلى الشعوذة ، أى إلى ماوراء الطبيعة ، لكى يجد له تفسيراً دون أن يبحث عن تفسير له فيما يسميه المتحضرون بالأسباب الطبيعية . والواقع أن عالم ما وراء الطبيعة هذا يعتبر عاملا فعالا دائما فى حياة البدائى . فنراه يلجأ إليه لتفسير كل ما يقع أمامه ، ويعزو إليه من الشرعية والمعقولية ما نعزوه نحن إلى قوى الطبيعة المعترف بها[1] . «كذلك يذكر القس « جون فيلب » بمناسبة كلامه عن خرافات البتشوانيين « أنهم » كانوا قبل أن يتعلموا على أيدى المبشرين ، يحيطون بالإجلال الخرافى كل شىء مجهول لديهم ومحفوف بالأسرار والألغاز (أى كل شىء لا يكفى مجرد إدراكه لتفسير علته) ؛ وذلك لأنهم يجهلون الأسباب الطبيعية ويستبدلون بها تأثيرات غير مرئية » .[2]

وتوحى عقلية أهالى جزائر « سلامون » إلى الأستاذ « تورنفالد » Thurnwald بنفس هذه الفكرة فيقول : « إنهم على خير الفروض لا يتجاوزون مجرد تسجيل الظواهر التى تقع تحت إدراكهم . والأمر الذى ينقصهم على وجه العموم هو البحث عن رابطة السببية العميقة فكل مخاوفهم وخرافاتهم ترجع إلى عدم فهمهم الصلة التى تربط الظواهر بعضها ببعض[3] » .

ينبغى لنا فى هذه الحال ، بل فى جميع الأحوال ، أن نفرق بين الحالة الواقعة التى يعرضها علينا هؤلاء الباحثون وبين التفسير الذى يفسرونها به . وتنحصر هذه الحالة فى أن البدائى سواء أكان إفريقيا أم غير إفريقى ، لا يهتم بالبحث عن الروابط السببية إلا إذا كانت واضحة من تلقاء نفسها ، وأنه يسارع إلى الالتجاء إلى إحدى القوى الخفية . وفى الوقت ذاته يفسر المبشرون هذه الحال فيقولون : إن البدائى يلجأ إلى القوة الخفية ، لأنه يهمل البحث عن

imp.

---

(١) ر . هـ . نساو R.H.Nassau : Fitichism in South Africa ، ص ٢٧٧ .

(٢) القس جون فيليب : John Philip . Researches in South Africa ، ج٢ ، ص ١١٦ — ١١٧ .

(٣) ر . تورنفالد : Im Bismarck Archipal and auf den Saloma Inseln فى مجلد Zeitschrift für Ethnologie ، مجلد ٤٢ ص ١٤٥ .

الأسباب . ولكنهم لايخبروننا لماذا يهمل البحث عن الأسباب . ولعل الأصح أن يعكس الأمر . فاذا كان البدائيون لايحفلون بالبحث عن الروابط السببية ، ويعتبرونها تافهة قليلة الأهمية حين يدركونها أوحين يلفت نظرهم إليها لافت ، فتلك نتيجة طبيعية لهذه الحقيقة المقررة ، وهي أن تصوراتهم الجماعية تتجه فورا إلى فعل القوى الغيبية . ومن ثم كانت الروابط السببية قليلة الجدوى جداً بالنسبة إليهم ، مع أنها تعد في نظرنا هيكل الطبيعة العظمى بذاته وأساس واقعيتها واستقرارها .

يحكي بنتلي الرواية الآتية فيقول : « رأى « هوتيهد » أحد عماله جالسا في مهب ريح باردة في يوم مطير . فسأله أن يدخل بيته ويغير ملابسه . ولكنه أجابه قائلا : لا يمكن أن يموت الإنسان من تأثير ريح باردة ، إذ لا أهمية لذلك مطلقا . بل لا يمرض إنسان أو يموت إلا بسحر ساحر [1] . »

كذلك يسجل لنا أحد المبشرين في غينيا الجديدة مثل هذه العبارات فيقول : « أقبل على رجل بدائي وهو يفرق من الخوف ، وكان قد أصابه برد وأهمل علاجه إهمالا تاما : إذ أن هؤلاء البدائيين لا يفكرون مطلقا في أسباب مرضهم ، بل يعزون كل مايسبب لهم ألما إلى « أتوا » Atua (وهي الروح) . ولذلك أخبرني الرجل الذي أتحدث عنه بأن « أتوا » حالة في جسمه وأنها دائبة على التهامه [2] .

فالعقلية التي تتجه هذه الوجهة والتي لا تعول إلا على الروابط الغيبية لا تعتبر ما نسميه نحن سببا وعلة لما يحدث إلا مناسبة له على أحسن تقدير ، أو بتعبير أصح لا تعده إلا آلة في يد القوى الخفية . ولا شك أنه يمكن المناسبة أن تتغير والآلة أن تستبدل بغيرها ، دون أن يمنع ذلك من وقوع الحادثة . إذ يكفي لوقوعها أن تتمكن القوة الخفية من القيام بعملها وألا تقف في طريقها قوة عليا من نوعها .

---

(١) و . هـ . بنتلي : Pioneering on the Congo ، جـ ، ٢٤٧ .

(٢) Missionary Register ، أغسطس ١٨١٧ ، وقد أخذنا النص من دومون دورفيل Dumont d'Urville : Voyage de l'Astrolabe جـ ٣ ص ٢٣٤

— ٢ —

لنختر مثلا من آلاف الأمثلة العديدة التي يعرضها علينا الباحثون : تعمد الجماعات البدائية كلها إلى تفسير الموت بغير الأسباب الطبيعية . فإذا رأى أحدهم شخصا يموت ، بدا له هذا الحادث وكأنه يقع للمرة الأولى وأنه لم يشاهد مثله من قبل . وهنا يتساءل الأوربي قائلا : هل من المعقول ألا يعرف هؤلاء الناس أن كل حي مصيره إلى الموت إن عاجلا وإن آجلا ؟ والواقع أن البدائي لا ينظر إلى الأشياء من هذه الزاوية قط . فهو يعتقد أن الأسباب التي تؤدي بالضرورة إلى موت كل شخص بعد عيشه عددا ما من السنين مثل ضعف الشيخوخة وبلى الأعضاء وتخاذلها عن أداء وظيفتها ليست مرتبطة بالموت ارتباطا ضروريا . أليس يرى أمامه شيوخا خائري القوى يستمرون على قيد الحياة ؟ ولذلك إذا حدث الموت أرجعه إلى فعل قوة غيبية . هذا إلى أنه يعتقد أن ضعف الشيخوخة نفسه لا يرجع إلى ما نسميه نحن بالأسباب الطبيعية ، بل أيضاً إلى فعل القوى الخفية كجميع الأمراض الأخرى والخلاصة أنه إذا كان البدائي لا يعير أسباب الموت الطبيعية أي التفات ، فذلك لأنه يعرف سببه مقداما ؛ ومادام يعرف لماذا حدث فلا يهمه بعد ذلك أن يعرف كيف حدث ، فنحن هنا أمام مبدأ سابق التقرير ليس للتجارب عليه أي سلطان .

وهكذا نستطيع أن نرى في كثير من الأمثلة الواردة عن بعض الجماعات البدائية التي لا تزال بمنأى عن تأثير البيض في استراليا (فكتوريا) « أن الأهالي يعزون الموت دائما إلى فعل الإنسان . فإذا مات عندهم شاب أو شيخ اعتقدوا أن عدوا قد فتح جنبه ليلا وانتزع دهن كليتيه . ولا يمكن إقناع أحد منهم ، مهما كان ذكاؤه ، بأن الموت ينتج عن أسباب طبيعية[1] . » نعم إن الاسترالي لا يرى في جسم المريض ولا في جثة الميت أثرا لهذه الفتحة المزعومة ، ولكن

---

(١) الدكتور و . ا . روث W.E. Fath Superstition, magic & medicine; في مجلة : North (Quee nsland)Ethnography ، مجلد ١٢١ ، ص ٣٠

ذلك لايكفى لمجرد تشكيكه فى حدوثها ، إذ أن الموت نفسه يعتبر فى نظره أصدق برهان على ذلك . وإلا فهل يمكن أن يموت شخص من الأشخاص دون أن ينتزع أحد أعدائه دهن كليتيه ؟ ولكن لا ينبغى أن نتخذ من هذا الإعتقاد دليلا على أن البدائى يؤمن بأن دهن الكليتين يقوم بدور فسيولوجى فى الجسم ، إذ أن الأمر فى نظره لايتعلق إلا بفعل غيبى يتم بمجرد وجود العضو الذى يقوم به فى الظاهر .

كذلك يورد الأستاذ « و.ا. روث » رواية من هذا القبيل عن « توماس بترى» Thomas Petrie فيقول : «كان الأهالى فى السنين الأولى من الاستعمار الأوربى لإقليم « برسبان » Brisbane يعزون الأمراض والآلام وضروب الانحراف الصحى كلها تقريبا إلى بلورة من الكوارتس يملكها مطبب ما (« تروان » Turiwan) . وكانوا يعتقدون أن هذه البلورة تسبغ على من يستحوذ عليها قوة فوق طبيعية . فتعمل روح « التروان » على إدخالها فى جسم الضحية وحينئذ لا يستطيع الشفاء إلا إذا قام مطبب آخر باستخراجها منه عن طريق المص . وهكذا يمكن المطبب أن يمرض أى شخص وهو بعيد عنه ، وبالتالى يستطيع القضاء عليه [1] » وفى المنطقة المسماة « بالبرنسيس شارلوت بى » Princess Charlote Bay » يعزو الأهالى جميع الأمراض الهامة كالملاريا والزهرى إلى تأثير طلسم معين يتكون من قطعة مدببة من عظم ساق آدمية ومثبتة بوساطة الشمع على رمح من اليراع . وهم يعتقدون أن الساحر إذا أراد القضاء على شخص ماقذف بالرمح فى إتجاهه فتبقى اليراعة فى يده ، أما قطعة العظم فتخترق الفضاء لتستقر فى جسم الضحية ، ومن شأن الجرح الذى ينجم من ذلك أن يلتئم فورا دون أن يترك ندوبا ، ولكنه يسبب المرض [2] . »

وإذا مات عندهم شخص عزوا موته على وجه العموم إلى أن ساحرا

---

(١) المرجع نفسه ، عدد ١٣٨ (٢) المرجع نفسه عدد ١٤٧

قد حكم عليه بالموت . « يستطيع الشخص المقصود أن ينطلق كعادته إلى رحلة صيد . . . وفجأة يشعر بشيء ما فى قدمه أو ساقه . ويرى حية تنهش جسمه . ومن الغريب أن هذا النوع من الحيات يختفى على الفور . ويدل هذا الاختفاء السريع على أن الشخص الذى لدغته الأفعى قد وقع تحت تأثير سحر عدو وأنه لامفر من موته . والواقع أنه لايقوم بأية محاولة للعلاج ، بل يستولى عليه اليأس ويضطجع فى إنتظار الموت [1] » .

وهكذا يمكن الحكم على شخص ما بالموت عن طريق الصاعقة أو السقوط من فوق شجرة أو الجرح من شوكة تدخل فى قدمه أو العدوى بمرض منفر أو طعنة رمح ، الخ . ولكن لاينبغى اتهام الرمح أو الحية أو الصاعقة بالنتائج التى نجمت عنها ، لأن كل هذه الأشياء لا تفعل فى الحقيقة أكثر من تنفيذ الحكم الصادر . ويمكن أن يقوم بهذا الحكم أناس أحياء بمساعدة أرواح الموتى أو بدون مساعدتها .. . وليس هؤلاء الأعداء إلا بعض الموتى أو الأرواح الطبيعية . . »

كذلك يقول الأستاذان سبنسر وجلن Spencer Gillen : « يعزو الأهالى الأمراض التى تعتريهم بجميع أنواعها ودرجاتها إلى تأثير خبيث يقوم به عدو فى صورة شخص أو روح [2] . » ويقول «هويت» Howitt « قد يتصورون إمكان وقوع الموت بحادث عارض ، ولكنهم فى أغلب الأحيان يعزون نتيجة ما نسميه نحن بالحادث العارض إلى تأثير سحر شرير . وهم يعرفون الموت الدامى حق المعرفة ، ولكنهم ينكرون وقوعه حتى لو كانوا من بين شهوده . فمثلا إذا قتل محارب من أفراد القبائل القريبة من ماريبرا Maryborough (فى كويزلند) فى احدى مبارزاتهم الطقسية ، اعترفوا بأن موته يرجع إلى فقدانه المهارة فى صد رماح العدو ، ولكنهم يعتقدون فى الوقت نفسه أن فقدان المهارة هذا يرجع إلى سحر

---

(١) المرجع نفسه ، الأعداد ١١٣ — ١١٥

(٢) سبنسر وجلن The Native tribes of Central Australia ، ص ٥٣٠

ضار قام به بعض أفراد قبيلته . ولكني أشك فى أن يكون الأهالى فى أى مكان من استراليا قد تصوروا فى ظروفهم الأولى إمكان الموت بمجرد المرض وعلى كل حال لم يحدث ذلك قط بين قبائل «الكورناى» على وجه التأكيد . »[1] « إذا قتل شخص فى معركة أو مات متأثرا بجراحه اعتقد الأهالى أنه قد سحر[2] » . « ليس لدى قبائل «النارنييرى» Narrinyeriy دواء يعالجون به عضة الأفعى السامة مع أنهم معرضون لها فى كل وقت . وذلك لأن خرافاتهم توهمهم بأنها لا تحدث إلا نتيجة لسحر شرير[3] »

وليس هذا الاتجاه العقلى مقصورا على القبائل الاسترالية : إذ أننا نعثر عليه فى صورة جد متشابهة لدى الجماعات المنحطة كلها مهما بلغ تباعدها فى المكان . وإذا كان فى هذه التصورات الجماعية بعض الاختلاف فإنه يرجع إلى القوى الخفية التى يعزون إليها المرض أو الموت الناجمين . فتارة يعزونهما الى أحد السحرة ، وتارة إلى روح أحد الأموات ، وتارة إلى قوى محددة أو مشخصة إلى حد ما . وقد تكون تصوراتهم مفرطة فى الإبهام وقد تنزع إلى تأليه بعض الأمراض كالجدرى تأليها تاما . ولكن ما فيها من الارتباط الخرافى الذى يجمع بين المرض أو الموت من جهة وبين القوى غير المرئية من جهة أخرى يظل متشابها أو ثابتاً لا يتغير . وبذلك يستوى البدائيون جميعا فى عدم اهتمامهم بالأسباب الطبيعية ، حتى لو كانت ظاهرة ظهور الشمس فى وضح النهار . وسأقدم على هذا النوع من التفكير بعض الأمثلة الهامة .

يقول الأستاذ «تشالمرز» : «لا يعتقد الأهالى مطلقا أن أمراضهم ترجع إلى

---

(١) ا. و. هويت The native tribes of South Australia : A.W. Howitt Aborgines ص ٤٩

(٢) ا. ماير Encounter Baytribes in Wood . The native : A. Meyer Races of Southe Australia

(٣) ج تاپلن ، G. Taplin
Manners, customs etc. , of the South Australians Abori gines :

أسباب أخرى غير الأسباب الروحية ، أو أن الموت (فى غير حالة القتل) يرجع إلى شيء آخر غير غضب الأرواح . وإذا ظهر المرض فى أسرة ، راح أهلها يتساءلون عن المعنى الذى يكمن وراءه . وإذا لم تتحسن حالة المريض أستنتجوا أنه لابد من القيام ببعض الإجراءات . فيعدون الهدايا ويحملون الطعام الى المكان المقدس ، ولكنهم لا يلبثون أن يستردوه ويوزعوه على الأصدقاء . واذا أصر المرض بعد ذلك على البقاء ، أحضروا خنزيرا وساقوه إلى المكان المقدس وصرعوه بضربة رمح ، ثم قدموه قربانا للأرواح [١] . » وكذلك الحال فى غنيا الجديدة الألمانية ، حيث تعتقد قبائل «الكاى» أنه لا يمكن أن يموت أحد موتا طبيعيا . . [٢] »

ويعتقد «الاروكوانيون» Arukuans أن الموت بجميع أنواعه ـ ماعدا الموت فى ساحة القتال ـ ينتج من أسباب خفية أو سحرية . وإذا مات شخص نتيجة حادث عنيف ، اعتقدوا أن «الهويكوفوس» huecuvus أو الأرواح الخبيثة هى التى سببت الحادث ، أى أنها هى التى أجفلت الحصان واقتلعت راكبه من فوق ظهره ، أو انتزعت الحجر الذى سقط على أحد المارة الأبرياء فسحقه ، أو أعمت أحد الأشخاص مؤقتا حتى تردى فى هوة عميقة ، وهلم جرا . واذا مات شخص بالمرض ، اعتقدوا أنه راح ضحية السحر وتجرع السم [٣] » ويقرر الأستاذ «جروب» وجود هـــذا الاعتقاد نفسه لدى سكان « الشاكو » ، فيقول : «يفترضون دائما أن الموت نتيجة مباشرة لتأثير « الكيليخانا » Kilyikhana (الأرواح) ، وهى تفعل ذلك لأحد أمرين : إما لرغبتها فى فعل الشر وإما لأن

---

(١) القس ج . تشالمرز Pioneering in New Giunea : Chalmers ص ٣٢٩ ـ ٣٣٠ .

(٢) ر . نويهوس Deutsch New Giurea : R. Neuhaux ، حـ ٣ ، ص ١٤٠ .
وانظر هذا المرجع نفسه حـ٣ ، ص ٤٦٦ وما يليها

(٣) ر . ا . لتشام ، Ethnology of Arancanos : R. E. Lateham فى مجلة journal of the Anthropalogical Iustitute of the Great Britain (منذ الآن سنرمز لهذه المجلة بالحروف (J. A. I.) مجلد ٣٩ ، ص ٣٦٤

أحد السحرة قد أثارها [١] . » ويورد «دبريشهوفر» هذه الملاحظة نفسها عن قبائل «الأبيبون» Abipones [٢] ويبدو أن هذه المعتقدات توجد لدى جميع الجماعات المتأخرة التى تسكن الأمريكتين . ونجد فى إفريقية الجنوبية الجواب الصحيح للسؤال الذى وجهناه لأنفسنا عند الكلام عن القبائل الاسترالية : «يظن الأهالى أن الساحر فى قدرته أن يسلم أى صياد إلى جاموس أو فيل أو حيوان آخر ليفتك به، كما يعتقدون أن الساحر يستطيع أن يعهد إلى هذا الحيوان باهلاك من يشاء . لذلك إذا قتل شخص فى أثناء الصيد، قال أصدقاؤه : هذا من عمل الأعداء، لقد «أسلموه» إلى الحيوان المفترس [٣] .

ويعبر بنتلى عن الفكرة نفسها بدقة فائقة إذ يقول : «لا يعتبر أهـــل الكنغو الأصليون أن المرض والموت من الحوادث الطبيعة، ولا يرجعونهما إلى أسبابهما بأية حال، بل إلى فعل السحرة دون سواه . وحتى لو كان الموت ناشئا عن الحرب أو الغرق أو السقوط من فوق شجرة عالية أو انقضاض صاعقة أو اعتـــداء حيوان ضار ، فإنهم يعزونه إلى تأثير السحر . وهم يتمسكون بهذه العقيدة فى إصرار عجيب وبعد تام عن المنطق . فعندهم أن الميت لا يموت إلا إذا وقع ضحية لسحر ساحر، ولذلك يعدون هذا الساحر هو الجانى الحقيقى [٤] . »

وقد لاحظ «دابر» Daper منذ القرن السابع عشر وجود هذه المعتقدات نفسها فى «لوانجو» Loanga فيقول : «يعتقد هؤلاء الجهلة المساكين أنه

---

(١) و . ب . جروب W.B. Grubb : An Unkown people in an Unknown Land ص ١٤١

(٢) م . د . دبرستهوفر M. D. Ddtziyhoffer
حـ ٢، ص ٨٢ — ٦٤ : An account of the Abipones

(٣) ج. ماكنزى j. Mackenzi : Ten years of Orange River (١٨٧١) ص ٣٩٠ — ٣٩١ .

(٤) و . هـ . بنتلى : Pioneering on the Congo، حـ ١، ص ٢٦٣ .

لا يمكن أن يصاب أحد بحادث مشؤوم ، إلا إذا كانت المركيزيات marquisies (أى أصنام العدو) قد سببت وقوعه له . فإذا سقط شخص فى الماء وغرق ، قالوا إنه قد سحر ؛ وإذا افترسه ذئب أو نمر زعموا أن العدو هو الذى تحول إلى هذا الحيوان أو ذاك بفضل ضروب السحر التى يستحوذ عليها ؛ وإذا سقط شخص من أعلى شجرة أو احترق منزله ؛ أو إذا استمر هطول الأمطار زمنا أطول من المعتاد ، لم يكن لذلك فى نظرهم إلا مصدر واحد ، وهو « المركيزيات » التى أغراها شخص شرير بهذا العمل . ومن العبث أن نحاول إخراج هذه الخرافات الجنونية من رؤوسهم : فكل من يحاول ذلك معهم لا يبوء منهم إلا بالسخرية والاحتقار [١] . »

وفى سير اليون ، لا يعتقد الأهالى فى وجود موت طبيعى أو عرضى . فهم يرجعون الموت أو العارض الذى سببا الموت إلى تأثير فوق طبيعى ، ويعزونه تارة إلى فعل شخص يمارس السحر وتارة أخرى الى الروح الموكلة بشخص سبق للمتوفى أن مارس السحر ضده ، ويستدلون على ذلك بحدوث الوفاة نفسها ، ويزعمون أن الروح قد انتقمت لصاحبها بمجرد اكتشافها ما فعله به المتوفى . ومن المعتاد أن يرجعوا إلى السبب الأول ما قد يحل بالرؤساء والشخصيات البارزة وأقربائهم من مرض أو موت ، وأن يرجعوا موت الطبقات الدنيا إلى السبب الثانى [٢] . »

وأخيرا تعتقد قبائل « الدشجا » Dschagga فى إفريقية الشرقية الألمانية ، أنه لا يوجد موت طبيعى . ويعزون المرض والموت فى جميع أحوالها

---

(١) ا . دابر : O. Daper : Description de l'Afrique (١٦٨٦) ، ص ٣٢٥

(٢) ث . ونتربتم: Th. Winterbottom: An account of the Native Africans in the neighbourhood of Sierra - Leone جـ ١ ، ص ٢٣٥ — ٢٣٦ .

إلى بعض الأعمال الشيطانية [١] » . ونكتفى بهذا القدر من الشواهد لكى نتجنب الإطالة [٢] .

— ٣ —

لا يوجد فرق محسوس بين الموت والمرض من جهـة وبين مجرد الحوادث العارضة من جهة أخرى . وقد رأينا من الأمثلة السابقة أن البدائيين لا يفرقون على وجه العموم بين الموت الناجم عن الشيخوخة أو المرض وبين الموت العنيف . وليس معنى ذلك — كما يقول بنتلى — أن بعدهم عن التعقل يمنعهم من أن يلاحظوا أن الشخص فى الحالة الأولى يموت ببطء بين ذويه ، وأنه فى الحالة الثانية يموت فجأة من افتراس أسد أو طعنة رمح مثلا . فالواقع أن هذا الفرق عديم الأهمية فى نظرهم ؛ إذ أن المرض وافتراس الأسد وطعنة الرمح ليست أسباب الموت الحقيقية ، ولكنها مجرد آلات فى يد القوة الخفية التى سببت هذا الموت والتى كان فى إمكانها أن تختار آلات أخرى للوصول إلى غايتها . وبذلك يمكننا أن نذهب إلى أن البدائيين يدخلون فى باب الموت العرضى كل أنواع الموت ، حتى الموت بالمرض ، أو أنهم على الأصح ينفون وجود الموت العرضى . وذلك لأن الحادث العارض بمعناه الحقيقى لا وجود له فى نظر العقلية البدائية . أما مايسميه الأوربيون بالحادث العرضى ، فليس إلا مظهرا لإحدى القوى الغيبية قد يصيب الفرد والهيئة الاجتماعية على السواء . فهذه العقلية على وجه العموم لا تؤمن بشىء اسمه المصادفة . وليس معنى ذلك أنها تؤمن بجبرية الظواهر الصارمة ، بل إنها على العكس من ذلك لا تعرف أية فكرة عن هذه الجبرية ، ولذلك لا تهتم

---

(١) فيدنمان Widenmann : Die Kilimandscharo Bevlkering ، فى : Petermanns Mitteilungen ، الكراسة التكميلية ، رقم ١٢٩ (١٨٨٩) ، ص ٤٠ .

(٢) انظر Les fonctions mentales dans les sociéiés primitives للمؤلف ، ص ٣١٤ — ٣٢٨

بالارتباط السببي وتعزو كل حادثة تصادفها إلى أصل غيبي . ولما كان البدائي يحس أن القوى الخفية ماثلة أمامه دائما ، فإنه يرى القصد والتدبير في كل ما يقع في محيطه ، في حين أن الأوربي قد لا يرى فيه إلا أمرا اعتباطيا بحتا . وذلك لأن البدائي لا يحتاج إلى تفسير الحادثة : فهي التي تفسر نفسها بنفسها لأنها ليست الا نوعا من الوحي . بل كثيرا ما يطلب من الحادثة أن تفسر له شيئا آخر غيرها ، تفسيرا يتفق بطبيعة الحال مع فهمه لمعنى التفسير . ولكنه قد يضطر الى تفسيرها ، هي نفسها ، اذا لم يكن لديه ارتباط زائف يزودها بتفسير معين .

يروى الأستاذ « و . ا . روث » أن سكان اقليم « تلي رفر » Tully rever اعتزموا ذات مرة أن يقتلوا شخصا معينا من سكان « كلمپ پونيت » Clump Point . ويرجع السبب في ذلك الى أن هذا الشخص كان قد قذف برمح في أعلى شجرة ؛ ثم سقط منها هذا الرمح على عنق شيخ فقتله . وتصادف أن المسكين الذى قذف بالرمح كان « مطببا » ، فاتخذ أقارب القتيل من ذلك برهانا جازما على أن موت قريبهم يرجع إلى سحر خبيث قام به هذا المطبب . وكان بجانبي في تلك اللحظة الأستاذ « ا . بروك » E. Brooke المبشر . فبذل كل ما في وسعه لإقناعهم بأن هذا الأمر لا يعدو أن يكون حادثا عرضيا ، ولكن دون جدوى . فاصطفت الصفوف وبدأت المعركة بين أولئك المتوحشين الثائرين واستمر القتال إلى أن أصيب المطبب بجرح (غير مميت) في ركبته [1] . » والواقع أنه كان من العسير ، بل من المستحيل عمليا أن ينصت الأهالي إلى صوت العقل في تلك الحادثة النوعية . إذ أنهم يعتقدون أنه يجب عليهم أولا وقبل كل شيء أن يرضوا الفقيد الذى لا يمكنهم أن يتقوا شره إلا بالانتقام له . ولذلك كانوا يرون أنفسهم مضطرين ، على أية حال ، أن يعدموا شخصا ما . ومن الأفضل بطبيعة الحال أن يكون هذا

---

(١) ا . ب . روث : North Queensland Ethnography ، مجلد ٤ ، ص ٤ عدد ١٦ .

الشخص هو فاعل الحادثة ، سواء أكان قد فعلها عامدا أم غير عامد ؛ إذ لا أهمية لذلك فى نظرهم . هذا إلى أنه كان من المستحيل إقناعهم بعرضية الحادث ، لأنهم فى هذه الحال لم يكونوا ليعدموا أن يتساءلوا قائلين : لماذا وقع الرمح بعد أن ارتد من فوق الشجرة على عنق هذا الشيخ بالضبط ولم يقع أمامه أو خلفه ؟ وكيف يكون هذا الرمح مملوكا لرجل طب بالذات ؟ أما البرهان على عدم القصد لدى القاتل ، فلا يمكن أن يقوم إلا على التخمين والتخمين لا يستطيع التغلب على الحقيقة الواقعة . هذا فضلا عن أن القصد قد يكون موجودا لدى الفاعل على غير علم منه ، إذ ليس من الضرورى أن يكون السحرة على بينة من الفعل القاتل الذى يمارسونه . ولذلك قد يكون القاتل حسن النية حين ينكر قصده إلى الإيذاء ، ولكن لا قيمة لهذا الإنكار فى نظر الأهالى .

وحدث فى غنيا الجديدة أن أصيب أحد الأشخاص فى أثناء العيد بجرح من رمح قذف به أحد أصحابه عن غير قصد ، وحينئذ أقبل أصدقاء الجريح وسألوه أن يفضى إليهم باسم الشخص الذى سحره . « البابو » لا يعتقدون فى وجود الحادث العارض . فألح عليه الجميع أن يخبرهم باسم الساحر لوثوقهم أن الجرح وحده لا يمكن أن يؤدى إلى الموت وأن الجريح سيموت بالرغم من ذلك . ولذلك لم يكفوا عن إخباره بأنه سيموت ... ومع أنه لم يفقد الوعى إلا فى نهاية الأمر ، فإنه لم يجب على أسئلتهم ولم يبح باسم الشخص الذى سحره . ولذلك علا مرجل غضبهم ضد سكانه « أوريبسو » وضد الرجل الذى قذف الرمح[1] » وهكذا نرى هؤلاء الرجال لا يحملون على الرجل الذى تسبب فى القتل إلا آخر الأمر وبعد يأسهم من الوصول إلى الحقيقة ، ولم يفعلوا ذلك إلا على أنه آخر إجراء أمكنهم الالتجاء إليه . ولو أن الجريح قد أدلى بأقل إشارة عن مرتكب السحر ، لظل من قذف بالرمح نفسه سليما

(١) ا.ك تشجنل An Out past in Papua : A.C. Chignal ، ص ٣٤٣–٣٤٥.

معانى : لأنهم يعتبرونه فى هذه الحال مجرد آلة فى يد الساحر وأن مسئوليته لا تزيد عن مسئولية الرمح نفسه .

وقد رأينا من جهة أخرى أن تفاهة الجرح لم تمنعهم من التصريح لصاحبه بأنه سيموت حتما . فهم لا يعتقدون أن تمزق الأنسجة الناجم عن طعنة الرمح هو الذى يقضى على الجريح ، بل يرون أن السحر هو الذى يقضى عليه لأن الساحر قد « حكم عليه » بذلك (يعبر الاستراليون عن هذه الفكرة بكلمة droming » . وهنا ندرك تمام الإدراك معنى الارتباط الزائف ، الذى يجعل فكرة الاعتباط نفسها مستحيلة التصور فى نظر العقلية البدائية .

وفى غينا الجديدة أيضاً ، إذا سقطت شجرة اعتقد الأهالى أن أحد السحرة هو الذى أسقطها ، حتى لو كانت منخورة آيلة للسقوط أو قصمتها ريح عاتية . وإذا أصيب أحدهم فى حادث عرضى اعتقدوا أنه من تدبير « الفيرابانا Verabana الخ (١)

ونجد ملاحظات كثيرة من هذا القبيل تروى عن جماعات متأخرة كجماعات إفريقية الإستوائية . وحدث فى سنة ١٨٧٦ أن هاجم ثائر أحد الرؤساء ، واسمه « أكيله كاسا » Akele Kasa ، فحمله الفيل وانفذ فيه أنيابه حتى جاء أصحابه وخلصوه منه بعد أن أصابه بجرح بليغ ، ولكن رغم ذلك لم يمت من فوره وبقى فترة من الزمن استطاع فيها أن يتهم اثنتى عشرة نسمة من بين زوجاته ورقيقه بأنهم سحروا بندقيته ، فجعلوها تجرح الفيل دون أن تقتله (٢) » . « خرجوا فى رحلة لصيد الفيلة ، فهاجمت فيلة جريح رئيساً اسمه « نكوبا » Nkoba ولفت حوله خرطومها ثم رفعته من فوق الأرض وانفذت فيه انيابها ... وراح اصحابه يصيحون بأعلى اصواتهم ... واخيرا اجتمع سكان الاقليم حول « النجانجانكيسى » nagangankissi ليخبرهم إذا كانت الفيلة قد

---

(١) القس برملو Bromillo ، وقد اقتبس ذلك عنه ج . برون G. Brown فى كتابه Melonesians & Polynesians ، ٢٣٥

(٢) و . هـ . نساو : Fitichism in west Africa ، ص ٣٦ .

أصابها مس من الشيطان أم أن الحادث يرجع إلى سحر وجهه إلى الرئيس أحد اعدائه أو إلى الروح الكبيره « يامبودى نزامبي » iambudinzambi [1] .

لا شك أن صفة القيل فى هاتين الحالتين تتطلب الانتقام له ، ولا سيما أنها تعتبر قرينة قوية على وجود تأثير سحرى ضار . وإلا فلماذا أخطأت بندقية الرئيس . فى الحالة الأولى لو لم تكن قد وقعت تحت تأثير سحر ؟ كذلك لم تكن الفيلة فى الحالة الثانية لتنجح فى قتل الرئيس لو لم يسلم إليها شخص ما . وهكذا كلما عظمت المصيبة وزادت قدسية الشخص المصاب كان من المستبعد إرجاعها إلى حادث عرضى .

بل إن عقل الأهالى لا يستطيع أن يتصور هذا الغرض مجرد تصور . ومما يدل على ذلك « أن ستة أشخاص كانوا يعبرون نهر الكنغو فى زروق مملوك لبعض قبائل « الفيفى » Vivi وبينما كان الزروق يدور حول المنعرج الذى بنيت عنده فيما بعد محطتنا المسماه « أندرهل » Underhill ؛ أحدقت به الأنواء وامتلأ بالماء وغرق ... فقرر الأهالى أن السحر الذى أدى إلى هذه الحادثة المروعة يتجاوز السحر المعتاد ، وأنه يجب أن يقابل بإجراءات تتناسب مع فظاعته ، وصمموا على إعدام ثلاثة من السحرة فى مقابلة كل فرد من الغرقى . وهكذا أدت الحادثة التى غرق فيها ستة أشخاص إلى قتل ثمانية عشر شخصاً .

« وهذه هى وسيلة الأهالى فى الانتقام لموت الشخصيات البارزة ولضروب الموت التى تحدث فى ظروف غير عادية [2] » .

« ودخل رجل احدى القرى ووضع بندقية على الأرض . فخرجت منها قذيفة وأصابت شخصا فأردته قتلا . وكانت البندقية تساوى عدة عبيد ، وليس من النادر أن يتمسك صاحبها بالاحتفاظ بها تمسكه بأحد اخوته . ولكن أسرة القتيل استولت عليها . والغالب أنه اذا كان الشخص الذى يتسبب

---

(١) هـ . وارد : Fi.e years with the Congo cannibals ، ص ٤٣

(٢) و . هـ . بنتلى : Pioneering on the Congo ، حـ ١ ، ص ٤١١ .

خطأ فى قتل أحد الأفراد لا يملك بندقية ، قيدوه وسجنوه كما لو كان عامدا . وقد تعدل السلطات الأهلية فى بعض الأحيان عن احتجاز مثل هذا الشخص أو الاستيلاء على بندقيته . ولكنها فى هذه الحال تطلب إلى أحد المشعوذين أن يخبرها باسم الشخص الذى كان السبب الحقيقى فى وقوع القتل لتلقى على عاتقه بالمسئولية كلها . وهم يشبهونه بالصائد الذى يصيب الوغل أول إصابة ، فإنه يصبح صاحب الحق فيه ؛ ولو كان غيره هو الذى أرداه قتيلا ، لأن هذا الأخير لم يفعل غير أنه عثر على ثمرة مجهود الصائد الأول . وكذلك الحال بالنسبة لمن يرتكب القتل عن طريق الخطأ ؛ فإنه لم يفعل غير الإجهاز على القتيل الذى سبق للساحر أن حكم عليه وقتله . ولذلك لا يعتبر سبب الموت بل مناسبته فحسب ويرى بعضهم أنه يجب على القاتل أن يدفع التعويض مهما أكد براءته واحتج فإنه كان هو الآخر ضحية لأحد السحرة . وقد حضرت ذات مرة محاكمة رجلين كانا قد أحدثا بعض الشغب وهما فى حالة سكر . فاستدعت المحكمة الشخص الذى باعهما الجعة التى شرباها . وجاء الرجل يرتعد من الوجل مخافة أن يتهم بأنه سحر الجعة ؛ بل لقد كانت إجاباته تنم عن إحساسه بخوف أعمق من ذلك ؛ فمن يدرى إذا لم يكن هو وجعته قد وقعا ضحية لأحد السحرة وأصبحا آلتين فى يده؟ (١) .

من الواضح أن القول بالحادث العرضى آخر ما يخطر لعقلية من هذا القبيل ، بل لعل الأحرى أن نقول بأنها لا تستطيع تصوره مجرد تصور وأنها ترفضه رفضاً باتاً إذا عرض عليها . وذلك لأن أصحابها يعتقدون اعتقاداً جازماً أن ما نسميه نحن « بالحادث العرضى » يرجع إلى سبب غيبى ، وأن من مصلحتهم أن يحاولوا الكشف عن هذا السبب إذا لم ينكشف هو من تلقاء نفسه بصورة فورية .

« أراد الرئيس « كانيمه » Kanime من قبائل « الأوفمبو » Ovambo (إفريقية الغربية الألمانية) أن يروض ثوراً على أعمال الحقول ، وكلفه

(١) ألفس مكدونالد : Africana حـ ١ ، ص ١٧٢ — ١٧٣ .

بعض رجاله بثقب منخريه ، فبينما هم منكبون على العمل ثار الثور وفقأ عين أحدهم بضربة من قرنه . فقرروا من فورهم أن هـذا الرجل مسحور ، وذهبوا إلى الساحر ليدلهم على الشخص الذى قام بهـذا السحر . فأجابهم بأنه خادم من خدم الرئيس «كانيمه» ولم يكد الخادم المسكين يسمع بالنبأ وبالحكم عليه بالإعـدام حتى لاذ بالفرار ولكن «كانيمه» ركب حصانه واقتفى أثره حتى ظفر به وقتله(١) » . وفى السنة التالية « خرج أحد جيرانى فى صباح يوم صحو لصيد الضفدع الذى يغرم هؤلاء الأهالى بأكله . وكان الرجـل فى حالة مرح ونشاط ظاهرين . ولكنه لم يكد يقذف رمحه حتى أصاب ذراعه فأحدث به جرحاً عميقاً . وراح الدم ينزف منـه بغزارة حتى انتهى به الأمر إلى الموت . ولم يمض على موته ثلاثة أيام حتى بدأ السحرة يقومون بعملياتهم للبحث عن الشخص الذى سحره . ولما أظهرت لهم معارضتى أجابونى بقولهم : «إذا لم نكتشف «الأومولودى» Omulodi لنقتله ، عرضنا أنفسنا جميعاً للموت» . وتدخل الرئيس بناء على رجاء المبشرين ، ولكنه انتهز فرصة غيابهم وترك الجانى يلاقى مصيره(٢) » . ويرى أفراد القبائل الإفريقية أن هذا التفسير الذين يفسرون به معظم الأحـداث أمر طبيعى . وقد رسخ فى أذهانهم إلى درجة أن المبشرين الذين يحاربونه منذ زمن طويل لم ينجحوا فى صرفهم عنه . وها هى ذى بعض الشكاوى التى فاض بها قلب الأستاذ «ديترلن» Dieterlen فى هـذا الصدد بالنسبة إلى الباسوتيين فى سنة ١٩٠٨ : «انقضت الصاعقة فى الشهر الماضى على منزل رجل من معارفى فقتلت زوجه وجرحت أطفاله وأحرقت كل ما كان فى حوزته . وكان الرجل يعلم جيداً أن الصاعقة تأتى من السحب ، وأن السحب ليست فى متناول الإنسان . ولكن قيـل له إن أحد جيرانه أراد به شراً فأرسل إليه هذه الصاعقة ، فصدق ذلك ولا زال يصدقه حتى الآن وسيظل يصدقه إلى الأبد» .

---

(١) Berichte der rheinischen Missions gesellschaft ١٨٩٥ ، ص ٢٤٢

(٢) المرجع نفسه ، سنة ١٨٩٦ ، ص ٢١٣ .

« وفى السنة الماضية نزل الجراد على حقول الرئيس الشاب « ماتيه أليرا » Mathè — à—lira الذى تلقى نصيباً لا بأس به من التعليم المدرسى وصلى فى معابدنا زمناً طويلا ، ولكن دون جدوى . ولذلك عزا غارة الجراد إلى سحر قام به أخوه « تيسو » Tesu الذى كان ينازعه حق وراثة العرش فى إقليم « ليريبيه » léribé .

« حدث منذ خمسة عشر يوماً أن ماتت أيم شابة كانت تقيم على بعد كيلو متر من مخيمنا بسبب مرض خفى ، لعله يرجع إلى سوء سلوكها . ولكن أهلها اعتقدوا غير ذلك ، واعتقدوا أن مصدر هذا المرض يرجع إلى رجل معين كان قد طلب يدها ورفضته . وكانت أمها مسيحية ، فشرحت لها أن حدوث هذا الشيء أمر مستحيل . فلم تصدقنى وظلت تحقد على الرجل الذى اعتقدت أنه قاتل ابنتها(١) » .

ولا يغير من سلوك البدائى أن تكون الحادثة العارضة خالية من الشؤم مفعمة بالسعادة ، فإنه يرى فيها دائماً أثراً من آثار القوى الغيبية . وهو يخشى هذه السعادة فى غالب الأحيان ، لأنه يرتاب فى كل خير وكل نجاح يأتيان بغير الطريق المعتاد . يقول الميجر « لنرد » : « كثيراً ما يتفق أن يذهب صديقان حميمان لصيد السمك معاً ، فيحصل أحدهما على صيد أكثر من الآخر ، إما بطريق المصادفة واما لأنه أمهر من صاحبه . ولكن هذا الفوز يعرض حياته للخطر دون أن يعرف ؛ لأن الصائد سيء الحظ لا يكاد يصل الى المدينة حتى يذهب لاستشارة السحرة لكى يخبروه بالسبب فى حصول زميله على سمك أوفر منه . ولا يلبث هذا « الطبيب » أن يخبره بأن السبب يرجع الى السحرة . وبذلك يبذر جرثومة الشقاق والموت بين الصديقين الحميمين . فالذى كان صديقاً وفياً منذ لحظة ينقلب عدواً لدوداً . وحينئذ لا يتوانى كل من الصديقين عن بذل كل ما فى وسعه للقضاء على من كان أعز الناس عنده من قبل(٢) » .

---

(١) Missions évangéliques مجلد ٨٣ ، جـ ١ ، ص ٣١١ .

(٢) ج . ا . لنرد J. A. Leonard : The Lower Niger and its tribes ، ص ٤٨٥ سنة ١٩٠٦ ،

ويقول « Monteiro » : « حدث فى أثناء إقامتى فى « أمبريزت » Ambrizette أن ذهب ثلاث نساء من « الكابندا » لإحضار ماء من النهر . وبينما كن يملأن جرارهن الواحدة تلو الأخرى ، هجم تمساح على وسطاهن وجرها إلى الماء ثم ابتلعها . فلم تتردد أسرتها فى اتهام المرأتين الأخريين بأنهما قد سحرتاها وأغريتا الحيوان باختطافها من بينهما . وجعلت أضرب لهم الأمثال لأظهر لهم حمق هذا الاتهام ؛ ولكنهم أجابونى بقولهم : لماذا اختطف الحيوان وسطاهن بالذات ولم يختطف إحدى من كانتا فى الطرفين ؟ ولم أنجح فى تحويلهم عن هذه الفكرة . أما المرأتان فقد أجبرتا على شرب « الكاسكا » Casca (نوع من سم التحكيم) . ولا أدرى ما حل بهما بعد ذلك ؛ ولكن من المحتمل أن تكون إحداهما أو كلتاهما قد هلكتا أو استرقتا(١) » .

يعجب « منتيرو » من أن الأهالى لم يستطيعوا أن يتصوروا أن الحادث الذى ذهب بحياة المرأة حادث اتفاقى . والواقع أنهم يؤمنون بأن التماسيح لم تهاجم هؤلاء النسوة من تلقاء نفسها ، وأنه لابد أن يكون أحد الأشخاص قد دفعها إلى الهجوم على هذه المرأة ، وأن الحيوان الذى التهمها كان يعرف جيداً مَن مِن هؤلاء الثلاث كان يجب عليه أن يجتذبها تحت الماء . ومعنى ذلك أنها « أسلمت إليه » . فأصبح السؤال الوحيد الذى يتحتم على البدائى أن يوجهه إلى نفسه فى هذه الحال هو : من الذى أسلمها ؟ .

ولكن الحادثة نفسها لا تحتاج إلى بيان أو تفسير . فالحيوان لم يمس المرأتين اللتين كانتا فى الطرفين ، واختار الوسطى بالذات . ولذلك قرر الأهالى أن يجروا عليهما اختبار السم . ولكنهم لم يفعلوا ذلك لإيضاح شك غير موجود ، بل للكشف عن بذرة السحر التى تحل فيهما والقيام بفعل غيبى يمنعهما من الأذى فى المستقبل .

وهذه حادثة أخرى وقعت فى الإقليم نفسه : بينما كان «إيونجى» Ewangi

---

(١) ج . ج . منتيرو . Angola and the River Congo ، ج ١ ، ص ٦٥ — ٦٦ (١٨٧٥) .

ينتقل فى النهر بزورقه ، هجم عليه تمساح واختطفه من الزورق ثم التهمه فى نفس المساء الذى نزل فيه ، ولم يعثر له أحد على أثر بعد ذلك . ووصلت أخبار الكارثة إلى مدينة « ديدو » Dido . فأرسل الأهالى بعض الزوارق الحربية إلى مكان الحادث . وقبضوا على شخص كان مع « إينونجى » ساعة موته وعلى آخر كان يقيم على شاطىء النهر فى هذا المكان . ثم وجهوا إليهما تهمة السحر وحكموا عليهما بالموت[1] » وهكذا يعتقد الأهالى أن الأمر يخلو من المصادفة ، إذ أن فكرة الحادث العرضى لا تطرأ لهم على بال ، أما فكرة السحر فإنها ماثلة أمامهم دائماً . ولذلك قرروا أن « إينونجى » قد أسلم إلى الهلاك . والأمر هنا واضح لا يحتاج إلى بحث : إذ لا شك أن الجانى لا يعدو أن يكون واحداً من اثنين : فهو إما أن يكون صاحبه الذى كان معه فى الزورق ونجا من اعتداء الوحش ، وإما أن يكون ذلك الشخص الذى يعيش على شاطىء النهر فى جوار الوحش .

— ٤ —

إذا أردنا أن نفهم تفكير هؤلاء الأهالى مهما كان تافهاً . فإنه يجب علينا ألا ننسى أن التماسيح فى نظرهم غير مؤذية بطبيعتها وأنه ليس للإنسان أن يخشى شيئاً من جانبها . حقاً إن هذا الزعم يتلاشى من أذهانهم ليحل محله شىء من الحذر فى الأماكن التى تتكاثر فيها تلك الحيوانات وتتكرر حوادثها فى كل

---

(١) ج . هوكر The life of George Grenfell : G. Hawker . وهذا هو ما يحدث فى « نياس » Nias أيضاً ، إذ نرى الأهالى مثلا يلقون بمسئولية إحدى الحوادث الاتفاقية على عاتق المبشرين ، ويتهمون سفنهم بأنها هى التى سببت هذه الحادثة ويقررون أن الضحايا الذين هلكوا فيها قد أسلموا وأنه يجب القيام بعمل يرضيهم ، وتفصيل الخبر أن شخصين من الأهالى قد غرقا ليلا أثناء عودتهما من زيارة للسفينة « دننجر » Denninger (سفينة المبشرين) . وكان يبدو فى بادىء الأمر أن الأهالى قد قابلوا هذا الحادث بهدوء واستسلام . ولكنهم لم يلبثوا أن جاءوا بمطالب لا يمكن قبولها ، إذ طالبوا المبشرين بأن يسلموهم ربان السفينة وطباخها لينتقموا منهما للغريقين ، وهددوهم بأن يصبوا جام غضبهم على أخوات « تيلوك دلام » Telok Dalam إذا لم يسلموا إليهم البحارين ١١٠ ، من : Berichte der rheinischen Missisons gesellchaft ، ١٨٨٥ ، ص١٥٣ .

حين كما هى الحال فى إفريقية الشرقية الألمانية : « لما كانت التماسيح تفوق الحصر فى نهر « روهدج » Ruhudge ، فإن الأهالى لايجرؤون على إحضار الماء منه مباشرة ، بل يعمدون إلى إقامـــة بعض السدود ، ويجذبون الماء من أعلى الشاطىء الشديد الانحدار بواسطة جرار معلقة فى أعواد طويلة من الغاب[١] وكذلك الحال أيضاً بالنسبة إلى نهر « كوانزا » Quanza فى حوض « الشيريه» Shire الأعلى[٢] . ولكن ذلك لا يحدث إلا فى ظروف استثنائية ، لأن الأهالى على وجه العموم لا يخشون الاقتراب من الأنهار أو الاستحمام فيها بالقرب من التماسيح . هذا إلى أن بعض الأوربيين يشاطرونهم هذا الإحساس . فنرى « بسمان » يكتب قائلا : « لم أسمع منذ نزلت هـذه الأقاليم أن التماسيح التهمت كائنا ما سواء أكان إنسانا أم حيوانا ، مع أن جميع أنهار هذا القطر تغص بالتماسيح ... ولكن ، مع أنى لم اسمع قط بحدوث كارثة من هذا القبيل ، فانى لا احب ان امزح مع هـذه الوحوش فى داخل الماء ! [٣] . »

ولم يعرف الأستاذ « فون هاجن » طوال الســنتين اللتين قضاهما فى الكمرون أن التماسيح هاجمت بعض الناس إلا فى ثلاث حالات ، مع أن الأهالى يستحمون فى النهر ويسبحون فيه كما يخوضون أوحاله فى فصل الجفاف[٤] وكذلك تنتشر هذه المعتقدات نفسها على ساحل إفريقية الغربية : إذ لا يذكر الأهالى أن احداً أصيب بسوء من جراء التماسيح التى تكثر فى نهر « جلنهاز » Gallenhas (بين شربرو) Sherbero و « كاب ماونت Cape Mont » مع ان

---

(١) فر. فلبورن Fr. Fulleborn : Das deutsche Njassa und Ruwurag-ebiet in deutsch Ost Afrika مجلد ٩ ، ص ١٨٥ و ٥٤١ .

(٢) ج . منتيرو : Angola and the Congo-river ج ٢ ، ص ١٢٣ .

(٣) و . بسمان W. Bosman : Voyage de Guinea ، الخطاب الرابع عشر ، ص ٢٥٠ — ٢٥١ .

(٤) ج . فون هاجن G. von Hagen : Die Bana-Bassler Archiv ، ج ٢ ، ص ٩٣ (١٩١١) .

الأهالى كثيرا ما ينزلون الماء، حتى لقد حدث ان انقلبت سفينة للزنوج فى مدخل هذا النهر منذ بضع سنين ... [٢].

ويرى الأستاذ « بنتلى » أن الإنسان يستطيع تجنب الخطر إذا اتخذ الاحتياطات الضرورية . فالتماسيح شديدة الخوف ولا تظهر نفسها إلا للضرورة القصوى ، حتى أن الضوضاء التى يحدثها بضعة صبيان يصيحون ويمرحون ويغوصون تحت الماء تكفى وحدها لإخافتها وإقصائها . [١] ولكن ماذا يظن الشخص من الأهالى إذا وقع فى خطرها ؟ أتراه يتهم تهوره وعدم احتياطه أم يغير رأيه فى طباع التمساح أم يعزو سوء حظه إلى المصادفة البحتة ؟ لا شك أنه لو فكر على طريقتنا للجأ إلى تفسير من هذا القبيل . ولكن هذا التفكير لا يتسرب إلى ذهنه ، لأن لديه لكل حادثة من هذه الحوادث تفسيرا حاضرا مجهزاً ذا طابع غريب يختلف عما لدينا تمام الإختلاف . يقول بنتلى : « يعتقد سكان الأقاليم التى تكثر فيها التماسيح أن السحرة يتحولون أحيانا إلى تماسيح أو يدخلون فى باطنها ليوجهوها . وبهذا يستطيعون القضاء على ضحيتهم التى تلتهمها التماسيح . أما فى البلاد التى تكثر فيها الهنود ، فإن السحرة يستطيعون التحول إلى هذه الحيوانات . وكثيراً ما نرى الأهالى فى بعض الأماكن ينزلون إلى النهر دون تردد ليراقبوا مصايد السمك ، فإذا ابتلع التمساح أحدهم ، عقدوا مجلسا لاكتشاف الساحر وقتلوه ثم استأنفوا سيرتهم الأولى . وقد حدث فى « لاكنجا » Lukunga إحدى محطات البعثة المعمدانية الأمريكية ـ أن خرج من النهر تمساح كبير فى أثناء الليل ليهاجم حظيرة الخنازير . ولما شم الخنزير رائحته ، أحدث ضوضاء مزعجة أيقظت الأستاذ انجهام المبشر من نومه ، فحمل بندقية وأطلق الرصاص على التمساح حتى أرداه قتيلا . ولما أصبح الصباح فتح بطنه ووجد فى معدته خلخالين لامرأتين كانتا قد ذهبتا إلى النهر إحداهما بعد الأخرى

---

(١) ت . ونتربتم An account of the native Africans : Th. Winterbottom in the neighbourhood of Sierra - Leone ، حـ ١ ، ص ٢٥٦ (١٨٠٣).

(٢) و . هـ . بنتلى : The life & labours of a Congo-pioneer ، ص ٣٤ .

لاستحضار الماء ، ثم اختفيتا . وتصادف أنى وصلت إلى هذه النقطة بعد الحادث ببضعة أيام فى صحبة أحد عمالى الكنغوبيين . وما إن سمع هذا العامل بالخبر حتى راح يقرر فى إصرار عجيب أن التمساح لم يلتهم المرأتين ، لأن التماسيح لا تعتدى على أحد قط . ولما سألته بقولى : ولكن مارأيك فى وجود الخلخالين ؟ ألا يعتبران دليلا محسوسا على أن التمساح قد أكل المرأتين ؟ أجابنى قائلا : كلا انه اختطفهما واسلمهما إلى الساحر الذى لم يكن التمساح إلا أداة له . أما الخلخالان فانه فكر فى الإحتفاظ بهما أجرا له على الدور الذى قام به . » ويعقب الأستاذ بنتلى على ذلك بقوله : « ماذا يمكن أن نفعل مع رؤوس قد استحوذ عليها الشيطان الى هذا الحد ؟ [١] » فهو يسخط على هذا الموقف الذى يعده إصراراً غريبا على انكار الحقيقة الواضحة للعيان . ولكن الأمر هنا على غير مايتصور . فليس موقف الأهالى هذا إلا حالة خاصة من حالات العجز التام الذى تمتاز به العقلية البدائية أمام التجارب ، بسبب التصورات الجماعية التى تحتلها مقدما . ونحن نعلم أن هذه التصورات تهمل الأسباب الطبيعية وترجع كل شىء إلى أسباب غيبية . وهى لذلك تعتقد أن التمساح الذى يرتكب فعلا خفيا بابتلاعه أحد الأشخاص لايمكن أن يكون حيوانا كسائر الحيوانات ، ولكنه بضرورة الحال أداة الساحر أو هو هذا الساحر نفسه .

« إنها لخرافة فاحشة تلك التى يتشبث بها الأهالى المساكين وتدفعهم إلى التنكيل بالسحرة كلما حلت بهم مصيبة من هذا القبيل . وهم يؤمنون بتلك الحماقة إلى حد أنهم لا يريدون أن يكلفوا أنفسهم أى عناء لحماية ذلك الجزء من النهر الذى تتردد عليه نساؤهم وأولادهم دون انقطاع لغسل أشيائهم ، حيث يصبحون فريسة لطاغية المياه الجبار [٢] . » . ويقال إنه يوجد فى حوض

---

(١) و . هـ بنتلى : Pioneering on The Congo حـ ١ ، ص ٢٧٥ـ٢٧٦ . وانظر المرجع نفسه ، حـ ١ ، ص ١١٧ .

(٢) جون ماتيو John Mathieus : Voyage à la rivière de Sierra-Leone (١٧٨٧ — ١٨٧٥) ص ٤٩ من الترجمة الفرنسية

الزمبيزى الأعلى «رجال يمارسون «طب» التمساح فاذا عدا لص على ثيران أحدهم فسرقها ذهب هذا المطبب إلى النهر حتى إذا ما وصل اليه انبرى يقول: أيها التمساح أقبل إلى! اذهب واقبض على من سرق ثيرانى ! فيسمع التمساح أمره وينفذه. وحين يصبح الصباح يعلم أن التمساح قد هاجم شخصا فى النهر وقتله، فيقول: هذا هو اللص[1]

من ذلك نرى أن تكرار الحوادث لا يزعزع اقتناع الأهالى، بل لعلهم على العكس من ذلك يرون فيه دليلا جديداً على صدق رأيهم. فنرى الواحد منهم يبحث عن الساحر حتى يجده ويعاقبه. وإذا لامه الأوربيون على هذا المسلك، نظر إليهم بكل ازدراء. «اختطفت التماسيح شخصين من الأهالى. ولكن لما كان هؤلاء البدائيون يدعون أن اختطاف الأشخاص ليس من شيم التماسيح، فإنهم فى هذه الحال يعتقدون أنها تماسيح مسحورة. وحدث ذات مرة أن اتهم الرئيس - وهو سيد الإقليم - بارتكاب هذا السحر . . . واحتج الرجل بطبيعة الحال بأنه برىء، ولكنهم أجبروه على تعاطى سم الاختبار ليبرهن على براءته . . وكان المطبب المجرم قد ركز الجرعة التى أعدها له فقضت عليه ... ولم يكن فى استطاعتنا أن نفعل شيئا لحمايته[2] . »

ونجد مثل هذه التصورات الجماعية أيضا فى غنيا الجديدة (ودلارك أيلاند woodlark Island . «خرجت» «موديجا» Mandiga زوجة «أويتو» Awetau من «مروا» Murwa لزيارة إحدى القرى المجاورة لنابودو » Nabudou وحين عادت أحضرت معها ابنته «بوياماى» Boiamai رئيس « نابودو » . ومن سوء الحظ أن هاجم الطفلة تمساح واختطفها . فقام «بوياماى» وابنه وبعض رجال قريته بقتل «موديجا» وثلاثة أشخاص من أقاربها بقصد الانتقام . ولما مثلوا أمام المحكمة، وقف الابن يقول ما نصه : نعم إننا قتلناهم . . . لقد أحضرت

---

(١) ا. جاكتيه : E. jacottet : Etudes sur le Langus du Haut Zampèze ج ٣، Textes Louyi ص ١٧٠ ، من ثمرات مدرسة الآداب بالجزائر، رقم ١٦ (١٩٠١) .

(٢) و . ه . بنتلى : Pioneering on the Cougo ، ج ٢ ص ٣١٧ .

«موديجا» أختى إلى قريتها. ثم لم تلبث أن سحرت تمساحا ودفعته إلى الخروج من الماء لاختطاف أختى والتهامها [١] . «وهكذا لم تخطر فكرة الحادث العرضى على بال أسرة الضحية، لأنها تعتقد أن التمساح لا يمكن أن يكون إلا أداة.

وبعد ذلك بقليل يذكر الأستاذ «مرى» أن «التماسيح خطر جسيم يتهدد الفارين من سلطان الإدارة.. ولذلك يعتقد الأهالى فى بعض أجزاء من خليج «البابو» أن التماسيح من حلفائها. ويرجع هذا الاعتقاد إلى أن سجينا فارا وقع فى قبضة تمساح فى أثناء عبورة النهر فشوهه شر تشويه. ومع ذلك فإن التماسيح ليست كلها فى خدمة الحكومة، إذ أن غالبيتها العظمى مازالت فى قبضة السحرة تأتمر بأمرهم وتعادى من يعادون وتوالى من يوالون! ومن ذلك أنى أردت ذات مرة أن أعبر نهرا يشاع أنه ملىء بالتماسيح. وكان معى رجل مسن من الأهالى فسألته عما إذا كان خائفا. فأجابنى بقوله: كلا، لأن التمساح لا يجرؤ على اقتناصك إلا إذا كان أحد الأشخاص قد عمل ضدك « بورى بورى » puri puri (أى سحرك). وإذا وقعت ضحية للساحر، فلابد أن ينالك السوء، لأنه يستطيع أن يظفر بك بأية طريقة من الطرق، وإذا لم يكن ذلك بوساطة التمساح فبوسيلة أخرى. لذلك لا نستطيع أن نعزو إلى التماسيح أهمية حقيقية [٢] ». وذلك لأن المصدر الحقيقى للأذى يرجع إلى شىء آخر غير الحيوان الذى لا يمكن أن يخاف لذاته والذى لا يهاجم شخصا إلا إذا أسلمه إليه شخص آخر.

وإذا أردنا أن نحدد العلاقة التى يتصورها الأهالى بين الساحر والحيوان أصطدمنا بصعوبة لا يمكن التغلب عليها بسهولة؛ وذلك لأن تفكيرهم لا يقوم على نفس الأسس المنطقية التى يقوم عليها تفكيرنا، ولأنه لا يخضع فى هذه الحالة التى نحن بصددها وفى كثير من الحالات الأخرى أيضا إلا « لقانون المشاركة «La loi de la prticipation» ويقضى هذا القانون بأن تنشأ علاقة

---

(١) ج. هـ. ب. مرى Papua : J. H. P. Murry ص١٢٨ – ١٢٩

(٢) المرجع السابق، ٢٣٧

بين الساحر والحيوان من شأنها أن يصبح الساحر هو الحيوان دون أن يمتزج به بالرغم من ذلك . وإذا أردنا هنا أن نطبق قانون التناقض فى المنطق ، كان لابد لنا من اختيار أحد أمرين لا ثالث لهما : فاما أن يصير الساحر والحيوان شيئا واحدا وإما أن يظلا كائنين متميزين ولكن العقلية البدائية تستمرىء وجود الأمرين معا فى آن واحد . ولاشك أن الباحثين قد شعروا جيدا بطابع المشاركة هذا ، ولكنهم لا يجدون وسيلة للتعبير عنه . ولذلك نراهم يتكلمون تارة عن وحدة الكائنين وتارة أخرى عن انفصالهما . وهذا الخلط فى التعبير لا يخلو من معنى . فيذكرون مثلا « أن البالوجى » balogi (أى السحرة) فى وسعهم أن يحولوا الميت إلى أفعى أو تمساح ، وهلم جرا ، ولكن تحويله إلى تمساح هو الغالب . ولذلك يحتل هذا الوحش من نفس الأهالى مكان التقديس والهيبة والتبجيل دون أن يكون إلها أو روحا . وذلك لأنه هو والشخص الذى يحدث التحويل الذى أشرنا إليه ليسا إلا كائنا واحدا . ويمكننا أن نذهب إلى القول بأنه يوجد بين الكائنين معاهدة سرية أو اتفاق شعورى . ولذلك إذا أمره هذا الشخص أن يذهب للفتك بأحد الأفراد ، ذهب إليه دون أن يخطىء الهدف . وهذا يفسر لنا السبب فى أن الأهالى لا يكادون يعلمون باختطاف التمساح لشخص من ذويهم حتى يجدوا أولا وقبل كل شىء فى البحث عن الساحر الذى سلطه عليه فإذا وجدوه انتقموا منه شر انتقام . والواقع أنهم يجدونه دائما [1] » وتعتقد قبائل « البنجالا » « أن التمساح لا يقوم بهذا الفعل مطلقا (أى لا يقلب زورقا ليخطف شخصا من ركابه) ، اللهم إلا إذا أمره « ملوكى » moloki (أى ساحر) أو إذا دخل « الملوكى » نفسه فى الحيوان ليرتكب جريمته [2] » فنلاحظ هنا أن المبشر يواجه الفرضين منفصلين على التبادل . والواقع أنهما

---

(١) ب . أوجين هوريل P . Eugéne Huiel Religion et vie domestique des Bakerwe فى مجلة Anthropos ج ٦ (١٩١١) ص ٨٨ .

(٢) القس ج . هـ . ويكس J. H. Weeks : Anthrapological nots on the Bangala of the Upper Congo - river فى مجلة J. A. I. مجلد ٣٩ ص ٤٤٥ — ٤٤٩ .

لا يكونان فى نظر الأهالى إلا فرضا «واحدا» ، وإن كان ذلك يتم بصورة لا نفهمها نحن الأوربيين .

ويذكر الباحث المدقق الأستاذ « لى تستو » عن قبائل « الجابون » gabon فى الكنغو الفرنسى مانصه : « وليست خرافة الرجل النمر بأقل غموضا من خرافة السحر عن طريق صورة المسحور . وهى على شكلين . فى الحالة الأولى يعتبر النمر (ويقصدون به الفهد او النمر) الذى يرتكب الجريمة حيوانا حقيقيا مملوكا لأحد الأفراد ، يطيعه وينفذ أوامره وينقل إلى ورثته كأى متاع عينى آخر وفى هذه الحالة يقال : فلان عنده نمر وفى الحالة الثانية لا يكون الحيوان الا صورة ما من صورة التقمص . ولكنا لا نعرف على وجه التحديد ما اذا كان الأهالى يعتبرون رجلا اتخذ صورة حيوان ، وحينئذ لا يكون الشكل الحيوانى الا مظهرا ، أو رجلا تقمص حيوانا حقيقيا وحل فيه . . . . وعلى كل حال لا شك أن فكرتهما عن الرجل النمر مشوبه بكثير من الغموض .[1] »

ويصور لنا الميجر « لنرد » هذه الفكرة فى صورة تختلف عما سبق بعض الاختلاف ، فيقول . « اتهمت زوجة « أتشى » Utchi العجوز بأنها قتلت « أورو » Oru عن طريق ارسال روحها فى التمساح الذى التهمة . وليس معنى هذا أنها قد تحولت هى نفسها ، روحا وجسما ، الى هذا الحيوان كما قد يظن ؛ اذ يستحيل علينا أن نفترض هذا الفرض فى الحالة التى أمامنا على الأقل ، ويدلنا على ذلك أن الأهالى اتهموا خمس نساء أخريات بنفس التهمة . وبذلك نستطيع أن نعرف أنه يمكن لعدد كبير من الأرواح أن ترتبط بشخص واحد أو تدخل حيوانا واحدا ، وان كان ذلك لا يحدث الا نادرا [2] . »

---

(١) لى تستو G. Le Testo : Notes sur les coutumes Bapounou dans la circonscription de la Nyanga ، ص ١٩٦ — ١٩٧ .

(٢) ميجر ا . ج . لنرد : The löwer Niger and its tribse ، ص ١٩٤ .

هذا وقد يكون من المفيد أن نورد هذا التفسير الذى يذكره أحد الأهالى بنص عبارته : « قد لا تكون الشمس قد زالت عن الأفق وأنت منهمك فى شرب شىء من نبيذ البلح مع شخص آخر دون أن تعرف أنه يحتوى على روح خبيثة ؛ وقد يجهل هو الآخر ذلك. ثم لا يكاد يقبل المساء حتى تسمع صراخا يقول : نكول ! نكول ! nokle ! nkole ! (أى التمساح) ، فتعرف أن أحد هذه المسوخ التى تكمن فى الماء الموحل بالقرب من الشاطىء قد اختطفت شخصا مسكينا جاء لإحضار الماء . وقد تستيقظ ليلا على صياح الذعر الذى ينبعث من حظيرة دجاجك ، ثم تكتشف فى الصباح أن الكثير من طيرك قد اختفى بعد أن زاره منتولا Muntula (قط برى) . أجل ! ان الرجل الذى كنت تشرب معه نبيذ النخيل والتمساح الذى اختطف القروى الغر واللص الصغير الذى سرق دجاجك ليست كلها الا فردا واحدا استحوذت عليه روح شريرة [1] » فهذا النص يوحى بالمشاركة بشكل واضح . ولا شك أن الشخص من الأهالى يكفيه الشعور بهذه الحقيقة حتى لا يحتاج إلى السؤال عن كيفية تحققها .

— ٥ —

لا تعرف العقلية البدائية شيئا يسمى المصادفة . كما أنها من جهة أخرى لا تبحث عن الشروط التى تعمل على وقوع إحدى الحوادث أو امتناعها . ويترتب على ذلك أن هذه العقلية تتلقى الأشياء المفاجئة أو غير المتوقعة أو التى تخالف المعتاد بالانفعال أكثر مما تتلقاها بالدهشة . ومع ذلك فإن فكرة « المفاجىء » أو « غير المعتاد » مألوفة جدا للعقلية البدائية ، وإن لم يكن لها لديها نفس التحديد الذى لها فى ذهننا . فهى عندها إحدى الأفكار

(١) ا.ج. جليف Six years of adventure in Congaland : E. G. Glave ، ص ٩٢ .

العامة المشخصة على السواء . كأفكار « المانا » mana و « الأوروندا » Ornda و « البسيلا » Psila وغيرها . وقد سبق أن حللنا خصائص هذه المعانى فى كتاب آخر [١] .

وقد يكون الشيء المفاجيء كثير الوقوع نسبيا . ولما كانت العقلية البدائية منصرفة عن الأسباب الطبيعية ، فإنها تستعيض عنها — إذا جاز لنا هذا التعبير — بيقظتها التامة والتفاتها الدائم إلى الدلالة الغيبية التى يمكنها أن تستخرجها من كل ما يصدمها . ولذلك كثيرا ما لاحظ الباحثون أن البدائى الذى لا يدهش لشيء فى الحقيقة يعد فى نفس الوقت سريع القبول للانفعال . فانعدام حب الاستطلاع العقلى مصحوب عنده بحساسية مرهفة نحو ظهور أى شيء يباغته [٢] .

هذا إلى أنه يجب علينا أن نميز فى الظواهر المفاجئة بين تلك التى تظهر بشكل نادر وإن كانت تحتل مكانها فى التصورات الجماعية وبين تلك التى تظهر دون أى توقع . فولادة التوائم مثلا تعتبر ظاهرة نادرة الوقوع ولكنها معروفة جيدا . وهى تستلزم فى كل الجماعات البدائية تقريبا إجراء سلسلة من الطقوس والمراسيم . فهناك ارتباط جزافى صارم يحدد السلوك الذى يجب اتباعه فى هذه الحال لإقصاء الأخطار التى يمكن أن تنجم عن تلك الظاهرة . وهذه هى الحال أيضا بالنسبة إلى كسوف الشمس وخسوف القمر . أما إذا كانت الظاهرة غير منتظرة مطلقاً . فإن السلوك الذى يصحب وقوعها يختلف عن ذلك بعض الشيء ، لأنه ليس من ضروب السلوك المستقرة المرسومة

Les fonctions mentales dans les societés inférieures (١)

(٢) من المؤكد الذى لا شك فيه أن أهالى « غينا الجديدة » يستطيعون استخراج النتائج الضرورية مما يقع تحت أبصارهم بسرعة فائقة . ولا يكاد يخفى على إدراكهم شيء مما يهمهم شخصيا . . . وقد يدهش المرء أحيانا لكثرة معارفهم . » هـ . نيوتن ، In far New — Guinea : H ˙ Newton، ص ٢٠٢ .

مقدما . فما موقف العقلية البدائيـــة يا ترى حين يقع أمامها شيء من هذه الحوادث ، وهى كثيرة الوقوع ؟ الواقع أنها فى هذه الحالة أيضا لا تؤخذ على غرة ، بل لا تلبث أن تتعرف فى الظاهرة التى أمامها على بعض مظاهر القوى الخفية (الأرواح أو أرواح الموتى أو الأعمال السحرية . الخ .) ثم تفسرها على وجه العموم بأنها إيذان بوقوع مصائب فادحة .

الفصل الثانى

القوى الغيبية وغير المرئية

— ١ —

لعلنا أصبحنا الآن بفضل ما عرضناه فى الفصل السابق أقدر على فهم السبب الذى من أجله تهمل العقلية البدائية البحث عما نسميه بأسباب الظواهر. فعدم حب الإطلاع هذا لا يرجع إلى شلل عقلى ولا إلى ضعف فى القوى العقلية بل إن ذلك فى الحقيقة لا يعتبر عدما : إذ أن العدم ، على حد تعبير الفلسفة المدرسية ، يخلو من علة عجزية أو سلبية . أما علة ما لدينا فذات حقيقية إيجابية ، فهو نتيجة مباشرة وضرورية لهذه الحقيقة الواقعة : وهى أن البدائيين يعيشون ويفكرون ويحيون ويتحركون ويعملون فى عالم لا يتفق مع عالمنا فى عدد كبير من الوجوه . ولذلك نرى أن كثيرا من الأسئلة التى تواجهنا بها التجارب غير موجودة بالنسبة اليهم ، لأن لديهم لها جوابا مجهزا من قبل ، أو بالأحرى لأن نظام تصوراتهم من شأنه ألا يجعل لهذه الأسئلة أية أهمية فى نظرهم .

وقد عرضت فى مكان آخر ، للأسباب التى من أجلها نعتبر هذه العقلية عقلية « غيبية » و « غير منطقية » ولكن من العسير أن نعطى القارىء فكرة صادقة عنها ؛ لأن عقل الأوروبيين ، حتى أكثرهم اغراقا فى الخيال أو الشاعرية البحتة أو الميتافيزيقية ، يعتبر مسرفا فى الوضعية بالنسبة لعقول أولئك البدائيين . فإذا أردنا أن نخضع أنفسنا لسلوك مضاد للسلوك الذى يعتبر طبيعيا بالنسبة لنا ، فلا بد من التخلص من أشد العادات العقلية رسوخا فى نفوسنا ، وأعنى تلك العادات التى يبدو أننا لا نستطيع التفكير بدونها .

يوجد لدى البدائيين ارتباطات جزافية لا يقل إلفهم لها عن حاجتنا

لربط كل ظاهرة بأسبابها وهم يستعملونها دون تردد فى الانتقال المباشر من هذا الادراك الحسى أو ذاك إلى هذه القوة أو تلك .

بلى لعلنا نكون أقرب إلى الصواب إذا قلنا إن ذلك لا يعتبر انتقالا بمعنى الكلمة ، فهذا المصطلح يناسب عملياتنا المنطقية فحسب . وليست تلك الارتباطات فى نظرهم أقل تحققا من غيرها على مسرح الحياة الجارية . فهى التى تعلل كل ما يقع . ولكن لعل الأجدر ألا نقول بأن ما يقع يحتاج إلى تعليل لأنه لا يكاد يقع حتى تسارع العقلية البدائية غير المنطقية بتصور التأثير الخفى الذى كشف عن نفسه على هذه الصورة . والواقع أن هذه العقلية بالذات هى التى تدعو إلى الاعتقاد بأن العالم الذى يحيط بها عبارة عن لغة يستعملها الارواح فى مخاطبته بعض العقول ، ولكن هذه العقلية لا تذكر أنها تعلمت هذه اللغة . وإن كانت الارتباطات الجزافية التى تحتوى عليها تصوراتها الجماعية بجعلها طبيعية بالنسبة إليها .

وبناء على ذلك تبدو تجارب البدائيين . أكثر تعقيداً وأثرى مضمونا من تجارب عقليتنا وقد تبدو هذه الفكرة مضحكة فى بادىء الأمر إذا قارنا فقر حياتهم العقلية الظاهر بنشاط حياتنا العقلية . ألم نلاحظ أنهم يعفون أنفسهم من التفكير كلما وجدوا الى ذلك سبيلا ، وأن أبسط تفكير يعتبر بالنسبة إليهم كلا لا يطاق ؟ ولكن هذا التناقض يتضاءل ويصبح مقبولا إذا عرف أننا إنما نعنى تجاربهم « الحالية » فتجاربنا تتكون فى مجموعها من مدركات ضئيلة العدد نسبيا ومن عدد لا يحصى من الاستنتاجات . أما العقلية البدائية فعلى عكس ذلك تحتوى على نسبة ضئيلة من الاستنتاجات . ولكنها تنطوى على كثير من المدركات المباشرة التى ننكر عليها كل قيمة موضوعية . مع أنها فى نظر العقلية البدائية تساوى فى حقيقتها مدركات الحواس بل أنها أكثر منها واقعية .

هذا إلى أن وفرة المدركات الغيبية ووجود الارتباطات الجزائية الصارمة بين المدركات الحسية والتأثرات الخفية هما اللذان يجعلان الاستنتاجات التى

تنمو بها تجاربنا عديمة الجدوى بالنسبة إلى العقلية البدائية ـ وغير قادرة على إثراء تجاربها .

حينما يقع أمامنا شيء جديد ، نعرف أنه يجب علينـــا البحث عن تفسيره وأنه سيعمل على فتح كثير من المسائل أمامنا وسيزيد معارفنا فى نفس الوقت . أما العقلية البدائية فعلى العكس من ذلك لأنها تعرف مقدماً ، كل ما تحتاج إليه بالنسبة لأى ظاهرة تظهر أمامها . فتقول فى حالة الحادثة المفاجئة مثلا أنها مظهر لقوة خفية . كما أن هذه العقلية من جهة أخرى لا تتجه كتفكيرنا نحو المعرفة بمعناها الحقيق . بل هى تجهل متع المعرفة وفائدتها . وتعد تصوراتها دائماً ذات طبيعة انفعالية بدرجة كبيرة . ويظل تفكيرها ولغتها بعيدين عن الإدراك التجريدى ، وهذا هو السبب فى أن المسافة التى تفصلها عنا من أسهل الأمور قياساً .

وبعبارات أخرى تتوقف حياة البدائيين العقلية (وبالتالى أحداسهم) على هذه الحقيقة الجوهرية البدائية ، وهى أن العالم المحسوس والعالم الآخر لا يكونان فى تصوراتهم إلا شيئاً واحداً . ومجموع الكائنات غير المرئية لا ينفصل عندهم عن مجموع الكائنات المرئية . وليست الكائنات الخفية فى نظرهم بأقل وجوداً ونشاطاً من الكائنات المرئية ، بل إنها أكثر منها تأثيراً وإرهاباً ، ولذلك فهى تشغلهم أكثر من غيرها وتصرف عقولهم عن التبصر والتفكير فيما نسميه نحن بالمدركات الموضوعية ، ولو إلى حد يسير . وما جدوى ذلك إذا كانت الحياة والنجاح والصحة ونظام الطبيعة وكل شيء آخر يتوقف فى كل لحظة على القوى الخفية ؟ وإذا كان فى وسع الجهد الإنسانى أن يفعل شيئاً ، ألا ينبغى له أن ينفقه أولا وقبل كل شيء فى تفسيره لمظاهر هذه القوى وتنظيمها ، بل فى استثارتها أيضاً ؟ الواقع أن هذه هى الطريقة التى حاولت بها العقلية البدائية أن تنمى تجاربها .

— ٢ —

يمكننا على وجه الإجمال أن نقسم التأثيرات غير المرئية التى تشغل العقلية البدائية بصورة دائمة ، إلى ثلاثة أقسام ، وإن كانت كثيراً ما تتداخل بعضها فى بعض . وهذه الأقسام هى أرواح الموتى . والأرواح بأعم معانى الكلمة ، أى تلك المؤثرات التى تجعل الحياة تدب فى الأشياء الطبيعية من حيوانات ونباتات وكائنات جامدة (الأنهار والصخور والبحار والجبال والأدوات المصنوعة ، الخ) ؛ وأخيراً الطلاسم والتعاويذ التى تعد من فعل السحرة . وقد تمتاز هذه الأقسام بعضها عن بعض بشكل واضح جداً فى بعض الأحيان . وهكذا يروى الأستاذ بشويل لوشه Pachuill Loesche أن المطببين فى « لونجو » Loango لا يشتغلون إلا مع الأرواح التى تسرى فى المواد المقدسة (fétiches) ، ولكنهم لا يرغبون بأية حال أن يتصلوا بأرواح الأموات التى يخشونها كثيراً . أما فى غير « اللونجو » فالأفكار أقل جلاء ، أو لعل الباحثين أقل دقة ، كما أن الحدود غير واضحة بين أرواح الموتى والكائنات الأخرى غير المرئية . ولكن هذه التأثيرات الغيبية تعد فى الجماعات المنحطة كلها على وجه التقريب من المدركات المباشرة الفطرية ؛ كما أن الارتباطات الجزافية التى تدخل فيها هذه التأثيرات لعنصر موجه ، تفرض نفسها على تصوراتهم الجماعية . وهذه ظاهرة جد معروفة . ولذلك سأقتصر على إيراد بعض أمثلة منها فقط .

إذا رجعنا إلى قبائل البابو فى غينيا الجديدة الألمانية الذين نجدهم مدروسين بعناية فائقة فى المؤلف الذى أصدره الدكتور « نويهوس » Neuhauss وجدنا أن « السحر يلعب عندهم دوراً أعظم من الدور الذى يلعبه الخوف من الأرواح . فإذا لم يسقط المطر ، أو إذا سقط أكثر مما ينبغى ، وإذا ساءت المحاصيلات الزراعية ، وإذا لم تثمر أشجار النارجيل ، وإذا ماتت الخنازير ، وإذا لم يأت الصيد البرى أو البحرى بالثمرة المرجوة ، وإذا زلزلت الأرض زلزالها ، وإذا طغى مد البحر فاكتسح قرية على الشاطىء ، وإذا حدث مرض

أو موت . إذا وقع أى شيء من هذا القبيل لم تكف الأسباب الطبيعية لتفسيره بأية حال ؛ بل لا بد أن يكون هناك سحر من خلف ستار(١) » . وتعتقد قبائل « الكاى » أنه لا يموت شخص موتاً طبيعياً قط حتى لو كان من الشيوخ الهرمين ، إذ يعتقدون أن موتهم يرجع إلى السحر ؛ وكذلك الحال بالنسبة إلى جميع الكوارث التى تحل بهم . فإذا سقط شخص ، فالساحر هو الذى أسقطه . وإذا اتفق أن أصيب بجرح من خنزير برى أو عضته أفعى ، ففتش عن الساحر أيضاً . وكذلك الساحر هو الذى يعمل من بعيد على أن تموت هذه المرأة أو تلك فى أثناء الوضع(٢) الخ .

وكذلك الحال فى معظم الجماعات البدائية حيث يقف « السحر » دائماً بالمرصاد ليحدث شراً أو يتسبب فى خسارة ما . فهو حالة «إمكان دائم» للشر ، ينتهز كل فرصة تلوح له لينفذ سهمه . وهذه الفرص ليست محدودة العدد . إذ من المستحيل أن يحيط بها الفكر مقدماً فى مجموعها . فتبدو مظاهره هذه فى اللحظة التى يباشر فيها عمله ، ولا يشعر به المرء إلا حين يكون سهم شره قد نفذ . ولذلك لم يكن فى إمكان القلق الدائم الذى يعيش فيه البدائى أن يسمح له ، رغم ذلك ، بإدراك الشر الذى سيقع به قبل وقوعه لكى يحاول منعه . فخوف السحر ماثل أمامه بصفة مستمرة ، ولكنه رغم ذلك واثق من أنه سيكون ضحيته . ونرى فى ذلك سبباً من أهم الأسباب التى تفسر لنا شدة حنق البدائيين على الساحر حينما يكتشفونه . إذ أن الأمر لا ينحصر عندهم فى معاقبة الساحر على الشرور الماضية التى عانوها على يديه والتى لا يعرفون عددها ولا مداها . وإنما يريد البدائيون بوجه خاص أن يقضوا مقدماً على الشرور التى يستطيع هذا الساحر أن ينزلها بهم فى المستقبل . وتنحصر وسيلتهم الوحيدة لقتل الساحر فى إلقائه فى اليم أو حرقه بالنار ، ويقضى هذا الإجراء

---

(١) ر . نويهوس . Deutsch New Guinia ، ج ١ ص ٤٤٥ — ٤٦ .

(٢) المرجع نفسه ج ٣ ، ص ١٤٠

فى نفس الوقت على روح الشر التى تحل فيه وتتخذه مطية لنشر شرورها .

والشرور التى يستطيع الساحر أن يسلطها على غيره لا تحصى عددا . فإذا ما أراد أن يقضى على شخص ما ، استولى على أى شىء ينتسب إليه واعتبر أنه هو الشخص ذاته بطريق المشاركة والتقمص . (وذلك كخصلة من شعره أو قلامات من أظافره أو بعض فضلاته أو بوله أو شىء من أثر أقدامه ، أو من ظله أو صورته أو اسمه ، الخ) . وحينئذ يقوم ببعض إجراءات سحرية على هذا الجزء من الشخص حتى يهلكه . وفى بعض الأحيان يعرق زورقه أو يجعل سهمه أو بندقيته تطيشان . وفى أحيان أخرى يفتح جسمه أثناء نومه بالليل فيسرق منه عنصر الحياة بانتزاع دهن كليتيه . وقد « يسلمه » إلى وحش ضار أو أفعى أو عدو . وأحيانا يعمل على سحقه بوساطة شجرة أو حجر ينتزع من مكان ما ويسقط عليه عند عبوره به . وهكذا تتعدد وسائل القضاء على الأشخاص إلى ما لا نهاية وإذا لزم الأمر تحول الساحر نفسه إلى حيوان . وقد رأينا فى أفريقية الاستوائية أن التماسيح التى تختطف الضحايا البشرية ليست حيوانات عادية ولكنها آلات طيعة فى يد السحرة ، بل قد تكون التماسيح هى السحرة أنفسهم عن طريق التقمص . وفى « غينيا الإنجليزية » كثيراً ما يستطيع فهد أن يشل حركة صياد إذا أظهر جرأة غير معتادة فى الاقتراب من البشر ، فيتوهم الصياد أنه قد يكون « نمرا ـ كانيما Kaneima » . ففى هذه الحال يحدث الصياد الهندى نفسه بقوله : إنى أستطيع قتل هذا النمر برصاصة أو بسهم ، لو لم يكن إلا حيوانا متوحشاً ، ولكن ماذا يحل بى لو أنى هاجمت قاتل الرجال أعنى هذا « الكانيما » الفظيع ؟ ويظن كثير من الهنود الغربيين أن هذه الحيوانات « الكانيما » فى حوذة أناس يمارسون أعمال القتل والنمنمة .[2] (وهو اعتقاد مشابه لذلك الاعتقاد الذى لاحظناه فى أفريقية الاستوائية حيث يخشى الأهالى

---

(١) انظر فيما يلى الفصل الثامن ، ص ٢٦٤

(٢) برت Brett The Indian Tribes of Guina ص ٣٧٤ .

الساحر باعتباره من آكلة البشر أيضاً) . ويروى دبرتسهوفر Dobrizhoffer انه سمع مثل هذه الأفكار عند الأبوبونيين والأروكيين فيقول « إذا لاحظوا فى طائر او حيوان أى أمر غير معتاد ، استنتجوا منه انه مستحوز عليه » . وليس الثعلب او البوم الذى يطوف حول عشتهم بالليل إلا ساحراً جاء يتفقد ما يمكنه سرقته . فلا بد من الحذر عند طرده حتى لا يمس بأذى ، خوفاً من انتقامه . وعلى وجه العموم يعزو هؤلاء الناس كل مالا يمكنه تفسيره مباشرة بسبب طبيعى مرئى ، إما إلى الأرواح الخبيثة . واما إلى السحر[1] . » ويقول الأستاذ جويفارا Guevara ان الأروكى يعزو كل امر غير عادى يراه أو يقع له إلى تدخل ارواح شريرة اوعوامل فوق طبيعية . فإذا ساء محصوله او حلت به كارثة او سقط من فوق حصانه او نزل به مرض اوموت ، فإن السحرة هم السبب فى كل ذلك فعليهم يتوقف طول العمر الذى يقضيه المرء فى الحياة ، والكوارث التى تحل به فى أثنائها ، الخ[2] . ويدل عدد التمائم وتنوعها وكذلك الطلاسم والتعاويذ وانواع الممارسات التى تستعمل فى كل مكان تقريباً انقاء للشرور الممكنة الحدوث بصورة ما على مقدار اشتغال الجماعات المتأخرة ، بل الجماعات المتقدمة نوعا ما ، بالسحر وعلى مقدار إقلاقه لعقولهم .

فإذا حدث اخفاق أو كارثة ، كان هناك تفسير واحد لا يتطرق إليه الشك : وهو أن المصاب وقع تحت تأثير خفى . ولكن من العسير فى غالب الأحيان أن يعرفوا نوع هذا التأثير . فإذا نظروا إلى الحادثة فى حد ذاتها ، كالصيد الذى اخفق او المرض الذى نزل او الجفاف الذى اهلك الحقول ، الخ . ن من العسير عليهم ان يستنتجوا منها ما اذا كانت ترجع الى أحد السحرة أو إلى بعض الموتى المختفين أو إلى الأرواح الشريرة . وقد رأينا فى كثير من الملاحظات

---

(١) ر . ا . لتشام R. E. Latcham فى Ethnology of the Arauceno
J. A. L. ج ٣٩ ، ٣٠٠ — ٥٢

(٢) ت . جويفارا T. guevara ، Folklore arauceno ص ٢٢

المتقدمة وفى عدد كثير غيرها ، انهم يرجعون السبب دائماً الى « السحرة أو الأرواح الشريرة » والواقع انه يمكن للأرواح الشريرة أن تكون فى خدمة السحرة والعكس بالعكس . وقد يكون الساحر نفسه منطوياً على روح شريرة فى بعض الأحيان على غير علم منه . وحينئذ يتداخل التصوران احدهما فى الآخر . ولكن يبقى بين التصورين هذا الفارق الهام . وهو أن الساحر بضرورة الحال فرد من الأفراد ، وعضو من هذه المجموعة الاجتماعية أو من تلك المجموعة المجاورة ، ومن ثم اصبح تصوره جلياً محدداً . اما تصور الأرواح فإنه يظل على جانب من الابهام والغموض تبعاً للجماعات التى يلاحظ فيها ، مادامت هذه الأرواح ليست اشباحاً لموتى . بل يختلف هذا التصور فى داخل الجماعة الواحدة تبعاً للأخيلة الفردية والطبقة الاجتماعية التى ينتسب إليها الأشخاص.

وهناك تصوران متباعدان للأرواح . أحدهما يرى أنها شياطين أو آلهة حقيقية لكل منها اسمه وخصائصه بل عبادته أيضاً فى كثير من الأحيان والآخر هو ذلك التصور العام المشخص على السواء الذى يعتبر الأرواح قوة مستقرة فى الأشياء والكائنات « كالمانا » mana دون أن تكون هذه القوة محددة الفردية . ويوجد بين هذين التصورين عدد لا حصر له من الصور الوسطى ، بعضها محدد بعض الشيء والبعض الآخر مبهم مختلط المعالم ولو أن ذلك لا يمنع كونه حقيقة دافعة فى نظر عقلية بعيدة عن التصور المعنوى ولا تزال خاضعة لقانون المشاركة .

وتعد معظم القوى الغيبية التى يبدو أثرها فى الطبيعة مبهمة المعالم ومحددة الفروع فى آن واحد . ولكن البدائيين لم يشعروا قط بضرورة الاختيار بين هذين التصورين ، بل إن هذه الضرورة لم تسنح لهم قط . وكيف يتأتى لنا أن نحدد إجابتهم عن أسئلة لم يحلموا بتوجيهها الى أنفسهم ، وتعد كلمة « روح » بالرغم من شدة تجردها اقل الكلمات التى لدينا صلاحيته للدلالة على التأثيرات والأحداث التى تدور باستمرار حول البدائية .

وكلما توغل المبشرون مع طول الزمن فى سر الأفكار العادية للأهالى الذين يعيشون بينهم ، تكشف أمامهم هذا الاتجاه الغيبى . ويحسبون هذا الأمر فى كلام البدائيين حتى حينما توحى العبارات التى يستعملونها بفكرة تصورات واضحة التحديد إلى حد ما - فيكتب المبشر جتيه Jetté « مثلا : « يمكننا أن نقول ان قبائل التنا Tena يعدون فى حالة تعامل دائم مع أولئك السكان « غير المرغوب فيهم » الذين يعمرون عالم الأرواح . ويعتقدون أنهم معرضون لرؤيتهم أو لسماعهم فى كل لحظة . ونرى أن أية حركة غير معتادة أو أية نزوة من نزوات خيالهم تتخذ لها على الفور مظهرا من مظاهر الشيطان . وإذا كان هناك جزع شجرة مستقيم اسود مشبع بالماء رأوه يظهر ثم يختفى ثم يظهر من جديد بفعل التيار ، ظنوا أنهم يرون « نكدز لتارا nekedzalara وإذا سمعوا فى الغابات صوتاً حادا يختلف عن أصوات الطيور المألوفة لديهم ، ظنوا أن « نكدز لتارا » تناديهم . ولا يمر يوم فى مخيم من مخيمات الهنود الغربيين دون أن يذكر شخص أنه رأى أو سمع شيئاً من هذا القبيل . وتألف قبائل « التانا » هذه المظاهر الناشئة عن حضور الشيطان اليهم تفهم لدوى الريح وغناء الطيور [١] . وكتب هذا المبشر نفسه فى موضع آخر يقول « تتجاوز شدة اعتقادهم فى الشيطان وسلطانه جميع تصوراتنا ، وخيالهم فى حالة يقظة دائمة وعلى استعداد لأن يتبين شيطانا ما يقترب منهم فى أثناء الظلام أو حتى فى وضح النهار تبعا للظروف . ولا توجد نزوة لخيال جامح مسرف فى الغرابة ، دون أن يعيروها اذنا واعية . وقد يظن من يصغى إليهم يتحدثون ، أنهم على علاقة دائمة بالشيطان ، وأنهم رأوه مئات المرات [٢] . » والآن لنستبدل بالشيطان (devil) ، تلك الأرواح الغامضة التحديد التى مر ذكرها آنفا . فالوصف الذى يورده الأستاذ جتيه يتفق تماما مع جميع ضروب الوصف العديدة التى تقول بحضور القوى الغيبية المبهمة المعالم فى كل مكان من عالم البدائيين .

---

(١) فر . ج جتيه On the superstitions of the Tena: Fr . Jelié Indians فى مجلة Anthropos ، مجلد ٦ (١٩١١) ، ص ٧٢١ — ٢٢ .

(٢) فر . ج . جتيه On the medicine-men of the Tena (Déné) فى مجلد J. A. I. ، مجلد ٣٧ ص ١٥٩ .

— ٣ —

ويذكر باحث مدقق عند الكلام عن قبيلة من البنتو ما يأتى : « على من يريد دراسة هذه الشعوب من النواحى الاجتماعية ان يوجه إلى تفكيرها اكبر نصيب من الاهتمام لكى يتصور إلى أى حد يعتقدون فى تأثير ارواح الاسلاف على حياتهم اليومية تأثيرا حقيقيا ومباشراً . ومن العسير على العالم الاجتماعى الذى لم يشاركهم حياتهم اليومية ولم يسع إلى فهم وجهة نظرهم ان يعير هذا التأثير ما يستحق من اهتمام .[1] » ويمكننا أن نقرر هذه الحقيقة نفسها بالنسبة إلى غالبية الجماعات المتأخرة . وكثيراً ما الح الجزويت فى « فرنسا الجديدة » فى لفت النظر إلى أهمية المكان الذى يحتله الموتى فى حياة الهنود الغربيين اليومية . وقد عبر كرد نجتون Cardington عن هذه الفكرة بصورة مؤثرة فى ملاحظة له عن لغة الميلانيزيين حين يقول « اذا قال احد الأهالى « انه انسان» اراد بذلك ان يبين انه انسان وليس شبحا ghost ، لا ان يبين انه انسان وليس حيوانا . فالكائنات العاقلة فى العالم تنقسم فى نظره الى فصيلتين : الناس الذين على قيد الحياة والناس الذين ماتوا ، « تامور tamour و « تامات » ta - mati . وحين يرى الميلانيزيون اشخاص من البيض لأول مرة يظنونهم « تامات » أى ارواحا رجعت إلى النور ، واذا سألهم البيض عمن يكونون(اى الأهالى) اجابوا بأنهم اناس ta - mour وليسوا ارواحا[2]

وكذلك الحال فى قبائل « الشرجوانا » Cheriguaras (امريكا الجنوبية) . فكانوا اذا التقى عندهم شخصان تبادلا التحية على الوجه الآتى : « انت حى؟» فيجيب الآخر بقوله « نعم : انا حى . » ويتابع المؤلف كلامه فيقول : « بهذه

---

(١) ك . و . هبلى C . W . Hobley : Further researches into Kikoya and kamba religions , beliefs and Customs ، فى مجلد J. A. I. مجلد ٤١ ، ص ٤٢٢ .

(٢) ر . هـ . كدرنجتون R. H. Codiingtion : Melanesiàn languages وقارن ر . هـ . كدرنجتون The Melanesiars ، ص ٢١ .

الطريقة نفسها تتبادل بعض قبائل أمريكا الجنوبية الأخرى التحية فيما بينهم كقبائل الكينجوا Caingua مثلا . وهم أيضاً من الجوارانيين Guaranis [١] .

وخلاصة ذلك أنهم يعتقدون أن الموتى يظلون أحياء زمناً طويلا كما شرحت في مكان آخر : ولكنهم أحياء من نوع آخر غيرنا ، إذ تنقطع عنهم بعض المشاركات أو تضعف ، غير أنهم لا يكفون عن الإنتساب إلى مجموعتهم الإجتماعية إلا شيئاً فشيئا . فيجب علينا ، لكى نفهم عقلية البدائيين ، أن نتخلص أولا وقبل كل شيء من الفكرة التى لدينا عن الموت والموتى ، وأن نسعى فى أن نحل محلها تلك الفكرة التى تسود تصوراتهم الجماعية .

وليست لحظة الموت عندهم وعندنا سواء فنحن نعتقد أن الموت يتم حين يتوقف القلب عن الخفقان وينقطع التنفس تمــــاما . اما فى معظم الجماعات المتأخرى فيعتقدون أن الموت يحدث حين يغادر الجسم ضيفه ، حتى ولو لم تنطفىء الحياة الفسيولوجية بعد . وضيف الجسم هذا شيء يشترك فى كثير من السمات مع ما نسميه نحن « الروح » وتعتبر هذه الفكرة من الأسباب الداعية إلى اسراع البدائيين فى دفن موتاهم فى كثير من الأحيان . ففى جزائر فيجى كثيراً مايبدأ غسل الشخص قبل موته الحقيق بساعات ، وأنى أعرف شخصياً ان أحد هؤلاء الموتى تناول الطعام بعد الغسل وشخصا آخر عاش بعده ثمانى عشرة ساعة . ولكن ذلك لا يمنع هؤلاء الأشخاص من أن يكونوا قد ماتوا فى رأى « الفيجيين » . فليس الأكل والشرب والكلام عندهم إلا افعالا غير إرادية للجسم وهو تلك القوقعة الفارغة ؛ على حد تعبيرهم اما الروح فقد رحلت [٢] .

ويذكر الأستاذ «نساو» عن زنوج أفريقية الغربية مايشبه ذلك إذ يقول كثيرا ماوجدت نفسى بجانب فراش شخص يحتضر مع أفراد من الأهالى محدودى

---

(١) دومينيكو كمبانا Domenico del Compana : Notvzie intronosi ciriguani فى Archivo per l' Anthopologie ، ١٩٠ مجلد ٣٢ ص ١٠٠ .

(٢) ت . وليامز Fiji and Fijiens Ih. Williams ، ج ١ ، ص ١٨٨ وقارن قوله فى ص ١٥٨ . تخنق زوجات الرئيس ليتبعنه فى الموت مع أن هذا الرئيس لا يزال يتنفس .

الذكاء، فكانوا يقولون لى «لقد مات» والواقع أنهم كانوا يقولون ذلك بعد أن يكون المريض قد دخل فى الغيبوبة واستلقى على فراشه جامدا ضعيفا لا يأكل ولا يتكلم وبدا كأنه قد فقد الحس، وإن كان قلبه لا يزال يخفق خفقانا ضعيفا. وكنت ألفت نظر أقاربه إلى أنه حى مستدلا بهذا الدليل. وكانوا يجيبوننى بقولهم: «كلا، إنه ميت، فقد خرجت روحه، إنه لا يرى ولا يسمع ولا يحس. أما هذه الحركة الضئيلة، فليست إلا روح الجسم تهتز. فهو لا يعتبر الآن شخصا، وليس قريبنا. انه قد مات.» وكانوا يبدأون عندئذ فى اعداد الجسم للدفن. وفى سنة ١٨٦٣ جاءنى وأنا فى جزيرة كرسيكو Corsico رجل من الأهالى وطلب منى «طباء لقتل أو تهدئة الروح التى فى جسم أمه لأن حركاتها تزعجه وتمنعه من أن يتمم لها الغسل [١]» وعلى كل حال إذا غادرت الروح الجسم نهائيا وحدث الموت بالفعل، فان ذلك لا يؤدى الى انفصال الميت الجديد عن ذويه. بل انه على العكس من ذلك يبقى مجاورا لجسمه ولا شىء يوحى الى ذويه بالعناية برفاته الا شعورهم بحضوره وبالخطر الذى يتهددهم، لولم يعاملوه تبعا للعادات الإجبارية. ولا يسمح بعض الجماعات المتأخرة بدفن الموتى الذين لا ينتسبون إلى مجموعتهم الاجتماعية فى الأرض التى تنتمى الى هذه المجموعة. يقول الدكتور «بشويل لوشه»: «تأبى معتقدات القوم أن يسمحوا بدفن الغريب فى أرضهم لأنهم اذا فعلوا ذلك كان عليهم أن يستضيفوا روحه ومن يدرى ماقد ترتكبه هذه الروح بعد ذلك؟ [٢]» ويروى الكاتب نفسه حكاية رجل برتغالى دفن فى أرض «اللونجو» Loango استثناء، واتفق أن اصيب الإقليم بجفاف، فأخرجه الأهالى والقوا به فى البحر: كما نجد سمة مشابهة لتلك فيما يرويه «كافزى Cavazzi» وان كان الباحثون كثيرا مايشكون فى صحة رواياته، يقول: «اراد اتباع احد المبشرين ان يدفنوه داخل الكنيسة، ولكن بعض الوثنيين الذين كانوا قد

(١) الدكتور بشويل لوشه . Die Loango Expedition . Dr Loasche . ج ٢٣، ص ٢١٠ — ١١

(٢) ر. هـ. نساو Fetichism in West Africa ، ٢ ص ٥٣ — ٥٤

اخفوا نواياهم السيئة حتى هذا اليوم ، عارضوهم بقوة جعلت الملك نفسه ينافق خيفة خذلان الآخرين اياه . والقى الجسم فى البحر [1] وفى قبائل الإشانتى Achanti اخفى الملك موت ابن احد المبشرين وكان عنده اسيرا «لم يرد هذا الملك المخرف ان يدفن احد البيض عنده لكى يتجنب كارثة تحل بقطاره فحفظ الطفل ليرده إلى ابويه حينما يطلق سراحهما [2] » وقد أراد رئيس من قبائل « الكفرة »أن يعبر عن تعلقه بمبشر كان قد رفض مغادرة القطر ، وان يشكره على ذلك ، فقال له : « يجب ان تموت هنا ، ولا ينبغى لك ان تذهب لتموت فى مكان آخر . اذا ابيضت عظامك هنا . وأنك «ستطلب» اذ لا يموت شخص دون ان يطلب [3] . » ومعنى ذلك أنك واحد منا وانك جزء من مجموعاتنا الإجتماعية التى تحتاج اليك ، وبالطبع ستكون جزءا منها بعد موتك كما أنت الآن .

ويزيد حرص الأحياء على القيام بالواجبات المعتادة ازاء الموتى الجدد ، اذا كان هؤلاء الأخيرين سىء الطويه ، مستعدين لارتكاب الشرور ضد اولئك الذين بقوا بعدهم على قيد الحياه . ولا يهم فى شىء ان يكونوا حسنى الخلق فى اثناء حياتهم ام لا ، لأن طباعهم تتغير فى حالتهم الجديدة ، وتصير مياله للانتقام سريعة الغضب . ولعل ذلك لأنهم يصبحون تعساء ضعفاء متألمين فى اثناء تحلل أجسامهم . وهكذا نرى ان واسنبار يو Ouasinpario كان واحدا من اولئك الأشخاص السعداء الذين يعيشون فى سلام مع جميع العالم . ويشهد البدائيون أنه لم يقتل أحدا قط ولم يأكل لحما بشريا وان سهامه لم تسبب موت الضحية فما هى النتيجة التى يستنتجها البدائيون من ذلك ؟ انهم يستنتجون ابعد النتائج عن ذهننا : وهى انه لما كان «واسنبار يو» صالحا فى حياته ، وجب بضرورة الحال

---

(١) كافزى Cavazzi : Istorica descrizione de tre regni di Congo, Ma'amba ed Angola ، ص ٥٦٩ .

(٢) Missions evangeliques ، ج ٤٥ (١٧٨٠) ، ص ٢٨٠ .

(٣) Letter from the Rev . Gl:dwin Rutterworth , Koffraria فى Wesleyan Missiounary notices ، مجلد ٩ (١٨٥١) ، ص ١٩٢ .

ان يكون شريرا بعد مماته . وقد اكدت الحوادث هذه الخرافة ، إذ مات بعده بأيام قليلة اثنان او ثلاثة من البدائيين الذين هدتهم السنون أو الأمراض ، فراح الأهلون يقولون لنا « اترون إلى اى حد اصبح واسبناريو هذا شريرا! » وعلى الفور قام قسيسان من قسس الإقليم ليؤديا الواجب ويطردا اتارو Ataro واسبناريو ، اى شبحه أو روحه أو خياله الذى كان يحوم على الشاطىء كما يقولون [1] »

وقد رفضت قبائل البيا Pia (فى الجزيرة نفسها) رفضا باتاً أن يدفن عندهم مبشر مات مريضاً . وكانت حجتهم فى هذا الرفض أن « أتارو » هذا الشخص لم تقتل أحداً قط فى حياته . فلابد اذن أن تقتل كثيراً من الناس بعد مماته [2] . ويقولون فى غينيا الجديدة الإنجليزية « ان نوايا الميت الحديث بالنسبة إلى الأحياء سيئة دائما . والناس هناك يخشون زياراته [3] » .

ونجد هذه المعتقدات نفسها فى افريقية الغربية . « قد تكون اخلاق الشخص مثلا أعلى فى الصلاح فى حياته ، بل قد تكون علاقاته بأسرته على خير مايرام وقد يكون منظوراً إليه على أنه روح رضى . ولكن ذلك كله لا يمنع ذويه من الاعتقاد بأنه جدير بإهمال مصالحهم ، بل بتضحيتها ، إذا لم يؤدوا له الواجبات المعتادة ، او اذا لم يرض عن سلوكهم وموقفهم بالنسبة إليه [4] . » وعند قبائل « البانا » فى « الكمرون » مهما كان الشخص صالحا فى حياته ، فإنه بمجرد أن تنطفىء روحه لا يفكر إلا فى عمل الشر [5] . »

---

(١) ل فرجيه L . Verguet : Hsitoire de la premiere mission catholique au vicariat de Mélanésie (San Christobol

(٢) المرجع نفسه ، ص ٢٨١ (ملاحظة)

(٣) ر . و . وليمسون R. W. wiliamson The Mafulu mountain people of British New Giunea ، ص ٢٦٩ .

(٤) ماجورا . ج . ليونارد The lower Niger and i's tribes ، ص ١٨٧ .

(٥) ج . فون هاجن Die Bana فى Baseler Archives مجلد ٢ (١٩١١) ، ص ١٠٠

ويستطيع الفعل الضار الذى يأتى من قبل الميت الحديث أن يحدث على صور لاتحصى عدداً. وأخشى مايخشاه الأهالى من قبل هذا الميت أن يسوق معه شخصاً أو عدة أشخاص ممن تركهم أحياء. إذ يشعر بأنه وحيد مهجور ويحن إلى الاجتماع بذويه. وبالتالى يود أن يقربهم منه، فإذا مرض فى هذه اللحظة بالذات واحـــد منهم أو مات عرفوا من أين جاءت الكارثة. هذا ويظن الأهالى ان لبعض الموتى الجدد تأثيراً غيبيا على الظواهر الطبيعية وخصوصاً تلك الظواهر التى لها أهمية حيوية للمجموعة الاجتماعية. «إذا وقعت ظواهر طبيعية، كالعواصف الشديدة مثلا، عند موت شخص او فى أثناء جنازته، عزوا وقوعها إلى تأثيره وبالتالى إذا هددت عاصفة بالظهور فى أثناء الاحتفال بالجنازة، طلب الناس إلى ابن الفقيد المفضل لديه ان يوقف المطر. فيتجه نحو جهة الأفق التى تهدد بالعاصفة ويقول: «ابى» ليكن وقتنا صحوا فى اثنـــاء جنازتك.»[1] — «كنت اعرف شابا مات، وبعد موته بساعات هاجت فى المدينة عاصفة مروعة انتزعت اشجار الموز وسببت للزارع خسائر جمة. فراح الشيوخ يؤكدون جادين ان روح «موبمب» Mopembe (اسم الشاب) هى التى أرسلت العاصفة[2]».

وهكذا يستطيع الميت الحديث ان يعاقب القبيلة بأسرها، إذا لم تؤد له الواجبات الجنائزية على النحو المرتجى؛ فى وسعه ان يمنع المطر وان يوقع الأحياء فى أشد انواع اليأس. وهذا هو السبب فى ضروب النزاع التى تقع بضرورة الحال بين الأهالى والمبشرين الذين يرمون القضاء على الطقوس الوثنية. وهذا مثل واضح من امثلتها: «طرد رجل زوجته التى اعتنقت المسيحية وعاشا منفصلين عدداً من السنين؛ وكان للرجل زوجة اخرى بقى معها حتى

---

(١) القس ح. هـ. دنكس Anothropological notes on the Bangala of the upper Congo river. فى J. A. I.، مجلد ٤٠، ص٣٨٣.

(٢) المرجع نفسه، ص ٣٧٣.

وفاته ... وسرعان ماقبض شيخ « الكرال » kraal (اى الجماعة) التى كان ينتسب اليها الفقيد، على المرأة المسيحية واجبرها على أن تقاسى هى والمرأة الوثنية سلسلة من الإجراءات التى رآها ضرورية لاخماد غضب كائن وهمى زعم أنه إذا لم يسترض عمل على الانتقام بقطع الأمطار عنهم فى الفصل المقبل وحرمانهم من الماء الضرورى لهم ... وتدخل المبشر « فلم يتنازل الطاغية العجوز عن شيء مما صمم عليه ؛ وأصر على القول بأنه لا يعمل إلا ما يعتبره ضروريا لحماية مصالح شعب « بارولنج » Barolong [1] .

— ٤ —

لا بد اذن من إرضاء الميت الجديد بأى ثمن . وتختلف مطالبه باختلاف الجماعات وكذلك باختلاف المكانة التى كان يشغلها داخل مجموعته . فاذا كان طفلا صغيرا أو عبدا رقيقا أو زوجة لأحد الأشخاص العاديين او شخصا عاديا فقيرا لا خطر له او شابا لم يتعهد بعد بضروب الرياضة ، بقى بعد موته كما كان فى حياته ، ولم يهتم به أحـــد اهتماما يذكر . فيبكيه من كانو يحبونه ، ولكن لا يخشى جانبه احد . اما « المطببون » والرؤساء وارباب الأسر والشيوخ الذين ظلوا عاملين مبجلين ، اى كل الشخصيات ذات المكانة ، فلا يفقدهم الموت شيئا من اهميتهم . فيجمعون بين النفوذ الذى كانوا يباشرونه بمقتضى قوتهم الخاصة ، اى بمقتضى « ماناتهم الشخصية (manas) وتلك القدرة الغيبية الرهيبة التى تخلعها عليهم حالة كونهم من الموتى الجدد . إذ انهم فى هذه الحال يستطيعون فعل اشياء كثيرة ضد الأحياء ، ولا يكاد الأحياء يستطيعون فعل شيء ضدهم . واغلب الظن ان بعض الجماعات تحاول احيانا تعجيز الميت الجديد الذى من هذا القبيل عن فعل الشر بتشويه جثته أو بسحقها سحقا تاما ، أو بمطاردة روحه أو تضليلها . ولكنهم على وجه العموم يرون من

---

(١) خطاب من القس كمرون Cameron . فى Wesleyan missionary notices مجلد ٦ (١٨٤٨) ، ص ٩ .

الأضمن لهم أن يتحببوا ، اليه أى أن يجيبوا رغباته . » والسبب الأساسى الذى يحدو بأحد الأهالى إلى القيام بكل الواجبات التى يفرضها عليه الحداد ، ينحصر غالبا فى الخوف من استثارة غضب الميت الذى يعتقد الناس أن انتقامه أخطر من انتقام العدو الحى [١] »

وفى عدد كبير من الجماعات المتأخرة الأخرى، كما فى استراليا مثلا ، يسعى أهل الميت الحديث إلى إيجاد الشخص الذى « حكم » على فقيدهم ثم يجرعونه الموت بدوره كوسيلة للتحبب إلى ميتهم ، أو لاتقاء غضبه فحسب . ولو أن هذا الالتزام نفذ بصرامة لأدى إلى انقراض هذه الجماعات بسرعة البرق . إذ أننا نعرف ضعف إنتاجهم وارتفاع نسبة الوفيات بين أطفالهم ، فلو ترتب على موت كل مراهق موت واحد أو أكثر من المراهقين الآخرين ، لسارع الفناء التام إلى هذه الهيئات والعشائر الاجتماعية . والحقيقة أنهم لا يسعون إلى الانتقام على هذه الصورة إلا لموت الأشخاص ذوى المكانة الممتازة . هذا إلى أن ذلك الانتقام يقتصر فى بعض الحالات على نوع من التمثيل ، وقد وصف الأستاذان « سبنسر » Spencer و « جلن » Gallen بالتفصيل حملات الانتقام المسماة « كرديتشا » Kurdaitcha عند قبائل « الأرنتا » [٢] Arunta . وتوجد تلك الحملات عند غير هذه القبائل بصورة مماثلة تقريباً . ولكن كثيراً ما يرجع الرجال الذين قاموا بها إلى معسكرهم دون أن يقتلوا أحداً ، ولا يطلب إليهم أحداً أن يعللوا هذه الظاهرة . ويظل النساء وباقى أفراد المجموعة مقتنعين بأن الترضية اللازمة للفقيد قد تحققت ، ولعل الذين قاموا بالحملة أنفسهم ينتهون إلى اعتقاد ذلك أيضاً .

يقول الأستاذ إيلمان Eylemann : « تقضى التقاليد بالانتقام لكل اغتيال

---

(١) ا . ايلمان Die Eingebornen der Kolonie Sud : Eylmann Australiem ، ص ٢٤٢ .

(٢) سبنسر وجلن The native tribes of Central Australia ، ص ٤٧٦ وما يليها .

يقع ، وأعتقد أن هذا الانتقام لا يقع بالفعل الا فى حالات نادرة جداً ؛ لأن هؤلاء القوم على وجه العموم يخشون كثيراً أن يجروا على أنفسهم عداء القاتل المزعوم . ومع ذلك فلا بد من المحافظة على المظاهر ... فإذا عاد المحاربون دون ان يمسوا شعره من شخص ، فلا شك أن الميت يعتبر نفسه راضيا لأن ذويه قد قاموا بكل ما فى طوقهم للانتقام لموته ، من حيث المظهر على الأقل [1] » .

قد نتساءل عما إذا كان الميت الحديث يستسلم للخداع على النحو ، ثم ألا يمكن لهذا الخداع ان يجر أسوأ النتائج على اصحابه ؟ الواقع ان العقلية البدائية لاترى فى ذلك خداعا صارخا . نعم ، اغلب الظن ان هناك حالات لا يرضى فيها الميت الحديث تمام الرضى إلا بموت الجانى . ولكن مجرد القيام بحملة الانتقام ينطوى فى حد ذاته على قيمة وتأثير مرضيين ، سواء أأدى إلى قتل الجانى أم لم يؤد ؛ وذلك لأن هذه الحملة تؤثر تأثير الطقوس التى تطفىء غيظ الميت الحديث وتهدىء من روع الأحياء . وهذا هو ما رآه « تالبن Talpin » إذ يقول «إنهم على وجه العموم لا يستطيعون إصابته (مرتكب الموت) ، والواقع أنهم لا يحرصون على ذلك . فنى غالب الأحيان يأخذون اهبتهم لموقعة منتظمة . وتلتقى القبيلتان وكل منها مصحوبة بحلفائها ... فإذا كان بين القبيلتين سبب آخر للعداوة تقاتلتا بشىء من الجد بطعنات الرماح . اما إذا كان الميت الجديد سبب القتال الوحيد ، فربما تراشقتا ببعض السهام وتبادلتا أوفى نصيب من الشتائم ، وقد يجرح شخص او شخصان جروحا خفيفة ، وحينئذ يعلن الشيوخ ان هذا كاف . ويعتبرون ان غضب الميت قد هدأ نتيجة للجهود التى بذلها ذووه للانتقام لموته بطريق القتال . وبعد ذلك تتصافى القبيلتان . وليس

---

(١) ايلمان ، المصدر سابق الذكر ، ص ٢٤٢ .

القتال فى هذه الحالة إلا ضربا من الطقوس[1] . »

وقد كشف مبشرو غينا الجديدة الألمانية عن الصلات الوثيقة للتى تظل تربط بين الميت الحديث ومجموعته . ووصفوا ضروب العناية التى يقوم بها الأحياء لإرضائه ، « يعتبر الأهلون أن زيارة القبر أمر واجب عليهم . وتعد هذه الزيارة فى نفس الوقت برهانا على براءتهم . فاذا امتنعت قرية عن الحضور كان معنى ذلك أنها غير مستريحة الضمير [2] . » والواقع أن مفعول السحر يبطل فى نظرهم بمجرد أن يمس الساحر جسم المسحور ، ولذلك يضطر هذا الساحر إلى تجنب الاتصال بالمريض وبالتالى لايجرؤ على إظهار عطفه عليه بزيارته إياه . » فإذا مات الميت لم يستطع الساحر حضور جنازته لأنه فى هذه الحالة يعرض نفسه لإكتشاف أمره . وتعتقد قبائل « الكاى » Kai أن الميت الموضوع فى تابوته يتفل اللبان الذى وضع فى فمه أو يظهر علامة أخرى من هذا القبيل بمجرد أقتراب عدوه الدود من تابوته . وهذا يفسر لنا الريب الذى يحمله أقارب المريض أو الميت ضد أولئك الذين لايزورون مرضاهم أو الذين لايظهرون فى جنازة موتاهم [3] . »

ومهما يكن من شيء فانه يجب على الأحياء أن يشعروا الساحر بغضهم ، ويعاقب الأقارب الذين يهملون ذلك بكوارث من جميع الأنواع . فتهلك على الفور حاصلاتهم وتموت خنازيرهم وكلابهم وتفسد أسنانهم . وهذا هو انتقام الروح التى ذهبت . أما الروح « الصغيرة » (تميز قبائل « التامى » Tami بين روح كبيرة وروح صغيرة) فتظل بجوار القبر إلى أن يخرج الدود من رمة

---

(١) الأب ج. تالبن G. Talpin The Narrinyeri tribe ، ص ٢١ .

(٢) ر. نويهاوس Deutsch Neu Guinea ، (حوالى رأس الملك غليوم) ، الجزء الثالث ص ٢٥٨ — ٢٥٩ .

(٣) المرجع نفسه (كاى Kai) مجلد ٣ ، ص ١٣٤ .

الميت [1] . » كل هذا يدل على أن الاهالى لديهم من البواعث الملحة مايدفعهم إلى إرضاء الميت الحديث ، ولكن هذا الخوف لا يستمر على شدته إلا فى الأوقات التى تعقب الموت مباشرة ، وبمرور الزمن تطمئن القلوب شيئا فشيئا وفى النهاية « يتوقف إستمرار الحداد وعدمه على الميت نفسه . فاذا ساعد صيادى قريته على إقتناص صيد كثير ، دامت احتفالات الحداد زمنا طويل . وإذا لم يحصل لهم على صيد أو إذا لم يحصل لهم إلا على القليل منه ، زالت ذكراه بعد زمن قصير . ويمكن الأم أو الارمل أن يتزوجا من جديد ، فليس لذلك علاقة باحتفالات الحداد [2] . »

ينحصر الالتزام الأساسى الذى يقع على كاهل أهل الميت فى الانتقام له بمجرد وقوع الموت ، وتكاد هذه الحالة تكون السبب الوحيد فى إثارة الحروب بين قبائل «الكاى» . إذ أنهم يريدون إهلاك الساحر أو السحرة ، ويودون أن يستأصلوا معهم جميع بنى قرابتهم ، ليستطيعوا فى النهاية أن يعيشوا فى سلام . وتطلب روح الميت من أهله أن يثأروا له ، فاذا لم يتحقق ذلك ، كان عليهم أن يتحملوا وزره . ولا يقتصر العقاب على حرمانهم النجاح فى الصيد ؛ بل إن الروح قد ترسل عليهم الخنازير البرية فتهلك حقولهم ، وتسبب لهم جميع أنواع الخسائر . وفى هذه الأثناء لا تحل مصيبة كانقطاع المطر أوحدوث بعض الأمراض من جراء الإصابة بالبرد أو إصابة بعض الأشخاص بجروح من أى نوع إلا عزاها القوم إلى انتقام الروح . لذلك يجد الأهالى أنفسهم فى أشد حالات الإشكال . والواقع أن الفرد من أفراد البابو أو الكاى لم يكن ليدخل فى حرب قط ، لو لم يكن خوفه من انتقام الأرواح أشد من خوفه من الناس ؛ ولولا ارتباطه إلى جانب ذلك بأشيائه القيمة وخنازيره [3] . » وهكذا نرى أن الفرد منهم يعرف تمام المعرفة أنه إذا اكتشف الساحر المزعوم فى قبيلة مجاورة ثم

---

(١) المرجع نفسه مجلد ٣ ، ص ٥١٩ .
(٢) المرجع نفسه ح ٣ (الكاى) ص ٨٣ .
(٣) المرجع نفسه ح ٣ ، ص ٦٢ — ٦٣ .

قتله أدى ذلك إلى إثارة الحرب . وهو لذلك يحرص على التروى وتقدير ما يمكن أن تسبب الحرب له من خسائر ليحزم أمره وهو على بينة منه. ولكن الكوارث التى يمكن أن تترتب على حنق الميت لا حد لها ، ومهما كانت الكوارث التى يستطيع هذا الشخص أن يقدر وقوعها من هذه الناحية، فانها ليست كل ما يمكن أن يحل به منها . فقد تنقض عليه غيرها وهو أبعد ما يكون توقعا لها . فإذا لم يكن هناك بد من أحد الضررين فانه يفضل الضرر الذى يعرفه على وجه التحديد ، ولا سيما أن مساعدة الميت الإيجابية ضروريه لنجاح مشاريعه أيضاً .

وكذلك الحال فى «بوين» Buin (بوجانفيل Bougainville)، فإن أرواح الموتى على وجه الخصوص هى التى تتدخل فى حياة الناس فتعمل على نجاحهم أو فشلهم . لذلك يتوجهون إلى الأسلاف لكى يحصلوا على عونهم . . . فيحملون إليهم القرابين وينحرون لهم الضحايا [1] . » أما عند قبائل «الداياك» Dayak فى برنيو ، فقد وضح الأستاذ برهام Perham ، ذلك الباحث الممتاز ، علاقة التضامن التى تربط الاحياء بأمواتهم والخدمات التى يؤديها كل فريق منهما للآخر ، فقال : «يعتقدون أن الموتى يشيدون المنازل ويزرعون حقول الأرز ويقاسون جميع المتاعب التى تتطلبها حياة العمل . ويجرى عليهم مايجرى على الأحياء من عدم التكافؤ فى الفرص . وهم يرون أن الموت لا يقطع بالضرورة تلك العروة التى تجعل أفراد مجموعة ما يتبادلون المساعدة فيما بينهم ، كما لو كانوا يتبادلونها وهم على قيد الحياة . فيستطيع الحى أن يساعد الميت ويزوده بالأغذية والأشياء الضرورية الأخرى ذات الخصائص السحرية والتمائم والطلاسم بجميع أنواعها ليساهم فى عملهم [2] . » فى هذه الفقرة يذكرنا الأستاذ برهام بأن الأموات يكونون مجتمعا يماثل كل المماثلة مجتمع الأحياء، وأنه يوجد بين المجتمعين

---

(١) ر. تورنفالد R. Thurnwald : Im Bismarck Archipel und auf Solomo Inseln . ف «Zeitschrift für Ethnologie» مجلد ٤٢، ص ١٣٢ـ٣٣

(٢) هـ. لنج روث H. Ling Roth . Native of Sarawak ، ج ١ ، ص ٢١٣

تبادل فى المنافع : لأن كلا منهما محتاج إلى الآخر . ولكن الأمر يدور هنا حول الأموات الذين استقروا فى حياتهم الجديدة بعد انتهاء جميع المراسيم الجنائزية على أكمل وجه وكما ينبغى أن تكون . أما الميت الجديد فحاله لدى الدياك كحاله لدى غيرهم إذ يعتقدون أن له مطالبه الخاصة مادام يجتاز فترة الانتقال ، أى ابتداء من اللحظة التى يكف فيها الجسد عن الحياة . ولا يسع الأحياء أن يصموا آذانهم عن هذه المطالب ، وإلا جلبوا على أنفسهم غضبه وبالتالى تسببوا لأنفسهم فى أفدح الكوارث . »

ونحن نعرف أن هذا أحد الأسباب الدافعة إلى (صيد رءوس البشر - Head hunting)المنتشر جدا فى برنيو والأقاليم المجاورة لها. والمواطن الأصلى هنا أيضا يمر بنفس المأزق الذى رأينا قبائل الكاى فى غينا الجديدة تمر به : فعليه أن يحضر رأسا أو عدة رءوس بشرية من حملة يقوم بها لذلك الغرض عمدا ، وإلا أصبح هدفا لانتقام الميت الذى لا ينصب عليه وحده بل على ذويه وعلى الجموعة كلها أيضاً . ولا شك أن أفراد الدياك مثل أفراد الكاى تماما ، فيختارون أخف الضررين . وهذا أحد تلك الأحداث ذات الدلالة الخاصة « ظهر ذات يوم فى «سرواك» Sarawak «لنجير» Lingir رئيس إحدى قبائل الساريتا Saritas وهو حليق الرأس مغطى بأسمال ومعه متاع يرثى له ؛ ولكن كانت تصحبه ثلاث وثلاثون سفينة . ولم يكد يستقر به المقام حتى طلب من الراجا أن يسمح له بمهاجمة قبائل «الداياك» فى «لندو Lundu أو فى « سمر هند Samer hand » وعلل هذا الطلب الغريب بأن أخاه قد مات، وأنه لا يستطيع الاحتفال بالجنازة قبل أن يحصل على رأس أحد الأهالى ... لم يحصل لنجير بطبيعة الحال على الطلب الذى جاء يلتمسه فى سرواك بل دعى إلى مغادرة الجزيرة مع أسطوله فى الحال . فنفذ هذا الأمر ولكن بعد أن استولى على رءوس أربعة من الصيادين المساكين الذين وجدهم فى طريقه [1] . » فهذا

(١) هيو لو ، Sarawak , Hugh Low ص ٢١٥ — ١٦ .

الرئيس لم يكن يجهل أنه من المحتمل جدا أن يعلم الرئيس بفعلته وأنه لو علم بها لاضطره إلى الإجابة عليها ، ولربما دارت عليه بشر الدوائر . ولكنه فضل أن يخاطر هذه المخاطرة حتى لا يعود إلى بيته دون الحصول على ما اعتبره حد ضرورى لإرضاء روح أخيه الميت .

ويبدو أن مثل هذه العادة كانت موجودة فى الكمرون أيضاً . يقول « منسفلد Mansfeld » يظهر أن موت الرؤساء كان يؤدى فيما سبق إلى حرب صغيرة . فإذا مات رئيس من قرية « ا » مثلا ذهب رجلان أو ثلاثة من رجالها إلى قرية « ب » التى تبعد عن قريتهم بثلاثة فراسخ مثلا ، فيختبئون فى كمين ويقتلون رجلين من رجالها دون استشارة منهما ثم يعودون برأسيهما . وكان يترتب على ذلك بطبيعة الحال أن تثأر قرية « ب » لنفسها[1] . »

فليست العلاقات التى بين الأحياء والموتى بأقل توثقا من تلك لدى بعض الجماعات التى تفوق الجماعات السابقة فى درجة التقدم ، كقبائل البانتو Bantous مثلا وغيرهم من سكان أفريقية الجنوبية الأصليين . ولكنهم أحسن نظامها من أولئك وأميل إلى إقامة نوع من عبادة الموتى ، وإن كانت هذه الممارسات تختلف فى حقيقة الأمر عما نسميه نحن بهذا الإسم من وجهات كثيرة .

لاشك إذن أن الموتى يعيشون فى نظر البدائيين . يقول ت. هان Th. Hahn « قابلت امرأة من قبائل النماكوا « Namaqua » فى الصحراء ، فسألتها قائلا : ماذا تصنعين هنا ؟ فأجابتنى : أيها الصديق لا تسخر منى ؛ فإنى فى كربة شديدة . تحالف الجفاف والبشمانيون علينا وأفقدونا عدداً كبيراً من رؤوس الضأن والثيران . فجئت أسعى إلى قبر والدى الذى مات فى الصيد . وهناك سأصلى وأبكى ، وسيسمع صوتى ويرى دموعى ويعطف على زوجى الذى خرج لصيد النعام ، وحينئذ سنصبح قادرين على شراء المعيز والأبقار وتوفير الطعـــام

---

(١) منسفلد Mrwald Dokumente . Vier Jahreunter Mans feld den Cross flussnegern Kameruns ، ص ١٥٨ .

لأطفالنا . فقلت لها : ولكن أباك قد مات ، فكيف يمكنه أن يسمعك ؟ فأجابت : نعم ، لقد مات ، وهذا حق ولكنه ليس إلا نائماً . نحن معاشر الهو تنتوت كلما حلت بنا كارثة — ذهبنا للصلاة على قبور آبائنا وأسلافنا : هذه إحدى عاداتنا القديمة[1] . »

فما كنه هؤلاء الموتى الذين يعتبرون أحياء ؟ من العسير جداً ، إن لم يكن من المستحيل أن نكوّن عنهم فكرة مرضية ؛ إذ أن هذه التصورات تختلف من جماعة إلى أخرى تبعاً لتكوينها ودرجتها من التقدم . يضاف إلى ذلك أن البدائيين فى كل مكان تقريبا يعتقدون أن الميت الحديث يمر مرا سريعاً بعدة حالات انتقالية قبل أن يصل إلى حال نهائية نسبيا لا يخرج منها إلا بموت جديد أو بعودته إلى عالم الأحياء . وكثيراً ما تتعارض هذه التصورات فيما بينها . ونحن نعرف أنها شديدة الارتباط بالناحية الانفعالية ، وأن العقلية البدائية لا تهتم بالتأليف المنطقى إلا قليلا ، وأننا فى نهاية الأمر لا نجد فى أية هيئة اجتماعية بدائية مجموعة من التصورات ترجع إلى زمن واحد وتكون نظاماً مؤتلفاً . فكل ما لدينا منها يجعلنا نظن أن بعضها جد قديم ، وأن البعض الآخر جاء متأخرا فاختلط بذلك الرصيد الأول على مر القرون دون أن يكون ملائماً تمام الملاءمة . فليس أمامنا اليوم إلا نوع من المزيج المختلط أو الكل المعقد الذى يصعب علينا تحليله صعوبة معرفتنا لطبقات قطعة من الأرض لا يرى منها إلا سطحها) .

هذا الغموض الشديد الذى يحيط بطبيعة التصورات نفسها يزداد غموضاً على غموض بين أيدى الباحثين الذين ندين لهم بمعرفتها . إذ أنهم يجمعونها وهم متأثرون بأفكارهم السابقة المتصلة ببقاء الروح وخلودها . لذلك لا يحسبون أى حساب للفرق الذى يفصل بين تفكيرنا التصورى المعنوى وبين تفكير البدائيين البعيد عن ذلك كل البعد ؛ فتأتى ملاحظاتهم بعد هذا التزييف الذى اعتراها ناقصة

---

(١) ت. هان Th. Hahn ، Tsuni Goem، ص ١١٢ — ١١٣ .

إلى حد كبير وغير مفيدة فى غالب الأحوال . وذلك لأن كلمة روح (âme) من جهة والفكرة السائدة عندنا عن علاقة الروح بالجسم من جهة أخرى يسببان نوعا من الخلط يستعصى على الحل . ولما كان قانون المشاركة يتحكم فى التصورات الخاصة بالتعامل بين الأحياء والأموات ، كان الأموات ، يعتبرون حاضرين بالرغم من أنهم غائبون ، وكانت أرواحهم مندمجة فى جثثهم التى تتحلل بالرغم من استقلال الأرواح عنها ؛ فلا تكاد تنقضى بضعة أيام على موت الفقيد حتى يكون فى آن واحد موجوداً فى قبره وبجوار المنزل الذى مات فيه وبعيداً عنه فى طريقه إلى إقليم الظلال ، إذا لم يكن قد وصل إليه بفعل . أما لأشخاص الذين كانوا فى حياتهم يحتلون مكانا مرموقا ويشغلون وظائف هامة ، فإنهم يستمرون فى ممارستها ، بالرغم من أن غيرهم قد خلفهم فيها . فيعتقد كثير من قبائل ، « البنتو » مثلا أن رؤساءهم المتوفين يظلون يحمونهم عند الحاجة ، ويوفرون لهم المطر وينظمون إطراد الفصول كما كانوا يفعلون من قبل . وكثيراً ما يظلون ما لكين لماشيتهم التى لا يجوز لأحد التصرف فيها ، ولذلك يوكلون بها حراساً يحرسونها . وفى العادة يتبعهم فى عالمهم الآخر بعض نسائهم وعبيدهم وبعض الأشياء التى تحمل طابعهم الشخصى ، وهلم جرا . وعلى كل حال يعتبر الأموات بوجه عام ، على اختلاف درجاتهم ، جزءاً متمما للهيئة الاجتماعية لدى البدائيين . ولا يحس الفرد من أفراد الهيئة الأحياء بأنه منفصل عنهم تمام الانفصال . بل تظل عليه الالتزامات نحوهم ، ولا يدهشه من أمر هـــذه الالتزامات شىء إلا إذا فرضنا أنه يدهش أيضاً من التزاماته نحو الأحياء .

وقد ابدعت لنا قبائل « الموسى » Mossi المقيمة فى حوض النيجر صورة رمزية مؤثرة لحضور الأموات المعتاد بين أفراد الهيئة الإجتماعية . فتراهم فى أثناء الفترة التى بين الوفاة والجنازة الثانية يكلفون أحد الأشخاص بتمثيل الميت تمثيلا ماديا ولعب الدور الذى كان يقوم به فى حياته . يعتقدون أن « كل مسى » Mossi يموت بالمرض ، سواء أكان رجلا أو امرأة أو طفلا أو نبأ

(رئيسا) ، يظل حيا فى شخص « الكوريتا » kourite . فاذا كان الميت رجلا متزوجا كانت الكوريتا أو « الكوتوارسا » koutoarsa (الشخص الذى يحاكى الميت) امرأة من اسرته ، والشائع أن تكون احدى زوجات أخ من أصغر اخوته سنا ؛ على أن يكون بينها وبين الفقيد بعض الشبه ؛ والأسرة هى التى تختارها عادة ، وفى بعض الأحيان يعينها الميت نفسه قبل وفاته . فتأخذ هذه المرأة ثياب الميت وغطاءه وقلنسوته وحذاءه واساوره وخواتيمه ، وتحمل منطقته وسكاكينه ، وتسير بعصاه وفأسه ومذهبته . وتحمل رمحه على أن تنكس سنه وتسير كما كان يسير ، وعليها أن تحاكيه فى كل شىء ؛ فهى استمرار لشخصه بين ذويه . وإذا كان من عادة الميت أن يصحبه طفل يحمل مخلاة ، اتخذت الكوريتا أيضاً لها طفلا يتبعها بهذه المخلاة عينها ، على أن تكون مقلوبة الوضع ؛ وإذا كان الفقيد مجذوما فاقد الأصابع ، وجب عليها أن تظهر كما لو لم يكن لها اصابع ، وإذا كان يحب الضحك ، فعليها أن تضحك ؛ وإذا كان سيء الطبع كثير الشجار مع من حوله اظهرت نفسها فى حالة غضب لا ينقطع . ويدعوها أطفال الفقيد بأبيهم وتسميها النساء زوجهن ويجهزن لها عصيدة الشعير .

وإذا كان الفقيد « نبأ » دعيت الكوريتا « نبأ » وإذا لم يكن « نبأ » اطلق عليها اسم الميت .

وتستمر على هذه الحال حتى يوم « الكورى » kouri (الجنازة الثانية) وفى هذا اليوم تحلق رأسها كبقية أعضاء الأسرة ، وينتهى دورها . ولكنها تحتفظ باسم « كوريتا » وفى يوم تقسيم التركة تعطى ثوبا بدلا من أثواب الفقيد التى ردتها بعد انتهاء دورها . وإذا كان الوارث سخيا أو إذا كانت التركة كبيرة منحت بعض المواشى ، وفى بعض الأحيان تعطى طفلا . ويقولون إن الكوريتا تموت قبل الأجل الذى كانت تموت فيه لو لم تمثل هذا

الدور ، لأن ارواح الأسلاف تأتى للبحث عنها ، لذلك كانت هـذه الوظيفة غير مرغوب فيها كثيراً [١] .

وهكذا فما دام المسى الذى مات لم ينفصل نهائياً عن قومة بوساطة الجنازة الأخيرة ، فانه يرى نفسه كما يراه الأحياء يجـــول بينهم كعادته فى صورة « الـكوريتا » . وهذا حضور حقيقى لغير الموتى وقد جعل مرئيا محسوسا .

ويعترف « كلاوى » kallaway الذى ترك لنا وثائق قيمة عن عقائد « الزولو » Zoulous بأن « نظريتهم هذه ليست مؤتلفة مع نفسها ولا يستطاع فهمها بشكل واضح يقولون إن الظل (واضح انه الظل الذى يعكسه الجسم) هو الذى يصير فى النهاية « الايتنجو » itango (أى الروح) عند موت الجسم ولقد أردت أن أعرف ما إذا كانت هذه هى فكرتهم حقيقة فسألته : « هل الظل الذى يعكسه جسمى حين أسير هـو روحى ؟ » فأجابونى « كلا ليس هو « الايتنجو » الخاص بك (الروح) . » من الواضح أنهم ظنوا أنى اقصد « بروحى » « روحا » تسهر على ، أى نوعا من الملاك الحارس ، لا روحى أنا شخصياً ، ولذلك أضافوا « ولـكنه سيكون أيتجو (أى روح السلف) . بالنسبة لأولادك بعد أن تموت . » ويقولون إن الظل الطويل يقصر حينما يقترب المرء من نهايته ، ويتقلص إلى شئ صغير جداً . وحينما يرون ظل إنسان ينحسر على هذا النحو ، يعرفون أنه سيموت . فالظل الطويل يذهب حينما يموت الإنسان ، وهذا ما يعنونه حينما يقولون : « ذهب ظله . » ولـكن هنئك ظل قصير يبقى مع الجثة ويحرق معها والظل الطويل يصـير « ايتنجو » أو « روح سلف » [٢] » .

---

(١) أوجين منجان Eugène Mangin: Les Mossi, فى Anthropos ، حـ ١١ (١٨٩٤) ص ٧٣٢ — ٣٣ .

(٢) س. هـ. كلاوى The religious system of the amazulu ، ص١٢٦ (ملاحظة) وقارن : l'âme longue et l'âme courte de la nouvelle guenia فى نويهوس Deutsch Neu Guinea ، حـ ٣ ، ص ٥١٨ .

ومن أهم الأمور عندهم أن يعرفوا ميول « الأيتنجو » نحو الأحياء. لذلك يقومون للميت الجديد بضروب التكريم المعتادة ، ويحتفلون بجنازته تبعا للطقوس المعهودة ؛ فاذا لم يظهر « الأيتنجو » بعد ذلك علامة على وجوده ، قلقوا وحاولوا أن يعرفوا سبب هذا الصمت . ولكن الايتنجوا فى غالب الأحيان يبعث إلى ذويه بعلامات الرضى ، إما عن طريق احلام - يرونه فيها - وإما بظهوره أمام أعينهم فى صورة أفعى تدخل البيت . ويمكن المرء أن يميز جيداً هذه الأفاعى « الأيتنجو » من غيرها « تعرف الأفاعى ذات الطبيعة البشرية بأنها كثيرة الاختلاف إلى العشش وانها لا تأكل الفيران ولا تجفل من ضوضاء الناس .

« ويلاحظ دائما انها لا تخاف من ظل الآدمى . كما أنها لا تخيف الرجال ولا تحدث الرعب الذى يشيع فى الناس عادة عند وجود زاحفة متوحشة فى البيت ، بل على العكس من ذلك يشعر المرء عند رؤيتها بالسرور ، ويحس أن رئيس القرية قد حضر ... (1) » يرقبون بفارغ الصبر حضور هذه الأفاعى المطمئنة . وإذا ظهرت واحدة منها على القبر ، عاد الشخص الذى جاء لرؤيته ليقول فى سرور : « لقد رأيته اليوم يستدفىء فى الشمس فى أعلى القبر » . وإذا ابطأت فى الحضور إلى البيت أو إذا لم يحلموا بالميت ضحوا له بثور أو عنز وقالوا انهم بذلك ارجعوه إلى البيت . وإذا لم يحلموا به قلقوا ثم راحوا يتساءلون « كيف مات هذا الرجل ؟ إننا لا نراه ، إن « ايتنجوه » مظلم » (أى أنهم يرتابون فى وجود سحر) . وحينئذ يبحثون عن مطبب ، إن كان الميت رئيسا لقرية كبيرة ، وإن كان فقيرا لم يفعلوا شيئاً (2) .

اهتمام الأهالى باستمرار علاقتهم « بالأيتنجو » واضح هنا ، وهو راجع

---

(1) المرجع نفسه ، ص ١٩٨ — ١٩٩

(2) المرجع نفسه ١٤١ — ٤٣ . وقارن الدكتور فنجمان Wangemann Die Berliner Mission im Zululande ، ص ١٠٧

إلى الشعور بقدرة هذه الروح التى تتوقف عليها صحة سكان القرية ونجاحهم بل وحياتهم نفسها. وليست كل أرواح الموتى « أيتنجو » كما رأينا. فكل فرد من « الامهلوسى amohlosi » لا يصبح من أفراد « الأمتنجو amatongo »، ولكن الرؤساء الذين يموتون هم الذين يصبحون كذلك أولا وقبل كل شىء: إذ يحتل « الأيتنجو » فى عالم الأرواح مرتبة أعلى من مرتبة الأهلوسى ihlosi المعروفة ولكل اسرة « ايتنجوها » الخاصة فضلا عن الامتنجو الشائعة (جمع ايتنجو) بين القبيلة. ويقولون: « إن أبانا الذى يعرفه هو كل شىء فى حياتنا. » وينظرون اليه نظرتهم إلى الروح الحامية للأسرة [1]. فاذا هاجرت الأسرة ولم يظهر « الايتنجو » فى المقر الجديد، وجب عليهم أن يذهبوا للبحث عنه حيث كانوا فيكسرون غصنا من شجرة توت برى ويحملونه إلى الموطن القديم. ويقدمون له ضحية ويغنون الغناء المفضل عنـــد « الأيتنجو » لكى يقول فى نفسه: « حقيقة إن أولادى يشعرون بالهجران، لأنى لم أذهب معهم! » وحينئذ يجرون غصن التوت فوق الأرض حتى الموطن الجديد معتقدين أن « الأيتنجو » قد يتبع اثره أو يخبرهم فى الحلم بالسبب الذى يدفعه على عدم الاتيان معهم [2].

ولكن يجب على « الايتنجو » أن يظل جديرا بهذا التكريم والتبجيل اللذين يغدقهما الاحياء عليه. فاذا أهمل « الايتنجو » أن يحقق النجاح لذويه أو إذا حلت بهم الكوارث، ضاعفوا من توسلاتهم إليه فى بادىء الأمر، ثم لم يلبثوا أن يغيروا من مسلكهم نحوه فيخبرونه برأيهم فيه بلهجة شديدة. « يعتبر أبوهم الميت كنزا ثمينا بالنسبة إليهم. ويعرف الكبار من أولاده طبيعته وشجاعته. فاذا نزل مرض بالقرية راح الابن الأكبر يمدح الأب الميت بذكر أسماء الشرف التى حصل عليها فى قتال العدو.، وفى الوقت نفسه يمتدح جميع

---

(١) الدكتور فنجهان، المرجع سالف الذكر، ص ١٦.

(٢) المرجع نفسه. ص ١٧ — ١٨.

« لامتنجو » الأخرى . وقد يؤنب الابن أباه قائلا : « إذا متنا نحن ، فبمن تعنى إذن ؟ فلتمت وسترى إلى أى بيت تستطيع أن تأوى . إنك تركت قريتنا للهلاك ، فلن تجد لك طعاما غير الجراد ، ولن تجد من يشيد باسمك فى أى مكان . [1] »

يعتبر الشخص من « الكفرة » أن الماشية التى يملكها أعز شىء لديه . وهو يظل سيدا لها بعد موته . وإذا رأى أن الاحياء لا يقومون نحوه بضروب التكريم الكافية ، عرف كيف ينتقم منهم بإرسال أنواع الأذى والمرض إلى هذه الماشية وإلى الناس أنفسهم . . . » وبهذا يوجد عند الزولو إلى جانب العالم الحسى عالم من الأرواح يتصورون أنها مستمرة فى الحياة متصلة بالعالم الجنى . ويزيد من خوفهم إياها اعتقادهم فى قدرتها الدائمة على إنزال الشر بالناس مع بعدها عن أذاهم . فالاحساس الذى يشعر به الفرد من الزونو نحو عالم الأرواح هو إذن ذلك الاحساس الذى توحى به قوة عليا . والزولو يخدم هذه الأرواح لأنه يخشاها ، وإن كانت لغته التى يخاطبها بها وكلامه معها لا ينطويان على كثير من التبجيل [2] » .

ونجد فى إفريقية الاستوائية والغربية تصورات جماعية وعقائد مشابهة لتلك . وسأكتفى ببضعة أمثلة منها . فعند قبائل « الأديو » Adio فى أعلى الكنغو يعتقد الأهالى أن الميت الجديد يخبر الأهالى الاحياء بما يريد منهم فى الحلم « وحينئذ يجب أن يطرح الاحياء شئونهم ظهريا وأن يجيبوا طلب الفقيد بمجرد أن يستيقظ الحالم من نومه ، وإلا حلت بهم الكوارث والنكبات : فتنكسر الأوانى والأدوات التى يودون استعمالها . فاذا أرادوا أن يصنعوا اجعة مثلا خرجت رديئة ، وإذا أرادوا طبخ أغذية تكسرت الأوعية وهلم جرا .

« ويعمد بعض الموتى ، حين يريدون الظهور لأقاربهم الاحياء إلى التشكل

---

(١) ج . ه . كاوى The religious syatem of the Amazulu ، ص ١٤٥ .

(٢) الدكتور فنجهان . المرجع نفسه ص ١٤ — ١٥ .

بشكل أفعى ضخمة غير مؤذية ، ولا يراها إلا القريب الذى يريد المتوفى أن يظهر له . ويحدث هذا المشهد دائما بالقرب من الغير [١] . وفى «داهومى» يظل الابن فى حالة اتحاد فكرى مستتر معوالديه المتوفيين . فيتكلم إليهما كل يوم ويطلب حمايتهما . وإذا حلت به مصيبة سارع بالالتجاء إليهماوحاول أن يرضيهما بوساطة قرابين يقدمها على قبريهما . أما هما فيستمعان إلى توسلاته دون شك ، ويتدخلان من أجله لدى السيد المشترك . [٢]

وقد لوحظت هذه الظاهرة أيضاً فى أفريقية الشرقيةعند قبيلة من «البنتو» وهى ترينا إلى أى حد تختلط مصالح الأحياء بمصالح الأموات ، وتكشف لنا عنمقدار تأثير كل منهاعلى الأخرى . « إذا قتلشاب أعزب بعيدا عنقريته عادت « مويمو » mumu إليها ، وتكلمت بوساطة أمرأة عجوزفى أثناء الرقص فتقول أنا فلان ، أريد امرأة . » وحينئذ يتخذ أبو الشاب أهبته لشراء امرأة من قرية أخرى ، ويحضرها إلى قريته ، حيث تعتبر زوجة الفقيد ، وبعد ذلك بقليل يزوجونها لأحد أخوة الفقيد ، ولكن يجب عليها أن تواصل العيش فى القرية التى كان فيها بيته ، فإذا حدث أن ضرب الزوج الفعلى هذه المرأة أو أساء معاملتها ، نفرت من جراء ذلك إلى بيت أبيها ، جاءت «مويمو» الميت لإقلاق أهل القرية وإصابتهم بالسوء ، ومن المحتمل أن تطالب الروح ، عن طريق الوسيط الذى استخدمته فى المرة الأولى ، معرفة السبب الذى من أجله أسىء إلى الزوجة حتى اضطرت إلى الفرار ، وحينئذ يقوم رئيس الأسرة ببعض المساعى لحمل المرأة الشابة على العودة ، خشية غضب روح الميت . [٣] فهم يعتقدون أن الميت يحضر متخفيا وأنه يحيط علما بجميع مايحدث لدى الأحياء ، وإذا أساء الزوج الفعلى إلىالمرأة التى زوجوها من الميت ،لم يغضب

---

(١) ا . هوتترو A. Hutereau Annales Notes sur la vie familiale et juridique de quelques populations du Congo blege فى La musée du Congobelge . Serie III . Documents ethnographiques جـ ١ ، ص ٥٠

(٢) ا. لى هيرسية A. Le Hérissé L'ancien royaume du Dahomy

(٣) ك . و. هبلى Kamba Further researches into Kikuyu and religious beliefs and customs فى J. A. I ، مجلد ٤١ (١٩١١) ص ٤٢٢ .

هذا الأخير على الجانى وحده، بل صب نقمته على الهيئة الاجتماعية كلها، ولذا يسارع رئيس الهيئة إلى منعها بمحاولة استرضاء الميت، وذلك لأن تضامن أفراد المجموعة يصل إلى حد يجعل سعادتها تتوقف فى كل لحظة على سلوك أى عضو من أعضائها نحو أمواتها.

وقد يدلى بعض الأموات برغبات غير معقولة وفى هذه الحالة لا يعتقد الأحياء أنهم مجبرون على تنفيذها: فمثلا «إذا جاءت روح وقالت: أريد نسيجا، قال ذووه «إنه مجنون!» ولم يجيبوه إلى طلبه قائلين «نسيج؟ ماذا يصنع به؟ لقد دفنا بعضا منه معه حين مات، وهو ليس فى حاجة إلى مزيد منه». ولكن إذا كان الطلب معقولا، ولو قليلا (كأن يطلب صياد عجوز بعض اللحم مثلا)، أجابوه على الفور، وعنوا بملاحظة ذوقه الشخصى. وإذا طلبت الروح منزلا، شيدوا لها منزلا»[1]

— ٥ —

هذه هى حالة الموتى الجدد الذين لا تزال ذكراهم حية فى الأذهان والذين لا يزال الأحياء يذكرون سماتهم وأخلاقهم ويتكلمون معهم فى المنام، بل فى اليقظة أيضا إذا صح ماترويه الآنسة كنجسلى Kingsly. وإلى جانب هؤلاء يجب ألا ننسى نفس الموتى القدامى ومنهم من لم يعرفهم الأحياء أو من لم يعرفوهم إلا قليلا، لأنهم اختفوا من الحياة منذ زمن طويل، ولكنهم ظلوا مع ذلك ذوى تأثير بالغ على مصير الأحياء. وقد أطنب الأستاذ مينهوف Meinhof بحق فى التحدث عن تحول الأموات التدريجى إلى أسلاف فقال: «بعد زمن ما تفقد النفس خصائصها البشرية شيئاً فشيئا وتصير روحا. وحينئذ تصبح هذه الأرواح موضوعا لعبادة حقيقية، وتعتبر صديقة أو عدوة على حسب استعداداتها. وتصير تلك المجموعة من الأرواح التى ذابت بعضها فى بعض، فى نظر أهالى إفريقية الإستوائية، قوة مروعة توحى بالخوف الشديد. وتسميها قبائل الشمبالا «موزيمو» Muzimu وليس لهذه الموزيمو

---

(١) ب. ج. ماكدونلد J. Macdonald Africana، ج ١ ص ٩٤.

شخصية الكائن البشرى كما أنها ليست روح رجل معين ، انها القوة التى تبعث بكل المصائب والتى لا بد من العمل على تهدئتها [١] .

وتفرق قبائل « الوشجا » Wachaga صراحة بين هذين النوعين . فاذا نظرنا فى « الكيرنجو » kirengo ، وهو كتاب دينى يدرس للشباب حديثى العهد بالاختتان ، وجدناه يحتوى على فصل خاص بالرؤساء الميتين غير المعروفين، وهو الفصل العاشر : « فحينما ينقرض جميع الأشخاص الأحياء الذين يعرفون « كيزارو » kuzaro ، يمحون الدائرة التى تحمل اسم ذلك الرئيس من هذا الفصل (العاشر) ، ويضعونه فى فصل الرؤساء غير المعروفين . ولهذه العادة علاقة بالأفكار الدينية عند « الوشجا » فيقولون إن نفوس الموتى تبقى فى القطر ما دام هناك بعض الأحياء الذين عرفوهم ؛ وظلوا بطبيعة الحال يقدمون القرابين لأرواحهم Mânes وحينما لا يبقى للأرواح صديق على وجه الأرض ليقدم له الضحايا ، فانها (كذا) تنسحب من القطر وتذهب للسكنى فى إقليم أجنبى غير معروف [٢] » . أما عن « البنتو » فان المكان الذى يحتله هؤلاء الأسلاف فى المشاغل اليومية لدى عدد كبير من قبائلهم ذو أهمية عظمى . فيقول الأهالى مثلا « إن أسلافنا يروننا ، ويتأملون جميع أفعالنا ، فإن رأوا بيننا عوجا أو لا حظوا أننا لا نراعى التقاليد التى تركوها لنا بغاية الدقة ، أرسلوا علينا كمبو kombo (أى المجاعة) والحرب وكل وباء غير منتظر [٣] » .

والخوف هو الأمر السائد فى الانفعالات المختلفة التى يستثيرها هؤلاء الأسلاف . فهم شديدو الالحاف فى الطلب . ولا يستطيع أى فرد أن يعرف

---

(١) ك. منهوف C. Meinhof Afrikanische Religionen ، ص ٣٩ — ٤٠ .

(٢) ب. ا . مير P. E. Meyer Les Kirango des Wachaga peuplade bontoue du Kilimandjaro ، فى Anthropos ، جـ ٢٢ — ٣ ، ص ١٩٠ — ١٩١ .

(٣) ب. جنريه P. Jeanneret Les Ma-Khaca ، فى Bulletn de la Société de geographie de Neuchâtel ، مجلد ٨ (١٨٩٥) ، ص ١٣٨ .

ما إذا كان قد أرضاهم أم أغضبهم . وقد اعتاد الأهالى أن يصحبوا الدعاء الذى يوجهونه اليهم بقرابين هامة لكى يتاح له القبول . ويدل كل ما يعمله هؤلاء الناس للأسلاف فى هذا الصدد على أن رضاءهم شىء يجب أن يشترى بأى ثمن . ويحدثنا مبشر آخر فيقول « إن الماريمو » Marimo كثيرو الثورة ضد الأحياء ، وأنهم يبعثون بالأمراض إلى النـاس وإلى البهائم كما يبعثون بالجفاف والجوع والموت . ولذلك يجب تهدئتهم وكسب رضائهم بواسطة القرابين ... وها هى ذى الصلاة التى توجهها قبائل « البانكوما » Ba — Nkoma إلى السويكومبو » Swikwembo (أرواح أسلافهم) « آه ! أنتم أيها الآباء والأمهات الذين بلغ بهم الهرم مبلغه ، لماذا تقولون إننا نحرمكم الطعام . إليكم الثور الذين ترغبون . فكلوه مع أسلافنا الذين ماتوا قبلكم أو بعدكم ، مع أولئك الذين نعرفهم والذين لا نعرفهم (نرى أنهم يعنون مجموعة الأسلاف وهى تلك المجموعة التى يتكلم عنها الأستاذ مينهوف) . أعطونا الحياة . وأعطونا النعم ، لنا ولأولادنا ، لأنكم تركتمونا على الأرض ، وتعرفون أننا سنترك عليها أولادنا أيضاً . لماذا تحنقون علينا ؟ لماذا تحتقرون هذه القرية التى هى قريتكم ، وأنتم الذين أورثتمونا إياها ؟ نتوسل اليكم أن تطردوا جميع الأرواح الخفية ؛ التى تسبب لنا الآلام ، وضروب الزكام الخبيثة ، وجميع الأمراض . وها هو ذا القربان الذى نقدمـــه إليكم والذى يحمل إليكم صلاتنا [1] » .

أجاد الأستاذ «جونود» Junod شرح طبيعة الصلاة الدائمة التى توجد بين القبيلة وأسلافها ، وهى تقوم على قاعدة المشاركة مضافاً إليها الإحساس بوجود قوة عليا لدى الأسلاف إذ يعتقدون أنه يمكن رجاؤهم والتوسل إليهم ولكن لا يمكن إرغامهم بصورة ناجعة .

(١) ا. توما Le Bakaka Thomas (شمال شرقى الترنسفال) فى Bulletin de la Société de Geographie de Neuchâtel ، مجلد ٨ (١٨٩٥) ص ١٦١ — ٦٢ .

« إذا مانجح هـذا القربان فى إرضاء الآلهة (يعنى الأســلاف) وهبوا أحفادهم محصولا وافراً (لأن نمو الثمار الطبيعية ونضوجها يتوقف عليهم) ، وصرحوا لهم بقطع الأشجار وفى هـذه الحالة يضمنون ألا تسقط عليهم الجذوع الضخمة فتسحقهم . أما إذا ذهبوا لقطعها دون إذن الآلهة ، لم يكن هناك مفر من وقوع بعض الحوادث . وإذن فمنع الشر هو الغرض الجوهرى من تقديم الضحايا . وإعطاء الطعام للأرواح mânes وإغداق الهدايا عليهم ، كل ذلك من شأنه أن يحملهم على جعل الأشياء تسير فى طريقها الطبيعى السعيد وعلى منع النكبات من أن تعكر صفو الرخاء الشامل [١] وهناك أيضاً ضحايا تكفير ، يقصدون بها التلطيف من حدة غضب الأرواح ، وضحايا أخرى يقصد منها إنهاء بعض المعارك بوساطة الصلح ، وهلم جرا ... »

تختلط الصلوات التى توجه للأسلاف بشىء من التقريع فى كثير من الأحيان . فالأحياء يعطونهـم ما يظنون أنهم يطلبونه ، ولكنهم يشعرونهم بأنهم يسرفون فى الطلب ، وأنهم لا ينالون منهم مايتناسب مع الثمن الذى ينقدونهم إياه ، على حد تعبير العوام . وهذه صلاة قدمت من أجل طفل مريض « اليكم يا آلهتنا (يقصدون الأسلاف على وجه العموم ، وإليك يافلان (ميت معين) نقدم « انهمبا » inhamba (قرباننا) هذا فباركوا إذن هـذا الطفل وهبوه « الحياة والنمو » واجعلوه من الأثرياء ، حتى يستطيع أن ينحر لكم ثورا حينما نذهب لرؤيته ؛ إنكم لا تؤدون لنا أية خدمة . ولا تسببون لنا إلا النكد ، أيتها الآلهة ! نحن نحمل إليكم القرابين ولكن دون جدوى ، لأنكم لا تصغون إلينا ، والآن ينقصنا كل شىء ! وأنت يافلان (يذكر اسم الميت الذى يجب أن يقدم إليه القربان تبعا لما قضت به القداح العظمية ، وهو الذى يعتقدون أنه حرض الأسلاف الآخرين على توجيه الشر إلى القرية وعلى إصابة الطفل بالمرض) ، إنك مفعم بالكراهية . إنك لا تنفعنا بشىء ».

---

(٢) هـ . ا . جونود H. A. Junod Les Ba-Ronga ، ص ٣٩٤ — ٩٥ .

ولكنهم مع ذلك يعتقدن أن كل من يصادف منهم شيئا من النجاح فإنما يدين به إلى الأسلاف ! » والآن نقدم اك هذه الهدية فادع أسلافك ، وادع أيضا أسلاف هذا الطفل المريض ، لأن أسرة والده لم تسرق أمه ؛ بل جاء إليها أهل عشيرته فى وضح النهار (أى دفعوا ثمن المرأة بالانصاف) فتعالوا إذن إلى المذبح ، كلوا واقتسموا هذا الثور ! (وليس هذا الثور فى أغلب الأحيان إلا مجرد دجاجة [١] .

ونلاحظ أن صيغة هذا الدعاء غير مهذبة . ويلاحظ الأستاذ جونود أن هذه الصلوات على وجه العموم لا تكشف عن عاطفة دينية عميقة ، وأنها على كل حال تخلو من التبجيل خلوا مطلقا . ففى أثناء التضحية ، يضحك الأهالى ويتكلمون بصوت مرتفع ويرقصون ويغنون أغانى وقحه ؛ بل يقطعون الصلاة بكلامهم ويتشاتمون حول مسائلهم العائلية . ويجلس الإمام على الكرسى الذى عينته القداح ، ويتكلم بصوت رتيب ناظرا أمامه فى خط مستقيم وعليه سيما الانصراف ، ولا يوجد فى مسلكه شىء يدل على الخوف ، أو الاحترام . فلو أن الآلهة كانوا أشخاصا مثلهم من لحم ودم ويعيشون بينهم ، لما تكلم الرئيس إليهم بصورة أكثر استهتارا من تلك [١] . ولكن يكفى أن تحل بهم مصيبة أو أن ينزل الجوع والجفاف بالقطر حتى تصير الصلوات حارة مستكينة . ويرجع بعض الألفة التى يعاملون بها الأسلاف فى كثير من الأحيان إلى التعامل والاتصال المستمرين بين الطرفين . إذ لا يزال هؤلاء الأسلاف فى نظرهم يكونون جزءا من الهيئة الاجتماعية التى يتوقف رخاؤها بل حياتها أيضا على حسن نيتهم ، كما أنهم بدورهم يستقبلون الطعام والهدايا بصفة مستمرة . وبهذا المعنى نرى أن الأسلاف يشاركون الأحياء فى مائدتهم من عالمهم الآخر . ولكن العالم الآخر عند البنتو لا يختلف عن هذا العالم فى شىء . فالأحياء عندهم يلجأون إلى أمواتهم فيما يهمهم كما يحتاج الأموات إلى أحيائهم . هذا

---

(١) المرجع نفسه جـ ٢ ص ٣٨٥ .

إلى أن التصورات الجماعية التى تمس هؤلاء الموتى وقدرتهم وأثرهم فى مصير كل فرد وفى الظواهر الطبيعية تحيط بشعور الأفراد جميعا وتحتل مكانا عظيما يجعلها تكون جزءا من حياتهم نفسها .

— ٦ —

وهكذا نجد أنفسنا أمام ظاهرة غريبة وهى حضور الأرواح فى كل مكان والاعتقاد فى وجود رقى وأعمال سحرية تتهدد الناس دائماً فى الظلام ، وأموات متصلين بحياة الأحياء أشد اتصال ، وهذا المجموع من التصورات يعتبر بالنسبة للبدائيين معينا لا ينضب من الانفعالات ، واليه يدين نشاطهم العقلى بخصائصه الجوهرية . وليس ذلك النشاط غيبيا أى يتجه فى كل لحظة نحو القوى الخفية فحسب : كما أنه ليس فقط نشاطا غير منظور لا يبـالى بالتناقض فى أغلب الأحيـان ؛ بل فيه ماهو أكثر من ذلك : وهو أن السببية التى يتصـورها تعد من طابع مغاير للطابع الذى نألفه ، وهذه الخاصة الثالثـة متضامنة مع الخاصتين الأوليين تمام التضامن . فالرابطة السببية كما نعرفهـا تربط الظواهر ربطا زمنيا بصورة ضرورية ، وتقيدها بشكل يجعلها تنتظم فى سلاسل فكرية غير قابلة للقلب . هذا إلى أن سلاسل الأسباب والنتائج عندنا تمتد وتتشابك إلى مالا نهاية ، وتعتبر ظواهر الأرض كلهـا ، كما يقول « كانت » كائنة فى فعل شامل متبادل ، ولـكن مهما كان من تعقد هذه الشبكة ، فان يقيننا بأن هذه الظواهر منتظمة بصورة دائمة وفعلية ، فى سلاسل سببية ، من شأنه أن يبنى لنا نظام العالم وبالاختصار من شأنه أن يبنى لنا التجارب .

أما فى العقلية البدائية فيجرى الأمر على خلاف ذلك . فهى كما رأينا تعزو كل ما يحدث على وجه التقريب إلى تأثير قوى خفية أو غيبية (من سحرة وأموات وأرواح ، الخ) وهى إذ تفعل ذلك تتبع نفس الطريقة العقلية التى نتبعها نحن . ولـكن السبب والمسبب عندنا يوجدان كلاهما فى الزمان والمكان دائما . بينما تسلم العقلية البدائية بأن أحد الطرفين فقط هو الذى يدرك ؛

أما الآخر فينتمى إلى مجموع الـكائنات الخفية ، لا إلى الـكائنات التى يمكن أن تـكون موضوعا للإدراك .

نعم ليس هذا المجموع فى الواقع أقل حقيقة وواقعية من المجموع الآخر فى نظر البدائيين ، وليس وجوده أقل تلقائية من وجود الآخر ، بل إن هذه السمة إحدى خصائص تلك العقلية ولـكن الروابط السببية بين هذين الطرفين تختلف اختلافا عميقا عن هذه الروابط كما نتصورها . فأحد هذين الطرفين وهو السبب ليس على صلة مرئية لـكائنات وظواهر العالم المدرك بالحواس . وإنما هو فوق المكان ، وبالتالى يعتبر فوق الزمان أيضا من وجهة نظرنا على الأقل ، وأغلب الظن أنه فضلا عن ذلك سابق على نتيجته . وفى هذه الحال يكون الحنق الذى يشعر به الميت الجديد هو الذى يدفعه إلى إنزال الآلام بالأحياء . ومع ذلك فان اعتقاد البدائيين فى القوى الغيبية ، أى الأسباب بعبارة أخرى ، يجعلها غير قابلة للرؤية ولا للحس بوسائل الإدراك العادية ، ويمنع تحديدها فى المـكان وفى الزمان ، كما لا يسمح بالتعرف على حقيقتها الفردية فى غالب الأحيان . فهى إذا جاز لنا هذا التعبير تسبح وتشع بعد أن جاءت من إقليم لا يمكن الوصول إليه ، وهى تحيط من كل جانب بالإنسان الذى لا يدهش لإحساسه بحضورها فى عدة أمـكنة فى آن واحـــد . ويمكن لعالم التجارب الذى يتكون على هذا النحو لدى العقلية البدائية أن يبدو أثرى من عالمنا كما ذكرنا فيما سبق . وليس ذلك فقط لأن هـذه التجارب تحتوى على عناصر لا يحتوى عالمنا عليها . بل أيضا لأن لها بنية أخرى . ويبدو أن هذه العناصر الغيبية تستلزم بالنسبة للعقلية البدائية وجودا يشبه أن يكون امتدادا للتجارب فى مجموعها . وهذا التـكوين الخاص للتجارب هو الذى يجعل البدائيين ينظرون إلى بعض صور السببية التى يستحيل علينا تصورها على أنها بسيطة وطبيعية .

وتبدو علاقة السببية بالنسبة للعقلية اللامنطقية فى صورتين مميزتين وإن كانتا متجاورتين . فهناك أولا ارتباط زائف محدود تفرضه التصورات الجماعية

كان يقال مثلا : إذا انتهكت حرمة المحرم الفلانى حلت النقمة الفلانية ، أو بالعكس ، إذا حلت النقمة الفلانية فذلك لأن حرمة المحرم الفلانى قد انتهكت . وتنحصر الصورة الثانية فى إرجاع الظاهرة التى تبدو بصورة عامة شائعة إلى سبب غيبى : فإذا انتشر وباء مثلا اعتقدوا أن سببه يرجع إلى غضب الأسلاف أو مكر أحد السحرة ، ولكى يتحققوا من ذلك نراهم يلجأون إما إلى العرافة السحرية أو إلى فرض نوع من التحكيم ordalie على الأشخاص المتهمين بعمل السحر . وفى كلتا الحالتين تعتبر الروابط بين السبب والنتيجة روابط مباشرة . فهى لا تسلم بوجود حلقات وسطى ، فإذا سلمت بها فإنها على الأقل تعتبرها عديمة الأهمية ولا تعيرها أى التفات .

حينما نقول نحن قد حدث تسمم لشخص ما فسبب موته ، فإننا نتصور عدداً كبيراً من الظواهر التى تلت عدم هضم السم ثم نرتبها فى نظام معين . نعلم مثلا أن المادة التى دخلت الجسم قد أثرت على أحد الأنسجة وأصابت أحد الأحشاء ، وأن صدى ذلك التأثير قد وصل إلى المراكز العصبية وأن الجهاز التنفسى قد أصابه التلف من جراء ذلك ، وهلم جرا ، وأن الوظائف الفسيولوجية للمجموع العصبى قد توقفت فى نهاية الأمر . أما بالنسبة للعقلية البدائية فإن السم إذا أثر ، فذلك فقط لأن ضحيته قد حـــكم عليه بالموت . فالعلاقة فى نظرها لا تقوم إلا بين الموت من جهة وبين أثر السحر المحتوم من جهة أخرى وكل الظواهر الوسطى لا أهمية لها . فهى لا تنتج إلا بإرادة الساحر وقوته على وجه الخصوص ولو أراد ، لأدى السم إلى نتيجة أخرى غيرها ، وليست هـــذه العملية التى قام بها الساحر من العمليات التى يؤدى تكرارها إلى تكرار نتيجتها ، فإن فكرة تكرار الحوادث التى تتتابع بالضرورة ابتداء من لحظة معينة تستلزم وجود فكرة واضحة عن جبرية بعض الظواهر . والعقلية البدائية لا تملك هذا التصور ، فاستعاضت عنه بتصور آلات طيعة سلسة القياد كالتمساح الذى ينتزع الضحية التى يعينها له الساحر . ولكن إذا فتك التمساح بشخص ما ، فليس السبب فى ذلك أن هذا

الشخص قد عرض نفسه لهجومه دون حذر بل إن الأمر على العكس من ذلك ؛ لأن التمساح فى نظر العقلية البدائية لا يصيب الإنسان بأى أذى ، إذا لم يتخذ منه الساحر آلة له .

وكذلك الحال بالنسبة إلى الشلل والآلام ، بل بالنسبة إلى الموت الناتج من السم أيضاً ، فكل هذه الأحداث ليست نتائج ضرورية لوجود عطب فى الجسم ، بل وسائل اختارتها القوة الغيبية لقتل ضحاياها .

أعتقد أننا أصبحنا الآن على بينة من السبب الأساسى الذى يجعل العقلية البدائية لا تبالى بالبحث عن العلل الثانية (الطبيعية) ، وذلك لأنها درجت على طابع من السببية يحجب عنها شبكة هذه الأسباب ، فالأسباب الطبيعية تكوّن عُقدا ومركبات تنبسط فى الزمان والمكان . أما الأسباب الغيبية التى تتجه نحوها العقلية البدائية دائما تقريبا ، فانها غير مكانية ، بل غير زمانية أيضاً فى بعض الأحيان ، ولذلك نراها تستبعد مجرد التفكير فى هذه العقد والمركبات ولا يمكن لأثر هذه الأسباب الغيبية أن يكون إلا مباشرا وفوريا . وحتى حينما ينتج هذا الأثر على بعد (كما هى الحال غالبا بالنسبة للعمليات السحرية) ، وحين لا تظهر نتيجته إلا بعد فترة ما ، فان ذلك لا يمنع البدائيين من أن يتصوروا ، أو بتعبير أدق ، من أن يشعروا بأنه قد ينتج دون وسيط .

ومن شأن الرابطة الغيبية البحتة وهى فى الغالب رابطة زائفة أن تربط بصورة مباشرة بين القوة الخفية وبين النتيجة مهما تباعدت . فالسؤال « بكيف » لا يكاد يعرض لهذه العقليه مطلقا . هذا إلى أن خاصة المباشرة التى تتسم بها السببية الغيبية ، تعادل بل تتجاوز ما نسميه نحن « بالبداهة » سواء أكانت حسية أم عقلية أم حدسية . إذ أن من طبيعة الارتباط الزائف ألا يناقش ولا يقبل المناقشة . ولذلك إذا رأى الأهالى أن الأوربيين لا يؤمنون به أخذتهم الشفقة بهم أو قالوا بأن ما يصح عندهم قد لا يصح عند البعض . وهذا قول صادق ، ولكن فى غير المعنى الذى يقصدون إليه . مما تقدم نرى أن تغلب السببية الغيبية المباشرة فى عقل البدائيين قد ساعد على طبع عقليتهم بهـــذه

الخصائص التى تجعل من العسير علينا أن نفهمها فهما تاما . وذلك لأنه ينبغى لفهمها حق الفهم أن نعرف أن الزمان والمكان ليس لهما فى ذهن البدائيين نفس المعنى الذى لهما بالنسبة إلينا ، ولا أعنى المعنى الذى نعرفه لهما فى تفكيرنا العلمى والفلسفى ، بل فى حياتنا العرفية العادية . فهل يمكننا أن نتصور ماعسى أن تكون فكرتنا عن الزمان لو لم نعتد تصور الظواهر مرتبطة بعضها ببعض برباط السببية .

يبدو لنا الزمن وكأنه كم « quantum » متجانس قابل للتقسيم إلى أجزاء متماثلة فيما بينها وتتابع باطراد تام . وما ذلك إلا لأن أذهاننا تدرك الظواهر وقد رتبت بداهة ، فى سلاسل غير قابلة للقلب وذات فترات محدودة يمكن قياسها ، ولأن النتائج والأسباب تبدو لنا وكأنها متراصة فى المكان الذى هو ظرف لها . ولكن ماعسى أن يكون تصور الزمن بالنسبة إلى عقول لا تلتفت إلى تلك السلاسل من الظواهر المطردة فى المكان ، ولا تعيد تتابع الأسباب والنتائج غير القابلة للقلب أى اهتمام ، أو على الأقل لا تعيرها اهتماما قائما على التفكير ؟ لا يمكن لهذا التصور إلا أن يكون سىء التحديد غير مميز ، وذلك لعدم وجود مايستند عليه ولعله بالأحرى أقرب شىء إلى إحساس ذاتى بالاستغراق يشبه إلى حد كبير ذلك الإحساس الذى وصفه الأستاذ برجسن ، فهو لا يكاد يعد تصورا بالمعنى الصحيح .

يبدو لنا أن فكرتنا عن الزمن ليست إلا جزءا من طبيعة العقل البشرى ولكن هذا وهم من الأوهام . فهذه الفكرة لا تكادتوجدبالنسبة إلى العقلية البدائية التى تقول بالصلة السببية المباشرة بين الظاهرة المقصودة والقوة الغيبية التى تتنزه عن المكان .

ولعل العقلية البدائية ، كما بين ذلك الأستاذ « هوبير » Hubert [1] تحس

---

(١) هوبير وموس Hubert et Mauss. Mélanges D'histoire des réligions. ص، ١٩٧ ومايليها .

الزمن تبعا لصفاته ، ولكنها لا تتصوره بخصائصه الموضوعية . ويذكر « بسمان » أن الزنوج الذين يعيشون فى داخل القطر يميزون بطريقة طريفة بين نوعين من الزمن : زمن سعيد وزمن نحس . والزمن السعيد عندهم قسمان : كبير وصغير . ويستغرق الزمن السعيد الكبير فى بعض الأقاليم تسعة عشر يوما ، والصغير سبعة أيام . ويعدون بين هذين الزمنين سبعة أيام منحوسة ، وهى فى الواقع أيام عطلتهم ، لأنهم فى أثنائها لا يسافرون ولا يحاربون ولا يقومون بعمل ذى بال ، بل يبقون مطمئنين لا يعملون شيئا[1] فهم يعترفون بالتمييز التقليدى بين الفترات السعيدة والفترات المنحوسة . كما تتميز عندهم فترات الزمن ونقطه البارزة بالمظاهر التى تحدثها فيها قوى العالم الخفية . فالعقلية البدائية لا ترتبط إلا بهذه المظاهر ، وبها وحدها تقريبا ، وقد لاحظ بعض الباحثين هذه الملاحظة وصاغوها فى عبارات دقيقة .

وهكذا نرى أن ما نسميه نحن معاشر الأوروبيين بالماضى ، مرتبط بالحاضر ، والحاضر مرتبط بالمستقبل . ولكن هؤلاء الناس يعتقدون أن الحياة تتركب من وجودين لا شىء يفصل بينهما وينفذ كل منهما فى الآخر كما ينفذ العنصر البشرى فى العنصر الروحى والروحى فى البشرى . ولذلك لم يكن للزمن عندهم فى الحقيقة نفس التقسيمات التى له عندنا . كما أنهم لا يعرفون له قيمة ولا موضوعا ، ولهذا السبب ينظرون إليه باستهتار واحتقار يستعصى تفسيرهما على الأوروبيين[2] .

هذه الفقرة الطريفة للميجر لنرد على جانب كبير من الغموض ، ولعلها فى غموضها تتفق مع التصورات التى تريد أن تصورها لنا ، ولكنها تصورات عقول تعيش فى عالم الحقائق غير المرئية على الأقل بقدر ما نعيش فيما نسميه نحن بعالم الحقيقة الموضوعية .

---

(١) و . بسمان W. Bosman ، Voyage de Guinée (ط ١٧٠٥) ، ص ١٦٤ .

(٢) ميجر ا . ج . لنرد The Lower Niger and Its Tribes ، ص ١٨١ .

هذا الذى ذكرناه عن الزمان ينطبق أيضا على المكان — ولا نعنى بذلك المكان كما هو فى اعتبار المهندسين فحسب ، بل أيضا المكان المعلوم فى تصوراتنا الجارية ؛ والمكان الذى نتصوره على هذا النحو يبدو لنا كقطعة من نسيج الرسام الذى لا يتأثر بالأشياء التى ترسم فوقه ، ويبدو لنا أن الظواهر فى حد ذاتها لا تتأثر فى نشأتها بالنقطة المكانية التى تنشأ معها ، سواء أكانت فى الشمال أو فى الجنوب ؛ فى أعلى أو فى أسفل ، عن شمالنا أو يميننا ؛ فكل ذلك لا وزن له إلا فى كونه يسمح لنا بتحديد موقع هذه الظواهر وبقياسها فى الكثير من الأحيان . ولكن تصور المكان على هذا النحو لا تستسيغه إلا العقول التى اعتادت أن تدخل فى اعتبارها سلاسل الأسباب الثانية (أى الطبيعية) ، وتلك الأسباب لا تختلف فى حقيقة الأمر مهما كان الإقليم المكانى الذى توجد فيه . فإذا فرضنا أن هناك عقولا موجهة غير هذا التوجيه مشغولة أولا وقبل كل شىء ، بقوى خفية وسلطات غيبية يظهر تأثيرها بطريقة مباشرة بل غير مشغولة تقريبا إلا بهذه القوى والسلطات ، فإن هذه العقول لا تستطيع أن تتصور المكان على أنه كم Quantum متجانس غير مختلف . بل على العكس من ذلك يبدو لها المكان مشحونا بالصفات : فيكون لأقاليمه خصائص مقصورة عليها ، كما تساهم هذه الأقاليم مع القوى الغيبية التى تظهر فيها ؛ ومن شأن المكان الذى على هذا النحو أن يحس به أصحابه أكثر مما يتصورونه ، وتمتاز اتجاهاته ومواقعه المكانية بعضها عن بعض بصفاتها .

نرى من ذلك أن المكان المتجانس والزمان ليسا من المدركات الطبيعية للعقل البشرى بالرغم مما يظهر لنا لأول وهلة . نعم ، أغلب الظن أن البدائى يجول فى المكان كما نجول نحن فيه بالضبط . وأغلب الظن أنه حينما يريد قذف طلقاته أو إصابة هدف بعيد يعرف مثلنا ، واحيانا خيرا منا ، كيف يقدر المسافات بسرعة خاطفة ويجد الاتجاه المطلوب ، الخ . ولكن الفعل فى المكان شىء وتصور هذا المكان شىء آخر . والحال هنا كالحال فى السببية فالبدائيون لا يكفون عن استخدام الارتباط الفعلى بين الأسباب والنتائج .

وكثيرا ما نراهم يظهرون فى صنع الآنية أو الأشراك مثلا جانبا كبيرا من الحذق يتطلب ملاحظتهم الدقيقة لهذه العلاقة . فهل يستنتج من ذلك أن يكون تصورهم للسببية مشابها لتصورنا ؟ الواقع أنه ينبغى لنا لكى نسلم أيضا بأن الاستحواذ على طريقة من طرق النشاط معناه فى الوقت نفسه الاستحواذ على تحليل هذا النشاط وعلى المعرفة الواعية للعمليات العقلية أو الفسيولوجيه التى تصحبه . ولكن هذه قضية تكفى صياغتها لبيان زيغها .

حينما نصف تجارب العقلية البدائية بأنها مختلفة عن تجاربنا . فأننا نعنى بها ذلك العالم الذى تكونه تصوراتهم الجماعية . أما من جهة العمل ، فإنهم ينتقلون فى المكان مثلنا (ومثل الحيوانات) ويصلون إلى غاياتهم بوساطة الأدوات التى يقوم استخدامها على الارتباط الفعلى بين الأسباب والنتائج ، والواقع أنهم لو لم يسايروا هذا الارتباط مثلنا أيضا (ومثل الحيوانات) لهلكوا . ولكن الذى يجعل منهم كائنات آدمية بالذات هو أن المجموعة لا تقنع بالعمل لمجرد الحياة . فإن كل فرد من أفرادها لديه عن الحقيقة التى يعيش فيها ويعمل لها ، تصور منسجم انسجاما كبيرا مع بنية هذه المجموعة . والواقع أن عقول الأفراد فى المجموعة البدائية تتعلق أولا وقبل كل شىء بشىء آخر غير الروابط الموضوعية التى تقوم عليها الصناعة والنشاط العملى .

فالعقلية البدائية كما قلنا عقلية غيبية بحتة وغير منطقية ، وليست تجاربهم وحدها هى التى لا تنطبق على تجاربنا بل إن إطارات التجارب نفسها تختلف أيضا عن إطاراتنا . ويبدو أن نظرية الأستاذ برجسن الشهيرة التى تقول بأن تصورنا للزمن على أنه كم متجانس يقوم على خلط الاستغراق الحسى بالمكان الذى هو كم متجانس لا ينطبق على العقلية البدائية . ذلك لأن المكان لا يصير متجانسا فى التصورات ، ولأن الزمن أيضا لا يبدأ فى أن يصير كذلك إلا فى الجماعات التى بلغت درجة ما من التقدم . وذلك لا يحدث إلا حينما تضعف الارتباطات الزائفة وتميل إلى التفكك ، وحينما تقوى

عادة الاهتمام بضروب الارتباط بين الأسباب الطبيعية ونتائجها . فهكذا تتكون إطارات تجاربنا شيئا فشيئا ؛ ثم تقوى وتثبت ، ثم يمر على ذلك زمن طويل قبل أن يصل التفكير إلى إدراك هذه الإطارات فى داخل عقلنا الخاص ، وهنا نميل إلى الاعتقاد بأنها من العناصر المكونة لعقولنا ، أى أنها فطرية ، كما كان يقول الفلاسفه السابقون . ولكن ملاحظة التصورات الجماعية فى الجماعات المتأخرة وتحليلها لا يعضدان هذا الفرض .

الفصل الثالث

الأحلام

لا يبدو عالم التجارب فى مجموعه أمام العقلية البدائية كما يبدو أمامنا . وليس معنى ذلك أن الإطار الذى يتشكل فيه هذا العالم هو الذى يختلف عن إطار عالمنا بعض الشيء فحسب ، ونعنى بالإطار تلك الأفكار التى ترسخ فى عقلية ما عن طبيعة الزمان والمكان والسببية والتى تتصورها العقلية البدائية على خلاف تصورنا إياها . بل إن عالم هذه العقلية أيضاً يعتبر أثرى من عالمنا وأكثر منه تعقيداً . نعم لاشك أن البدائيين يتفقون معنا فى تلك المدركات الحسية التى يتلقونها من العالم الخارجى ، أى فى مجموع الحقائق التى تدرك بالحواس . ولكنهم يضيفون إليها أو بالأحرى يمزجون بها مدركات أخرى تأتيهم من عالم القوى الغيبية التى توجد على الدوام وفى كل مكان . وهم يعتبرون هذه المدركات أسمى وأكثر أهمية من غيرها . فكيف يمكنهم الحصول عليها ، وكيف يستثيرونها إذا أبطأت فى الظهور من تلقاء نفسها ؟ وكيف يصفونها ويفسرونها ؟ هذه كلها وظائف يجب على عقل البدائيين أن يقوم بها . وتكشف لنا تصوراتهم الجماعية عن شدة تعقدها . ومن هنا نرى أن الخمول العقلى والبعد عن حب الاطلاع وعدم المبالاة التى لاحظها فى الجماعات البدائية كثير من الباحثين ليست فى أغلب الأحوال إلا أموراً ظاهرية أكثر منها حقيقية . فإن هذه العقول الغارقة فى نومها سرعان ما تستيقظ بمجرد أن يدخل فعل القوى الغيبية فى الميدان ، وحينئذ لا تظل خاملة ولا متهاونة بل نراها موفورة اليقظة والصبر والمهارة والنفاذ .

أغلب الظن أن الطريق الذى يسلكه البدائيون لا يؤدى - كما يؤدى طريقنا - إلى تكوين تصورات معنوية عامة ولا إلى المعرفة العلمية التى لا يحد مجالها والتى تستطيع دائماً أن تتجاوز كل مدى . ذلك لأنه طريق يؤدى إلى

الهدف بغاية السرعة أو لا يؤدى إلى شيء مطلقاً . هذا إلى أن معظم التصورات الجماعية التى تحتله ذات طابع انفعالى بين ، وكثيراً ما تكون الروابط الزائفة التى تربط بينها ذات طبيعة غير منطقية ولا أثر لتجارب الواقع عليها .

وتنحصر أولى المدركات التى تهتم العقلية البدائية باستجلائها فى أفعال القوى الغيبية التى يشعر البدائيون بأنها تحيط بهم من كل جانب . ومن طبائع هذه القوى أنها لاترى ولا تدرك بالحواس ، كما أنها لا تكشف عن نفسها إلا فى ظواهر قد تكون واضحة أو غير واضحة ، قوية الدلالة أو ضعيفة الدلالة ، كثيرة الورود أو قليلته . وإذن يتعين عليهم أن يعرفوا كيف يميزونها ويجمعونها ويفهمونها . وقد رأينا فيما سبق أنهم يفسرون كل مايظهر مفاجئاً أو اعتباطياً أو مخالفاً للعادة أو ملفتاً للنظر أو دون توقع ، على أنه مظهر من مظاهر هذه القوى الخفية . ولكن هناك مظاهر أخرى أكثر مباشرة وأكثر إطراداً ، وبوساطتها تخبر هذه القوى بما سيقع للأحياء ، وكأنها تتخذها وسيلة لإنذار الفرد أو المجموعة الاجتماعية بما سيحدث . ومن هذه الظواهر الأحلام والفؤول سواء أكانت ميمونة أم مشئومة . ولما لم يكن من شأن هذه الظواهر أن تبدو من تلقاء نفسها ، فقد افتنت العقلية البدائية فى طرائق استثارتها . فاخترعت وسائل عديدة للحصول عليها (من أحلام مصطنعة وعمليات للتخمين السحرى وضروب من التحكيم ، الخ) . وبهذه الطريقة تستطيع الحصول على كثير من المعلومات التى تحتل مكانها بين تجاربها وتساهم بقسط غير ضئيل فى تعقيدها وطبعها بذلك الطابع الذى كثيراً ما نحار فى فهمه .

— ١ —

من المعروف أن العالم المرئى والعالم غير المرئى يكونان فى نظر العقلية البدائية عالما واحداً فالاتصال عندهم مستمر بين ما نسميه بالحقيقة الحسية وبين القوى الغيبية . ولكن هذا الاتصال لايحصل بصورة أتم وأصرح إلا فى الأحلام حيث ينتقل المرء فيها من أحد العالمين إلى الآخر ذهاباً وإياباً

دون أن يشعر . وهذا فى الواقع هو تصور البدائيين المعتاد للحلم: تترك الروح الجسم الذى تحل فيه مؤقتاً وتذهب فى بعض الأحيان بعيداً جداً لتتحدث مع الأرواح أوالأموات . وإذا ما استيقظ الشخص رجعت إليه وأخذت مكانها فى جسمه . لذلك إذا منعهاسحر أوحادث آخر من دخوله ثانية فقد يصاب صاحبها بمرض يتبعه الموت . وفى بعض الأحيان تأتى أرواح الأموات نفسها أو بعض القوى الأخرى لزيارة روح الحالم أثناء نومه .

وهكذا يعمل الحلم على مد البدائيين بمعلومات لا تقل قيمتها، بل قد تزيد، على قيمة المدركات التى يحصلون عليها أثناء اليقظة . وهم يقبلونها قبولهم المدركات الأخرى دون أن يحتاجوا فى ذلك إلى الفلسفة الطبيعية التى يعزوها إليهم . . « تيلر » Tylor ومدرسته . ولكنهم ليسوا ضحايا خداع سيكولوجى فاضح كما يدعى البعض ، بل يعرفون جيدا كيف يميزون بين الحلم ومدركات اليقظة ويعلمون أنهم لا يحلمون إلا حين ينامون . غير أنهم يؤمنون إيماناً تاماً بأن الأحلام تضعهم فى علاقة مباشرة مع القوى التى لا ترى . وهم لا يرون فى ذلك أية غرابة ، ولا يدهشون من استحواذهم على هذه القدرة كما لا يدهشون من أن لهم سمعاً وبصرا ، نعم لاشك أن هذه القدرة لاتخضع للإرادة ولا تعمل بصفة دائمة كالحواس . ولكن أليس من الطبيعى أن تبقى القوى الغيبية صاحبة الشأن فى أن تسمح للأحياء بالتعامل معها حين تشاء وترفضه حين تشاء ؟ هذا إلى أن الحلم فى حد ذاته ليس من الظواهر النادرة الوقوع حتى يتعارض مع التجارب العادية . ويعلق عليه هؤلاء الناس أعظم نصيب من الأهمية ، ولذلك نراهم فى كل صباح يتساءلون فيما بينهم عن أحلامهم ويتحاكونها ويفسرونها ؛ ولا بد أن يكون واحد منهم على الأقل قد رأى حلما ما .

لعل تشبيه هو ميروس القائل : « النوم صنو الموت » منحدر من أحقاب بعيدة ، وهو عند البدائيين حقيقى بنصه وفصه . فما هو معروف عندهم أن

الميت الجديد يواصل الحياة ، ولكن فى ظروف جديدة . وهو لا يبتعد عنهم من فوره ، بل يبقى قريباً منهم ويستمر فى التأثير على هيئته الإجتماعية التى تحس حضوره ولا تستطيع الانصراف عنه . نعم لقد غادرت « روحه » جسده ، ولكن جسمه لايزال باقياً ، ومادام لم يتحلل تماما فإن ضروب المشاركة بين الميت الجديد وهيئته الإجتماعية لا تنقطع إلا جزئياً . وكذلك حال النائم حين يحلم ، فان روحه تنفصل عن جسمه ، ويصبح فى حالة تشبه حالة الموتى الجدد إلى أن تعود إليه روحه من جديد . ويعبر البدائيون أحيانا عن هذه الفكرة بعبارات ملفتة للنظر . فالفعل « يحلم » (دروكوكو drokuku) فى إفريقيا الغربية الألمانية معناه « يموت نصف موت » . فى الحلم تغادر الروح الجسد وتذهب إلى إقليم الأحلام ، حيث يظن المرء لحظة أنه يرى الأشياء ويمتلكها ، غير أنها لاتمكنه من احتجازها . ومع ذلك فإن هذه الظلال تعتبر حقيقة واقعية . فمثلا إذا رأى المرء فى الحلم شخصا مات منذ زمن طويل ، كان معنى ذلك أنه تكلم معه حقيقة . وفى الحلم يرى المرء أشياء حقيقية وحوادث تحدث حقيقة ، إذ أن الروح تتحرر من الجسم مؤقتاً وتتكلم وتفعل كما تتكلم وتفعل فى وضح النهار حين تكون فى الجسم . وينحصر الفرق الوحيد بين الحالتين فى أنها أثناء الحلم تتحرك فى عالم غير المرئى لا فى عالم المرئى[1] ، ولا يمكننا أن نعبر عن ذلك بأحسن من القول بأن تجارب البدائى تتكون من كلا العالمين على التساوى .

والمؤوريون فى زيلنده الجديدة لا يتصورون الحلم إلا على هذا النحو . وقد كتب « إلسدن بست » Elsdon Best يقول : « قالت لى هذه السيدة العجوز ذات يوم : يمكننى الاعتقاد بكل سهولة أن الناس الذين يموتون فى سن الهرم يعودون إلى شبابهم فى « الرينجا » Reinga . فقد ذهبت إلى « الرينجا » فى الليلة الماضية (تعنى أنها حلمت) ورأيت فيها « كيريويرا » Kiriuwera (امرأة

---

(١) ج . شبيت J. Spcit ، Die Ewestamme ، ص ٥٦٤ .

عجوز ماتت حديثا) وكانت عليها سيماء الجمال والشباب الغض. وإذا قال أحد الأهالى بأنه كان فى « الرينجا » فإنه يعنى إنه رأى حلما. حكى لى رجل مسن يقول: كنت فى « الرينجا » فى الليلة الماضية ورأيت فيها صديقى العجوز الذى مات منذ زمن طويل . . . وقد عرفت من هيئته أن الجو سيكون صحوا فى الغد[١] . » وقد لاحظ « كوليسو » Koleso الملاحظة نفسها حيث يقول: « إنهم يعتقدون فى حقيقة الأحلام. ولديهم منها أنواع كثيرة، منها الحسن ومنها السيء ... وهم مقتنعون بأن الأحلام عبارة عن ذكريات مارأوا فى « الرينجا » (عالم غير مرئى، وهو مقر الأموات) حيث تذهب الروح فى أثناء نوم الجسم[٢] . »

ولنتجنب الإطالة فى تعدد الأمثلة فنقول أنه يوجد فى أمريكا الشمالية مثل هذه العقائد: « أحلامهم هى مرشدهم الأساسى، لأنهم يتوهمون أن أرواحهم تتصل فى أثناء الليل اتصالا مباشرا بالأرواح التى تسهر على مشاغلهم اليومية[٣] » وكذلك الحال لدى هنود فرنسا الجديدة الذين كانوا يعلقون أهمية كبيرة على الأحلام وكانوا فيما مضى يتصورون الأحلام على هذا النحو. وليس فى وسعهم أن يتصوروا الطريقة التى تسير عليها الروح فى أثناء النوم حينما تمثل أمامهم بعض الأشياء البعيدة أو غير الموجودة، لذلك يعتقدون أن الروح تترك الجسم حينما ينام، وتذهب هى نفسها لإحضار أشياء الحلم من الأماكن التى يرونها فيها، ثم تعود إلى الجسم آخر الليل حينما تتفرق الأحلام[٤] ».

---

(١) السدن بست Elsdon Best . Maori Eschatology : فى Transactions of the New Teal and Institute، مجلد ١ (١٨٦٨)، ص ٤١ - ٤٢ .

(٢) و. كولنسو W. Kolenso Of the Maori Races فى Transactions of New Zealand, New Zealand Institute، مجلد ١ (١٨٦٨)، ص ١٤ — ٤٢ .

(٣) ل. م. تيرنر L. M. Turner . The Hudson Bay Eskimo, فى Report of the(Smithsomar Institute) , Bureau of the American Ethnology مجلد ١١ ص ٢٧٢ .

(٤) Relation jesuites، ٥٤ (١٦٦٩ — ٧٠)، ص ٦٦.

والقاعدة عندهم أن كل ما يرى فى الحلم حقيق . وقد رأينا أن العقول البدائية لا تعبأ بالتناقض ولا يحرجها وجود الشيء الواحد فى عدة أماكن مختلفة فى آن واحد . وما دامت كذلك فماذا يحملها على الشك فى مدركات هذه التجارب وهى لا تشك فى الأخرى ؟ . وكيف ترتاب العقلية البدائية فيما تراه فى الحلم دون أن ترتاب فيما ترى وهى مفتوحة العينين ما دامت قد سلمت بالفكرة التى لديها عن النوم والحلم ، وما دام يبدو لها أن الاتصال بين عالم المرئى وعالم غير المرئى أمر طبيعى جداً؟ بل لعلها بالأحرى تعتقد فيما تراه فى الحلم أكثر مما تعتقد فى غيره بفضل ما لمدركات الحلم من أصل غيبى يزيد فى قيمتها ويؤكد حقيقتها ، لذلك لا يثق البدائى فى شيء أكثر من وثوقه فيما يراه فى الحلم (١) . » وفى « الجابون » يعتبر الحلم برهاناً أصدق من برهان الشهادة (٢) . »

ولكن ألا توجد أحلام غير مؤتلفة ولا معقولة وظاهرة الاستحالة ؟ نعم ، ولكن سبق أن قلنا إن قاعدة التناقض لا تسيطر على الروابط التى تربط بين التصورات فى العقلية البدائية كما تسيطر على تصوراتنا . هذا إلى أن البدائيين لا يصدقون جميع الأحلام دون تمييز بينها . فبعض الأحلام صادق وبعضها كاذب وهكذا يميز « الديبريون «Dieri بين ما يعتبرونه رؤية وما يعتبرونه مجرد حلم . ويسمون هذا الأخير « أبتشا » Apitcha ويعتبرونه مجرد وهم (٣) » وعند هنود فرنسا الجديدة « يقال إن الأشخاص الذين منحوا موهبة الحلم الجيد لا يصدقون كل أحلامهم دون تمييز ، بل

(١) ا. ك. هدن A. C. Hoddon Head hunters , black , white and brown ، ص ٥٧ .

(٢) ج . لى تستو G. Le Testu Notes sur les coutumes Bopouma dans la circonscription de la Nyanga ، ص ٢٠٠ .

(٣) ا. و. هويت The Native tribes of South East Australia ، ص ٣٥٨(٤ـ ١٩)

يعترفون بأن منها الزائف ومنها الصحيح ، ويقولون بأن هذه الأخيرة لا تقع إلا فى النادر [١] . »

بعد هذا التحفظ البسيط لا يشك البدائى فى صدق الحلم ، فى نظره أن كل ما يعلن عنه الحلم سيحدث ، وكل ما اطلع عليـــه النائم قد حدث بالفعل . ولنقتصر من ذلك على مثال أو مثالين من الأمثلة التى وردت عن الجماعات الاسترالية . « إذا حلم شخص بأنه سيجد وكر بجع فى مكان ماذهب إليه معتقدا أنه سيجده فيه . وإذا حلم أن حادثا خطيرا سيصيبه مثلا أو أنه جرح فى إحدى المواقع جرحا مميتا ثم جرح فيما بعد ، قال : كنت أعرف أن هذا سيحصل لأنى حلمت به » . وإذا علم شخص أن صديقا له حلم حلما خاصا به ، أحزنه ذلك وأمرضه زمنا طويلا . وإذا تحرك كلب فى أثناء نومه عد ذلك علامة على أن الكلب يحلم باصطياد القنغر واعتقد أنه سيقتل حيوانا من هذه الحيوانات فى الغد . ويثق صاحب الكلب فى حلم كلبه ثقة كبيرة حتى لينطلق معه فى الغد إلى صيد القنغر وهو ملىء بالأمل [٢] . وليس وثوق البدائى فى صدق حلمه بأقل من ذلك إذا كان الأمر يتعلق بحادث مضى أو بشىء وقع فى مكان بعيد . « وأذكر أنى سمعت ذات يوم بكاء وعويلا فى بعض العشش ، فذهبت إليها ووجدت النساء يبكين وقد اسودت وجوههن ورحن ينزعن شعر رؤوسهن وكان يجلس وسطهن رجل هرم بدت على وجهه علامات اليأس . فسألت علام هذا العويل ، فأخبرونى بأن الرجل الهرم حلم أن شخصاً فى « تبنج » Tipping قد وضع « نجاتنجى » Ngatungi فى النار بنية أن يسبب له الموت (وهى عملية سحرية تعمل بواسطة بقايا الوجبة) ... وأكد لى بعض الشبان أن العجوز سيموت بالفعل إلا إذا ذهب بعضهم إلى « تبنج » لإيقاف مفعول السحر . فأرسلت إليها عدة أشخاص نزولا على رغبتهم . وفى الغدجاء رسلى

---

(١) Relations des jésuites ، مجلد ١٠ (١٦٣٦) ، ص ١٧٠ .

(٢) ج. دوسن Australian Aborigines. J. Dawson

يخبرونى بأنهم لم يكتشفوا شيئا . فاتفق الجميع على أنه لا بد أن يكون قد وقع سوء تفاهم ، وحينئذ استقام حال العجوز [١] » .

وكثيرا ما شوهدت مثل هذه الحوادث فى الجماعات المتأخرة التى يبعد بعضها عن بعض أقصى البعد « حدث مرة فى سومطرة أن أحد « الباتاكيين » Bataks (فى إقليم بحيرة « توبا » Toba) لم يستطع اكتشاف السر الذى يساعد البيض على التنبؤ بكسوف الشمس والقمر ؛ ففكر أنهم يرون ذلك فى الحلم [٢] ويحكى أحد المبشرين فى غينا الجديدة سنة ١٨٣٠ « أن رجلا وامرأة اعدما لاتهامهما بسحر عدة أشخاص ماتوا أخيراً ، وحلمت إحدى النساء بأنهم لم يموتوا إلا بسبب هـــذا السحر . فكان هذا كافيا لإقناع البدائيين [٣] . » وحدث فى إفريقيا الاستوائية أن رأى أحدهم فى عالم الحلم أنه قام برحلة ؛ فاعتبروا أنهـا وقعت بالفعل فى عالم الحقيقة . « رجعت إلى الرئيس ولشد ما كانت دهشتى عندما رأيته جالسا على باب عشته مرتديا الملابس الأوروبية ولما سألته عن الخـــبر أخبرنى أنه حلم فى الليلة الماضية أنه زار البرتغال وانجلتره وبعض الأقطار الأخرى . ولذلك لبس الملابس الأوروبية بمجرد أن استيقظ من نومه ، وقال لرعاياه إنه آت من بلاد البيض . وكان على من يأتون لرؤيته من شيب وشبان أن يصافحوه مهنئين بسلامة العودة [٤] . » وحدث أن قضى التحكيم بإدانة أحد الأشخاص فى الكنغو الفرنسية ، فلم يشكوا فى أن نتيجة الاختبار الذى أجرى عليه قد تكون زائفة ؛ ولذلك سلم المحكوم عليه بأنه ارتكب الحادث فى الحلم . « ووجهت إلى أحدهم مثل

---

(١) ج . تالين The Narrignyeri ، ص ١٣٥ .

(٢) Berichte der rheinischen Missions gesellszhaft ، ١٩١١ ، ص ٢٣١

(٣) Missionary Register (Williams) ، أكتوبر ١٨٣٠ ، ص ٤٦٧ وما يليها
ف Dumont d'Urvilles , Voyage de l' Astrolabie ، ج٣ ، ص ٥٥٨ ـ ٩ .

(٤) ف . س . أرنوت F. S. Arnot . Bihé and Garengange ، ص ٦٧ .

هذه التهمة فسمعته يجيب عليها بقوله نعم أريد أن أدفع ما يحكم به على : لأنى فى الواقع قد أكون قتلت فلانا فى الحلم ، ولكنى لا أدرى عن ذلك شيئا [١] .

— ٢ —

وإذا كانت الأشياء التى ترى فى الحلم تعتبر حقائق : فإن الأفعال التى ترتكب فيه تقضى بمسئولية أصحابها عنها ، ويجب عليهم أن يحاسبوا عليها . ففى غينا الجديدة ، إذا رأى رجل فى الحلم أن امرأة أعلنت إليه حبها : اعتقد فى حقيقة هذا الأمر وفى أن هذه المرأة تهيم به حقا ... وعند قبائل « الكاى » Kai ، إذا حلم رجل بأنه ارتكب منكرا مع زوجة صديق له : حق عليه العقاب . فإذا عرف عنه هذا الحلم وجب عليه أن يدفع غرامة ، وقد يكتفى بتوجيه اللوم إليه [٢] .

بل يعد الشخص مسئولا أيضاً عن الأفعال التى رآه الآخرون يقوم بها فى منامهم . ويمكننا أن نتصور ضروب التعقيد التى تنجم عن هذه الحال . وهاهى ذى بضعة أمثلة من أغرب ماوقع فى هذا الصدد . « قابلت فى « موكا » Muka (بورنيو) شخصاً اسمه « جانيلا » Janela ... فأخبرنى إنه حضر فوراً من قرية « لويه » Luai التى كان سيحكم فيها على ابنته ، لأن زوجها حلم بأنها تخونه . وكان « جانيلا » قد أحضر معه ابنته بالفعل [٣] . » وفى بورينو أيضا حكى الأستاذ « جرانت » Grant القصة التالية : « جاء رجل يطلب إلى حمايته رسمياً ، لأن رجــلا آخر من القرية نفسها حلم بأن الشاكى ضرب صهره المريض برمحة . ولما كان مقتنعا بحقيقة الحكم فقد هدد الشاكى بالثأر منه إذا مات المريض . ولذلك جاء المتهم يطالب حمايته مؤكدا أنه لم يضرب المريض .

---

(١) ج . لى ستر Notes sur les coutumes Bapou dans La circonscription de la Nyanga ، ص ٢٠١ .

(٢) ر . نويهاوس Deutsch Nen Guinea (Kai) ، ج ٣ ، ص ١١٣ .

(٣) هـ . لنج روث Natives of Sarawak ، ج ١ ، ٢٣٢ .

وإنه إذا كانت روحه قد ارتكبت هـذا الفعل فى أثناء نومه فإنه لم يشعر به ولا يعتبر نفسه مسئولا عنه . ومن المصادفات أنى أنا الذى كنت أعنى بهذا المريض[١] . »

نرى من هـذه القصة أن المتهم لاينكر التهمة إنكارا مطلقا : بل يبدو أنه لايشك فى حقيقة ما رآه خصمه فى المنام ، ويسلم بأنه قـد يكون ارتكب فى منامه مايؤخذ عليه غير أنه يلقى مسئوليته على روحه . وهكذا قد يكون المدعى والمدعى عليه حسنى النية ، إذ أنهما لايرتابان فى حقيقة مايرى فى الحلم ويعتبرونه من البديهيات ، وإن كان من الصعب علينا أن نوفق بين ذلك وبين باقى تجاربهم .

ولا شىء أبلغ فى توضيح هـــذه الفكرة من الحوادث التى جمعها المبشر « جروب » Grubb عن قبائل « اللنجوا » Lenguas فى « الشاكو » Chaco الكبرى : « قال لى أحد الا رد الغربيين إنه رأى نفسه فى المنام يأكل « زالا » Zala (طائر مائى) وأنه ما كاد يستيقظ من نومه حتى سمع صياح هذا الطائر فى المستنقع المجاور . وفى الصباح أخبر زملاءه بأن ابنه الصغير الذى كان مع أمه فى قرية أخرى لم ينم طول الليل . (يعتقدون أنه لاينبغى للرجل الذى له طفل صغير أن يأكل من هـذا الطائر ، لأنه إن أكل شيئاً منه لم ينم طفله فى الليـلة التالية .) فمن الواضح فى هـذه الحالة أن صياح هـذا الطائر بالليل هو الذى سبب للهندى هـذا الحلم . ولكن لما كان قد أكل منه فى حلمه فقد استنتج أن طفله قد قاسى نتائج تهوره[٢] . » فالهندى لايفرق إذن بين الحدث المرتكب فى الحـلم والحدث الذى يرتكب فى وضح النهار وفى حالة اليقظة : فهاتان الصورتان من التجارب تتساويان فى نظره .

---

(١) هـ . لنج روث . نفس المرجع السابق .

(٢) و . ب . جروب An Unknown people in an unknown land ص ١٣٢ .

ويحدث للبدائى أن يرى فى الحلم بعض الحوادث على أنها ستقع فى المستقبل . فمثل هذه الحوادث تعتبر مستقبلة فى نظره لأنه يتوقعها فى المستقبل ، وفى الوقت نفسه تعتبر ماضية لأنه رآها فى الحلم ، وبهذا الاعتبار يعدها وقعت بالفعل .

وهذا أمر مستحيل فى نظر عقول كعقولنا تخضع لقاعدة التناقض ولديها فكرة واضحة عن الزمان الذى يسير فى سلسلة من اللحظات المتتابعة ذات خط واحد . فكيف يمكن لحادثة واحدة بعينها أن تشغل فى هذه السلسلة مركزين متباعدين ، وبذلك تنتسب إلى الماضى والمستقبل فى آن واحد ؟ ولكن هذه الاستحالة لا تغير العقلية غير المنطقية فى شىء . وليس معنى ذلك أن هذه العقلية تستسيغ ضروب الخلط الفاضحة كما يقال عنها فى كثير من الأحيان ، بل يرجع سببه إلى أن عالم تجاربهم وهو أكثر تعقيدا من عالمنا ، يسلم بالوجود فى وقت واحد لمدركات لا يمكن أن توجد معا فى زمان ومكان واحد تبعا لفكرتنا عن الزمان والمكان . ولا يمكننا أن نفهم الظواهر التى يصفها لنا الأستاذ « جروب » إلا على هذا النحو . يقول جروب : « يعتقد الهندى الغربى اعتقادا جازما فى أحلامه ويدع لها توجيه أفعاله . فقد حدث لأحد الأهالى ، واسمه « بويت » Poit ، أن رأى حلما أثر فيه تأثيرا بالغا ، ولم تنقض عليه أسابيع حتى حاول الاعتداء على بالقتل . إذ رأى فى المنام أنه قابلنى فى مكان معين من الغابة خال من الأشجار ، وأنى اتهمته بسرقة أشياء تخصنى وأطلقت عليه النار من بندقيتى . فاعتبر هذا الحلم إنذارا أكيدا بما سيحل به ورأى هذا الهندى أنه مادام لم يستطع تجنب الكارثة بأية طريقة أخرى ، لم يبق لديه إلا أن يرد إلى هذه الرصاصة وأن يعمل ما فى جهده لمعاملتى بنفس الطريقة التى حلم بأنى عاملته بها[1] » .

لا يعتبر الهندى نفسه معتدياً بشروعه فى هذا الاغتيال إذ أنه لم يفعل

---

(١) المرجع نفسه ، ص ٢٧٥ .

إلا أن عامل الأستاذ جروب بالمثل ، لأن الذى رآه فى المنام حق : وإذن، فالأستاذ جروب هو الذى هاجمه وليست إجابته عليه بالمثل إلا دفاعاً شرعياً . ولكن كيف نظر الهندي إلى ذلك الحادث الذي حلم به ؟ أتراه قد اعتبره ماضياً أو مستقبلا ؟ لاشك أنه اعتبره مستقبلا بطبيعة الحال ، إذ أنه لم يتلق بعد رصاصة الأستاذ جروب ولم يصب بها : ولكن ذلك لا يمنعه من الاعتقاد بأن الحادث قد وقع بالفعل وأنه يستحق القصاص[1] .

وهاهى ذى مسألة أخرى يتعذر علينا حلها إذا لم نسلم بأن تجارب هؤلاء الهنود مرتبة فى إطارات أقل إحكاما من إطارات تفكيرنا وبأنه يمكن لهذه الإطارات أن تحتوى فى آن واحد على مدركات لو كانت عندنا لاستبعد بعضها بعضا بالضرورة :

« وصل هذا الرجل إلى قريتى آتيا من مكان يبعد عنها بمائة وخمسين ميلا على وجه التقريب ، وطلب إلى تعويضا عن بعض اليقطين الذى سرقته حديثا من حديقته . فاستولت على الدهشة وأخبرته بأنى بعيد عن حديقته ولم أرها منذ زمن طويل ، ولذلك يستحيل على أن أكون قد سرقت يقطينه . واعتقدت بادىء الأمر أنه يمزح ولكنى لم ألبث أن أدركت أن الرجل كان جادا . وكانت هذه أول مرة يتهمنى فيها هندى بالسرقة ، فلما عنفته أجابنى بأنه يسلم بكل

---

(١) هناك ملاحظة مماثلة هذه تماما وقد وردت حديثا من جزيرة « فلوريس » Florès « كل مايصل إلى عالم « الروح » فى أثناء الحلم يعتبر من الأمور الحقيقية التى لايتطرق إليها الشك ، حتى لو تناقضت مع بعض الوقائع الملموسة فيما بعد . فقد قتل أحد الأشخاص شخصا آخر رآه فى الحلم يقتل أخته وكان يمكنه عند استيقاظه من نومه أن يتحقق ، دون أية مشقة ، من أن أخته لاتزال على قيد الحياة . ولكنه لم ير أن ذاك ضروريا . فأخذ بثأره أولا وقبل شيء ، ولما أخبر أمام القاضى بأن أخته لا تزال على قيد الحياة ، راح يصر بحسن نيته على التأكيد بأنه لم يفعل إلا ماهو حق له . » فان زاختلن Endek (Flores) Van Sachteln ، ص ١٢٩ فى Mede deelingen van het bureau voor beslurszaken der buitengewesten , bewerkt doar het Ensyclopoedisch Bureau , كراسة ١٤ (١٩٢١) .

صراحة بأنى لم آخذ اليقطين . ولما سمعت منه ذلك زادت المسألة عسرا على فهمى . ولولا أنى رأيته مقتنعا كل الاقتناع لاستولى على الغضب. لذلك صممت على الاهتمام بالمسألة أشد الاهتمام . وأخيرا اكتشفت أنه حلم بأنى دخلت حديقته ذات ليلة ، وأنه كان مختبئا خلف بعض النباتات العالية ورآنى أقتطع ثلاث يقطينات وأذهب بها فجاء يطالبنى بثمنها . فقلت له . « نعم . ولكنك اعترفت منذ لحظة بأنى لم آخذها » . فكرر اعترافه بذلك ، ولكنه أضاف من فوره قائلا :

«لو كنت هنالك لأخذتها ، يشير بذلك إلى أنى قد أردت حقا أن أرتكب هذا الفعل الذى ارتكبته روحى ، (التى يفترض أنه قابلها فى حديقته) وأنى لو كنت هناك بجسمى لارتكبته [١] »

تلق هذه المناقشة خيطا من الضوء على العمليات العقلية عند الهندى . ويظن الأستاذ «جروب» أنه أقنع الهندى باستحالة أن يكون حلمه أمرا حقيقيا . ويفسر عناده باعتقاده أن نيات «الروح» تساوى الأفعال تماما . ولكنه يعترف فى الوقت نفسه بإصراره على التأكيد بأنه قابل «روحه» (روح الأستاذ جروب) فى حديقته . والواقع أن الهندى مقتنع كل الاقتناع بأنه لم ير الأستاذ شخصيا. وحينما يحتج جروب بأنه كان فى هذه اللحظة على بعد مائة وخمسين ميلا من الحديقة يسلم له الهندى بذلك ، ولكن التناقض المنطقى بين الأمرين لا يكفى لاقناعه بالنزول عن النتيجة التى يرتبها على حلمه فيتمسك بالأمرين معا ، ولا سيما بما يترتب على ماراه بعينه فى الحلم . فهو يفضل من طرف خفى أن يسلم بما يسميه السكولستيون . «تعدد الوجود» لكائن واحد بعينه على الشك فيما اقتنع بوقوعه . وهذه نتيجة ضرورية لطبيعة تجاربه التى تشتمل ، إلى جانب الحقائق التى تصفها بالموضوعية على عدد لا حصر له من حقائق أخرى تنتسب إلى العالم غير المرئى وفى هذه الحال لا تستطيع فكرتنا عن الزمان والمكان ولا قواعدنا

---

(١) المرجع نفسه ص ١٢٩ — ١٣٠ .

المنطقية أن تفعل شيئا . وهذا أحد الأسباب التي تجعلنا نعتبر هـــذه العقلية عقلية « غير منطقية » .

ليس تعدد الوجود الذي يسلم به ذلك الهندي ضمنا حالة فردية ، إذ نرى عددا كبيرا من الجماعات البدائية تتصور على هذه الصورة نفسها تعدد الوجود بالنسبة إلى الميت الحديث . فهو في نظرها موجود في القبر الذي يستقر فيه جسمه ، وفي الوقت نفسه يحوم في الموطن الذي عاش فيه من قبل . وهذا أمر يحار الباحثون الأوربيون في تفسيره . ولكن البدائي لا يحس التناقض في مثل هذه الحال ، وإذا حاول الأوربي لفت نظره إليه لم يستطع إدراكه على وجه العموم .

— ٣ —

الخوف من السحر هو الهم الدائم الذي يقلق بال جماعات أفريقية الجنوبية مع أنها أكثر تقدما من الجماعات التي سبق لنا الكلام عنها . هذا إلى أنهم من جهة أخرى على اتصال دائم بالأموات ، يستوى عندهم في ذلك من ماتوا ولا تزال ذكراهم حية وتلك الكتلة المختلطة من « الأسلاف » . وإذن فمن الطبيعي أن يستخدموا الأحلام في تحقيق هذا الاتصال ، وأن يسخروها أيضا في اكتشاف السحرة . والواقع أن ذلك ماشهد به عدد من الباحثين « قبل أن يموت الرئيس « جايكا » Gaika بقليل أرسل رسولا إلى امرأة عجوز كانت إحدى محظياته من قبل ولكنها كانت تقيم في البعثة في ذلك الحين ، وأخبرها بأنه حلم بها في الليلة السابقة وأنه يود أن يراها في «كراله» karaal (بيته). فرفضت وفي الصباح جاء ثلاثة رؤساء إلى الأستاذ «تشامرز» Chalmers وطلبوا إليه مقابلة خاصة ثم أخبروه بصوت منخفض بأن المرأة التي جاءوا في طلبها سحرت الرئيس بوساطة شعر عنزة مخلوط بخرق قديمة [1] . » — « وحلم رجل بأن

---

(١) ا. ستيدمان ، A. Steedman Wanderings and adventures in The interior of South Africa ج ٢ ص ٢٢٩ — ٣٠ .

حياته فى خطر وأن الذى يدبر له هذا الخطر شخص كان يعتبره دائما من أخلص أصدقائه. فلما استيقظ قال: «ما أغرب هذا الأمر! إن ذلك الرجل لم يرتكب دنيئة قط فكيف يسعى إلى قتلى؟ ذلك مالا أفهمه، ولكن لابد أن يكون الأمر حقا لأن «الأحلام لاتكذب أبدا.» وكف عن رؤية صديقه على الفور بالرغم من تأكيد هذا الأخير له بأنه برىء[1]. «ويذكر «كلاوى» سمة مشابهة لتلك كل المشابهة، ويحاول فى روايته لها أن يقتبس كلمات الأهالى بنصها، فيقول: «يضمر أحد الأشخاص فى سره أحياناً نية الشر نحو شخص آخر دون أن يعلم، بل دون أن يشك فى فاعل هذا الشر لأنه صديقه ولكنه قد يسمع فى الحلم صوتاً يقول له: «فلان يتظاهر فقط بأنه صديقك. ألا ترى أنه سيقتلك؟ ماذا تظن أنه يكن لك فى نفسه حين يقول هذه الأشياء أو تلك (إشارة إلى أحاديث قالها الآخر)؟» فيذكر الحالم ذلك ويصيح قائلا: «نعم، بكل تأكيد، إن فلانا يبغضنى لهذا السبب أو ذاك.» ويبدأ فى التباعد عنه، ويظل منه على حذر. وإذا قال له صديقه: «يافلان، إنك تتباعد عنى، فماذا حدث؟ ما هذا السبب الذى فرق بيننا؟..» فإنه يجيب بأعذار منتحلة..»[2].

ولا يتردد الشخص من الأهالى فى الاختيار بين صداقته وحلمه، فقد يعتريه الدهش ولكنه لايشك فى صدق الحلم، لأنه إلهام يأتى من العالم غير المرئى، ويعد عدم الأخذ به ضرباً من الجنون. ونرى طغاة أفريقية يستغلون دائماً هذه النذر فى أغراضهم الطغيانية. فمثلا إذا حلم «كاسمب» kasembe برجل مرتين أو ثلاث مرات، قتله؛ لأنه يتآمر على حياته بالسحر[3].. والساحر الذى يكشف عنه الحلم يعدم فورا.

---

(١) تايلر Forty Years among the Zulu ، ص ١٠٨ .

(٢) ك. هـ. كلاوى C. H. Callaway . The religious system of The Amazulu . ص ١٦٤ ، وقارن ص ٢٨٨

(٣) و. لفنجستون Last journals ١ ، ص ٣٧٧ .

يستنتج من فقرات عديدة لـكلاوى أن هذه الأحلام المنبئة بالخطر تأتى من قبـل الأموات . « إذا حلمت فى منامك بأن حيوانا مفترساً يطاردك ويريد قتلك ، فإنك تدهش حين تستيقظ ، وتقول: كيف يتأتى أن أحلم بحيوان مفترس يطاردنى ؟ » . وإذا طلع الصباح فذهبت إلى الصيد . . . فإنك تذهب إليه وأنت تعلم أن حياتك فى خطر ، لأنك تعرف أن «الأتينجو» قد وضعت الوحش أمام عينيك لـكى تنذرك بالموت المحقق إذا لم تتحفظ منه . لذلك إن ذهبت إلى الصيد فـكن على حذر . ولعلك تحسن صنعاً إن لم تذهب إليه[1] . » وفى أماكن أخرى نرى الأمر أقرب إلى التصريح : « تؤكد الشعوب السوداء أن « الأماتنجو » (جمع «أتينجو ») موجودة وأنها تساعدهم . وهم حين يقررون أن « الأماتنجو » تساعدهم لا يقولون ذلك اتباعاً لما قال العرافون بل بنـاء على ما شاهدته أعينهم . فحينما ينامون مثلا يظهر أحد الموتى « ويتكلم مع أحدهم قائلا : « يافلان : من الحسن أن يعمل الشيء الفلانى » ، منـذراً بأن شيئاً ما سيحدث[2] . »

من البديهى أن التفسير يختلف صعوبة وسهولة وأن قبائل « الـكفرة » أيضاً كغيرهم من الشعوب التى ترتب أفعالا على أحلامها ، قد انساقوا إلى التمييز بين الأحلام الـكاذبة والصادقة . « يقولون إن أحلام الصيف حقيقية ولـكنهم لا يطلقون هذا القول إطلاقا . بل يقررون أن أحلام الصيف لا تخطىء هدفها على وجه العموم . أما الشتاء فردىء لأنه يبعث بأخيلة مختلفة ، وبكثير من الأحلام التى لا يستطاع فهمها . . . »

« والحلم الذى ترسله « الأتينجو » يكون مصحوبا برسالة من الموتى ، يتساءلون فيها عن السبب الذى أدى إلى عدم القيام بهذا الشيء أو ذاك . فإذا جاء محصول السود مثلا ، سمع رئيس القرية أحيانا من يهتف به فى المنـام

---

(١) ك . هـ . كلاوى . المرجع سالف الذكر ، ص ٢٨٨ وما يليها
(٢) المرجع نفسه ص ١٧٨ — ١٧٩ .

ويقول: «كيف يتأتى ألا تشكروا وقد أغدق عليكم كل هذا الطعام ؟ »
ولا يكاد يستيقظ الرئيس حتى يعرف الطعام الذى يشير إليه الحلم ... ويأمر قومه على الفور بأن يقوموا بصناعة الجعة . لأنه اعتزم تقديم قربان « للأسلاف »[1] . هذا مثال الحلم الصادق : وهو فى صورة طلب يبعث به الموتى إلى الأحياء يستحثونهم فيه على أداء ثمن خدمة أدوها ، ويبدو أن التحذير الذى يتضمنه أمر طبيعى كالصيغة التى صب فيها تماما . وتعتبر هذه الحادثة من الحوادث التى تزخر بها الحياة اليومية كمطالبة الدائن بدينه تماما . وينحصر الفرق بينها فى أن الدائن يأتى نهارا ، و « الأتينجو » لا تأتى إلا ليلا وتتكلم عن طريق الحالم باسمها هى أو باسم الأسلاف .

كثيراً ما تذهب مجهودات المبشرين فى حمل أحد الأهلين على اعتناق المسيحية عبثا ، ولكن كثيرا ما يسارع هذا الشخص نفسه إلى اعتناقها فجأة لأن أحد الأحلام وجهه إليها ولا سيما إذا تكرر ظهور هذا الحلم عدة مرات . وهذه بعض الأمثلة التى تروى عن قبائل « البسوتو » Bassouto فى هذا الشأن « أى شىء يلعب الدور الرئيسى فى حمل « المسوتو » Massouto على اعتناق المسيحية ؟ ... لعل الحلم يقوم فى ذلك بأعظم دور . . . إذ لا بد لإغراء المسوتو باعتناق الدين الجديد من أمر غير عادى ، أى من تدخل إلهى (على حسب تفكيره) يؤثر على خياله تأثيرا قويا ... وإذا سألت وثنيا بعد سماعه الإنجيل ، متى سيعتنق الدين الجديد ، أجابك بكل هدوء واطمئنان : بعد أن يكلمنى الله . »[2]

« من الغريب جدا أن نرى هنا عددا كبيراً من الناس يعلقون اعتناقهم للدين على حلم يرونه ... وقد عضد هذه الملاحظة أغلب مبشرينا إن لم يكن جميعهم . فالحلم يلعب دورا كبيراً فى بدايات الحياة الدينية عند الشعوب

---

(١) المصدر نفسه ص ٢٣٨ وما يليها .

(٢) Missions évangéliques ، مجلد ٧٠ ، ص ٣٤١ — ٤٢ .

السوداء .. وقد أخبرنى الأستاذ « مندان » حديثا بأن نوعا من الرؤيا أثار أحد السحرة فى مدغشقر إلى اعتناق المسيحية . والحوادث التى من هذا القبيل وفيرة العدد فى « لسوتو » Lessouto أيضاً ؛ فقد سمع المئات من المسيحيين فى هـذا الإقليم أول نداء من ضميرهم لاعتناق الدين الجديد فى صورة حلم [١] .

« قص على « أوجست » ، وهو أحد « المتشوانيين » Motschuane الذين يقطنون هذا الإقليم ، أن السيد الرب ناداه منذ أربع سنوات ليأمره باعتناق المسيحية ، ولكنه لم يصغ إلى صوته . فظننت أنه يعنى بصوت الرب كلمة الانجيل ، ولكنه كان يشير إلى حلم رأى فيه ضوءاً ساطعاً وسمع صوتاً يقول له « : يجب أن تعتنق المسيحية ! وبعد هذه القصة حلم حلماً جديداً ، فصمم على اعتناق الدين المسيحى [٢] . كذلك قال الرئيس « سيكوات » Sekoate لأحـد المبشرين : « منـــذ زمن طويل وأنا أحلم وأرى فى حلمى بعض المبشرين . فليأتوا إذن ، وسأعاملهم كما عاملت البوير [٣] . » ويلاحظ الأستاذ ميرنسكى كما لاحظ الدكتور فنجمان ، أن الأحلام وحدها هى التى تستطيع التغلب على تردد الأهالى فيقول . « كانت الأحلام فى كثير من الأحيان الوسيلة الوحيدة التى تحسم أمر الوثنيين المترددين ... وكانت هـــذه الأحلام تحدث باطراد للحائرين المترددين . حدث ذات يوم بعد الانتهاء من درسنا الدينى أن جاءنا « بودومو » وسألنـا أمام الطلاب الآخرين قائلا : لماذا لم أر الأحـلام حتى الآن مع أنى أبحث بإخلاص وأكثر من الصلاة . وكان مضمون هذه الأحلام كثيراً ما يبدو لنا تافها ، ولكن إحساس الأهالى نحوها كان غير ذلك ، إذ أنها كانت تترك فى نفوسهم آثاراً لا تبلى فى غالب الأحيان [٤] . »

---

(١) المرجع نفسه مجلد ٦٨ ، ص ١١٤ — ٥ .

(٢) الدكتور فاجمان Wagemann . Die Berliner Mission im Korenna Lande ، ص ٢٠٧ .

(٣) ا . ميرنسكى A. Merensky Erinnerungen ans dem Missions laben im S. O. Africa ، ص ٩١ .

(٤) المرجع نفسه ص ١٥٢ — ١٥٣ .

فتفكير « يودومو » وقلقه لهما دلالتهما . فإذا كان الله راضيا عن اعتناقه الدين الجديد ، فكيف يتأتى ألا يخبره بذلك ؟ وإذا كان يريد أن يخبره به ، أفما كان يكلمه فى منامه كما تفعل « الأماتنجو » ؟

وللأحلام فى إفريقية الاستوائية ، دلالة مماثلة لتلك تماما . ولنكتف بذكر مثل واحد منها . « تعتقد قبائل « الأزندى » Azande (الكنغو العليا) بأن الأحلام تنبىء الأحياء فى أثناء الليل بما يريدون معرفته . والأحلام عندهم هى الحقيقة . وإذا رأوا فى المنام أحد أقربائهم الموتى اعتقدوا أن روحه جاءت إليهم فعلا لتقدم إليهم نصائح الميت وتعبر لهم عن رضاه أو سخطه وعن رغباته وأمانيه . وقد يطلب إليهم الميت بهذه الطريقة عبدا يعنى به . وحينئذ يستشيرون «البنجت» benget (العراف) ؛ لأن عدم الرضوخ لرغبة الميت ينزل بهم أفدح النكبات ويشير عليهم العراف عادة بأن يكسروا ذراع أحد العبيد وساقه وأن يطرحوه بعد ذلك على القبر حيث يموت من الألم والجوع وإذا استحال عليهم أن يضحوا بعبد عمدوا إلى إحدى أيامى الفقيد فشوهوها بنفس الصورة [١] » .

— ٤ —

تعتبر أخبار اليسوعيين Relations des jesuites بفرنسا الجديدة خير البحوث التى تكشف عن تأثير الأحلام فى الحياة اليومية للجماعات البدائية . وليس ذلك لأن اليسوعيين قد عمدوا إلى وصف هذا التأثير أو دراسته ، ولكنهم إذا كانوا قد قاموا بشىء من هذا القبيل فذلك لأنه إسترعى التفاتهم ولأنهم كانوا يصطدمون به فى كل مكان ، ولأن أحلام الهنود أشد عقبة فى سبيل نجاح المبشرين وأكبر عون لهم على هذا النجاح على السواء ؛ وأخيرا لأن اليسوعيين

---

(١) ا . هويترو . Notes sur la vie familiale et juridique de quelques populations du Congo belge فى Annales du Musée du Congo belge: ، حـ ١ ، ص ٢٣ Serie III Documents ethnographique .

(٢) Relations des jesuites ، مجلد ١٠ (٢٦٣٦) ، ص ١٧٠ (لى جين) .

لم يستطيعوا إلا أن يعجبوا من سلطان الأحلام على الهنود «الحلم هو العراف الذى تستشيره كل هذه الشعوب ، وتصغى إليـه ، وهو النبي الذى يتنبأ لهم بالأشياء المستقبلة وهو العرافة «كساندر» Cassandre التى تحذرهم من النكبات المسلطة عليهم : إنه الطبيب المعتاد الذى يشفيهم من عللهم ، بل إنه إله الطب «اسكولاب» Esculape ومعجزة الطب جالينوس لكل أنحاء القطر : إنه السيد المطلق الذى لا يدانيه عندهم سيد آخر . فإذا تكلم قائد من القواد وتكلم الحلم بما يخالفه ، لم يجد القائد فتيلا أن يحطم رأسه فى الصياح لإقناع قومه برأيه لأن الحلم أول من يطاع . إنه الكوكب الذى يهتدون به فى أسفارهم ، والخبير الذى يرتب لهم شئون أسرهم . والحلم هو الذى يرأس مجالسهم فى أغلب الأحيان ولا تقام تجارة ولا يشرع فى صيد برى أو بحرى إلا بإشارة منه ، بل إنهم لا يقدمون على شىء من ذلك إلا إرضاء له : وإذا شرعوا فى عمل ما ورأوا فى أحلامهم مالا يعضد المعنى فيه عدلوا عنه مستريحى الضمير مهما جلت قيمة هذا العمل . . . والحقيقة أنه الإله الرئيسى لجميع قبائل «الهورون» Hurons [١]

ويقول أب يسوعى آخر : «ليس للأروكيين» Iroquois إلا إله واحد بحق ألا وهو الحلم ؛ فهم يستسلمون له ، ويطيعون أوامره بغاية الدقة . وقبائل التننتوان » Tonnantouens أشد خضوعا من غيرها ؛ ويذهب دينهم فى ذلك إلى أقصى حدود التعنت : فإذا رأوا فى الحلم أنهم يقومون بعمل ما اعتقدوا أنهم ملزمون بتنفيذه فى أقرب وقت ممكن مهما كان من أمر هـذا العمل . أما الأمم الأخرى فإنهـــا تكتفى بمراعاة الأحلام التى على نصيب ما من الأهمية ؛ ولكن أمة التننتوان » التى تعرف بتمسكها بالحياة الدينية أكثر من جيرانها ، تعتقد أنها ترتكب شر الجنايات ، إذا أهملت تنفيذ حلم واحد من أحلامها . فالشعب لا يفكر إلا فى هذا ، ولا يتباحث إلا فيه ، وعشش أفرادهم عامرة كلها بأحاديث الأحلام . [١] »

---

(١) المرجع نفسه ، جـ ٥٤ (١٦٦٩ ٧٠) ، ص ٩٦

يبدو لنا أنه لا توجد عبارات أقوى دلالة ولا أكثر تعبيرا من هذه العبارات التى قيلت فى وصف التدخل الدائم للقوى الخفية فى سلوك الهنود الغربيين وحياتهم ، وفى بيان تغلب العناصر الغيبية فى تجاربهم على غيرها من العناصر . فالأحلام هى الطريق الذى تتطرق منه هذه العناصر . ولا يقتصر الأمر فى هذا السبيل على قبول الهنود لما تكشف عنه الأحلام بنفس السهولة التى يقبلون بها المدركات المحسوسة ، بل إن هذه الضروب من الكشف تحظى لديهم بكل مايحظى به الدين من إجلال واحترام ، ولذلك نرى المبشرين لا ينفكون عند كلامهم على الأحلام عن ترديد عبارات « الألوهية » و « الله » و « العرافة الغيبية » و « الدين » . فالأمر هنا لا يتعلق فقط بنصائح يتلقونها أو بإشارات وتوجيهات يزجيها إليهم أصدقاؤهم أو تحذيرات شبه رسمية يوحى إليهم بها فى أحلامهم . بل لا يكاد يتعلق إلا بأوامر يجب عليهم تنفيذها ، ولا شىء يستطيع تعويق الهندى عن إطاعتها . فإذا حلموا ليلا بأنه يجب قتل أحد الفرنسيين مثلا ، فويل لأول فرنسى يقابلونه منعزلا[1] » ـ « إذا كنا نعرف أن أحلامنا غير حقيقية ، فلا شك أن أحلامهم أيضا ليست أصدق منها ؛ ولكنهم يعتقدون أنهم إذا لم ينفذوها عوقبوا بالموت . وعلى هذا الاعتبار تتوقف حياة الفرد منا على حلم يحلمه أحد المتوحشين . لأنهم إذا حلموا بوجوب قتلنا لم يثنهم شىء عن تحقيق مارأوا . . . قيل لى ذات مرة أن أحدهم حلم بأنه يجب عليه قتل أحـــد الفرنسيين لكى يبرأ من علة أصابته ، فأرسل فى استدعائه ...[2] »

لماذا يرى الهندى الغربى أن طاعة مايأمره به الحلم ضرورة قصوى ؟ أو بعبارة أدق لماذا يرى حتما عليه تنفيذ مافعله فى الحلم بمجرد أن يستيقظ من نومه ؟ كثيرا ماوجه هذا السؤال عينه إلى الآباء اليسوعيين . وكانوا يجيبونه

---

(١) المرجع نفسه ، حـ ٤ (١٦٢٦) ، ٢١٦ . (لالمان Lalmant) .

(٢) المرجع نفسه ، حـ ٥ ، (١٦٣٣) ، ص ١٦٠ (لى جين) .

عنه بصورة واحدة لا تتغير ، إذ يقولون : هذه مسألة حياة أو موت بالنسبة للهنود الغربيين ؛ إذ أنهم يؤمنون بأن الموت سينتابهم إذا لم يتحقق ما رأوه فى المنام . وليس تنفيذ الحلم ضروريا فقط فى حالة ما إذا كان الحالم نفسه قد أوحى إليه بفعل أمر ما فى منامه ، بل أيضا إذا رآه شخص آخر فى الحلم يرتكب هذا الفعل أو ذاك . فحينئذ يتحتم عليه تنفيذ ما رآه له هذا الآخر . ومهما كان من غرابة هذا المطلب أو من فداحة تكاليفه ، فإنهم لا يحجمون عن الخضوع له . «وإذا حلم شخص بأن شخصا آخر أعطاه شيئا ماذهب لمطالبته به فى الحال ، فإذا رفض منحه إياه ، اعتبر رفضه هذا أمرا بالغ القسوة أو نوعا من القتل ؛ لأنه قد يؤدى بالفعل إلى موت الحالم . لذلك قد يفقد بعضهم كل ثروته فى هذا الصدد دون أمل فى أى جزاء ؛ لأن من أعطاهم لن يردوا إليه شيئا مما أخذوه ، اللهم إلا إذا حلم هو الآخر أو ادعى أنه حلم . ولكن الخوف ينأى بأكثرهم عن التزييف ، لأنهم يعتقدون أن التزييف قد يجر عليهم كل أنواع المصائب . ومع ذلك فقد لا يعبأ بعضهم بهذ الخوف ويثرون من وراء خرافة جميلة يخترعونها . . . [١] » . وإذا كان الهنود الغربيون يتصفون حقا بتلك المشاعر التى يتكلم عنها الآباء اليسوعيون ، فلا بد أن يكون هذا التزييف أمرا نادرا جدا . « إن الحلم إله المتوحشين الذى يخصونه باحترام لا يقل عن احترامنا لأقدس الموجودات عندنا . فكل ما يحلمون به يجب عليهم تنفيذه ، اللهم إلا إذا كان هذا التنفيذ من شأنه أن يجر على الحالم حقد أقاربه ويعرضه لأشد أنواع الانتقام [٢] » .

قد يظن القارىء أن هذا الالتزام الملح بتنفيذ كل ما يرى فى الحلم استثناء انفرد به هنود فرنسا الجديدة ؛ والواقع أننا نجده فى جماعات متأخرة أخرى يفرق بينها بعد المكان ، ولذلك لا بد أن تكون له علة راسخة فى عقول هذه

---

(١) المصدر نفسه ، مجلد ٤٢ (١٦٥٥ ـــ ٥٦) ، ص ١٦٤ ـــ ٦٦ .

(٢) المصدر نفسه ، مجلد ٥١ (١٦٦٦ ـــ ٦٨) ، ص ١٢٤ . (الأب برویاس) .

الجماعات » فالبارتسيون « Barotsè » فى أفريقية الجنوبية « يعتقـدون فى الأحلام ؛ وكثيراً مايرى المرء إحدى النساء آتية لتطلب من شخص ما قبضة من الشعير ، لأنها حلمت بأن المرض سينتابها إذا لم يعطها هذا الشخص المعين قبضة من هذه الحبوب . »

وفى « كمتشتكا » Kamtschatka « إذا أراد شخص أن يحصل على ود فتاة ، فما عليه إلا أن يقص عليها أنه حلم ليلا بالحصول على هذا الود . فتجيبه الفتاة حينئذ إلى ماطلب لاعتقادها بأن الرفض يعد خطيئة كبرى وربما ذهب بحياتها . وقد يحتاج أحدهم إلى « كـكلندا » Kuklanab أو إلى « بركا » Barka أو إلى أى شيء آخر يمنعه فقره من الحصول عليه ، فيكفيه أن يقول : لقد حلمت اليوم أنى أنام على « كـكلندة » فلان أو فلان ، فلا يلبث صاحبها حتى يهبها إياه قائلا : « خذها ، فإنها خرجت من ملكى » ، لأنه يعتقد اعتقاداً جازما أنه إن لم يعطه إياها قضى على نفسه بالموت[1] . »

ليس الحالم هنا هو الذى يحكم عليه بالموت إذا لم يتحقق الحلم كما هى الحال لدى هنود أمريكا الشمالية ، وإنما يموت الشخص الذى رآه صاحب الحلم فى منامه : وقد يكون لهذا الاختلاف بعض الأهمية من وجهة نظر غير التى تعنينا هنا ، ولكنه على أية حال لايمنع من جـبرية « تنفيذ الحلم » فى كلتا الحالتين . ونجد شيئاً من هـذا القبيل فى الوقت الحاضر لدى أكراد آسيا الصغرى ! « يعتقدون أنهم إذا كانوا طاهرى النفوس (ويتوفر لهم ذلك إذا ناموا بعد صلاة العشاء والقيام بالوضوء الذى وصى به القرآن) ، استطاعت أرواحهم أن تتصل بأرواح ملائكة الجنة ، وتصير فى حاله طمأنينة سماوية ، وحينئذ تعرف كل ماهو ضرورى لها عن طريق الأحلام التى يرسلها الله إليها علامة على الرضا ؛ أما إذا كانت هذه الأرواح مذنبة فإنها تتلق الانتقام الذى

---

(١) ل . ديكل L. Decle . Three Years in Savage Africa ، ص ٧٥ .

تستحقه . وهم لا يشكون عند استيقاظهم فى أن أرواحهم قد رأت رأى العين ما مثل أمامها فى الحلم ، وينفذون ما يوصى به هذا الاقتناع الأعمى الراسخ بنوع من الحتمية يجعل منهم مجرمين حقيقين ومصدر قلق وشر فى ربوع البلاد فإن رأوا فى الحلم شيئاً يتوقون إليه ويرغبون فيه ، لم يهدأ لهم بال حتى يتملكوه طوعاً أو كرها ، وإذا حلموا بكائن حى أو متاع مملوك لغيرهم (ولا سيما لأحد المسيحيين)[1] ، لم يقر لهم قرار حتى يصير فى حوزتهم ، ولو اضطروا فى سبيل إشباع رغبتهم الملحة إلى استعمال القوة المسلحة أو الاغتيال أو السلب . وإذا حلموا بعدو أو بمسيحى (إذ ينظرون إلى المسيحى دائماً على أنه عدو لدينهم) ، اعتقدوا أن من واجبهم إنتهاز أول فرصة لإعدامه أو نهب متاعه . وبذلك نكاد تكون الأحلام هى الباعث الدائم الذى يدفع هؤلاء الحمقى إلى ارتكاب جرائمهم واعتداءاتهم[2] » .

ولاشك أن اختلاف الأحوال الاجتماعية بين الكرد والهنود الغربيين هو الذى يفسر لنا إلى حد ما ، أن مايتم عند هؤلاء بالرضا والتسليم يصير عند أولئك فرصة مواتية لارتكاب الجرائم وضروب الاغتيال . ولكن تماثل الالتزامات يبدو لنا من وراء هذا الفرق ، بل يتضح لنا وضوح اليقين حين نلاحظ السبب الذى يعزوه اليسوعيون إلى هذه الضرورة ، فلماذا ينبغى « تنفيذ » الأحلام بأى ثمن ؟ يقول شارلفوا Charlevoi إنهم يفعلون ذلك لأنهم يعتقدون « أن كل مرض ليس إلا رغبة للروح ، ولا يموت المرء إلا لأن رغبته لم تتحقق[3] » . وقد عبر عن ذلك يسوعيو القرن السابع عشر بدقة عظيمة ،

---

(١) ج. و. شتلر G. W. Steller . Beschreibung von dem Land Kamtschatka . ٢٧٩ ، ص

(٢) الأب جوزيف تفنكجى Jos. Tfinkji . Essai sur les songes et l'art des interpréter en Mésopotamie : فى Anthropos ، مجلد ٧ (١٩١٣) ص ٥٠٦ ـ ٥٠٧ ، ص ٥٠٦ ـ ٥٠٧ .

(١) الأب ف. ك. دى شارلفوا F. X. de Charlevoix Journal d'un voyage dans l'Amérique Septentrionale ، ج ٣ ، ص ٣٦٩ ـ ٧٠ (١٧٤٤) .

إذ يقولون : « ولكنهم يعتقدون أن أرواحنا تعلن عن رغباتها بالأحلام كما تعلن عنها بالكلام . فإذا أجيبت لها هذه الرغبات شملها السرور ، وعلى العكس من ذلك إذا لم تمنح ما تريد امتلأت بالغل ولم تكتف بالإحجام عن مد الجسم بالخير والسعادة اللذين كانت تود مده بهما ، بل كثيراً ما تثور ضده وتسبب له أمراضا متنوعة وتجر عليه الموت . . . . وتبعاً لهذه الآراء الخاطئة يبذل معظم أفراد قبائل « الهورون » Hurons كل مجهود ممكن فى ملاحظة أحلامهم وتزويد « أرواحهم » بما تطلبه منهم فى أثناء النوم[1] . » وكذلك « يعتقدون تبعاً لتجاربهم الأكيدة التى لا تخطىء أنهم إذا حلموا بشىء ولم ينفذوه ، حلت بهم إحدى الكوارث . وهم يزعمون أن الحلم الذى رأوه قد عبر عنها بطريقة خفية ، بل لقد لاحظت أن معظم هؤلاء المتبربرين لا يتحمسون كثيراً لإطاعة ما تأمرهم به الأحلام إذا كانوا فى صحة جيدة ، ولكنهم لا يكادون يشعرون بأقل ألم حتى يقتنعوا بأنه لا يوجد علاج لشفائه أو للنجاة من الموت إلا تنفيذ كل ما حلموا به[2] . » اللهم إلا إذا كان المرض ناشئاً من تأثير أحد السحرة[3] » .

هذه الملاحظة الأخيرة للأب اليسوعى تدلنا على أنه يجب تنفيذ الأحلام بأى ثمن ، ولا سيما أحلام المرض والأحـــلام التى تنذر بالمرض على وجه العموم . ومعظم الأمثلة التى وصلت إلينا من هـذا القبيل . « حلمت امرأة مريضة جداً من سكان « انتاجية » Onantaghé بأنه ينبغى لشفائها أن تحصل على ثوب أسود . ولكن المذبحة الشنيعة التى قام بهـا هؤلاء المتبربرون ضد رجالنا الدينيين جعلتهم لا يأملون فى الحصول على هذا الثوب من لدنا ، فلجأو

---

(١) Relations des jesuites ، مجلد ٣٣ (١٦٤٨—٤٩) ، ص (١٨٨—٩٠) .
(٢) المصدر نفسه ، مجلد ٥٤ (١٦٦٩ — ٧٠) ، ص ١٠٠ .
(٣) المصدر نفسه ، مجلد ٣٣ (١٦٤٧ — ٤٨) و ص ١٩٨ .

إلى الهولنديين الذين باعوهم بثمن فاحش عباءة الأب « بنسيه » Pancet الذى كانت قبائل « الأنينرنو » Annienhionnos قد جردته منها قبل ذلك بزمن قصير فاحتفظت بها هذه المرأة طول حياتها لاعتقادها أنها كانت سببا فى شفائها . . . وفى الصيف الماضى جاءت إحدى النساء إلى مدينة « كويبك » لتبحث فيها عن كلب فرنسى كان ابن أخيها قد رآه فى المنام فلما لم تجده فى « كويبك » قطعت أربعمائة فرسخ فى الثلج والجليد والطرق الوعرة فى الذهاب للبحث عن هذا الحيوان المرتجى فى المكان الذى نقل إليه [1] » .

ولكنهم قد ينفذون أيضا الحلم الذى لا يتعلق بالمرض . وقد ذكر اليسوعيون أنفسهم أمثلة كثيرة على ذلك . وهذا واحد منها له دلالته : منذ زمن غير بعيد حدث لرجل من قرية « وايوجين » Oigoen أن رأى فى منامه ذات ليلة عشرة رجال يغطسون فى نهر متجمد ، فيدخلون من ثقب صنعوه فى الجليد ويخرجون من آخر . فكان أول عمل له عند استيقاظه فى الصباح أن أعد مأدبة كبيرة ودعا إليها عشرة من أصحابه . فلبى الجميع الدعوة وراحوا يقصفون ويمرحون . وفى هذه الأثناء قص عليهم حلمه . فلم يدهشهم من أمره شىء ، لأنهم تقدموا جميعا لتنفيذه . فذهبوا إلى النهر وحفروا فى الجليد ثقبين يبعد كل منهما عن الآخر خمس عشرة خطوة . وانتزع الغطاسون ثيابهم ثم راح أولهم يفسح الطريق لزملائه فقفز فى أحد الثقبين ومن حسن حظه خرج من الآخر ، واقتفى الثانى أثره ، واستمر الحال على هذا المنوال حتى العاشر الذى دفع حياته فداء للجميع ، لأنه لم يستطع الخروج ومات تحت الثلج أشنع موته [2] » . فقد أقدم الأصدقاء العشرة على المخاطرة بحياتهم لاعتقادهم أن الحلم يعبر عن رغبة للروح لا بد من تحقيقها وإلا حلت بهم

---

(١) المرجع نفسه ، مجلد ٤٣ (١٦٥٦ — ٥٧) ص٢٧٢ .

(٢) المرجع نفسه ، مجلد ٤٢ (١٦٥٥ — ٥٦) ، ١٥٠ — ٥٢ .

اشنع الكوارث . ولكنا لا نجد فى هذه الحكاية ما يدل على أن ذلك الهندى كان مريضاً .

وتسرى تلك الملاحظة على بعض الأحلام التى تهم المبشرين بوجه خاص فالهنود الغربيون ، مثل « البنتو » الذين سبق الكلام عنهم ، لا يقبلون فى أغلب الحالات أن يعتنقوا المسيحية إلا إذا حلموا بأنهم اعتنقوها ، أو على الأقل إلا إذا دفعهم أحد الأحلام إلى اعتناقها « قال لنا أحد هؤلاء المساكين عبيد الشيطان ما نصه : إنى مستعد للإيمان واعتناق الدين المسيحى مهما كلفنى ذلك من مصائب ، بشرط أن يوحى إلى فى الحلم بهذا العمل . والواقع أنه لا شىء يبدو عسيرا فى نظرهم إذا تعلق الأمر بإطاعة أحد الأحلام [1] » .

وهنا تعترضنا صعوبة أخيرة يبدو أن الآباء اليسوعيين لم يهتموا بها : ما هى بالضبط تلك الروح التى تخبر برغباتها عن طريق الحلم والتى تعتبر رغباتها أوامر يتحتم تنفيذها بأى ثمن ؟ .

إن مصطلح الروح مصطلح شديد الابهام ، فهل يمكن أن يكون له معنى واحد فى عقول اليسوعيين وفى تصورات الهنود الجماعية ؟ يقال إن هؤلاء يسلمون بوجود روحين على الأقل فى كل شخص . الأولى تشبه جد الشبه

---

(١) المرجع نفسه ، مجلد ٢٣ (١٦٤٥) ، ص ١٤٢ ، ومجلد ٤٧ (١٦٧٢ ـ ٥٣) ، ص ١٩٤ ـ ٥٥ .

(٢) قضى « دوركهيم Durkheim » زمنا طويلا فى دراسة فكرة الروح لدى الجماعات الاسترالية ، وهو يرى فيها قاعدة الفرد وطوطم العشيرة فى آن واحد ويصل إلى هذه النتيجة ، وهى « أن الروح بصورة عامة ليست شيئاً آخر غير القاعدة الطوطمية وقد حلت فى كل فرد من الأفراد » . وهى مضطرة إلى أن توزع وتقسم بينهم . وكل قسم من هذه الأقسام يعتبر روحا قائمة بذاتها . » ومن جهة أخرى « فكرة الطوطم وفكرة السلف تجاور كل منهما الأخرى إلى حد أنهما قد يختلطان فى بعض الأحيان . » . . . « وإذا كان « السلف » يختلط بالكائن الطوطمى إلى هذا الحد ، فإن الأمر لا يمكن أن يختلف بالنسبة إلى الروح الفردية التى تقترب من الروح السلفية أشد اقتراب . » من كتاب : Formes de la vie religieuse ، ص ٣٥٥ ـ ٣٦٧ .

عنصر الحياة ، ومصيرها متوقف على مصير الجسم ، والأخرى تحل فى الجسم أثناء الحياة وتغادره عند الموت . وهى توجد قبله وتستمر فى الحياة من بعده. ويوجد نوع من المشاركة بين هذه الروح الثانية ـ أعنى « ضيفة الجسم التى يتوقف عليها خير الإنسان بل حياته ذاتها فى أثناء وجوده » الراهن ، وبين روحه التى تحميه وملاكه الحارس أو ما يسميه الشخص نفسه « بإلهه » (على حد تعبير بول Powell) ، وهى التى تعتبر حارسه وطوطمه الفردى . ولم يستطع الباحثون حتى الآن أن يوضحوا لنا ما هية هذه المشاركة ، وربما كانت غير قابلة للتوضيح . ولعل هذه المشاركة الوثيقة لا تذهب إلى حد الامتزاج أى إلى حد وحدة الكائنين الذاتية[١] ، ومع ذلك فإنها تبلغ حداً يجعل الهندى الغربى يشعر بأنه تابع تماماً لهذه الروح genius التى يمكنها فى كل فرصة أن تجعله شقيا أو سعيدا . وليس هناك مصيبة أعظم من الوقوع فى سخطها . وإذا ظن الهندى أنه أغضبها اعتقد أنه ميت لا محالة .

إذا سلمنا بأن الحلم ليس إلا عبادة لإرادة الروح (genius) ، فإنه يمكننا أن نجد التفسير الطبيعى للإجلال الغريب الذى يكنه الهنود الغربيون لها ، وللمبادرة التى يبدونها فى تلبية أوامرها . فتنفيذ أوامر الحلم مسألة حياة أو موت بالنسبة إليهم ، وإذا رفضوا أن ينفذوا لأحدهم ما طلبته روحه فى المنام ، فإنهم يكونون قد ارتكبوا ضده جناية القتل . ولكن عبارات الآباء اليسوعيين غير واضحة إلى حد كبير ، وقد لا يميزون فى رواياتهم بين الطوطم الفردى للهندى وبين روحه ame. وقد نص Charlevoix « شارلفوا » على ذلك حين قال : « إن أهالى « الأكادى » Acadie لا يمنعون المريض من شىء قط ، لأن رغباته فى هذه الحال تعتبر أوامر من الروح genie الحارسة[٢] » .

يعتبر المرض فى كثير من الحالات علامة تدل الهندى الغربى على أن

---

(١) الأب ف . ك . دى شارلفوا . Journal d'un voyage dans l'Amérique Septentrionale ، ج ٣ ، ص ٣٦٧ .

روحه الحارسة قد صدمت أو أحنقت ؛ لأنها لم تنل إحدى رغباتها ، وهى لذلك تهدد بتركه وإسلامه إلى الموت . فكيف لهذا الشخص أن يعرف نوع الرغبة أو الشيء الذى يمكن أن يهدىء من ثورة الروح ؟ لاشك أن الروح وحدها هى التى تستطيع الإخبار بذلك ، وهى تكشف عنه بوساطة الحلم . وفى هذه الحال يجب على الشخص وجوبا حتميا أن ينفذه . هذا فرض ضرورى ، ومما يعضد ضرورته أن الهندى الغربى لا يكتشف روحه الحافظة لأول مرة إلا من خلال رؤيا أو حلم . ويحدث هذا الحلم إما من تلقاء نفسه وإما بناء على رجاء واستثارة ، وهذه هى الوسيلة الوحيدة لمعرفة ماترغب فيه الروح . لذلك نرى مثل هذا الشخص مستعداً للاعتقاد بأن الأحلام ، أو بعض الأحلام على الأقل ، ليست إلا رسائل ترسلها إليه روحه . وتلك هى الطريقة العادية التى تكشف بها الروح عما تريد أن تكشف عنه . ونحن نعرف أن الصلات بين الهندى الغربى وطوطمه الفردى دائمة لا تنقطع . « عليه أن يبجلها ويتبع نصائحها ، وأن يعمل على استحقاق مكرماتها ؛ وأن يوليها كل ثقته وأن يخشى عواقب غضبها إذا أهمل فى الوفاء بما يدين به نحوها [1] » .

ولنختتم هذه الفكرة بذكر تلك الحالة التى وقعت لدى قبائل « الشيبوايو » Shipwayo ، وقوبلت فيها الأحلام بعصيان جزئى . وهى تعضد تفسيرنا تمام التعضيد . « حدث فى ليـــلة اليوم الذى كان على الجنود أن ينفروا فى صباحه أن حلم أحد الهنود الغربيين ، وكان الدب طوطمه ، بأنه إذا ذهب إلى مكان معين مغطى بالمستنقعات وقريب من سطح جبل عال على مسيرة حوالى خمسة أيام من عشته ، فإنه يجد قطيعا كبيرا من الوعول والغزلان والحيوانات الأخرى ، ولكن بشرط أن يكون مصحوبا بعشرة من الصيادين المهرة على الأقل . فلما استيقظ قص حلمه على الآخرين ورجاهم أن يذهبوا معه ، فرفضوا جميعاً محتجين بأن ذلك يثنيهم عن طريقهم . وبأن

---

(١) المرجع نفسه ، مجلد ٣ ، ص ٣٤٦ — ٣٤٧

أرض صيدهم أقرب من هذا المكان. وكان الهندى يحمل لحلمه ذلك الإجلال الخرافى الذى يرفعه الجهل والتقاليد إلى أسمى مكان بين الشعوب المتأخرة. ولما كان يعتبر نفسه ملزما بطاعته، فقد ذهب وحده رغم رفض زملائه، وما أن وصل إلى المكان المشار إليه حتى رأى الحيوانات التى حلم بها. وهناك ترك ناره وقتل دبا. فلما رأى هذه النتيجة هلع لها قلبه وخشى غضب «سيد الحياة» الذى اعتقد أنه اعتدى عليه اعتداء عيبا، فسقط على الأرض وظل بعض الوقت فى حالة إغماء شديد. ولما أفاق نهض وانطلق متحاملا على نفسه ليعود إلى «بيتى». وفى الطريق صادفه دب آخر قوى؛ فطرحه أرضا ومزق وجهه بمخالبه. وراح الرجل بعد عودته يقص مغامراته ويحكى ببساطته الطبيعية أن الدب سأله عما ساقه إلى قتل طوطمه، وأنه أجابه بأنه لم يكن يعرف أن فى القطيع الذى أطلق عليه النار دبا، وأنه فى غاية الحزن من جراء هذه الكارثة ويأمل فى عطف الدب وغفرانه وحينئذ تركه الدب إلى حال سبيله بعد أن أمره بأن يكون حذرا فى المستقبل وأن يخبر قومه جميعاً بما جرى له لكى يحافظوا على طوطمهم ولكيلا يستثيروا «سيد الحياة» ضدهم. ولم يكد الرجل يدخل على حتى نظر إلى نظرة كلها جد ونطق بهذه الكلمات: «يا كستور Castor (هذا هو الاسم الذى يطلقه الهنود الغربيون على «لنج» Long)؛ لقد ضاع إيمانى، وغضب منى طوطمى، ولن أستطيع الصيد بعد اليوم![1]».

---

(١) ج. لنج Voyages and travels of an Indian interpreter and trader (١٧٩١)، ص ٨٦ — ٨٧.

الفصل الرابع

الفؤول

رأينا أن الأحلام تكون أهم جزء فى تجارب العقلية البدائية ، لأنها هى التى تصل بينها وبين العالم غير المرئى بطريق مباشر . ثم تأتى الفؤول فى الدرجة الثانية من الأهمية لأنها هى الأخرى تمد هذه العقلية ببعض المعلومات عن فعل القوى الغيبية التى تحس بوجودها فى كل مكان حولها . فالفؤول إذن ضروب من الكشف تحدث تلقائيا . ويفسرها البدائى على التو دون حاجة إلى ترو ، وذلك بواساطة أنواع من الارتباط الزائف تصل بين تصوراته الجمعية . وللفؤول عند البدائيين صور شتى كأن يسمعوا هذا الطائر يصيح من جهة الشمال أو يروا ذاك الحيوان يعبر الطريق فى أثناء المسير ، وهلم جرا ، والبدائى يدرك الدلالة السعيدة أو المنحوسة لهذا الفأل أو ذاك بمجرد أن يدرك الحادثة التى تكونه . وحينئذ يتابع السير فى المشروع الذى بدأه بشجاعة أو يتخلى عنه . وهو إذ يفعل ذلك إنما يساير معطيات تجاربه التى تعد الفؤول فى الصف الأول منها ، ويشبه ذلك إلى حد ما مسلك الطبيب الذى يبنى وصفاته على حالة المريض التى يكشف عنها تشخيصه للأعراض .

كانت الجماعات القديمة تعتقد فى ظاهرة الفأل وتعتمد عليها ، ولا سيما شعب الجمهورية الرومانية التى اتخذت فيها هذه الظاهرة نظاما رسميا : وقد أصبحت بعد اطلاعنا على التراث اللاتينى أمرا مألوفا لدينا . ومع ذلك فإننا نخطىء إذا فرضنا مقدما ودون بحث أن ما ينطبق على الفؤول فى الشعوب القديمة التقليدية ينطبق عليها أيضا فى الجماعات المتأخرة . وذلك لأن أسلم طرق البحث بالنسبة لموضوعنا تنحصر فى أن ندرس الفؤول عند البدائيين أولا وقبل كل شىء كما لو كنا لا نعرف فؤول الأقدمين ولا النظريات التى وضعت لتفسيرها . ولعل تحليل الحوادث التى تروى عن البدائيين يلقى ، على العكس من ذلك ، ضوءا جديداً على الفأل فى الجماعات القديمة ويساعدنا على فهم هذه الظاهرة فهما جيداً . فإذا رأى القارىء أننا لا نتعجل المقارنة فى أثناء هذه

الدراسة ، فليعلم أننا إنما نفعل ذلك عن عمد لاعتقادنا فى جدوى هذه الطريقة فلندع الفؤول إذن عند الاغريق والرومان جانبا ، ولو مؤقتا ، ولنعكف على ما يوجد منها عند البدائيين . ولا بد من إيراد هاتين الملاحظتين التمهيديتين لكى نحسن فهم أثر الفأل فى عقلية البدائيين ونستوعبه جيدا .

فأولا ـ تعلن الفؤول مثلا أن المشروع الذى سيبدأ فيه المرء سوف ينجح أو سوف يخفق . وقد تحذر من أن خطراً لا يخطر بالبال سيقع عاجلا أو آجلا . ويختلف الفأل فى ذلك عن ضروب الكشف الأخرى التى تستنبطها العقلية البدائية . مما حولها بصفة مستمرة . فنحن نعرف أن كل ماهو خفى مفاجىء يعتبر كشفا وإعلانا عن أمر ما ، وأن كل حادثة عرضية لها دلالتها القوية ؛ إذ لا يوجد شىء اعتباطى ، وكل ما خرج عن المألوف ولو قليلا يعلن عن فعل القوى الخفية . ولكن هذا الضرب من ضروب الكشف ينصب على الماضى فى أغلب الأحيان . إذ أنه يخبر بأن بعض الأعمال السحرية قد وجهت إلى شخص ما أو أن بعض المحرمات قد انتهكت أو أن بعض الموتى غاضبون لأن رغباتهم قد أهملت . وهلم جرا . فالفأل إذن نوع من جنس يشتمل على أنواع أخرى كثيرة . وهو ضرب من الإعلان عن حوادث مستقبلة . ولا شك أن هذه الصفة تسبغ عليه أهمية بالغة ، إذ أن المستقبل لا يزال محتمل الوقوع ، ومعرفة الماضى لا قيمة لها لدى البدائيين فى أغلب الأحيان إلا بمقدار احتياجهم إليها فى اللحظة الراهنة أو فى المستقبل .

ولكننا نعلم أن عقولهم لا تتصور الزمن على نحو ماتتصوره عقولنا بأية حال . فإنهم لايرون فيه ذلك الشىء الذى يمتد أمام خيالهم فى خط مستقيم متشابه ، وتقع عليه الحوادث التى لا يمكن التنبؤ بها إلا بترتيبها مقدما فى سلسلة مستقيمة الاتجاه غير قابلة للقلب ، وفى هذه السلسلة تصطف تلك الحوادث بالضرورة بعضها إثر بعض . فليس الزمان عند البدائى ضربا من الحدس العقلى ، أى « نظاما من ضروب التتابع » على نحو ما هو عندنا . كما أن البدائى أبعد الناس عن اعتبار أن الزمن « كم » quantum متجانس . فهو يحس به كيفيا أكثر مما يتصوره . وإذا كانت هناك حادثتان تتلو إحداهما

الأخرى على مسافة ما ، فإن البدائي يرى دون حرج أن الثانية مستقبلة بالنسبة للأولى ، ولكن دون أن يميز الخطى الوسطى التي تفصل بينهما تمييزا واضحا ، اللهم إلا أن يكون لهذه الخطى أهمية استثنائية بالنسبة إليه ، وهذا لا يقع إلا في الأقل النادر .

نستخلص مما تقدم أن البدائي على وجه العموم لا يضع الحادثة المستقبلة بوضوح على هـذا البعد المعين أو ذاك من خطر الزمان المستقبل ، ولكنه يتصورها بصورة غامضة ويحس بها على أنها مستقبلة[١] .

ثانياً : ترتبط هذه الخاصية العقلية التي يتميز بها البدائيون على النحو الذي أوضحناه بنظرتهم إلى السببية ، وهي سببية من نوع غيبي . وإذا كان خط الزمان لا يمتد عندهم في اتجاه المستقبل إلى ما لا نهاية كما هي الحال عندنا ، بل إذا كان على العكس من ذلك لا يلبث أن ينقطع ، فذلك لأنه لا تسنده تلك السلسلة السببية التي تتكون من سوابق ولواحق متوالية . فالعقلية البدائية لا تهتم بأن تصعد أو أن تنزل سلسلة الشروط التي تقوم هي نفسها على شروط أخرى . نعم إنها تبدأ على العموم من مدركات حية مباشرة كما هي الحال عندنا ، ولكنها لا تلبث أن تتخلى عما نسميه نحن بالحقيقة الموضوعية لكي نسعى وراء الكشف عن السبب الخفي الغيبي ، أي عن القوة غير المرئية التي أعلنت عن نفسها بإحداث تغيير في المدركات الحسية . بل كثيراً ما يتعرف البدائي على هذه القوة مقدما عن طريق الارتباطات الزائفة التي تربط بين تصوراته . فهو عاجز عن تصور مستقبل منظم تنظيما مطرداً ، منصرف عن البحث عن سلاسل الأسباب الطبيعية : وينشأ هذان المظهران من استعداد عقلي واحد .

---

(١) وهذا مظهر من المظاهر الرئيسية « لقصر النظر » الذي كثيرا ما لاحظه الباحثون في الجماعات البدائية ونموه عليها . ولا شك أن لهذه الصفة أسبابا أخرى اجتماعية واقتصادية ولكنها ترجع بوجه خاص إلى عادات البدائيين العقلية . فهم لا يتصورون الزمان المستقبل إلا بصورة جد مختلطة كما تشهد بذلك على العموم لغاتهم الفقيرة في وسائل التعبير عن الفروق الاستقبالية الدقيقة . ومن هنا جاءهم هذا النوع من « قصر النظر » الذي يمنعهم من تحديد موقع شيء ما بعيد في المستقبل . وليس من شأن ذلك ، بطبيعة الحال أن يمنعهم على أن يكونوا بعيدى النظر ، حتى ولو كانوا جد حريصين عليه في نواح أخرى .

وهذا هو الذى أسبغ على الفؤول أهميتها العظمى وجعل لها تلك الوظيفة التى تقوم بها فى حياة البدائيين . فما عسى أن تكون الفؤول بالنسبة لعقول كعقولنا اعتادت على أن تتصور نظاما ثابتاً للطبيعة ، وعلى أن تعول على هذا النظام وتتعاون معه ، وعلى أن تعلق عليه آمالها ومخاوفها ؟ لاشك أنها مجرد علامات تكشف مقدما عما سيتمخض عنه هـذا النظام الطبيعى على وجه التأكيد ، بمقتضى تلك الجدية التى تتحكم فى سلاسل الأسباب والنتائج . فإذا فرضنا أن هـذه العلامات لم تحدث أو أنها حدثت ولم يفطن إليها أحد ، فإن ذلك لا يغير شيئاً فى مجرى الحوادث ؛ إذ ليس هناك ما يمنع من تحقق النتائج ما دامت الأسباب قد وجدت . وإذن تظل الفؤول شيئاً خارجاً عن سلاسل الظواهر الطبيعية . ولكن لما كانت هذه السلاسل طويلة جداً ومعقدة جدا فى غالب الأحيان ، وكانت قدرتنا على التنبؤ العقلى جد ضعيفة ، فإننا قد نتوهم بسهولة أن قوة موالية لنا ترفع حجاب المستقبل أمام بصرنا وتطلعنا فى الحال على النهاية التى ستنتهى إليها السلسلة ولا شك أنه إن تحقق لنا هذا ، اعتبرناه نوعاً من الفضل يرضى تطلعنا إلى المعرفه بفروغ صبر . ولكنه لا يصيب الأشياء بأدنى تغيير .

غير أن هذا التوازن الناشىء عن تصور نظام ثابت للعالم بعيد عن تناول العقلية البدائية ؛ وذلك لأنها تتصور السببية بصورة غير التى نتصورها . ومن ثم فلابد أن يكون للفؤول عندها أهمية أخرى غير التى لها عندنا . ولما كانت الأسباب تنحصر لدى البدائيين فى بعض مظاهر القوى الغيبية والخفية ، كان للفؤول فى نظرهم نصيب رئيسى فى إحداث ما تعلن عنه . فليست وظيفتها الوحيدة أن تعلن عما سيقع . بل إنها تشترك اشتراكا جوهرياً فى إحداث ما تعلن عنه . ولما كان البدائى يحس بالمستقبل الذى يتنبأ به لحدث على أنه متحقق بالفعل ، فإنه يحس بأن الفأل هو الذى يحدث هذا المستقبل فى نفس الوقت الذى يعلن عنه فيه . وهنا يتدخل قانون المشاركة . ولكن التحليل التجريدى لهذه العملية العقلية لا يمكنه تقريبها من أفهامنا إلا بتشويهه إياها . لذلك يحسن بنا أن ندع

الوقائع تتكلم عن نفسها مع محاولتنا توضيحها على ضوء الملاحظات المذكورة آنفاً .

تحظى الفؤول عادة بأهمية عظمى فى تنظيم الحياة عند كثير من الجماعات المتأخرة ولكنها لم تصل فى أى مكان إلى درجة الأهمية والنماء التى وصلت إليها لدى قبائل « الدياك » Dayak ولدى الجزء الأكبر من سكان « بورينو » الآخرين . لذلك كانت الأحوال فى هذه الأماكن من أنسب الظروف التى تساعد على دراسة هذه الظاهرة دراسة صحيحة مجدية . فالشواهد التى تحت أيدينا عنها عديدة ومتفقة فيما بينها على وجه العموم ؛ ومنها ماله قيمة علمية عظيمة ، مثل تلك التى ندين بها إلى الأستاذ برهام Perham والدكتور نيوفنويس Nieuvenhuis .

أبان الأستاذ برهام مقدار السلطة التى تعترف بها القبائل الوطنية للفؤول والقدرة التى يعزوها إليها . « إنهم يعتقدون اعتقادا جازما أنها أساس كل نجاح ، ولا ينفكون يستشهدون على ذلك بالقصص التى لا ينضب معينها عندهم ويروون حالات الإخفاق والمرض والموت التى دلت عليها الفؤول ولم تأبه بها حماقة الحمق فحاقت بهم عواقبها . وقد يحاول المرء أن يحارب هذه الظاهرة بضروب الاستقلال ، ولكنهم يظنون أن لديهم الدليل القاطع على حقيقتها فى المصادفات التى يستطيعون ذكر الكثير منها . والمصادفة العرضية أشد إقناعا فى أعينهم من جميع البراهين المنطقية ... وهم يبدون عناية فائقة بالاحتفاظ بجميع الحالات التى تصلح فى نظرهم شواهد على صدق نبوءة الفأل ، أما الحالات التى بدا فيها زيفه فإنهم سرعان ما ينسونها [1] » .

وهم يتحيزون فى اختيارهم للحوادث على هذا النحو دون شعور وبحسن نية ، ويدل على ذلك تلك الحقيقة التى يقررها الأستاذ برهام نفسه إذ يقول :

---

(١) الأب ج برهام ، وقد نقله عنه لنج روث The Natives of Sarawak Luing Roth ج ١ ، ص ١٩١ .

« إن هذه الظاهرة مسرفة فى التعقيد مفعمة بالتفاصيل ، وتنطوى على ضروب من الخداع لاحصر لها بالنسبة لمن ليسوا من أساتذة هذا العلم المبرزين . لذلك لا يكف الشبان عن سؤال من هم أكبر منهم سناً عن الطريقة التى يسلكونها حينما تتلاقى على غير انتظار عدة فؤول مختلفة ومتناقضة فى ظاهرها[1] » .

لسنا هنا بصدد الدخول فى عرض ، ولو كان عرضاً إجمالياً ، لهذه الظاهرة والمناقشات التى قامت حولها . ولعله يكفينا أن نقول بأن مصادر الفؤول التى يعتمد عليها الأهالى فى كل ظروف الحياة الفردية والاجتماعية تنحصر فى سبعة طيور يضاف إليهما عدد ما من الحيوانات ، وهى الوعل والأيل والغزال والأرمادلو Armadillo وأخرى غيرها مثل الحرباء والخفاش والبيتون Python والكبرا (نوعان من الثعابين) ، والفأر أيضاً فى بعض الأحايين ؛ فتستطيع كل هذه الحيوانات أن تعلن الفؤول بطرق مختلفة ، ومن أجل ذلك تسمى طيور («بورنج» burong) ، وتدعى عملية الحصول على الفؤول عن طريقها بعملية « بيورنج » beburing : ويستخرج الفأل من طير الطائر وصياح الحيوان والاتجاه الذى يأتى منه أو يذهب إليه وهلم جرا ... ، وهذه هى النقطة التى تتفق فيها هذه العملية عند البدائيين وعند الرومان بصورة واضحة .

ويشهد عدد من الشهواهد بأن الأهالى يعدلون عن الشروع فى أى مشروع ، بل وقد يهجرونه بعد أن يكونوا قد بدأوا فيه ، إذا لم يصحبه ظهور فؤول حسنة أو كان مصحوباً بظهور فؤول سيئة . فمثلاً أراد أفراد قبائل «الكينيا» Kenyah فى «تانابوتيه» (Tanah Putih) أن ينتهزوا فرصة إقامتنا بينهم ليبنوا سفينة ، ولكنهم حينما دخلوا الغابه (لقطع شجرة) قابلوا طائراً يسمى هيزيت hisit وسمعوه يصيح عن شمالهم ، فقفلوا راجعين . وبعد نصف ساعة رجعوا إلى الغابة وقطعوا الشجرة . ولكن لم تكد الشجرة تسقط على الأرض حتى رأوا

---

(١) المرجع نفسه ، حـ ١ ، ص ١٩١

علامة مشئومة فتركوها هنالك وعدلوا عن بناء السفينة [١] » . كذلك يجب أن تظهر بعض الفؤول الحسنة فى لحظة قيامهم بإحدى الرحلات ، وإلا عدلوا عنها : « كان يبدو لى أن موقفهم جد غريب ، ولكنهم لم يلبثوا أن أخبرونى بأنهم لا يستطيعون الارتحال لأن أحد طيورهم المستخدمة فى الفأل وهو « الهنريث » بالذات ، طاف بالبيت ، بل دخله من سقفه . وهذه أشأم العلامات التى تصادف الابتداء فى رحلة ، ولذلك كان لابد لهم أن يتريثوا لمدة أربعة أيام ينفقونها فى اتباع نظام معين من التحريم اسمه « ميلونجاهو » (Milondjaho) ثم يلاحظوا بعدها الطيور من جديد [٢] ...

وكلما كان المشروع المزمع صعباً أو خطرا ، زادت حاجة القائمين به إلى الفؤول الحسنة ، « ... قيل لى إن رجالا كثيرين من القرى (وعددهم يقرب من ٥٠٠) يريدون الاشتراك فى الرحلة ، ولكن كان لابد لكل قرية أن تستطلع الطيور لحسابها الخاص ، ولم يكن يكفيهم للقيام برحلة من هذا القبيل أقل من عشرة فؤول مختلفة . ولما كان معظم الناس يصادفون دائماً بعض الفؤول السيئة قبل أن تتم لهم سلسلة الفؤول الحسنة ، فإنهم كانوا يضطرون إلى الرجوع من حيث أتوا [٣] » .

وإذا كان لحكم الفؤول كل هذا السلطان ، فليس ذلك بسبب إعتبارها تنبؤات لا تخيب ، بل لسبب أعمق منه بكثير . فالفأل الحسن له نصيبه الإيجابى الذى لا يمكن الاستغناء عنه ؛ إذ أنه ليس إعلانا للنجاح فحسب ، وإنما هو ضمان لهذا النجاح أولا وقبل كل شىء ، ضمان لا غنى عنه أو شرط لا يتحقق النجاح بدونه . وإذن لا يكفى للقيام بمشروع ألا يظهر فؤول مشئومة ، بل لابد أيضا من حدوث فؤول حسنة . وبدون ذلك لا يفعل الأهالى شيئا ، ولو

---

(١) ا . و . نيو فنــويس Quer durch Boweo , A . W . Nieunvenhuis ، حـ ٢ ، ص ٤٤١ .

(٢) المرجع نفسه ، حـ ١ ، ص ٤١٧ .

(٣) المراجع نفسه حـ ٢ ، ص ٤٢٥ .

أدى الامتناع عن الفعل إلى نكبة محققة . وهكذا يتحتم عليهم عند البذر أن يكونوا قد سمعوا هذا الطائر من جهة اليمين أو رأوا ذلك الطائر الآخر من جهة اليسار ، وهلم جرا . أما إذا كان الأمر يتعلق بمجرد الاستعلام عما إذا كان المحصول سيأتى بثمار موفورة ، فإنهم قد يستسلمون للعمل مع عدم التأكد ماداموا لم يجدوا مايطمئنهم على النتيجة ، ولاسيما حينما يعجلهم الوقت ويوشك فصل البذر على الانقضاء . ومع ذلك فإنهم لا يبدأون على وجه العموم مادامت الفؤول المطلوبة لم تحدث بعد ، وذلك لأن مظاهر الطيور لها فى حد ذاتها قدرة غيبية تضمن نجاح المحصول وتعلن عنه فى آن واحد . وإذا لم تحدث ؛ فإنه لا يمكن للزرع بدوره أن ينتج شيئا .

والشاهد الذى يورده الأستاذ برهام قاطع فى هذا الصدد ، إذ يقول « يلزم انقضاء شهر كامل فى بعض الأحيان للحصول على جميع التنبؤات الفألية التى تطمئن الأهالى على نتيجة أعمالهم . ويحتفظ الشخص منهم بعصا أو قطعة من سعف النخيل فى مقابلة كل طائر يسمع صياحه ، لذلك لا تتم سلسلة الفؤول حتى يكون قد تجمع إليه مايساوى عددها من قطع العصى أو السعف ، فيحملها إلى الأرض التى اختارها للزراعة ، ويغرسها فيها ؛ ثم يتلو دعاء قصيراً للطيور و « ليولنج جانا » Lulorg - gana ؛ ويقطع قليلا من العشب أو من الأدغال بمنجلة (parong) ويعود به . وبهذه الوسيلة تنتقل قوة الطيور السحرية إلى الأرض [1] » فالسبب فى اضطرارهم إلى انتظار ماتتفضل به الطيور قبل أن يبدأوا زراعتهم يرجع إلى تلك القوة السحرية الكامنة فى هذه الطيور .

والحادثة التالية ليست أقل دلالة من السابقة : « حينما يريد المرء أن يذهب لزيارة مريض يتمنى أن يرى بعض الطيور عن يمينه ، لأن لهذا الفأل قدرة كبيرة على جلب الصحة . وبهذه المناسبة أذكر أيضاً طريقة يستعملونها لنقل قوة الفأل الحسن إلى الجسم المراد نقلها إليه ، : فاذا سار أحد « الدياك » لزيارة

---

(١) هـ . لنج روث . Native of Sarawak ، جـ ١ ص ١٩٢

صديق مريض فسمع فى الطريق طائرا ميمونا جلس فى مكانه ومضغ بعض اللبان وورق « السيريه » Sirih والكرنب والتبغ والجبير (Gambir) لمتعته الخاصة . فاذا فرغ من ذلك يتناول مضغة أخرى من هـذا الخليط ولفها بورقة وحملها إلى صديقـــه المريض . فإن كانت حالة المريض تسمح له بازدرادها كانت عونا ناجعا له على الشفاء . أليست تحتوى على صوت الطائر وهو ترياق الحياة الغيبى الذى جاء من العالم غير المرئى [1] ؟ » « فالدياك » لايحمل إذن إلى المريض نبأ شفائه الذى تلقاه من الفأل الميمون فحسب ، بل يقـــدم له فى نفس الوقت عونا قويا مستمدا من قدرة الطائر الغيبية « والبورنج مالام (burong malam) عبارة عن حشرة سميت بهذا الاسم لأنها تسمع بالليل على وجه العموم ، ويبحث عنها « الدياك » إذا كانوا فى طريقهم إلى الحرب بوجه خاص ، لأنها تقودهم إلى الأمان والنصر ، وهى كالطائر الذى يطلق عليه أسم « المنداك » (mendak) فكل منهما يعتبر روحا ميمونة فى جميع الأحيان ، ولهذه الحشرة قيمتها بالنسبة للزراعة أيضاً . وقد سمعها أحـــد الأفراد فى ضحى ذات يوم تصيح فوق شجرة قائمة فى حقله فخصص لها قربانا تحت هذه الشجرة التى اعتبرت شجرة مقدسة منذ ذلك الحين فلم يقطعوها مع بقية الأشجار . وقد كوفىء هذا الرجل بحاصل موفور [2] » .

من الواضح فى هـذا المثال أن الرجل لم يعامل الشجرة هـذه المعاملة باعتبارها رسولا يحمل أخبارا سارة ، بل باعتبارها قوة ، أو إلها يراد كسب عطفه الدائم . وقد احتفظ القوم بها لأن التأثير الطيب الذى تمتاز به الحشرة التى حطت عليها قد انتقل إليها عن طريق المشاركة . فاصبحت الشجرة بدورها مشربة بذلك التأثير وصارت تغذى به حقل هذا « الدياك » .

---

(١) المرجع نفسه ، جـ ١ ، ص ١٩٤ — ١٩٥

(٢) الأب ج برهام Sea Dayak religion فى Journal of the Straitsbranch of The Asiatic sociyet ، عدد ١٠ ، ص ٢٣٢

« إذا أزمع أفراد قبائل « الكنياه » Kenyah على السفر بطريق النهر ، حرصوا على أن يروا « الايسيت » Isit (الطائر الذى يصطاد العناكب) يطير من اليسار إلى اليمين وهم جالسون على السفينة مولين وجوههم شطر مقدمتها فإن تحققت لهم هذه الأمنية أظهروا ألوان التعجب وأخذوا يبتهلون إليه بقولهم « أيها الإيسيت الذى عن شمالنا ! هب لنا طول الحياه ، وساعدنا فى مشروعنا وأعنا على أن نجد مانسعى إليه ، وأضعف أعداءنا ! » وبعد ذلك يوقفون زوارقهم كالعادة وينزلون إلى الشاطىء حيث يوقدون نارا صغيرة ثم يناجونها بقولهم : « قولى « لأيسيت » أن يساعدنا . » . ويشعل كل واحد من رجال الرحلة لفافة تبغ لتكون ناره الصغيرة الخاصة به ، كما يهمهم ببعض الأدعية المعتاده [1] . » وليست هـــذه الأدعية إلا ضربا من الصلاه أيضا ، ولا شك فى إن « الكنياه » يتوجهون بها إلى الطائر نفسه .

لا ينبغى لنا أن ندهش إذن حين نرى الأستاذ برهام يتكلم عن عبادة الطيور عند هذه القبائل فيقول . « وغرضهم من هذه العبادة ، هو نفس الغرض الذى ينشدونه فى جميع الطقوس الأخرى : أى الحصول على حاصلات جيدة والنجاة من الحوادث والسقوط والأمراض ، والإنتصار فى الحرب ، والكسب فى المبادلات التجارية واللباقة فى الكلام ، والمهارة فى كل أمورهم الخاصة وأقول « عبادة الطيور » لأنها ترتفع من مستوى استطلاع الفؤول إلى درجة الإبتهال إلى الطيور وعبادتها . . . (ويتلو ذلك اقتباس من نشيد دينى عند الدياك) . فهنا نرى الطيور فى صحبة الدياك تنظم حياتهم وتضمن لهم نجاح عملهم، ولذلك يحاولون كسب رضاها بالدعاء والقرابين . ويوجد احتفال آخر تبدو فيه بوضوح عبادة هذه الكائنات ذات الجناحين ، وهو العيد المسمى « مرى بورنج مكاى» mri burong makai (ومعناه إعطاء الطيور غذاء تأكله) ، أى تقديم قربان لها وهو عيد ثانوى لتكريم «سنجالج بورنج» Singalang Burong

---

(١) هوز Hose ومكدوجل Mac Dougall, The pagan Tribes of Borneo

وأزواج بناته ، أى طيور الفأل [١] . »

لاشك أن هذه الطيور غير طيورنا المعتادة . وعلى هذا النحو يجب أن ننظر إليها ؛ لأننا حتى لو اعتبرناها طيورا عادية ولكنها مزودة بأنواع من القدرة الغيبية ، لكانت الفكره التى نكونها عنها لا تنطبق على الفكرة التى لها عند «الدياك» . إذ أننا فى هذه الحال لا نستطيع إلا أن نجعل للخصائص الموضوعية المقام الأول فى الصورة التى نتصورها ، حيث أننا نرى أولا وقبل كل شىء الشكل المميز لجسم هذه الحيوانات ، أى جناحيها ، ومنقارها ، ومشيتها ، وطيرانها ، الخ . وبعد ذلك نضيف إليها فكرة الخصائص الغيبية التى لها . ولكن الدياك لا يكاد يرى غير هذه الخصائص الأخيرة ، لأن أهميتها فى نظره لا تقارن بشىء . فطائر الفأل فى نظره هو ذلك الكائن المقدس ، وتلك القوة الغيبية التى يتوقف عليها مصيره . وهنا نجد تلك الصورة الخاصة من التجريد التى وضحناها فى كتاب آخر [٢] وقلنا إنها لا نظير لها فى تفكيرنا لأن تفكيرنا تصورى معنوى . يقول الأستاذ برهام : «هذه الطيور صور من الحياة الحيوانية تسكنها روح بعض الكائنات العليا غير المرئية وتحمل اسمها (وهذه سمة لها دلالتها . فليس الإسم عندهم لمجرد التعيين ، بل إن وحدة الإسم تستلزم المشاركة الحقيقية ، أى وحدة الجوهر) ، ولهذا إذا سمع الدياك مثلا صوت بعض الطيور المسماة «بيراجاى» beragai أعتقد على الفور أن الصوت الذى سمعه ليس فى حقيقة الحال إلا صوت «بيراجاى» beragai زوج ابنة «سنجالنج» Singalang Burung نفسه ، بل أيقن أنه «يدرك» فى هذا الصوت علامة على رضاء تلك الروح الكبيرة أو على عبوس حاجبها وهى تقول : كلا [٣] »

لا يمكن لعقولنا نحن أن تتصور هذا الأمر إلا على أحد وجهين : فإما أن

---

(١) هـ . لنج روث ، The native of Sarawak ، حـ ١ ، ص ١٩٦ — ١٩٧

(٢) Les fonctions mentales dans les socetés inferieures ص ١٢٤ — ٢٨

(٣) هـ . لنج روث ، المرجع نفسه ، ص ٢٠٠

تكون هذه الطيور لسان حال كائنات غير مرئية تخبرنا بإرادتها ولكنها متميزة عنها ، وإما أن تكون هى الكائنات غير المرئية بذاتها وقد تجسمت وجعلت نفسها فى متناول حواس الإنسان . وإذ أخذنا بأحد هذين الوجهين استحال علينا أن نأخذ بالآخر ، لأنهما يتنافيان . فيجب الاختيار بينهما . ولكن «الدياك» لا يجد صعوبة فى التسليم بهما معا فى آن واحد . لأنهما فى تصوراته لا يتنافيان . فعنده حس فطرى ببعض ضروب المشاركة من شانه ألا يعبأ بطالب المنطق أو أن يضعها فى الصف الأخير . ومن ثم ليس «للهوية» الشىء عنده من معنى إلا «اشتراكه فى نفس هذا الجوهر» فالطيور فى نظره كائنات علوية غير مرئية ، كما أن «البورورو» Bororo (الطيور) فى البرازيل أيضا ليست إلا «آرارا» araras (أرواح علوية) لذلك كان من الطبيعى فى تصورات «الدياك» الجماعية ألا ينحصر نصيب الطيور المقدسة فى الاعلان عن الحوادث فحسب بل فى إحداثها أيضا فهى بوصفها لسان حال الكائنات غير المرئية تتنبأ ، وبوصفها هذه الكائنات غير المرئية بذاتها تفعل ، وإليها إذن يجب أن توجه الأدعية والصلوات كما يجب أن تصبح موضعا للعبادة . وهذه الحقيقة التى وصفها «برهام» ، قد أشار إليها أيضا «هوز» و«ماكدوجال» ، وقالا إنها توجد لدى قبائل أخرى فى «برنيو» . ولكنهما يختلفان مع الأستاذ برهام فى أنهما ينكران أن طيور الفأل تستحوز فى نظر الأهالى على تلك القوة الغيبية التى تتوقف عليها الحوادث ، ويريان أن وظيفتها الخاصة تنحصر فى كونها رسل الآلهة وأن الاغتصاب وسوء الاستعمال هما وحدهما اللذان أضافا إليها دورا أعظم من ذلك الدور . «ويبدو أن إعادة الاقتراب من الآلهة والتراسل معها عن طريق طيور الفأل تفسر لنا إلى حد كبير مقدار الغموض الذى يكتنف فكرة الآلهة فى تصور هذه القبائل ، فأولئك الذين يعبدونها لا يحسون بوجود علاقات داخلية وثيقة تربطهم بها . ويبدو أنها لا تعتبر وسيلة للتراسل فحسب ، بل لقد أصبحت

أيضا نوعا من الحجاب الذي يحجب عن هؤلاء الناس مرأى آلهتهم . ونرى هنا ، كما نرى فى حالات كثيرة مماثلة ، أن الوسطاء والرسل الذين يتوسطون فى حمل الأخبار يكتسبون فى نظر الشعب أهمية تفوق مستواهم . وقد يتلاشى الاله خلف طائر الفأل أو يكاد ، ويصير الطائر نفسه موضع عبادة ، فتوجه إليه الصلوات ، وتعتقد أنه هو الذى يوزع الخيرات ، مع أنه فى الحقيقة لا يفعل أكثر من التنبؤ بها أو إعلانها [١] » .

يعود الأستاذان « هوز » و « مكدوجال » إلى هذه الفكرة مرارا ثم يقولان : « يبدو لنا من المحتمل أن قبائل « الكنياه » قد سبقوا قبائل « الكيان » Kayans أنفسهم فى ذلك الميل الواضح إلى إعطاء طيور الفأل مكانا بارزا فى مراسيمهم وصلواتهم ، مكانا يتضاءل إلى جانبه مكان الآلهة التى ليست هذه الطيور إلا رسلا لها . وعلى هذا النحو نرى « بالى فلاكى » Bali Flaki (وهو نوع من الصقور) يطغى على إله الحرب ويحل محله إلى حد كبير حتى أن كثيرا من قبائل « الكنياه » ، إن لم يكونوا كلهم ، قد نسوا اسم هذا الاله [٢] » .

ويقولان فى غير هذا المكان : « يتوجه أفراد « الكنياه » إلى « بالى فلاكى » Bali Flaki لكى يرشدهم ويساعدهم فى كثير من الأمور ، ويعبرون له عن عرفانهم ، وإن كنا بالرغم من ذلك لا نظن أنهم يتصورونه تصور القبائل الأخرى إياه ، ولكنهم يعتبرون أن الصقور رسل ووسطاء بينهم وبين « بالى بنيالنج (Bali Penia - long) ، وأنها قد خصت بنصيب من القدرة غير واضح التحديد . وأغلب الظن أن هناك خطأ عاميا جعل هؤلاء الناس ،

---

(١) هوز ومكدوجال The pagan tribes of Borneo جـ ٢ ، ص ٩ ، ١٠ ، وقارن جـ ٢ ص ٧٥ .

(٢) المرجع نفسه جـ ٢ : ص ١٥ .

كما جعل كثيرا من أصحاب الأديان الأخرى، ينسون الكائن الأعظم ويوجهون صلاتهم وشكرهم إلى خدامه وحدهم؛ إذ أن لأولئك الخدم صورا محسوسة، ولذلك كانت أسرع إلى اللصوق بالعقول من غيرها. ويعتبر أفراد «الكنياه» أن الفؤول الميمونة تهدف إلى حضهم على العمل، وأن الفؤول المشئومة عبارة عن نصائح ودية للامتناع عنه. وقد قال لنا فرد ذكى جدا من أفراد «الكنياه» إنه لما أكثر «بنيالنج» من إرسال الصقور إليهم بقصد تحذيرهم صارت فى النهاية تتمثل ذلك من تلقاء نفسها وتعطى النصائح فى بعض الأحيان إلى «الكنياه» للشروع فى العمل أو بالعدول عنه، وذلك بتصرفها الخاص ودون أن تكون مرسلة من قبل «بالى بيالنج[١]».

والفرض الذى يقترحه الأستاذان «هوز» و «مكدوجال» لتفسير الظاهرة التى لاحظاها بنفسيهما فرض مغر، ولا سيما بعد ما قرباه إلى الأذهان عن طريق التشبيه الذى ذكراه. والواقع أنه كثيرا ما حدث لهذا الاله أو ذاك أن دفع ثمن ابتعاده عن عباده غاليا، ووجد نفسه وقد حل محله فى العبادة مجرد وسطاء أقرب منه مكانا للبشر وآلف إلى نفوسهم وأكثر منالا لخيالهم... ولكن أيحق لنا أن نطبق هذه الملاحظة العامة على أهالى «بورنيو» ونعزو إليهم تطورا مشابها لهذا؟ لو أن طيور الفأل قد بدأت فى «بورنيو» بمجرد اعتبارها رسلا ووسطاء، لقلنا بوجاهة هذا التفسير الذى يشرح به الأستاذان «هوز و«مكدوجال» كيفية وقوع هذا التطور الذى جعل الطيور قوى تدعى وتعبد لذاتها. ولكن المسألة التى يجب حلها بالذات، هى أن نعرف ما إذا كان هذا التحول قد تهيأت له فرصة الوقوع، وما إذا كان سكان بورينو الأصليون قد فهموا يوما من الأيام وظيفة طيور الفأل على غير ما يفهمونها اليوم. فهل هناك شاهد واحد شهد بصراحة على أنها مجرد رسل؟ ذلك ما لا يدعيه أحد، حتى الأستاذان هوز ومكدوجال. ولا شىء فيما رواه الأستاذ برهام يوحى به.

---

(١) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٥٦، ٥٨.

كذلك لم يقل به الدكتور نيوفنويس ولا غيره من الباحثين الجديرين بالتصديق . ولذا فإن هذا الفرض يبدو لنا جزافيا على أقل تقدير . ويظهر أن الذى أوحى به اليهم هو ذلك الميل المعروف الذى يحدو ببعض الباحثين إلى أن يجدوا فى عقلية الجماعات المتأخرة نفس العمليات التى تلاحظ فى عقليتنا .

هذا إلى أننا نرى فى كتاب قواعد اللغة الدياكية الفائق الذى ندين به إلى « هاردلند » (Hardeland) أن الفؤول تعتبر أشخاصا ؛ وهذه شهادة أخرى ضد فرض الأستاذين « هوز » و « مكدوجال » . وهذا نص ما جاء فى كتاب « هارولند » : و « الدهيانج » (Dahiang) .(وهى فؤول مستمدة من الطيور والأفاعى وهلم جرا) تعتبر عند الدياك « بيتى » biti أى (شخصيات) . ومقرها فى بحر السحب [1] ... » فالفؤول تختلط إذن « بكائنات العالم العلوى غير المرئية » التى يتكلم عنها الأستاذ برهام .

رأينا أنه لا بد لمن يريد منهم الشروع فى أمر هام أن يحصل على أكبر عدد من الفؤول التى لها مكانة عظمى فى حد ذاتها فضلا عن انتسابها إلى أعظم القوى الغيبية مكانا وأعلاها قدرا . فهل يجب العدول عن المشروع إذا لم تظهر هذه الفؤول بالعدد الكافى وبالنظام المطلوب ؟ .

الواقع أن أهل بورينو يحاولون أن يؤثروا على تلك القوى لكى يتجنبوا مثل هذه النهاية القصوى . والوسائل التى يستعملونها لهذه الغاية ذات طابع غيبى هى الأخرى .

وينبغى لذلك أن يقوم الذين يعنيهم الأمر بسلسلة من المراسيم والطقوس وضروب التحريم فى غالب الأحيان . وهذا ما يحدث عند « الكيانيين » Kayans مثلا ، إذا كانوا بصدد اختيار الأرض التى سيزرعونها فى عامهم .

---

(١) ا . هاردلند Grammatik der Djakacken Sprache . A .Hardeland ص ٣٦٨

« إذا مرت أيام ثلاثة ولم يشاهدوا فؤولا مشئومة أقبلوا على الانتقال إلى الخطوة التالية التى تنحصر فى قطع الأشجار الضخمة ، وبعد ذلك يتحتم على سكان البيت جميعاً أن يشتركوا فى البحث عن الفؤول الأخرى التى لا تزال ضرورية لهم ... فتبقى جميع الأسر سجينة الشرفة الكبيرة ؛ حيث تحل كل أسرة فى الجناح الصغير الخاص بها ؛ ويظل أفرادها يدخنون ويتحدثون طول النهار ولا يجوز لأحد أن يخرج ، أو يذهب إلى أبعد من حافة النهر على الأكثر ، ماعدا رجلين يطلق عليهما اسم «لاكى نيهو» laki Niho وينحصر عملهما فى البحث عن صقر يسمى « نيهو » Niho ولا يجوز لكائن أياً كان أن يسمى هذين الرجلين باسمهما الحقيقى ماداما مشتغلين بهذا البحث . ويعاقب بالغرامة كل من يخالف هذه القاعدة ولو عن طريق السهو .. ومن المعتاد فى بعض الجماعات ألا يرجع الرجلان إلى البيت فى أثناء الايام الثلاثة التى يستغرقها البحث عن الفؤول . فينزلان أحد الاحراش بالقرب من مكان خال من الاشجار حيث يبنيان لهما عشة صغيرة ويعلنان أنها « برمنتنج » permantong (محرمة)، وذلك بان يقيما بالقرب منها سهمين قد رفعت أجزاء من لحائهما على مسافات متساوية الخ [١] .

واختيار الرجلين المعدين للبحث عن الطيور المقدسة والأحتياطات التى يحاطان بها وضروب التحريم التى يتكبدونهـا ، كل ذلك يذكرنا بالمراسيم المستعملة فى غينا الجديدة (نهروا نجلا Wanigela) [٢] ، لضمان النجاح فى صيد البقر الوحشى (Dugong) . ويسمح لنا هذا التماثل فى الاجراءات المستعملة باستنتاج التماثل فى الغايات المرجوة أيضاً . ويظن أهالى غينا الجديدة أنهم

---

(١) و. هـ. فيرنس W. H. Furness The Home life of the Borneo Haed - hunters. ، ص ١٢١ — ٢٤ .

(٢) ر. ا. جيز R. E. Guize On the Tribes inhabiting the month of. The Wanigela - River New - Guinea . فى J. A. I ، مجلد ٢٨ ، ص ٢١٨ .

بذلك يحدثون تأثيرا سحريا على البقر الوحشي يجعله على وجه التأكيد يسقط في شباكهم أو يقترب من سفنهم حيث يرمونه بالحراب . وكذلك يعمد « الكيانيون » إلى التأثير على الصقور تأثيرا سحريا يخرجها من مكانها لتقدم لهم الفؤول الميمونة ، أي المساعدة التي لا يستطاع الشروع في زرع الأرض بدونها .

وإذا ظهر لأحد الأهالي فأل من هذه الفؤول سارع بتقديم الشكر للطائر ؛ وهذا لا يدل على أن الطائر يعتبر بشير الخير فقط بل أيضا على أنه صانع الخير الذي بشر به . لذلك لا يتوانى الأهالي قط عن تقديم آيات عرفانهم إليه . « فلا يكاد يظهر فأل ميمون للصيادين حتى يوقدوا النـــار ، لتحمل إلى الطيور والحيوانات الاخرى شكرهم على المكرمة التي تلقوها [١] » — « بينما كنا ندور حول منعرج نهر ، توقفنا دفعة واحدة ، بعد أن وصلت طوالع زوارقنا الخمسة إلى الشاطىء . ونظرنا فرأينا فوق رقعة ضيقة من الرمال جمهورا من المحاربين الثائرين يشتغلون بإشعال النـار وإقامة أعمدة من جزوع الاشجار قد نزعوا عنها بعض لحائها بطريقة تجعل ما بقى منه يكون حلقات ممتدة على طول العمود . وكان السبب في ذلك أن طائرا ميمون الفأل طار من جهة اليمين ! فأوقدوا النار التي يعتبرونها رسولا أمينا لحمل رسائل البشر إلى طيور الفأل العالمة بكل شيء ، لكى تعلن إلى هذه الطيور عرفان القوم لها على هذه المكرمة [٢] » — « في صباح هذا اليوم رأينا فوق غصن شجرة متهدل على النهر طائرا جميلا يسميه الاهالي « بورنج بابو » (buring papu) ... وهو من الطيور التي يعتبر ظهورها فألا ميمونا عند « الدياك » ولا سيما حين ينطلقون في رحلة لصيد الرءوس . ولكنه مع ذلك ميمون الطلعة في كل الاحوال . فرجاني من كانوا معي من الدياك أن نتوقف قليلا إظهارا للاحترام ، فقبلت

---

(١) و. هـ. فيرنس . المصدر نفسه ، ص ٤ .

(٢) المرجع نفسه ، ص ٧٨ .

رجاءهم على الفور . وعندئذ كفوا عن التجديف وبقوا بضع دقائق جامدين فى أماكنهم تاركين المجاديف من أيديهم ، ثم استأنفوا عملهم متبهجين[1] » .
واتفق للدكتور نيوفنويس أن يشاهد هذه الظاهرة نفسها فكتب يقول : سمعوا قريباً منا نداء « الايسيت isit » من جهة اليمين فكان لابد « لكونج ايران Kuing Iran » أن يجارى التقاليد فنزل إلى الشاطىء ودخن لفافة تبغ[2] » (نعرف ان النار تحمل إلى الطائر آيات الشكر من قبل الإنسان) .

— ٤ —

تلقى الظواهر التى أوردناها وحللناها ، كثيرا من الضوء على طبيعة الفؤول فليست العلامات التى تظهرها الطيور أو الحيوانات الأخرى مجرد إشارات ونذر ، أو إعلان لما سيقع . وإنما هى أسباب له فى نفس الوقت .وترى العقلية البدائية فى هذه الطيور والحيوانات قوى غيبية تتوقف عليها الحوادث التى تنبىء بها فهل هى ترجع إليها كل القدرة على أحداثها ، وهل تعتبر هذه القدرة من خصائصها الذاتية ؟ أتعتقد أنها مجرد مطايا لها ؟ أم ترى أنها إلى جانب كونها مطايا تستحوذ هى نفسها على جزء من القدرة الذاتية فضلا عن قدرة القوى التى تمثلها ؟ هذه أسئلة لا تخطر ببال العقلية البدائية فى هذه الصيغة البينة المحددة . وإذا خطرت ببالها لم تكن اجابتها عليها متجانسة فى جميع الأماكن . والواقع أنه لا توجد علة تحتم علينا افتراض التجانس فى جميع التصورات التى من هذا القبيل : فقد يكون تصور إحدى الجماعات لآلهتها أقرب إلى التصور الفردى المحدد منه لدى غيرها ، وقد تكون أميل من غيرها أيضا إلى اعتبار أن طيور الفؤول وحيواناتها ليست إلا خدما ورسلا لهذه الالهة .والسبب فى ذلك يرجع إلى درجة التطور التى وصلت إليها هذه الجماعة ، وإلى الأفكار الدينية التى قد تنتقل إليها من مجموعات مجاورة لها أو من جماعات مسيطرة عليها

---

(١) بكارى Becari . Wanderings in the forests of Borneo ، ص ٣٢٨ — ٢٩ .

(٢) ا. ف. نيوفنويس . Quer durch Borneo ، حـ ١ ، ص ٣٥١ .

أو خاضعة لنفوذها. وقد أشار الأستاذان « هوز » و « مكدوجال » والدكتور نيوفنويس » إلى وجود فروق من هـــذا القبيل بين القبـائل المختلفة فى برنيو نفسها .

ونحن لا ننكر وجود هذه الاختلافات التى تعتبر نتائج ضرورية لاختلاف التركيب الاجتماعى ؛ ولكننا نقرر أنه كلما كانت الجماعة المتأخرة التى ندرسها أقرب إلى طبيعة العقلية البدائية الخاصة ، زاد اصطباغ الفؤول فيها بالصفات التى شاهدناها آنفا . فنرى أفرادها لا يعتبرون الطائر أو الحيوان الذى يزودهم بتلك الفؤول حاملا لخبر سار فحسب ، بل يصلون له ويعبدونه ويشكرونه باعتباره صاحب النعم التى لا يستطيعون الاستغناء عنها ولا يمكنهم الحصول عليها إلا منه . فليس الفأل إذن بالنسبة إلى هذه العقلية مجرد علامة ، بل هو سبب أيضاً ، ولعلنا نكون أقرب إلى الدقة إذا قلنا إن هذه العقلية لا تفرق بين العلامة والسبب . ولعلها لا تعرف معنى العلامة التى هى علامة بحته ، ولا سيما حين تعتقد أن حقائق العالم الخفى أصبحت غير مقصودة لذاتها . نعم لا شك أن بعض البدائيين يعرفون جيدا كيف يستخدمون العلامات الطبيعية فكثيرا ما أدهشـوا الأوربيين بدقة فطنتهم حينما يشخصون تغيير الجو أو يتصدون مثلا لتعرف آثار حيوان أو إنسان معين فوق الأرض ، ولو كانت هذه الاثار لا تكاد ترى، الخ . ولكن الامر فى كل هذا يدور حول ارتباطات جملتها التجارب والتربية والاستعمال اليومى مألوفة لهم . فهم يطبقون فى غالب الاحيان ذاكرة « خارقة » وقوة مـلاحظة يزيد من حدتها قـلة المواضيع التى تشتغل بها . ولكن اتجاه عقولهم لا يلبث أن ينقلب رأسا على عقب بمجرد أن يروا أنفسهم أمام علامات تكشف عن حضور قوى غيبية . فحينئذ يستحيل عليهم التمييز بين العلامة والسبب . والفؤول خير مثـال لذلك ، كما أن الظواهر الخفية التى درسناها فيما سبق تقدم لنا أمثلة أخرى كثيرة .

أى الاعتبارين يتغلب فى نظر العقلية البدائية ؟ إن الفأل ينبىء بالحادثة

ونتيجتها ، والطائر هو المبشر بها . ولكن أهو ينبيء بها لأنه ينتجها ؟ أم أنه يبدو سبباً لها لأنه ينبيء بها كما هو الاعتقاد السائد عند الباحثين ، وإذا كان الأمر كذلك ، فإنه لا يعدو أن يكون مجرد خداع ناتج عن قانون سيكولوجى جد معروف : وهو أنه إذا كان السير بعيداً مستحيل المنال على الخيال ، فإن وسطاءه لدى الناس هم الذين يحظون بالثناء الذى كان مفروضا فيه باديء ذى بدء أن يتجه إلى المولى نفسه . ويبدو هذا الفرض أقرب الفروض إلى الطبيعة ؛ إذا كانت تجاربنا نحن هى المقياس الذى نسير عليه ؛ ولكن يبدو أنه لا يتفق وتجارب العقلية البدائية بأية حال . فالواقع أن الإنباء لا ينفصل فى نظرها عن الإبداع . وعندنا على ذلك شواهد كثيرة غير التى رأيناها فى الفؤول بالمعنى الضيق . فمثلا مما يروى عن هنود فرنسا الجديدة أنهم لما رأونا نتنبأ لهم بكسوف الشمس وضوء القمر اللذين يخافونهما كثيرا ، توهموا أننا نحن الذين نحدثهما ؛ وأننا نعرف كل الأشياء التى ستحدث وأننا المتصرفون فيها . وبهذا الاعتبار راحوا يتوجهون إلينا لمعرفة ما إذا كان محصول قمحهم سيجود وللسؤال عن مقر أعدائهم وعن عددهم[١] » - « وفى كمتشتكا Kamtchatka يشكر الأهالى الطائر المسمى بالزعرور من أجل الربيع والصيف ، لأنهم يعتقدون أنه هو الذى يجلبهما معه[٢] . » فهذا الطائر أيضاً من طيور الفأل ، والأهالى يعزون إليه أحداث الربيع الذى بعد ظهور الطائر مجرد أعلام بقدومه . ومن اليسير تفسير جميع الظواهر التى من هذا القبيل ، وهى لا تحصى عددا ، وذلك بمجرد إرجاعها إلى طابع السببية المألوف للعقلية البدائية . فهؤلاء البدائيون لا يتصورون ارتباط الظواهر فى صورة سلاسل من السوابق واللواحق ، لذلك كان الانتقال من القوة الغيبية إلى النتائج المرئية انتقالا مباشرا فى نظرهم .

وليس لدى الهنود الغربيين أية فكرة عن الشروط الفلكية التى يتوقف

---

(١) Relations des jesuites ، مجلد ١٧ (١٦٣٩-٤٠) ، ص ١١٨ (Le jeune).

(٢) ج . و . شتلر G. W. Steller Beschreibung von dem Lande Kantchetaka

عليها كسوف الشمس وخسوف القمر . ولكنهم يعرفون أن البيض سحرة ماهرين لا يستهان بقدرتهم: فلماذا لا تؤثر أعمالهم السحرية على الشمس والقمر؟ والواقع أن الآباء اليسوعيين يتنبأون بدقة باليوم والساعة اللذين سيقع فيهما الكسوف والخسوف . فكيف يتأتى لهم أن يتنبئوا بهما؛ لو لم يكونوا هم أنفسهم الذين يحدثونهما ؟

ومن المعلوم أنه ينبغي للمرء لكي يفهم نبوءة قائمة على مجرد المعرفة ، أو ظاهرة ستقع في المستقبل أن يتصور تسلسل الأسباب الطبيعية التي ستؤدي إلى ظهور هذه الظاهرة في زمان ومكان معينين . ولكن من العسير على الشخص الذي ليست عنده هذه الفكرة على الاطلاق أن يتصور أن الكائن الذي ينبيء بالظاهرة يختلف عن الكائن الذي ينتجها ، اللهم إلا إذا كانت القوة الغيبية قد أسرت إليه بنواياها . وقد أدت إحدى العمليات التي من هذا القبيل إلى إتهام امرأة في إفريقية الجنوبية بالسحر وتهديدها بالموت . وكانت هذه المرأة تعالج مرضا معينا بمهارة وتشفي المريض منه . فاستنتج القوم من ذلك أنها هي التي تسبب هذا المرض . وإلا فكيف عرفت أن تشفيه ، إذا لم تكن هي التي أحدثته ؟ فما دام الأمر يتعلق بفعل غيبي ، فإن المعرفة لا تنفصل عن القدرة ، كما تعتبر القدرة في هذه الحال شرطا للمعرفة .

إذن ليس الفرض الذي ذكرناه سابقا للأستاذين هوزومكدوجال فرضا جزافيا فحسب : ولكنه يصور الأشياء عن طريق قلب علاقاتها الحقيقية . فالأهالي لا يصلون إلى الاعتقاد بأن الطيور المقدسة تنتج الحوادث بسبب أنها تعلن عنها ، بل إنهم على العكس من ذلك يعتقدون ، كما قرر الأستاذ برهام أن هذه الطيور « تصنع » نجاح المشروعات أو إخفاقها ، ولذلك كانت الفؤول في نظارهم علامات أكيدة لما سيقع ، وهذا هو السر في اعتبارهم إياها نبوءات ووعودا وضمانات في آن واحد ، وهم يثقون فيها لأن الطيور أو الحيوانات التي أظهرتها قد برهنت بإعلانها على صدق نيتها وعطفها ، إلى جانب علمها بالغيب . وحين يوجه إليها الأهالي فروض الشكر ، لا يوجهونها إليها بوصفها حاملة

للأخبار السارة فحسب ، بل أولا وقبل كل شيء لأنها هي التي تحميهم وتكلل أعمالهم بالنجاح .

وهكذا يعد الفأل في نظر العقلية البدائية سببا أولا وقبل كل شيء ، ولا يعتبر علامة أيضا في نفس الوقت إلا لأنه سبب . وكلما ضعفت الخصائص المميزة لهذه العقلية ، ضعف فيها تغلب النوع الغيبي من السببية حتى يكاد يختفي تماما ، وأصبحت تتصور الزمان والمكان تصورا أكثر مما تحس بهما إحساسا كيفيا ، حتى تصل في النهاية إلى توجيه اهتمامها شيئا فشيئا إلى السلاسل الموضوعية للأسباب والنتائج . ومن النتائج المحتومة لذلك أن الفأل في التصورات الجماعية يميل إلى مسايرة هذه التغيرات . فحينئذ تقوى بالتدريج نظرة الناس له على أنه علامة ، ويقل إعتبارهم إياه على أنه سبب ، ويوجد من هاتين النظرتين المتطرفتين وجهات نظر متعددة . فالفأل يفقد قدرته شيئا فشيئا كلما ازداد اهتمام العقل بالأسباب الثانية (أي الطبيعية) ، حتى يقتصر بالتدريج على وظيفة العلامة التي لا تعود تكشف عن فعل قوة غيبية ، بل عن الحادثة التي يتحتم أن تؤدي إليها سلسلة معينة من الأسباب ونتائجها . ومع ذلك فإن العادة العقلية لا تختفي دفعة واحدة أمام عادة أخرى تحاول أن تحل محلها ، بل تبقى العادتان معا زمنا طويلا دون أن يشعر الفرد بتضاربهما . وقد يحدث ألا تصل العادة الجديدة مطلقا إلى محو العادة القديمة محوا تاما . فالفلاح من فلاحينا مثلا يعرف بالإجمال ، ولو بشكل سطحي ، الشروط الجوية والطبيعية والكيميائية ، الخ ، التي تتوقف عليها جودة حاصلاته الزراعية . ولكن هذا لا يمنعه من الاعتقاد بأنها تتوقف أيضا على إرادة القوى الخفية وإنعامها . فأغلب الظن أنه لم يعد يتصور فعلها على أنه فعل مباشر ولا على أنه مستقل عن الزمان والمكان ولا على أنه المؤثر الوحيد بوجه خاص . ولكنه يعزوا إليها القدرة على جعل تسلسل الأسباب الثانية (الطبيعية) ينتهي إلى النتيجة التي تريدها .

وهكذا تستمر الفؤول على الإحتفاظ بشيء من الأهمية وإن كانت تفقد

ماكان يعزى إليها من قيمة سببية خاصة بها ؛ وتظل علامات لما سيقع . فهى إذا كانت قد أصبحت لا تحدث الحوادث ، فإنها لازالت تعلن عنها ؛ وإذا كانت تنبىء بها وتصدق فى إنبائها ، كان من حقها أن تنال نصيبا من الاحترام الذى يوجه للقوى التى تحمل عنها هذه الفؤول ما تتخذ من نوايا ومراسيم . وفى هذه المرحلة يظل تفسير الفؤول والبحث عنها محتفظين بشىء من الصفة الدينية ، وبعد ذلك يصبح هذا الاحترام خرافيا . فجارنا الذى أقلقته رؤية العنكبوت فى هذا الصباح لأنها « علامة حزن » ، لا يعتقد أن العنكبوت سبب المصيبة التى ينبىء بها . ومع ذلك فهو يحنق عليها لأنها أنبأت بها ، فيمتزج بهذا الحنق بقية حية من التصور القديم للفأل حين كان علامة وسببا فى آن واحد ، أى حين كان علامة لأنه سبب . وقد تجردت هذه الأنواع من العلامات من سببيتها شيئا فشيئا . ولكنها لا تزال تحتفظ ببقية من قوتها الغيبية القديمة ، مادام ينظر إليها حقيقة على أنها علامات .[1]

---

(١) بهذه المناسبة يبدى المبشر جيته Jetté ملاحظة لها دلالتها . « تنطوى الفؤول التى تراعيها قبائل « التنا » Ten'a على فكرة غامضة للسببية لأنهم لا يعتقدون أنها تنبىء بما سيحدث فقط بل أنها تساهم أيضا بطريقة ما فى إحداثه . » ثم يضيف : « وكذلك الحال ، كما يمكننا أن نلاحظ ، فى الفؤول التى يراعيها المخرفون من البيض . فكلا الفريقين ، أعنى هؤلاء البيض والبدائيين يسلمون بأن المرء يمنع المصيبة إذا منع الفأل . فالقبطان الذى يحافظ على ألا يقلع يوم جمعة والمدعو الذى رفض أن يكون الثالث بعد العشرة على المائدة يقرران ضمنا أنهما يتجنبان المصيبة المقبلة بإزائهما للظرف ذى الفأل السىء . ومن الواضح أنهما يعتقدان بين الاثنين علاقة سبب بنتيجة من الحمق افتراضها . »

من بحث ل . و . ف . جيته عنوانه On the superstitions of the Tenà Indians فى مجلة Anthropos ، مجلد ٦ ، ص ٢٤١ .

فى الواقع أنه فرض أحق من وجهة نظر عقليتنا التى تستلزم إعتبار جبرية الظواهر الطبيعية ، ولكنه غير أحق من وجهة نظر العقلية البدائية ، تلك العقلية الغيبية التى لاتهتم إلا بالسببية المباشرة للقوى الخفية .

الفصل الخامس

الفــــؤول (بقية)

— ١ —

يلهج لسان البدائى بالثناء حين يلمح فألا ميمونا . فيشعر بالتحمس للعمل وبالقوة والوثوق من النجاح . وحينئذ يبذل فى عمله كل ما يستطيع من مجهود والواقع أنه كثيرا ما ينجح . ولكن ماذا يصنع إذا لمح فألا مشئوما ؟ لا شك أنه يمتنع عن العمل كلما أمكن ذلك : فلا يشرع فى القيام بحملة ، وينكص على عقبيه إذا كان فى طريقه إليها ، ويهجر المشروع الذى بدأه . وقد رأينا سكان « بورنيو » الأصليين يعدلون عن إحدى رحلاتهم لأن الفؤول التى صادفوها كانت مشئومة كما رأيناهم يتخلون لهذا السبب نفسه عن شجرة قطعوها بكل مشقة ليحفروا فيها زروقا ، وهلم جرا .

ومع ذلك فقد لا يكون الامتناع عن المشروع ممكنا [1] . فإذا ظهر الفأل السيء بعد أن يكون المسافرون قد ابتعدوا كثيرا عن منازلهم وقربوا من المكان الذى يرحلون إليه ، أو بعد التحام المحاربين بالفعل مع أعدائهم أو بعد تجهيز الأرض وبذر البذور فيها بالفعل ، فما التصرف الذى يلزم اتخاذه فى مثل هذه الأحوال ؟ لقد نشأت عندهم بحوث طويلة لإيجاد الوسائل اللازمة للتغلب

---

(١) يبدو أن البحث عن الفؤول الحسنة إلزامى دائما بالنسبة للمشاريع التى يتأهب لها المرء مقدما. ما إذا كان عليه أن ينفذ مشروعا فى الحال تحت ضغط الظروف الخارجية ، فإنه يضطر إلى العدول عنها . وقد نص الدكتور نيوفنويس على هذه الملاحظة : « يبحث السكنياه » عن الفأل الحسن قبل أن يشرعوا فى أى شيء كان ، وذلك بنفس الصفات التى نجدها لدى قبائل «الباهو» Bahau . ولكنهم يجرؤون على إهمال الفؤول بمجرد أن تتعارض مع ضرورات : فإذا هدد خطر مثلا أو إذا كان العدو مختبئا بالقرب منهم ، فإنهم لا يلتفتون للفؤول. »

نيوفنويس Quer durch Borneo مجلد ٢ ، ص ٤٨٧ .

على هذه الصعوبة ونتأويل الفؤول المشئومة تأويلا حسنا . وتكونت لديهم على وجه الخصوص طريقة أو بالأحرى سبل من الطرق لمكافحتها من حيث إحداثها للكوارث وإعلانها .

فيمكن أولا أن يعد الحكم الذى جاء به الفأل قابـــلا للنقض . وحينئذ يستمر القوم فى البحث عن فأل ميمون دون أن يثبط من همتهم ظهور فأل مشئوم . وهذه أبسط الوسائل وأكثرها استعمالا . وإذا ظهر الفأل المأمول فى نهاية الأمر ، فإنه ينسخ ما قبله . وفى هذه الحال يسارعون بالبدء فى العمل خوفا من أن يعترضهم فأل سىء جديد فيضطرهم إلى الامتناع . وقد يفصلون فى أمر الفأل المشئوم بوساطة العرافة . « ينحصر أسوأ فأل يمكن فى أن يجد الزراع فوق الأرض المزروعة حيوانا ميتا من أى نوع كان ، ولا سيما إذا كان من الأنواع التى تأتى بالفؤول . فمثل هذا الفأل ينفث سمه القاتل فى المحصول باسره ، ولا بد أن يؤدى إلى موت عضو من اسرة صاحب الحقل فى أثناء العام . فإذا ما ظهر مثل هذا الفأل الشنيع فصلوا فيه عن طريق العرافة ، يقتلون خنزيرا ثم يختبرون منظر كبده بعد موته مباشرة . وإذا أدى هذا الاختبار إلى تأكيد الفأل ، وجب بيع جميع الأرز الذى أخرجه هذا الحقل ؛ وعلى تلك الأسرة أن تشترى غيره لاستهلاكها الخاص إذا لزم الأمر أما الأرز الناتج من الحقل فيمكن أن يأكله أشخاص آخرون ، لأن الفأل لا يؤثر إلا فى من ظهر لهم مباشرة [١] » .

ترجع هذه السمة الأخيرة إلى أن الأهالى يحسون بالسببية الموجودة فى الخوف من الفأل إحساسا كيفيا فى الارتباط بين طرفى الفأل دون أن يتصوروها فى عمومها إلى جانب ذلك . وهذه صورة من الصور الكثيرة التى تكشف عما لتصورات البدائيين الجماعية من طابع البعد عن التصور المعنوى .

---

(١) الأب ج . برهام . Journal of the Straits 'branch of the asiatic. Sea Dyak religon فى عدد ١٠ ، ص ٢٣١ — ٣٢ .

ولذلك تشترك فى هذه السمة كثير من الجماعات المتأخرة . وهكذا نجد فى الكنغوا العليا أنهم ، إذا رأوا فرسا نهريا يقترب من قرية ما ، فقد يعدونه فأل حرب بالنسبة لأسرة معينة وإن كان لا يدل على شىء بالنسبة لغيرها ، ويجوز أن تكون حالة الغرق نذيرا بالجوع والكوارث لأحدى الأسر دون أن يكون لها أى تأثير على أسرة أخرى ؛ والشجرة الطافية على سطح النهر والمنساقة مع التيار يصح أن تكون فأل موت وأمراض عديدة بالنسبة لقرية ما ، فى حين أن قرية أخرى لا تعيرها أية أهمية [٢] » .

ويزيد الأستاذ برهام على ما تقدم قوله . إن هناك وسيلة أخرى للتخلص من نتائج الفؤول التى تقل شؤما عن السابقة .(العبارات التى يستعملها الأستاذ برهام تستلزم قطعا أن تكون الفؤول أسبابا ذات نتائج كما نرى) : وذلك أن الأهالى يعتقدون بوجود أشخاص يملكون فى قلوبهم أو فى أجسامهم قوة خفية تستطيع الانتصار على الفؤول السيئة (بينابار بورنج penalbiar burong ؛ وقد جاءتهم هذه القدرة بفضل تأثير سحرى خاص أو بمكرمة من الأرواح والطيور . ويستطيع هؤلاء الأشخاص أن يصرفوا الفأل السىء عن وجهته بأكلهم جزءا ولو ضئيلا ، من حاصلات الحقل المصاب . فيحمل أصحاب الحقل المصاب إلى أحدهم شيئا يمكن أكله مما نما فى هذا الحقل ، كحبة برهندى مثلا ، أو بذرة خردل أو بضع خيارات صغيرة . ويأكله الرجل نيئاً فى مقابل مبلغ صغير يدفع إليه وبهذا العمل يتمثل الفأل السىء فى جسمه ويصبح فى داخله عديم الضرر . وهكذا ينجو الآخرون من « البمالى » pemali (المحرم) الذى كان مسلطا عليهم . » تلقى هذه العملية ضوءا ساطعا على طبيعة الفال .

فلو كان مجرد إنباء بالمصيبة أرسلته قوة عليا ، أفما كان الأنجح لرده أن يتوجه القوم أولا إلى هذه القوة ليحاولوا صرفها عن عزمها ، أو على الأقل

---

(١) الأب ج . ه . ويكس . Anthropological notes on I. H. Weeks The Bangala of the upper Congo-river فى J. A. I. مجلد ٤٠ (١٩١٠) ص١٣٧٦

إلى ممثليها إذا كانوا يعرفون لها ممثلين ؟ ولكن ذلك لا يدور بخلد« الدياك . »
فهم يدفعون إحدى القوى الغيبية بقوة غيبية عليا أخرى . وإذا لم ينصرف
الفأل بعد ذلك ، قاتلوه وأهلكوه .

ولكن أكثر الوسائل التى يستعملونها شيوعا تنحصر فى منع الفأل السيء
من الظهور ، إذا كان منعه فى حيز الإمكان . فمثلا نراهم يحدثون ضجة
صاخبة ليمنعوا أنفسهم من سماع صياح طائر مشئوم الفأل . فإذا حدث هذا
الصياح أو لم يحدث لم يسمعه أحد على كل حال .

« وقد نرى الأهالى يشرعون فى غرس الأعمدة وإقامة هيكل البيت وهم
يقرعون على دفوفهم ويحدثون ضوضاء تصم الآذان حتى لا يسمعوا صياح
أى طائر[١] » . وهم لا يفعلون ذلك بطبيعة الحال إلا بعد أن يكونوا قد حصلوا
على الفؤول الميمونة التى بدونها لا يخاطرون بالشروع فى إقامة المنزل . « لم
نكد ننتهى جميعاً من الجلوس حتى ضاعفت الدفوف من ضجتها لكى تطغى على
كل الأصوات ذات الفأل السيء فى أثناء القيام بالطقوس[٢] . » ومن قبل
لاحظ السير سبنسر سانت جون Spenser Saint John هذا الإجراء ، وكتب
يقول : « يتشاءم الأهالى دائما من سماع صياح الأيل : لذلك نراهم يقرعون
الدفوف والطنابير ، إذا كانوا فى حفلة زفاف ، ليمنعوا هذا الصياح من
الوصول إلى آذانهم . وإذا سمعوا هذا الفأل السيء وهم ذاهبون إلى حقولهم
قفلوا راجعين إلى بيوتهم وامتنعوا عن أداء أى عمل مدة يوم واحد[٣] . »

ويرى الأستاذ برهام فى الممارسات التى من هذا القبيل شيئاً من التناقض .
ويقول إذا كان « الدياك » يعتقدون بأن الفأل يحدث أثرا سيئا على المراسيم

---

(١) الأب ج . برهام وقد نقل عنه لنج روث The natives of Sarawak ،
ج ١ ، ص ١٩٥

(٢) فيرنس The Home Life of the Borneo head-hunters ، ص ٣٣

(٣) نقله عنه ا . ك . هدن Head Hunters, Black, White : A. C, Haddon
& Brown ، ص ٣٨٦

فكيف يمكن منع هذا الأثر بمجرد منع الحواس من إدراك الفأل السيء؟ وذلك لأنه لايمكن لضوضاء دفوفهم وطنابيرهم أن تمنـــع الأيل من أن يصيح و « الإيسيت » من أن يغرد من الناحية المشئومة وهلم جرا . ومنع الحواس من إدراك شيء لايمنع هذا الشيء من أن يكون قد وقع . فعدم إدراكه لا يمنع من وجوده كما لايمنع من حدوث أثره المعتاد . ولكننا نرد على ذلك أولا بأن التناقض على العموم لايخيف العقلية البدائية . ونحن نعرف أنها تلائم بين نفسها وبين التناقض كما تشاء ، ولا سيما إذا وقعت تحت سلطان عاطفة قوية ، وفى الظرف الذى نحن بصدده لا توجد بالنسبة « للدياك » مصلحة أعظم من تجنب الفأل السيء . فهم يودون من كل قلوبهم ألا يظهر .

ومن جهة أخرى لايرجع خوفهم من الفأل السيء إلى كونه رسولا ، بل إلى كونه سببا وقوة ، أو على الأقل إلى كونه مطية لهذه القوة . هـذا إلى أن قانون المشاركة يمنع هـذه العقلية من التفريق الواضح ، بين قوة ما ومطيتها ، وبالتالى إذا تأتى لهم أن يمنعوا هذه المطية من حمل القوة الشريرة اعتقدوا أنهم منعوها من الوصول إلى هدفها ، وإذا استطاعوا أن يوقفوها فى الطريق ، ظنوا أنهم شـلوا نشاطها وعرقلوا أثرها وبذلك يمحى ضررها . وقد رأينا منذ لحظة أنهـا فقدت أثرها أيضاً حين أكل رجل مزود بقوة سحرية خاصة حبة من الأرز النابت فى حقل واقع تحت سلطان فأل مشئوم . فليس فى هذا الإجراء إذن أى تناقض عقلى أو عبث صبيانى ، وإنما هو إجراء ناجع لدرء الخطر . ولم يعدم الرومان أيضاً أن يمارسوه ، مما أخجل مؤرخى الحضارة الرومانية[١] .

وكل الوسائل المصطنعة جائزة فى سبيل درء الفؤول المشئومة . فمثلا ، إذا كان بعض الأفراد فى سفنهم يجدفون ثم بدا لهم صقر فى الجهة المشئومة بعد

---

(١) بوشيه لكلير Bouché - Leclerg .
Histoire de la durnation dans l'antiquité . ج ٤ ص ٣٨٧

أن غادروا قريتهم بأيام واقتربوا من قرية أخرى ، فإنهم يسارعون بقلب اتجاه السفينة ، وينزلون الى الشاطىء ويشعلون النار (نار الشكر) . وذلك لأنهم بتغييرهم لاتجاه السفينة يجعلون الصقر عن يمينهم . وبذلك تستريح نفوسهم ، ثم يستانفون رحلتهم كذى قبل [١] ؛ » فلو أنهم اعتقدوا أن الصقر مجرد رسول يحمل أخبارا سيئة ، أى لو أنهم اعتقدوا أن عمله منحصر فى مجرد الاخبار بما سيحدث ، لكان عملهم هذا مجافياً للعقل ولأصبح أشبه شىء بلعب الأطفال ، لأن هذه الألعوبة التى تخيلوها لن تستطيع فى هذه الحال أن تغير من الأمر شيئاً . ولكن إذا كان للصقر مطية لقوة غيبية صالحة أو سيئة تبعاً للناحية المكانية التى يأتى منها . فليس مما يجافى العقل مطلقا أن يغير المرء اتجاهه إن استطاع ، وأن يجعلها ميمونة بدلا من أن تكون مشئومة .

فهذه العملية فى ميدان القوى الغيبية تماثل عملية السائق الذى يقلب البخار ليسير فى اتجاه مضاد للاتجاه الذى كان سائرا فيه من قبل . ويشهد الشكر الذى يوجهه «الدياك» إلى الصقر بإخلاصهم وجديتهم ، فهم يوقفون سيرهم ليوقدوا نار الشكر . والمعروف أنهم لايجرؤون على الهزل مع الطائر المقدس

يجد الأهالى دائما فى العثور على إجراء ناجع يجنبهم ظهور الفأل السيء ، إذ لا بد من تجنبه بأى ثمن . وهكذا « تعد رؤية الفؤول السيئة فى اليوم الذى تبدأ فيه أعمال الحقل أمرا بالغ النحس . فإذا ماقابل أحدهم فألا منحوسا وهو فى طريقه إلى الحقل فى صبيحة هذا اليوم ، حرمت عليه زراعة الأرز طوال سنة كاملة ؛ ولا يجوز له أن يزرع غير البطاطا أو الذرة الخ ... ولذلك يفضل الأهالى ، لكى يتجنبوا هذا الخطر ، أن يذهبوا إلى الحقل لأول مرة فى جنح الظلام [٢] » .

---

(١) ا . ل . هدن . المرجع نفسه ، ص ٣٨٧ .

(٢) ا . و . نيوفنويس . Quer durch Borneo ، حـ ١ ، ص ١٦١ وقارن جـ ١ ، ، ص ٣٨٧ .

ولا يعتبر هذا الفعل أيضا ضربا من العبث البرىء الذى يبعث على الابتسام، بل لاشك أنه جد صارم بالنسبة لعقلية الأهالى، وأنه على العكس من ذلك حيلة ناجعة للقضاء على التاثيرات الخبيثة التى تريد أن تحرمهم زراعة الأرز سنة كاملة. فهم لم يفعلوا غير ما ظنوه عقبة كؤودا فى سبيل العدو الرهيب الذى أراد الإضرار بهم.

أما إذا وقعت الحادثة المنكودة بالفعل واستمر ضررها، فإنهم يتوسلون إلى طيور الفأل أن توقف نشـــاط الحادثة . فيحاولون أن يؤثروا عليها بوسائل شتى بكسب عطفها. وإذا اقتضى الأمر هددوها.

« مرت أيام خمسة والعواصف الهائلة لا تنقطع ليـــلا ولا نهارا، وراحت ترسل امطارها إلى النهر الطافح لتزيده فيضانا على فيضان، وحينئذ أخذ الأهالى يخطبون فى الطيور التى يعتبرونها مرشدة وحامية لهم . وكانوا يتلطفون معها تارة ويهددونها تارة أخرى . بل حاولوا مرة أن يخدعوها ولكن دون نجاح .فنزل أفراد المجموعة كلهم على الشاطىء مسلحين برماحهم وحرابهم وقاموا بجولة عظيمة فى الغابة ليوهموا الطيور أن زوارقهم ليست فى طريق العودة، وأنهم فى رحلة صيد عادية . »

« وكان معنـــا « تاما بولان » Tama Bulan ذات يوم فى الزورق، فأشار بقبضة يده إلى طائر جاثم على غصن مجاور، وأنبه على عدم إيقاف المطر . فلما رأى أننا نلاحظه باهتمام، ابتسم خجلا، ثم دفعنى بمدفقه وقال وهو يخنق ضحكة فى فمه : « السيد الأبيض لا يعتقد فى الطيور، أليس كذلك؟ إنه يظن « تاما بولان » مجنونا [١] »

يبدو أنه من الصعب بعد هذا الذى تقـــدم أن يقول قائل أن وظيفة

---

(١) و . هـ . فيرنس The Home life of The Borneo head hunters. ص ١٢٨ .

الطيور تنحصر فقط فى الاخبار بما سيقع ؛ إذ أن الأهالى يتصرفون تصرف من يؤمنون بان تدخل الطيور شرط لإيقاف الغرق .

فإذا كانت تلك طبيعة الفأل، وإذا كان الفأل فى تصورات البدائيين الجماعية سببامؤثرا بقدر ما هو كشف عن المستقبل ، فلا ينبغى لنا أن نعجب إذا رأينا جل الجماعات المتأخرة تعمل كل ما فى وسعها للقضاء على الحيوان الذى يحمل الفأل السيء . فعند « الكيانيين Kayans فى برنيو » تعد كل الأفاعى التى من نوع « أمان » Oman من ذوات الفأل ، فإذا رأى أحدهم مثلا إحدى الأفاعى المسماة « batang bina » (النوع المسمى باللاتينية Simotes octolineatus) حاول قتلها . فإذا نجح فى ذلك فلا بأس عليه ، أما إذا اخطأها فالويل له [١] »

كذلك فى زيلندة الجديدة «إذا رأى أحد المسافرين حرباء فى طريقه ، أيقن أنها لم تأت إلى هناك من تلقاء نفسها ، بل ظن أن عدوا أرسلها لتكون فألا مشئوما (ايتوا aitua) ولتسبب له الموت . ولذلك يسارع بقتل الحرباء ثم يبحث عن امرأة تمر فوقها : وبهذا يدرأ الفال السيء [٢] » والعبارات المستعملة فى هذه الرواية لا تدع مجالا للشك إذ أن العدو المزعوم لم يرسل الفال السيء ليعلن موت الشخص الذى صادفه فحسب ، بل ليحدث الوفاة أيضا . وعلى هذا الأساس يعتبر قتل الحرباء إحباطا للقصد المدبر . ويصور لنا شتيلر Steller الموقف فى كمتشكا على غير هذا النحو فيقول : «ينظر الأهالى للحرباءات على أنها جواسيس ورسل يبعث بها سيد المملكة التى تحت الأرض لتبحث عن الأفراد وتنذرهم بالموت . ولذلك يتجنبونها . فإذا لمحوا حرباء وثبوا عليها بسكينهم وقطعوها إربا لمنعها من رفع تقريرها عنهم . فإن نجت من أيديهم شملهم الحزن ، لأنهم يتوقعون أن يدهمهم الموت فى كل لحظة . ولما كانوا يموتون حقا فى غالب الأحيان تحت تاثير الصدمة التى أفزعتهم وروعتهم أو عن طريق

---

(١) ا . ك . هدن . Head hunters , black, white and brown ، ص ٣٩١ .
(٢) و . هـ . جلدى Maori medical lore . W. H. Goldie فى Transactions of the New - Zealand Institute ، مجلد ٣٧ (١٩٠٤) ، ص ١٨ .

المصادفة ، أصبح هذا الاعتقاد يزداد قوة فى نفوسهم [١] . » وقد يبدو أن الأهالى لا ينظرون إلى الحرباء هنا إلا على أنها مجرد رسول . ولكن لماذا يعتقدون إذن أن المرء ينجو من الموت بقتله إياها ؟ كيف يمكن أن ينجيه من من الموت إهلاك من جاء يعلنه إليه ؟ لاشك أنه يجدر بنا إذن أن نفسر هذا الفعل بنفس التفسير الذى فسرنا به فعل « الدياك » الذى يقرع الطبول ليعوق أذنه عن سماع الطائر ذى الفأل السيء فليست الحرباء هى الأخرى مجرد حامل أخبار فحسب ، وإنما هى أيضا مطية القوة التى تعمل . وتحطيم هذه المطية يوقف القوة التى تمتطيها . فإذا قتلت الحرباء لم تستطع إحضار شيء يمس ضحيتها المحتملة : إذ أن هذه الضحية تصبح منذ ذلك الحين بعيدة عن منال القوة الغيبية التى تتخذ الحرباء أداة لها .

وفى الكنغو العليا « إذا سمع صوت البومة المحزن فى منتصف الليل فى قرية ما ، اعتبر رسالة معناها أن الموت متربص بين العشش لاختيار إحدى الضحايا . ويسارع كل الذين يسمعونها إلى الغابة المجاورة ، ويطاردون رسول الفأل السيء بالعصى والأحجار . [٢] » .

نجد فيما سبق تفسير هذه الظاهرة التى توجد أيضاً فى أقاليم أخرى كثيرة . فليست البومة رسولا فحسب ، وإنما هى سبب الموت الذى يعلن عنه نعيقها . ففى طردها إذن إبعاد للموت ، كما أن فى استقدامها استقداماً للموت . ومن يرتكب جريمة من هذا النوع يعاقب عقاباً أليماً ، إذا كشف أمره .

يقول الدكتور فنجهان : « فى إفريقية الجنوبية يسمى طائر العسل : إذا عثر على شيء من العسل ولم يستطع أن يسطو عليه وحده ، شرع فى الصياح حتى يلفت إليه الأنظار . . . وإذا دخل هذا الطائر إحدى العشش عند قبائل

---

(١) و . شتلر . Beschreibung von dem Lande Kamtchatka ، ص ٩١ .

(٢) جليف Six Years of Adventure in Congoland : Glaive ، ص ٩١ .

« الكفرة » ، ارتاعوا لدخوله وعدوه نكبة كبيرة تحيق برب البيت . وفى ذات يوم دخل طائر العسل هذا منزل « أمهالا » Umhala وحط على رماحه . فهلع « أمهالا » أشد الهلع ، وصاح قائلا : ان « جازيلا » Gasila هو الذى فعل هذا بأعماله السحرية . » واستدعى كل رجاله فى الحال لإعلان الحرب . فارتاع « جازيلا » واحتمى بالمبشرين الذين نجحوا فى تسوية المسألة [1] . » كل هذه المظاهر تدل على أن « أمهالا » اعتقد بأن « جازيلا » قد حكم عليه بالموت . وكان فى وسعه أن يهلكه بطرق لاعداد لها : كأن « يسلمه » إلى فيل أو أسد أو تمساح ، وكأن يرميه بمرض قاتل وهلم جرا . فاختار أداة أخرى غيرها للقضاء على عدوه ، إذ أرسل إليه طائرا مشئوم الفأل وجعله يدخل بيته طائرا ويحط على رماحه . فأحس « أمهالا » أنه ضائع لامحالة . وهكذا نرى أن الفأل السيء ، أى طائر العسل ، يستحوذ على نفس القوة الغيبية التى يستحوذ عليها التمساح أو الأسد اللذان كان يمكن للساحر أن « يسلم » الضحية إليهما .

— ٢ —

أشار المعنيون بحياة الجماعات المتأخرة إلى وجود نوع من الفؤول التى تزعج البدائيين إزعاجا شديدا ، وتدفعهم إلى إستعمال أعنف الوسائل للوقوف فى سبيل الكارثة التى يتهددهم بها ظهور هذه الفؤول . وهى تنحصر فى الكائنات الممسوخة وفى بعض الظواهر التى تشذ عن المعتاد ، وهما نوعان من المخلوقات كان الرومان يسمونهما (monstra , potenta) . ولكن هذه الظواهر والكائنات لاتحمل أسماء خاصة بها عند البدائيين على العموم . فمثلا فى افريقية الشرقية الألمانية « تدل كلمة « ووهينو » Wuhenu بمعناها اللغوى على كل ماهو شاذ أو غريب أو مريب : ولكن ذلك يسمى فألا حينما ترسله الأرواح ليعلن الموت أو الحادث الذى تريد أن تصيب به أحد الأشخاص [2] »

---

(١) الدكتور فنجمان Wangemann . Die Belliner Mission im Zululand

(٢) ى . روم j. Raum Die Religion der Gandschaft Moschiam Kilimandjaro فى Archiv für Religionswissenschaft ، مجلد ١٤ (١٩١١) ، ص ١٧٣

فماذا ينبغى للمرء أن يعمل حين يظهر له فأل من هذا القبيل ؟ تنحصر الطريقة التي تستعمل دائما وفي كل مكان في القضاء على الفأل فورا ، إذا أمكن ذلك فنراهم يزيلون المسخ من الوجود ليضمنوا لأنفسهم النجاة من الوقوع في المكروه . ولو كان عمل المسخ ينحصر في إعلان الكارثة لبدا لنا هذا التصرف أمراً صبيانياً .

« إذا ولد مولود « للواشمبا » Waschamba وخرج قدماه قبل رأسه عند النزول قتلوه [١] . » — « وإذا رأوا عنزة تأكل روثها ، اعتقدوا أن سبب هذه الظاهرة الغريبة وجود « أتشاى » atchai (سحر) بها وانه لابد من تضحيتها ، وكذلك الحال إذا ولدت عنزة توأمين في أول ولاده لها . فهذا من أثر السحر ، ولا بد من قتل العنزة ومولوديها . » — « وإذا أكل كلب برازه قتل أيضاً لأنه فريسة لسحر [٢] . »

وقد وصف الأستاذ هبلى Hobley بالتفصيل السلوك الذى تتبعه قبائل « الكيكويو » Kikuyu بافريقة الشرقية في كثير من الحالات المشابهة . وسأكتفي بسرد بعض الأمثلة : « إذا كانت هناك بقرة ترعى فلفت ذيلها حول شجرة ، عدت هذه البقرة « تاهو » Thahu : ووجب قتلها في الحال فيضحى بها صاحبها ، ويعطى سلسلتها الفقرية للرجال المسنين وعنقها للشبان المحاربين .

« ويوجد طائر أبيض يسمى « نيانجى » nyangui ؛ إذا هبط على بقرة ولم يقتل » أصبح صاحب البقرة « تاهو » Thahu وأيقن أنه هدف للموت فيجب قتل البقرة في الحال وتوزيع لحمها خارج القرية .... كما يجب أيضا تطهير القطيع .... وإذا خرج قرن بقرة في يد شخص كانت البقرة « تاهو » ويضحى بها ....

---

(١) كاراسك أيشهورن A. KarasekEuchhorn
Beiträge zur kentniss des Waschamba ، في Bäseler Archiv
مجلد ١ (١٩١١) ، ص ١٨٨ .

(٢) المصدر نفسه ، مجلد ٣، ص ١٠٣ — ١٠٦ .

« وإذا كان هناك عجل أو ثور يرعى فترك القطيع وغادر الحقل وحده ثم بقى خارج القرية يفتش فى كومة القمامة بقرنيه . كان معنى ذلك أنه «تاهو» ويجب على صاحبه أن يضحى به فى الحال . . . وإذا ولدت عنزه فنزلت رأس الجدى أولا ولم يتبعها جسمه على الفور ، قيل إنها «تاهو» واضطر صاحبها إلى قتلها . . . وإذا وضعت امرأة فى أول ولادة لها توأمين « اعتبر المولودان «تاهو» فتأتى امرأة عجوز من القرية ، وهى القابلة فى غالب الأحيان . وتحشو فمهما بالعشب حتى يختنقا ثم تقذف بهما فى الخلاء . . وإذاولدت بقرةأوعنزة توأمين فى أول وضع لها قتلت أيضا ، الخ .. [1] «والحيوان»الذى يعتبر «تاهو» بسبب ظروف ميلاده الغريبة أو الذى يتبين فيما بعد أنه « تاهو » من جراء ارتكابه فعلا غير معتاد أو غريب ، وبالتالى مريب ، والطفل الذى يولد فى وضع غير معتاد والتوائم أيا كانت ، كل هذه الكائنات لا تعتبر فؤولا مشئومة الطلقة فحسب ، بل تعد فى نظر «البانتو» من سكان أفريقية الشرقيةخطرا على صاحبها وعلى الأسرة وعلى القرية بأسرها . فهى تكشف بحالتها أو بفعلها عن وجود بذرة شريرة فيها ذات قوة غيبية تسبب الموت مالم يقض عليها بقتل هذه الكائنات التى تحملها . وإذا ولد طفل بوضع غيرطبيعى ، أو وضعت الأم توأمين ، عد ذلك كارثة مروعة . ولذلك يسبب وقوع هذه الحوادث رعبا حقيقيا ، فيفر الجميع من المكان ، لأن كل شخص يخشى أنه إذا رأى الوالدة بمجرد رؤية تورم جسمه وانتهى به الأمر إلى الموت [2] . »

ونجد فى أفريقية الشرقية الانجليزية هذه الممارسات نفسها ، وهى ناشئة أيضا من معتقدات مماثلة . «يخنق الطفل الذى يولد وقدماه إلى الأمام . ويعلل

---

(١) ك . و . هبلى C. W. Hobley Kikuyn Customs and beliefs فى J. A. I. ، مجلد ٤٠ ، ص ٤٣٤ — ٤٣٥ .

(٢) فلبورن Fülleborn : Das deutsche Nyassa um Ruwumagebiet فى Deutsch Ost Afrika ، مجلد ٩ ، ص ٣٥٣ — ٤ .

الأهالى ذلك بأنهم لو تركوا هذا الطفل يعيش ، لأصيبو بالجفاف الذى يهلك كل حاصلاتهم ولماتت بهائمهم ونزلت بهم نكبات أخرى كثيرة[١] . »

وعند الواونجا wawanga «إذا باض طائر بالليل قتلوه وأكلوه : وإلا اعتقدوا أن أحد أطفال العشة سيصاب بمرض[٢] . »

وفى إحدى جزر فكتوريا نيانزا « يوضع التوأمان بمجرد ولادتهما فى وعاء من الفخار ويلقيان فى أحد الوديان . . . ويقتل الأطفال الذين تنبت أسنانهم العليا قبل السفلى بمجرد أن ينتشر الخبر لدى الجميع ، لأن الأهالى يعتقدون أنهم إن لم يفعلوا ذلك ، انهالت الكوارث على القرية بسبب هؤلاء الأطفال ... ولكنهم لا يعرضون للموت المسنين والعجزة والمجانين والمجرمين ولا يقتلونهم[٣] . »

وعند قبائل « الهوتنتوت » فى أفريقية الجنوبية : « إذا أخذت الدجاجات تصيح صياح الديكة ، أخذت وقتلت أو طوردت حتى تموت ، وإلا فإن صاحبها يموت لا محالة[٤] » ويقول المبشر ماكنزى Mackenzie : « إذا رأى الأهالى عنزة تتسلق سطح منزل قتلوها فورا بضربة رمح ؛ لأنها «سقطت» ، أى فعلت مالا يليق بالعنزة أن تفعله . فإذا لم تقتل سحرت صاحبها . وكذلك الحال إذا ضربت بقرة بذيلها فى أثناء الليل ، وهذه مسألة فى غاية الخطورة ، بل إنها من الجرائم التى أفردت باسم خاص بها . فيقال أن هذه البقرة ارتكبت « كيبا »

---

(١) الكابتن بارت Barett . Notes on the Customs beliefs and of the Copw a Giriama etc British East - Africa فى J . A . I ، مجلد ٤١ ص ٢٢ ، ٢٣

(٢) ك . م . دنداس K. A. Dundas . The Wavangas and other tribes of the Elgon district. British East Africa فى J . A . I ، مجلد ٤٣ ، ص ٤٧ .

(٣) فرانتس باولسن Franz Paulesen Rechtsanschamungen der Eungebornen auf Ukarra فى Bässler Archiv ، مجلد ٤ (١٩١٣) ، حـ ١ ، ص ٤١ .

(٥) ث . هان Th. Hahn . Tsuni Goam ، ص ٩٠ .

Kiba ، أى أنها لم تصبح بقرة كغيرها من البقر ، وأنها مسحورة ولا تنتظر إلا أول فرصة تسنح لها لتسبب المرض أو الموت لصاحبها أو لذويه . ولا يتردد الرجل فى قتلها فورا بضربة من رمحه إذا كان غنيا ، أما إذا كان فقيرا فإنه يسوقها فى صباح الغد إلى المبشر أو إلى التاجر ويعرضها للبيع[1] . » نرى أن الأمر هنا لا يتعلق مطلقا بنبوءة أو بمجرد إعلان كارثة ، فالحيوان المضحى به قد ارتكب فى نظرهم فعلا غريبا حتى ليكاد يعد جانيا ، فكشف بارتكابه إياه عن وجود بذرة الشر فى داخله ، ونعنى ببذرة الشر ذلك الذى نسميه سحرا أو شعوذة (Zauber, Sorcellerie, witchcraft) ، مادمنا لانجد فى لغاتنا مصطلحا خيرا منه . ويجب على المرء قتل الحيوان للخلاص من التأثير المشئوم لهذا الأصل الشرير الذى بداخله وإلا بقى معرضا لأشد الأخطار .

وقد شرح الأستاذ جونود Junod، بما عهد فيه من دقة ووضوح ، المسلك الذى تسلكه قبائل « البارنجا » Ba-Rorg وجيرانهم فى مثل هذه الظروف ، فيقول : يعتقد « البارنجا » أن وضع توأمين أو ثلاثة كارثة كبيرة وظاهرة منحوسة تتطلب منهم القيام ببعض الطقوس الخاصة ... والواقع أن التقاليد الخاصة بالتوائم تختلف من عشيرة لأخرى. فإذا كانت بعض القبائل تقتلهم، فإن بعضها الآخر يعتبر مجيئهم حادثا سعيدا ولكن هناك على أية حال علاقة بين وضع التوائم وبين المطر[2] . »

وكتب الأستاذ جونود فى كتاب أحدث من السابق يقول : « إن الأطفال غير العاديين كالتوائم والأطفال الذين يموتون قبل أن يجرى عليهم الطقس المسمى « بوهابورى » bohapuri فى بعض العشائر ، وكذلك الأطفال الذين تنبت أسنانهم العليا قبل السفلى ، يعدون جميعا من ذوى الطالع الشرير، ويقال إنهم ينطوون على الشر لجميع القطر ، لأنهم على علاقة بقوة السماء الغيبية ،

---

(١) ماكنزى Mackeuzie . T'en years north of the Orange river ، ص ٣٩٢ (١٨٧١) .

(٢) هـ . ا . جونود H. A' Junod . es Ba-rongs ، ص ٤١٢ — ٤٢٠ .

وبذلك يمكنهم منع المطر من النزول . وأعظم علاج لهذا الشر : بل الوسيلة الوحيدة لدرء خطرهم تنحصر فى أن يدفنوا فى أرض رطبة . فإذا لم يفعل ذووهم ذلك ، وجب على الرئيس أن يأمر بنبش قبور هذه الجثث الصغيرة ودفنها بالقرب من النهر [١] » .

ولعل العلامة التى تظهر فى وقت التسنين هى أخطر العلامات . ولم يفت لفنجستون أن يلاحظ هذه الملاحظة فيقول : « إذا نبتت أنياب الطفل العليا قبل السفلى قتل هذا الطفل لأنه مشئوم . وهذه خرافة واسعة الانتشار . وقد حدث ذات مرة حينما كنت عند « الماكولولو » Makololo فى سنة ١٨٥٩ أن نجحت إحدى زوجات « سكليتو » Sekeletu فى منع مواطنيها من قتل طفل وضعته إحدى خادماتها ، لهذا السبب . ولكن الأشخاص الذين يستطيعون مثلها مقاومة الشعور العام جد قلائل . وفى إقليم « الكاسمب » Kasembe يعمد الأهالى إلى قتل الطفل الذى يتقلب من جنب إلى آخر وهو نائم . ويقولون عن الأطفال الذين لديهم « هذه العيوب » كما يسمونها : « إنهم أطفال عرب » لأن العرب لا يؤمنون بهذه الخرافة ، وإذا وجد عربى فى جوارهم أهدوه هذا الطفل حتى لا يجر الشؤم على أسرته كلها [٢] » .

وفى « لكوانجوا » Likwangwa ، وهو قبر ملكى تحيط به قرية صغيرة ... شاهدت حالة طفل نبتت أسنانه العليا قبل السفلى . فخبأه والده ثمانية أعوام رغبة منه فى تخليصه من المصير الشنيع الذى ينتظر أمثاله من الأطفال . ولكن عدوا وشى به « لكالنجا » Kalorga مدعيا أن هـــذا الطفل كان سببا فى الأمراض وفى الوفيات التى حلت بالقرية . . . فلما رأيت الوالد قلت له أن يحضر الطفل إلينا فى أقرب وقت ممكن . ولكن المسكين جاءنا بعد أيام محزونا

---

(١) هـ . ا . جونرد The Life of a South African tribes ، جـ ٢ ، ص ٢٩٦ — ٢٩٧ .

(٢) لفنجستون Last journals ، جـ ١ ، ص ٢٧٦ — ٧٧ .

مكروبا ليخبرنا مع الأسف بأن ولده قد قتل خنقا ثم ألقى فى البحيرة [١] » .
وأخبرنا مبشر آخر فقال : « إن خوف الزنوج من « الكنكولا » Kinkula لا يكاد يقل عن خوفهم من « الكيفا » kiva (روح الميت) . « والكنكولا » هو الطفل الذى تنبت أسنانه العليا أولا . فهو لذلك طفل مشئوم . وإذا قدر له أن يشب جر الهلاك إلى أسرته كلها ، ولذلك يتخلصون منه دون رحمة وعلى الفور . وعجائز النساء هن اللاتى يقمن بذلك ولا شك أن الأهالى لايزالون يمارسون هذا التقليد سرا حتى أيامنا هذه .

« وهناك قبائل أخرى مثل قبائل شرق بحيرة نياسا ؛ تخشى التوائم وتقتلها كالكنكولا تماما [٢] » .

وقد لاحظ الميجر دلهيز Delhaise أكثر من مرة وجود هذه الظواهر لدى السكان المجاورين الذين يقطنون الكنغو البلجيكية ، وينطبق الوصف الذى يرويه عنها على ما سبق . فيقول : « يطلقون اسم « كليبا » kiliba و « كليبا كتابوا » Kiliba Kitabwa ، و « كيلمبا » Kilemba على الأطفال الذين تنبت أسنانهم العليا قبل السفلى . ويعتبرونهم أطفالا مشئومين ، وفى غالب الأحيان يقتلونهم إما بإلقائهم فى الماء وإما بتعريضهم للوحوش الضارية . والأم نفسها هى التى تضطلع بقتلهم خجلا من مثل هذه الذرية . وفى بعض الأحيان تكلف بهذا العمل امرأة أخرى أيا كانت . وأحيانا يتغلب حب الأم ، فتستبق الطفل وفى هذه الحال يباع على أنه رقيق . ويعد الطفل الذى من هذا القبيل سببا فى كل المصائب التى تقع فى القرية ؛ فهو شرير العين . . . وأبو « الكليبا » مهان فى كل مكان ، ينهال عليه اللوم من كل جانب لأنه ولد له « كليبا » [٣] .

---

(١) ا . وا . جلا A. et E. jalla ، Pionniero parina les Marotse ص ٢٤٥—٤٦

(٢) ألويس همبرجر Alois Hamberger ، Nachtrag zu den religiosen Uberlieferungen und Gebräuchen der Landschaft Mkukwe ، فى Anthropos ، مجلد ٥ (١٩١٠) ، ص ٨٠١ .

(٣) دلهيز Delhaise ، Notes ethnographiques sur quelques peuplades du Tangama (Wabemba) ، ص ٨ و ٩ .

والأمر جد قريب من ذلك عند قبـائل « الواهور وهورو Wahorohoro»
« إذا ظهرت أسنان الطفل العليـا قبل السفلى حملته أمه فى المساء إلى شاطىء
النهر حيث تتركه هناك . فإذا جاء الليل ، فتكت به الوحوش الضارية التى تأتى
للشرب . وإذا أخفته ، طرده الأهالى لا من القرية وحدها ، بل من القطر
كله ، إذ لا يستطيع العيش إلا فى مكان لا يعرف الناس فيه تاريخ ميلاده
(كذا) . وعند قبائل « الوابمبـا إذا فقد الطفل سنا من أسنانه ، سمى أيضـا
« كليبـا كا » واعتبر فى عداد المغضوب عليهم ويظل أبو « الكليبا » هدفا
لتأنيب أسرته ، لأنه أدخل فيها « كليبـا » [1] . أما عند قبـائل « الورجا »
Warega ، فلا يعدم الطفل الذى من هذا القبيل ، ولكنه يعامل معـاملة
المنبوذين . « إذا ظهرت اسنان الطفل العليـا قبل السفلى ، حزنت الأم
وأخبرت زوجها . فيدعو الزوج جميع الناس لمعاينة تلك الظاهرة التى تعد مصيبة
كبرى تحل بالقرية ، ويدعى الطفـل دينو « Dino » . وفى الحال يقوم
الأهالى بتشييد منزل منعزل لهذا البغيض ، ومنذ ذلك الحين لا يستطيع العيش
مع الآخرين ، ويظـل طول حياته على هذه الحال . ويجهز له الطعام على
انفـراد ولا يستطيع أحد أن يأكل معه . وبعد أن يكـبر يختلط بالجماعة ،
ولـكنه يظل أبدا مهانا معرضا للشتـائم . وكثيرا ماتؤثر هذه الظروف على
خلقه فيصير كئيبـا مبغضا للبشر . والمرأة التى تقبل العيش معه تعـامل
معاملته . ولا يستطيع « الدينو » أن يمس الحبوب المعدة للبذور ، وإلا هلك
المحصول . وكذلك لا يمـكن أن يأكل موزا من مزرعة فى إبان موسمها ،
وإلا فسدت ثمارها لأنه شرير العين [2] . »

(١) المرجع نفسه ، ص ٣٤ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ١٠٥٤ .

— ٣ —

وتشبيه الطفل الشاذ « بالعين الشريرة » أمر كبير الأهمية من الناحية العلميـــة . فالطفل الذى تنمو أسنانه العليـا قبل السفلى يكشف بذلك « كالجتاتورى » (jettatore) عند الرومان ، عن كونه يحمل بين جوانحه بذرة ضارة تنصب آثارها على من يحيطون به ، ولذلك تعمد بعض القبائل إلى إعدامه لكى تتق شره ، بينما يكتفى بعضها بإبعاده أو بعزله . وقد يرى الأوربيون أن المعاملة ، التى تفرض على هؤلاء الأطفال الشواذ أو الذين حكم بأنهم شواذ ، معاملة بالغة القسوة وخارجه عن سنن الطبيعة . ولكن الأهالى لا يأبهون لذلك . فالأمر فى نظرهم يتعلق بإجراء ضرورى لسلامة الأمن العام ، لأنهم إذا لم يحولوا بين بذرة الشر وبين احداثها للضرر ، انطلق الموت من عقاله وتفشت فيهم الأمراض . لذلك لا يمكنهم التردد فى اتخاذ الإجراء اللازم ، ولكنهم يكتفون بالتخلى عن الطفل المنحوس للعرب بدلا من قتله . وتقتصر الهيئة الاجتماعية على قطع كل علاقاتها به . وقد يحدث ألا يبدو على الشخص المشئوم فى بادىء الأمر ماينم عن وجود تلك البذرة الشريرة فيه . فقد يكون وضعه وتسنينه عاديين ، ثم تكشف الأيام بعد ذلك عن طبيعته الحقيقية . وكتب الاستاذ هبلى فى هذا الصدد يقول : « يوجد عند قبـائل « الكيتوى » kitwi أشخاص نجسون مشئومون بفطرتهم . فمثلا إذا عمد الواحدمنهم إلى تعداد طائفة من الناس أو البهائم ،جلب إليها النحس بفعله هذا . فتتفشى فيها الأمراض ويصيبها الموت ومن مبادىء «الكتويين» أنهم لا يتهمون شخصا من غير بينة ولكن إذا أصابهم مرض لم يستطيعوا له شفاء ، فإنهم كثيرا ما ينقضون فجأة على فرد منهم يتخذونه كبش الفداء . فيأتون بالمتهم ويطلبون إليه أن يبصق على الشخص المريض أو الدابة المصابة : إذ يعتقدون أن لعابه يبطل السحر [١] » .

---

(١) ك . و هبلى Ethnology of The A - Kamba ، ص ١٦٥ .

ومن العسير أن يطلعنا هذا الوصف عما إذا كان الأمر يتعلق بشذوذ أو بحسد jettatore أو بسحر . وذلك لأننـــا نرى أنهم يعدون بذرة الشر أمراً فطريا ، وأن هذه الصفة توجد أيضاً عند « حاملي النحس » الآخرين ، وعند الأطفال الشواذ « النجسين » تبعاً لعبارة الأستاذ هبلي الملفته للنظر . ولكنا نرى من وجهة أخرى أن الشذوذ فى الحالة الأخيرة غير مرئى لاينم عن وجوده أى شىء ، وأنه يظل مختفيا ، إذا صح هذا التعبير ، حتى تنتشر المصائب حول صاحبه فتحمل النـاس على الشك فى أنه هو السبب فيها . وهـذه السمة نفسها هى التى تميز الحاسدين . هذا إلى أن البصق على المريض أملا فى شفائه اجراء مستعمل لدى الجماعات المتأخرة على العموم لوقاية الضحية من السحر ، إذا لم يكن قـد فات الأوان فحين تـكشف إحـدى الجماعات عن وجود ساحر وتنجح فى حمله عـلى الاعتراف ، تحضره لدى من سحره وتجبره عـلى إبطال ما فعل فنرى من ثم أن الانتقال غير محسوس بين الطفل الشاذ والساحر ، وكذلك بين الحيوان « التاهو » والساحر .

هذا الاعتبار يلقى ضوءا ساطعا على حقيقة المسوخ monstra وعلى حقيقة السحر فى آن واحد . فعلينا أولا وقبل كل شىء أن نعدل فكرتنا عن الشذوذ وعن السحر ، إذا أردنا أن نفهم الوحدة الذاتية التى تســـلم بها التصورات الجماعية عند البدائيين بداهة بين كلا هذين الأمرين .

ويمكننا الآن أن نعد هذا المبحث منتهيا . وسنرى إنه سيفيدنا أجل فائدة فى فهم التحكيم الغيبى ordalie .[1]

وتوجـد بعض الظواهر المشابهة للسابقة فى إفريقيه الغربية أيضاً لدى الزنوج الذين ليسو من « البنتو » فمن ذلك أن القبائل القاطنة فى أعلى النيجر تظن « أن الديك الذى يصيح فى ساعه غير معتادة من الليل يجلب الموت

---

(١) انظر فصل ٨ ، ص ٢٨١ فيما يلى .

للأسرة ، اللهم إلا إذا قتل من فوره [١] » ويذكر الميجر لنرد « إنه إذا حدث في أثناء الوضع أن خرج الطفل برجليه أولا (وهذه الحالة تسمى « مكبوبو أوكو » mkpopo - oko أي القدمين السيئتين أو المشؤمتين) ، نظر الأهالي إليه نظرتهم إلى التوائم وعوملت الوالدة المسكينة معاملتها في حالة التوائم[٢]

وفي إقليم « التوجو » إذا نبتت أسنان الطفل العليا قبل السفلى ، يسمى « بوسو » busu ومعنى ذلك أنه بعد أن يكبر سيرى ويرتكب كثيراً من الأشياء المقلقة (يعبر الأب « ولف » عن ذلك بالفعل hesien ، ومعناه يسحر) . ولذلك يبيعون الأطفال الذين من هذا القبيل . وقد يغرقونهم . ويطبقون هذه المعاملة أيضاً على الأطفال الذين يولدون ولهم أسنان [٣] . »

وإلحاق هؤلاء الأطفال بالسحرة أمر لامفر منه في نظرهم ، إذ أن شذوذهم يكشف عن شرهم المستقبل ، ذلك الشر المستقر فيهم منذ إصابتهم بهذا الشذوذ . — وفي « داهومي » يكتفون في مثل هذه الحال بإجراء ضروب التطهير . « وتقام احتفالات مماثلة (للتي تقام في حالة التوائم) بالنسبة « للاجوسو » Agoson ، أي الأطفال الذين خرجوا بأقدامهم قبل رءوسهم عند الوضع) و « الأوينسو » Ouënsou ، أي الأطفال الذين ظهرت رءوسهم أولا ولكن وجوههم كانت تتجه نحو السماء [٤] » . والطفل المريب عند « الآشنتين » Achantis هو الطفل الذي يولد وبيده تشويه ما . « . . ويعد الطفل سعيداً ، إذا لم يكن في أصبعه الصغرى ذلك النتوء الذي يعدونه إصبعا سادسة ويهلكون الطفل من أجله . . [٥] » وفي مدغشقر تنتشر شائعة في هذه

---

(١) ا . ف . مكلر فريمان Up the Niger, A. F. Mockler Ferryman ، ص ١٤١ (هامش ٤) .

(٢) ميجر ا . ج لنرد The lower Niger and its Tribes ، ص ٤٦١ .

(٣) الأب فرنتس ولف Beitray zur Ethnogrophie der Franz Walf Fo - Niger in Toga في Anthropos ، مجلد ٧ (١٩١٢) ، ص ٨٦ .

(٤) ا . لى هيرسيه L'ancien royaume du Dokomey . A. Le Herisse ، ص ٢٣٥ .

(٥) رمسير Ramseyer وكيون Vier Johrein in Asanti. Kuhne ، ص ١٢٧ .

الأيام ، أى فى شهر يناير سنة ١٩٠٧ ، لخواها أن مسخا ولد بالقرب من غابة « انكيرا مادينيكا » Ankeramadinika نصفه ثور ونصفه طفل ولذلك توقع الأهالى حدوث كوارث من جميع الأنواع ، ورأوا أنه لا فائدة من العمل وبذل المجهود .

« وفى السنة الماضية أيضاً دفنت قبائل « البارا » Bara فى الجنوب بعض الأطفال أحياء لأنهم ولدوا يوم الخميس [1] » .

توضح لنا هذه الحوادث كلها تلك العادة المنتشرة فى العالم بأسره لا فى إفريقية وحدها ، وهى عادة التخلص من الأطفال الذين فى خلقتهم بعض الشذوذ ، وقد وجدت هذه العادة لدى أكثر الجماعات تقدما . وهى تعلل ذلك الفعل على وجه العموم بحرصها على أن تتخلص فوراً من الأفراد الذين لا يبشرون بالصحة والقوة ، ولا يستطيعون بدورهم أن ينجبوا أطفالا قادرين على الدفاع عن الوطن . وقد شاع هذا التفسير فى اسبرطة وقبله الاسبرطيون فى عصرهم التاريخى . ولكن من المؤكد أن نشوء تلك العادة يرجع إلى بواعث أخرى . فإننا نعرف أن عادة التضحية بالأطفال فى صغرهم أو لدى وضعهم لا ترجع فى أى مكان من الأماكن التى تمارس فيها إلى عيب جسمى قد لا يسمح لهم بأن يصبحوا رجالا أقوياء ، وإنما ترجع فى أغلب الأحيان إلى عيب غيبى يجعل منهم خطرا على المجموعة الاجتماعية . فالطفل الذى يخنق أو يلقى إلى الوحوش الضارية لأن قدميه تقدما رأسه عند الوضع ، أو لأن أسنانه العليا نبتت قبل السفلى ، يمكنه أن يصبح رجلا صحيحا قويا ، ولكن يقين الاهالى بأنه قد يصير عضوا فى المجموعة الاجتماعية جبارا قوى الأصلاب لا ينجيه من الإعدام العاجل ، فى حين أنهم يتيحون لأطفال آخرين أقل منه صحة ، أن يستمروا فى الحياة على الرغم من ضعفهم الجسمى ما داموا خالين من الشذوذ المريب . وإذا كنا لا نكاد نرى بين الأفراد الكبار فى الجماعات المنحطة

---

(١) Missions évangéliques ، مجلد ٨٢ ، ج ١ ، ص ٢٩٨ (Mondain) .

أشخاصا مصـــابين بعيوب جسمية (وليست هذه هى الحال دائما) . فلا ينبغى لنا أن نستنتج من ذلك أنهم تخلصـوا من مثل هؤلاء الأشخاص عند ولادتهم ، فإن نسبة وفيـــات الأطفال موتفعة جدا بين هذه الجماعات . ولا بد أن الموت يبدأ بأخذ الأطفال ضعيفى التكوين ومن هم أقل من غيرهم قدرة على مقاومة الأمراض ورداءة الأحوال الصحية . ولكن هذه الجماعات لا تتخلص قصدا من الأطفال الشواذ إلا حين تعتبرهم خطرين لأسباب غيبية . ولو قدر لنا أن نعرف بالضبط عدد الأطفال الذين قضى عليهم الاسبرطيون بالفناء منذ ولادتهم ، لرأينـا أن اختيارهم للموت كان يقوم فى المدنية الإغريقية أيضا على هذه القاعدة نفسها .

ينبغى لنا إذن أن نقرن ضروب الشذوذ التى تظهر فى الأشخاص أو فى الحيوانات أى الكائنات التى يطلق عليها الرومان اسم Portenta, R Monstre : بالظواهر الغريبة وغير المعتادة من جهة ، وبالفأل من جهة أخرى . فهى كالفأل لا تنبىء بالمستقبل والحوادث القـادمة فحسب ، بل إنها أيضا تسببها ، أو بتعبير أصح « تصنعها » . فهناك ارتباط مباشر بين ظهور الطفل الشاذ وبين الأخطار التى سيكون سببا فيها فيما بعد ، إذا عاش . ولا يبالى هؤلاء الأهالى بأن يعرفوا أن تلك النكبات والأخطار لن تحدث إلا بعد زمن طويل : فإننا نعلم أن العقلية البدائية تحس النكبة المستقبلة على أنها فى الوقت نفسه حاضرة بالفعل فى الارتباط الزائف الذى يربطها بظهور الطفل الشاذ .

وإذا كان طائر الفـــأل ينتج النقم التى يتوقعونها من سماع صياحه الميمون أو طيرانه السعيد عن طريق حدوث فعل غيبى ، فإن الديك الذى يصيح فى ساعة غير مناسبة والطفل الذى يولد بأسنان ، يعتبران « جالبين للشؤم » بكل معنى الكلمة . وقد كشف شذوذهما عن بذرة الشر التى تكمن فيهما ، ونم « اعتداؤهما » عن وجود هذه البذرة الشريرة ، وهى خطر دائم على الطفل وعلى المجموعة الاجتماعية بأسرها .

امتنع عن العمل إذا أمكنه الامتناع أو انتظر وحاول أن يثنيها عن عزمها أو أن يجتذبها إلى جانبه . ولذلك يجب عليه أولا وقبل كل شيء أن يعرف موقفها : وإذا لم تعرب عن رأيها بعلامات تظهر من تلقاء نفسها ، التمس هو هذه العلامات .

وقد برهنت العقلية المدائية على أنها حاذقة خصبة حينما تقع تحت ضغط حاجة ملحة . ويمكننا أن نضع تحت اسم « العرافة » بأوسع معانى هذه الكلمة مجموعة الاجراءات المباشرة وغير المباشرة التى تلجأ إليها هذه العقلية لاكتشاف مايهمها اكتشافه . وسأبدأ بدراسة العرافة التى تقوم على طريقة الاستجوابات أى الاسئلة التى توجه مباشرة إلى قوى العالم الخفى .

— ١ —

الحلم أبسط هذه الوسائل وأسهلها . وعن طريقه يتصل الشخص الحى بالأموات وبالقوى الغيبية على وجه العموم . وذلك لأن حالة النائم تقرب كثيرا من حالة الموتى ؛ حيث يرق الحجاب الذى يفصله عنهم بعض الوقت . فيراهم ويسمعهم ويتحدث معهم ويوجه إليهم مطالبه ويتلقى مطالبهم . ولكن الحلم لا يحدث فى لحظة معلومة ولا كلما يحتاج إليه المرء . فعلى النائم إذن أن يجتهد فى اثارة الأحلام ، وسنرى أنه ينجح فى ذلك .

ويكثر استعمال هذه الطريقة من العرافة فى كل الجماعات التى تعلق على الأحلام أهمية كبرى . فكان هنود فرنسا الجديدة يلجأون إلى الحلم بصفة دائمة حتى قال فيهم أحد الآباء اليسوعيين : « انهم يجعلون من الحلم الههم » . وكان الصوم وسيلتهم العادية لالتماس الحلم المرغوب فيه . وقد ذكر أحد الآباء اليسوعيين « أنهم يصومون تكريما لها (للآلهة) ، لكى يعرفوا منها حدوث مسألة ما » . وكانت تأخذنى الرحمة بهم حين كنت أراهم وقد همهم أمر حرب أو صيد ، فيقضون ثمانية أيام مثلا لا يكادون يتناولون خلالها أى طعام ، ثم يبلغ بهم الاصرار ألا يفطروا إلا بعد أن يروا فى الحلم ما يريدون كأن يلمحوا

فيه مثلا قطعيا من حيوانات الصيد أو عصابة من « الاروكيين » وقد ولت الأدبار ، أو شيئاً من هذا القبيل . وليس ذلك بالأمر العسير على دماغ فارغ قد أنهكه الصوم ولم يفكر طول نهاره فى شيء آخـــر ! » وإذا كان الهنود الغربيون يتابعون صيامهم هكذا ويمضون فيه حتى يوافيهم الحلم الذى يعتبرونه ضروريا لهم ، فهل يقصدون من ذلك ، أن يصلوا إلى غرض واحد فقط ، وهو أن يعرفوا ما إذا كانوا سينجحون فى أعمالهم ؟ لقد رأينا فيما سبق مقدار حرصهم على تنفيذ جميع ما يأمرهم به الحلم باحترام دينى يفوق الحد . ونحن نعرف من جهة أخرى أن الفؤول فى نظر العقلية البدائية لا تنبيء بالحوادث فقط بل تسببها أيضاً . وليس الحلم إلا أحد هذه الفؤول . فإذا كان الفرد من أفراد « الهورن » Huron يصر كل هذا الاصرار على معرفة ما ينبئه به الحلم قبل أن يذهب إلى الصيد أو الحرث ، فذلك لأن الحلم لا يكشف له عما سيحدث فحسب ، بل يضمن له النجاح والنصر ويكفلهما . وإذا لم يصل « الهوروني » رغم صومه ، إلى رؤية بعض التياتل فى منامه ، أعتـــبر أن الجوهر الغيبى لهذه الحيوانات ما زال معاديا له . وحينئذ ، فما جدوى ذهابه إلى الصيد ؟ انه لن يجد من هذه الحيوانات شيئاً ، وستظل مختفية عنه ، وإذا ظهرت فلن تجعل لسهمه سبيلا إلى اصابتها . وأما إذا رآها فى نومه ، كان هذا الحلم ضمانا لانقياد جوهرها الغيبى له ؛ وبالتالى صكا بحصوله على صيد موفور . فيشد هذا الرضاء من عزمه ويجد فى الطلب .

والعرافة التى يمارسها هؤلاء الهنود هكذا فى شكل حلم مستثار ، تنطوى فى آن واحد على محاولة للمعرفة وجهد لضمان النجاح المرتجى . ويمكننا أن نعتبرها نوعا من الصلاة أيضاً ، بدليل أن هؤلاء الهنود أنفسهم يعتقدون أن المبشرين حين يصلون ، إنما ينشدون نفس الغاية التى ينشدونها هم أنفسهم حين يستثيرون الأحلام . وتشير الرواية الآتية اشارة يقينية إلى هذا الاتجاه : كانت جماعتنا الصغيرة تنتظرنى حتى أتم صلاتى . وقد يميل صبر البدائى الذى كنت استخدمه دليلا لى لما رآنى أظل وقتا طويلا راكعا على ركبتى فى مكان من العشة منعزل

عن الضوضاء ، وظن أنى حصلت على شيء من الكشف إذ تلقيت هبة النبوة ، فاقترب منى ورجانى رجاء حارا فى أن انبئه بما سيقع فى ذاك النهار . وقال لى : انك تكلم الله وتعلم طريق الشمس ، وأنت جد كبير وفيك رجاحة عقل ، ولا بد أنك واثق من أن الذى صنع كل شيء قد استجاب لصلاتك : قل لى إذن ما إذا كنا سنقتل اليوم كثيرا من التياتل وكلاب البحر لنقريك بها بعد كل هذه المتاعب والآلام التى عانيتها حتى الآن . » دهشت كثيرا لهذا الحديث (يجيب الأب بحديث قصير عن العناية الالهية .)ولما كان لايشغل هذا البدائى إلا تفكيرة فى أن الله يكلم الاحبار الكبار دون تكلف فقد أبدى لى حزنه واكتئابه ولا سيما بعد أن أخبرته بأنى لا أعرف شيئاً عن المكان الذى نستطيع أن نجد فيه الوعول أو كلاب البحر بكمية كثيرة ، وأنه ينبغى لنا أن نعتمد تماما على توجيه العناية الالهية . وقال لى : « انى اذن أعظم من حبر كبير ، لأن الله كلمنى أثناء نومى وأنبأنى بأننا سنقتل على وجه التأكيد وقبل ظهر هذا هذا النهار كثيرا من التياتل وكلاب البحر [١] » .

وهذا يفسر لنا السبب فى أنهم قد يحملون الأطفال أيضا على الصوم أملا فى الحصول على الحلم المرتجى . «يرغمون أولادهم على أن يصوموا كالكلاب توفيرا لمشقة إنضاج الطعام أو إدخارا للأغذية أو لتعويدهم ألا يأكلوا إلا مساءاً . ويخبرونهم بأنهم سيحلمون بأن مانيتو استورجون » (menitou esturgeon) [مانيتو روح، واستورجون نوع من السمك العملاق] أو الدب أو الوعل أو أى حيوان آخر من هذا القبيل سيمكنهم من صيد «الاستورجون» أو قتل الدببة ؛ وإذا لم تكن سنهم تسمح لهم بالصيد البرى لم يمنع ذلك النساء من إرغامهم على الصوم وإقناعهم بأن حلمهم يضمن النجاح للصيادين والرماة ، كما أن هؤلاء الأطفال أنفسهم يتمنون من صميم قلوبهم أن يقتلوا حيوانا أو أن

---

(١) الأب لكليرمن الآباء الفرنسكان P. Le Chacrecolet de la Gaspésie nouvelle relation ط جانتج (١٩١٠) ، ص ٣٧٥ .

يصيدوا سمكة ، وهذا هو السبب فى أنه إذا نجح أحد الحالمين مرة ، وضعوا كل ثقتهم فى الحلم [١] ؟ » وهكذا يقرر الأب اليسوعى بصراحة أن الذى يهمهم رؤيته فى الحلم المستشار هو « المانيتو ـ استورجون » أو الدب ، الخ ؛ يعنى ذلك الذى سميناه الجوهر الغيبى للنوع الذى تعتبر موافقة ضرورية لنجاح الصيد . فليس للعرافة إذن ذلك المعنى الذى نفهمه نحن من مدلول هذه الكلمة فحسب ، بل إنها أيضا تعنى نوعا من الدعاء والصلاة ، ولا سيما إذا أدخلنا فى مدلول الصلاة عنصرا آخر متمما لها أى إذا اعتبرنا أنها فعل يقوم به المصلى للتأثير فى القوة التى يصلى لها [٢] !

ويلجأون أيضا إلى هذه الطريقة من العرافة قبل اللعب ، فمنهم من يصوم عدة أيام قبل أن يلعب : إذ يجتمعون كلهم عشية يوم اللعب فى إحدى العشش ويقيمون مأدبة لمعرفة نتيجته . . . ويختارون لإدارة طبق اللعب شخصا سبق له أن حلم بأنه سيربح [٣] ... وهكذا نراهم يصومون لكى يحلموا بأنهم سيربحون كما يصومون لكى يروا فى حلمهم الصيد أو الأعداء : فالحصول على مثل هذا الحلم يساوى الاستحواذ على تعويذة تضمن النصر . وقد حدث أن طلى بعض الشبان وجوههم باللون الأسود (وهو يدل عندهم على الحرب) ودخلوا عشتنا قرب المساء قائلين أنهم جاءوا للنوم فى الكنيسة لكى يظهر الله لهم فى المنام ويكلمهم ويعدهم باسلام الأعداء اليهم [٤] . » فلا شك أن هؤلاء

---

(١) Relations des jesuites ، مجلد ٥٧ (١٦٧٢ ـ ٣) ، ص ٢٧٢ ـ ٧٤

(٢) قارن فى ذلك الصدد الملاحظة الدقيقة لـكادرنجتون Cadrington : « من العسير ان لم يكن من المستحيل أن نجد فى لغة « ميلانيزيه » ما نترجم به كلمة « صلاة » ترجمة مضبوطة ذلك لأن فكرة « الفعل الناجح » متبعة عندهم بالصيغة المستعملة ارتباطا وثيقا . من كتاب The Melanesians ، ص ١٤٥ — ٦ .

(٣) Relations des jesuites مجلد ١٠ (١٦٣٦ ، ص ١٨٨) (Le jeune)

(٤) المصدر نفسه ، مجلد ٥٨ (١٦٧٢ — ٣) ، ص ٩٠ .

الفصل السادس

ضروب العرافة الغيبية

المدركات المباشرة التى تتكون منها تجارب البدائيين كثيرة ، ومنها تلك المدركات التى تأتى إليهم من العالم غير المرئى والتى تكشف لهم عن نوايا القوى الغيبية التى تعمره . والبدائيون أشد اتصالا بهذا النوع الأخير من المدركات منهم بأى نوع آخر . فرخاء حال الهيئة الاجتماعية وصحة كل عضو من أعضائها وحياته ، كل ذلك يتوقف على التأثيرات الطيبة والسيئة التى تنصب عليهم من هذا العالم . وهم لا يستطيعون أن يأملوا فى الوصول بمشروع من مشاريعهم إلى بر السلام ، إلا إذا وثقوا من أن القوى الغيبية لن تقاومه مقاومة فعالة . وهذا هو مصدر حاجتهم الملحة إلى التحقق من أنها فى جانبهم وأنها ستجعل النجاح رائدهم . وكيف يمكنهم أن يتأكدوا من ذلك ؟ لاشك ان آيات القوى الخفية كثيرة الحدوث وان البدائى مجبول على أن يرى بعضا منها فى كل مكان ، وأن يعتبر بعض الظواهر العادية وجل الظواهر الغريبة من هذه العلامات . وعنده تأويل معد لكل منهما . ومع ذلك فمن الممكن أن تنعدم الأحلام والفؤول والاشارات الأخرى التى من هـــذا القبيل فى نفس الوقت الذى يحتاج إليها فيه : أى حين يحتاج مثلا إلى اتخاذ رأى حاسم فى أمر ما ، أو القيام باختيار عسير . فكيف لهم الخروج من هذا الاشكال ؟ أيوازنون الفروض الممكنة بطريقة منهجية ويستعينون بالتروى فى إستطلاع ما يحدث تبعا للاتجاه الذى يختارونه ؟ لا شك أن العقلية البدائية لا تتبع العمليات التى من هذا القبيل إلا نادرا جدا . بل ان ذلك قد لا يخطر ببالها . ولو طرأت عليها هذه الفكرة لما كلفت نفسها عناء الالتفات إليها ولقطعت من فورها بعدم جدواها . ففى نظرها أن الحادثة تتوقف على القوى الغيبية . ولذلك لانراها تعتزم أمرا إلا تبعا لنوايا هذه القوى . فإذا كانت موالية أقدم البدائى على العمل ، وإذا كانت معادية

الشبان أرادوا أن يحصلوا من إله الآباء على مكرمة مماثلة لما يطلبون من آلهتهم، كما رأينا غيرهم من قبل يطلبونها من روح «الاستورجون» أو الدب الوعل الخ ولم يذكر الأب ما إذا كان النوم فى الكنيسة فى تلك الليلة قد سبقته مراسيم خاصة باستحضار الأحلام المرجوة أم لا ، ولكن يمكننا أن نفترض حدوث ذلك تبعا للعادة الشائعة فى الحالات التى من هذا القبيل .

ويلجأ الهنود فى استثارة الحلم إلى الصوم فى أغلب الأحيان . « فقبائل الهورن تحسب أن الصوم يشحذ نظارهم إلى حد الإعجاز ، ويهبهم أبصارا ترى الأشياء الخفية والبعيدة .»[١] ، وهناك أحلام لا معنى لها ولا يمكن الاعتماد على دلالتها . أما الحلم الذى يحدث على أثر صوم فله قيمة غيبية ؛ لأنه صادق بالضرورة ، ولأنه هو الرؤيا بمعنى الكلمة . ويعتقد الهندى أنه فى هذه الحال يرى الموتى وكائنات العالم الخفى ويسمعها ويتحادث معها . لأن الصوم يجعله قادرا على استقبال تلك الرؤى . فللصوم خاصة التطهير : وهو ينقل المرء من العالم الدنيوى إلى العالم المقدس كما يقول الأستاذان هوبير وموس، بل يسلط أثره على كائنات العالم الخفى أيضا .

وإذا أراد الهندى أن يستثير الحلم فى معرفة أعز شيء يرغب لمعرفته ، وهو الكشف عن الكائن الذى سيكون روحه الحامية أو طوطمه الفردى ، فإنه يتبع الطريقة الآتية لكى « يخلق إلهه » كما يقول الآباء اليسوعيون ، «إذا بلغ الطفل من العاشرة أو الثانية عشرة شرع أبوه فى إعطائه بعض الدروس وتزويده ببعض التعليمات الضرورية لاكتشاف الكائن الذى سيكون إلهه منذ ذلك الحين . فيعرض عليه أولا أن يصوم بضعة أيام حتى يصبح رأسه خاويا فيسهل عليه الحلم أثناء النوم . وحينئذ يكشف له هذا الاله الغريب الأطوار عن نفسه . ومن ثم كان نشاطهم وعملهم ينحصران فى أن يروا فى المنام شيئا غريبا يقوم لهم ، منذ رؤيته ، مقام الاله » فوظيفة الحلم الأساسية هنا تنحصر فى إعلام الشاب أن قوة غيبيته قد قبلت أن تكون طوطمه الفردى كما أن وظيفته فى الحالات السابقة تنحصر فى أن تكشف للحالم أن

---

(١) المصدر نفسه ، مجلد ١٠ (١٦٣٦) ، ص ٢٠٦ (الأب لجين Le jeune)

مانيتو الوعل « روح هذا الحيوان ، قد أرادت أن تقع هذه الحيوانات فريسة للسهام التي يرميها بها الصيادون. ومعنى ذلك أن الحلم لا يعتبر رياضة عرافية بحته، بل أنه لا ينفصل عن الطقوس والمراسيم التي تسبقه والتي يقصد بها ضمان صدقه ونقائه .

ولا نزال حتى يومنا هذا نجد لدى هنود أمريكا الشمالية الذين احتفظوا بتقاليدهم في حالتها النقية إلى حد كبير بعض الظواهر المماثلة لتلك التي رواها لنا الآباء اليسوعيون في القرن السابع عشر . وهذه بعض أمثلتها عند قبائل « الهداتسا » (Hidatsa) : « كان أبي قد ناهز الثلاثين من عمره حينما اجتمع رجال القرى الخمس ذات يوم ، وذهبوا لصيد الجاموس البرى . وفي أثناء الصيد قتل الشبان الدب الذي ترى مخالبه أمامك. وحينئذ ألقى في روع أبي أنه ربما كان على وشك اكتشاف « إلهه » . ولذلك طلب إلى من معه أن يسلخوا الدب دون أن يخدشوا مخالبه وجمجمته . ثم نزع ملابسه وثقب أنف الدب بسكينه وأدخل حبلا في الثقب ورجا أحد الحاضرين أن يثقب لحم ظهره في موضعين ، ففعل ذلك وأدخل فيهما عصا وربط في العصا حبلا بصورة تمكن أبي من أن يجر رأسه وجلده . . . وقد جر أبي جلد الدب حتى المساء في مكان منعزل . وفي المساء عاد إلى المخيم . فاحس شيئاً يقاومه كما لو كان جلد الدب قد اصطدم بعقبه ، وفي الوقت نفسه سمع ضوضاء تشبه صوت الدب الحي : ش ، ش ، ش ، ش ، . فنظر خلفه ورأى مخالب الدب ممتدة كالو كان حيا . . وفي الليلة نفسها حلم بأن الدب يعلمه العناية بالمرضى — ولم يكن عليه ، لكي يصل إلى هذا المأرب ، إلا أن ينشد الأنشودة التي علمه الدب إياها ، ثم يأخذ قطعة من جلد جاموسة برية ويمسك بها في اتجاه المريض فيتم له الشفاء[1] . » فلا شك أن هذه المشاق التي يتكبدها الهندى الهيدتس في جر

(١) بپر Papper وولسن Wilson
، An Hidatsa shrine and the beliafs respecting it. في
memoirs of the American Anshrpological Associsation مجلد ٢ ص ٣٠٥

جلد الدب تقوم مقام الصوم ، ولها قدرته السحرية. وقد وصف باحث حديث مثل هذه الظواهر عند « ذوى الاقدام السوداء » فقال : « إذا أراد أحد الهنود الغربيين أن يعرف مجرى حياته فى المستقبل او أن يحصل على معارف تنفع القبيله (كالتى علمها الدب للهيدتس) ، فما عليه إلا أن يذهب منفردا إلى السهل أو إلى أى مكان منعزل فى الجبال الصخرية ليصوم ويصلى عدة أيام متوالية لكى يرى حلما أو رؤيا. فاذا كان أهلا لذلك أشفقت عليه الشمس وأرسلت إليه رسالة عن طريق حيوان أو كائن مما فوق الطبيعة ، وهكذا يحصل فى أثناء الحلم على الكشف الذى يبتغيه والقـــدرة السحرية التى يسعى اليها بتوسط أحد الحيوانات القوية (كالجاموس البرى وكلب البحر والذئب والدب الرمادى) ، أو بتوسط قوة طبيعية مشخصة ، كرئيس الرعد وسيد الريح، الخ [١] » .

لاحظ الآباء اليسوعيون جيدا أن الهنود الغربيين لا يعتبرون الحيوانات التى تنكشف لهم فى الحلم من الحيوانات نفسها التى يقابلونها فى الصيد ، ولكنها تنتمى إلى العالم غير المرئى وتستحوذ على قوة غيبية. ويبدو ذلك فى المناقشات التى كانت تجرى بين الاباء اليسوعيون وبين المطيين : « كانت الطريقة التى اختارها الأب مرميه (mermet) تنحصر فى أن يحرج أمامهم أحد أولئك الدجالين الذين يعبدون الثور باعتباره « مانيتو » (maniiou) العظم (روحهم الحارسة) وقـــد نجح فى أن يستدرجه دون شعور منه إلى الاعتراف بأنه لا يعبد الثور نفسه بل يعبد « مانيتو » الثور الذى يحل تحت الأرض ويبعث الحياة فى كل الثيران ويرد إلى المرضى حياتهم ، وبعد ذلك سأله عما إذا كانت الحيوانات الأخرى كالدب الذى يعبده رفاقه مثلا تستمد الحياة أيضا من « مانيتو » تحت الأرض ، فأجاب الرجل بقوله : دون شك ولكن المبشر عاجله بقوله : لابد أن للبشر أيضا « مانيتو » يستمدون منه الحياة . فقال

(٢) و . ماكلنتوك The old north Trial , ص ٣٥٢ ـ ٥٣ وقارن
Bureau of American Eshnologie Sniuhsonian. Siouian cults
In,stitute Repart III ص ٣٩٢ — ٥٣

الرجل : لاشيء آكد من ذلك[1]

ويلجأ كثير من الجماعات الأخرى إلى الحلم المستثار للاتصال بالأرواح الحارسة المماثلة لتلك التى رأيناها فى أمريكا الشمالية . ومن هذا القبيل مثلا « النيارنج » (nyarong) (أرواح المساعدة) التى وضعها الأستاذان هوز Hose وماكدوجالد Mac Dougall عند قبائل « الايبان » Ibans فى بورنيو حيث يقولان « لعل الذين لهم حظ الاستحواذ على روح حارسة لا تتجاوز نسبتهم واحد فى المائة من السكان بالرغم من أن عدداً كبيرا منهم يتمنى بكل قلبه أن تكون له هذه الروح . ويذهب كثير من الشبان للنوم فوق قبر شخصية هامة أو فى مكان موحش من الصحراء حيث يقضون بضعة أيام فى صوم دائم تقريباً ، أملا فى أن تظهر لهم أرواح حارسة فى أحلامهم[2] » .

وكذلك يعتقد أهالى بورنيو أنه لا يوجد أنجع من الدواء الذى تكشف عنه الأحلام . فللحلم خاصة الشفاء عن طريق الرؤى التى يهـــدى إليها وهذا ما أشار إليه الأستاذ برهام ضمنا حين قال : « كلمة نمبوك معناها أن ينام المرء على قمة جبل أملا فى أن يقابل الأرواح الخيرة التى فى العالم غير المرئى . وقد حدث ذات مرة أن أصيب أحد الدياك « من اقليم « ريجنج » (Rejong) منذ سنة أو سنتين بمرض ، فجرب عدة جبال لكى يشفى ، وفى النهاية حضر إلى « لنجا » Lingga ، حيث قاده أفراد « الدياك » الذين يسكنون بالقرب من هذا المكان إلى الجبل المسمى بهذا الاسم . فقدم قربانه ورقد لينام بالقرب من هنالك ، فرأى « انتو » Antu (روح) ثم عاد وقد شفى تماما[3] » .

---

(١) Relations des jesuites مجلد ٥٦ ، ص ٢٣٦ — ٨ .

(٢) هوز ومكدوجل The Pagan tribes of Borneo ، جـ ٢ ، ص ٩٢ .

(٣) الأب ج برهام ويروى ء ه ه . لنج روث The Natives of Sarawak حـ ١ ص ١٨٥ وقارن ا . بكارى A. Baccari Wandering in the Forests of Borneo ص ١٥٨ .

وأخيرا يوجد فى استراليا عدد من القبائل التى تعلق على الأحلام أهمية كبرى، وتعتبر الأحلام المستثارة طرقا للعرافة واستجداء المعونة من قوى العالم الخفى وضمانا لتحقيق مارأوه فى المنام. وهذا ماوراه الأستاذ «و.ا.رث» (W.E.Roth) وهو من خير الباحثين الذين عاشوا بين سكان استراليا الأصليين (كوينزلند الشمالية)، فيقول: «على نهر البلومفيلد Bleomfield يأخذ الناس فى تداول الأحلام التى رأوها فيما بينهم، ويفسرونها بأنفسهم أو يتناقشون فيها مع آخرين. ففى هذا الاقليم قد يريد أحد الأهالى أن يحلم بأن عدوه سيموت، أو أن يصل إلى النتيجة التى يتمناها. وكثيرا مانرى بعض أهالى نهر التلى Tully - river يوطدون العزم على أن يروا فى نومهم بأن عدوا معينا لهم قد مات، فاذا حلموا بذلك اعتقدوا أنه لابد أن يموت. وإذا حلم النساء بأن أطفالا حلت فى بطونهن اعتقدن أنهن سيضعن أطفالا، وإذا ارتكبت جريمة ظنوا أنه من الممكن اكتشاف الجانى فى الحلم. وكذلك الحال فى كثير من الأقاليم [١]». ولا يمكن فهم هذه العادة إلا إذا سلمنا بأن للحلم فى نظر الأهالى الذين يلتمسونه تأثيرا غيبيا حقيقيا فى حد ذاته. إذ أن النوم يمكنهم من الانتقال إلى العالم الخفى كما أن الحلم الذى يحلمونه يدل على أن قوى هذا العالم موالية لهم وأنها تعطيهم مايطلبون.

وهكذا تنشأ أثناء النوم ضرب من المشاركة يصعب علينا فهمها. وقد أورد الأستاذ «رث» أمثلة منها فى ملاحظة دقيقة حيث يقول: «فى حوض نهر «التلى» كلما حدث ذلك لشخص منهم عندما يذهب للنوم أو يستيقظ فى الصباح، نطق بصوت خافت نوعا ما باسم الحيوان أو النبات الخ الذى يرى أنه حيوانه أو نباته أو الذى ينتسب إلى المجموعة الاجتماعية التى ينتمى هو إليها ... وإذا كان هناك صوت خاص أو صياح أو نداء مرتبط بهذا الاسم حاكاه أيضا. وهذه رياضة يعلمها الشيوخ ويتعلمها الشبان بمجرد أن يصلوا

---

(١) ر. ا. روث Superstition, magic and medicine فى north Queenlane Ethnography Bulletin مجلد ٥ عدد ١٠٦

إلى سن تسمح لهم بتعلم تلك الأشياء . وغايتها أن يصبح المرء حاذقا موفقا فى الصيد ، وأن يتمكن من تجنب الأخطار ، وإلا فإنه يتعرض هو أو بعض أهله لخطر الحيوان أو الطوطم الذى يحملون اسمه . وإذا كان رجل يحمل اسم سمكة وواظب على دعائها هكذا باطراد ، فإنه يصيب منها الكثير يوم يعضه الجوع . وإذا كان يحمل اسم الرعد أو المطر أو ظاهرة أخرى من هذا القبيل وأهمل دعاءها ، فانه يفقد القدرة على إحداثها . ولاتهاجم الأفاعى والتماسيح مطلقا أحدا ممن يحملون اسمها دون تحذير ، بشرط أن يدعوها باطراد على هذا النحو أيضا . وإذا أهمل أحد الأهالى هذا الدعاء فلا ذنب لأحد إذا لدغ... أما إذا دعا أحد الأشخاص حيوانات أو أشياء أخرى غير التى يحمل أسماءها ، لم يكن لذلك الدعاء أية نتيجة سيئة أو حسنة ... ومن عادة الأهالى على نهر « البروسربين » Proserpine الا يناموا إلا بعد الدعاء باسم أحد الحيوانات أو النباتات أو الأشياء التى ترتبط بجزء المجموعة التى ينتمون إليه ... وقد سألت عن علة ذلك ، فأجابونى بأنهم إذا دعوها هكذا حذرتهم فى أثناء نومهم من وصول حيوانات أخرى إليهم [1] » .

هناك إذن بعض الأحلام التى كانت تستثار على أنها فؤول ، ثم فقدت الزمن دلالتها الأولى ، أى كونها أسبابا غيبية ، ولكنها احتفظت بقيمتها كعلامات ونبوءات فحسب . إذ أن هؤلاء الناس كانوا فى بادىء الأمر يطلبون إلى الفؤول والأحلام التلقائية أو المستثارة أن تحميهم من قوى العالم الخفى وأن تهبهم النجاح فى مشروعاتهم قبل أن يطلبوا إليها مجرد الكشف عن المستقبل. أما الآن فلا يزال الاهتمام الذى تعيره كثير من الجماعات إلى الأحلام وإلى الفؤول يخفى وراءه ذكرى باهتة نوعا ما لتلك القيمة الغيبية العميقة التى كانت تعزى إليها فى مبدأ الأمر .

كان الحلم فى بادىء الأمر ، وفى كل مكان تقريبا ، مرشدا يجب اتباعه

---

(١) المرجع نفسه عدد ٧٤.

ونصيحا لايخطيء ، بل كان فى كثير من الأحيان السيد المطاع الذى لا تناقش أوامره ، كما كانت الحال فى فرنسا الجديدة مثلا : فأى شيء أقرب إذن إلى الطبيعة من أن يحاول المرء استشارة هذا الناصح الأمين والسيد المطاع إلى الكلام لاستشارته والتماس آرائه فى المواقف الحرجة ؟ وهذا مثل ينطبق على مانقوله تمام الانطباق ، وقد ورد فى رواية للمبشر ماكدونلد Macdonald : « استأذن الرئيس فى الانصراف ، وأخذنا نلح عليه فى أن يرسل إبنه إلى المدرسة وهو يجيبنا بقوله « سأحلم بذلك » ثم أخذ يبين لنا أن رؤساء « الماجولولو » Magololo كثيرا مايسترشدون بالأحلام ، ورحنا نحن نتبادل الآراء حول هذا الموضوع . وفى اللحظة التى هممنا بمغادرته فيها قدمنا له هدية لنحضه على أن يرى حلما مشجعا [١] » .

نحس فى كلام المبشر أنه يعتبر تصريح الرئيس هزيمة له : ويبدو له أن الرجل لا يرغب فى أن يرسل ابنه إلى مدرسة البعثة وإن كان لا يجرؤ على الرفض الصريح ، فوعد بأن يستشير الحلم ليتخلص من الحاح المبشر . وقد تكون الرغبة فى كسب الوقت من بين البواعث التى أوحت إلى الرئيس بهذا الجواب . ولكن لعل الأقرب إلى الاحتمال أن نرى فى هذا الجواب تعبيراً صادقاً عن حالة الرئيس العقلية . فإنه إذا نزل على ملتمس المبشرين وسلمهم ولده ، كان قد أتى فعلا لم يأته قط ، وانسلخ عن التقاليد ، وربما أثار حنق الأسلاف : ومن يدرى ماذا تكون عواقب غضبهم ؟ وإذن فليتصل بهم وليعرف رأيهم قبل أن يقدم على هذه المخاطرة ، وبذلك يعلم ما إذا كانوا يرضون عن ذهاب إبنه إلى مدرسة البيض أم يعارضونه .

وهل توجد وسيلة أخرى لمعرفة رأيهم خير من الحلم ؟ لو وجه المبشر سؤاله إلى شخص أوربى لأجابه بقوله : « سأفكر فى ذلك » ، أما الرئيس « الماجولولو » فيقول : « سأحلم بذلك » . وتفسير هذا أن الأول يفكر فى النتائج

---

(١) الأب ج . ماكدونالد Africana .. Rev. J. Macdonald جـ ٢ ، ص ١٠١ .

المحتملة لما يعتزم عمله . أما الآخر فيستشير الأسلاف الذين لا يزالون يكوّنون جزءاً من المجموعة الاجتماعية ، ويقبضون بيدهم على زمام مصائرها رغم أنهم موتى ، ولذلك ينبغي ألا يغضبهم بأى ثمن .

— ٢ —

قد لا يأتى الحلم رغم التماسه واستثارته . لذلك تلجأ العقلية البدائية إلى وسائل أخرى للاتصال بقوى العالم الخفى . والاستجواب المباشر أبسط هذه الوسائل وانجحها إذا كان ممكنا . فيستعملونه مع الأموات الذين لم تنقطع كل مشاركتهم للمجموعة الأحياء ، ولا سيما إذا كانوا من الأموات الجدد ، لاعتقادهم أنهم غير بعيدين عنهم على وجه العموم . فوجود جسم الفقيد فى البيت الذى مات فيه أو بجواره أو فى قبره الذى لم يزل رطبا ، يعادل وجود الفقيد نفسه بينهم . لذلك إذا كانت هنالك مصلحة فى أن يتعرفوا رأيه . طلبوا إليه أن يدلى إليهم به . وأغلب الظن أنه لم يعد يتكلم ، ولكنه لا يزال يسمع ، وهناك من الوسائل ما يمكن المستجوبين من تلقى جوابه .

ويمكن أن يحدث الاستجواب قبل أن يتم الموت بالمعنى الذى نعرفه نحن ، أى فى الفترة التى تنقضى بعد مغادرة الروح (أى ضيف الجسم) لهذا الجسم ، وقبل أن يكف المحتضر عن التنفس . وذلك لأن البدائيين يعتبرون أن المحتضر قد مات بالفعل ، وهذا يفسر لنا كثيراً من حالات الدفن العاجل التى يروح ضحيتها أناس مساكين لا يزالون أحياء .

« حين يوشك أحد المرضى أن يموت ، يجتمع حوله كل أفراد الأسرة ولا يسمحون لأحد بإشعال نار فى المنزل خشية أن تخيف « التباران » Tabaran « (الروح) . إذ يعتقد الأهالى أن المريض « أنجى » angi ، أى أنه فى حوزة أحد التبارانات ، ويوجهون إليه ضروباً شتى من الأسئلة . وصوت المحتضر هو الذى يحمل الأجوبة إلى السامعين ولكن « التباران » هى التى تتكلم ، وليس المحتضر . فيسألونه بقولهم : « من أنت ؟ ما الذى سحرك ؟ عجل بالإجابة

وإلا أحرقناك[1] » وفى هذه الملاحظة شيء من الاختلاط : ومع ذلك فإنها تبين أن أسرة المحتضر (التى تعتبره قد مات بالفعل) توجه إليه الأسئلة التى ينبغى « للتباران » أن تجيب عليها . — وفى إقليم « فكتوريا » (أستراليا) يراقب الأقارب ساقى المحتضر ، إذ تدل حركاتهما فى نظرهم على الاتجاه الذى جاءت منه الجريمة ، ويسترشد بها أهل الميت للوصول إلى المكان الذى ينبغى أن تؤخذ فيه الثأر[2] ومع ذلك فإن هم الحاضرين فى هذه اللحظة ينحصر على العموم فى الطقوس التى تراعى فى ساعة الموت . وهم لا يحرصون على احتجاز الفقيد ، بل انهم ، على العكس من ذلك ،كثيراً مايعانون إحساساً عميقاً بالخوف يدفعهم إلى التخلص من وجوده بينهم . ولذلك يتجنبون استجوابه فورا بقدر المستطاع ويؤجلونه إلى ما بعد انقضاء تلك الساعات الأولى العسيرة .

ولا يعتبر الموت قط ، أو لا يكاد يعتبر قط ، أمراً طبيعياً فى الجماعات البدائية . ولذلك تحتاج أسرة الميت إلى معرفة صاحب السحر المسئول عن موته ، والميت نفسه هو خـــير من يعرف غريمه . ولا يمكن لأحد أن يكون أكثر وثوقاً منه فى الكشف عنه . لذلك يستجوبه الأحياء ويعتقدون أنهـم بهذه الطريقة يصيبون هدفين فى آن واحد : فيميطون اللثام عن الساحر الذى يعد نشاطه القاتل خطراً دائماً يتهدد المجموعة الاجتماعية ، وفى الوقت نفسة يظهرون للميت الحديث عنايتهم بالانتقام له . ومن ثم يتجنبون نتائج غضبه الذى لا يتردد فى صبه عليهـم ، إن راوده أقل إحساس بإهمالهم إياه . وعند « النرينيرى » Narrinyeri ينام أقرب شخص إلى الميت فى الليلة الأولى بعد موته مسنداً رأسه على جثته ، لكى يحلم بالساحر الذى سبب له الموت . . . وفى الغد يوضع الميت فى نعش خاص ويحمل على أكتاف بعض الرجال الذين يلتف حولهم أصدقاؤه،

---

(١) جورج براون George Brown . Melanesians and Polynesians .

(٢) ستاند بردج Standbridge . On the aborigines of Victoria فى Transactions of the Ethnological Society , (١٨١٦) ، مجلد ١ ص ٢٩٩

ويتطقون بأسماء مختلفة ليروا إذا كانت تحدث أثراً فى جثته . وفى النهاية ينطق أقرب شخص له باسم الشخص الذى حلم به وهم يزعمون أن ذكر هذا الشخص يحدث فى الجثة أثراً عميقاً يجعلها تدفع من يحملونها دفعاً قوياً نحو القريب الأقرب . ويعتبرون هذا الدفع برهاناً على أن الإسم الذى نطق به هو عين الاسم الذى كانوا يبحثون عنه[1] » .

ويباشر أهل بريطانيا الجديدة استجواب الميت بصورة أكثر مباشرة من تلك الصورة : « جرت العادة أن يجتمع أقرباء الميت خارج المنزل فى الليلة التى تلى الوفاة ، وينادى أحد المطببين (Tena agagara) روح الميت بصوت عال ويطلب إليها أن تدل على الشخص الذى سحرها . وإذا لم يحصلوا على جواب ، ذكر « اليتنا اجاجارا » (Tena agagra) اسم شخص مرتاب فيه وحينئذ يرهف الحاضرون آذانهم . فإذا لم يسمعوا جوابا ، ذكر اسما آخر وهلم جرا إلى أن يسمعوا صوتا كنقر الأصبع على لوح خشبى أو على حصير ، إما فى المنزل ، وإما فى قوقعة يمسكها « التانا اجاجارا » بيده : ويعتبرون هذا برهانا قاطعا على أن صاحب الاسم هو الجانى[2] . » ويمكن للجثة أيضاً أن تعلن من ذات نفسها عن سبب الموت لصاحبها ، وذلك فى أثناء تجهيزها للدفن . « يتعرض الشخص الذى يخيط فتحات الجسم بقصد إغلاقها لخطر جسيم ، إذا لم يكن مزودا بخيط متين . لأنه إذا انقطع ، عزا الناس ذلك إلى غضب الميت الذى زعموا أنه أظهر هذه العلامة ليخبرهم بأن هذا الشخص هو الذى سحره ... وإذا لم تكن الإبرة حادة بحيث يسهل دخولها فى البشرة ، فإن أقل حركة يحدثها بها المثلوم حين يضغط عليه لإدخاله فى البشرة تفسر

---

(١) ج . تالپن G. Talpin : The Narrinyeri Tribes ، ص ١٩ — ٢٠ وقارن فقرة عائلة لايلمان Eylmans : Die Eingebornen der Kolonie Süd Australien ص ٢٢٩ .

(٢) جورج براون Melanesians & Polynesians ، ص ٣٨٥ — ٦

بأنها علامة تلقائية من الجثة ، ويظن أن الشخص الذى يقوم بالخياطة هو الجانى [١] . »

وتتخذ قبائل « الديبرى » Dieri من الاتجاه الذى يأخذه جسم الميت حين ينزله الرجلان اللذان يحملانه لوضعه فى الحفرة ، علامة على المكان الذى يعيش فيه الشخص الذى سبب له الموت [٢] . « وفى قبيلة « الوورنجيرى » wurrungierri » إذا لم يوجد مطبب لتعيين الشخص الذى قتل الفقيد ، كان عليهم بمقتضى العادة أن يكنسوا قاع الحفرة بعناية فى أثناء حفرها ، وأن يبحثوا فى سطحها بعد تنظيفه هكذا ، عن ثقب صغير ، فاذا ما وجدوه أدلجوا فيه عصا رفيعة ليعرفوا من الانحراف الذى تأخذه الاتجاه الذى ينبغى لهم أن يسيروا فيه للبحث عن الجانى [٣] . »

من الواضح فى هذه الحالة كما هو الشأن فى الحالة السابقة أن الأهالى يعتبرون تلك الإشارة رداً من الميت على استجواب الأحياء له ، فلا شك أنهم جادون فى طلبهم لعلامة كاشفة : وإذا ظهرت هذه العلامة اعتقدوا أن الميت هو الذى تكلم .

وكذلك الحال عند الأهالى الذين راقبهم « دوسن » Dawson حيث يقول إذا لم تنجح قبيلة الميت فى اكتشاف القبيلة الجانية بطريقة من الطرق ، حاولت أن تحل المسأله بأن تضع جثته فى شجرة ، وأن تراقب أول دودة تسقط منها وتتبع الاتجاه الذى تزحف الدوده نحوه فوق الأرض التى يعنون بكنسها كنسا جيدا من تحت الشجرة ، لأنهم يعتقدون ان هذا هو الاتجاه الذى يوصل

---

(١) هـ. ا. ا. مير H. E. A. Meyer : The Encounter Bay tribe ويقتبس تالين فى كتابه : The native Tribes in South australia ص ٢٠٠ .

(٢) ا . و . هويت A. W. Howitt :
The native tribes of South East Australia ص ٤٤٨

(٣) المصدر نفسه ص ٤٥٨ .

إلى القبيلة الجانية . وإذا كان الميت قد دفن ، فإنهم يكنسون سطح القبر حتى يصير مصقولا ثم ينتظرون أول نملة تعبره ، لأنها تشير فى اعتقادهم إلى اتجاه القبيلة التى تسببت فى موت الفقيد [١] » فهل هذه النملة هى روح الميت الحديث أم انه هو الذى يوجهها فقط ؟ . من العسير أن نجيب عن هـــذا السؤال ، إذ ان استعمال كلمة « الروح an e » للتعبير عن تصورات البدائيين الجماعية ، من شأنه أن يوقع الباحثين فى إشكال محير يكفى لتضليلهم وبلبلة أفكارهم . لذلك نرى أنه لا يتحتم علينا فى الموضوع الذى نحن بصدده أن نختار أحـــد هذين الفرضين . ويكفينا أن نعرف أن النملة تقوم فى نظر الأهـالى بنفس الدور الذى تقوم به الدودة . ولا شك فى أن الدودة تشترك اشتراكا وثيقا مع الجسم الذى تسقط منه . ويعتبر الاتجاه الذى تتجه فيه جوابا عن السؤال الذى وجهه الاحياء إلى الميت الحديث نفسه .

وقد ينتظرون فى بعض الأحيان شهورا طوالا للحصول على هذا الجواب . « يظلون ينقلون الجسم من مخيم إلى مخيم خلال فترة طويلة قد تستغرق شهورا عديدة وذلك لكى يكشف الميت لأخيه أو لعمه أو لشخص آخر من أقاربه الذى «حكم عليه» (Doowed) وسبب له الموت . وإذا أصر على الصمت عمل أهله على اكتشاف الجانى بأنفسهم ، فيستخدمون لهذه الغاية خيطا مصنوعا من شعر الجثة : « ويشدون هذا الخيط فى وضع محاذ لفخذهم ثم يأخذون فى لفه ، وهم يذكرون بصوت عال أسماء الأشخاص الذين يرتابون فيهم . فالاسم الذى ينطقون به فى اللحظة التى ينقطع فيها الخيط هو اسم الجانى » [٢] وهـــذه الطريقة تعادل استجواب الفقيد ، إذ أننا نعرف أن العقلية البدائية تعتبر الجسم والرأس واللعاب وقلامات الأظافر والفضلات وبقايا الطعام أجزاء مكملة للشخص الذى تنسب اليه . فلا شك إذن أن هـــذا الخيط المصنوع من شعر

---

(١) ج. دوسن : Australian aborigines : J. Dawson ، ص ٦٨ .

(٢) و.ا. روث : North Queensland Ethnology ، مجلد ٩ عدد ٤ .

الميت « يساهم » فيه بقدر مساهمة الدودة الخارجة من الجسم تماما . وفى قبيلة مجاورة للسابقة (إقليم برسبان Bristare) يطلبون العلامة من عظام الميت[١] ، وفى خليج «مريتون» Bay Moreton ، فى داخل هذا الإقليم نفسه . يطلبونها من وطابه[٢] أما فى رأس «بدفورد» Bedford فيحصلون عليه بطريقة تختلف عن تلك بعض الشىء . إذ يأتى أخو الميت فى لحظة معينة أثناء الجنازة ويربط الجثة بمزود ربطا متينا ، ثم يضعه فوق رأسه ويستوى واقفا . وبعد ذلك يأخذ فى العدو بأقصى سرعة ، مسوقا بروح الميت . ويعتبرون أن المكان الذى يسقط فيه المزود على الأرض هو نفس المكان الذى « حكم » فيه على الضحية[٣] .

لم تدرس قبائل استراليا الغربية بقدر مادرست القبائل السابقة : ومع ذلك فقد لوحظت فيها ظواهر كتلك التى سبق ذكرها . فمثلا عند قبائل «الوتشاندى» Watchandies تنظف مساحة صغيرة من الأرض حول القبر وتنقى من الأعشاب والأحجار والحشائش وغيرها ، ثم تكنس بعناية حتى يصير سطحها مستويا تماما . وبعد ذلك يأتون لاختبارها كل صباح ، وذلك لكى يروا ما إذا كان قد مر بها كائن حى . ومن المؤكد أنهم سيكشفون فيها يوما من الأيام آثار حيوان ما (حتى لو كانت حشرة صغيرة كالجعران ، فانها تعد كافية فى هذه الحالة) ، ويعتقدون أن الاتجاه الذى أخذه هذا الحيوان يشير إلى موقع القبيلة التى ينتمى إليها الساحر[٤] ويروى المطران سلفادو Selvado : أنهم إذا لم يكتشفوا أسرة أو فردا معاديا للميت ، أخذوا قبضة من تراب وذروها فى الهواء ، وأوقدوا نارا وراقبوا اتجاه

---

(١) المرجع نفسه عدد ١٣ .

(٢) ج . د . لانغ Queensland : J. D. Lang ، ص ٣٦٠ — ٦١ (النص وارد فى رواية للاب ك . و . شمت K. W. Schmidt : من أعضاء البعثة الألمانية فى Noreton Bay

(٣) و . ا . روث . المصدر نفسه ، مجلد ٩ عدد ٥ .

(٤) ا . الدسفيلد A. Oldsfield :
Transactions Of The Ethnological Society فى The Aborigines of Australia
مجلد ٣ (١٨٦٥) ، ص ٢٦٤ .

الدخان المتصاعد منها . ثم يهرعون للانتقام لميتهم تبعا للجهة التى اتجه اليها التراب أو الدخان ... كذلك إذا رأوا فى أثناء حفرهم القبر أن بعض التراب يتساقط من إحدى الجهات قرروا أنها الجهة التى جاء منها «البجليا» Boglia (السحر)[1].
لعل هذه الملاحظة الأخيرة غير كاملة ، فأغلب الظن أن التراب والدخان اللذين يستعملهما الأهالى للحصول على « البجليا » ليسا ترابا ودخانا عاديين . بل لا بد أنهما يشتركان فى شخص الميت بطريقة ما ، وأن الميت هو الذى يجيب بوساطتهما عن السؤال الموجه[2]. وهكذا نرى أن أسرة الفقيد فى أغلب تلك الجماعات المتأخرة التى تعد الانتقام للميت واجبا قهريا ، تخاطبه ـ كما فى استراليا ـ وتستعمل طرقا مشابهة للطرق السابقة أو مماثلة لها للحصول على جوابه . ويمكننا إيراد الكثير من الشواهد التى تعضد هذا القول ولكننا سنقتصر على نماذج منها فقط بعضها مأخوذ من جماعات مجاورة لاستراليـــا والبعض الآخر مأخوذ من جماعات إفريقية .

فى مكلمبورج الجديدة Mecklembaurg « إذا مات شخص وارتاب ذووه فى أن يكون قد وقع ضحية لسحر ساحر ، فانهم يدعون روحه لتعرفهم بالقاتل[3] وهذه إحدى الطرق التى يستعملونها : يخلون بيت الميت إخلاء تاما ثم يقيمون حاجزا من الحصير ويدخلون من خلاله إلى هذا البيت ؛ طرف ساق من الغاب عاق به عظم خنزير . فتأتى جماعة من الرجال الذين يدعون لهذا الغرض ،

---

(١) ر . سلفادو Memoires historiques sur l'Australie ص ٣٣٢ ـ ٣

(٢) هذا على الأقل هو التصور الجماعى عند « دياك بورنيو » الذين يمارسون حرق الجثث.
« يعنى أقارب الميت بملاحظة النار والدخان اللذين يتصاعدان . فاذا تصاعد الدخان فى خط مستقيم اتخذوا من ذلك فألا حسناً بالنسبة لهم . وإذا صعد فى خط منحن (تحت تأثير الريح أو لأسباب أخرى) ، انصرفوا مقتنعين بأن « الأنتو » antu (الروح) لاتزال غير راضية ، وأن ذلك لن يلبث أن يؤدى إلى موت جديد » هيولو Hugh Low . Sarawak ، ص ٢٦٢ ـ ٣ .
مما لا ريب فيه أن الميت فى تفكيرهم هو الذى وجه الدخان وجهته

(٣) ب . ج . بيكل P. G. Peckel

Religion und Zauberie bai dem. Mittleren Neu Mecklemburg.

ويضعون هذه الساق فوق راحاتهم دون أن يقبضوا عليها . وحينئذ تنادى أسماء جميع الأهالى على التوالى . فإذا لم يكن اسم القاتل هو الذى ذكر تقدمت ساق الغاب ثم ارتدت . أما إذا ذكر اسم الجانى فانها تندفع إلى داخل المنزل، ويكون اندفاعها من القوة بحيث لا يستطيع الرجال أن يحتجزوها [١] . وهم يعتقدون أن روح الميت هى التى تختطفها علامة على الجواب المطلوب .

وليس سكان غينا الجديدة الألمانية باقل اهتماما من هؤلاء فى إصرارهم للانتقام من الجانى . « تسعى روح الميت نفسها إلى مساعدة ذويه فى الكشف عنه ، ولذلك طرق شتى : تنحصر أحداها فى استعمال الخداع لجعل روح الميت تبوح لأصدقائه اسم الساحر ... وذلك بأن تدل أهله على الطريق الذى يؤدى إلى قرية هذا الساحر ... وقد يعلقون دفا على عصا مغروسة فوق القبر . وهم يعتقدون أن الميت يأخذه ويذهب به ليـــلا إلى القرية وهو يقرعه وبهذه الوسيلة يكشف عن مسكنه [٢] »

وفى أفريقية الغربية يعمد الأهالى إلى استجواب الميت بطريق مباشر فى بعض الأحيان . فمثلا على ساحل غينا ، « يأتى بعض الرجال ويحملون الميت على اكتافهم بحضور القسيس ، ثم يسألونه « الم تمت بالعارض الفلانى أو العارض الفلانى ؟ فإذا كان الأمر كما قيل ، اضطر الأشخاص الذين يحملون الجثة أن يومئوا بإشارة من رءوسهم نحو الرجل الذى سأل ، ويعتبر ذلك جوابا إيجابيا من الميت أما إذا كان الأمر خلاف ما ذكروا فإنهم يظلون جامدين [٣] » وفى التوجو «تربط عصا فى يد الجثة ويطوف بها القسيسون شوارع المدينة كلها مرتين . والشخص الذى تدل عليه الجثة فى زعمهم ، هو الذى سبب الموت وعليه أن يخضع لتحكيم

---

(١) المصدر نفسه ، ص ١٣١ .

(٢) ر. نويهوس ، Deutsch Néu Guinea ، حـ ٣ ص ١٤٣ — ٤ (الـكاى Kai)

(٣) و . بسمان W. Bosman : Voyage de Guinée الخطاب الثالث عشر ، ص ٢٢٧ .

السم [1] » وتستعمل قبائل أخرى من التوجو « طريقة مختلفة بعض الشيء » « فهم يلجأون إلى « آكد » الوسائل » ، فيخاطبون الميت نفسه . ولهذا يجمعون خمسة رجال أو ستة من أقارب الميت الذين ينتسبون إلى نفس طوطمه ويمسك المستجوبون بعصا طولها حوالى متر او عشرين سنتمترا ، وينتحون بها جانبا . ويركع أحدهم على ركبتيه ويضع له الآخرون العصا فوق رأسه على أن يكون أحد طرفيها إلى الأمام والآخر إلى الخلف . وبعد ذاك ينهض واقفا . ومنذ تلك اللحظة يصبح رجلا غير عادى ، بل يقولون أنه صار الرجل الميت نفسه ، وحينئذ يأخذ أحد الشيوخ المستجوبين فى توجيه الأسئلة الضرورية إلى هذا الميت « ويجيب الميت » « بنعم » مع إمالة الرأس وأعلى الجسم إلى الامام و« بلا » مع إمالة الرأس إلى الخلف . ويقال حينئذ إنه يبتعد [2] . » وأخيراً فى سيراليون، حيثما يموت شخص . . . يوضع جسمه عادة ، قبل أن يحمل للدفن ، فى نعش مصنوع من قطع خشبية مرصوصة على شكل سلم وعلى طرفيه عارضتان من الخشب المسطح يسند عليهما الرأس والقدمان . ويرفع هذا النعش على رأس رجلين ويقف ثالث أمام الجثة ومعه قصبة معينة ، تسمى « كتوب «cattop ؛ وينحصر عمله فى استجواب الميت عن سبب موته . فيخطو أولا خطوة أو خطوتين إلى الامام نحو الجثة ، ويحرك القصبة من فوقه ، ثم يتقهقر فورا . وحينئذ يبدأ فى توجيه بعض الأسئلة إليه ، فإذا مادفعت الجثة الرجلين اللذين يحملانها نحو الرجل الثالث كان الجواب « نعم » وإذا اضطرتهما إلى القيام بحركة

---

(١) ا . بلين ، A. Plehn
Beiträge zur Volkerkunde des Togogebietes فى Mitteilungen des Seminars Für orientalishe Sprachen ج ٣ ، ص ٩٧
(٢) فرانتس فلف Franz Wolf
Beiträge zur Ethnographie der Fo - Niger in Togo فى Anthropos مجلد ٢٧ ص ٣٠٠ .

مامع بقائهما فى مكانهما ، كان الجواب لا[1] ، وهكذا يفرض الأهالى على ميتهم مثل هذا الاستجواب المنظم .

— ٣ —

يخشى عدد كبير من الجماعات المتأخرة الاحتكاك بالموتى ، إذ يعتقدون أنهم خطرون وميالون إلى الاعتداء ، إذا صح هذا التعبير : فيخشون أن يجروا معهم إلى حيث يقيمون بعض أعضاء الهيئة الاجتماعية الذين لازالوا أحياء . ولذا يؤدون إليهم الواجبات الالزامية ، بل يبكونهم باخلاص ؛ ولكنهم بالرغم من ذلك يرغبون فى إقصائهم ، أى فى قطع ضروب المشاركة التى لاتزال تصل بينهم وبين الأحياء بأسرع وأتم مايمكن . ويحدث ذلك على الأقل فى أثناء الفترة الأولى التى تلى الوفاة . وفى نظرهم أن إقامة الطقوس الجنائزية من شأنها أن تسارع بالجثة إلى التحلل الطبيعى ، وإذا ماتم هذا التحلل اعتقدوا أن الميت قد انفصل نهائيا من مجموعة الأحياء عن طريق الاحتفال الجنائزى الثانى الذى لاتزال تشاهد بعض آثاره على الأقل حتى أيامنا هذه . وقد شرح روبرت هرتس هذا النظام من الظواهر وحلله تحليلا جيداً[2]

ويسلك بعض البدائيين طريقا مغايرا لهذه الطريقة فيستمرون فى معاملة دائمة مع موتاهم ، المحدثين منهم والأقدمين . ولاشك أننا نجد لديهم نصيباً كبيراً من التصورات الجامعة والعواطف المركبة التى سبق لنا وصفها ، ولكنهم يعتقدون أنهم فى حاجة إلى موتاهم ، ويرون أنهم يستطيعون كسب عطفهم ،

---

(١) ت ونتربتم The winterbottom
An account of the hative African in the Neighbourhood of Siierra Leon جـ١ ص٢٣٦ — ٨ .

(٢) روبرت هرتس Robert Hertz :
La repésentation Collective de La mort فى Année Socialogigue مجلد ١٠ ص ٥٠ وما يليها .

لأن الموتى بدورهم لايستطيعون الاستغناء عن الأحياء . وهكذا يوجد بين الأحياء والأموات نوع من تبادل الخدمات يقوم على قاعدة «ساعدنى فأساعدك»، ذلك لأنهم وإن كانوا قد استقروا فى حالتهم الجديدة فانهم مازالوا أعضاء فى الهيئة الاجتماعية . لذلك تنتشر فى هذه الجماعات ممارسة العرافة عن طريق الأموات ولكن الأفراد يقصدون فقط من هذه العرافة أن يعرفوا من الأموات مالا يمكنهم معرفته بطريق آخر . بل قد يطلبون منهم أيضا بعض النصائح أوالتوجيهات أو الخدمات أو المساعدات من أى نوع كان ، فيحاولون أن يستشيروهم فى الحلم ، وعند انعدام الحلم يلجأون إلى طرائق أخرى . يقول الأستاذ برهام : « حضرت ذات يوم موت رجل عجوز ، فرأيت امرأة تدخل على المحتضر وتطلب اليه رغم أنه كان فى غيبوبة تامة[1] أن يقبل منها خاتما من نحاس . وصاحت ، وهى تقدمه اليه ، قائلة : « هاك ياجدى ! خذ هذا الخاتم وتذكر وأنت فى العالم الآخر أنى فقيرة جداً : أرسل إلى رقية اللارز لكى أحصل على حاصلات خير من تلك التى حصلت عليها ... » - « وحدث ذات مرة أن أقام أحد « الدياك » الذين أعرفهم نصبا جميلا من طراز غير معتاد فوق قبر أمه . ولم يمض على ذلك زمن وجيز حتى وقع فريسة للمرض ، فزعم بعض الناس أن مرضه كان بسبب ذلك العمل المقدس . فذهب إلى قبر أمه ونام عليه مقتنعا بأنها ستسارع إلى مساعدته . ولكن لم يأته أى شىء ، لارؤيا ولاصوت ولا علاج (تشير به أمه) : فخاب ظنه خيبة تامة . وقال لى : لقد صنعت لأمى استراحة جميلة ، وها أنذا أعانى وطأة المرض ، وأطلب منها العون ، فلا تعيرنى أقل التفات ؛ فيالها من جحود » وهناك أدلة أخرى على اعتقاد الأهالى فى إمكان تبادل الخدمات بين الموتى والأحياء . من ذلك أنهم يحتفظون أحيانا ببقايا الموتى ويحيطونها بشىء من الإجلال . فلا يمر أحد الأعياد حتى

---

(١) وحينئذ يرجح الأهالى أنه قد مات .

يقدموا القرابين من الطعام أو غيره وينتظرون أن يعرف الأموات لأحفادهم هذه المكارم فيجدون فى الاحسان إليهم[1] »

وعادة احتفاظ الأحياء بعظام الميت الجديد (ولا سيما جمجمته أو فكه الأسفل) وحملها معهم فى كل مكان ، عادة واسعة الانتشار ؛ ولكن يغلب على الظن أنها لا ترجع إلى أصل واحد فى كل مكان ، فهى هى بعض الحالات تدل على حاجة الأحياء إلى أن يشعروا بالوجود الحقيق لأعضاء الهيئة الاجتماعية لكى يطلبوا إليهم العون والنصيحة . وهذه هى الحال فى الجزائر الغربية من مضيق « توريس » Torrès : « كلما وقع الأهالى فى حيرة أخذوا جمجمة قريب لهم وجددوا طلاءها وغطوها بأوراق معطرة ، ثم راحوا يكلمونها ويطلبون إليها النصيحة . وعند النوم يضعون الجمجمة على حصيرهم بالقرب من رءوسهم . وإذا وقع لهم حلم حسبوا أن روح قريبهم الميت هى التى حدثتهم ونصحتهم بما ينبغى فعله : فلا يدهشنا ، مع وجود هذه المعتقدات ، أن نراهم يحرصون على الاحتفاظ بجماجم أقاربهم المتوفين[2] » .

يحتفظ بعض أهالى غنيا الجديدة الهولندية على هذا النحو أيضاً ببعض الجماجم التى يزينونها ويزخرفونها ويسمونها عندهم « كروار » (Korwars) . ويفترضون أن روح الميت تحل فيها ، ولا يهمل أحد « البابو » مطلقا أن يستشير ، فى كل مناسبة هامة ، روح (âme) الميت فى « الكروار » فيجلس أمامها ويعرض مشروعه عليها ويطلب منها مساعدته . فإذا حدثت علامة خاصة فى هذه الأثناء كأن تتحرك « الكروار » مثلا تحت تأثير سبب خارجى ، أخذ « البابو » هذه الحركة على أنها جواب بالإيجاب ، وراح ينفذ مشروعه بكل هدوء . ولذلك لا نستغرب منهم أن يستشيروا « الكروارات » على الدوام

---

(١) الأب ج . برهام ، وقد اقتبس ذلك عنه هـ . لنج روث The natives of Sarawak ج ١ ص ٢١١ .

(٢) ا . ك . هدن Head hunters , dlack , white & Brown ص ١٨٢ — ١٨٣ .

وحتى فى أتفه المواضيع . فمثلا وجد أحد « البابو » ذات يوم أن بيده ورماً لم يستطع تعليله : فأى شىء أقرب إلى الطبيعة من أن يستجوب « الكروار » فى ذلك ؟ وبدا له أن « الكروار » أجابت بعلامة ساخطة تشير بوضوح إلى أن نفس الميت غير راضية ، دون أن يعلم أى سبب لحنقها . وعندئذ أخذ يفكر ويسائل نفسه ، وتذكر فجأة أنه هجر أيم أخيه : فأسرع من فوره لاصلاح خطئه . ثم استشار « الكروار » من جديد . وفى هذه المره حصل على علامة الرضاء ، واقتنع تمام الاقتناع بأن الميت أصبح لا يحنق عليه[1] » .

والانتقال من هذه الاستشارات إلى العرافة أمر يسير . وفى هذه الحال لا يعمد الأهالى إلى استجواب جمجمة الميت شخصياً ، إذا جاز لنا هذا التعبير ، ولكنهم يعتقدون أن لها قدرة غيبية تجعل منها أداة صالحة لما نسميه بالعرافة . ولا بد من توافر بعض الشروط لكى يمكن استعمالها هذا الاستعمال : « حينما تزخرف الجمجمة بالشكل المطلوب وتستعمل كما ينبغى ، تصبح « زوجو » zogo عرافيا ناجحاً جداً . ويستخدمها الأهالى بوجه خاص لاكتشاف السارق أو الرجل الذى رمى آخر بالمرض عن طريق السحر . ولكن لا يمكن للاستشارة أن تنجح إلا إذا قام بها « البزامب » bazamb أو أحد أعضاء عشيرة « سمك القرش » الذين هم فى نفس الوقت أتباع طريقة « مالو » Malu فنرى كل الأشخاص الذين يشتركون فى هذا الصيد ، يعودون مبكرين فى المساء إلى بيت « الزوجو » ، فيأخذ أحد « الزوجو » القناع المطلوب ويلبسه وهو يتلو تعاويذ معينة . ثم يخرجون جميعاً من المنزل فى صحبة هذا الرجل الذى يحمل الجمجمة أمامه ، ويسيرون بخطوة خاصة إلى أن يسمعوا نوعاً من الجراد يسمى «كيتوتو» Kitoto . وحينئذ يتدفقون فى الاتجاه الذى جاء منه الصوت .

---

(١) ا . فنش Finsch : Neu Guinea und seine Bewohner ، ص ١٠٥–٦

إذ يعتقدون أن هذا النوع من الجراد يقود الناس نحو منزل الجانى دون أدنى ريب[1] » .

من ذلك نرى أن نجاح العملية يتوقف على طريقة استعمال الجمجمة ، وأن هذا الاستعمال مقصور على رجال عشيرة معينة وأتباع طريقة بعينها . فليست الجمجمة من الأدوات التى يمكن لكل شخص أن يستخدمها ، وقد يكون من الشروط التى يجب أن تراعى فى الجمجمة وجود ميت قوى فيها . وإذا لم يكن هذا الشرط موضوعاً لتصور صريح لديهم ، فقد يكون من الأمور التى يحسونها إحساساً قوياً .

ونعثر أيضاً على عادة استشارة الموتى فى جماعات أكثر تقدماً من تلك ، ولكنها تتخذ فيها أشكالا أخرى ، وتحدث غالباً عن طريق الحلم ، فيتوجه الناس مباشرة إلى الميت الذى يودون منه الاهتمام بمشروع ما دون الاستحواذ المادى على جسم الميت أو جمجمته لضمان حضوره . بل يستحضرونه بتقديم قربان إليه ، ويكلمونه كما لو كان معهم . وتحدث الحالات التى من هذا القبيل فى كل يوم . حتى أن الأشخاص الذين يشهدونها دون أن يشتركوا فيها لا يعيرونها التفاتاً لشدة الفهم لاستعمالها بأنفسهم فى مناسبات مشابهة . وذلك لأن تدخل الكائنات الخفية فى شئونهم يبدوا لهم أمراً طبيعياً بحتاً . ففى « الكمرون » يهب الشخص من أفراد قبائل « الجوند Jaunde من فراشه فى الليل المظلم ، إذا رأى أن أحد أقربائه الموتى جاء يبلغه رسالة هامة ، ثم اختفى بعد ذلك فى مملكة الأسلاف . ويرجع ذلك إلى اعتقاد الأهالى أن لغة ضارب الدف تصل إلى « التوتولان » Totolan (مملكة الموتى) ، ولذلك يتناول هذا الرجل دفه ، بل قد يصعد حتى يصل إلى دف القرية الكبير ، ويشرع فى الحديث مع الميت الذى ظهر له بضرب الدف . أما الآخرون فينامون

---

(١) المرجع نفسه ص ٩١ — ٢

ملء جفونهم ، لأنهم يعرفون أن الرسالة المرسلة بواسطة الدف ليست خاصة بالأحياء[١] » .

يعتقد كل شخص إذن أنه يجب عليه قبل الشروع فى شىء أن يتأكد أولا من أن الموتى الأقوياء من أعضاء مجموعته الاجتماعية راضون عن هذا الشىء . « إذا اعتزم رجل أن يذهب فى رحلة ما ، ذهب إلى رئيس القرية وأخبره بعزمه . فيقدم الرئيس قرباناً إلى روح سالفة . ويتكون هذا القربان من بعض الدقيق الذى يصبه الرئيس على رأس سريره ببطء شديد ، وقد يذهب من أجل ذلك إلى شرفة المنزل الذى كان يسكنه أخوه المتوفى ويتلو هذه الكلمات وهو يصب القربان : « جاءنى ابنى ، وسيذهب فى رحلة ، فأنر عينيه ، واسهر على سلامته فى أثناء رحلته ، واحرس هذا الإبن ، وليعد برأسه سليما ! أتوسل إليك أن تساعده على القيام بهذه الرحلة وأن تجعل النجاح حليفه فيها !

فإذا لم يكون الدقيق المصبوب مخروطاً دقيق الرأس ،كان ذلك فألا سيئاً ووجب تأجيل الرحيل . وحينئذ يلجأ صاحب الحاجة إلى المتنبىء أو العراف ليسأله عن السبب فى سوء الفأل . ومن المحتمل أن ينصحه العراف باستئناف الاختبار . فإذا تكون المخروط فى هذه المرة على الصورة المرجوة ، كان من الواضح أن الإله (أى الميت) لم يرد من الطالب فى المرة الأولى إلا أن ينتظر يوماً أو يومين قبل الرحيل ، ولاشك أنه لم يفعل ذلك إلا لسبب وجيه . أما إذا أصر المخروط على ألا يتكون ، فلا بد من الرجوع إلى العراف الذى يشرع فى العمل ليجد فى النهاية أن السبب فى هذا التعويق يرجع إلى أحد الأقرباء الموتى الخ[٢] . . . . » ولا يعتبر كل شىء قد انتهى بمجرد أن يتكون المخروط برأسه الجميل . إذ أن هذه العلامة الأولى غير كافية . فيلجأ الرئيس بعد ذلك

---

(١) نيكس Nekes : Trommelsprasche und Fernruf Beiden Jaunde und Duala فى Mitteilungen des Seminars fur orientalische Sprachen مجلد ١١ ، كراسة ٣ ص ٧٨

(٢) الأب ج ماكدونالد africana ، جا ص ٧٦ — ٧٧

إلى تغطية المخروط بإناء ويتركه ليلة كاملة . فإذا رأى فى منامه حلماً حول موضوع الرحلة ، كان لهذا الحلم فصل الخطاب . وإذا لم ير شيئاً ، ذهب لاختبار المخروط فى ساعة مبكرة من الصباح . فإذا وجد أنه قد أنهار من إحدى جهاته ، أو فقد سنه ، عد ذلك فألا سيئاً ورمى الدقيق فى البرارى . ومعنى هذا أن روح الميت عارضت الرحلة ، فيجب الاقلاع عنها ، واللجوء إلى العراف من جديد . ولكن إذا كان الدقيق قد احتفظ بشكله اعتبر ذلك فألا ميمونا : أى أن الإله قد قبل الهدية وأجاب الطلب ، فيسمح رئيس القرية للرجل بأن ينطلق موفور الثقة [1] » .

يقول الأستاذ ماكدونالد بعد ذلك بقليل بأنه يمكن استبدال الجعة بالدقيق واستعمالها على أنها قربان وأداة عرافة فى آن واحد : « إذا صبت الجعة على الأرض فكونت بقعة واحدة كما لو كانت الأرض رملية فتشربها فور نزولها ، عد ذلك علامة على أن الإله قد قبلها ، أما إذا انتشرت فى اتجاهات مختلفة ولم تتشربها الأرض فى مكان واحد كان الفال سيئاً [2] » . فصير القربان يحمل فى نفس الوقت جواب الرئيس الميت عن السؤال الذى وجه إليه .

ونرى فى هذه الحالة الخاصة أن صاحب الحاجة لا يستشير أحد أسلافه هو ، بل يذهب إلى رئيس القرية ويخبره بمشروعه ، فيتوجه الرئيس بدوره إلى سلفه المتوفى . وليس ذلك يرجع فقط إلى أن الرئيس المتوفى يعتبر حارساً قوياً يستطيع المسافر أن يحتاج إليه ، بل أيضاً إلى التضامن الوثيق الذى يربط بين أعضاء المجموعة الإجتماعية فيأبى عليهم ألا يبالوا بما قد يتعرض له أى واحد منهم . إذ قد يصادف المسافر كارثة ما ، فتجر على أسرته أو عشيرته أو قبيلته أفدح المسئوليات ، ولا يكون للهيئة الاجتماعية الحق فى أن تظل بمنجى منها . وبناء على ذلك لا يسمح لفرد أن يسافر فى رحلة دون أن يخبر بها الرئيس ، ودون أنه

---

(١) المرجع نفسه ، ص ٧٩ و ٨٠ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ٩٣ .

يكون الرئيس واثقاً من أنه يستطيع السفر بغير ضرر .

ويمكن الرئيس أن يستيقن من ذلك بوساطة عمليه نستطيع أن نسميها باسم القربان أو الاستشارة أو العرافة . فهي قربان : لأن الرئيس يقدم فيها طعاماً لقوة من قوى العالم الخفية ، أى لميت (الذى يسميه المبشر آلهاً) . وهي أيضاً استشاره : لأنه يلتمس فيها من الميت أن يخبر عما إذا كان يوافق على المشروع المزمع البدء فيه أم لا . ثم أنها ليست فى نهاية الأمر إلا إجراء عرافياً ، لأن الرجل سيعرف ما إذا كانت الرحلة موفقة ام لا ، وما إذا كان له أن يقوم بها أو ان يعدل عنها ، تبعاً للشكل الذى سيأخذه مخروط الدقيق وتبعاً لما إذا كان مدبباً أم غير مدبب . بل يجب ان نقول إنها صلاة ايضاً بالمعنى المعتاد لهذه الكلمة حين تقال عن البدائيين ، اعنى انهـا طلب للحماية والمساعدة فى مقابلة قربان يشعر الأهالى شعوراً غامضاً بأن له تأثيراً ما على القوة التى يصلون لها .

وفى غير هـذه الأقاليم عند قبائل « الـكافيرندو » Kavirondo فى إفريقية الشرقية الإنجليزية مثلا ، يقدم الأهالى القربان اولا ثم يجرون العملية العرافية بعد ذلك ، وإن كانت هذه العملية تقوم على القربان نفسه » . هناك علاج آخر ضد المرض ينحصر فى اقتناص حيوان صغير اسمه « الجلد » حياً . ويجتمع المريض واسرته امام باب العشة . ثم يأتى الشخص الذى اقتنص الحيوان فيمسك به من مخلبه ، وحينئذ يبصق عليه المريض اولا ثم هـذا الشخص ثم الآخرون ، كل منهم بدوره ، وهو يقول : يا اسلافنا ، ساعدونا واجعلوا هذا الجلد ينتزع المريض . إننا لا نملك خروفاً نقدمه إليكم ، ولكن اقبلوا هـذا الجلد الذى يعتبر خروف البرية (تسمى قبائل الكافيرندو « الجلد » بالخروف البرى مع انه لا يشبه الخروف فى شىء) . وبعد ذلك يوضع الجلد حياً فى ثقب ، ويوضع فوقه إناء مقلوب . فإذا حفر لنفسه طريقاً تحت الأرض فى اتجاه يبعده عن العشة برىء المريض ؛ وإذا كان فى اتجاه عكسى مات المريض : فقد اصم الأسلاف آذانهم عن الصلاة ! ولاشك ان هذه الكلمة الأخيرة خطيرة الدلالة ، لأنهـا تشير إلى ان هؤلاء الناس لا يطلبون من اسلافهم فقط ان يخبروهم بما سيتم فى هذه المسألة أو تلك ؛ بل يطلبون منهم ايضاً ان يمنحوهم النجاح فيها وأن يضمنوا لهم النجاح .

الفصل السابع

ضروب العرافة (بقية)

ليس من الممكن أن ينجح البدائى دائما فى الاتصال المباشر بقوى العالم الخفى . حقا ان فى قدرته أن يهىء لنفسه الظروف الملائمة لهذا الاتصال وأن يمارس ضروب الطقوس والرياضة التى تعينه على التماس الحلم والرؤيا . ولكنه بعد كل هذا لا يضمن الحصول على حلم ما ، وحتى إذا نجح فى الحصول عليه فقد لا يكون هو الحلم المرتجى . أما الاستجواب المباشر أو الحديث الشخصى فيفترضان بضرورة الحال أن تكون القوى الخفية المقصودة ممثلة كالأشخاص. ولكن قد لا يتأتى للبدائى فى عدد كبير من الحالات أن يستحضر أو يستجوب تلك القوى الخفية التى يشعر أنه محاط بها والتى تلزمه معرفة نواياها . لذلك لا بد له من الالتجاء إلى طرائق أخرى فى كثير من الأحيان .

ومن صور العرافة التى نعرفها معرفة لا بأس بها تلك الصورة التى تنحصر فى امتحان احشاء الضحايا ، ولا سيما الكبد . ففى « بورنيو » يلجأ « الدياك » فى معظم المناسبات الهامة إلى العرافة بواسطة كبد خنزير . فإن احتاجوا إلى شىء يخرج عن نطاق المعتاد طلبوه فى الخنزير . وإذا ظنوا أن بعض الاعداء يتربصون لهم فى كمين قريب منهم أو أحسوا أنهم مهددون بسوء الطالع أو المرض ، هرعوا إلى الخنزير يطلبون إليه الخبر اليقين . ونراهم يتوسلون إليه ألا يوقعهم فى الخطأ وألا يتوانى فى حمل رسالتهم إلى الكائن الأعلى ، بل قد يحاولون خداعه ويوهمونه بأنهم لن يقتلوه ولن يأكلوه ، ولكنهم لا ينتهون من كلامهم حتى يعجلوا بقتله مخافة أن يغير الرسالة إذا علم أنه سيقتل [1] .

---

(١) ا . ك . هدن Haddon : Head hunters , black , white & brown ، ص ٣٣٧ .

وترتسم أمامنا بوضوح صورة هذه العملية الإجمالية فى بساطتها . فليست المسألة إلا استشارة ما يسميه الأستاذ هــدن « بالـكائن الأعلى » ويعنى به ما نسميه نحن باسم أكثر إبهامامن ذلك ، وهو اسم « القوى الغيبية أو الخفية » وتنحصر هذهالاستشارةفى توجيه سؤال معين إلى تلكالقوى . ووظيفة الخنزير المضحى به أن يحمل إليها هذهالرسالة . فهو وسيط إلزامى بينهاوبين المستجوبين ما داموا يعجزون عن الاتصال المباشر بها . وهم يعتقدون أن الخنزير يتلقى السؤال فينقله إلى تلك القوى . أما الجواب فانها تنقشه على كبده . ويصف الأستاذ هدن بالتفصيل كيف يجرى « الدياك » هذه العملية فيقول : أحضروا إلى الشرفة خنزيرا حيا موثوق الأرجل . وأخذ « أبان ابيت » Aban Abit جمرة متقدة وكواه بها كيا خفيفا . وفى الوقت نفسه صلى للـكائن الأعلى ، وطلب من الخنزير أن يحمل الرسالة إلى الإله الذى صلى له لـكى يحيطهم علما بإرادته عن طريق كبد الخنزير . ولما انتهى « ابان ابيت » من كى الخنزير ، ثبت اصابع يده اليمنى على جنبه حتى يظل على صلة بالحيوان طول الوقت الذى يتكلم فيه . ثم راح ينقر نقرا خفيفا بأصابعه على جنبالخنزير حتى يسترعى انتباهه إلى ما يقول وبعـد ذلك غرسوا رمحا فى عنق الخنزير . وبمجرد أن كف عن الشخير شقوا جنبه ، وأخرجوا منه الـكبد بسرعة ومهارة ووضعوه فى طبق واجتمع حوله الشيوخ وشرعوا يتناقشون فى الفأل ، ويختبرون بإمعان حجم الـكبد وكل حلة من حلماته ومنظر المرارة وكمية الشحم ، إذ أن لـكل تفصيل من هذه التفاصيل دلالته[1] » .

فالعملية كما ترى مماثلة تمـام المماثلة للعملية التى تقـدم وصفها لدى سـكان أفريقيا الشرقية الانجليزية حيث يعمد المواطن إلى رئيس ميت ، فيطلب منه الحماية والنصيحة ثم يقرأ جوابه فى الشـكل الذى يأخـذه مخروط الدقيق . والخنزير هنـا يحل محل المخروط . ولـكن العناية التى يأخذونها لـكيلا يزيف

---

(١) المصدر نفسه ص ٣٣٦ .

الخنزير الجواب بسوء نيته ، والاحتياط لايقاظ التفاته أثناء الصلاة والتوسل إلى الإله فى أن يظهر إرادته بوساطة كبد الحيوان ، كل ذلك لا يدع مجالا للشك فى طبيعة العملية . فهى فأل مستشار يطلبون به الكشف عن أمر مستقبل ويطلبون فى الوقت نفسه أن يكون هذا الأمر خيرا . كما أنها ليست مجرد عملية آلية لأنها تشتمل على صلاة موجهة إلى القوى التى تتوقف عليها الحادثة . وإذا جاء الجواب على غير ما يشتهون ، فقد يوجهون السؤال من جديد ، ويكررون الصلاة ، كما قد يلجأون إلى استشارة فأل جديد إذا كان الفأل الذى حصلوا عليه سيئا . ففى « بورنيو » أيضا قطع النساء الكاهنات عنق الفروج ورحن يبحثن عن الفؤول فى الحال ، ثم ضحين بالديك وخصصنه لطعام الآلهة والبشر . ومن المعتاد أنهن إذا رأين أن الفؤول الناجمة عن قتل الفروج الاول سيئة ، فتلن غيره وغيره حتى تصير الفؤول حسنة [1] . »

وكانت أعمال العرافة بمعناها الحقيق من الأمور التى لا غنى عنها فى الجماعات البولينيزية أيضاً ، وهى أرقى حضارة من جماعات « بورينو » وذلك لأنهم يعتقدون أن نجاح المشاريع يتوقف توقفا تاما على قوى العالم الخفى ، فاذا لم تعلن هذه القوى عن إرادتها بوسيلة من الوسائل رأوا من الضرورى أن يعملوا على معرفتها وكسبها إلى جانبهم قبل أن يشرعوا فى أى عمل . ولنكتف بذكر مثل واحد من هذه الحوادث المعروفة جدا . فى «تاهيتى» Tahiti يعلقون دائما أهمية عظمى على إرادة الآلهة . فإذا كانت الآلهة راضية كان النصر محققا ، وإذا كانت غير راضية كان الاخفاق مؤكدا ، ومن ورائه الموت أيضاً . ويلجأ أهل « تاهيتى » لمعرفة إرادة الآلهة إلى العرافة أو إلى السحر ، ولا ينون يؤكدون فى مثل هذه المناسبات أنهم يثقون كل الثقة فى الآراء الآتية من أعلى ويتبعونها .. وكثيراً ما يقدرون نجاح الرحلة أو إخفاقها تبعا للتقلصات العضلية لقلب الحيوان المضحى به ، أو لحالة كبده أو تبعا للحركات غير الارادية التى تصدر عن

---

(١) ا . نيوفنويس ، Quer durch Borneo ، ج٢ ص ١٧٩

الضحية البشرية وهي تتلوى في سكرات الموت ، أو تبعا لمنظر الضحية المذبوحة بعد وضعها فوق المذبح [1] . فهنا أيضا تنحصر العرافة في استثارة يراد بها الكشف والتماس العون في آن واحد . والضحية هي التي تتوسط في نقل السؤال وإحضار الجواب .

وكتب الأب الكسس أرنو Alexis Arnouy في مجلة «Anthropos» وصفا مفصلا لأعمال العرافة المستعملة في «روندا» Ruanda (إفريقية الشرقية الألمانية) ويسمح لنا هـــذا الوصف بفهم التصورات الجماعية التي ينطوي عليها . فمثلا لا تنحصر وظيفة الضحية التي يقرأ العرافون أحشاءها في الوساطة فقط ، بل إن هذه الضحية تلعب في الوقت ذاته دور السبب . وهذا يقدم لنا دليلا قيما على صحة التأويل الذي اولنا به الفؤول المأخوذة من الطيور [2] ، يقول الأب ارنود إذا سجلنا الكلمات التي يوجهونها في بعض الحالات إلى الشيء الذي سيزودهم بمعرفة المكنون ، وعكفنا على قراءتها ، رأينا أنهم يعتقدون أن الثور أو الخروف الخ . يستطيعان بإرادتهما أن يغيرا باطنهما أو وجودهما بناء على طلب العراف . ويدل ذلك دلالة صريحة على اعتقادهم أن « الامانا » Imana (الإله) يسمح بهذا التغيير كما يشاء ، وان الضحيه التي يقدمونها قادرة على القيام بدور السبب المؤثر حقا في جلب السعادة إلى شخص ما . ولعل هذه الفكرة تعين لنا الصورة التي يجب أن تفهم عليها مثل التوسلات الآتية : «أوب إمانا . أوب إمانا [3] ub Emana . أنت الإله ، فلتكن إذن الإله الذي يشفي » (إمانا تمثل هنا ما نسميه نحن بالقوى الخفية) . وبعد أن ينتهوا من هذا الدعاء يوجهون صلاة خاصة إلى الكائن الذي سيضحى به والذي يتوقف عليه ، إلى حد ما على الأقل ، يمن الجواب المرجو أو شؤمه ... فيمسك العراف أول فروج بيده اليمنى ، ويضع قليلا من الماء في

---

(١) الأب و . اليس Polynesian researches ج ١ ص ٣٠٣

(٢) انظر ما تقدم في الفصل الرابع ، ص ١٣٤ — ١٤١ .

(٣) الأب الكسس أرنود La divination au Rounda في Onthropos، المجلدان ١٢ ، ١٣ ص ١٠

فمه هو ثم يدفع به فى منقار الفروج ، وهذا الماء المختلط باللعاب هو « الأمبوتو » Imboto (من المتفق عليه فى معظم الأوساط التى تباشر العرافة أنه يجب إيصال شيء من لعاب الطالب إلى الكائن الذى سيدلى بالجواب ، ولكى يضمن العراف الحصول على طوالع سعيدة يجب عليه أن يتكلم بصوت خافت جدا فى أذن الفروج اليمنى ، حتى يغير الفروج حالة « أحشائه قبل تشريحة ، إذا كانت غير ملائمة ، فيجعلها « بيضاء » أى ميمونة الطالع » . بعد ذلك يذكر الأب أرنود نص الصلاة ؛ وهو نص طويل جدا ، ثم يحدد المنظر الذى ينبغى أن تتسم به الأحشاء لترضى طالب الاستشارة [1] وتتبع هذه الطريقة نفسها بالنسبة للاستشارة عن طريق أحشاء الكبش [2] أما إذا كانت العرافة خاصة بالملك فانهم يجرونها بوساطة التضحية بثور فينقاد الثور ، ويقف على أقدامه ، ثم يشرع « الموكنجورى mukongori (عراف خاص) فى تأنيبه ، ويتكلم فى اذنه بصوت خافت ، بينما يربت على رأسه « باكنجريون » آخرون (جمع موكنجورى) ليرهفوا التفاته ، كما يمسك آخر بقرنيه ، ثم توجه اليه صلاة طويلة يكثر فيها الكلام عن المنظر الذى ينبغى أن تكون عليه أحشاؤه ، مثل قوله : ضع مرارة الصفراء إلى اليمين ، الخ . وبعد أن ينتهى الموكنجورى من الكلام فى اذن الثور [3] على هذا النحو ، يأمر الحاضرين بأن يطرحوا الثور ويقتلوه .

وإذا أجروا العرافة بواسطة قطع العظام جعلوا نفس الدور الفعال الذى يجعلونه للضحايا . فهى لا تعلن النتيجة فحسب بل تسببها أيضا . «فى نهاية المرحلة الثالثة ينثر الساحر العظام « نزوزى » nzuzi ويقول : انها تسمع جيدا وتجيب كما يجيب البشر .. الخ . ويفسر الأب أرنود هذا الكلام بقوله فى إحدى ملاحظاته « إن الأهالى يعتقدون أن النزورى تستمع جيدا وتجيب على أسئلتهم ويقرر العراف بقدر ما يسمح له علمه اللدنى بأنها تجيب إجابة صحيحة وأنها تطيع كما

---

(١) المصدر نفسه ص ٣٠ — ٣٣ .
(٢) المصدر نفسه ص ٣٦ .
(٣) المصدر نفسه ص ٣٩ — ٤٣ .

يطيع البشر . » فينحصر دور العراف إذن فى أن يستعين بمعارفه فى استطلاع الحالة التى تكشف عنها الزوزى [1]

وإذا استعملت كريات الزبد فى العرافة ، وجهت إليها أيضا صلاة مماثلة للسابقة . فيتناول العراف فى يده أربع كريات من زبد الأمس على الأكثر ، ويوجه إليها هذه التعويذة القصيرة «أنصت أيها الزبد ، إنك جميل ، فابيض كن أبيض نقيا ، كن ناصع البياض (أى سعيد الطالع) . . لقد حفظتك من النمل فاحفظنى من العدو . . » الخ . ويضيف الأب أرنود فى إحدى ملاحظاته قوله « يفترضون دائما أن الزبد ينصت إلى توسلات الطالبين . ويعدل منظره بحسب الطلب . » [2]

وإذا كانت نتيجة العمل العرافى مرضية ، استخدم الشىء الذى « جلب الطوالع » فى عمل تمائم ذات قيمة كبيرة . وهذا برهان جديد على ما يعروه الأهالى إلى هذا الشىء من سببية فعالة . فيعتقدون أنه يحتفظ دائما بتأثيره الصالح . ولذا يحاولون أن يفوزوا بنفعه . ويقول الأب أرنود فى هذا الصدد « يقبلون على عمل تمائم من الزبد الذى تبينوا خيره . . . ويضعون تحت وسائدهم تلك الكريات الصغيرة المصنوعة من شحم الحيوان والتى أتت لهم بحسن الطالع وقد يضعونها فى وعاء صغير ، أنها تضمن السلام للمنزل الذى تحل فيه . وأحيانا يصنعون منها أحجبة ليحملوها حين يضحون لأرواح الموتى . ويأخذون أيضا من الفروج الذى أتى بجواب حميد تمائم عظيمة القيمة . . . » وأخيرا يصنعون تمائم من الخراف الميمونة « ويصنعونها بوجه خاص من عظام حوافرها [3] » ، ويعلقون كل هذه التمائم حول أعناقهم أما فى حالة الثور الذى يضحى به لعرافة الملك الخاصة ، فانهم يجمعون كل عظامه من جميع النواحى ، ماعدا عظام

---

(١) نفس المصدر ص ١٨

(٢) المصدر نفسه ص ٥١ .

(٣) المصدر نفسه ص ٢٨ ، ٣٥ ، ٣٧ .

الأقدام التي يستخدم بعضها في التمائم . أما جلده فقد يحرقونه في بعض الأحيان، ولكنهم في الغالب الكثير يدبغونه لكي يفرش بعد دبغه على سرير الملك ، ولتصنع منه الدفوف الخاصة بالعاصمة ، أو ليقدم إلى إحدى الوصيفات حين يراد مكافأتها مكافأة سامية » . ومهما كانت جهة استعمال هذا الجلد ، فانه يجب الاحتفاظ بقطعه البالية ، سواء أكانت مأخوذة من أديم دف أو من ثوب امرأة ، لأنهم يعتبرونها من خير التمائم وأفضلها . »[1] .

تساعدنا كل هذه الممارسات على أن نفهم كيفية تصور العقلية البدائية للتأثير السببي الذي تنطوي عليه العرافة . فهي لا تجد أية صعوبة في الاعتقاد بأن الفروج والخروف والثور ، بل الزبد والعظام أيضا تستطيع أن تغير ترتيب أجزائها على الفور . أما كيف يحدث ذلك وكيف يمكن أن يكون أو كيف يتصور ، فهذه أسئلة لا ترد بخاطرها قط . فهي لذلك في غير حاجة إلى أن تبحث لها عن جواب . إذا أنها تجهل جبرية الظواهر الطبيعية أو الفسيولوجية جهلا تاما ؛ ولا توجه أي التفات إلى انتظام السوابق واللواحق في سلسلة الأسباب الطبيعية . والسبب الغيبي في نظرها يتحكم تحكما مطلقا فيما نسميه نحن بالظواهر ، اللهم إلا أن يصطدم بقوة غيبية أخرى . ويستطيع هـــذا السبب أن يغير الظواهر ، إذا أراد استجابة لرغبة من يستجوبه .

وعند البنتو « في إفريقية الجنوبية » تلعب قطع العظام دورا هاما ؛ فاذا أحزبهم أمر هام ، لم يجرؤا على البت فيه قبل أن يستشيروا العظام السحرية التي يجب أن تكشف لهم عن الطريق الذي يجب اتباعه . ويلجأ إليها الرؤساء في كل الملمات . فاذا أعوزهم المطر أو هددتهم كارثة ، أو إذا نزل إقليمهم بعض الأجانب او عن لهم ان يقوموا بحملة حربية ، فما عليهم إلا ان ينادوا ضارب العظام الخاص بهم وهو دائما هنالك رهن إشارتهم والحقيقة انه مستشارهم

---

(١) المصدر نفسه ص ٤٥

الرئيسى .[١] » ويورد المبشرون الألمان هذه الشهادة عينها ، فيقول الأستاذ ميرنسكى marensky «لاغنى للساحر البسوتو عن العظام ... فكثير من الأمور التى نشاهدها عندهم لا يمكن تفسيرها إلا بخضوعهم لهذا المصدر العرافى ، وذلك كأن يغير الرئيس آراءه او مسلكه فجأة دون سبب ظاهر ، أو أن يسلكوا فى وقت الحرب خطة بينة الفشل ، أو أن يتركوا فرصة للإضرار بالعدو دون أن يستفيدوا منها . كما تلعب هذه العظام دورا عظيما حين يريد أحد الرؤساء أن يعرف ما إذا كان من الخير أن يستقبل أحد المبشرين أو أن يطرده : وما إذا كان يسمح لسائح بدخول أرضه أم يأمره بالرجوع من حيث أتى [٢]» . والأفراد العاديون كالرؤساء فى ذلك تماما . ويسارع الواحد منهم بالذهاب لضرب العظام كلما رغب فى أن يقوم برحلة ، أو اراد الحصول على بعض التوجيهات فى حالة مرض ، او رغب فى معرفة السبب الذى مات من أجله أحد ذويه .[٣] »

وقد أورد لنا الأستاذ جونود عرضا واضحا لمبادىء هذا الفن العرافى وقواعده ، وذكر أنه يسمح بالإجابة على الأسئلة بجميع أنواعها . ووصفه بأنه على درجة عظيمة من الإغراء . فيقول : «يأخذ العراف أو طالب الاستشارة مابين ٢٥ ، ٣٠ قطعة من العظم فى كلتا يديه ويجيلها ويحكها بعضها ببعض ، ثم يقذف بها أمامه فى حركة مباغتة . ولكل عظم من هذه العظام دلالته الأساسية ؛ ولكن هذه الدلالة تتغير تبعاً للطريقة التى تتفرق بها القطع فوق الأرض إذ يجب أن يحسب حساب الوجه الذى تقع عليه العظام والاتجاه الذى تتطلع نحوه والوضع الذى تتخذه بعضها بالنسبة لبعض[٤] . » فيمكننا أن نتصور إلى

---

(١) هـ.ا. جونود Junod: L'art divinatoire chez Les Ronga de La baie de Delago فى Bulletion de La Societé de Geographie de Neuchâtel مجلد ٩ (١٨٩٧) ص ٥٧

(٢) هـ.ا. ميرنسكى Africa Erinnerungen aus dem Missions leben S.O. ص ٤٢ — ٣ .

(٣) هـ . ا . جونود المصدر نفسه ص ٥٧ .

(٤) المصدر نفسه ص ٦٠ .

أى حد يمكن أن يصل عدد التراكيب الممكنة لهذه العظام إذا دخلت كل هذه العناصر فى الحساب . »

هذا وإذا لم يحصل المرء على الجواب المطلوب من أول مرة ، استأنف اللعب حتى يحصل عليه ، فقد يكون هناك « تقابل » بين الصورة التى تسقط بها العظام وبين الحالة التى بعثت على الاستشارة . فمثلا إذا كان الأمر يتعلق بشخص مريض ، فقد يسقط العظم الذى يمثل هذا الشخص فى الوضع السالب . وحينئذ يعتبر أن « الجواب » قد صدر . وإذا لم تظهر أية مقابلة ، رميت العظام من جديد مرة أو مرتين أو عشر مرات . فاذا لم ترد ن تتكلم فى العشة فقد ينتقل العراف بها إلى الميدان أو فى البرية أو خلف العشة إلى أن يحصل على جواب واضح [1] . »

لاشك أنه يستحيل علينا تفسير هذا الإصرار تفسيرا مقنعا ، إذا فرضنا أن هؤلاء الناس لا يرجون إلا معرفة المستقبل ، والواقع أن عمل العظام لا ينحصر فى الكشف عما سيحدث . « تعتقد قبائل « التنجا » Thanga أن العظام تنبئهم بما يفكر فيه آلهتهم وماتريده ، (الآلهة معناها هنا : الأسلاف) . ومعرفة نوايا الآلهة وأعمالها من اهم الأمور عندهم ، إذ عليها يتوقف وجود القرية والعشيرة كلها ، كما تتوقف عليها سعادة كل فرد فى العشيرة . فهى سادة كل شىء : سادة الأرض والحقول والأشجار والمطر والرجال والأطفال بل سادة « البلوىى » baloyi (السحرة) أيضا ، ولها السلطان المطلق على كل هذه الأشياء وكل هؤلاء الأشخاص . ويمكن للآلهة أن تجعل أحفادها سعداء ، كما يمكنها أيضا أن تجعلهم أشقياء وأن تبلوهم بما لا يحصى من الملمات كالجفاف والعقم والمرض الخ ، (وكلمة الأحفاد تبرهن جيدا على أن المارد هم الأسلاف) . ومن هنا نفهم دون مشقة قيمة الالتجاء الملح إلى الآلهه ، فاستشارتها تعادل الحلم الذى يكشف فيه الأسلاف

---

(١) هـ . ا . جونود The life of a South african tribe جـ٢ ص ٥٠٢

عن عواطفهم وعن إرادتهم . ولذلك يحتفظ كل شخص بالعظام تحت متناول يده وإذا كان لا يستطيع أن يستشيرها بنفسه ، فليس من العسير عليه أن يجد عرافا مجربا يقوم له بهذا العمل . فإذا حار أحد الأهالى فى حل مشكلة لم يحتج أن يقول « سأحلم بها » كما قال الرئيس الذى حدثنا عنه المبشر مكدونالد . إذ ما عليه إلا أن يستدعى ضارب العظام ليعرف منه ما تشير به الأسلاف . نرى من ذلك أن ضروب الكشف التى تصدر عن العظام وأعمال العرافة على العموم هى الوسيلة الوحيدة التى فى متناول البدائيين لتوسيع تجاربهم ، ذلك النوع من التجارب الذى لا يستطيعون أن يقدّروا ولا أن يتصوروا سواه . وهى تجارب ضرورية لهم ، لأنهم بدونها لا يعرفون ماذا يفعلون فى غالب الأحيان ، كما أنها تكفيهم مادامت تكشف لهم بصورة أكيدة عما صممت عليه القوى الخفية ، أو عما تريد منهم أن يعملوه . فالعظام « تتكلم » وما عليهم إلا أن يتلقوا كلامها وهذا هو ما يشغل أذهان الأهالى دون انقطاع . يقول الأستاذ جونود :

« تقضى هذه الممارسات على كل محاولة جـــدية لاستعمال العقل او التجارب الحقيقية فى الحياة العملية . فقد كان من الممكن مثلا للمطببين الوطنيين أن يصلوا إلى معرفة مفيدة بالخصائص الطبية للنباتات ، لو أنهم درسوها بطريقة نافعة . ولكن ماجدوى الدراسة ومشقتها إذا كان إلقاء العظام فوق الأرض يكفى لأن يكشف لهم فى الحال عن جذر النبات الذى يجب تعاطيه لشفاء المريض [1] ؟

وقد يعرف الأهالى بالتجارب خصائص هذا النبات أو ذاك ، لكن هذه المعرفة لا توحى اليهم بأن يحاولوا معرفة الخصائص التى لنبات آخر مألوف لديهم . فهذه الخصائص فى نظرهم لا تستقر على حال ، لأن النتائج الناجمة عنها تتوقف على القوى الخفية اكثر مما تتوقف على تأثيرها الذاتى . وهذا هو السر فى وجوب الرجوع إلى العظام فى كل حال ، لأن العظام هى التى تنبىء بالخبر اليقين . يقول أحد مبشرى « الترنسفال » . قابلت ذات يوم فى إحدى القرى بضعة

---

(١) المصدر نفسه ج ٢ ، ص ٢٢٥

رجال مشغولين بإلقاء قطع العظام على حصير منشـــور فوق الأرض. فلفت أنظارهم إلى أن نتيجة هذا العمل رهن بالمصادفة ، وأنه من الخير لهم ان يعدلوا عن تلك العادة . فأجابنى احدهم بقوله : «لكن هذا هو كتابنا ، ولا كتاب لنـا ســـواه ، أنت تقرأ كل يوم فى كتابك ، لأنك تعتقد فيه . ونحن نفعل نفس الشيء لأننا نؤمن بكتابنا(1) . »

هذا جواب ملفت للنظر ويذكرنا بعبارة مبشر فرنسا الجديد اليسوعى الذى يقول إن الأحلام إنجيل الهنود الغربيين. فالعقلية البدائية لا تعرف شيئاً يسمى الصدفة . وما نسميه نحن بالحدث الإعتباطى يعد فى نظرها على العكس من ذلك مشحونا بدلالة غيبية . فمن الخطأ إذن أن ننظر إلى طرق العظام على أنه مشغلة جديرة بالملام أو ضرب من العبث أو حتى على أنه مشغلة لا تضر ولا تنفع . إذ ليس فى ذهن البدائى ما هو أحق منه باشتغاله والاستئثار باهتمامهم بطريقة جديه . أيمكن للمبشر مثلا أن ينفق وقته فيما هو خير من الاتصال بالله ؟ إن الآلهة تكلمه فى إنجيله (الكتاب عند الأهالى شىء له طابع سحرى بين) وكذلك حال الأسلاف ، فانهم يكلمون الأهالى عن طريق العظام أو بالأحرى إذا كان الإنجيل يتكلم فان العظام تتكلم أيضا ، فليس من العدل إذن أن ننظر إلى الذين يستشيرونها على أنهم يمارسون فنا لا معنى له ، أو يقومون بضرب من ضروب التسلية الصبيانيه ، وإنما معنى ذلك فى نظرهم أنهم أوتوا من الحكمة ما يمنعهم من المخاطرة بشىء دون اعتراف الأسلاف بصلاحه لهم .

— ٢ —

ليست معرفة القوة التى توجه إليها الأسئلة أو المساعدة التى ينبغى استدعاؤها فى غير إفريقية الجنوبية من الأماكن بالسهولة التى رأيناها فى هذا الإقليم . ومع ذلك فان معنى الأعمال العرافية يظل واحدا ، كما أن الأعمال التى أصبح

---

(1) ا. توماس E. Thomas : Le Bokaka فى Bulletin de La Société de Géog de Neuchâtel ، مجلد ٨ (١٨٩٥) ص ١٦٢ .

تفسيرها أمرا موثوقا به تسمح لنا بتغيير الأعمال الأخرى التى ظلت حتى الآن لغزا عسير الحل . هذا إلى أننا نستطيع الآن أن نرى طريق الانتقال واضحا بين هذه وتلك .

لننظر مثلا إلى طرق العرافة التى تستعمل يوميا لدى « البابو » فى غنيا الجديدة الألمانية . يقول أحد الباحثين : « الفرد من أفراد « الكاى » Kai يستشير الطالع قبل أن يدخل فى أرض العدو ، ويهرع إليه حين يشتم أى خطر ، ولا يتأكد خوفه أو يطمئن قلبه إلا تبعا لنتيجة الاستشارة . وإذا أراد أفراد الكاى أن يعرفوا ما إذا كانوا مهددين بهجوم على غرة ، أخذ واحد منهم جذر نبات معين ، وتلا عليه تعويذة سحرية ثم ثناه فإن انكسر ، لم يكن هناك خطر قريب ، وإن بقى سليما كان عليهم أن يحتاطوا ، وقد يطبخون بعض ثمار الحقل فى إناء تليت عليه بعض التعاويذ السحرية ، ثم يراقبون الماء ، فالجهة التى يرتفع فيها أولا عند غليانه هى الجهة التى يتهددهم منها الخطر . ومن عاداتهم أنهم قبل أن يدخلوا فى حرب ما يضعون جميع الأسلحة التى سيستعملونها فيها على نصب يقيمونه بسرعة ، ويضعون فى قمته قوقعة حرب مع تميمة من تمائم الحرب أيضاً ، ثم يهزون النصب حتى تسقط القوقعة فوق الأرض ، فإذا كان سقوطها فى اتجاه قرية الأعداء كان ذلك علامة ميمونة على نتيجة الحملة التى يشرعون فيها . وقبل أن يسير المحاربون فى طريقهم يقتلعون شجرة من الأرض بالاشتراك بينهم . فإذا واتتهم الفرصة فاخرجوها من الأرض بكل جذورها سليمة ، كان ذلك علامة على نجاح الهجوم . وهذه طريقة عرافية أخرى تستخدم فى أنواع مختلفة من الظروف : يأخذون عصا ويربطون بها قبضة من العشب . ثم يمسك بها رجلان ، وبعد ذلك يأخذون جميعا فى تحريكها بعنف يمينا وشمالا : فإذا انفصل العشب عنها كان ذلك فألا حسنا ، وإذا ظل لاصقا بها كان علامة سيئة . وإذا أرادوا معرفة ما إذا كان يجوز للمريض أن يؤمل فى الشفاء أم لا ... تلوا تعويذة سحرية على قطعة من لحاء الشجر ومرروها على ظهر المريض . فإن صادفها عسر فى الانزلاق كما لو كانت تلتصق بجسمه : كان عليهم أن يتوقعوا

شر النتائج ، الخ [١] » وفى قبيلة مجاورة ، وهى قبيلة « الجابيم » إذا أراد الأهالى أن يقوموا بحمله حاولوا أن يتأكدوا من نتيجتها بواسطة استشارة غيبية . فيتلون بعض التعاويذ على بصلة معينة ويضعونها فوق النار فى إناء مملوء بالماء مع بعض أوراق الشجر ، ثم يحيطون بالإناء ليراقبوا اللحظة التى يرتفع فيها الماء . وقبل الغلى يخطون على فتحة الاناء خطا أحمر يقسم الإناء إلى قسمين متساويين. فيجعلون قسما منها باسم القبيلة المعاديه وقسما باسم قبيلتهم نفسها . وبعد ذلك يراقبون الماء حين يأخذ فى الازياد ثم فى الغليان فإذا ارتفع الزبد من جهتهم وفاض على جهة العدو دفعة واحدة حتى غطاها بصورة ما ، كان ذلك فألا حسنا وإذا حدث العكس أو فاض من الجهتين بالتساوى بقوا فى بيوتهم [٢] ، وكذا الحال عند قبائل «البوكاوا» Bukaua فى الأقليم نفسه من غينيا الجديدة الألمانية . فهناك يحاول الجيش المحارب أن يعرف قبل سيره ما إذا كانت الظروف ملائمة للقيام بالهجوم أم لا . فيشعلون نارا فى وسط ميدان القرية ، ويضعون فوقها إناء مملوء بالماء وبعض النباتات الحريفة والمرة . وحين يبدأ الماء فى الغليان تصطف جماعة المحاربين على أحد جانبى الإناء ليرقبوا زبده حين يفيض . فإذا فاض من جهتهم عدوا ذلك علامة على أن الأعداء محتاطون . وعدلوا عن الحملة ... وإذا حدث العكس اطمأن المحاربون وشربوا من هذا السائل الذى يعتقدون أنه يبعث فيهم الشجاعه [٣] » .

سجل المبشرون أيضاً عدداً كبيراً من أعمال العرافة الأخرى ، وكلها مطبوعة بالطابع السحرى . فهى تبدأ دائما بتلاوة تعويذة سحرية على الكائن أو الشيء المستعمل مهما كان نوعه . وهذا شرط مبدئى لا يمكن للعملية أن تؤدى إلى نتيجة ذات قيمة بدونه . فتنحصر الخطوة الأولى اذن فى الاتصال

(١) و . نويهاوس Deu'sch Neu Guinea ، جـ ٣ ، ص ١٣٢ — ٣٣

(٢) المصدر نفسه ، جـ ٣ ، ص ٣١٧ .

(٣) المصدر نفسه ، جـ ٣ ص ٧٤٤ .

بعـالم القوى الخفية الذى يتوقف عليـه نجاح العملية العرافية ونجاح المشروع الذى هو موضوع هذه العملية أيضا ، ولذلك لا يميز الأهالى كلا من المسألتين عن الأخرى. وبهذا الاتصال يدخلون فى حرم « العالم القدسى » ؛ وحينئذ فقط يمكنهم توجيه السؤال الذى يشغلهم، وأن يأملوا فى تلقى جوابه . ويجب أن يلاحظوا فى صياغه الأسئلة التى يوجهونها إلى القوى الخفية أن يكون جوابها عنها بنعم أو لا على وجه العموم ، أى باختيار أحد فرعى مخايره : مثل انكسار الجذر المثنى أو بقائه سليما ، وفيضان الماء الذى يغلى فى هذه الجهة أو فى الجهة المقابلة لهـا ، وسقوط قبضة العشب أو بقاؤها مربوطة بالعصا . ألخ . ومزية الاجابة التى من هذا القبيل أنها تستبعد كل إبهام إذ انهـا لا تدع مجالا للشك فى أن القوة الخفية التى سألوها ستجيب ، وفى أن جوابها سيكون واضحا . فهى كالمحصورة بين أمرين ولا محيص لهـا من الانحياز إلى أحـدهما . وقد يتساءل المرء عما إذا كانوا لا يخشون إغضابها بقسرها على هذا النحو . والواقـع انه لا يبدو أن سكان غينا الجديدة أو غيرهم من البدائيين يحسون بذلك قط ، لأن القوى التى نحن بصددها ليس لها فى غالب الأحيان أية شخصية محددة فى فى تصوراتهم الجماعية . فلديهم عن وجود قدرة ما فكرة وإحساس مختلطان معا ، ولكنهم لا يتصورون مكانها بالضبط ؛ هذا إلى أنهم يعتقدون أن الطقس السحرى الذى يفتتحون به العملية من شأنه أن يجعل التعامل مع هذه القوى المخوفة أمرا مشروعا خاليا من كل أذى حتى لو كانت تتكون من أشخاص حقيقيين كالموتى مثـلا (إذ يشعر « البابو » فى غينا الجديدة أنهم فى علاقات دائمـة مع الأموات ، وإن كان المبشرون لا يصرحون لنا بأن الأسئلة التى يلقيها الأهالى فى أثناء العمليات العرافية موجهة إليهـا) ، بل إن الاهالى يعتقدون أن لهذا الطقس تأثيرا أبعد من ذلك . فيؤمنون بأنه يؤثر على هذه القوى بحيث يجعلها لا تستطيع الافلات من الاستجواب ويجعل النتيجة النـاجمة تدل عـلى الجواب المطلوب .

لا يمكن لهذا الوصف الذى رويناه لطرق العرافة ، مهما تحرينا فى دقته ،

أن يكشف عن معناها الكامل إذ انه بضرورة الحال يهمل بعض العناصر الجوهرية التى ترجع إلى تركيب العقلية البدائية الخاص بها . فهذه العقلية تشعر بوجود مشاركة داخلية ، حيث لا نرى نحن الا علاقات رمزية . ولا يمكننا أن نترجم هذه المشاركة بتفكيرنا ولا بلغاتنا ، لأن تفكيرنا ولغاتنا معتادان على التصور العقلى التجريدى بخلاف تفكير البدائيين ولغاتهم . ولعل خير عبارة يستطاع التعبير بها عن المشاركة فى هذه المناسبة هى « أنها وحدة الجوهر المؤقته » ، ولعل من خير الأمثلة التى توضح لنا ذلك تلك الطريقة المشتركة بين عدد كبير من قبائل غينا الجديدة الألمانية ، وهى معرفة الجهة التى يفيض منها الماء عندما يغلى فى إناء به بعض الأعشاب السحرية . فإذا قلنا فى هذه الحال إن الجهة اليمنى من الاناء « تمثل » الاعداء واليسرى تمثل الأهالى الذين يجرون الاختبار لم نكن دقيقين فى تعبيرنا . وذلك لأن أفراد « البابو » يوحدون ذاتهم بناحية من ناحيتى الاناء وذات اعدائهم بناحيته الاخرى ؛ ويفعلون هـذا بصورة لا يمكن أن تكون موضوعا للفهم ؛ كما لا يمكن التعبير عنها بوساطة اللغة ، وإن كان كل ذلك الخلط لا يمنع من كونها حقيقة واقعة . ويقول المبشر فى وصفه للعملية بأن هذه الجهة تنتمى gehörig إليهم أى انها منهم كما « تنتمى » إليهم أيديهم وأعضاؤهم ورءوسهم وأسماؤهم ، فهى ليست ملكا لهم فحسب بل هى هم أنفسهم ولذلك يحسون أنهم هم بذاتهم موضوع الحكم الذى ينجم عن الاختبار ، ويتتبعون الاختبار بأعين زائغة وانهماك شديد بل بقلق مر فى غالب الاحيان . نعم إن الامر يتعلق بشىء آخر غير التمثيل الرمزى الذى يهدف إلى تصوير الحوادث التى ستحدث فى المستقبل . فالمحاربون إذ يقفون أمام الاناء يعتبرون أنفسهم أمام العـــدو ، ويعتقدون أن الرؤى التى يشهدونها أمام اعينهم ليست إلا أنتصارهم الخاص أو اخفاقهم .

وتصبح هذه المشاركة أقل غرابة وغموضا ، إذا قارناها بخصائص العقلية البدائية التى أشرنا اليها فيما سبق . وتنحصر هذه الخصائص فى الطابع الخاص الذى تتسم به هـذه العقلية ، ولا سيما تصورها للزمن والسببية . فنحن نتذكر

أن البدائيين لا يتصورون الحوادث على أنهـا مسلوكة فى سلسلة جبرية تربط السوابق منها باللواحق ربطا محكما وعلى أنها تتابع فى تسلسل غير قابل للقلب . فهم لذلك يختلفون عنا من حيث أنهم لا يرون الزمن يمتد أمامهم فيما يشبه الخط المستقيم إلى مالا نهاية له . وهذا يجعلهم غير قادرين على أن يعينوا بدقة مواضع الحوادث المستقبلة فوق ذلك الخط الزمنى ؛ وإنما هم يحسونها فقط ويشعرون بأنها مستقبلة دون أن يروها متراصة فى نظام لا يتغير يفصـل بينها مسافات لا يمكن تخطيها إلا مرتبة إحداها بعد الأخرى ، وكل ذلك يجعل تصور البدائيين للمستقبل على درجة كبيرة من الابهام . هذا إلى أنهم يعتقدون أن القوى الغيبية تتدخل باستمرار فى العالم المرئى ، مع أنها هى نفسها غير مرئية ، ويقررون أنها تمارس فعلها دائماً بطريقة مباشرة فورية . فهى وحدها التى تعتبر أسبابا حقيقية ، أما تلك الأسباب التى يدركونها بالحس فى العـالم المرئى فليست إلا آلات ومناسبات . ومعنى ذلك أنهم بمجرد أن يتصوروا فعلا من أفعال هذه القوى الغيبية ، ينظرون إليه على أنه دافع فعلا منذ هذه اللحظة حتى لو عرفوا أنه لن يظهر إلا فيما بعد ، وحينئذ فهناك نوع من الحوادث التى تعد فى نظرهم مستقبلة وقائمة حاليا على السواء . ولكن العقلية البدائية لا تصوغ هذا الجمع بين المستقبل والحاضر هذه الصياغة المحددة العبارات ، بل تحس به مجرد احساس . فالبدائى يراقب حركات الماء الغالى بأقصى درجات الانفعال ، وإذا رآه يفيض من ناحيته اعتقد أنه فى الوقت ذاته يشاهد انتصاره الخاص لأنه قد اصبح أمراً واقعا بالفعل منذ تلك اللحظة ، وإن كان حدوثه لن يتحقق إلا عند التقائه مع العدو . وفى هـذه الحال لا يصبح البدائى واثقا من النصر فحسب بل يعتقد أنه قد انتصر بالفعل (١)

---

(١) هذا نص ماحدث فى إحدى العمليات العرافية فى « روندا » : تقول العظام يمكن للطالب أن يتمتع بالسلام فى هذه اللحظة ولكن لن تكون سعادته إلا عرضا زائلا . « فالبازيو » على أهبة الدخول فى الحرب ماذا أقول ؟ بل لقد ضربوا ضربتهم بالفعل » الأب الكسس أوبو . من مقالة: La idjvination au Ruanda فى Anthropos ، مجلد ١٢ ــ ١٣ ، ص ١٣

ويقول الأب أرنو معلقا على هذه الفقرة يصح أن يكون « الماضى » هنا معنى المستقبل القريب أيضاً «إنك على وشك تلقى الضربة حتى لمكنك أن تعدها قد نزلت بالفعل . »

وإلى هذه الحقيقة يرجع السبب فى أن البدائيين يصحبون العرافة فى هذه الحالة أيضا بتلاوة إحدى الصلوات بالمعنى الذى يفهمون به الصلاة ، أى على إنها دعاء موجه إلى القوى الخفية بقصد التأثير فيها تأثيرا ناجعا . وأغلب الظن أن العرافة من شأنها أن تنبئهم أولا بفرص النجاح . فاذا فاض الماء مثلا من الجهة التى «تنتمى» إلى العدو ، عرفوا أن القوى الخفية موالية للعدو فى هذه اللحظة ، ولكن قد يكون فى حوزتهم طلاسم أقوى من التى فى حوزة العدو ، وقد يعرفون رقى أنجع من رقاه . على كل حال يجب عليهم أن يؤجلوا الهجوم ويتوقفوا عن البدء فى مشروعهم وأن يجربوا أسحارا جديدة ويستأنفوا الاختبارات العرافية ، وألا يخاطروا قبل أن يحصلوا على الجواب الذى يتمنونه. وإذا جاءت نتيجة الاختبار أخيرا بهذا الجواب السعيد ، لم يفهموا منه فقط أنه ينبئهم باستطاعة البدء فى العمل منذ تلك اللحظة على نحو ماتفعل درارة الهواء إذ تنبىء باتخاذها وضعا جديدا بأن الريح قد غيرت اتجاهها وأنه قد آن للبحار أن ينشر شراعه وهو آمن . نعم لاشك أن النتيجة السعيدة تعنى ذلك، ولكنها تعنى أيضا شيئا آخر أهم من ذلك : فهى وعد بالنجاح الذى يعتبر الآن حقيقة واقعية . ومن هنا جاءت قيمة العرافة التى لا تقدر بثمن فى نظر البدائيين ، إذا أنهم «قد انتصروا بالفعل» منذ اللحظة التى ينبئهم فيها الاختبار بأن النصر فى جانبهم . وهم لذلك لا يألون جهدا فى سبيل الحصول على هذه الرؤيا بأى ثمن ، ولا يهمهم بعد ذلك أن يحصلوا عليها عن طريق الحلم أو بوساطة الاختبار العرافى . فقيمتها واحدة فى كلتا الحالتين، لأنها تشبع رغبتهم الحاره لافى معرفة ما إذا كانوا سينتصرون فحسب ، بل أيضا فى الاستحواذ على هذا النصر بالفعل .

ونعثر على مثل هذه الإجراءات لدى بعض الجماعات التى تفوق قبائل غينا الجديدة فى درجة التقدم ، ولكنها مع ذلك لا تزال محتفظة بشىء من معناها الغيبى . وهكذا يكتب الميجر إليس Ellis عن سودان ساحل إفريقية الغربى مايلى : «يبدوا أنهم جميعا يعتقدون اعتقادا جازمافى العرافة ويعتبرونها

وسيلة لتحويل مجرى الحوادث المستقبلة . ويظنون أنها تشكل الحوادث المستقبلة بطريقة ما ، دون أن يفكروا فى معرفة الكيفية التى يحدث بها ذلك التغيير [١] » . فهذه الملاحظات على جانب كبير من الحصافة،إذ يبدو أن الباحث قد رأى جيـــدا أن هؤلاء البدائيين يحسون الظاهرة المستقبلة التى يعلن عنها الاختبار على أنها متحققة فى الحال، لأن الإختبار نفسه والحادثة المراد الكشف عن نتيجتها ليسا إلا شيئا واحدا .

لعلنا لا نخطىء إذا طبقنا نفس هذا التفسير على الإختبار الذى تباشره قبائل «البنجالا » Bargaia فى الكنغو العليا : «يأخذون قدرا مملوءة بالماء المستمد من المستنقع أو من الغابة ، ويلقون فيه شيئا من « السحر » ويضعونه فوق النار التى لا يجوز ان يقربها إلا الأشخاص الذين يقومون بالعملية . وبعد فترة مناسبة يقولون «لليكاتو» likato «هل هم» سيقتلوننا فى الموقعة ؟ » فاذا شرع الماء فى الغليان وأخذ فى الإرتفاع حتى وصل إلى حافة القدر، كان معنى ذلك أنه سيسقط من بينهم بعض القتلى ، وحينئذ يعدلون عن الحرب ، وإذا لم يصعد الماء ، وجهوا إليه هذا السؤال : وهل سنقتل بعضهم فى الموقعة ؟ » فاذا صعد بعد ذلك دل على أنهم سيقتلون بعض الأعداء ، وحينئذ يسيرون فى إجراءات الحرب ، وإذا لم يشرع الماء فى الصعود كان معنى ذلك أنه لن يقتل من الأعداء أحد ؛ وحينئذ يؤجلون القتـال ويستأنفون الاختبار من جديد بضعة مرات إلى أن يأتى بالنتيجة المرجوه [٢] . »

وتذكرنا بعض الأعمال العرافية التى يمارسها «الزولو» عن كثب بما رأيناه عند «البابو» فى غينيا الجديدة . يقول كلوى kallaway : «تنحصر العادة الجارية فى أن يحركوا «سحرا» ما فى إناء من الماء ويختارون طبين (عقارين سحريين) أحدهما يمثل الرئيس والآخر يمثل العدو ويضعونهما فى إناءين مختلفين . فاذا شرع

(١) ا . ب أليس The ewe - speaking people ص ١٥١ — ٥٢

(٢) الأبج .هـ. ويكس Anthropologienl notes on The Bangalo of The upper Congo river فى Anthrops مجلد ٤٠ ص ٣٩١

الإناء الذى يمثل العدو فى الغليان دفعة واحـدة وتخلف الإناء الذى يمثل الرئيس عن ذلك ، اعتقدت قبائل الكفرة «أن العدو سيعلو عليهم إذ هاجموه فى هذا الوقت ؛ ولذلك لا يأذنون للجيش بالمسير إلى الموقعة . ثم يستأنفون الاختبار مرات كثيرة قد تستمر شهورا أو سنين فى بعض الأحيان ؛ ولا يسمحون للجيش بالذهاب إلى المعركة إلا حين ينقلب الفأل ، أى عندما يغلى إناء الرئيس ويتخلف إناء العدو عن الغليان . »(١)

فهنا كما فى غينا الجديدة ، يوحّد صاحب الاستشارة ذاته بذات الأداة التى تمثله ، كما أنه ينظر إلى النصر الموعود به على أنه قد تحقق بالفعل وأصبح أمراً واقعاً بمجرد أن تنبىء به نتيجة الاختبار : ففى نظره أنه قد كسب المعركة منذ هذه اللحظة ، وهذا أمر مفروغ منه . أما حدوث المعركة الفعلى بعد أسابيع أو شهور ، فليس إلا إجراء شكلياً إذا جاز لنا هذا التعبير . وينص «كاوى» على ذلك إذ يقول: « هذا هو المسلك الذى يسلكه الرئيس مع دعائه العرافى : يبدأ عادة بوصف ماسيحدث مقدماً فيقول : « سيحدث الأمر الفلانى ، وستعملون كذا وكذا » . ويقوم بذلك دائماً حين يتحرك الجيش الدخول فى المعمعة ؛ فينتظر الرجال أن يأتيهم كلمة تشجيع من الرئيس لكى يعرفوا قوة الناس الذين سيجابهونهم (ما إذا كانو مخوفين أم لا) ... ويقول لهم الرئيس عادة : (أن تروا الجيش مجرد رؤية ، وإنى أقول لكم هـذا : لقد قتلت فلاناً وفلانا . . . وما عليكم إلا أن تستولوا على بهائمهم . لم يعد هناك رجال ، لم يبق لديهم إلا نساء» فتطمئن الجنود لدى سماع كلمة الرئيس وتمتلى نفوسهم بالثقة . ويقولون « إنها مجرد نزهة . وقد رأى رئيسنا فى دعائه العرافى كل ما سيقع(٢) » .

وقد يكون فى لغة هذا الرئيس وجنوده شىء من الفخر الأجوف ، ولكن لاشك أن فيها شيئاً آخر غير مجرد الفخر . والدليل على ذلك أنهم لا يشرعون

---

(١) ك.هـ . كاوى The religions system of Amazulu ص ٤٤١ (ملاحظة ٢٥).

(٢) المرجع نفسه ص ٣٤٢ ــ ٤٣

فى حرب مطلقاً قبل أن تظهر العلامة المرجوة . وقد ينتظرونها وقتاً طويلا ، ولكنهم يعتقدون أنهم كسبوا كل شيء بمجرد ظهورها . فليس معناها أن العدو سيهزم ، بل أنه قد هُزم بالفعل ، وقد قتل رئيسهم بالفعل هـذا الرئيس أو ذاك من رؤساء العدو ، ولن تفعل ضربة الرمح التى ستجندل العدو أكثر من اتمام الحادثة التى تعد محققة فى الواقع منذ تلك اللحظة . فالكلمات التى يحكيها الأستاذ «كلوى» على لسان الرئيس «الزولو» تعبر بدقة عما تدل عليه العرافة فى نظره وفى نظر شعبه .

٣

تختلف العرافة عن طريق المخابرة من حيث الشكل ، ولكن موضوعها يظل واحداً فى أغلب الاحيان ، وهو إتباع حاجة الأهالى إلى الاسترشاد إلى ضمان الأمان عن طريق أسئلة وصلوات يوجهونها إلى قوى العالم الخفى . ففى جزيرة «منجايا» Mangaia من جزر «البولينيزيا» اختيار الرئيس فى صباح اليوم المحتوم قوقعتين من قواقع «الاريرى» Ariri واحدة تمثله وواحدة تمثل خصمه «كيتاتيورد» Koteateoru . ثم أصدر إلى جيوشه أوامر سرية لكى تختبيء فى مكان معين ، وأمر باغلاق المسارب الضيقة التى بين المستنقعات العميقة وبعد أن تم ذلك رجع إلى قوقعتيه . ولشد ما كان سروره حين رأى القوقعة التى تمثل العدو قد انقلبت وصار عاليها سافلها : إذ أن ذلك يعد فى نظره فأل أكيد بخسرانهم [١]. وكذلك الحـال فى زيلندة الجديدة إذ يعمد الأهالى إلى استطلاع نتيجة الحملة الى يريدون القيام بها ، فيأخذ أحد الشبان عددا من العصى مساويا لعدد القبائل المحاربة ، ويسوى رقعة معينة من الأرض ويغرس فيهـا العصى كالأوتاد فى خطين متوازيين يمثلان الجيشين المتجابهين . ثم يبتعد قليلا فى انتظار الأثر الذى ستحدثه الريح ، فاذا سقطت العصى التى تمثل العدو إلى الخلف ، كان مصيره الدمار ، وإذا سقطت إلى الأمام ، كان له النصر ، وإذا

---

(١) و . و . جيل Savaga life in Polynesia : W. W. Gill ص ١٤ — ١٥ .

سقطت بزاوية منحرفة ، كان النصر غير مقطوع به لفريق دون آخر [١]. وفى بعض الأحيان يوجهون السؤال بصورة مباشرة وعبارات صريحة . «ففى ساعة القتال فى جزيرة « موتو » Motu يمسك الرئيس بأصبعه الوسطى (ناتوجو Natugu ، ثم يقول وهو يمسكها بيده الأخرى « ناتوجو » اى ناتوجو ! أينبغى أن نذهب إلى الحرب ، أم ينبغى أن نبق » ثم يشد أصبعه ، فاذا سمع طقطقة بق فى عقرداره ، أو انسحب من القتال » إن كان قد بدأ ؛ وإذا لم يسمع شيئا تقدم [٢]» . والظواهر التى من هذا القبيل عديدة جدا فى كل العروض .

وتجرى العرافة على حوادث المستقبل من كل نوع ، كمعرفة ما إذا كان المريض يبرأ ومعرفة جنس الطفل الذى سيولد ، أو ما إذا كان المحصول سيجود ، أو ما إذا كان المطر سينزل الخ . ولكن كثيراً ما يراد منها أيضا مجرد اكتشاف شيء مخبوء أو الحصول على خبر هام عن حادثة ماضية ، كأن يكون هناك مثلا مسافر لم يرد عنه خبر منذ زمن طويل ويراد معرفة ما إذا كان فى صحة جيدة أم لا ، وكأن يفقد شيء ما ويراد معرفة مكانه وما إذا كان قد فقد أم سرق ؛ أو كأن يقع أمر ضار بالهيئة الاجتماعية ويراد معرفة مرتكبه ، أو أن تختفى بهيمة من بين القطيع ويراد معرفة الجهة التى ينبغى البحث عنها فيها الخ . ومما يستلفت النظر أن الاجراءات التى تستعمل فى هذه الحالات وفى حالات كثيرة مماثلة لا تختلف فى جوهرها عن الاجراءات التى تستخدم حينما يراد معرفة نتيجة ما والتأكد منها على وجه السرعة . ونفسر هذه المماثلة أولا بما سبق أن قلناه عن تصور الزمن عنـــد العقلية البدائية حين ترى بعض الفؤول أو تستثيرها ، وحين تستجوب القوى الغيبية التى يتوقف عليها المستقبل . إذ يبدو لها أن هذه القوى تعمل عملها بصورة فورية مباشرة بكل معنى هذه العبارة .

---

(١) Société de marie فى Annales des missions d'Océanie مجلد ١ ، ص ٩٤ـ٩٥ (خطاب من الأب سرفان (١٨٤١) .

(٢) الأب ج . تشالموز Pisneering in new Guinea ، ص ١٨٥

فهذا الفعل يقع دون وسيط وبالتالى يقع فوراً ، وتخشى العقلية البدائيه مغبة الحادثه المستقبلة التى سيفتحها هذا الفعل كما لو كانت حاضرة فى الواقع ونفس الامر . وإذا كان ذلك كذلك فإنه يمكن استخدام طرق عرافية واحدة سواء فيما يتعلق بنجاح الحملة المقبلة أو بالعثور على حصان اختفى فى الليلة الماضية مثلا . هذا إلى أن الأعمال العرافية تنطوى فى حالة الحوادث المستقبلة على طلب العون والتعضيد ، وعلى ما يشبه أن يكون دعاء موجها إلى القوى الخفية. وتوجد هذه العناصر فى العمل العرافى أيضا حينما يتعلق الأمر بحوادث ماضية أو بأشياء مختفية . ولكنهم هناك يصلون من أجل حدوث أمر ما ، أى من أجل أن تحقق القوى الخفية هذا الأمر ، أما هنا فإنهم يطلبون إلى تلك القوى أن ترشدهم إلى رؤية الشيء المفقود أو الحادثة التى لم يشهدوها . ولما كانت القوى الخفية تستطيع الكشف عن كل ذلك فى الحال . لم يكن هناك اى اعتبار لكون الحادثة ماضية او مستقبلة . فيبدو أن مجال القوى الخفية يكوّن فى نظر العقلية البدائية ما يشبه أن يكون « جنسا » من الواقع يعلو على جنس الزمان والمكان اللذين تترامى فيهما الحوادث بالضرورة فى نظرنا . وبهذا المعنى تعد تجاربهم أرحب من تجاربنا ؛ وإن لم تكن أثرى منها . فاطاراتها أكثر مرونة ؛ مما يسمح لها بأن تدخل فى حقيقة واحدة بعينها المرئى وغير المرئى ، أى ما نسميه نحن بالطبيعة وما فوق الطبيعة ، او بالاختصار هذا العالم والعالم الآخر . ومن هنا جاءت الخواص المشتركة بين جميع ضروب العرافة . فان إجراءاتها لا تسعى حتى لو لم يتعلق الأمر بالمستقبل ، إلى معرفة ما هو مجهول فى الوقت الحاضر فحسب ، بل تجتهد ايضا فى الحصول على عون القوى التى تستطيع رفع الحجاب عن هذا المجهول

والآن نذكر بعض الأمثلة لعلها تزيد هذه المسألة وضوحا فى أذهاننا . فى غينيا الجديدة الألمانية «تعد معونة الساحر أمرا عظيم الأهمية فى البحث عن معرفة السارق . فإذا سرق شيئا ما ولم يستطع صاحبه تعيين الجانى ، ذهب إلى من يملك الطلسم القادر على الكشف عنه . فيأخذ هذا الأخير فأسا ويضربه

بها نباتا متسلقا معينا ، وكلما ضرب ضربة نطق بأحد الأسماء . فاذا أصابت الفأس النبات كان الاسم لشخص برىء ، وإذا أخطأته كان صاحب الاسم المذكور فى هذه اللحظة بعينها هو الجانى . وقد يأخذ غصن شجرة ويتلو عليه تعاويذ سحرية ، ثم يضرب به على ذراعه اليسرى . فاذا سقطت ورقة منه كان الرجل الذى نطق باسمه فى هذه اللحظة بريئا ،ولكن إذا بقيت جميع الأوراق دون انفصال بالرغم من الضربة ،كان الرجل الذى ذكر اسمه فى هذه اللحظة هو السارق (١) . وبالقرب من هذا الاقليم ،عند قبائل «الكاى» Kai إذا سرق شىء وأراد صاحبه أن يتعرف على السارق استشار الطالع . ولاستشارة الطالع طرق شتى ، منها أن يربطوا نرجيلة مملوءة بالماء فى طرف حبل ثم يحركوها بوساطة الحبل يمينا وشمالا وهم يتابعون النطق بأسماء القرية جميعا . فمن يفيض الماء إلى خارج النرجيلة عند ذكر اسمه يعد هو الجانى . وقد يغرسون عصا فى الأرض ، ويضعون فوقها إناء ، ثم يذكرون أسماء سكان القرية ، فيظل الإناء يتأرجح مهددا بالسقوط مادامت الأسماء المذكورة تخلو من اسم السارق فاذا ذكر اسمه احتفظ الإناء بتوازنه وبقى ثابتا لا يتحرك (٢) . وعند «البوكاوا» Bukaua وهم يجاورون الكاى ، إذا أراد الأهالى اكتشاف السارق، أخذوا قدرا وخططوا قاعها باللون الأحمر ثم غرسوا ساق شجرة فى الأرض فى وسط ميدان القرية ، على أن يكون السطح الأعلى لهذه الساق غاية فى الملاسة ومخططا باللون الأحمر أيضا ، وبعد ذلك يأتى أحد السكان ويمسك بالقدر فوق هذا السطح وينادى بأسماء سكان القرية جميعا على التوالى. ويجلس الأهالى الذين تعينهم السرقة حول الساق ، ويراقبون العملية . ويقولون إن القدر يتهدد بالسقوط باستمرار ، ولكنها تتوقف وتكف عن الحركة بمجرد أن يذكر

---

(١) ر . نويهاوس Deutsch Neu Guinea ، ج٣ ص ٢٥١ — ٥٣ . (بالقرب من رأس الملك غليوم) .

(٢) المصدر نفسه ج ٣ ، ص ٤٧١ — ٢

اسم الجانى : وفى الحال يفتشون شبكة المريب وبيته من أعلاه إلى أسفله . وسواء أوجد الشيء المسروق عنده أم لم يوجد فان التهمة تظل لاصقة به والعار ملازما له ، فيضطر إلى ترك القرية،إن لم يكن إلى الأبد ، فعلى الأقل لزمن طويل ، وذلك حتى تنسى المسألة شيئا فشيئا .» (٣)

كذلك يستشير « البابو » الطالع فى كل المسائل التى نقوم فيها نحن بالتحقيق القضائى . ونحن نعلم أن « الطالع » عند « البابو » ليس معناه «الصدفة » ولكنه على العكس من ذلك نداء موجه إلى القوى الغيبية . والطابع السحرى لهذه العملية يضمن لها العصمة من الزلل . وهى تبدأ دائماً بطقوس من شأنها أن تجعل الساحر والحاضرين وكل ما سيقع فى حالة اتصال بالعالم الخفى . وبهذا ينتقلون إلى ميدان « المقدس » ويضمنون صدق الكشف الذى سيحصلون عليه ثم لا يهمهم بعد ذلك أن تثبت التجارب صدقه أو كذبه . وإذا حللنا التصورات الجماعية التى تدخل فى الحسبان هنا ؛ وجدنا أن الطرق المستعملة تتفق بطبيعة الحال مع عقلية الأهالى ولذلك لا يستطيعون إلا أن يولوها ثقتهم التامة .

لماذا يحنق الأهالى كل هذا الحنق على السارق المجهول ، ويتكبدون كل هذه المشاق فى سبيل اكتشافه ؟ أهم يصدرون فى ذلك عن عدالة اجتماعية تتطلب أن يعاقب كل من يعتدى على حق غيره ؟ أهم ينزلون على حكم عاطفة قاهرة تدفعهم إلى احترام الملكية الخاصة ؟ ولكنا نعرف أن فكرة المالكيه فى الجماعات التى من قبيل جماعات « البابو » تختلف عما هى عليه فى مجتمعاتنا . فعدد الأشياء التى يمكن لأشخاص مختلفين أن يتملكوها كل بدوره محصور جداً ، ولا يكاد يوجد فى داخل الهيئة الاجتماعية بيع أو شراء أو حياة اقتصادية بالمعنى الحقيق . نعم إذا غضضنا النظر عن كل ما هو مملوك مشترك للجماعة كاراضى الصيد مثلا ، وجدنا أن كل فرد يمتلك بعض الأشياء باسمه الخاص . ولكنها تنتسب إليه بمعنى غيبى أعمق مما لهذه الكلمة عندنا ، لأنها تشترك فى

(٣) المصدر نفسه جـ٣ ، ص ٤٧١ ـ ٢

جوهره إلى حـد كبير . فهى تنتسب اليه كما تنتسب اليه رأسه وأعضاؤه ، وكما تنتسب اليه زوجته وأطفاله ؛ وكما ينتسب اليه قلام أظفاره وشعر رأسه وجسمه وشحمه وفضلاته . وهو يعتقد مثلا أن الملحفة التى يلتحف بهـا مشربة بعرقه ولذلك فهى جزء من نفسه(١) . وكذلك الحال بالنسبه إلى الرمح الذى يستعمله فى الصيد البرى والشبكة التى يستخدمها فى الصيد البحرى : فكل ما يتصل بهما يتصل بشخصه ، ومن يسعى إلى أخذهما يصبح عرضة للاتهام بأسوأ النوايا . ومن يستولى عليهما يصبح فى قدرته أن يصيب صاحبهما بكل شىء ممكن ؛ وتصبح حياته فى يده يتصرف فيها كيف يشاء . ففى أى يد ستقع هذه الأجزاء الحقيقيه من شخصه ياترى إذا سرقت ؟ ومن يدرى إذا لم يكن السارق أو أحد قرنائه قد « حكم عليه » بالموت بالفعل ؟

لا يعـد السارق إذن فى هذه الجماعات مجرد عضو فى المجموعة غير مرغوب فيه فحسب ، أو مجرد رجل ميت الضمير وكسلان فى أغلب الأحيان يريد أن يحصل دون مجهود على ثمرة عمل الآخرين . بل يمكن أن يكون إلى جانب ذلك ، بل قبل ذلك ساحرا من أخطر السحرة ، أو قاتلا بالقوة . هذا إلى انه كان قد استولى على هذه الأشياء فلابد أن يكون الدافع له على ذلك انه من الأشخاص الذين يستغلونهـا فى غايات مخوفه ، وانه يستطيع أن يجعل نفسه غير قابل للرؤية ، فيتسلل إلى العشش أثناء نوم أصحابها ثم يرخى لنفسه العنان فى ارتكاب أعمال العنف ضدهم وهم لا يشعرون ، ألخ ... فلا محيص إذن من اماطة اللثـام عن هـذا الشرير الخطير ، ولكنهم لا يصلون إلى ذلك إلا إذا قابلوا القوى الغيبية التى يستخدمها السارق بقوى أخرى اقوى منها .

لا يسعى الأهالى إذن من وراء ذلك إلى نوع من التحقيق الذى يسير على طريقة العدالة الأوربية فهم بعيدون عن ذلك كل البعد ، وإذا اشـار عليهم

---

(١) ج . لنتمان G. Landtman : The folktales of the kiwai Papuans فى Asda societatis scientiarum fennnicoe مجلد ٤٧ ، ص ٣١٣ — ٥ وقارن المرجع نفسه ص ٢٦٨ .

احد بأن يجربوا إجراء تحقيق من هذا القبيل لم يستطيعوا أن يدركوا له اية فائدة ،لأن همهم الوحيد ينحصر فى السيطرة الغيبية على السارق المجهول . وهم يستطيعون هذه السيطرة إذا كان السارق عضوا فى مجموعتهم، لأن ذلك يمكنهم من استعمال وسائل سحرية قوية تميط اللثام عن اسمه . وإذا وصلوا إلى معرفة اسمه فقد وقع فى ايديهم ، واستحال عليه الفرار منها ، لأن الاسم فى نظر البدائيين لا يستخدم فقط لتعيين الأفراد ، وإنما هو جزء مكمل للشخص ومشارك فيه. فإذا أصبح فى يدهم ، فقد سيطروا على صاحبه ايضا ،لأن الاستلاء على اسم الشخص استيلاء على الشخص نفسه . ومن هنا جاءت الاجراءات المستعملة لاكتشاف اسم السارق . فيقوم شخص ممن هم اهل لهذه الوظيفه بمناداة أسماء أعضاء المجموعة كلهم على التوالى فى اثناء إجراء العملية الغيبية، أى مثلا فى اثناء تذبذب وعاء مملوء بسائل تليت عليه تعويذه سحرية . فمن شأن هذه العملية فى نظرهم ان تجعل الأشخاص الذين تذكر أسماؤهم على اتصال بالقوى الغيبية القائمة بالعمل دون أن يستطيعوا التخلص منها . وتصبح لهذه الصلة القدرة على الكشف فى اللحظة التى ينطق فيها باسم الجانى : فيكف الوعاء عن الذبذبة ويظل ثابتا ، ومعنى ذلك أن اسم السارق قد عرف ،ولا يشك الأهالى فى النتيجة بأية حال ، ولا يحتاجون فى تصديقها تصديقا أعمى إلى دليل آخر ، وقد لوحظت إجراءات مشابهة لتلك فى كل مكان تقريباً فى استراليا وإفريقية الجنوبية والاستوائية والغربية . الخ ... وهى إجراءات يفرضها اتجاه العقلية البدائية نفسه . فاتفاق ذكر الاسم مع الحركة المنتظرة يرجع فى نظر البدائيين إلى تدخل القوى الخفية ، وهو يعادل الكشف المستثار عن طريق الحلم تماما . كما يعادل العرافة بطريق المخابرة التى رأينا امثلة منها فيما سبق . فالعملية واحدة فى أساسها رغم تنوع الطرق .

وكثيراً ما تدل العرافة أيضا على الاتجاه الذى ينبغى اتباعه للبحث عن اسم السارق او على الجهة التى ينبغى الذهاب اليها للعثور على الشيء المسروق

ألخ ، وذلك بدلا من الكشف عن اسم السارق نفسه . ففى كوينزلاند الشمالية يمكن « للمطبب » أن يجد على وجه التأكيد الاتجاه الذى جاء منه « التى » t ! (فاعل الشر) ، وذلك بأن يذهب إلى البرية ويقذف فى اتجاه الجهات الاربع الأصلية بكريات يدل مظهرها على أنها من فحم الخشب . فتظل الكرات معلقة فى الهواء ما عدا تلك التى تصادف الاتجاه المطلوب فانها تسقط على الأرض . وقد أخبرونى أن المطبب medicine man » استخرج هذه الكريات بوساطة المص من جسم أحد المرضى فى مناسبة سابقة[1] . » وفى إفريقية الجنوبية يتخذ الكفرة من الحشرة المسماه « بفرس النبي » أداة لأعمالهم العرافية . فإذا ضلت منهم بهيمة أو احتاجوا إلى مطبب . ألخ ... أخذوا إحدى هذه الحشرات ووضعوها فوق قطعة من العشب ثم تركوها فى أى مكان . فتبحث الحشرة لها بطبيعة الحال عن مكان آخر تأوى إليه . ويعتقد الأهالى أن الاتجاه الذى يشير إليه رأسها هو الاتجاه نفسه الذى سيعثرون فيه على البهيمة الضالة أو المطبب المحتاج إليه ، ألخ ... [2] » وكذلك الحال عند جيرانهم « الهوتنتوت » وتتكون أداة العرافة عندهم من صندوق خاص ، فيغمسون فتيلا من الخيط فى الشحم ويشعلونه من طرفه الذى يطل من هذا الصندوق المغلق ، ثم يمسكون بالصندوق فى مواجهة الشمس . فالاتجاه الذى يذهب إليه الدخان يدل الطالب الحائر على المكان الذى يبحث فيه عن بهيمته الضالة ، أو عن رفيق الطريق الذى فقده[3] . ومثل هذه الظواهر معروفة جدا ، لذلك لانحتاج إلى ذكر المزيد من أمثلتها . وهى تجرى كما لو كانت الاتجاهات المختلفة تذكر على التوالى كذكر الأسماء فى الأمثلة السابقه . ولكن لنداء الأسماء هذا أصل غيبي على الأقل : فهل

---

(١) و . ا . روت Superstition, magic & medicine فى : north Queensland Ethnography ، مجلد ٥ ، عدد ١٣٠

(٢) فريدريش إجيديوس ملر Fridrish - Aegidius muller ، Wahrsagerei beiden Kaffern فى Anthropos مجلد ١ ص ٧٧٨

(٣) شلتسه Schulnze : Kalahari ، ص ١٢٢٦

يوجد مثل هذا الأصل أيضا بالنسبة إلى البحث عن الاتجاهات ؟ الواقع انه لا يوجد شيء اعتباطى فى عين البدائى ، ولذلك إذا كانت الحشرة أو الدخان قد اتخذا هـذا الاتجاه أو ذاك دون غيره ، فلا شك أنهما لم يختاراه عبثا ، بل للكشف عن المطلوب . ومعنى ذلك أن هذا الاختيار يعتبر جوابا عن السؤال الموجه ، ما دام قد وجه فى العبارات السحرية المناسبة . هـذا إلى أنه إذا كان اسم الشخص يمكّن من السيطرة عليه ، أفلا يمكن للإقليم المكانى الذى ولد الشخص وما زال يعيش فيه ، وللمكان الذى تحيا فيه جماعة اجتماعية أن يلعبا نفس الدور ؟ أليسا ينتميان اليهما على طريقة انتماء الأسماء تماما ، أى بنوع من المشاركة الداخلية ؟ ألا يوجد بين المجموعة الاجتماعية ، أى بين الأفراد الذين يكونونها وبين إقليم مكانى معين رباط غيبي يستطيع أن يؤدى إلى اكتشافهم كما تستطيع الاسماء تماما [1] ؟ فنحن نعلم أن تصور المكان والزمان عند البدائيين تصور كيفى على وجه الخصوص ؛ وهذا إذا جاز أن يكون لهما عندهم تصور صريح ، إذ أنهم لا يتعقلون الأقاليم المكانية ولا يتصورونها تصورا معنويا حقا ، وإنما يحسون بها فى مجاميع معقدة تجعل من العسير إمكان الفصل بين كل إقليم منها وبين ما يشغله . فكل منها يشارك فى الحيوانات الحقيقية أو الأسطورية التى تعيش فيه ، وفى النباتات التى تنمو فى تربته ، والقبائل التى تسكنه ، والرياح والعواصف التى تأتى منه ، الخ . ولا يمكننا بأية حال أن نأخذ فكرة صحيحة عن تصور البدائيين هذا للمكان بمساعدة تصورنا نحن له على أنه شيء متجانس . ولعل الحادثة الآتية التى وقعت فى استراليا الغربية توضح لنا هذا الفرق بعض الشيء .

« قامت تجريدة مكونة من بعض الأوربيين والأهالى ، وفى أثناء الطريق رأت أنها مهددة بالعطش فراحت تختبر بعض المنابع لترى ما إذا كانت جافة أم

---

(١) سبنسر Spencer وجلن Gillen : The native tribes of Central Australia ص ٣٠٣ ، ٥٤٤ .

عامرة بالماء. وأخذ الأهالى يحفرون فى الرمل حفرة تشبه المدخنة ثم يدخلون فيها عصا حتى قاعها لعلهم يعثرون على طبقة فيها بعض الماء الجوفى. فلم يجدوا شيئاً فى أول حفرة ، وفى الحفرة الثانية خرجت العصاة منداة. فضاعفوا الجهود حتى وصلوا إلى طبقة من الرمل المندى إلى درجة أنه كان يلتصق باليدين إذا حفظ بينهما. وأصبح من الواضح منذ ذلك الحين أنه ليس من الضرورى حفر بئر واسعة فانه يكفى حفر ثقب ضيق فى قاع الحفرة المتسعة التى حفروها فى أول الأمر. ولكن قامت مشكلة أمام عقول الأهالى لا يمكن لعقليتنا نحن أن تفهمها. إذ راحوا يطرحون على أنفسهم هذا السؤال : فى أية نقطة من نقط الحفرة يجب علينا الآن أن نحفر حتى نثق من العثور على الماء ؟ أما نحن فأقل تأثراً منهم بالخيال ، ولذلك لم يكن لهذه النقطة فى نظرنا أية أهمية بالنسبة لنا. إذ من الواضح إمكان العثور على الماء بالحفر فى أية نقطة من قاع الحفرة ، ما دام هذا القاع مندى فى كل مكان منه على التساوى. ولكن الرجل الأسود لا يركن إلى الصدفة مطلقا ، فلا بد له من علة تقوده فى كل أفعاله ، سواء أكانت هذه العلة صحيحة أم زائفة. لذلك لم يلبثوا أن وضعوا هذه النقطة الشائكة تحت البحث المنظم. فاقترح أحدهم أولا أن يحفروا فى الجهة الغربية للحفرة لأنها جهة البحر ويحتمل وجود الماء فيها ؛ ولكن الباقين لم يلبثوا أن ردوا هذا المقترح المعقول وأوسعوا صاحبه تهكما واحتقاراً ، إذ قد يوجد ماء حقيقة فى هذا الاتجاه ، ولكنه لا بد أن يكون ملحا أجاجا ، وبالتالى غير صالح للشرب لأنه آت من البحر. بعد ذلك اقتراح آخر أن يحفروا فى الجزء الشرقى من الحفرة ، وذلك لأن قبائل « الاجاردى » Agardies كانت تقطن فى هذه الجهة ، وهى من القبائل التى تستحوذ على جانب كبير من « البوليا » boolia (قوة سحرية) ، وفى وسعها أن تسقط المطر تبعا لمشيئتها ولذلك لم ينقصها الماء قط. وكان يبدو أن المناقشة ستنتهى بهذا الاقتراح ، وكان الأهالى على وشك الأخذ به لولا أن انبرى شيخ من شيوخهم للاعتراض على هذا الاقتراح وعبر عن مخاوفه قائلا : ماذا يكون الحال لو أن هؤلاء « الأجاردى » المخوفين

غضبوا لاعتداء غيرهم على حقوقهم ؛ فعمدوا إلى الانتقام وحولوا قدرتهم السحرية المروعة ضد قبائل « الوتشاندى » Watchandies ؟ وعلى أثر ذلك سارعوا بنبذ الاقتراح ، فاقترح حكيم آخر من حكمائهم أن يكون الحفر فى الجهة الشمالية الغربية ، لأن المطر يأتى دائما من هذه الجهة . وكان من الممكن قبول هذا الاقتراح ، لولا ان قام شخص آخر واقترح عليهم جهة الجنوب مستدلا بأن البيض قد اقبلوا من هذا الاتجاه . ولا بد أنهم وجدوا كثيرا من الماء فى اثناء رحلتهم ، وبالتالى لا بد ان تكون هذه الجهة خير الجهات للبحث عن الماء . فانتصر هذا الاعتبار الذى فيه شيء من التكريم بالنسبة إلينا[1] . »

وهكذا تعلق العقلية البدائية أهمية كبيرة على اعتبارات لا حساب لها عندنا . وترتبط هذه الاعتبارات عن طريق فكرة المساهمة بين الكائنات والأشياء من جهة وبين الاتجاه أو الاقليم المكانى الذى توجد فيه تلك الكائنات والأشياء عادة أو فى الوقت الراهن . فالماء يوجد فى الشرق لأنه الاتجاه الذى يقطنه « الأجاردى » ، أولئك السحرة العظام وصناع المطر الماهرون . ولكن « الأجارديين » بدورهم يشاركون عن طريق السحر فى كل ما يوجد بالشرق . وإذا كان الماء يوجد فى الجنوب فذلك لأن البيض جاءوا من الجنوب ، ولا مراء فى أن البيض سحرة عتاة لا يعرف لهم نظير . وهكذا يوجد نوع من المشاركة بين إقليم الجنوب وبين البيض ، وتتمثل هذه المشاركة تارة فى صفة خاصة بالبيض وتمتد إلى إقليم الجنوب ، وتارة فى صفة لإقليم الجنوب وتمتد منه إلى البيض . وهذه الأمور جد مألوفة للعقلية البدائية ، ولكنها رغم ذلك لا تصير موضوعا لتفكيرها . فهى لا تعبر عنها مطلقا بصورة عامة أو تجريدية ، وإنما هى تحس بها أكثر مما تفكر فيها . وإذا كانت تسير عليها عند كل عمل فذلك لأنها تخافها باعتبارها ذات تأثير قوى مباشر ، ومن ثم لا تحتاج إلى العلم بها علما شعوريا

---

(١) ا . الدفيلد Oldfield : The aborigines of Australia فى Transactions of The ethnological Society مجلد ٣ (١٧٦٥) ص ٢٨٢ — ٣

ما دامت تدركها بنوع من الحدس . وهكذا تجول العقلية البدائية فى مكان محدد « كيفيا » ،وأثرى من مكاننا فى الخصائص.وهى إذا كانت تجهل الخصائص الهندسية لهذا المكان ، فانها فى مقابلة ذلك تراه معمورا بصفات يمكن إدراكها إدراكا مباشرا . وتشاركه فيها جميع الكائنات أو الأشياء التى تحتله . يقول « الدفيلد » أيضاً : «على كل فرد من قبيلة « وتشاندى » أن يزور محل ميلاده ثلاث مرات فى السنة ، ولكنى لم أستطع الوصول إلى معرفة الغاية الخاصة التى يهدفون اليها من وراء ذلك[1] . » ويصف الأستاذان « سبنسر » وجلن » عادات مماثلة لتلك العادات عند أهالى استراليا الوسطى . ونحن نعرف أيضا أن قبائل استراليا تجتمع على ميعاد فى أحد الأماكن ، فتنزل كل منها فورا فى الموضع الذى تعينه لها صلاتها الغيبية باقليم مكانى معين . وقد لوحظ وجود هـذه الظاهرة بشكل واضح فى استراليا أيضا . يقول ن. و. توماس Thomas : «وكثيراً ما لفتت نظرى تلك المحافظة الدقيقة التى تراعيها كل قبيلة فى اتخاذ مكانها فى المخيم المشترك ، لأنها تتخذه دائما فى الاتجاه الذى يوجـــد فيه موطنها كما تشير اليه البوصلة بالضبط ، إذ أنهم على معرفة تامة بها . وقد وجدت أن هذه القاعدة لا تختلف مطلقا ؛ وكنت أستعين بها على معرفة المكان الذى يقبل منه السود حينما كنت أراهم يقبلون[2] . »

درس الأستاذ ا. ر. برون Brown حديثا ثلاث قبائل من استراليا الغربية وكتب لنا وصفا واضحا لهذه المشاركة التى لاحظها الدفيلد قبل ذلك بنصف قرن فى الإقليم نفسه ، فقال : « ولم يـكد يستقر البيض فى إقليم هذه القبيلة والقبائل التى تجاورها حتى شرع أصحاب القطعان منهم فى اتخاذ الأهالى رعاة لهم . وقد قيل لى إنه كثيراً ما كان يستحيل عليهم فى بادىء الأمر إقناع أى

(١) المرجع نفسه ص ٢٥٢

(٢) ن. و. توماس N. W. Thomas فى Letters from Victorian proneers ص ٩٦ .

شخص من الأهالى بالانتقال لرعى الغنم فى غير أرضـــه الخاصة (أرض مجموعته المحلية) .

لا يستطيع أى شخص أن يغادر مجموعته المحلية ليتجنس بجنسية مجموعة أخرى ، أو ليدخل تحت ولائها . وذلك لأنه إذا كان الإقليم ينتسب اليه ، فانه ينتسب هو الآخر إلى الإقليم . فاذا غادره صار أجنبيا بالنسبة إلى سكان الاقليم الذى ينزل فيه ، سواء اعتبروه عدواً أم ضيفا ... واليوم أصبح البلد كله فى يد البيض ، وأصبح على الأهالى أن يعيشوا حيث يستطيعون ؛ ومع ذلك فان ارتباط المرء باقليم مجموعته المحلية لا زال باقيا حتى الآن . وكثيراً ما تسمع بعض الأهالى يصرحون برغبتهم فى أن يموتوا أو يدفنوا فى ارض الصيد التى تنتسب اليهم عن طريق الوراثة (١) » .

وهكذا نجد أن تصور «المجموعة الاجتماعية» عند هؤلاء الاستراليين لا يشتمل على الأشخاص الأحياء والأموات فحسب بل يشتمل أيضا على الأرض التى يستوطنونها ، أى الاقليم المكانى الذى عاش فيه أسلافهم والذى يعيشون فيه هم أيضا كما يعيش الموتى الذين ينتظرون فى المراكز الطوطمية التى وصفها الأستاذان سبنسر وجلن ، لكى يبعثوا من جديد فى صور أعضاء من أعضاء المجموعة الحاليين . وقد فطن أحد المبشرين فى غينيا الجديدة الإنجليزية إلى هذا الإرتباط الداخلى بين الأحياء والأموات والأرض فقال : « إنهم يتوسلون إلى الأموات لكى يساعدوهم فى الحصول على صيد برى وبحرى جيد من صيد الأرض والبحر اللذين صادوا فيهما من قبل . ويبدو أن هذا هو السبب الرئيسى فى أن قبائل «الكونى» Kuni يجعلون الاحتفاظ بأسماء أسلافهم واجبا دينيا . فكنت إذا سألت الواحد منهم فى أثناء مباحثى فى الأنساب عن اسم جده

---

(١) ا . ر . برون ، Three tribes of western Australia فى J. A. I مجلد ٤٣ ، ص ١٤٦ .

أو اسمى جدى جده فعجز عن ذكرها ، سمعت الآخرين على الفور يسألونه فى عتب شديد : ولكن ماذا تفعل فى الصيد إذن (١) ؟ » .

ولا تمتد المشاركة التى بين المجموعة الاجتماعية وبين الإقليم الذى تعتبره إقليمها إلى أرض الصيد التى توجد فيها فقط ، بل إن هذه الصلة تربط المجموعة بجميع ما فى الإقليم من قوى غيبية وأرواح وقوى غامضة فى خيالهم إلى حد كبير . ويشعر كل عضو من أعضاء المجموعة بحقيقة هذه الأشياء والكائنات بالنسبة إليه وبحقيقته بالنسبة إليها . ويعرف مقدار الأخطار الغيبية التى تهدده من قبلها والعون الغيبى الذى يستطيع انتظاره منها ، ويعلم أنه لن يجد لنفسه معينا فى غير هذا الإقليم ، بل يعلم أنه إذا انتقل الى إقليم آخر أحاطت به أخطار لا يعرفها ، والأخطار المجهولة أشد الاخطار هولا : لأن الهواء الذى يتنفسه فى هذه الحالة ليس هواءه هو ، والماء الذى يشربه ليس ماءه ، والثمار التى يقتطفها ويأكلها ليست ثماره ، والجبال التى تحيط به ليست جباله ، والمسارب التى يسلكها ليست مساربه ، لذلك يصير كل ما يحيط به عدوا له ، لأنه قد فقد ضروب المشاركة التى اعتاد أن يحس بها . وهذا هو السبب الرئيسى فى اشمئزاز البدائى الشديد من مغادرة إقليمه ، ولو إلى حين . يقول المبشر « نيوتن » Newton : « لعل ضعف إقبال الأهالى على الانتقال إلى اقاليم غير إقليمهم بقصد العلاج يرجع إلى خوفهم من الأرواح الشريرة التى توجد فى المكان الذى ينتقلون اليه والتى قد تقاوم قدوم الأجانب اليه بوجه خاص ، ولذلك نراهم يفضلون احتمال الأمراض التى تصيبهم على العلاج فى غير موطنهم ، إذ يبدو أن الخير الوحيد الذى يأتى من قبل الأرواح نحو سكان إقليم ما ينحصر فى إرهاب الأجانب الذين يحاولون اقتحامه ، وقد يكون هذا الخوف نفسه هو السبب أيضا فى اشمئزاز الأهالى من فكرة الابتعاد عن الوطن . فلنا أن نتساءل

---

(١) الأب ف . م . ايجيدى
La religione econascenze naturali dei Kumi (nouva Guinea gnglese)
ف : Anthopas ، مجلد ٨ ، ٢٠٦ .

عما إذا كانت غريزة المحافظة على البقاء عند هؤلاء الأهالى وخوفهم من الأجانب هما اللذان يدفعانهم الى اتهام الأرواح بهاتين العاطفتين ذاتهما ،أم إذا كان الخوف هو الذى يوحى بغريزة المحافظة تلك؟ أيهما السبب وأيهما النتيجة؟ هذا لغز من الألغاز التى يصطدم بها المرء حينما يحتك بالأهالى الذين لا يمكن لشخص أبيض أن يفهم عقليتهم ولا طرائق تفكيرهم (١)».

وحدث فى غينا الجديدة الألمانية ، وهى غير بعيدة من الاقاليم السالفة الذكر، أن جاء رجل منذ عامين قاصدا المبشر هانكه Hanke فى «بنجو» Bongo، وكان هذا الرجل قادما من «بيليبيلى» Biiibili . فتقدم إلى المبشر باسم أهل قريته الذين كانوا قد فروا إلى اقليم «راى» Rai ،وطلب إليه أن يتوسط لدى الحكومه فى أن تسمح لهم بالعودة إلى « بيليبيلى » ، وعضد مطلبه بقوله : « لقد تتبعتنا أرواح أسلافنا فى «راى» وكانوا فى فورة غضبهم يزمجرون ويقولون : كيف يجوز لكم أن تهجروا المكان الذى تقيم فيه أرواحنا جميعاً ؟ من الذى يهتم بناهناك الآن ؟ ثم بصقت الأرواح باحتقار على الآنية الجديدة التى لم تكن قد تم صنعها بعد ، فانكسرت جميعها . وهكذا ترانا نعيش الآن غرباء عن أهل « راى » ، وليست لنا حقول خاصة بنا . وأسوأ من ذلك أننا اصبحنا لا نستطيع صنع آنية فخارية ،فدعونا إذن نرجع إلى موطننا القديم حتى تخفف الأرواح من غضبها علينا(٢) . »

من العسير إذن على البدائيين أن يعيشوا فى غير الأرض التى تكوّن جزءاً من مجموعتهم الإجتماعية ، إذا جاز لنا هذا التعبير . وليس القتال فى غير أرضهم باسهل عليهم من الإقامة فيها . « يغمى على أفراد القبيلة إذا تركوا أرضهم ؛ ولا يتحرجون مطلقا من الاعتراف بذلك ،مهما كان مبلغ شجاعتهم حينما يكونون فى إقليمهم الخاص . . . فهم يخشون المفاجئات والهجمات التى

(١) ا . نيوتن، In far new Guinea ، ص٨٦ .

(٢) Berichte der rfeinischen missionges ellschaft ، ١٩٠٧ ص ٣٢ .

تنهال عليهم من كل جانب[1] . » وهذه ظاهرة عامة ، والملاحظات التي تعضدها لاعداد لها . وبمقتضى هذه المشاركة نفسها ، يكف الشخص الذى ترك الأرض التى تعيش عليها مجموعته الاجتماعية إلى الأبد عن اعتباره جزءاً من هذه المجموعة . فهو قد مات بالنسبة إليها ، بل يعد أكثر موتا مما لو كان قد كف عن الحياة فحسب وأقيمت له المراسيم الجنائزية المعتادة . وهذه هى حال أسرى الحرب الذين لم تجهز عليهم القبيلة التى سبتهم بل ضمتهم إليها . وكذلك أيضا حال الهجرة الدائمة فانها تعادل الموت فى نظرهم . ففى ثورا (جزر سليمان) » كان أحد المسيحيين فى ثورة غضب ، فضرب امرأته ضربة قوية حطمت فكها السفلى فماتت بعد ساعات . وقد قرر الشهود ، ومنهم أقارب هذه المرأة ، أنها قد أخرجته عن طوره ، وأنها كانت لا تكف عن توجيه الاتهام الباطل إليه . ولكن ذلك لم يمنعهم من إرادة الثأر منه وقتله تبعا للتقاليد القديمة . غير أن الرؤساء تدخلوا فى الأمر فحوكم الرجل وحكم عليه بالنفى الأبدى . ورضى الرأى العام عن هذا الحكم كل الرضاء ، اذ أن الناس جميعا قد عدوه ميتا بالنسبة إليهم[2] » . واخيرا نذكر هذا الطقس الرمزى الافريقى الذى ينم عن العلاقة بين الأرض والمجموعة الإجتماعية التى تعيش فيها . « واذا عاد أحـــد أفراد الرنجا » Ronga القاطنين فى كمبرلى Kimberly بالمرأة التى تزوجها ، أحضر معه كمية صغيرة من تراب المكان الذى غادراه ؛ وعلى المرأة ان تتناول منه قليلا كل يوم فى حسائها حتى تتعود على موطنها الجديد . وذلك لأن هذا التراب يعد خطوة الانتقال بين الموطنين(٣) . »

كل هذا يفسر لنا السر فى أن العراقة قد تستخدم الاتجاه المكانى فى بعض الأحوال كما تستخدم اسم الشخص فى أحوال أخرى . فالإتجاه الذى

---

(١) و . برون new. Zealand & its aborigines ، ص ٤٧ (١٨٤٠) .

(٢) ا . ج . ارمستروج The history of the melanesian : Armstrong ص ٣٠٨ .

(٣) هـ . ب . جونود The life of a South African tribe ، ج١ ص٤٧ (ملاحظة)

يوجد فيه الشخص والاقليم المكانى الذى يحل فيه يعتبران « له »، بكل معنى الكلمة، كأعضائه ونفسه التى بين جنبيه ؛ إذ أنه ينتسب إلى اقليمه كما ينتسب اقليمه اليه على حد تعبير الأستاذ برون فى عبارته القوية . ومن ثم يمكن للاتجاه الذى يوجد فيه الشخص أن يشى به ، كما يمكن معرفة قدمه من الآثار التى يتركها على الأرض . فهذا الاتجاه صفة مميزة له أو لمجموعته على الأقل .

وقد يفقد الاجراء معناه الأصلى بمرور الزمن فيصبح عملية آلية تستعمل فى مناسبات لا تمت بصلة إلى دلالتها الأولية . فحين ترى « الهو تنتوتى » يسعى الى العثور على ثيرانه الضالة مسترشداً بالاتجاه الذى تتجه إليه فرس النبى فى أثناء الليل ، فقد نظن أن هذه صورة من العرافة مشابهة لطريقتى العرافة بالمطابقة وبالمخايرة اللتين سبق الكلام عليهما . والواقع أنها تدل عندهم على إحساس غامض بالمشاركة التى رأيناها حية قوية فى التصورات الجماعية عند الاستراليين .

لو كان قصدنا من الدراسة المتقدمة ينحصر فى استعراض الطرق العرافية المستعملة فى الجماعات المتأخرة ، لكانت تلك الدراسة ناقصة الى أقصى حد . اذ أن الطرق التى تكلمنا عنها لا تمثل الا جزءاً يسيراً منها . ولكننا لم نرد منها الا أن نحلل ما تدل عليه الأعمال العرافية والأعمال التى تسمى بهذا الاسم فى أعين البدائيين ، وأن نبين ما ينتظرونه منها ، وأن نفسر كيف تؤدى تصورات جماعية واحدة بعينها الى طرق مختلفة كل الاختلاف . ويكفى لذلك ذكر بعض الأمثلة المستمدة من أقل الجماعات التى نعرفها تقدما .

وتستعمل طرق عرافية أخرى كثيرة لم نتكلم عنها . ويمكننا تحليلها على هدى القواعد المتقدمة نفسها . فمن ذلك أن البدائيين مثلا يعرفون أن يستعملوا فى سبيل الاتصال بالعالم الخفى طرق الوسطاء (médium)، وأن يجعلوا هؤلاء الوسطاء فى حالة ثانية (second etat) . وهم لا يكادون يجهلون شيئا من الظواهر المألوفة لدى المشتغلين بالأرواح فى جميع الأقطار والأزمان . وقد

لا يجدون شيئاً مستغرباً عليهم فى كتاب أرواح الاحياء Phantasms of the living لميرز meyers مثلا. وذلك لأن التعامل مع الأرواح، ولا سيما أرواح الموتى يكون جزءاً من تجاربهم اليومية. فهم يخافون هذا التعامل فى بعض الأحيان، ولكن خوفهم منه لا يمنعهم من المجازفة بالسعى إليه فى غالب الأحيان مع اتخاذ الاحتياطات الضرورية ويعرفون أن يميزوا من بينهم الأشخاص الذين هم أكثر من غيرهم تعرضاً لتأثير القوى الخفية، وأقدر على استقبال ضروب الكشف الآتية من عالم الغيب. وهؤلاء الأشخاص يصحبون فيما بعد من العرافين والمستطلعين للغيب والسحرة بالمعنى الخير للكلمة، فيتوجه اليهم مواطنوهم حينما يحتاجون لكشف خاص. فالعمليات العرافية عند الإسكيمو مقصورة على « المطبب » أو « الأنجيكوك » angekok كما يسمونه. وإذا أراد الأنجيكوك أن يقوم بعملية من هذه العمليات، وجب عليه أن يجعل نفسه فى حالة نوم اصطناعى أو غيبوبة، أو فى حالة خدر أو تجلى، أى انه ينتقل إلى عالم القوى الخفية ويتصل بها اتصالا روحيا، فيسمع الأموات ويراهم، ويقطع فى أقل من لمح البصر أبعد المسافات بطريق الهواء دون أن يراه أحد ألخ ... وهذه الطريقة مماثلة للحكم المستثار، أى الرؤيا المخصومة الميمونة.

ويعرف البدائيون أيضاً طريقة أخرى للعرافة قريبة جداً من الطريقة السابقة ويجرونها بواسطة بلورة أو مرآه (إذا كان لديهم شىء من ذلك) أو مسطح سائل، ألخ، (واعنى طريقة المندل). وهناك الآف الأمثلة على هذه الطريقة، ولكنا نكتفى منها بهذا المثال الذى يرويه « جرانتش » عن أهالى « جرينلند » : « إذا ذهب أحد الأهلين إلى البحر ولم يعد فى الميعاد المنتظر، زعم الأهلون أنهم يستطيعون اكتشاف ما إذا كان قد مات او ظل على قيد الحياة. فيأتون باقرب شخص للغائب ويأمرونه بأن يميل رأسه فوق طست خشبي مملوء بالماء، ثم يقرعون رأسه بعصا ويزعمون أنهم فى هذه الاثناء يلمحون الغائب فى هذه المرآة مقلوبا بزورقة فى قاع الماء أو جالسا مستقيما فى

سفينته وهو يحركها بمجدافيه [1] » .

ويعتقد الأهالى أن هؤلاء المطببين والسحرة على وجه العموم موهوبون « ببصيرة » خاصة ، وأن عينهم تدرك ما لا يراه الآخرون . وكذلك يعدونهم فوق البشر أثناء حياتهم ، بل وبعد موتهم فى كثير من الأحيان . وهم يستطيعون فى بعض الأحيان أن يميزوا الجناة من مجرد منظرهم ، ويثق مواطنوهم فى شهادتهم كل الثقة : ويقول الأستاذ دكسون « Dixon » : « من الممتع أن نلاحظ أن الشامانيين Shamans يستطيعون فى زعم قبائل « الشاستا Shasta أن يعرفوا من فورهم ما إذا كان شخص ما قد ارتكب فعلا سيئا أم لا ، وذلك لأنهم إذا نظروا إلى سارق أو جان ظهر امام أعينهم مغطى بظلام ، على حد تعبيرهم [2] » . ويتميز هذا النوع من البصيرة التى تلعب دورا هاما فى عدد كبير من الأعمال العرافية بأنه فورى حدس ، ومعنى ذلك انه يجب أن يظهر جواب السؤال الذى يوجهه العراف أو « الشامان » (Shaman) أمام بصره بمجرد النظر وبصورة حدسية غير قابلة للتحليل وقد أصاب « كلوى » Kallaway كل الصواب حين أصر على هذه النقطة فقال : « إذا ضاع شىء قيم تولى أصحابه البحث عنه فى الحال . وإذا لم يعثروا عليه ، بدأ كل منهم يمارس العرافة الداخلية ، فيحاول أن يحس بالمكان الذى يوجد فيه هذا الشىء ؛ لأنه لما لم يكن فى مقدوره أن يراه ؛ فانه يحس فى داخل نفسه كأن هاتفا يقول له إنه إذا ذهب إلى مكان كذا رأى الشىء هناك وعثر عليه ، ثم لا يلبث أن يراه ويرى نفسه يقترب منه . وقبل أن يغادر المكان الذى هو فيه حالاً يراه بصورة واضحة جدا ، وحينئذ ينقطع الشك ويبرح الخفاء . . وتبدو له هذه الرؤيا واضحة جلية حتى كأنها ليست رؤيا داخلية ، بل كأن الشخص يرى الشىء نفسه رؤيا العين فى المكان الذى

---

(١) د . جرانتس Grantz : History of Greanland ج ١ ص ٢١٤ (١٧٦٧) .

(٢) و . ب . دكسن Dixon : The shasta فى :
Bulletin of the American museum of natural history مجلد ١٧ ، ص ٤٨٧ — ٨٩ .

هو فيه. فينهض من فوره ويذهب إلى هذا المكان، وإذا كان المكان خافيا سارع إليه كما لو كان شيئا يدفعه إلى الجرى نحوه بسرعة الريح. فإذا كانت العرافة الداخلية التي استعملها مستوفية الأركان، وجد الشيء المفقود حقا. ولكنه إذا سار بمجرد التروى والتفكير، كأن يقول إن الشيء لا يمكن أن يكون قد ذهب إلى هذا المكان ولا إلى ذاك، وبالتالى لا يمكن أن يكون إلا فى مكان غير هذين المكانين فإنه يخطىء الهدف على وجه العموم[1]».

هذا الوصف جم الفائدة من الناحية التعليمية. فإنه يوضح لنا هذا الفعل المألوف للعقلية البدائية، ويبين مبلغ ارتياب هذه العقلية فى عمليات المنطق والاستدلال وتفضيلها للهاتف الحدسى الفورى. فهى لا ترى أن العمليات المنطقية شاقة عديمة الجدوى فحسب، بل إنها تتجنبها لسبب أخطر من ذلك وهو أنها لا تؤمن بها؛ وذلك لأن المناسبات التى قد تستعمل فيها هذه العمليات لا تعرض للعقلية البدائية إلا نادراً، لأنها فى غالب الأحيان لا تفكر فيها مجرد تفكير. أما إذا عرضت لها مناسبة لاستعمالها فإنها تسارع باستبعادها على أنها بطبيعتها تعوق الرؤيا أو تمنعها منعاً تاما. والرؤيا وحدها هى التى تستطيع الكشف عن الشيء المنشود.

ولا تتردد العقلية البدائية لحظة واحدة بين التفكير المنطقى على بساطته ووضوحه، فيما يظهر لنا، وبين هذه الرؤيا المباشرة. وهذا سبب من الأسباب التى تجعلها تلجأ دائما إلى أعمال عرافية جد متنوعة فهى متجهة دائماً نحو العالم الخفى، وكل اهتمامها موجه نحو ضروب المشاركة الغيبية. ولذلك كانت العرافة عندها أجدى من أى تفكير عقلى، وأقدر منه على الإجابة عن ضروب حب الاطلاع التى يصبو إليها العقل وعلى سد الحاجات التى يستلزمها العمل. وتحدث هذه العرافة فى صورة رؤيا أو فأل مستثار أو صلاة أو كشف عن نوايا القوى الخفية أو استحواذ حالى على أمر مستقبل حاضر فى آن واحد. كما قد تحدث هذه الصور جميعاً تبعاً لكل حالة على حدتها.

---

(١) ك. هـ. كالوى The religious system of the Amazulu ص ٣٣٨-٣٩

الفصل الثامن

ضروب التحـــكم

استطعنا بفضل تاريخ العصور الوسطى أن نألف بعض ضروب الاختبار التي تقرب من العرافة والتي تسمى « حـــكم الله Jugem entde Dieu» أو التحكيم الغيبي eordaie وقد عرفها الإغريق الأقدمون أيضاً كما بين ذلك الأستاذ جلتز g'iotz(١) . وكذلك نعثر عليها لدى بعض الجماعات البدائية . ومع ذلك فمن حسن البصيرة ألا نسلم مقدما بتماثل هذه الظواهر فى جماعات يختلف بعضها عن بعض جد الاختلاف . لذلك نرانا مضطرين ألا نسلم بأن ضروب التحكيم البدائية طريقة خاصة من طرق العدالة ، وأنها تهدف إلى تحـــكيم الآلهة فى تخليص شخص محكوم عليه وقد يكون بريئا (كما كان الحال عند الاغريق الأقدمين) أو تحكم الإله الواحد فى البت فى قضية ما (كما كان فى العصور الوسطى) . وسنتجنب أيضاً إلقاء التعاريف مقدما مقتصرين فى بادىء الأمر على تحليل الوقائع التى نفضل اختيارها من بين الجماعات الافريقية حيث تحتل ضروب التحكيم مكانا بارزاً ، ولكننا لن نحجم عن استعارة بعض الأمثلة من غير هذه الجماعات بقصد المقارنه .

أول السمات التى استرعت انتباه الباحثين فى الجماعات البدائية هى ثقتهم التامة فى التحكيم بل ايمانهم به إيمانا لا يتزعزع . فقد توقف المبشرون الايطاليون فى الكنغو فى القرن السابع عشر كثيرا عند هذه النقطة حتى ليقول أحدهم : « لقد ذهلت ولم استطع اقناع نفسى بأنه يوجد أناس مهما بلغوا من الجهل يؤمنون كل هذا الايمان بتلك الضروب من الخداع البين ، ولا يسلمون بدليل واحد على الأقل من الأدلة العديدة التى كان يطرحهم المبشرون بوابل منها فى كل يوم حول هذا الموضوع . ولكنهم كانوا يعرضون عنها ويهزون

---

(١) ج . جلوتز G. Glötz : L'ordalie dans la Crèce primitive باريس ١٩٠٩ .

أكتافهم قائلين : من المستحيل أن تخدعنا اختباراتنا . ان هذا لا يمكن ـ أن هـذا لا يمـكن[1] . »

ولا يزال المكتشفون والمبشرون حتى يومنا هذا يشهدون بوجود هـذا الايمان الجبار : « يعتقد الأهالى بكل قواهم فى صدق التحكيم ، ويسارع الحمالون الذين استخدمهم إلى طلب الخضوع لتحكيم السم لاتفه إتهام[2] . » ويقول ماكدونالد : «كل الأهالى يعتقدون أن « المفاى» Mvai (سم الاختبار) معصوم من الخطأ ، فى حين أنهم يعلمون جيدا أن شهادة مواطنيهم ليست معصومة .. فالتحكيم أشد العقائد رسوخا فى نفوس هذه القبائل ، فهم إذا كانوا يعتقدون فى شىء حقا ، فليس هذا الشىء سوى التحكيم . وقد سألت « كمبانا » Kumpana قائلا : ماذا تعملون لو أن رجلا سرق عاجا ، فابتلى باختبار « المفاى » فقاءه ، ثم رؤى بعد ذلك وهو يبيع العاج المسروق ؟ » فأجابنى : « لو أن الرجل سرق العاج حتما لما قاء «المفاى » بل لابد أن يقتله » وكثيراً ما طرحت أمام الأهالى فروضا من هذا القبيل ، وأنا أبالغ فى أن أخفى عنهم قصدى من القائها ، فلم يمنعهم ذلك من أن يجيبونى على الفور بأن هذه الحالات لا يمكن أن تتحقق مطلقا[3] . » « إن السود على استعداد دائم لتناول السم ، ومن النادر أن يحاول المتهم منهم أن يتخلص من بلاء السم عن طريق الهرب ، لأنه إذا كان متأكدا من براءته لم يتحرج من تناوله .»[4] « يعتقد السود اعتقادا جازما فى أن الشخص الذى يؤمن ببراءته يستطيع شرب « المبمبو » M'bambo وهو مطمئن : إذ أنه لن يموت منه . فمثلا كنا يوما فى رحلة فضاعت من معسكرنا سكين وظننا فى بادىء الأمر أن أحد الأهالى العديدين الذين كانوا يجلسون القرفصاء بالقرب منا قد سرقها

---

(١) كافزى Cavazzi :
Istorica des crizione d'etre regnidi Congo, malamabed Angola
ص ٩٧ .

(٢) ل . دبكل La Decle : Three years in Savage Africa ص ٥١٢ .

(٣) الأب ج . ماكدونالد Africana جـ١ ص١٦٠ .

(٤) ب . بجه . Im Reiche des myata Tamwo ص ٣٩

وفى الحال ، وقبل أن نوجه إليهم الاتهام ، أعلنوا جميعا أنهم على استعداد لشرب «الميمبو» للبرهان على براءتهم . وبالطبع لم نرض نحن بذلك ، ثم وجدنا السكين بعد البحث الدقيق [1] . وعند قبائل « البسوتو » «جاءتنى فى صباح أمس امرأة من القرية المجاورة وأخبرتنى أنها ستبتلى بالماء المغلى لاتهامها بالسحر وقالت إن لها جارة شريرة دأبت منذ شهر على اتهامها بذلك حتى جعلت حياتها لا تطاق . فلما عيل صبرها اقترحت أن تبتلى باختبار الماء المغلى (أى أن تغمس يديها فيه) ، وكانت تقص على هذا الكلام وهى مطمئنة لا يبدو عليها أى خوف من الاختبار الذى كانت على وشك الابتلاء به ، وذلك لأنها كانت على يقين من أن الماء لن يحرقها مادامت تشعر بأنها بريئة » .

ولا يختلف الحـال عن ذلك فى افريقية الشرقيـة . كتب المبشر «شومان Schumann » يقول: « تقتنع قبائل « الكنده Konde» كل الاقتناع بعصمة هذا التحكيم من الخطأ ، ولذلك يحترمون الشخص الذى يقىء السم ويكرمونه . وكل الناس يشربون كاس «الموافى muavi» سواء كانوا صغارا أم كبارا ، رجالا أم نساء ، ماعدا الرؤساء وحدهم ، فانهم فى هذه الحال يستعيضون عن انفسهم بآخرين[2] (وليس ذلك فى اغلب الظن لخوفهم نتيجة الاختبار بل بسبب صفة التقديس التى تحف بأشخاصهم) . وكذلك يقول « ميرنسكى » «كل شخص من قبائل «الكنده» على استعداد دائم للخضوع للتحكيم . وشرب الموافى من طرق التحكيم المنتشرة فى القطر ، ويبلغ من انتشاره أن المرء يكاد يسمع فى كل لحظة شخصاً يقول : « أريد أن أشرب الموافى » (للبرهان على أنه محق) بل قد نسمع هذه العبارة من أفواه الصبية الصغار . والأهالى لا يشربون الموافى لاظهار البراءة أو لدفع الاتهام فحسب ، بل أيضاً لأنه وسيلة سهلة لاظهار الحق ، اذ أنه يوفر عليهم القيام باجراء تحريات مطولة

---

(١) هـ . فون فسمان Wolff... im Innern Afrikas ، ص ١٢٤ .

(٢) missions évangéliques مجلد ٨١ (ت . بيرنييه) .

لا حاجة لهم بها ما دام من السهل معرفة الحقيقة بتلقيها من كأس الموافى [1].
ومع ذلك فليس الكسل هو السبب فى التجاء الأهالى إلى التحكيم حتى لو كان الأمر لا يتعلق بجريمة ، وسنرى برهان ذلك بعد قليل . ويروى «ونتربتم» ، أن امرأة شابة اتهمت بالسحر فى إفريقية الغربية وكانت تعرف ما ينتظرها إذا أنكرت، فسلكت طريق الحكمة واعترفت . وكانت حاملا فى ذلك الحين فلم تبع بيع الرقيق ونجحت فى الهرب لدى البرض . » إلى هذا الحد وصل بهم الجهل فهم بعيدون عن افتراض الختل والمراوغة حتى أن هـذه المرأة رغم اقتناعها ببراءتها اقتصرت على القول بأن «الجريجرى سيئو النية » وأنها تتمنى أن تتاح لها الفرصة فقط لشرب «الماء الأحمر» لوثوقها من أن هذا الشراب جدير بإعلان براءتها[2] . » وفى النيجر السفلى «يعتقدون أن الأبرياء ينجون وأن الجناة وحدهم يموتون (٣) ، ومن هنا جاءت ضروب التحكيم التى تقام بالجملة بما يستتبعها من مئات الضحايا عند موت أحد الرؤساء مثلا أو عند توليته من قبيل الاحتياط .

من أين جاء هـذا الإيمان الشامل الثابت الذى يثير اشمئزاز الأوربيين ؟ كيف يضرب العمى على عين الرجل الأسود فيعرض حياته للخطر بواسطة التحكيم على مافيه من يقظة ، بل من فطنة إذا تعلق الأمر بالدفاع عن مصالحه؟ كيف لا يرى أنه بخضوعه لهذه الاختبارات يسلم نفسه موثوق اليدين والقدمين إلى المطبب الذى يجهز له الكأس المسمومة أو إلى الرئيس الذى يتخذ من هذا المطبب أداة له أو إلى أعدائه الذين يستعدونه عليه ؟ والغريب أنه إذا ماحذره المرء من هذا الهلاك البين الذى لا يخفى على أحـــد هز كتفيه أو غضب، وإذا

---

(١) فلبورن Fulleborn :
Deutsch Ost Africa فى Das deutsch Njassa und Ruoumangebiet
مجلد ٩ ص ٣٠٩ — ٣١٠ .

(٢) ت . ونتربتم
An account of the native Africans in the neighbourhood of Sierra Leon
مجلد ١ ص ١٤٢ — ٤٣ .

(٣) الماجور ا . ج. ليونارد the Lower niger snd its tribs ص ٤٨٠

ما ألح أحد عليه فى بيان مافى هذه الطريقة من الشناعة العقلية أصم أذنيه ، إذ لا سلطان لأى حجة عليه فى هذا السبيل .

لا ينبغى لنا أن نحكم بأن هذا الاصرار مجاف للعقل أو غير قابل للتصور، بل يجب علينا بدلا من ذلك ، أن نرجع إلى مسالك أخرى من مسالك العقلية البدائية التى تنطوى على إيمان من هذا القبيل ، وحينئذ فقد يبدو لنا أقل غرابة. ولنتذكر مثلا ذلك الأسود الكنغوى الذى راح يؤكد « لبنتلى » أن التماسيح مسالمة وأنها لاتهاجم الانسان ، وذلك فى اللحظة نفسها التى كان فيها يعرض عليه خلخالين نسويين وجدا فى معدة تمساح ، أو ذلك « الرنجا » Ronga الذى كان يستشير قطع العظام لتشير عليه بالدواء الذى يجب أن يعطى لأحد المرضى. فالواقع أننا إذا افترضنا أن هؤلاء البدائيين يفكرون مثلنا ، أعنى أنهم يتصورون ارتباط الأسباب بالنتائج ، كان معنى ذلك اننا عدلنا مقدما عن فهمهم ، وحينئذ فلا بد أن يبدو لنا كل تفكيرهم وعملهم من الأمور المضحكة التافهة . ولكن إذا عدلنا عن افتراض أنهم يستحوذون على نفس العادات العقلية التى لدينا ، وحاولنا أن نساير مسلكهم العقلى الذى لايبالى بأبسط الارتباطات السببية ويحصر اهتمامه على القوى الغيبية والخفية وحدها. فحينئذ فقط نستطيع أن نرى أن طريقتهم فى التفكير والعمل نتيجة طبيعية بل ضرورية لهذا المسلك.

لا يستطيع الأوربى أن يتغاضى عن الاهتمام بالنتائج الفسيولوجية للسم أولا وقبل كل شىء — وتبعا لذلك تختلف نتائج الاختبار فى نظره باختلاف شدة العقار الذى يدخل الجسم وكميته . فاذا كانت الجرعة كافية قضت على الشخص الذى يتجرعها سواء أكان جانيا أم بريئا ، وإذا كانت تافهة لم تصب شر المجرمين بأى ضرر . ويدهش الرجل الأبيض أن يرى الواحد من الأهالى يغض بصره عن بديهيات بسيطة من هذا القبيل .

ولكن وجهة النظر التى يحكم السود بمقتضاها مختلفة عن ذلك كل الاختلاف . ففكرة مانسميه نحن بالسم ليست محددة فى أذهانهم تحديداً واضحا. نعم أغلب الظن أنهم يعرفون بالتجارب أن منقوع بعض النباتات يستطيع

قتل من يشربه ، ومع ذلك فانهم يجهلون عمليات التسمم ولا يسعون إلى معرفتها ، بل لا يخطر ببالهم أنها موجودة . فعندهم أن هذه المنقوعات لا تؤدى إلى الموت إلا لأنها مطايا لبعض القوى الغيبية ، شأنها فى ذلك شأن الدواء الذى يستعملونه فى الأمراض والذى لا يفسرون تأثيره الناجع الا على هذا النحو . يقول الاستاذ « نساو » nassau « لا يعتقدون مثلنا أن العقاقير تفعل فعلها بفضل خصائص كيميائية معينة ، بل لوجود روح تتخذ من هذه العقاقير مطاياها المفضلة . » وتقول الآنسة « كنجلى » Kingalay بدورها : « لا يحدث عندهم أى حدث إلا بفضل وجود روح تؤثر على روح أخرى . » فروح الدواء إذن هى التى تؤثر على روح المرض . وهذا هو عين ما يحدث أيضا بالنسبة إلى سم الاختبار . فالسود لا يدركون خصائصه الإيجابية ، بل لا يفكرون إلا فى قدرته الغيبية الفوريه ويحسن الأستاذ « ونتربتم » كل الإحسان إذ يقول فى هذا الصدد : « إنهم لا يعتبرونه سما لأنهم يعتقدون أنه لا يميت الشخص الذى يشربه إذا كان بريئا[١] . » فهو عندهم عبارة عن رد فعل غيبي ولذلك يعتبرونه معصوما من الخطأ . وهم يؤمنون بهذه الحقيقة إلى أقصى حد ، حتى أنهم لا يتخذون أى احتياط قبل إجراء الاختبار . فنرى المتهم مثلا لا يستعمل حقه فى الإشراف على تحضير السم وإختبار الجرعة لمعرفة مقدار تركيزها وكميتها والتأكد من عدم تجاوزهما الحـــد المقرر . . . . والواقع أنهم يرون أن الاحتياط أمر عديم الفائدة ما دام المشروب لا يؤثر بمادته ، بل بروحه ، إذا جاز لنا هذا التعبير . فلا أهمية إذن لكمية المادة التى يشربها المحكوم عليه أو لكثافتها ، لأن نتيجة الاختبار لا تتوقف عليها . نعم « إنهم يجعلون للمتهم الحق فى أن يشترك فى اختيار الشخص الذى يقوم بسحق السم ، ولكن الأهالى يؤمنون بالتحكيم إلى الحد الذى يجعلهم لا يعلقون أى أثر على شخصية هذا الفرد باعتبارها من التفاصيل التافهة[٢] . »

---

(١) ب ، ونتربتم Th. Witerbottom : المرجع نفسه جـ١ ، ص ٢٧٠

(٢) الأب جـ . ماكدونالد : Africana ، مجلد ١ ، ص ٢٠٤ .

— ٢ —

يبدو لنا حتى الآن أن التحكيم إجراء سحرى يقصد منه إظهار صدق الاتهام أو كذبه بطريقة لا تقبل الشك. وقد ذهل معظم الباحثين من استعماله هكذا بصفه دائمة لدى بعض الجماعات. وهذا هو الاستعمال الوحيد الذى يعرفونه ولا يكادون يذكرون سواه، مع تعبيرهم عن دهشتهم وسخطهم على تفشيه. ولكن التحكيم يستعمل أيضا فى ظروف أخرى لا تمت إلى الإجراءات القضائية بصلة. يقول بنتلى: «ليس من النادر أن يلجأ الأهلون إلى تحكيم السم من أجل البت فى مسائل أخرى. فمن ذلك أن امرأة شابة تعيش الآن بالقرب من محطتنا فى واذن Wathen لجأت منذ بضع سنين إلى تعاطى سم النكاسا nkasa فى أثناء مرض عمها لكى تكشف عما إذا كان سيبرأ أم لا. ولم تكن فى هذا الحين قد جاوزت الثانية عشرة من عمرها [١].» وكان أهالى هذا الاقليم نفسه يستعملون التحكيم بالماء المغلى أيضا لمعرفة النتيجة التى سينتهى إليها أحد المرضى. «فيضع المطبب فوق النار قدرا مملوءاً بالماء المخلوط ببعض العقاقير. وحينما يغلى الماء يغمس فيه يده ويخرجها سليمة ليبرهن للآخرين على أن ذلك أمتياز خاص بوظيفته. وبعد ذلك يتلو على الماء رقيته الملعونة وكأنه يدعى أن الماء يسمع كلامه ويطيع أوامره، فيأمره بالكشف عما إذا كان المريض سيموت أم لا. ثم يغمس يده فيه من جديد، فإذا خرجت منه محروقة كان ذلك فألا بالموت المحقق، وإذا خرجت سليمة كان شفاء المريض أمرا مؤكدا [٢].»

أليس التحكيم فى هاتين الحالتين صورة من العرافة مشابهة كل المشابهة

---

(١) و. هـ. بنتلى: Pioneering on the Congo، ج ١ ٣٧٨ — ٧٩.

(٢) كافزى Cavazzi:

Istorica des crizione de'tre regionidi Congo, Matamba ed Angola ص ٨٢.

للصور التى رأيناها فى الفصل السابق ؟ ثم ألا يجب تفسيره هنا بنفس المعنى الذى فسرنا به الحالات السابقة ؟

وقد يستعمل الاختبار بوساطة سم «الموافى» استخدام الأعمال العرافية الأخرى . أى للخروج من الحيرة التى تنشأ من صعوبة مفاجئة . فاذا رأى الأهالى مثلا رجلا أبيض لم يروا مثله من قبل ، فقد يظنون أن فى جعبته من الأسرار مالا يعلم أحد مداه وأن فى حوزته من القدرة السحرية ما يهلك الحرث والنسل وأنه قد يكون مصدرا الكوارث غير مأمونة العاقبة . وحينئذ نراهم يتساءلون عما إذا كان من الخير أن يسمحوا له بدخول أرضهم أم لا . « عقد لوكنجو Lukengo مجلسا كبيرا من أعضاء الأسرة بمعاونة الشعب كله ، وأمر باحضار ديك وإعطائه سم « الإيبوم » ipomme ، ثم قرر أنه إذا قاء الديك السم كان ذلك دليلا على أنى جئت إليهم صديقا ، وإذا مات وجبت معاملتى معاملة الأعداء الحقيقيين [1] » . ومنـــذ عشر سنين قال الملك « لوانيكا » Lewanika للمبشر « كويار » Coillard : لما قدمت هنـا للمرة الأولى ارتاب « البارتشيون » فى نواياك وأسرعوا باستشارة العظام وتقديم « الموافى » muafi (وهو سم عنيف) لعدد من الدجاج ، فمات بعضه ونجا البعض الآخر . وهذا هو السبب فى إبهام الرسائل التى أرسلوها إليك من هنـا ، إذ أنهم لم يجرؤوا على إغلاق القطر فى وجهك صراحة ، ولكنهم فى الوقت نفسه أوجسوا خيفة من استقبالك ؛ ولذلك اعملوا حيلهم لكى يسدوا عليك الطريق ويثبطوا همتك عن القدوم . اما المعطف الذى بعثت به إلى وسائر الهدايا التى تلته ، فانها لم تصل إلى قط ؛ لأنهم أعلنوا أنها مسحورة وحجزوها فى الطريق [2] » . ويمكننا أن نزيد على هذه الحوادث حادثة أخرى مشابهة شوهدت لدى الميريين miris فى الهند ، وهى : « لما وصل إلى هـذه الجبـال أول ضابط

---

(١) هـ . فون فسمان H. Von Wissmann : Im Innern Africas ...Wolff.

(٢) Missions évangéliques ، مجلد ٦٤ ، ص ٤٤٧ .

انجليزى رآه الأهالى ، هب العرافون فى كل قرية وراحوا يذبحون الطيور ليتعرفوا من منظر أحشائها إذا كان الزائر الجديد يحمل اليهم خيرا أم شرا[1]. فهذه الحالة لا تختلف عن الحالات السابقة فى شىء ، اللهم الا فى الأشياء المادية المستعملة . واذا كان موضوع الأعمال العرافية ينحصر — كما رأينا — فى طلب النصيحة الى القوى الخفية ورجاء عونها وحمايتها مع محاولة الكشف عن النجاح المستقبل الذى يعتبر متحققا بالفعل ، أفلا ينبغى لنا أن نعتبر التحكيم أيضا من قبيل هذه الأعمال ، ما دام يؤدى وظيفتها ؟

وكذلك نعرف أن أفراد «الدياك» Dayaks فى « بورنيو » لا يبدءون فى إعداد الأرض للزراعة إلا بعد الحصول على موافقة الفؤول الحسنة على اختيار قطعة الأرض . أما أفراد « الواكندا » Wakanda فإنهم إذا أرادوا تشييد منزل فى مكان ما ، لجأوا إلى إحدى الآيات العرافية ، بأن يقدموا سم « الموافى » إلى ديك أو كلب . فإذا قاء الحيوان المشروب ، اعتبروا المكان صالحا وشرعوا فى العمل تحدوهم الرغبة فى نجاحه [2] . وهكذا نرى أن المبشر «شومان» Schumann يستخدم هنا عبارة «آية عرافية» oracle للدلالة على التحكيم ، والواقع أن التحكيم ليس إلا فألا مستشارا .

وهذه قصة أخرى ذات دلالة هامة فى هذا الموضوع ، وقد وردت عن قبائل «الخند» Khonds فى الهند ، وهى : «قسم (تحكيم) الدجاجة قسم صغير يراد به معرفة ما إذا كان يجب القيام بقسم آخر أكبر منه ، فمثلا إذا أريد إلزام شخص ما بقسم الحديد أو النمر ، عمد هذا الشخص أولا وقبل كل شىء إلى دجاجة فغمس رجليها ثلاث مرات فى الماء المغلى وهو يقول : بورا Bura الذى

---

(١) دلتون Dolton : Descriptive Ethnology of Bengal (Hill Miris) ص ٣١ .

(٢) فلبورن :
Das Deutsche Nyassa und Ruwunga gebiet, Deutseh Ost Afrika
فى مجلد ٢٩ ص ٣١٠ (ملاحظة) .

فى أعلى ، بورا الذى فى أسفل ! إنك خلقت الأرض ، وصنعت الأوراق والأشجار والأبقار ... الخ ، وها أنذا على وشك القيام بقسم . فإذا كنت جانيا ، فلتحرق رجلى هذه الدجاجة [١] فمثل هذا الشخص لا يستسلم بادىء ذى بدء لتحكيم قد يودى بحياته (وهو قضاء ليلة بأسرها خارج القرية معرضا لهجوم النمر عليه وفتكه به) ،ولذلك يقوم من ذات نفسه بتحكيم آخر يتوقف عليه القرار الذى يتخذه : ولا شك أن هذا التحكيم ليس إلا مجرد عمل عرافى بالخايرة . ولكن أليس «القسم الصغير» فى نظره من طبيعة «القسم الكبير» بالضبط فيما عدا الخطر الذى يترتب على هذا الأخير ؟ وإلا فكيف يمكنه أن يحكم بمقتضاه على نتيجة القسم الكبير ؟

ولنختم كلامنا عن هذه النقطة بما كتبه «بنتلى» فى القاموس الذى كتبه عن لغة الكنغو حيث يذكر أن التحكيم (سواء أكان بوساطة السم أم الحديد الأحمر أم إدخال حبة اللؤلؤ فى طرف العين أم غير ذلك) يسمى «نكاسا» nkasa ، وأن استشارة الطالع مهما كان نوعها تسمى بهذا الاسم أيضا مع إضافة اسم الأدوات المستعملة فى الاستشارة إليه. فعبارة «نكاسازنيانجا» nkaszanianga مثلا معناها استشارة الطالع بوساطة العشب المسمى «نيانجا» [٢] وهكذا نجد الكلمة الواحدة تستعمل فى التعبير عن فكرة العرافة وفكرة التحكيم على السواء . وسكان الكنغو لا يميزون بين العمليتين ، من حيث جوهرهما على الأقل . أما وسائل الإجراءات المادية فقد تختلف : وهى مختلفة بالفعل فيما يتعلق بالعمليات التى نطلق عليها نحن اسم العرافة بمعناها الضيق. ولكن الهدف المطلوب واحد فى جميع الأحوال . ومع ذلك فليس من الدقة أن نقول بأن

---

(١) ب . رسيون P. Rossillon : Moeurs et coutumes du peuple Kui فى Anthropos مجلد ٧ ، ص ٦٦١ — ٦٢

(٢) و . هـ . بنتلى : Dictionary & grammar of the Congo Language ص ٥٠٥ — ٥٠٦ .

العرافة تعتبر جنسا وأن التحكيم نوع من أنواعه ؛ إذ أن هـــذا الضرب من التصنيف لا يناسب صور النشاط لدى العقلية البدائية التي لا تعرف التصور المعنوى بأيه حال . فالعرافة والتحكيم ينتسبان كلاهما إلى نوع واحد من التفكير والفعل ، وبمقتضاهما تتصل هذه العقلية بالقوى الخفية لتلتمس منها الحكم والعون على السواء .

وإذا كان الأمر كذلك فإن التحكيم يستخدم فى فض المنازعات المتنوعة فمثلا حدث عند «الدياك» فى بورنيو «أن تنافس شابان على طلب يد فتاة : وتحدى كل منهما الآخر واتفقا على أن يفوز بها من يستطيع منهما أن يظل تحت الماء مدة أطول من مدة صاحبه . والحقيقة أن هذا النوع الغريب من المبارزة ليس خاصا «بالكنتو دياك» Kantu Dayak ، بل يستعمل أيضا لدى قبائل «الباتنج لوبار» Batung Lupar و «السريباء» Seribas وفى قبائل أخرى من قبائل «السرواك» Sarawak . فإذا بدا على أحد المتخاصمين ما ينبيء بإشرافه على الاختناق ، سارع الشهود الموجودون عن قرب بإخراجهما معا ، إذ أن كلا منهما على وجه العموم يصر على عدم الخروج من الماء باختياره ويفضل الغرق على الاعتراف بالهزيمة : فمن الشرف عندهم ألا يهزم المرء فى اختبار من هذا القبيل . ومن عادات الأهالى أن يلجأوا اليه فى كثير من المسائل ولا سيما اذا لم يجد وا وسيلة أخرى لفض نزاع ما . وهم يحاولون فى معظم الأحيان أن يبتوا فى المسألة التى أمامهم عن طريق قتال الديكة أولا ، فإذا لم يجدوا له نتيجة لجأوا الى ماهو أخطر منه ، وهو الإختبار بالغطس فى الماء [١] » .

يعتبر هذا التحكيم الأخير اذن نوعا من الاستئناف بعد عجز القتال الذى قامت به الديكة عن اظهار الحق . ولكن الغرض من هذا القتال هو الكشف

---

(١) ا . بكارى O. Beccari : Wanderings in the forests of Borneo ص ١٧٧ــ١٧٩ · وقارن : سبنسر سان جون فى كتابه : Life in the forests of the Far-East. جـ ١ ، ص ١٩١

عن الجهة التى تقف القوى الخفية فى جانبها ؛ لأن الديك المنتصر لا يتغلب على الآخر الا برضائها ومعونتها ، مادامت ذاتية كل من المتحاكمين متحدة بذاتية ديكه كل الاتحاد بفضل المشاركة الدائمة بينهما . فالاختبار فى هذه الحال يشبه العرافة بالخايرة تمام الشبه : وليس التحكيم بالغطس الذى يستأنفون اليه الحكم الا عملية عرافة من هذا القبيل أيضا .

وهذا نوع آخر من التحكيم يرويه بعض الباحثين فيقول : « يسوى الأهالى كثيراً من منازعاتهم بطريقة سلمية . فيضعون شمعتين صغيرتين متساويتى الطول والقطر : ثم يشعلونهما فى وقت واحد ويمسك المدعى باحداهما والمدعى عليه بالأخرى . ومن تنطفىء شمعته منهما قبل الآخر يعتبر مخطئا . وقد ذكر السير « سبنسر سان جون » هذه الصورة من التحكيم [1] . ولعل هذه الطريقة تذكرنا ببطل رواية « رابليه » Rablais المسمى « بريدوازون Brid'aison » الذى كان يحكم فى القضايا تبعا لنتيجة الزهر . ولكننا إن ضحكنا منها نحن ، فلا شك أنها لن تثير ضحك البدائيين مطلقا . بل إنها فى نظرهم أقرب الطرق إلى الطبيعة كما أنها أبسطها وأحقها بالثقة . ومهما كانت الأداة التى تستخدم فى هذه العملية (أى سواء أكانت شمعة أو بعض قطع العظام أو الزهر أو الديكة أو غيرها) فإنها تساوى الرؤيا التى يحصلون عليها فى الحلم والجواب الذى يتلقونه من الأسلاف حين يسألونهم . فإذا كان هناك شخصان مثلا كان فى استطاعتها أن تبين أيهما سينتصر وأيهما سيقضى عليه . ويصرح « تشالمرز » بأن الأهالى يقبلون الحكم دائماً دون صعوبة ، وأن المحكوم عليه ينصاع له ولا يحتج باسم الحق الذى قد يكون فى جانبه . وذلك لأن هدف هذا الاختبار ينحصر بالذات فى تعيين الجهة التى بجانبها الحق . والأهالى أنفسهم لا يناقشون حكمه ولا يفكرون فى الارتياب فيه مجرد تفكير . وإذا أردنا أن نكون لأنفسنا فكرة عن هذه الحال العقلية

(١) و . تشالمرز W. Chalmers فى كتاب هـ . لنج روث : The nature of the Sarawaks ج ١ ، ٢٣٠ .

التى تبدو لنا غريبة ، فما علينا إلا أن نتذكر أنها غير بعيدة عن حال المقامرين . فهم أيضاً يلتمسون الحكم من الزهر أو الورق ، ولا يحتج الخاسر منهم ضد حكمهما مهما كان محزونا مكدودا محنقاً ، مادام اللعب قد تم وفقا لقواعـده بإخلاص . وتنحصر الطريقة الوحيدة لمراجعة هذا الحكم فى استئناف اللعب وتجريب طالعة مرة أخرى إذا أمكن ذلك . وكذلك نرى البدائيين فى بعض الحالات يستأنفون تحكيما إلى تحكيم آخر .

وفى بورنيو (سرواك) يستعملون عادة أحد التحكيمات الآتية ، إذا كان النزاع خاصا بدين أو بعض المسائل التافهة الأخرى :

١ — تغطى بالشمع قطعتان من النقود متساويتان فى الحجم بعد أن تنظف إحداهما وتصقل . ثم توضعان فى إناء مملوء بالماء والرماد . وبعد ذلك يسحب كل طرف من المتخاصمين قطعة من القطعتين ويسلمها للمنديرين Mandirs (القضاة) ، فيعلن هؤلاء القضاة أن الحق فى جانب الطرف الذى نجح فى إخراج القطعة البراقة .

٢ — يغطس الطرفان المتنازعان فى الماء ، وتوضع فوق رأسيهما عصا أفقية لحجزهما فيه ؛ فأيهما خرج من الماء أولا عد جانيا .

٣ — يصنع صندوقان من الألواح الخشبية بحيث يصل ارتداع كل منهما إلى صدر الرجل . ويوضع كل من المتخاصمين فى صندوق منهما ، ثم يوضع الصندوقان متواجهين وبينهما مسافة قدرها سبع قصبات . ويعطى كل من الطرفين غابة مدببة فى طول الرمح ليقذف بها صاحبه عند صدور علامة معينة . فمن خرج منهما أولا عد جانيا .

٤ — يخط طريقان متوازيان طول كل منهما سبعون قصبة ، ويفصل بينهما بمسافة قدرها قصبتان ، ويوضع فى المسافة التى تفصل بينهما بالقرب من نهايتهما رمح مغروس رأسيا فى الأرض . وعند صدور علامـة معينة ينطلق الخصمان عدوا . فمن وصل منهما الهدف ومس الرمح قبل صاحبه عد بريئا .

٥ — تختار دجاجتان متشابهتان جسما ولونا تمثل كل منهما دعوى أحد الخصمين . وتوضعان بحيث يكون عنقاهما متوازيين بحيث يمس رأس كل منهما كتف الأخرى، ثم يقوم أحد الأشخاص بفصل رأسيهما بضربة واحدة . فمن ماتت دجاجته أولا فقد دعواه .... الخ[1] » .

من اليسير أن نسترسل فى تعداد هذه التحكيمات . ولكن لعل ما ذكرناه منها يكفى لبيان اختلافها فى المظهر مع اتحادها فى الجوهر . فهى جميعها تهدف إلى تمييز «الجانى» من «البرىء» وهما مصطلحان يعادلان «الخاسر» و «الرابح» ومهما كان الاختبار ، فإن الأهالى يعتقدون أن طابعه الغيبي يضمن له العصمة، لأنه مثل الأعمال العرافية يكشف عن حكم القوى الخفية . فإذا كسب السباق أحد الخصمين مثلا . فليس ذلك لأنه أسرع من الآخر أو خير منه عدوا ،بل لأن القوى الخفية الموالية له تغلبت على القوى الخفية التى تحمى غريمه . وهنا أيضاً إذا حاولنا إرجاع النتائج إلى أسبابها الحقيقية التى نسميها بالأسباب الطبيعية ، فإننا نحيد عن الطريق الذى تتبعه العقلية البدائية ، فتبدو لنا بعيدة عن المعقول . والواقع أنها ، على العكس من ذلك ، منسجمة مع نفسها ، مادامت قد ارتبطت بمراعاة القوى الخفية وحدها دون أى التفات للعلل الثانية (الطبيعية). وغرض التحكيم كغرض العرافة ينحصر فى حمز هذه القوى إلى إعلان رأيها. ولذلك نرانا نعثر لدى كثير من الجماعات البدائية على اختبارات مماثلة لما شهدناه فى بورنيو . ففى الكنغو مثلا «إذا تنازع شخصان وأصر كل منهما على دعواه دون أن يستبين وجه الحق من كلامهما ، دعاهما القاضى للمثول أمامه . فإذا حضرا وضع على رأس كل منهما محارة سلحفاة مدلوكة بمساحيق معينة ، وبعد ذلك

---

(١) ك . ا . م . شوانر G. A. M. Schwaner
Ethnological notes in Linth Roth, The natives of Sarawak
، مجلد ٢ ، ص ١٨٨ .

يأمرهما بخفض رأسيهما فى وقت واحد . فمن خانه الحظ وسقطت محارته قبل الآخر عد كذابا كبيراً[١] . »

— ٣ —

والآن إذا رجعنا إلى ضروب التحكيم المستعملة فى الأمور الجنائية ، وجدناها مشابهة للتحكيمات الأخرى التى لا يمكن تفسيرها إلا على غرارها . هذا إلى أن معنى المسائل الجنائية نفسه معنى مبهم . فأغلب الظن أن هذه الجماعات أيضاً تعرف بعض المنازعات التى تقع عندنا تحت طائلة القانون المدنى . وهم يسوونها على وجه العموم عن طريق المناقشات ، حيث يدافع كل واحد من المتخاصمين عن دعواه التى يترافع فيها بإسهاب ويقدم لها الشهود وغير ذلك . والرئيس هو الذى يصدر الحكم بمساعدة الأشخاص المسنين فى غالب الأحيان . ولكن قد تنتهى هذه القضايا إلى التحكيم للحسم فيها ، كما يجوز للمتخاصمين أن يطلبوه بأنفسهم . ويشير هذا الخلط الدائم بين مصطلحى « جان » و « خاسر » الذى تكلمنا عنه منذ قليل إلى أن أبسط الفروق القضائية فى نظرنا تعد غريبة بالنسبة إلى العقلية البدائية .

« إذا اتهم شخص بجريمة ما ولم تكن التهمة الموجهة إليه واضحة وضوحا كافياً ، أجبر هذا الشخص على إظهار براءته بوساطة قسم (أى بوساطة تحكيم): ويتحقق ذلك بخمس طرق ، الأربع الأولى منها خاصة بالمسائل المدنية والمسائل التى لا أهمية لها ، أما الخامسة فتستخدم فى المسائل الجنائية كجريمة الخيانة والاعتداء على حياة الملك والجرائم الأخرى التى من هذا القبيل . ولكن لا يباح القيام بهذا القسم إلا لذوى المكانة ، وحينئذ يتحتم عليهم أن يحصلوا مقدما على موافقة الملك . وهذه هى الطرق :

١ — يقاد المتهم إلى القس الذى يتناول ريشة دجاجة ويسخنها ثم يثقب

---

(١) ميرلادى سرنتو Merollada Sorrento :
Relazione del viaggio nel regnodi Congo (١٦٩٢) ص ١٠٠ — ١٠١ .

بها لسانه . فاذا غارت الريشة فى لسانه بسهولة ، دل ذلك على براءته . وهم يعتقدون فى هذه الحال أن الثقب الذى أحدثته الريشة يبرأ ويلتئم دون ألم . أما اذا كان المتهم جانيا ، فان الريشة لا تستطيع النفاذ فى لسانه ، ولذلك يحكم عليه فى الحال .

٢ — يأخذ القس قطعة من الطين ويدخل فيها سبع ريشات أو تسع ثم يأمر المتهم بانتزاعها تباعا . فاذا خرجت بسهولة كان ذلك علامة على أنه برىء ، واذا تعسرت فى الخروج عد مذنبا .

٣ — يصب فى عينى المتهم رحيق مأخوذ من بعض الأعشاب ، فاذا لم يصب بسوء من جراء ذلك كان بريئا . أما إذا أصيبت عيناه بالحمرة والورم فإنه يضطر إلى دفع الغرامة التى يحكم عليه بها .

٤ — يأخذ القس سوارا ملتهبا من النحاس ويدلك به لسان المتهم ثلاث مرات ، ثم ينظر إذا كان قد أصابه ضر من جراء ذلك أم لا ليحكم بما إذا كان بريئا أم جانيا .

« وقد رأيت هذه الإختبارات الأربعة تجرى حينما كنت هناك ، ولكن جميع الأشخاص الذين أجريت عليهم عدوا من الجناة ... أما الإجراء الخامس والأخير فلم أشاهد إجراءه قط ، إذ لا يكاد المرء يرى مثلا منه إلا فى كل عشرين سنة ، لذلك لا أعرف عنه شيئا سوى ما سمعته من أفواه الناس [١] » .

من السهل أن نرى فى هذه الضروب من التحكيم طابع الأعمال العرافية بوساطة المخابرة الذى رأيناه فى الصور السابقة ، وذلك لأن الكاهن يقوم أولا بالطقوس التى تساعد على الانتقال إلى عالم القوى الخفية ، ثم يعرض السؤال بشكل يجعل النتيجة المنتظرة تحمل جواب هذه القوى إما بلا وإما

---

(١) و . بسمان W. Bosman : Voyage de Cuinée (الخطاب الحادى والعشرون) ص ٤٧٨ — ٨٠ .

بنعم . ولكنها مع ذلك تختلف عن تلك التى ذكرناها منذ قليل فى أنها جميعا (ماعدا الثانى منها) تقع على شخص المتهم نفسه . فالذى يكشف عن براءته أو جرمه هو رد الفعل الذى يصدر عنه كأن يجرح أو لايجرح ، وكأن يبرأ جرحه بسرعة أو ببطء ، وهلم جرا . وليس مما يتغاضى عنه الباحث المدقق أن يرى التحكيم ينصب هكذا على شخص المتهم نفسه ، إذ قد رأينا من قبل أنه يمكن إجراؤه بطريق الإنابة ، حيث ينيب المتهم عن نفسه شخصا أو شيئا يمثله ، كما قد رأينا فى حالات أخرى أن هذه الرخصة لا تباح له ولذلك يتحتم عليه أن يبلو الاختبار بنفسه ، فما هذه الحالات يا ترى ؟ لعل دراسة هذا السؤال تتيح لنا أن نستبين طبيعة تلك التحكيمات بعض الشىء .

يقول ماكدونالد : « يمكن فى الجرائم الخفيفة أن يؤخذ السم بالوساطة ، فيعطى لكلب أو طائر أو حيوان آخر يمثل المتهم . وفى هذه الحال يربط الحيوان بالمجرم بوساطة حبل [1] . » (أغلب الظن أنهم يفعلون ذلك لتحقيق المشاركة بصورة مادية .)

ولدى قبائل « الواجوجو » wagogo يمكن المتهم فى الحالات القليلة الخطورة أن ينيب عنه دجاجة فى تناول سم « الموافى » على شرط أن يمسكها بيده أثناء تناولها إياه [2] . » وفى النيجر العليا « يعاقب على القتل والسرقة بالموت ؛ وعلى الزنا بغرامة كبيرة كالمصادرة أو بالاسترقاق ، بينما يفرض الاختبار بالسم على الأشخاص المتهمين بالكذب أو الغيبة ؛ ومع ذلك فمن غير النادر أن يسمح للمتهم بالاستعاضة عن شخصه فى أخذ الشراب المسموم ، كما أن فى استطاعته أن يجد أشخاصا يعرفون ترياقا للسم . وبذلك يتجرعونه دون أن يصابوا منه بأذى . بل تباح الاستعاضة بالكلاب أيضا ، ولكنها إذا ماتت اعتبر صاحبها

---

(١) الأب ج . ماكدونالد : Africana ، مجلد ١ ، ص ٢٠٤ .

(٢) هـ . كاوس H. Claus : Die Wagonga فى Bässler Archiv كراسة ٢ ، ص ٥٦ .

جانيا وحكم عليه بغرامة كبيرة (١) » - وحدث عند قبائل «البنجالا» (الكنغو العليا) » أن اتهم ثلاثة صبية صغار بالسرقة وأنكروا هذا الاتهام غاضبين . فقطع الأهالى ثلاث أشجار صغيرة من أشجار الموز لتمثل كل واحدة منها أحد الصبية ، ثم عصروا شيئا من رحيق «الموكنجو» mukungo فى وسط كل من الأرومات الثلاث التى بقيت فى الأرض. ومن المعروف عادة أن شجرة الموز إذا قطعت على هذا النحو بدأت فى إخراج برعم جديد من وسطها بعد بضع ساعات . ولذلك إذا لم تشرع إحدى الأرومات فى إخراج بعض البراعم منذ صباح اليوم التالى ، عد الصبى الذى تمثله مذنبا ، وإذا لم تنبت براعم لاثنتين منها ثبتت التهمة على صبيين ، وإذا بقيت الثلاث دون براعم اعتبر الصبية الثلاثة جميعا مذنبين . . . وهكذا لما كان من خصائص رحيق « الموكنجو » أن يهلك العيون فقد استعاض الأهالى عن عيون الصبية بعيون أشجار الموز شفقة بهم (٢) . » — «وعند زنوج «الصنجو» Songo يجرى الاختبار فى حالات السرقة بوساطة السم ، وهم يقدمونه إما لبعض الأطفال وإما للكلاب. فيجىء الطرفان (المدعى والمدعى عليه وأصدقاؤهما) ويأتى مطبب محايد فيعطى ممثل كل طرف من الطرفين جرعة مساوية من السم . وبعد ذلك ينقسم المتخاصمون إلى معسكرين ، ويتقدم «المتحاربان» فى الوسط حيث يقف أحدهما فى مواجهة الآخر . ويقدم لهما الشراب ليتناولاه . فإذا امتنعا جرعاه بالقوة . وحينئذ يأخذ أفراد كل معسكر فى الصياح جماعة وهم يقولون : «كلبى هو الذى سيظل حيا ، أما كلبك فسيموت !» أو «طفلك سيموت وطفلى سيبقى حيا!» ، وتستمر هذه الضوضاء التى تصم الآذان حتى يبدأ السم فى إحداث أثره . فإذا لم يظهر له أثر أعادوا الكرة مرتين أو ثلاث . والرابح هو الذى يقىء السم أولا ،

---

(١) ا.ب . مكلر-فريمان A. F. Mockler — Ferriman : up the niger ص ٤٦ — ٤٧ .

(٢) الفس ج . هـ . ويكس : Anthropoloagical notes on the Bangola of the upper. Congo-river فى J. A. I. مجلد ٤٠ ، ص ٣٦٤ :

وإذا سقط أحد المتقاتلين، تحت نوبات المغص، عد خاسرا. ولكن لا يحدث عادة أن يصل الأمر إلى حـــد الموت، لأن جرعة السم التى تقدم ضئيلة جدا [1]. »

يمكننا أن نذكر أمثلة كثيرة من هذا القبيل عن هـذه الجماعات الإفريقية نفسها أو غيرها. وعلى كل حال لا يسمح بالإنابة (فيما عدا الحالات المستثناة ولا سيما بالنسبة إلى الرؤساء) إلا فى الجرائم التى لا خطر لها كالسرقات التافهة والغيبة وما ماثلها. وفى حالة الاختبار التمهيدى لمعرفة ما إذا كان من اللازم إجراء اختبار آخر قد يكون مميتا. « أما طريقة اكتشاف الساحر فتجرى كما فى القصة الآتية: مات رجل فى إحدى القرى منذ ثلاثة أسابيع. ولما كان الأهالى يعتقدون أن الإنسان لا يموت إلا عن طريق القتل أو السحر، فقد انبرى أحد إخوته قائلا: سأعرف الشخص الذى قتل أخى. لا بد أن يكون أخى الأكبر هو الذى فعل ذلك. ثم أخذ أربع دجاجات أو خمسا وأعطاها سما وقال: إذا مت أيتها الدجاجات، كان ذلك دليلا على أن أخى الأكبر قد قتل أخى الآخر، وإذا لم يصبك السم بضرر كان أخى الأكبر بريئا وثبت أن أخى الآخر قد مات من تلقاء نفسه ... وبالطبع ماتت الدجاجات كلها واقتيد المتهم أمام الرؤساء [2]». ولا شك أنهم أرغموه على الخضوع لتحكيم لا يسمح فيه بالإنابة.

نرى من ذلك أن الاختبار العرافى - أى التحكيم - قد ينصب على المتهم نفسه كما قد ينصب على رقيق أو طفل أو كلب أو ديك يمثله. ومع ذلك فقيمته فى كلتا الحالتين واحـدة تبعا للمشاركة القائمة بين المتهم ونائبه. ويدل ذلك على أن للتحكيم الذى لا يصرح فيه بالإنابة هدفا آخر إلى جانب وظيفته العرافية،

---

(١) ب. بجه P. Pagge : Im Reiche des Muata Jamwo، ص ٣٦ — ٣٧.

(٢) Missions évangeliques، مجلد ٦٤، ص ١٧٩ (لوى جلا Louis Jalla).

وأنه من المستحيل إصابة هـــذا الهدف إلا إذا انصب التحكيم على شخص المتهم نفسه .

والواقع أن الأفراد الذين لا يسمح لهم بالإنابة عن أشخاصهم فى تكبد الاختبار يكادون يكونون جميعا من المتهمين بالسحر ، فلابد أن ينصب التحكيم على أشخاصهم . ولكن هناك أدلة قاطعة على أن التحكيم لا يقصد به فى هذه الحال الكشف عما إذا كان المتهم مجرما أم غير مجرم ، بل يقصد منه هدف آخر لا يقل عن هذا أهمية ، وهو محاربة بذرة الشر الكامنة فى الساحر وإهلاكها ، إذ أن هذه البـــذرة تعتبر السبب الحقيقى فى كل جرائمه . وهذا هو السبب فى إلتزامهم إجراء التحكيم على الساحر حتى ينكشف أمره ويفتضح سره ويحكم عليه ، بل حتى بعد إعترافه الصريح . فلو أن الأمر لا يتعلق إلا بالحصول على اليقين ، ولو أن العملية كانت عرافية بحتة ، لما كان هناك مايدعو إلى إجراء التحكيم ، ومع ذلك فإنهم حتى فى هذه الحال يعدونه أمرا لا مفر منه : فهم إذن لا يكتفون بالتخلص من شخص الساحر ، ويعتقدون اعتقادا جازما أنه لا بد لهم أيضاً من التخلص من البذرة الضارة وتحطيمها ، لأنهم يعتبرون أن الساحر آلة فى يدها ؛ بل لعل القضاء عليها أهم فى نظرهم من القضاء على الساحر نفسه .

وقد أدركت الآنسة « كنجسلى » هذه الضرورة بكل وضوح حين كتبت تقول : « إن القانون يحتم قيام تلك الاختبارات قبل تنفيـــذ الإعدام دائما . وينطوى ذلك على ظاهرة غريبة ، وهى أنهم يظنون أن للتحكيم قدرة على إخضاع الأرواح التى أغراها الساحر بارتكاب الموت وعلى إهلاكها . نعم ، إن فى وسع هؤلاء الناس أن يأخذوا بعنق الساحر ويذيقوه موتا تضرب بقسوته الأمثال ، ولكنهم يرون ضرورة الحصول على معونة روحية للقبض على روح الشر التى تحل فيه ، وإلا فإنها تفلت منه وتستمر فى إرتكاب أوزارها بعد موت صاحبها[1] » .

---

(١) مارى كنجسلى Mary Kingsly : West African studies ص ١٣٧

والتحكيم هو الذى يتكفل بتقديم هذه المعونة الروحية ؛ ففيه قدرة غيبية تؤثر على روح الشر الكامنة فى الساحر وتقضى على شرها. وكذلك كتب الأستاذ «نساو» Nassau الذى عاش زمنا طويلا فى إقليم الكنغو الذى درسته الآنسة «كنجسلى» أيضا، فقال: «يفترضون أن للسم ملكة الإدراك تقريبا... ويعتقدون أن له القدرة على القيام بوظيفة الشرطى، فيطارد الروح الساحرة التى تحوم فى أعضاء الجسم المختلفة ويكتشفها فيه ويهلكها [1]»، ومن قبل ذلك لاحظ المبشرون الايطاليون فى القرن السابع عشر أن الأمور تجرى لدى هؤلاء الأهالى كما لو كان السم يحمل الرسالة التى يوكلونها إليه بصراحة. «فيأمر الكاهن هذا الشراب (كما لو كان مزودا بقوة فوق بشرية) أن يتوقف فى معدة المتهم وأن يخرج منها فوراً دون أن يصيبه بأذى، إذا كان رجلا شريفا، وأن يسبب له الهلاك الذى يستحقه إن كان جانيا [2]».

ويعد وجود هذه البذرة الشريرة لدى شخص ما خطرا كبيرا دائم التهديد لذويه وللهيئة الاجتماعية التى هو جزء منها. ولذلك نراهم يضطرون مثل هذا الشخص إلى شرب السم بمجرد أن يرتابوا فى إستحواذه عليها، مهما كانت مكانته ومهما كان مقدار العطف والحب اللذين كانوا يغمرونه بهما حتى هذا الحين. وهم فى هذه الحال لا يسمحون له بأى تأجيل. وكثيرا ما تؤدى تلك العادة إلى مآسى لا تحصى. «ومن ذلك أن أحد الرؤساء فقد زوجته. ولم يمض على فقدها زمن طويل حتى خرج ابن له من زوجة أخرى فى منتصف الليل وهاجمه نمر. فعدا الغلام نحو البيت ليحتمى به، ولكنه لم يكد يصل إلى بابه حتى لحق به الوحش وأمسك بقدمه وأصابه بجرح بليغ. فطلبت أمه من زوجها «ماتوب» (وهو اسم الرئيس) أن يلجأ إلى الطرق المعتادة للكشف عن السحر. فأدت هذه الإجراءات إلى إتهام أم «ماتوب» نفسها بجريمة السحر

---

(١) ر. هـ. نساو: Fitichism in west Africa ص ٢٤٤.

(٢) كافتزى Cavazzy:

Istorica des crizione regni Congo, Matamba ed Angola ص ٩١.

فغضبنا أشد الغضب من أجل هذه المـــرأة المسكينة ، وكانت إمرأة مرحة تحب الضحك والمزاح وتقيم فى قرية أخرى يفصلها مجرى ماء عن قرية إبنها ... ولكن هذا الحكم جعلها موضع خوف ونفور وجعل الأهالى يفرون منها حتى أصبحت حياتها كلا ثقيلا. فبذلنا لها كل ما فى وسعنا وقدمنا لها الهدايا ودعوناها لزيارتنا وحذرناها من شرب الكأس المسمومة ، وحصلنا من رئيس قريتها على وعد صريح بألا يقدم لها هذه الكأس حتى يتم لنا الاتصال « بكابيوى » رئيس القطر ، وكان أخا لهذه المرأة المسكينة . وقد وعدنا هو الآخر باستخدام كل سلطة فى مصلحتها . وكان ابنها صيادا مجدودا ، فأحجم فى هذه الفترة عن الذهاب إلى الصيد ، لأن الخرافة كانت قد بلغت معه أقصى حدودها . وفى الوقت نفسه كانت الأم تتوق إلى فك الطلسم الذى شل ابنها عن النشاط . ولما كانت واثقة من براءتها ، فقد شربت السم ولكنها ماتت . وبذلك استطاع الصياد أن يعود إلى مطاردة حيوانات الصيد بعد أن اشترى حريته بهذا الثمن الباهظ[1] » .

قد نتساءل قائلين : ما المظهر الذى دل على أن أم هذا الرئيس قد أرادت الموت لامرأة ابنها وأنهـا أسلمت حفيدها للببر ؟ ولكن الأهالى فى الواقع لا يتصورون فكرة الاحتمال على نحو ما نتصورها نحن . فى نظرهم أن هذه الكارثة المزدوجة التى فجعت الرئيس فى فترة وجيزة لا يمكن أن تكون وليدة الصدفة . فموت المرأة الشابة كان مريبا فى حد ذاته . ومن المؤكد أن الببر الذى هاجم الطفل لم يكن حيوانا عاديا : وإنما هو ببر يأتمر بأمر ساحر أو يتحرك بروحه ، أو هو ببر الساحر ، أى متحد معه بوساطة نوع من المشاركة الداخلية التى لا تسمح بتمييز أحدهما عن الآخر . فإذا طلبت أم الغلام الجريح من زوجها أن يبحث عن الساحر ، فإنها تعبر عن الإحساس العام . ولذلك أقيم الاختبار ودل على أم الرئيس نفسها . وليس فى هذا الاتهام أية غرابة كما قد يبدو لنا لأول وهلة . فالريب فى هذه الجماعات يتجه أولا وقبل كل شىء إلى حاشية المسحور

---

(١) القس ج . ماكدونالد : Africana ، مجلد ١ ، ص ٧٨ — ٧٩ .

المباشرة أو إلى أقاربه . (وهذا هو ما حدث فى الحالة التى رواها المبشر «جالا» والتى تقدم ذكرها منذ قليل ، حيث اتهم أحد إخوة الضحية .) وفى العادة لا يجوز لأحد أن يمارى فى صدق الاتهام ولو كان غير قابل للاحتمال ؛ لأن التحكيم معصوم من جهة ، ومن جهة أخرى لأن من يحمل فى جسمه بذرة الشر قد يجهل هو نفسه وجودها فى داخله . لذلك أصبحت هذه المرأة المسكينة، منذ ذلك الحين، نوعا من الوباء ، وصار الناس يفرون منها أكثر من فرارهم من ذوى الأمراض المعدية . وقد أضرب ابنها عن الذهاب إلى الصيد مخافة أن تحل به كارثة من جرائها ، كما حدث لابنه ولزوجته. لذلك أصبح إجراء التحكيم أمراً لا مفر منه بالرغم من مجهودات المبشرين لمنعه . ولو أنها خرجت منه سليمة معافاة لبحثوا عن الساحر فى شخص آخر غيرها . ولكنها ماتت ، ويعتبر موتها دليلا على أن الريب الذى حام حولها كان صحيحا ، كما يعتبر حدا ونهاية لحالة الفزع التى استولت على القرية . وهكذا كشف التحكيم عن بذرة الشر وأهلكها . نعم إنه قد قتل المرأة معها ، ولكن هل كان فى الإمكان غير ذلك ؟

ومع ذلك يمكننا أن نتصور وجود وسائل أخرى تمكن الأهالى من العثور على بذرة الشر والقضاء على ضررها دون إهلاك الشخص الذى يحملها ، ولا سيما إذا كان يحملها على غير إرادته ، بل على غير علم منه . وقد وجد الاستاذ « ويكس » هذه الفكرة بالفعل عند قبائل « البنجالا » Bangala . فهم يسلمون بأن وجود بذرة الشر فى شخص لا يجعله جانيا بالضرورة . ولذلك ينفذون فيه التحكيم بطريقة تقضى على بذرة الشر التى لديه دون أن تقضى على حياته فيقول : من الذى يستفيد من من موت أب أو أخ ؟ لاشك أنه لا يستفيد من ذلك إلا الابن أو أحد الإخوة . ومن ثم إذا مرض الأب حام الشك حول إبنه . فيعمد هذا الأب إلى جميع الوسائل التى يظنها كفيلة بطرد المرض من جسمه . فإذا لم ينجح اضطر إلى إخضاع إبنه للتحكيم ، ولكن بإعطائه جرعة ضئيلة من السم لا تكفى لقتله . فإذا قاءه أصبح بريئا وعد ذلك دليلا قاطعا على براءته ووجب تأمينه من كل سوء . أما إذا لم يقئه وظهر عليه

شيء من التبلد والبلاهة ، فمعنى ذلك أنه مجرد وسيط تستخدمه القوى الخفية للتأثير على أبيه . وفى هذه الحال يعتقدون أن جرعة السم التى تناولها كافية لتطهير جسمه من هذه القوى ومنعها من اتخاذه وسيطا لها ، ولذلك يبرأ الأب: وحينئذ يتعهدون المسموم بعنايتهم حتى تختفى منه آثار التحكيم كلها ، ويحذرونه من السماح لجسمه بخدمة هذه الأغراض مرة أخرى . ثم يردون إليه حريته أما زملاؤه فى القرية فينظرون إليه بنوع من العجب كما ينظر صبيان المدارس عندنا إلى زميل لهم خرج من المستشفى بعد أن بترت ساقه مثلا ، ويشفع له عند الجميع اعتقادهم أن بذرة السحر (Witchcruft) كانت قد استوحذت عليه دون أن يدرى [١] . »

ويذهب الاستاذ « ويكس » إلى حـــد القول « بأنه لا عار على من يثبت اتهامه ، لأنه قد يتأتى لأى شخص أن ينطوى على بذرة الشر على غير شعور منه [٢] » .

بيد أنه من العسير ألا يمتد الاشمئزاز الذى تبعث عليه هذه البذرة الشريرة إلى الشخص الذى تحل فيه . نعم لا شك أنه توجد حالات جد نادرة لا يرتبط فيها أى عار حقيقى بشخص هـذا المسكين ، ولـكن ذلك لا يمنع الآخرين من خوفه ، بل من الحقد عليه بضرورة الحال . فهم وإن أبقوا على حياة الشاب الذى تقدم الكلام عليه فى الملاحظة السابقة ؛ فانهم لم ينسوا أن يوجهوا إليه تحذيراً شديداً يكاد يكون تهديداً . والواقع أنه لو عاد المرض إلى أبيه أو لم يجد العلاج فى شفائه ، لأخضعوه للتحكيم من جديد ولـكانت جرعة السم فى هـذه المرة حاسمة .

كذلك تعتقد قبائل « البنجالا » أن بذرة الشر إذا خرجت من شخص استطاعته

---

(١) القس ج . ه . ويكس : Anthropological notes on the Bangala of the upper Congo-river. فى J. A. J. مجلد ٤ ، ص ٣٩٦ .

(٢) المرجع نفسه ص ٣٦٤ .

أن تدخل فى شخص آخر بإرادة الشخص الأول وتحت تأثير التحكيم . وتشهد بذلك الحادثة الآتية التى يرويها القس « ويكس » أيضاً فيقول : « عرفت غلاما خبيثاً بض الخدين . وفى ذات يوم أعطاه عمه صفارة ، فالتفت اليه الطفل وقال : سأسحرك . ولم يمض على ذلك إلا زمن وجيز حتى مرض طال مرضه رغم العلاج ورغم عناية « النجانجا » Nganga (المطبب) . وفى نهاية الأمر لم ير الرجل بدا من إخضاع الغلام الصغير لتحكيم السم الذى أثبت عليه أنه سحر عمه . فضربه ضربا مبرحا (وكانت جرعة السم ضعيفة لم تؤثر على حياة الطفل) . وفضلا عن ذلك طالب والد الطفل بتعويض قدره مائتا عمود من النحاس ، لكى يدفع منه أتعاب « النجانجا » الذى جهز السم ويلقى به على الطفل درسا قاسيا يعلمه أن يترك الناس وشأنهم . وحدث أن تزوج هذا العم امرأة جديدة . وكان لها أخ صغير يتردد على مدرستى . فجاء إلى العم ذات يوم وطلب منى أن أسلمه الغلام ليجرى عليه التحكيم . فرفضت تسليم الطفل لمثل هذا الغرض وقلت له : إنه ليس من أسرتك (ولم أكن قد علمت بالزواج الجديد) . فرد على الرجل بقوله : إنه من أسرتى ، إذ أنى قد تزوجت من أخته . وهو الآن دائب على سحرى عن طريق أخته هذه التى هى زوجتى . وقد أخـبرنى ابن أخى الذى شرب السم منذ زمن بأنه نقل بذرة الشر إلى صهرى الصغير . وهكذا يكفى أن يقرر غلام خبيث أنه نقل سحره الشرير إلى شاب آخر ليسبب له أشـد أنواع الفزع »[1] .

وتعمد قبائل « البلابو Balabo التى تقطن إقليما مجاورا للسابق إلى التشريح لكى تتحقق من وجود بذرة الشر . يقول المبشر « جرنفل » Grenfell : « كنا نعرف هذا الرجل الذى قتل من أجل جريمة السحر .... وقد انفجر أهلوه بالصراخ والعويل بعد موته ، لأن الذى اتهمه لم ينجح فى العثور على بذرة الشر فى جثته . وهى عبارة عن نتوء معين يوجد بكثرة فى أمعاء بعض الأشخاص

---

(١) المرجع نفسه ، ص ٣٩٦ .

ويعتقدون انه علامة لاتخيب . ولكنهم فى هذه المرة لم يجدوا له أثراً ، فبرئ الرجل المسكين من تهمة السحر [١] » .

وقد رأى « بنتلى » بنفسه بعض الأهالى يقومون بتشريح إحدى الجثث ليبحثوا عن العضو الذى يدل فى نظرهم على أن الرجل كان يمارس السحر فى حياته [٢] . وهى عملية منتشرة إلى حد كبير ، وقد شهدت بوجودها أيضاً الآنسة « كنجسلى » حيث تقول : من المعتاد فى كثير من أقاليم الساحل الجنوبى الغربى للكنغو الوسطى أنه إذا مات شخص بطريقة لم يستطع الأهالى تفسيرها ، أى إذا مات دون أن يراق دمه ؛ عمدوا إلى تشريح جثته . وفى بعض الأحيان يبين التشريح الطريق الذى اتبعته روح الشر فى جسم الضحية . ويعتقد الأهالى على وجه العموم انها تلتهم الرئتين . وفى أحيان أخرى يكشف التشريح عن وجود بذرة الشر نفسها ، وذلك يدل على أن الفقيد كان يحوى هذه البذرة فى جسمه ، أى أنه كان ساحراً » [٣] .

أغلب الظن أن التشريح هنا غير مترتب على التحكيم ولا متوقف عليه : ولكن لما كان الموت فى الحالات التى ذكرت أخيراً قد حـــدث فى ظروف مريبة ، فإن التشريح يكشف بالذات عما يبحث عنه الأهالى الذين درسهم « بنتلى » . وكذلك يقول « تسمان » Tessmann : « لا تستطيع قبائل « البنجوى » Pangue أن تتصور بذرة الشر إلا فى صورة جسم ، بل فى صورة شخص على وجه الخصوص . فهم يعتقدون أن هـذه البذرة التى يسمونها « إيوو » Ewu لها صورة حيوان . ومن هنا استنتجوا وسيلة « علمية » لفحص الميت ومعرفة ما إذا كان ساحرا فى حياته أم لا ، تبعا لوجود « الإيوو » فى جسمه أم عدم

---

(١) و . هـ . بنتلى : Pioneering on the Congo ، ج ٢ ، ص ٢٣٠ — ٢٣١ (خطاب من المبشر جرنفل) .

(٢) المرجع نفسه ، ج٢ ، ص ٢٣٣ .

(٣) مارى كنجسلى : West African studies (الطبعة الثانية) ، ص ١٧٩ .

وجودها . وليست هـذه الوسيلة إلا التشريح المنظم »[1]. وقد روى ما يأتى عن « البنجالا » وهم من القبائل التى عاش القس « ويكس » بالقرب منها . « من العسير أن نترجم كلمة « إيكندو » Ikoundou إلى لغاتنا ، وهى تدل على نوع من القدرة الخفية التى يستحوذ عليها شخص ما ؛ ولكن من الغريب أن الأهالى يعتقدون بإمكان العثور على أثرها المادى عند موت صاحبها . ولما كنت لم أشاهد قط إجراء عملية من هذا القبيل ، فقد استجوبت الأهالى عن الطبيعة المادية « للإيكندو » هذه . ويبدو لى أنهم يتمثلونها فى حصا المثانة أو الكلى أو المرارة [2]. »

وأخيراً وجـــد الاستاذ « هوترو » Hutereau لدى قبائل « الآزنده » Azande فى الكنغو البلجيكية ما يصح أن نسميه بذرة الشر والعلامة المادية التى تمثلها ، وإن كان من المتعذر تمييزها عنها تمييزاً واضحاً .

« كل شخص يستحوذ على « المنجو » Mango يسمى « الامنجو » el amango . ويطلق « المنجو » على أى تشويه يصيب عضواً من أعضاء الجسم . ويعتبر تشويه المعدة بوجه خاص علامة على وجود « المنجو » . وهكذا يطلق الأهالى اسم « المنجو » على الأجزاء الثانى والثالث والرابع من معـدة الحيوانات المجترة ، وهى الأجزاء المعروفة بالقلنسوة وأم التلافيف والكرش . وهم يؤكدون أن « المنجو » توجد على وجه العموم فى بداية الأمعاء قريبة من المعدة ، وهى عبارة عن نتوء من اللحم . ويعتقدون أن لدى بعض الناس اثنتين منها . والمنجو من شأنها أن تخلع على صاحبها القدرة على استعمال السحر . ولذلك يعتبر « الآلامنجو » كائناً ضاراً . ومثل هذا الشخص يتمتع فى نظر قبائل « الآزنده » بقدرة فوق طبيعية . وفى استطاعته أن يصيب الناس بالسحر ، وأن يميت من يشاء ويحدث الحوادث كما يشاء .. وفى وسع أصحاب المنجو أن يبصروا بوضوح فى أثناء الليل البهيم وأن يدخلوا العشش دون صوت فيغرقوا سكانها فى نوم

---

(١) ج تسمان : Die Pangwe ج ٢ ص ١٢٨ — ١٢٩ .

(٢) ك . كوكيا : C. Coquilhat : Sur le haut Congo ص ٢٩٣ .

عميق .. وفى وسعهم أيضا أن يزيلوا الأضرار السحرية التى سببوها وأن يشفوا المرضى الذين رموهم بالمرض من قبل وأرادوا موتهم . ويحاول الأهالى إرغامهم على استخدام هذه القدرة النافعة ، ولذلك يهددونهم بالإعدام إذا مات الشخص الذى يعتقدون أنهم رموه بالمرض [1] .»

وقصارى القول أن « الألامنجو » قوم سحرة . وليست تلك القدرة التى سبق الكلام عليها إلا بعض ماتعزوه التصورات الجماعية إلى هؤلاء الشريرين .

« ويجب على الشخص الذى يرتاب الأهالى فى أنه « إلامنجو » أن يخضع لاختبار « البنجت » Benget . «والبنجت » سم يستخرج من جذور شجرة سامة يستخدم محلولها فى تركيب سم يعطى للدجاج أو البشر . وسم « البنجت» هو الآية الكبرى أو الاختبار الذى لايشرع الرئيس فى أى أمر لنفسه أو لأسرته أو لشعبه دون استشارته . وقد لا نغالى إذا قلنا إن « البنجت » عند قبائل « الأزندة » يتحكم فى جميع الشؤون العامة والخاصة ، كإعلان الحرب وتوجيه الحملات وعقد السلام وإنشاء القرى والمزارع وتكييف العلاقات بين القرى وقيام الرحلات وضروب الانتقال ؛ كما يستشار فى الزيجات والمواليد والوفيات وفى بيع الرقيق وشرائهم ، وفى صيد البر والبحر ، وهلم جرا . ويقضى «البنجت فى جميع الصعوبات التى تعرض للأهالى ، فكل شخص منهم يخضع لأحكامه الطائشة وهو مقتنع فى عصمة هذه الآية فى كل ما تقول به . »

فى وسع « البنجت » إذن أن يكشف عن « المنجو » المستتر فى جسم « الايلامنجو » ، كما فى وسعه أن يكبح جماحها . يضيف الأستاذ « هوترو » إلى ما سبق قوله : « يكتفى الأهالى فى معظم الأحيان بالاختبار الذى يجرونه على الدجاج ؛ ولكنهم إذا اتهموا شخصا بأنه «إيلامنجو» أوجبوا عليه تجرع السم بنفسه ليظهر براءته . » ومن عاداتهم أن يجربوا قدرة السم أولا فى دجاجة

---

[1] — ١ « هوترو » Notes sur la vie familiale et Juridique de quelques Populations du Cango belge فى Documents ethnographiques « ١ مجلد ١ ، ص ٢٧ — ٢٩ .

أو كلب . فيموت الحيوان بالطبع ، وعندئذ يناولون المتهم الجرعة المرادة ليشربها . وكثيرا مايتناول المدعى أيضاً جرعة مماثلة لها ليبرهن على وثوقه التام فى صدق أقواله . فمن مات من الاثنين عد جانيا ، بارتكاب الحادثة التى أسندت إليه إذا كان متهما ، وبارتكاب البهتان إذا كان مدعيا .

وإذا رفض المتهم « بالإلامنجو » أن يخضع لاختبار « البنجت » اعتبر رفضه اعترافا منه بصحة الاتهام . وحينئذ يدعوه أهل القرية جميعا إلى احتساء السم ويذكرونه بعصمة هذه الآية ؛ وكثيراً جداً ما يقترح المتهمون أنفسهم أن يخضعوا للاختبار إذا لم يرجع من اتهمهم عن أقـــواله فى الحال بمجرد انكارهم للتهمة .

« ولا يكتفى الأهالى بموت المتهم « بالمنجو » بعد احتسائه السم ، بل لا بد من إجراء التشريح الذى يكشف عن وجودها فى جسم الفقيد ، فإذا لم يعثروا عليها وجب على المدعى أن يدفع تعويضا لأقارب ضحيته . ويتكون هذا التعويض من امرأة وعدد معين من الرماح [1] » .

وقد يتبادر إلى أذهاننا أن المدعى قد يدافع عن نفسه بادعائه أن السم هو الذى قتل المتهم . إذ كيف يتأتى للبرىء أن يموت من « البنجت » إذا كان معصوما من الخطأ ؟ فلا بد إذن أن يكون المتهم بريئا من حيث المظهر فقط ؛ وذلك لأن عدم وجود « المنجو » لا يستطيع تشكيك الناس فى صدق « البنجت » بأية حال ؛ وقد يستطاع تفسير ذلك بعلة غير معروفة . ولكن الواقع أن المـــدعى لا يدافع عن نفسه هكذا ، بل يعترف بأنه قد أخطأ . ومعنى ذلك أن موت المتهم ليس دليلا قاطعا على إجرامه ، وأن قبائل « الأزنده » لا تتصور إمكان السحر دون وجود « المنجو » فى الجسم . فليس « المنجو »

---

١ — المرجع نفسه ، ص ٢٩ .

علامة على وجود السحر فحسب ، بل هى حقيقته وجوهره[1] . »

وأخير يمكن أن يجرى التحكيم عند « الآزنده » بطريق الإنابة فى بعض الحالات ، ولكن بإنابة الإبن عن الأب أو البنت عن الأم فحسب . وذلك لأن الاختبار يهدف إلى إصابة بذرة الشر أكثر مما يهدف إلى قتل الشخص الذى يحملها . « لا يتحتم على الشخص الذى يتهم بالاستحواذ على « المنجو » أن يتكبد اختبار « البنجت » بشخصه ، بل يجوز له أن يستعيض عن نفسه بابنه ، كما تستعيض الأم بابنتها عن نفسها ، لأن « المنجو » وراثية فى الجنس ، أى من الأب للإبن ومن الأم للبنت. ومما يحدث أيضا ألا ينتظر المتهمون « بالإيلامنجو » حتى تحين اللحظة التى يتكبدون فيها الاختبار ، بل قد يدفعهم الغضب إلى قتل أحد أولادهم ليبرهنوا بتشريحه على براءتهم[2] . »

أما قبائل « الآبابولا » التى تجاور هذا الإقليم فلديها « الإيلمبا » elimba التى تقابل « المنجو » عند الآزند تماما(٣) . ولديهم نفس الاتهامات ونفس الاختبارات ونفس التحقيق بوساطة التشريح وفكرة الوراثة نفسها أيضا. « وإذا لم يظهر التشريح وجود « الايلمبا » فى جسم المتهم الذى مات نتيجة للتحكيم ، حمل أصدقاؤه السلاح وقتلوا أقارب المدعى . ولكن هذا الأخير يستطيع أن ينجو من الموت فى بعض الأحيان بأن يدفع التعويض المناسب لحالة القتل بالإضافه إلى تعويض آخر عن اتهام الميت بالإيلمبا « بالباطل . »

---

(١) غير أن الأمر يختلف عن ذلك لدى قبائل « المدجى » Medgi و « المنجبيتو » Mangbetu المجاورة « للآزنده » . « فليس من الضرورى عندهم أن يثبت التشريح وجود « النوتو » notu (وهى التى تقابل « المنجو » عند الآزنده) . فكل من يموت نتيجة للاختبار يعتبر جانيا بالضرورة . وإذا لم توجد « النوتو » فى جسمه ، كان معنى ذلك أن لديه أنواعا أخرى من السحر . ولابد للتحقق من ذلك من استشارة « المانبجو » manPingo (جهاز للعرافة) . فإذا كان جواب هذا الجهاز بالسلب، وجب على المدعى أن يدفع لأقارب القتيل التعويض المقرر فى حالة القتل . » المرجع نفسه ، ص ٧٦

(٢) المرجع نفسه ص ٢٩ — ٣٠

(٣) المرجع نفسه ص ٩٨

غير أن قبائل « الأبابولا » تذهب إلى أبعد مما يذهب إليه جيرانهم . فهم « يفتحون بطن كل من يموت عندهم ليبرهنوا للجميع على أنه لا يستحوذ على « الايلبا » وبالتالى ليبرهنوا على أن سلالته وأسلافه لا يستحوذون عليها أيضا[1]. » ومن شأن هذا الاحتياط أنه يوفر عليهم إجراء عدد كبير من التحكيمات ، ولا سيما إذا كان جواب التشريح بالنفى . ولكنه يثير إجراء تحكيمات أخرى أكثر عددا ، إذا عثر على « الإيلبا » فى جسم الفقيد .

وقد شاهد الأستاذ « مانسفلد » Mansfeld فى الكمرون تحكيمات أخرى مماثلة لتلك . وهو يذكر بصريح العبارة أن غرضها ينحصر فى اكتشاف الساحر فضلا عن كبح جماح بذرة الشر التى تغريه بالإيذاء ، وتمنعها من إحداث الضرر وليست بذرة الشر عند هؤلاء الأهالى نتوءا فى المعدة أو الأمعاء ، ولكنها طائر معين . « ويستخدم السم المستخرج من فول « كلبار » فى الاختبار ، وهو أخطر أنواع السم غير منازع . وهو يستعمل عادة عندما يتداول الناس إشاعة عامة عن شخص ما بأن جسمه ينطوى على روح خبيثة فى شكل طائر ، وأنه قتل أحد أقاربه أو صمم على قتله . وهذا الطائر هو البومة التى يقولون إنها تحل فى منطقة القلب ؛ ويعتقدون أن فى مقدورها أن تغادر الجسم ليلا وتذهب لامتصاص أحد الأشخاص . وعلى ذلك إذا اتهم « أدجنك » Odjonk بأنه يحمل هذه الروح الساحرة (أى الطائر الخبيث) وحام حوله الريب بأنه قتل « أجوك » Ajok ، فإنه يجب عليه أن يشرب السم المستخرج من فول كلبار أمام أهل القرية بأسرهم . فإن قاءه كان بريئا ، وإن لم يقئه ومات تحت تأثيره ، فقد هلك الطائر الخبيث وحامله فى آن واحد . »

---

١ — أ. منسفلد A. Mansfeld : Urwdld Document . Vier Jahre unter Kross flussnegern Kameruns ، ص ١٧٣ . وقارن شتاشفكى Staschwski : Die Banjangi فى Baasler Archiv ، كراسة رقم ٧ ، ص ٤٧ — ٥٠ وقارن أيضا القس فلكنجر Flickinger : Thirty years of Missionary life in West Africa ، ص ٩٣

— ٤ —

يمكننا أن نستنتج من مجموع هذه الحالات ما يلى : يستعمل التحكيم بالسم فى قضايا السحر التى يتعدد وقوعها فى كثير من الجماعات البدائية الإفريقية .وهذا التحكيم عبارة عن عملية غيبية مماثلة للعرافة . والقصد منها اكتشاف الساحر وقتله وفى نفس الوقت إهلاك بذرة الشر الحالة فيه ، لذلك لانرى بينه وبين ماكان يسمى « بحكم الله » فى العصور الوسطى أى اشتراك. وقد لاحظ الأستاذ « مينهوف » Mienhof هذه الملاحظة نفسها فقال : « لا يوجد بين الإفريقيين الذين عرفتهم أحد يرجع نتيجة التحكيم إلى الله مباشرة ، ولكنهم جميعا يعزونها إلى القوى السحرية الخاصة بالطلسم الذى استخدم والذى فى قدرته أن يذهب بحياة الآثم بينما يخرج منه البرىء سليما . » ثم يضيف فى الحاشية قوله : « لاشك أن التحكيم يعد فى نهاية المطاف هبة من الله ككل شىء آخر ، ولكنه يؤثر مستقلا بنفسه بوصفه « طبا » لا بوصفه من عنــــد الإله[1] .» أما أنا فأقول بأن هذا الكلام حق ، إذا جاز لنا أن ننسب إلى قبائل الكنغو العليا ، بل إلى معظم القبائل الإفريقية الاستوائية والجنوبية ، وجود إله بهذا المعنى .

بعد أن درسنا فكرة التحكيم على هـــــذا النحو ، نرى أنهــا توضح لنا فكرة السحر التى تحتل مكانا هاما فى التصورات الجماعيه لهذه القبائل . فهى تدلنا على مصدر الضرر الذى يعزى إلى السحرة وعلى أحاسيس الخوف والرعب والفزع التى يلقيها هؤلاء السحرة فى قلوب الأهالى . ومن المعروف أن هذه الأحاسيس تصل عندهم إلى أقصى درجات العنف ، حتى أن أقل مظنة للسحر تكفى لتحطيم أشد الروابط الإنسـانية وثوقا فى أقل من لمح البصر ، فنراها تفصم الوشائج التى تجمع بين الصديق وصديقه وبين الزوج وزوجته ، وبين الأخ وأخيه ، وبين الآباء والأبناء . وفى بعض الأحيان يسارع أقارب الشخص

---

(١) ك . مينهوف : Africanisehe Religion ، ص ٩٣.

المرتاب فيه بإعدامه دون حكم ، بل دون تحكيم ، حتى لا يكاد الإنسان يصدق الحوادث التى رواها المبشرون من هذا القبيل . ولنقتصر على ذكر مثال واحد منها : « اتهم رجل وإمرأة ممن يسكنون حول جبل « كوك » Coke (فى إقليم الكفرة) بالسحر ، فقتلا عمدا . والذى قام بقتلهما أخو الرجل نفسه ، وقد فعل ذلك وهو محتفظ بهدوئه التام . ففى ساعه مبكرة من الصباح وقف هذا الأخ امام بيت اخيه مع خمسه اشخاص آخرين من الكفرة ، ونادى اخاه الذى لم يكد يضع قدمه على عتبة البيت حتى طوقوا عنقه بحبل وجروه به حتى ابعدوه عن البيت بعض الشيء ؛ وهناك اجهزوا عليه ضربا بالعصى . وبعد ذلك رجعت العصابة الصغيرة إلى حديقة الفقيد بحثا عن زوجته ، ثم اذاقها نفس المصير الذى لاقاه زوجها ، واخيرا حرقت البيت واختطفت الطفل الوحيد الذى تركه الضحيتان ؛ واقتادت بهائمها إلى بيت القاتل [١] » .

وكثيراً مايستجوب السحرة المزعومون ويعذبون ليدلوا باعترافاتهم قبل أن يموتوا فكيف يمكننا أن نفسر هذا الإغراق فى البغض الذى يدفع الأخ أو الصديق إلى ارتكاب مثل هذه الأفعال ، ويجعل المجموعة الاجتماعية ترضى عنها ؟ كيف يتأتى أن يذهب الروع الذى يسببه الساحر إلى هذا الحد من الوحشيه ؟

يقول الباحث المدقق ماكدونالد : « تنطوى كلمة ساحر على فكرتين . فالشخص الذى يشار إليه بهذه الكلمة يعتقد (أولا) أن لديه القدرة أو المعرفة الكافية لممارسة الفنون الخفية ، (ثانياً) أنه يتعاطى أكل اللحم البشرى . وهذا المعنى الثانى هو الغالب ... فالسحرة يقتلون ضحيتهم لكى يأكلوها [٢] . »

كذلك يقول الأستاذ جونود : « السحر أعظم الكبائر التى يمكن لبشرى أن

---

(١) The Wesleyan notices ، مجلد ٤ (١٨٤٦) ، (خطاب من المبشر و . امبى w. Empey

(٢) الفس ماكدونالد : Africana ، جـ١ ، ص ٢٠٦

يرتكبها . فهو يتساوى والقتل ، بل هو أشد منه ، لأنه يتضمن الاتهام بالقتل ثم يضاف إليه فكرة مبهمة من التمنمة . فالساحر يقتل الكائنات البشرية ليطعم لحمها[1] . »

وتعتبر التمنمة التى نحن بصددها هنا ، تمنمة غيبية على شكل ما . فالساحر يلتهم ضحاياه دون أن يعرفوا . وهو لا يتخذ من هؤلاء الضحايا غذاء لأنهم قد ماتوا ، بل أنهم على العكس من ذلك لم يموتوا إلا لأن الساحر قد «أكلهم» . ويعرض الأستاذ جونود هذا المعتقد فى العبارات الآتية : « يقتحم الساحر الحرم ، ويحاول أن يتسلل إلى العشة عن طريق الباب ، ويجده مغلقا ... فيطير إلى قمة العشة ، ومن ثم ينقض على عدوه الذى ينام على حصيره مطمئناً . وحينئذ يشرع فى ارتكاب شره ، ويحكم على المسحور (bewitched) المسكين بالموت . « فلا يبقى منه إلا ظله » . ويقولون أيضاً « إن الجثة وحدها هى التى بقيت . أما « أنيته » الحقيقية فقد سرقت وأكلت » . لقد « اختطف » (كما تختطف الريح الورقة) . وينهض المسكين فى صباح الغد ، ثم يموت بعد أيام ولكن ظله هو الذى يموت إذ ذاك ، أما هو نفسه فقد قتل فى تلك الليلة المشئومة ، لقد أكل . . . ويشير هذا الكلام إلى معنى ثنائية الكائن البشرى . أما كيف يستطيع الشخص أن يعيش أياما أو أشهرا بعد أن يكون قد أكل كله ، فذلك ما لا أدعى القدرة على تفسيره ، وهذه هى فكرة الأهالى على كل حال . وقد حاول أحد مخبرى أن يحل تلك المعضلة فقال : إن الذى يأخذه الساحر ليأكله هو داخل الجسم أى الأحشاء ، أما الهيكل الخارجى فيبقى وحده ، لذلك لا يلبث الشخص أن يموت . أما معظم الأهالى فينفجرون فى الضحك إذا أردت أن تفسر لهم ما فى هذه الفكرة من شناعة عقلية وهذا كل ما يفعلون[2] .

---

(١) م ١٠ . جونود The life of a Souht African tribe ، جـ١ ص٦١٤ـ٩٧

(٢) المرجع نفسه جـ٢ ص ٢٦٦ — ٦٧ .

ليس فى هذه الفكرة أية شناعة عقلية بالنسبة إلى البدائيين وهم يجهلون الدور الفسيولوجى الذى تقوم به الأعضاء الداخلية ، ولا يعيرونه أى التفات. فالحياة والموت فى نظرهم يتوقفان على شروط غيبية. ألسنا نعرف من تصوراتهم الجماعية أن الموتى يحيون ؟ فهل يستحيل عليهم بعد ذلك أن يعتقدوا أن بعض الأشخاص يستطيعون الاحتفاظ بمظهر الأحياء الخارجى بعد أن يكون الساحر قد أكلهم وقضى عليهم بالموت ؟

ولكن لعل الفكرة الآتية هى التى تفزع الأهالى كل هذا الفزع ، وهى «أن هؤلاء السحرة الذين لا يمكن اتقاء شرهم بسهولة وأنهم كثيرو العدد فى كل قبيلة ، بشهادة الأستاذ جونود نفسه ، ويستطيعون الاستمرار فى ارتكاب جرائمهم سنين طويلة دون أن يكشف عنهم القناع ، بل دون أن يعرفوا هم أنفسهم أنهم سحرة . وهم فى هذه الحال يفعلون ما يفعلون بوصفهم آلات غير شاعرة تسخرها بذرة الشر التى تحل فيهم . والواقع أنهم يحيون حياة مزدوجة : الأولى بالنهار حيث يكونون أشخاصاً كغيرهم ، والثانية بالليل حيث يضطلعون بفعل السحرة . وهل هم يعرفون بالنهار ما فعلوه أثناء الليل ؟ من العسير أن نجيب على هذا السؤال ، إذ يبدو أنه لا يوجد فى أذهان الأهالى فكرة واضحة عن هــذه النقطة . بيد أن الفكرة التقليدية الحقيقية تنحصر فى أن الساحر لا يعرف ما يفعل ، بل لا يعرف أنه ساحر مادامت هـذه الصفة لم تكشف فيه . . . فهو إذن غير واع ، وينسى كل شىء عن نشاطه الليلى بعد أن يعود إلى حياته اليومية المعتادة . وقد أكد لى غيرى ، مثلا ، أن الشخص الذى يمارس السحر قد يكون هو الذى أرسل التمساح لقتل شخص آخر ، ثم يكون أول من يبدى عطفه على الجريح المسكين ، ويأسف لهذا الحادث المحزن ، ويستولى عليه الدهش ، حين يقرر العراف أنه هو الذى سبب هـذا الموت بوساطة سحره الذى كان يجهله جهلا تاما حتى هذه اللحظة . ولكن يبدو أن السحرة الذين مارسوا أعمالهم البشعة زمنا طويلا يعلمون ما يفعلون ، ويعتزون بأفعالهم ، ويترتب على ذلك أن يكونوا على بينة من حياتهم المزدوجة إلى حد ما . بل

إن بعضهم يذهبون إلى أبعد من ذلك : فيقلعون عن أذاهم ويصيرون سحرة (بالمعنى الصالح للكلمة) ويستفيدون من المعرفة التى حصلوا عليها لإحباط أضرار السحرة الآخرين[١] » وتنتشر الأفكار التى من هـــذا القبيل فى إفريقية الاستوائية بكثرة كما رأينا فيما سبق . «فتشترك قبائل «البوشنجو» Buchango فى ذلك الاعتقاد السائد فى إفريقية إلى أعظم درجة ، وهو أنه يمكن لروح خبيثة أن تستحوذ على بعض الأشخاص دون أن يعرفوا ، وبذلك يتسببون فى موت أشخاص آخرين . ويعتقد الناس أن الأشخاص الذين يموتون دون سبب ظاهر ، يموتون تحت هذا التأثير الشرير الذى يشبه فى كثير من النواحى تأثير العين الحاسدة . والأشخاص الذين يتهمون بالاستحواذ على بذرة الشر يخضعون للاختبار بالسم[٢] » .

هذا إلى أن عدم شعور السحرة بأفعالهم يزيد من ضررهم . وقد قارنهم الأستاذان تردى وجويس منذ قليل بالحاسدين jettatori وقال عنهم الأستاذ جونود أيضا أكثر من مرة أنهم « البلويى » Baloyi أو الأفراد ذوو العين الحاسدة . . والواقع أن بذرة الشر التى تحل فيهم والتى كثيرا ما تشاهد ماديا عن طريق التشريح ، تفعل بالضبط فعل العين الحاسدة . فتنتشر الكوارث من حولهم فى المجموعة الاجتماعية وكثيرا مايكون ضحاياها الأولون من بين أقرب أقرباء الساحر ، أى من بين أولئك الذين كان ينبغى أن يكونوا أعز الناس وأقدسهم لديه .

لكل ذلك يمكننا فى هذه الحالات أيضا أن نستمر فى استعمال كلمات «الاتهام» و «الحكم» الذى يخرج منه «المتهمون» «أبرياء» أو «آثمين» . ولكن على شرط أن نعيرها معانى جـــد بعيد عن معانيها فى أوروبا . فليس لهذه

---

(١) المرجع نفسه ج ١ ص ٤٦٤ — ٦٥ . وقارن جونود . Les Ba - Ronga ، ص ٤٢٨

(٢) تردى وجويس Torday & Juice ' Les Buchongo فى Annale du Musée belge , Série III . Documents ethnographiques ، مجلد ٢ ، ص ١٢٤ وقارن هذا المرجع نفسه ص ٧٨ .

الإجراءات لدى البدائيين أية صلة بالعدالة ، وليس موضوع التحكيم اكتشاف ما إذا كان المتهم قد استحق العقاب أم لا : فالذى يشغل الأهالى أمر آخر ، نعم إن الذى يشغلهم ويقض مضجعهم هو الاعتقاد بأنه يوجد بينهم أفراد يشبهون غيرهم فى المظهر ، ولكنهم يستحوذون على أخطر ضروب القدرة السحرية التى يستعملونها فى ارتكاب أسوأ الشرور ، دون أن يراهم أحد ، ودون أن يتأتى لأحد أن يضبطهم متلبسين بالجريمة ، بل دون أن يعرفوا ذلك هم أنفسهم فى بعض الأحيان . وليس هناك من دفاع ناجع ضد هذا الوباء غير التحكيم .

لذلك يجب علينا أن نتجنب تشبيه «السحرة» فى الجماعات المتأخرة بالمجرمين الذين يقتص منهم قانون العقوبات عندنا ، بل ينبغى لنا أن نضعهم فى باب مختلف كل الاختلاف ، وهو «الجيتاتورى» jettatori (ذوى العين الحاسدة) . وهم أيضا جد قريبين من الكائنات المشوهة الذين تتخلص منهم المجموعة الاجتماعية بمجرد أن يظهر تشوههم ، لأنهم يحملون النحس ؛ ومن أمثلتهم الأطفال الذين يبدو وضعهم غريبا عند الولادة أو الذين يولدون بأسنان ، أو الذين تنبت أسنانهم العليا قبل السفلى ، الخ .. فكل هؤلاء يشبهون السحرة فى أن بذرة الشر تجعلهم منحوسى الطالع بالنسبة للمجموعة الاجتماعية ، ولذلك يجب التخلص منهم ، أو على الأقل يجب تعجيزهم عن عمل الشر كما يفعل مع السحرة . نعم قد لا يتحقق ضرر المشوهين monstra إلا بعد زمن ما ، فى حين أن بذرة الشر التى تحل فى الساحر قد سببت كثيرا من الكوارث بالفعل . ولكن العقلية البدائية لا تكاد تشعر بهذا الفرق ، إذ من السهل عليها أن تتصور المستقبل وكأنه حاضر ، ولا سيما إذا بدا لها أن تحققه أكيد وانه يثير فيها انفعالا قويا . وهى لا تشك أدنى شك فى التأثير الضار الذى سينبعث من الأطفال الشواذ . فهم سحرة « بالقوة » منذ ولادتهم . ويعبر الأهالى عن ذلك بعبارات صريحة(١) وهذا هو السبب فى انهم يعاملونهم بلا رحمه كما سبق أن اوضحنا .

---

(١) أنظر ما تقدم فى الفصل الخامس .

لاشك أن السحرة ليسوا جميعا من ذوى الخلقة المشوهة وإن كانوا قد شبوا دون أن يدرك أحد ماتنطوى عليه طبيعتهم . فقد يولد الشخص خاليا من التشويه ثم يراض على أعمال الشعوذة حتى يصبح فى درجة من الخطر تعادل درجة أستاذه . والواقع أنه يوجد فى بعض أقاليم إفريقية الغربية ، ولا سيما فى الكنغو الفرنسية ، جمعيات سرية تباشر القتل والهنمة. وهى بهذا المعنى جمعيات سحرية : وتختار أعضاءها من بين البالغين . ولكن بعض الجماعات تؤكد أن السحر من الأمور الفطرية الوراثية فى أغلب الأحيان .

ومع ذلك فإنه إذا كان من الممكن رؤية بعض التشويهات ذات الدلالة المشئومة منذ الولادة أو فى أثناء الطفولة ، فإن هناك تشويهات أخرى تظل مستترة لا يستطيع أى شيء أن يشف عنها فى أثناء حياة من يحملها .

نعم إن الأم نفسها إذا رأت أن أسنان طفلها العليا تنبت قبل السفلى لم تستطع مهما أوتيت من شجاعة أن تخفى هذا النبأ عمن يحيطون بها . ولكن كيف السبيل إلى معرفة ما إذا كان النتوء المحتوم موجودا فى أمعاء شخص دون فتح بطنه ؟ هنا يتدخل التحكيم بنجاح تام ، لأن اختبار السم كفيل بحل هذه المشكلة والقطع بما إذا كانت تهمة السحر الموجهة إلى أحد الأشخاص صحيحة أم غير صحيحة . فخاصة التحكيم المزدوجة أنه يكشف عن وجود بذرة الشر ويحاربها ، وله القدرة على التحكم فيها وإهلاكها . وإذا مات « المتهم » تنفس الناس جميعا الصعداء ، إذ أن ضروب الإتلاف التى كان يقوم بها هذا الوباء قد أوقفت عند حدها . وإذا بقى بعده آخرون ، كما هو محتمل ، تخلصوا منهم بنفس الطريقة بمجرد أقل ريب يحوم حولهم .

— ٥ —

كتب الأستاذ مان عن أهالى جزر أندمان Andaman ما يلى : « لا تسمح لهم حالتهم العريقة فى البدائية بأن ينصبوا على أنفسهم قضاة من أى شكل كان ، ولا بأن يكون لديهم إيمان فى قدرة التحكيم على اكتشاف الجانى ، ويبدو لى

أنه لم توجد عندهم ممارسة من هذا القبيل فى أى وقت من الأوقات [1]، والواقع أنه لم يلاحظ حتى الآن وجود تحكيم من هذا القبيل لدى الجماعات المتأخرة جداً فى غينيا الجديدة واستراليا وأمريكا الجنوبية . ويبدو أن هذا النوع من الاختبار قد نشأ على وجه الخصوص فى الهيئات الاجتماعية التى وصلت إلى شكل ما من التنظيم السياسى : كالبنتو وسودان أفريقية الغربية وسكان الملايو الخ . .

إذا اعتبرنا التحكيم نوعا من العرافة فقد سلمنا بإمكان وجود ممارسات أخرى تحل مكانه . وهذا بالذات هو ما يشاهد عند الاستراليين وعند أهالى غينيا الجديدة الألمانية ، الخ . . وهم كسودان الكنغو لا يسلمون بالموت « الطبيعى » ، كما لا يقلون عنهم رغبة فى اكتشاف الساحر الذى « حكم على » doomed واحد من ذويهم ، أى أهلكه . وقد درسنا فيما تقدم طرق العرافه المتنوعة التى يستعملونها فى مثل هذا الظرف . ولكن التحكيم يستخدم أيضاً فى غايات أخرى غير تلك الغايات . كتوجيه تأثير غيبى إلى بذرة شريرة لمحاربتها، وأغلب الظن أن هذه الحاجة توجد أيضا فى الجماعات المنحطة كل الانحطاط. وإذا كان ذلك كذلك أفلا يوجد لديها شىء يسمح لها بسد هذه الحاجة ؟

كتب تالبين Talpin عن أهالى استراليا الجنوبية يقول « يجب على الجانى فى قبيلة « تتيارا » Tatiara أن يقف أمام الجمهور ويجعل من نفسه هدفا لكل من يريد أن يقذفه برمحه .

ويضيف تالبين فى إحدى ملاحظاته قوله « وهذا تحكيم حقيق ، إذ أن الأهالى يعتقدون أن بعض الأرواح العليا قد تساعد المتهم فتجنبه الرماح ، وقد تعوقه عن تجنب الرماح الموجهة إليه إذا كان جانيا [2] » وقد أصاب تالبين

---

(١) ا . هـ . مان E. H. Man ، On the aboriginal inhabitants of the Andamon islands ، فى J. A. I مجلد ١٢ ص ١١٠

(٢) ج . تالبين Manners , custom . eti , of the Suoth Australian aborigines ص ٧٥ .

حين فكر أن ذلك يعتبر فى ذهن الأهالى تحكيما حقيقيا ، ولكن لعله يجب علينا ألا نفهم منه نفس المعنى الذى فهمه هو . إذ أنه يرى فيه نوعا من « حكم الله » على غرار ما كان متداولا فى بلاد الإغريق القديمة ، أو فى العصور الوسطى الأوربية .

نعم أغلب الظن أن أفراد « التتيارا » يرون أن عون القوى الخفية وحده هو الذى يسمح للشخص الواقع تحت الاختبار بتجنب الرماح التى تنهال عليه ؛ وأنه لا يستطيع النجاة منها بمهارته وحذقه إذا كانت هذه القوى غير راضية عنه . ولكن ليس من الدقة فى شىء أن نقول بأن هدف الاختبار ينحصر فى إظهار براءة الرجل الذى يتكبده أو إدانته . لأنهم يجرون هذا الاختبار نفسه فى كثير من الحالات التى لا شأن لها بهذه الجناية . ومن الحالات التى يكثر وقوعها أن يكون المتهم بقتل شخص أو خطفه معروفا ومعترفا بجنايته وأن يكون ذووه متفقين مع أهل المجنى عليه على أن المتهم هو الذى ارتكب الجناية . ولكنهم مع ذلك لا يجدون مناصا من التحكيم ، فالقصد من التحكيم إذن شىء آخر غير الحكم ببراءة المتهم أو إدانته .

والواقع أنى لم أجد تحكيما واحداً أقيم لهذه الغاية فى الوثائق التى راجعتها خاصة بالقبائل الاسترالية . ولكنى وجدت على العكس من ذلك كثيراً من التحكيمات المشابهة لتلك التى ذكرها تالبين عن « التتيارا » ، وقد رأيت الذين يتكبدونها جناة معروفين ومعترفين بما أسند إليهم فعله ، ويقول دوسن Dawson « إذا هرب القاتل وعرفه أقارب المجنى عليه ، دعى فى الحال إلى الحضور أمام أول إجتماع كبير تعقده القبائل لكى يخضع للتحكيم بالرماح[1] » . وبعد ذلك بقليل يصف دوسن هذا التحكيم بقوله : « إذا اتهم شخص بجريمة ما وجب عليه أن يحضر أمام الاجتماع مسلحا برمحين من رماح الحرب ومجن خفيف

---

(١) ج . دوسن J. Dawson : Australian aborigines ، ص ٧٦

مسطح وسهم مقوس ، وإذا ثبتت التهمة الموجهة اليه فى بعض الجرائم المعينة طلى جسمه باللون الابيض ثم جاء يصحبه أخوه أو أحد أقاربه الذكور باعتباره شخصا احتياطيا وسمح له بأن يتسلح بمجن ثقيل وسهم مقوس ورمح. أما المجنى عليه فيحضر فى جمع من أصدقائه قد يصل إلى عشرين محاربا ، ثم يقف الجميع صفا واحدا أمام الجانى وعلى بعد خمسين ياردة منه ويسمح لكل واحد منهم أن يقذفه بأربعة رماح أو خمسة وبسهمين مقوسين على شرط أن يبدأوا جميعا فى وقت واحد فتنهمر الرماح عليه « كالمطر » ، فإذا نجح فى تجنبها تناول المجن الثقيل من الشخص الذى يصحبه وهجم عليه أعداؤه فى قتال فردى حيث يوجه إليه كل منهم ضربة من سوطه . ولما كان لابد من إراقة بعض الدماء لإرضاء الفريق المجنى عليه ، فإن الاختبار ينتهى بمجرد أن يصاب الجانى أول إصابة. وحينئذ يضمدون له جرحه ، ويتصافح الجميع كأحسن مايكون الأصدقاء. ولكن إذا رفض المتهم المثول والخضوع للإختبار ، فإنه يعتبر خارجا على القانون ويباح قتله . ويعد أخوه أو أحد أقربائه الذكور مسئولا عنه ، ويجب عليه أن يتكبد التحكيم بدلا منه ، وإذا اكتشفوا بعد ذلك أن المتهم كان بريئاً أصبح لأقاربه الحق فى الأخـــذ بالثأر من أسرة المدعى فى أول فرصة تسنح لهم[٢] »

يقرر دوسن بصراحة أنهم يقيمون التحكيم بعد ثبوت الجناية على المتهم : ومعنى ذلك أن هدفهم من التحكيم لا ينحصر فى البرهان على ثبوتها . ومع ذلك فإن إجراءه أمر لابد منه ، حتى أنهم فى حالة غياب الجانى يحتمون إجراءه على واحد من أعضاء هيئته الاجتماعية ، ويفضل أن يكون أخاه . هذا ويجب ألا يغيب عن بالنا أنه لايكاد الاختبار ينتهى حتى يتصافى الخصوم وأصدقاؤهما من كلا الطرفين ، وتصبح علاقات كل فريق بالآخر على خير مايرام. وقد لاحظ باحثون آخرون وجود هذه الخصائص نفسها ، فكتب و.م. توماس

---

(٢) المصدر نفسه ، ص ٧٦ .

W. M. Thomas مثلا يقول : « يوجد فى طباع هؤلاء الأهالى صفة نبيلة محبوبة : وهى أنهم لايحتفظون فى قلوبهم بأى عداء ولا يهونون من شأن العقاب، إذ لا يكاد ينتهى القتال أو العقاب (من الواضح أنه يعنى التحكيم كما رآه دوسن) حتى نرى أولئك الذين أثخنوا الجرحى بالجراح يشتغلون بامتصاص جراح هؤلاء الجرحى أنفسهم والقيام لهم بضروب العناية التى تتطلبها حالتهم[1] »

ويصف توماس هذا التحكيم نفسه فى عبارات مماثلة لعبارات دوسن فيقول : « يجرى عقاب القاتل عندهم على الطريقة الآتية ، وهى أن يجتمع أعضاء قبيلة المقتول ثم يقوم كل منهم برمى القاتل برمح أو سهم . فإذا خرج من ذلك دون أن يصاب بجرح بالغ ، جاز لأقرب ذكر إلى القتيل أن يضربه بعصاه التى يسمونها « ليونيل » leonil على رأسه (لا فى مكان آخر) حتى يكل من الضرب. وفى أثناء هذا العقاب لا يجوز للقاتل أن يرمى أى سلاح ، وإن كان يصح له أن يستخدم مجنة فى تجنب الطعنات . وقد شهدت إحدى هذه الحالات ورأيت المتهم يقذف بنحو مائة رمح ثم استطاع أن يتجنبها جميعا[2] »

يتكلم و . م . توماس عن « عقاب » و « قصاص » ; وهذا يدل على أن الاختبار لا يهدف إلى الكشف عما إذا كان المتهم آثما أو غير آثم . ويقرر توماس كغيره من الباحثين أن المهم فى الاختبار ليست نتيجته ، بل حدوثه على أية حال . أما نجاح القاتل فى تجنب الرماح أو عدم نجاحه فمن الأمور الثانوية التى لا خطر لها ، وجوهر الأمر هو أن يخضع للتحكيم تبعا للقواعد . فليس التحكيم إذن مساويا لما نسميه نحن عقابا أو تأديبا بمعنى الكلمة المتداول بيننا .

تستتبع بعض جرائم الزنا فى هذا الإقليم نفسه إقامة تحكيم مماثل للتحكيمات السابقة . « فإذا هجرت امرأة زوجها لتذهب إلى خليل لها ، فإنه يحق لأسرتها أن تعاقب الآثمين . فيقوم والد المرأة أو أخوها بطعنها بالرمح . وإذا لم تقض

---

(١) و . م . توماس A brief account of the aborigines : W.M. Thomas فى Auofstralia felix , Letters from Victorian Pioneeri ص ٦٧

(٢) المرجع نفسه ص ٦٧ .

عليها هذه الطعنة ، ردت المرأة إلى زوجها الشرعى . أما الرجل فيجب أن يخضع لاختبار آخر حيث يقف أمام عدد ما من الرماة الذين يقذفونه برماحهم، ولا يسمح له فى هذه الأثناء إلا بمجن صغير يتجنب به الطعنات ، وإذا رفض الخضوع لهذا الاختبار وجب عليه أن يقبل القتال الفردى مع أحد أقارب المرأة أو مع عضو آخر من قبيلتها يختار لهذا الغرض(١) » .

كذلك يقول الأستاذ « هووت » Howitt « من المعتاد عند قبائل « الولاروى » Wollaroi ، أنه إذا اتهم رجل باغتصاب امرأة متزوجة وجب عليه أن يواجه عددا معينا من أقارب المرأة مسلحين بالرماح لكى يقذفوه بها ، أما هو فلا يسمح له إلا برمح واحد لتجنب طعناتهم » .

ولاحظ الأستاذ و . ا . روث وجود هذا الإجراء نفسه فى كوينزلند ، ووصفه بدقته المعهودة على النحو التالى : إذا ثبت على شخص أنه آثم وجب عليه أن يقف أمام طائفة من من متهميه الذين يأخذون فى رميه برماحهم ، فتنهال عليه الرماح لمدة تزيد عن ساعة حتى يصل عددها إلى ثلاثين أو أربعين رمحا . فإذا استطاع أن ينجو منها دون جراح بفضـــــل مهارته وتأثير بعض الأصدقاء الأقوياء ، هرع إليه متهموه وتلقوه بين ذراعيهم ثم تصافح الجميع وهم يذرفون الدموع الغزار . ولكنهم يجدون فى البحث عن آثم آخر . ومن السهل عليهم على وجه العموم أن يعثروا على شخص قليل الأصدقاء مهيض الجناح من بين أضعف القبائل التى تجاورهم ، فيجعلوه كبش الفداء . وعلى كل حال تقضى تقاليد هذا الإقليم بقتل شخص ما عقب موت كل شخصية كبيرة(٢) » . تدل عبارات الدكتور روث جيدا على أن الإجراء الذى يصفه هنا نوع

---

(١) و . ا. استانزبرج W. E. Stansberg of the Aborigines of Victoria فى : Transactions of the Ethnological Society ، مجلد ١ ، (١٨٦١) ، ص ٢٨٨

(٢) و. ا. روث W. E. Roth : North Queensland Ethnologia ج ٩ ، عدد ٦ ، ص ٣٨٧ .

من التحكيم ، كما تدل فى نفس الوقت على أن هدف هذا التحكيم لا ينحصر فى اكتشاف الشخص الذى ارتكب جناية ما . بل فى إرضاء ميت يخشى غضبه ؛ ولا بد لإرضائه من قتل نفس : فإذا لم تكن نتيجة التحكيم مميته، راحوا يبحثون عن ضحية أخرى لا تكلفهم ثمنا باهظا .

ونجد هذه الطقوس بعينها لدى قبائل استراليا الغربية الذين قام الكردينال سلفادو Salvado ببحث أحوالهم . فيقول الكردينال : « إذا اتفق الطرفان على أن الجانى يحق عليه العقاب قام رئيس القبيلة المجنى عليها بالحكم عليه بعقاب يتناسب مع الجريمة ، وقد يصل فى بعض الأحيان إلى اختراق أحد فخذيه بالجتشى » (١) . ومن عاداتهم فى إجراء هذا العقاب أن يقف الجانى على بعد ما من المجنى عليه الذى يقذفه بكل ما لديه من رماح ، فإذا كان الجانى ماهرا حاذقا استطاع أن يتجنب كل هذه الرماح وخرج من المحنة معافا سليما . وعلى كل حال لا ينتهى المجنى عليه من قذف كل ما معه من رماح حتى يبرد الثأر ولا يرد له ذكر بعد ذلك ويتم السلام[٢] . » ويتكون الاختبار فى بعض الأحيان من قتال يتقابل فيه المتهمون والمدعون ومع كل فريق من الفريقين أصحابه وأقاربه ، ولكن القتال يتوقف لدى أول قطره تسيل من الدماء . وتجرى الأمور على هذا النحو ، على وجه الخصوص ، إذا كانت الجناية تهم عدة قبائل . « يبدأ النساء بتبادل الشتائم وإثارة الرجال حتى إذا خرجوا عن طورهم راحوا ينشدون الأناشيد الصاخبة ويندفعون فى قفزات غير منتظمة ويقومون بحركات عصبية لا عداد لها ، ويعدون حائرين من مكان إلى آخر ، وهم يقبضون بأسنانهم على لحاهم ، والرماح فى أيديهم ولكنها فى حالة توقف . فتراهم تارة يتقدمون كل فريق منهم نحو الآخر ، وتارة يتباعدون ، وهم لا يكفون عن الصياح والقفز ، حتى يقذف فرد منهم برمحه

---

(١) نوع من الحراب .

(٢) سلفادو Salvado : Memoires historiques sur L' Australie ص ٣٢٤ .

فيؤدى ذلك إلى معمعة مروعة وتتطاير الأسلحه من الجانبين ،وفى هذه الأثناء يجرى النساء معولات ويعملن على تشجيع الرجال وتزويدهم بالأسلحة التى يجمعنها مما قذفه «الخصوم» . وبمجرد أن يسقط أحد الأشخاص جريحا أو قتيلا فى وسط هذا الصخب ، يقف القتال فورا ، وتتلاشى الأحقاد ،ويسارع كل واحد منهم إلى إسعاف الجريح[1] » .

ليس هذا القتال العنيف فى الواقع إلا نوعا من التحكيم .والمرحلة الأخيرة منه خير دليل على ذلك . وإذا أردنا دليلا آخر فإنه يكفينا أن نذكر أن الاستراليين ، كجميع البدائيين تقريبا ، لا يعرفون المعارك المنظمه ، ويتجنبون القتال المكشوف دائما ، ولا تقع الحرب الحقيقية عندهم إلا بطريق المفاجأة أو الكمين . وهى تحدث فى أغلب الأحيان بمهاجمة عدو خالى البال فى أحد طرفى النهار . أما المعمعة المروعة التى شهدها الكردينال سلفادو ، فليست إلا احتفالا طقسيا رأت القبيلتان اللتان قامتا به أنه أمر ضرورى .

كذلك يقول « جراى » Grey ، وهو من أول الذين وصفوا قبائل استراليا الجنوبية ومن خيرهم : « يمكن لمن يرتكب جريمة (غير جريمة الاعتداء الجنسى على المحارم) أن يكفر عنها بالخضوع للتحكيم الذى يجرى على إحدى صورتين: فإما أن يجتمع الأشخاص الذين يعتبرون أنفسهم مجنيا عليهم ويقذفوه بالرماح، وإما أن يقوم هو نفسه بإحداث جروح بسيطه ببعض أجزاء جسمه ، كفخذه أو بطن ساقه أو ساعده مثلا بوساطة طعنات الرمح .ونوع الجريمة (من الجرائم العادية بالطبع) هو الذى يحدد الموضع الذى يجب أن يخترقه بالرمح وفى بعض الأحيان نرى الشخص الذى حق عليه هذا العقاب يمد ساقه بعدم اكتراث إلى الفريق المعتدى عليه ليخترقها برمحه ... ويحكم بزوال الإثم إذا جرح الجانى جرحا كافيا

---

(١) د . سلفادو المرجع نفسه . وقارن و . م . توماس :

A brief Account of the Aborigines of Australia felix.

ص ٩٤ ــ ٩٦ ؛ وكذلك وصف القتال المماثل لهذا عند قبائل « البوتوكودو » Botocudos ؛ الذى يذكره ماكسمليان دى ويد نيويد Maximilian : de Wied Neuwied فى : Voyage au Brésil ، جـ٢ ، ص ١٨٦ ــ ١٩٠ من الترجمة الفرنسية .

بالنسبة لجريمته ، أو إذا خرج من الرماح التى ألقاها عليه فريق المجنى عليه دون جراح (لأن كل واحد من القاذفين ليس له الحق إلا فى عدد معين من القذائف)[1]. لقد استعمل « جراى » لذلك الكلمة الصحيحة ، حين قال « إن هذا التحكيم له قيمة الصلح . فالواقع أنه لا يعتبر عقابا بمعنى الكلمة ، وإن كان الشخص الذى يخضع له يتلقى بالفعل العقاب على جريمته فى أغلب الأحيان . فالتحكيم فى جوهره طقس من الطقوس أو عملية غيبية يراد بها منع أو إيقاف النتائج الوبيلة التى لا يعدم الخطأ المرتكب (من قتل أو زنا ؛ الخ ..) أن يجرها على المجموعة الاجتماعية بأسرها ؛ أى أنه علاج غيبى لداء غيبى أو تكفير بالمعنى الاشتقاقى الكامل للكلمة ، وقد وصف إيلمان Eylmann بالتفصيل تحكيما مماثلا شهده فى حالة زنا ، ثم قال معقبا : « الاسترالى الجنوبى لا يعرف المبارزة التى يقصد منها الحصول على حكم قوة عليا فى قضية من القضايا [2]. » فليست هذه التحكيمات مماثلة لما كان يسمى فى العصور الوسطى بحكم الله .

إذا لاحظنا التصورات الجماعية التى ينطوى عليها الصلح نفسه فى بعض الجماعات الافريقية مثلا استطعنا أن نحسن فهم التحكيم الاسترالى باعتباره صلحا على حـد تعبير « جراى » . فالصلح الذى يعقده الأهالى ويقبلونه لا يعتبر ثمنا الدم ، لأن له أثراً غيبيا لا يقل عن هذا الأثر أهمية . كتب الأستاذ مفات Moffat يقول : « نعم انهم (يعنى قبائل البتشوانا Bechwanas) مغرمون بالثأر إلى أقصى حد . ولكن الصفاء التام والصداقة الكاملة لا يلبثان أن يستتبا بين المتخاصمين منهم ، إذا قدم مرتكب الجريمة هدية للفريق المعتدى عليه ، واعترف فى الوقت نفسه بخطئه ، أو ألقى بالملام على قلبه على

---

(١) جورج جرى ، George Grey
Journal of two esxpeditions of discovery in N. W. & western Australia .
مجلد ٢ ، ص ٢٤٣ — ٤٤ .

(٢) ا . إيلمان . Die Eingebornen der Kolonie Süd

حد تعبيرهم [١].» ووصف الأستاذ هبلى Hobly الأثر الغيبي الذى يحدثه بين أهالى افريقية الشرقية الانجليزية الاحتفال الذى يقيمونه لإعادة السلام بين أسرتين بعد أن تعمل أسرة القاتل على إرضاء أهل القتيل ، فقال « لا تبيح التقاليد لأحد من أسرة القتيل أن يأكل فى إناء أكل فيه عضو من أسرة القاتل أو يشرب من جعة يشربون منها ، إلا بعد تمام هذا الاحتفال. ويعتقد أهل «أوكمبا» Aukamba أن أفراد أسرة القاتل ، مادام الخلاف لم يسو تسوية قانونية ، لابد أن ينساقوا فى معارك مستمرة . وقد ينتهون بقتل واحد من جيرانهم فى هذه المعارك ؛ كما يعتقدون أيضاً أنه لابد أن ينساق أقارب القتيل من جهتهم فى معارك يرجح جداً أن يقتلوا فيها كقريبهم ... أما إذا حاولنا أن ننظر إلى الأشياء من وجهة نظر الأهالى فقد نستطيع أن نلخص فكرتهم على الوجه التالى : تحوم فى أنحاء الحى روح شريرة ، اسمها «مويمو» Muimu . وهى روح أحد الأسلاف ؛ ثم تدخل فى رجل ما فتدفعه إلى قتل جاره فى أول مشاجرة تقع بينهما . وقد تستمر هذه الروح فى الاستحواذ على الرجل نفسه ، كما قد تنتقل إلى آخر من الأسرة نفسها وتدفعه إلى ارتكاب نفس الجريمة . وكذلك تؤثر مويمو القتيل الأول على «أييمو» Aiimu (أرواح) أعضاء أسرته الأحياء جميعاً وتخيفهم . وهم يعرفون أن روح القتيل تحوم حولهم ، وأن أعضاء أسرتهم أكثر من غيرهم تعرضاً للقتل ، إذا اشتبكوا فى مشاجرة ما . ولهذا تعجل الأسرتان بتصفية هذه الحالة والعمل على تهدئة الروح الشريرة وردها إلى حالة الطمأنينة [٢] . »

هذه هى نظرة أهالى «الأكمبا» A-Komlba إلى التصورات الجماعية السائدة بينهم ولهذه النظرة دلالتها . فهم لا يعتقدون أن القاتل الذى يقضى على

---

(١) . مفات Missionary labour and Scenes in South Africa ، ص٢٥٥.

(٢) ك. و. هبلى Further reseaches into Kikuya and Kamba religious beliefs and customs ، فى J. A. I. ، مجلد ٦ ص ٤٢٢ — ٢٣ .

شخص ما فى إحدى المعارك هو السبب الحقيقى فى القتل : وإنما هو مجرد أداة لروح شريرة تستحوذ عليه فى هذا الحين. وهذا يتفق تمام الاتفاق مع الاتجاه الدائم للعقلية البدائية التى لا ترى نتيجة تحدث فى العالم المرئى حتى تعجل بالبحث عن سبب غيبى لها فى العالم غير المرئى. فماذا يجب عليهم أن يفعلوا إذن، حين يقتل أحد الأشخاص شخصا آخر من غير أسرته ؟ أتراهم يفرضون عليه عقوبة ما ؟ الواقع أنهم يلزمونه بدفع تعويض للصلح ، وقد يحكمون عليه بالخراب أو بأن يباع رقيقا . ولكن هذا التأديب الذى يفرض عليه لا يكفى لرد الطمأنينة إلى الأسرتين ، إذا لم يستطع فى الوقت نفسه أن يهدىء روح السلف الثائرة التى سببت هذا القتل ، والتى تحوم فى المجموعة لتلقى الرعب فى قلوب من يعنيهم الأمر جميعاً . وذلك لاعتقادهم أن هذه الروح ستدفعهم حتما إلى ارتكاب جرائم قتل جديدة إذا لم تتدخل الطقوس الضرورية لتهدئتها واقصائها. ويقول الأستاذ هبلى أيضا : « إذا قتل شخص ما ألزم القاتل بدفع بقرة أو ثور أو عنزة كدية لإقامة الطقوس . ويسمى ذلك الإجراء « أيتومو » etumu ، وهو أمر لا غنى عنه لحماية أسرتى القاتل والقتيل على السواء من قدرة الروح التى أوحت بالقتل والتى تظل فى حالة استثارة . ومن الضرورى مراعاة « الإيتومو » حتى فى حالة القتل العرضى ، لأنه لا شك فى وجود تأثير خبيث فى الهواء ، وإلا لما وقعت الحادثة العارضة مطلقا . (والواقع أنه لا توجد عوارض بالنسبة للعقلية البدائية كما نعرف .)

« كان من عاداتهم فيما مضى أنه إذا قامت حرب بين عشيرتين ، وقتل فرد من إحداهما فردا من الأخرى ترصد أخو الميت فى الطريق وقتل أى رجل من عشيرة القاتل واعتبروا أن هذين الدمين يمحو كل منهما الآخر ، ولم يفكروا فى الصلح بعد ذلك ولكنهم كانوا يحتمون دفع « الايتومو » وإقامة الطقوس [1]

---

(١) المرجع نفسه ص ٤٢٦ وكذلك فى جزائر سلمون (فى « بوين Buin » « وفلالافلا Villalavilla الخ ، يجب عمل « ما يأتى لإعادة النظام الذى عكره موت أحد الأشخاص : أولا : الثأر ، أى موت شخص من مجموعة القاتل . ثانيا : الصلح، أو دفع نقود من القواقع .

وهكذا لا يعد إرضاء الميت كافيا مهما كان . ولا يشعر الأهالى بالاطمئنان إلا إذا أقيم فعل غيبى لتهدئة الروح التى أعلنت عن غضبها عن طريق الكارثة التى وقعت . هذا إلى أنهم يعتبرون السلاح الذى استعمل فى القتل آثما هو الآخر . » ويطهرونه فى كثير من القبائل بأية طريقة من الطرق . فتعمد قبائل « الأكيكويو » Akikuyu إلى ثلمه ، وأعتقد أنه يوجد إجراءات من هذا القبيل لدى جميع القبائل الإفريقية تقريباً . وهم يقومون بهذه الطقوس لاعتقادهم أن السلاح يحمل معه الشؤم والكوارث . وكذلك الحال عند قبائل « الأكمبا » . إذ يعتقدون أن السلاح الذى استعمل فى القتل يحتفظ دائما برغبته فى إحداث جرائم جديدة ، ولكنهم لا يعرفون طقوسا ولا طلاسم ولا سحرا يستطيع أن يذهب بقدرته المشئومة ؛ لأنه يواصل القتل بيد صاحبه مهما فعل . لذلك يلجأ أفراد « الأكمبا » إلى الحيلة ، عندما لا يجدون وسيلة للتخلص من هذه اللعنة : فيضعون السلاح فى طريق عام أو فى ميدان مطروق ليعثر عليه بعض المارين . وإذا التقطه أحد الناس إنتقل إليه تأثيره المشئوم وتخلص منه صاحبه الأول ، ويبدو لى أن لهذا الاعتقاد أهمية خاصة ، لأنه يعبر عن فكرة الأهالى عن القتل . وقد رأينا أنهم يعتبرون « الإيتومو » ضروريا لصاحبه : فهو يخلص أسرة القتيل من لعنة القتل وأسرة القاتل أيضا ، ولكن الشؤم الذى ينطوى عليه السلاح يظل جاثما على القاتل ابدا وهو شؤم لا يمكن للزمن ولا لأى عمل أن يمحوه مهما كان [١] . »

لا تكاد الجماعات الاسترالية تعرف فكرة البضائع التى تقبل التداول ، وليس عندهم معيار مقرر لتقدير قيمة الأشياء النادرة التى يمكن تبادلها . لذلك

= ويظل القاتل شخصاً خطراً مادام لم يدفع شيئاً . ر . ترنفالد R. Thurnvald
Forschungen auf dem Bismark Archipel den Saloman Inseln
مجلد ٣ لوحة ٢٩ ، ملاحظة ١٨

(١) الأونربل تشارلس دنداس Hor. Charles Dundas
History of the Kikui (A. Kanba) فى : J. A. I.
مجلد ٤٣ ، ص ٥٢٦ــ٥٢٧ . وقارن ك . و . هبلى الفقرة المذكورة فى ص ٤٢٦ــ٤٢٧ .

لا يمكن أن تكون عندهم مصالحة بالمعنى المعتاد للكلمة. ولكنهم «كالأوكمبا» لا يحصرون هدف المصالحة فى إرضاء المجنى عليه، كالزوج المعتدى على عرضه، أو الأسرة التى قتل أحد أعضائها مثلا. وهم يعتقدون أن للقتل والزنا تأثيرا غيبيا على المجموعة الاجتماعية بأسرها، إذ أنهما يكشفان عن وجود تأثير خبيث يعمل على الاضرار بها ويظل خطرا يتهددها: فلا بد من محاربته وتحطيمه ولهذا يستخدم «الايتومو» عند الأكمبا: وهو يعتبر أيضا أحد وجوه التحكيم الضرورية عند الاستراليين.

وهكذا ينحصر جزء من وظيفته على الأقل فى توجيه تأثير ما على بعض قوى العالم الخفى، ويعتبر هذا التأثير أمرا ضروريا لحماية المجموعة الاجتماعية وبهذه الصفة يقترب «الايتومو» من ضروب التحكيم الافريقية التى تقام ضد السحر.

لكل هذا يمكننا ان نقول مع تالبن وغيره من الباحثين بأنه نوع من التحكيم ولكن الأسباب التى نبنى عليها حكمنا هذا تختلف اشد الاختلاف عما فى ذهن هؤلاء الباحثين.

الفصل التاسع

التأويل الغيبي للعوارض والكوارث

إذا حلت كارثة بفرد أو اسرة أو مجموعة اجتماعية أو نزلت بهم سلسلة من الخطوب وضروب الأخفاق ، لم يفكروا مطلقا فى ارجاعها إلى المصادفة . فنى بعض الجماعات كالبابو وبعض قبائل استراليا وافريقية يرتاب الأهالى فورا فى وجود سحر كما رأينا . ولكن فى بعض القبائل الأخرى كالأسكيمو ومعظم الجماعات التى تقيم فى أقاليم أمريكا الشمالية ، لا يكاد الأهالى يشعرون بشىء من هذا القبيل حتى يفكرون فى وقوع مخالفة لوصية مقدسة أو « لتابو » tabou (محرم) . فنى كلتا الحالتين تنتقل العقلية البدائية انتقالا مباشرا من الظاهرة التى صدمتها إلى سبب غيبى . وقد يبدو لنا هذا السبب وهميا ، ولكنه فى الحقيقة جزء من تجارب هذه العقلية التى تتكون من مجموعة التصورات الجماعية للهيئة الاجتماعية .

وهكذا استطاع أحد المبشرين الذين كانوا فى محطة تشلكوت Techilkut على ساحل كولمبيا البريطانية « أن يحصل فى خريف سنة ١٨٨١ على وعد من الهنود بأن يدفنوا جثة طفل ميت (بدلا من أن يحرقوها تبعا للتقاليد) ، وقد اوفوا بعهدهم . ولكن الجو قد ساء دون انقطاع فى أثناء الشتاء التالى ولاسيما فى شهرى فبراير ومارس ، واشتدت الريح والعواصف الثلجية وعجز الصيادون فى البحر والبر عن متابعة الصيد واصيب الناس بالقحط . فاعتقد الجميع أن السبب فى سوء الجو يرجع إلى عدم حرق الطفل ، فسارعوا بأصلاح الخطأ المرتكب فى اسرع وقت [1] » . وليست هذه حالة مفردة . إذ أن قبائل « التلنكت » Tlinkit تفكر نفس هذا التفكير فى كثير من الظروف . «يطلقون

---

(١) كروزه A. Krause : Die Tlinkit Inbianer ، ص ٢٣١

اسم « شلاكاس » Chlakass على كل ما يخالف التقاليد الموروثة أو يخرج عن نطاق المعتاد (يلاحظ هنا ما لهذا التصور من عمومية بالغة) ، ويعدونه سبباً عاما لكل حدث غير مرغوب فيه ، كسوء الجو والمرض والاخفاق فى الحرب وعدم النجاح فى الصيد ، الخ . . . . وهكذا إذا كانوا قد عزوا رداءة الجو فيما سبق إلى عدم حرق طفل ، فقد يعزونها إلى أشياء أخرى لاتحصى من هذا القبيل ، كاهمالهم عزل فتاة فى أثناء طمثها الأول مثلا ، وها هى ذى طائفة أخرى من الظروف التى جعلوها أسباباً لسوء الجو : غسلت فتاة شعرها خارج المنزل ؛ لبس مبشر حذاءه الخاص بالثلج قبل أن يخرج ؛ حاكى أطفال المدرسه فى لعبهم صياح الأوز الوحشى ؛ غسلنا نحن أيضا فراء عنزة جبليه فى ماء البحر ، كما جررنا قنفدا ميتا فوق الثلج فى أثناء رحلة صيد . وكان هذا العمل الأخير سببا فى امتناع أحد أصدقائنا الهنود الذين كانوا معنا من متابعة الرحلة محتجا بأن عملنا هذا سيسبب هبوب ريح عنيفة ، وفضل أن يحمل الدابة الثقيلة على ظهره ويرجع بها إلى المخيم[1] » .

وهذا يعتقد الأهالى أن مخالفة أية عادة تقليديه تسبب إضطرابا أو حادثه ، ولاسيما إذا كانت هذه العادة تتعلق بشىء محرم . وكل مخالفة تقابلها كارثة معينة فى أغلب الأحيان . فعند الاسكيمو مثلا نوع من المحرمات التى يَحرُم الجمع بينها أزواجا . وإن كانت تحل على سبيل الأفراد . « ومن ذلك أنهم يحرمون الخروج اصيد سبع البحر ماداموا لم ينتهوا من صناعة الملابس التى يتخذونها من التوكتو tuktoo (نوع من الرنة) كما أنهم يحرمون صنع هذه الملابس بمجرد أن يبدأوا الصيد . وحدث أن طلبت ذات يوم من أيام شهر مارس إلى « توكوليتو » Tookoolito وإلى زوجه « كودلو » Koodloo أن يصنعا لى كيس نوم من جلد الرنة ، فرفضا رفضا قاطعا ، لأننا كنا فى فصل سبع البحر . وقد قالتا لى ما نصه : « إننا إن فعلنا ذلك متنا ، ولم يستطيع أحد

---

(١) المصدر نفسه ، ص ٣٠٠

أن يقتنص شيئا من سبع البحر [١]، وفى ساحل الاسكا، كان الأهالى يراعون الزواج الخارجى الطوطمى بكل دقة، ولكنهم الآن قد تحللوا من قيودها بعض الشيء وصاروا يسمحون لأنفسهم باتخاذ أزواج من داخل عشائرهم الخاصة؛ غير أن الشيوخ منهم يعزون ارتفاع نسبة الوفيات التى حلت بقبيلة الكيناويين Kenayer إلى هذا الاتصال [٢].

ولا تزال توجد ظواهر من هذا القبيل فى تلك الأقاليم حتى يومنا هذا. وهذه حادثة دالة من الحوادث التى تشاهد فيها. «منذ زمن طويل أصبح محصول الصيد نادرا، وصارت الحيوانات تختفى عن أبصارنا. فاستحضر كرتلارسوارك Krudtlarssuark الأرواح ليسألها عن السبب فى نضوب الصيد. وبعد الجلسة أعلن أن إيفالورك Ivalork زوجة ابنه وضعت جنينا قبل تكامل نموه وأنها أخبأته لتتخلص من عناء الحرمان الذى يفرض على مثيلاتها (إذا تخضع النساء فى هذه الحالة لعدد كبير من المحرمات) ثم أمر إبنه بعقاب الآثمة، فحبسها فى غرفة من الثلج بعد أن جردها من كل فرائها لتموت فيها بردا وجوعا، لأن هذا هو الشرط الوحيد الذى يحمل الحيوانات على التسليم باقتناصها من جديد. ومن الغريب أنه لم يكد يعرف هذا الاتهام بين الأهالى حتى انهمكوا جميعا فى بناء الغرفة الثلجية التى وضعت فيها إيفالورك. فعلى هذا النحو عامل كرتلارسوارك زوجة ابنه التى كان يحبها كثيرا، ولكنه

---

(١) ك. ف. هول، C. F, Hall
Life with the Esquimaux. مجلد ١، ص ٣٢١

(٢) فون فرانجل Von wrangell
Einige Bernerkungen wher die wilden ander .. N. W. Küste Beiträge zur Kenntniss فى، Von Amerika desrussischen Reichs (Von Bar und Helmessen)
مجلد ٢١ ص ١٠٤

لم يفعل ذلك إلا لينجى الأبرياء من الهلاك بسبب غلطتها [1].

وفى جرينلند الشرقية . ومن عادات الأهالى أنهم إذا جاء الربيع ولم تكن الخيمة قد غطيت بجلود جديدة ، لم يسمحوا لأحد بأن يدخل فيها شيئا من كلاب البحر ذات العرف أو من كلاب جرينلند إلا بعد انتظارها فى الخارج بضعة أيام . وحدث مرة فى مبدأ الربيع أن تسلم أحد الأهالى نصيبه من كلب البحر ذى العرف وأحضره إلى خيمته ليقطعه ويخرج منه العراقيب . وكان غطاء هـــذه الخيمة فى حالة جيدة ولكنه لم يستبدل منذ الخريف السالف . وتصادف بعد ذلك أن أصبحت كلاب البحر ذات العرف نادرة جدا . فبدأ

---

(١) ك. رسموسن K. Rasmussen : Neue Menschen ، ص ٣٥ — ٣٦.
وقد لوحظت حوادث مشابهة لتلك فى أفريقية الجنوبية ، يقول الأستاذ « جونود » فى كتاب (The life of a South African tribe ، ج ٢ ، ص ٢٩٤) . « سأذكر هنا كلمات منخيلو Mankhelu بنصها ، وهو المطبب الكبير فى قصر نكونا Nkuna . ولن أنسى قط نبرات صوته المؤثرة ولا اقتناعه العميق فى اللحظة التى كان يكلمنى فيها بالعبارات الآتية ، وكأنه يكشف عن إلهام : « إذا أجهضت امرأة وتركت دمها ينزف دون أن تقول شيئاً وأحرقت الجنين سرا ، فإن ذلك يكفى لجعل الرياح المحرقة تهب ويكفى لجفاف القطر التام : فيكف المطر عن النزول ، لأن القطر أصبح على غير ما ينبغى أن يكون عليه ، ويخشى المطر هذا المكان ، ويضطر إلى التوقف قبل أن يدخله ، ثم لا يستطيع التقدم . فتلك هذه المرأة جد آثمة ، لأنها قد خربت قطر الرئيس بأن خبأت دما لم ينضج بعد لإنتاج كائن إنسانى . وهذا الدم يعتبر تابو Tabou «محرم» (لايمس). وعمل هذه المرأة يعتبر «تابو» أيضا. وكان سبباً فى المجاعة !.» ولابد من إجراء ضروب من التطهير لكى يتمكن المطر من الظهور من جديد فى هذا المكان — وكذلك الحال عند البارتستين « Barotse » . لما كان اليوم أول يوم فى التربيع الأول للقمر ، فقد هال المرأة وزوجها أن يضطرا الى الحرمان كل هذه المدة الطويلة ، فأخفيا الحادثة (الإجهاض) ولكن هذا الرجل كان واحداً من ضباط المؤسسة الملكية الرئيسيين ، أى كان سكميوا Sckamboa وكان لا يتجاوز الخامسة والثلاثين من عمره ، كما كان محبوباً من سيده مبجلا من الجميع . ولكن ذلك لم يجده فى شىء ؛ فقد شاع الخبر فى أقل من أربع وعشرين ساعة ، وانقض عليه زملاؤه «الكمبوا» الآخرون وبعد أن شدوا وثاقه ، جروه الى النهر وانتزعوا شعره بأظافرهم الفظيعة وخنقوه تحت الماء حتى أشرف على الموت ثم ضربوه بالسياط لإيقاظه ، وتركوه على الشاطىء تحت مطر مدرار . »

Missions évangeliqués ، مجلد ٤٧ ، ص ٣٨ (كويار Coillard

الاسكيمو ينظرون إلى هـــذا الرجل شذرا ، « لأن سلوكه أثار كلاب البحر وجعلها تهجر الشاطىء »[1] . ويقول الأستاذ بوس : « ضربنا الخطاف ذات يوم فى جسم حوت كبير ، ولـكنه غطس من جـديد ونزل تحت كتلة من الجليد ، فاضطررنا إلى العدول عنه بعد أن أرسلنا وراءه خمسمائة باع من الخيط ، وضاع منا الحوت . ولم نـكد نطأ الأرض بأقدامنا حتى صمم الأهالى الذين كانوا معى على أن يذهبوا إلى خيمة امرأة مشهورة بأنها أنجاكوك Angakok ماهرة (عرافة) . فدخلت هـذه المرأة فى حالة تجل ، ثم قررت أنى قد آذيت آلهة البحر بأن قطعت لحم الرنة الـكندية المعروفة « بالكاريبو » Caribou وكسرت عظاما على جليد البحر »[2] . وعند الأسكيمو الذين يقطنون الاقليم المتاخم لاقليم السابقين من ناحية الشمال والذين زارهم راسموسن Rasmussen لا يكاد لأهالى يشهدون وقوع مخالفة لأحدى المحرمات حتى يتوقعوا حـلول مصيبة ، ومن هذه المحرمات عدد كبير يخص الأشخاص الذين هم فى حالة حداد . ويتكلم راسموسن عن إحدى هذه الحالات فيقول « احتجنا إلى بعض الجليد لنذيبه فقام صاحبنا الجرينلندى « جورجن برونلند Jorgen Bronlund وأرسل صبيا صغيراً ليبحث عن شىء منه على غير علم منا ، وكان هذا الصبى قد فقـد أبويه حديثا . ولعل « جورجن » قد ظن أن مخالفة المحرمات مرة واحدة لا ينتج عنها ضرر بليغ . وهكذا ذهب « أجبا لنجوارك » Agpalinguark (وهو اسم الصبى) للبحث عن الثلج ، ولـكنه التقى فى الطريق بامرأتين عجوزتين ، ولمـا عرفتا وجهته ارتاعتا لهذه المخالفة وأشاعتا أمرها فى الناس .

وتوقع الأهالى حلول كارثة على وجه التأكيد ! والواقع أنه لم يمر يومان

---

(١) ج . هلم : Ethnological Sketch of the Amgmagalik
N. Thibitzer Eskimo, فى Meddelelser Groenland ، مجلد ٢٩ ، ص ٤٩

(٢) فرنتس بوس Frantz Boas
The Eskimo of Baffinland & Hudson Bay فى :Bulltin of American Museum of Natural history .

حتى انفجرت عاصفة عاتيه من الجهة الجنوبيه الغربية ، واشتد اضطراب البحر حتى طغت أمواجه على الأرض وامتدت إلى مسافة بعيدة من الشاطىء ، ودمرت كل مساكن القريه . وحينئذ زارنا أحد الرؤساء ورجانا ألا نفعل فى المستقبل ما يخالف التقاليد على هذا النحو ، وقال : اننا نراعى القواعد المقررة لكى يستقر نظام العالم ، لأنه لا يجوز لأحد أن يتحدى القوى ... ومن عادات الناس فى هذا القطر أن يكفروا عن الخطيئة لأن الموتى ... قوة لا تحد [١] » .

لا شك أن هذه العبارة تنطوى على دلالة قاطعة . فاذا قارناها بالعبارات التى ذكرها « راسموسن » والاستاذ « جونود » منذ قليل استبان لنا أحد الوجوه التى تظهر بها الطبيعة أمام البدائيين . ونحن نعرف ضروب المشاركة الغيبية التى بين المجموعة الاجتماعية (التى تتكون من الأحياء والأموات) وبين الأرض التى تحتلها بما عليها من كائنات مرئية وخرافية . وتقرر هذه المشاركات أن ما نسميه نحن بنظام الطبيعة لا بد أن يختل إلا إذا حافظ الأهالى على الشروط المعتادة ، وكان النشاط الشخصى للرئيس مسايراً للقواعد والتقاليد كما هى الحال فى كثير من الجماعات . ولا شك أن احترام المحرمات أحد هذه الشروط الجوهرية ، كما أن من وظائف الرئيس أن يمنع انتهاكها ، وأن يقوم بالتكفير عن مخالفتها بوساطة الطقوس المناسبه إذا خولفت . وقد رأينا ماقاله المطبب للأستاذ جونود من أن الاجهاض السرى الذى يسمح للمرأة وزوجها بتجنب (المحرمات) التكفيرية ، يعرض المجموعة الاجتماعية كلها لخطر الموت « فلا يستطيع » المطر أن يسقط كما كان يسقط من قبل ؛ وتحترق الحاصلات وتهلك المواشى من الظمأ ويستولى على القبيلة كلها اليأس التام . ولذلك تعتبر هذه المرأة « جد آثمة » ولا شىء يستطيع أن ينجيها من العقاب لأن العقاب وحده هو الذى يقوى على إعادة الأمور إلى مجاريها وتخليص

---

(٢) ك . رسموسن K. Rasmussn
Neue Manschen ، ص ١٤٩–٥٠

القبيلة من الهلاك . وإذا بلغ التضامن الاجتماعي بين أفراد المجموعة هذه الدرجة وأصبح في استطاعه عضو واحد من أعضائها أن يعكر نظام الطبيعة وأن يجعل الحياة جحيما لا يطاق بالنسبة إلى مواطنيه ، فمن الطبيعي أن يعتبر انتهاك المحرمات اخطر الجرائم ، لأنه يفصم المشاركة التي تتوقف عليها سلامة الجميع .

— ٢ —

قد يظن الباحث أن هؤلاء البدائيين يرتبون المخالفات ترتيبا تصاعديا تبعا لمدى النتائج التي تترتب عليها ، ولذلك قد يعتقد أنه إذا بحث المرء التصورات الجماعية لدى إحدى الجماعات استطاع أن يستنتج الأسباب التي تجعل انتهاك بعض العادات يضر بالمجموعة كلها في حين أن انتهاك البعض الآخر لا يحيق إلا بالشخص الذي ارتكبها أو بذويه فحسب . والواقع أن الوصول إلى هذه النتيجة أمر مستحيل لأننا لا نجد مطلقا ، فيما يروى عن البدائيين ، إلا ارتباطات من هذا القبيل « إذا ارتكب المحرم ترتبت عليه هذه النتيجة التي يمتد أثرها إن قليلا وإن كثيرا تبعا للحالات » أو « إذا حدثت الحادثة الفلانية أو حلت الكارثة الفلانية فذلك لأن أحدا قد ارتكب المخالفة الفلانية : » أو قد نجد هذه العبارة غير المحدّدة تحديدا دقيقا : إن حلول ذلك يدل على مخالفة قد وقعت (دون أن يعرف حتى الآن أية مخالفة) . فكيف يتأتى لإخفاء الاجهاض مثلا أن يؤدى إلى اختفاء المطر ، الحقيقة أن العقلية البدائية قد ألفت مثل هذه الارتباطات حتى صارت تبدو لها طبيعية ، وإن بدت لنا تعسفية بحتة . والأهالى يراعون الوصايا التقليدية كما يطيعون تلك القواعد المعقدة للغة التي يتكلمونها . ولكنهم يفعلون هذه الأفعال دون صعوبه كما لو كانت أفعالا عكسية . ولا يتوهمون أنه من الممكن أن تكون على غير ماهي عليه . ولذلك لا يتساءلون عن السبب الذي من أجله تؤدى هذه المخالفة إلى دمار المجموعة بأسرها ، في حين أن النتائج السيئة لتلك المخالفة الأخرى لا تحيق إلا بصاحبها أو بفريق من المجموعة فحسب . وإذا سئلوا عن هذه النقطة أظهروا دهشتهم لا من الظاهرة بل من السؤال وقالوا إن أسلافهم قد اعتقدوا ذلك منذ الأزل .

ولكنا نستطيع بالرغم من ذلك أن نميز بين شكلين اساسيين تمثلهما هذه العلاقة فى كل جماعة من هذه الجماعات ، فتارة نراهم يربطون نتيجة معينة بمخالفة معينة ، ويرجعون كلا منهما إلى الأخرى فورا دون أى اعتبار لكون النتيجة تحيق بشخص واحد أو تمتد إلى عدة أشخاص أو إلى المجموعة بأسرها. وقد أورد الأستاذ «مبلى» عددا كبيرا من العلاقات التى من هذا القبيل فى كتابه Nouvelles recherches sur les coutumes des Akemba et des Akikuyu (بحوث جديدة عن عادات قبائل الأكمبا والاكيكويو) وهذا مثال واضح منها لاحظه الأستاذ جونود . « يعتقد الأهالى فى قبائل الباتنجا » Ba-Thonga أن المرأة التى تحمل من غير زوجها تلاقى عسراً شديداً فى وضعها ، وقد يبدو لنا أنه لا توجد أية علاقة بين هاتين الحادثتين ، ولكن طول الوضع وعسره يبرهنان فى نظر قبائل « الباتنجا » على أن الطفل غير شرعى ، ويشتد اقتناعهم بهذه الخرافة إلى حد أن المرأة التى تعرف أنها ستلد ابنا من خليلها لا من زوجها تبادر بالاعتراف سراً إلى القابلة الأساسية لأنه يحرم وضع « طفل من السفاح » دون الاعتراف بذلك مقدماً ، لاعتقادهم أن السكوت يسبب للأم آلاما جساما[١] » ولهذا اذا أبطأ الفرج بدأت القابلة فى الشك حول شرعية الطفل . وكذلك الحال عند قبائل « الوشمبا » waschamba وهم أيضا من « البنتو » « اذا طالت آلام الوضع ، اتخذوا منه دليلا على أن المرأة قد اتصلت بأكثر من رجل واحد .[٢] » وهذا الاعتقاد على جانب كبير من الانتشار . وفى «أوغندا» « يجب على النساء ألا يذقن طعم الملح فى أثناء الحمل لاعتقادهن أنه يؤدى إلى موت المولود . ولذلك إذا مرض المولود بعد وضعه تشاجر الزوج مع زوجته قائلا : « إن هذا المرض سيذهب بحياة الطفل

---

(١) جونود The life of a South African Tribe ؛ ج ١ ص ٣٩ .

(٢) ا . كاراسك ــ ايشهورن Karasek, Eichhorn
Beiträge Zur Kenntniss der Waschambaa
مجلد ٣ ، ص ١٨٨

لأنك أكلت ملحا[1] »

وتتعدد هذه الارتباطات وتتنوع تبعاً للجماعات وتصل أحيانا إلى درجة من الشدة تجعل مرتكبي المخالفة ييأسون من تجنب نتائجها المتوقعة ، فيسارعون اليها بأنفسهم . وهذا أحد الأمثلة الصارخة التي لوحظت فى جزيرة نياس Nias وقد رواه أحد الأهالى الذين اعتنقوا المسيحية : «كنت أكبر اخوتى ، وكانت لى أخت صغيرة . وذات يوم زارنا الكاهن المطبب ، فنظر إلى أبى بعد أن ألقى نظرة خفية على أختى ثم قال : « أتعرف أنه لابد لهذه البنت أن تموت ؟ فسأله أبى لماذا؟ وأجاب الكاهن: « انك قد نحرت بعض الخنازير قبل ميلادها ، وقتلت ثعبانا ، وحملت اثقالا ؛ وهذا هو السبب فى ان بنتك لابد أن تموت . فلماذا تتحمل عبء إطعامها ؟ وكل ماتقومون به نحوها لن يجدى فى شيء ، لأن موتها امر محتوم . فحزن ابى وذهب إلى أمى وقص عليها ماقال الرجل ، فانهارت أعصاب الابوين انهيارا تاما ؛ ولكن ماذا فى وسعهما أن يفعلا ؟ وفى النهاية قال ابى لزوجته « لنقتل هذه الطفلة ، لأنها الآن تأكل ارزنا دون جدوى . » ولما كنت فى ذلك الحين غلاما قوى الأصلاب ، فقد بحثت عن كيس ووضعت فيه أختى وحملتها إلى الغابة...»[2] ، وهكذا لايمكن ان يخطر ببال الوالدين أن الطفلة قد تنجو من مصيرها المحزن ، لاعتقادهم أن انتهاك الوالد لبعض المحرمات tabou الخاصة بالحمل يجعل موتها أمرا لامفر منه . وقد يبدو لنا ان سلوك الكاهن يخلو من الرحمة . ولكن الا يجوز انه يؤمن بأن نتائج المخالفة قد تحيق بالهيئة الاجتماعية بأسرها ، إذا لم يكفروا عنها بموت الطفلة ؟ .

وفى بعض الأحيان يربط الأهالى بين وقوع المخالفة ، وحلول كارثة من

---

(١) فر . م . ا . كندن Fr. M. A. Condon
Contribution to The ethnography of Basoga - Batamba (uganda Protectorate) فى Anthropos ، مجلد ٥ ص ٩٤٦ .

(٢) Berichte der rheinischen Missionsgesellschaft ، ١٩٠٩ ، ص ٦١ .

أى نوع كان دون تعيين . ولكن مع التأكد من حلولها على أية حال إذا وقعت المخالفة . وينطوى هذا الارتباط على حقيقة واحدة ، وهى أنه لا يمكن انتهاك عادة أو حرمه دون حدوث « شىء ما » فليس الارتباط فى هذه الحالة إلا احساسا قويا بالعقاب الذى تتطلبه القوى الخفية التى صدمتها المخالفة : وليس إيمان العقلية البدائية بهذه النتيجة المحتومة أقل ثباتا من إيماننا نحن برسوخ القوانين الطبيعية واطرادها . فمم يتكون العقاب الذى سينزل بهم ؟ الواقع أنه لا يمكن التكهن به قبل وقوعه وأنه لن يتيح لأحد سبيل النجاة منه إلا إذا سارعوا ، بعد المخالفة مباشرة ، باجراء ضروب التطهير والطقوس التفكيرية التى ترضى القوى المحنقة أو التى من شأنها أن تمنع الكارثة على وجه العموم » .

وإذا كان الارتباط هكذا غير محدد ، فإن ظهور الكارثة هو الذى يحملهم على البحث عن سببها فى أغلب الأحيان . فهم يرون أنه قد وقع « شىء ما » : كرداءة جو ملحة أو جفاف طويل المدى أو موت مفاجىء أو مرض خطير أو فشل فى الصيد ، الخ ، فلا بد اذن أن يفترضوا وقوع مخالفة ولكن ضد أى وصية أو أى تقليد ارتكبت هذه المخالفة ياترى ؟ أو هل من المؤكد أن الكارثة جاءت من انتهاك عادة محرمة ؟ الا يمكن أن يكون الموت المفاجىء أو عدم النجاح فى الصيد ، الخ ، راجعا إلى أسباب أخرى : ككيد ساحر أو غضب سلف قوى مثلا ؟ وكيف يمكن فى هذه الحالة كشف السبب الحقيقى ؟ الحقيقة أن العقلية البدائية لا تعرف إلا طريقة واحدة للتحقق من ذلك ، ولكنها تعتقد عصمتها من الزلل . ألا وهى استجواب القوى الخفية التى ينبغى أن تُعرف نواياها فى هذه الظروف العسيرة اكثر من أى وقت آخر ، وأن تستميلها اليها .

فإذا لم تكن الحادثة تعتبر فى حد ذاتها كشفا محددا تحديدا كافيا ، أى إذا لم يكن الأهالى يعرفون مقدما أن الحادثة التى وقعت ترتبط بمخالفة معينة

لجأوا تبعا للحالات ، إلى الأحلام أو التحكيم أو التضرع إلى الأرواح ، وبالإختصار إلى أية صورة من صور العرافة ، لكى يستوحوها السر فى وقوع ما وقع ويسيروا على هدى ما ترشدهم اليه . « إذا أصيب شخص بمكروه أو مرض أو إذا انقطعت عنه حيوانات الفراء ، ظن على الفور أنه قد ارتكب إثما وذهب إلى العرافة (شامان Shaman) وطلب اليها أن تواصل عملياتها حتى تكشف له عن السبب : وحينئذ يقوم بما يجب عمله للتكفير عنه [1] » .

(ينحصر التكفير عادة فى نحت وجه إنسان صغير من الخشب وتعليقه على شجرة فى الغابة) . « ويعتقد الهنود الغربيون فى النحس وسوء الطالع . فمثلا إذا اصابهم حادث أو مرض أو موت ، اعتقدوا أن القوى الخبيثة هى التى رمتهم به لأنهم خالفوا وصايا « الطب السحرى » ومن المستحيل على الشعوب المسيحية أن تفهم أو تقدر قوة التأثير الذى يصيب طباع الهنود وحياتهم الاجتماعية منذ قرون طويلة من جراء اعتقادهم فى « الطب السحرى » ولعل مصطلح « القوة فوق الطبيعية » عندنا هو خير مقابل لمصطلح « الطب السحرى » فى الاستعمال الجارى عند الهنود [2] » .

والآن ينبغى لنا أن نتابع دراسة هذا الاعتقاد لدى عدد كبير من الجماعات ولنقتصر على ذكر هذا المثل عن قبائل « الفان » Fan من قبائل الكنغو الفرنسى . « كان الرجل الأسود الذى يصاحبنا إذا ابتلى بمصيبة أو بكارثة أو حتى بإخفاق بسيط عزاه إلى طوطمه الذى أحرج تارة من جراء « نسم » nsem (أى نجس حكمى) وتارة من جراء انتهاكه « لأيكى » (محرم) eki ، الخ ، وحينئذ يرى من الضرورى أن يهدئه . وكلما عظمت المصيبة دلت على أن السبب أى

---

(١) ج . ف . شتلر G. W. Steller
Bechreibung von dem Lande Kamtschatka ، ص ٢٧٦ .
(٢) و . ماك — كلنتوك W. Mac Clintock
The North indian trail ص ١٨١ (Blackfeet) .

الخطأ المرتكب خطأ جسيم ، ووجب التكفير عنه بقربان عظيم ، حتى لو كان الخطأ قد وقع دون عمد [1] .»

نرى من ذلك أن الشخص الذى يصاب بكارثة أو بإخفاق ويقدر أن ذلك قد جاءه من قبل عدو من الأعداء ، يسارع على الفور بتوجيه هذه الأسئلة إلى نفسه : ماذا فعلت؟ أى اثم ارتكبت؟ ماهى الوصية التى خالفتها؟ وحينئذ يدله الشعور الذاتى أو الاختبار الدقيق على أنه خالف أحد الالتزامات، فيعمل على إصلاح خطئه . بل قد يعرف أحد الأشخاص أنه ارتكب مخالفة ما ثم يرى مصيبة تحل بمجموعته الاجتماعية ، فيعزو إلى نفسه مسئوليتها ، ويسارع إلى قومه لكى يعترف لهم بما ارتكب معتقدا أن القوى الخفية التى أثارها بفعلته لا بد أن تخفف من حدة غضبه إذا قام بالتكفير الذى ستفرضه عليه الهيئة الاجتماعية . ويروى المبشر فنجمان wangemann حالة من هذا القبيل وقعت لفرد من «الكورانا» Koranna كان قد اعتنق المسيحية . فيقول : «نزل بنا الجفاف والجوع فأحس ريتشارد ميلز Richard Miles بوخز فى ضميره واعتقد أن هذا الجفاف لم ينزل إلا عقابا له على اثم ارتكبه . فنهض من فراشه ذات ليلة ، وخر على ركبتيه وتوسل إلى المولى ألا يعاقب البعثة كلها بسبب اثمه . وفى الصباح ذهب إلى المبشر ليعترف بجريمة الزنا التى ارتكبها [2] .» وهكذا تظهر تلك الحاجة إلى التكفير فى ضمير الوثنى حينما يحس بأن الكارثة التى نزلت بأهله ليست إلا عقابا أرسلته القوى الخفية من أجل انتهاكه هو نفسه لإحدى المحرمات . «أقلع زورق ذات مرة وفيه ستة رجال للذهاب من «ايتوتاكى» Aitutaki إلى «منوبى» Manuae (جزيرة هرفى Harvey) على بعد خمسة وخمسين ميلا ، وكانوا يقصدون من الرحلة إحضار شىء من ريش الببغاء الأحمر ، فلما أصابوا غرضهم ركبوا البحر من جديد ليرجعوا من حيث

---

(١) الأب هـ . ترى Le totemisme des Fân : H. Trilles ، ص ٥٠٧

(٢) الدكتور فنجمان Die Berliner mission im Koranna Lande ص ١٢٦

أتوا . ولكن رياحا مضادة قوية هبت عليهم فحادت بهم عن طريقهم . وظلوا على هذه الحالة عدة أيام . حتى بدأ الماء والزاد فى النفاد ، وحام حولهم خطر الموت فى أشنع صوره . وحينئذ نهض «روتو» Rotuo الذى كان برأس الزورق وصاح فى أصحابه قائلا « إنى أرى السبب الذى من أجله تطردنا الرياح المعادية فوق المحيط على هذا النحو ، لقد أثمنا بأحضارنا ريش الببغاوات الحمراء لأنه ريش مقدس فالآلهة غضاب ، وتتطلب منا قربانا غاليا . فاقذفوا بى فى البحر لكى تصلوا إلى مقركم فى خير وسلام . وهكذا فعلوا [1] .

وهم لا يعلقون أية أهمية على كون المخالفة إرادية أم غير إرادية ، شعورية أم غير شعورية ، لأن كل ذلك لا يمنع من كونها قد وقعت بالفعل ؛ وما دامت قد وقعت ، فلا بد من ظهور نتائجها ، بل إن ظهور هذه النتائج هو الذى يلفت النظر إلى وقوع المخالفة . لذلك تنحصر مهمة العرافه فى تحـــديد المخالفة المرتكبة بالضبط ووصف السبيل إلى محوها إذا كان ذلك فى حيز الامكان .

وفى داهومى ، إذا اغتسل عابد الأوثان ثم ذهب إلى السوق اعتبر ذلك احتفالا تطهيريا لنفسه وللشعب ، وهو تطهير دينى بحت ، لأنه لا يتعلق إلا بالأخطاء التى ارتكبت عمدا أو سهواً ضد الأوثان وعبادتها ، بل مما يلاحظ أن الأمثلة التى يذكرها الأهالى تدور كلها حول أخطاء غير إرادية ، كأن يأكل أحد الأشخاص على غير علم منه ، طعاما محرما على الأسرة ، أو يشترى من السوق كرات من الدقيق طبخت فى آنية محرمة عليه أو لف فى ورق لا يصلح له أن يستعمله ؛ وكأن يأخذ أحد الأمراء حمامه المعتـاد فى الوقت الذى يحرم عليه فيه هذا العمل ، لأن له أخا متوفيـا ، ولم يزود باحتفالات الدفن بعد . والواقع أن مرتكبى هذه الأخطاء لا يعتبرون آثمـين إلا عن طريق الجهل . ولكن أليس الجهل أيضـا يرجع إلى روح خبيثة تعمل على

---

(١) و . و. جيل W. W. Gill : Savage life in Polynesia ، ١٧٢ .

ايضاع الداهوميين فيه لتثير ضدهم غضب الأوثان ؟ [١] » والملاحظات التى من هذا القبيل عديدة لا تكاد تحصى فى نصفى الكرة كليهما . فلنقتصر على ذكر واحدة منها فقط . «إذا أصيب شخص بالمرض (فى زيلندة الجديدة) ولم يستطع اكتشاف المحرم الذى ارتكبه ، حاول أن يكتشف الشخص الذى جره إلى هذا الجرم الوبيل . إذ كثيرا ما يتسبب شخص لشخص أخر فى أرتكاب احد المحرمات على غير علم منه ، وذلك بقصد أن يجر عليه غضب « أ تواه » Atua . وهذا موضوع لفن خاص يسمى «ماكوتو » Makutu . وكثيراً ماراح ضحيته أشخاص أبرياء لاعتقاد بعض الأسر أنهم هم الذين تسببوا فى جلب المرض لبعض أعضائها بهذه الوسيلة الخفية [٢]».

يعد ارتكاب الجريمة عن جهل وغير شعور بارتكابها عذرا مقبولا يشفع لمن ارتكبها عند الاوربيين فى جميع الحالات تقريبا ، ولا سيما اذا ثبت أن الجانى كان عاجزا عن معرفة ما ارتكب . وذلك لأن حرمة القانون لم تنتهك حقيقة فى هذه الحالة ، مادامت مسألة احترامه وعـــدم احترامه لم تتوقف على ارادة الشخص الذى خالفه . ولكن العقلية البدائية تقف امام هذه الحالة نفسها موقفاً مختلفاً كل الاختلاف . فهم يعتقدون اولا وقبل كل شىء ان مخالفة القاعدة تنشأ عنها نتائج مستقلة عن نوايا الفاعل وبطريقة آليه اذا جاز لنا هذا التعبير : فاذا اجهضت احدى الحبالى مثلا ادى اجهاضها الى انقطاع المطر وهبوب العواصف واختفاء حيوانات الصيد بصورة حتمية ، لا بسبب انها ارادت ان تتخلص من جنينها ام لم ترد ، بل لأن الاجهاض قد وقع بالفعل ولأن المرأة لم تراع القواعد التى يجب اتباعها . أما أن يكون هذا الفعل مقصودا أم غير مقصود فأمر لا اهمية له بل إن عدم القصد يدل على خطورة المخالفة اكثر مما يدل على براءتها . فنحن نعلم أن العقلية البدائية لا تؤمن

---

(١) ا . ل هيرسيه L'ancien royaume de Dahomey ص ١٢٥ — ٦

(٢) ا د ، شورتلند E d Shortland
Traditions & superstitions of the New-Zealanders ، ص ١١٦ (١٨٥٦)

بالمصادفة . فكيف تأتى اذن لهذا الشخص أن ينساق إلى ارتكاب خطيئة دون ان يريد ودون أن يعرف ؟ لابد ان يكون ضحية لقوة خفية او هدفا لغضب سلف من الاسلاف فيجب العمل على تهدئته ، وإلافإنه يخفى فى جسمه (قاعدة شريرة) على غير علم منه ، وهو فرض اشد وانكى من سابقة . فى هذه الحال يتضاعف قلق المخالف بدلا من أن يشعر بالاطمئنان من أنه لم يكن قادراً على معرفة خطئه فى اللحظة التى ارتكبه فيها ، وأنه بالتالى لم يكن يستطيع تجنبه . ولذلك يتحتم عليه أن يبحث (بواسطة العرافة على العموم) عن السبب الذى وضعه فى هذا الموقف الخطر .

ليست الجرائم التى نسميها بالعاطفية من الجرائم غير الارادية البحت ، كما أن مرتكبها لايجهلها . ولكن العقلية البدائية تؤولها بطريقة تحير عقولنا . فبواعث الجريمة هنا واضحة للعيان . وهى أن الرجل قد استسلم أمام الجوع أو الغضب أو الغيرة أو الحب فارتكب ما ارتكب ، الخ ولا شك أن البدائيين أيضا يدركون ذلك ، لأنهم دقيقوا الملاحظة للطبيعة البشرية فى كثير من الأحيان. وتشهد قصصهم وأمثالهم على صدق مانقول . غير أن هذه البواعث ليست إلا أسبابا ثانية (طبيعية) ، والبدائيون لايعتبرون الأسباب الثانية تفسيراً حقيقياً لأى شىء ، فالشجره التى تسقط على عابر الطريق تسحقه وتقتله بطبيعة الحال، ولكنها لم تسحقه إلا لأن ساحراً « حكم عليه » doomed أما هى فليست إلا أداة ، أو مجرد منفذ لسحر الساحر . وكذلك الحال بالنسبة للرجل الذى يقتل غريمه ، فإنه يفعل ذلك تحت الحاح عاطفته الجامحة ولكن العاطفة ليست هى السبب الحقيقى فيجب البحث عنه فى طريق آخر . ولذلك يتساءل البدائى قائلا: من أين تأتى لهذه العاطفة أن ألهبت قلبه حتى استسلم لها ؟ وكذلك إذا اتفق لشخص أن قتل جاراً له فى مشاجره بأن هوى عليه برمحه فى ثورة غضبه ، لم يعدم أيضا أن يوجه إلى نفسه مثل هذه الأسئلة : من ذا الذى أثار المشاجرة التى اشتبك فيها القاتل والمقتول ؟ ولماذا وجد القاتل رمحه تحت يده فى هذه اللحظة بالذات ؟

تعتقد العقلية البدائية اذن أن السبب الحقيق يرجع إلى العالم الخفى دائما . فاذا أقبل هذا السبب من الخارج كان الجانى وضحيته آثمين فى وقت واحد (لا تفهم العقلية البدائية فكرة الجانى والمجنى عليه كما نفهمها نحن) . أما إذا كان منبعثاً عن فكرة شريرة تحل فى الشخص ، فإنه يعد منحوسا ، أى ساحرا ثم لا يلبث الإتهام المحتوم أن يوجه إليه .

— ٣ —

تسمح لنا هذه الارتباطات والتصورات الجماعية ، بتفسير بعض الظواهر التى تبدو لنا لأول وهـــلة أكثر غموضا من السابقة . فبعض الجماعات تفرد طوائف معينة من الموتى بمعاملة خاصة وهم الذين يروحون ضحية للموت العنيف على وجه العموم . فلا يقيمون لهم نفس الاحتفالات التى يقيمونها لغيرهم ، ويتخلصون من جثثهم على عجل . ويبدو أنهم يعملون بذلك على قطع الصلة بين هذا الميت وبين المجموعه الاجتماعية التى كان ينبغى أن يظل منتسبا اليها فى الصورة التى تساير حالته الجديدة ، لو لم يمت هذه الميته . كأنهم يسلكون نحوه مسلكهم نحو الأشخاص الذين يعتبرونهم نجسا على المجموعة وخطرا عليها ، ويلفظونه كما يلفظون السحره أو الأطفال الشواذ ، ومن يحملون فى أنفسهم بذرة الشر على غير علم منهم . والواقع أن هذا الشخص قد انتهى « بموت شىء » أى بموت غير طبيعى ، وهو خطب جسيم فى نظر البدائيين . نعم أن العقلية البدائية لا تعتقد أولا تكاد تعتقد فى وجود الموت الطبيعى بالمعنى الذى نفهمه من هذه الكلمة ، ولكن الموت فى الحالة التى نحن بصددها يكشف عن شدة غضب القوى الخفية على الفقيد . فهى التى بطشت به ، ولذلك ينبغى للآخرين أن ينفصلوا عنه ، وأن يقطعوا كل مشاركة بينه وبين المجموعة الاجتماعية ، وإلا لاقوا مصيره .

---

(١) ا . و . نيوفنوس A W Nieuwenhuis
quer duch Borneo حـ ٢ ص ٤٦٩ — ٤٧٠

ففى بورنيو مثلا « لاترتكز أفعال التكريم التى تقوم بها هذه القبائل نحو الاسلاف إلا على الخوف . ولكن الأهالى يخشون المقابر والجثث التى تخص أشخاصا ماتوا موتا مفاجئاً مفزعاً . أى الأشخاص الذين ماتوا منتحرين أو فى حادثة ما أو موتا عنيفا أياكان ؛ أو النساء اللاتى متن فى أثناء الوضع . ويفسرون هذا الموت بأنه عقاب أرسلته الأرواح إلى هؤلاء الاشخاص جزاء خطأ ارتكبوه . ومثل هذا الموت لايترتب عليه أى تكريم للميت ، بل تدفن جثته بطريقة خاصة فحسب[١] » « يعتقدون أن الأشخاص الذين يخالفون القواعد (أدات adat) يقعون فى النحس أو المرض جزاء مخالفتهم، فاذا اشتدت اثارتهم للأرواح ، عملت الأرواح على قتلهم فى قتال أو حادثة أو بالانتحار ؛ وإذا كان الجناة من النساء ، متن فى أثناء الوضع . وكل الذين يهلكون هكذا يعتبرون ممن ماتوا موتا سيئا ، فلا يكرمون فى دفنهم[٢] » والواقع أن ظروف موتهم تكشف عن جرائمهم وعلى حد تعبير « نيو فنويس » ، وهى تكشف على كل حال عن غضب القوى الخفية عليهم ، ومن المعلوم أن هذه القوى تتعقبهم فيما وراء القبر . » كل أولئك الذين يموتون من شيء آخر غير المرض يفقدون حق التمتع بدفن تكريمى ، هذا إلى انهم ، كما يقول الاحياء ، لا يتمتعون بالحياة المستقبلة فى « الأبوكيسيو » Apu kesio . ويعتقد الأهالى أن الأشخاص الذين يقتلون أو يموتون فى حادثة أو بالانتحار أو يسقطون فى ميدان الحرب ، وكذلك النساء اللائى يمتن فى أثناء الوضع والأطفال الذين يولدون موتى ، يصلون من طريقين مختلفين إلى مكانين آخرين حيث يبدأون فى الحياة مع منكوبين آخرين جرى عليهم نفس المصير . وتوحى جثث هؤلاء المساكين إلى « الكيانيين » Keyans بفزع من نوع خاص : ولذلك

---

(١) ا .و . نيوفنوس quer duch Borneo A' W. Neiuvenhuis حـ ٢ ص ٤٦٩ــ٤٧٠

(٢) المرجع نفسه حـ ١ ص ١٠٢

يقتصرون على لفها بحصير ، ومواراتها التراب [١] . »

لا تنفرد بورينو بوجود هذه العواطف الخاصة « بالموت السيء فى بوين Buin (بوجنفيل Bongainvil) ، « إذا مات شخص بسقوطه من أعلى شجرة ظنو أن أورمروى Oromrui هى التى قتلته (وهى أخطر الأرواح) وفى شبه جزيرة الغزال يحرم دفن الشخص الذى يموت على هذا النحو ، وتترك جثته فى المكان الذى سقط فيه . وفى « بوين » Buin يحمل إلى النار فى نفس الوضع الذى وجد عليه(٢) . »

ويتفق أهالى بوجنفيل مع الكيانيين (بورنيو) فى اعتقادهم أن أولئك الذين يموتون موتا عنيفاً يقيمون وحدهم فى العالم الآخر . ويعد هذا النوع من الموت (الموت فى ميدان الحرب أو فى حادثة) موتا شنيعا إلى أقصى حد(٣).

ويقول الأستاذ دوسن عن استراليا : هنالك بعض طوائف من الأموات لا يثار لهم : وهم الاشخاص البالغون الذين يموتون بالوباء . . . والصبيان الذين يموتون موتا طبيعيا مادامت لحاهم لم تنبت بعد ، والبنات اللائى لم يبلغن سن الحلم ، والاشخاص الذين يموتون فى إحدى الحوادث ، كالغرق والسقوط من أعلى شجرة ، وعضة الثعبان ، الخ . . .(٤) » فكل هؤلاء يعتبرون ممن ماتوا موتا سيئا . ولذلك يحرمون من حق التكريم الجنائزى وفى غينا الجديدة الالمانية « يعتقد الأهالى أن أرواح الأشخاص الذين يهلكون فى موت عنيف ، أى فى حادثة ، أو قتل ، أو سقوط من فوق شجرة تظل فى رحاب

---

(١) المرجع نفسه حـ ١ ص ٩١

(٢) Im Bismarch Archipel undanf den.R. Thurnwald
Solomon Inseln فى : Zeitschrift für Ethnologie مجلد ٤٢ ، ص ١٣٤

(٣) فرتسى A. Frizzi Ein Beitrag zur Ethnologie von Bongain ville
und Buka فى Bässler Archiv كراسة ٦ ، ص ١١–١٢

(٤) ج . دوسن J. Dauson Australian Aborigines ص ٧٠

المكان الذى وقعت فيه الحادثة ، ولذلك تعمل على إقلاق الاحياء . ويضيف المبشر قوله : انظر إلى مقدار الخلط الذى فى أفكار هؤلاء الأهالى المعنوية: فالذى يصاب بالدنس فى نظرهم هو القتيل لا القاتل . ولست أتكلم هنا إلا عن سكان « بنجو Bongu» الذين يعتقدون أن الضحية (أى روحها) لا تقبل فى قرية الأموات ، وأنها تحرم الراحة وتعيش فوق بعض الاشجار حيث تتغذى من أردا الفواكه التى تعاف الخنازير أكلها . [1] »

ويعتبر أفراد البسوتو Bassontos أن الذين يموتون بالجوع أو بالصاعقة، قد ماتو موتا سيئا ؛ ويعاملونهم بمقتضى ذلك « أولئك الذين يموتون من الجوع ليس لهم الحق فى الدفن » وكذلك يقول الأستاذ « كزاليس » فى مكان آخر [2] « من المؤلم أن أرانى مضطرا إلى نشر تلك الحقيقة المحزنة ؛ وهى أن قبائل البسوتو لا يدفنون الاشخاص الذين يموتون من الجوع مطلقاً ؛ وذلك يرجع إلى نظامهم الدينى الذى يحتم ألا يجرى الدفن إلا إذا كان مصحوبا بقرابين تقدم للباريمو barimo (الارواح) ؛ فاذا لم يترك الميت بعض المواشى لتقديمها فى جنازته ولا أحدا من أصدقائه الذين يقبلون التبرع بشىء منها لإقامة احتفال احجم مواطنون عن دفنه . لذلك كثيرا ما نرى فى زمن المجاعة أو القحط التام أطفالا يجرون جثة أبيهم إلى هوة ما ويلقونها فيها(٣) . » ونحن نجزم أن هناك بواعث أخرى إلى جانب الباعث الذى يذكره كزاليس : فاذا كان البسوتو لا يكتفون بحرمان طوائف الموتى هؤلاء من الاحتفال والقرابين المعتادة ، بل يحجمون أيضا عن دفنهم ، فذلك لأن الموت السىء الذى قضى عليهم يوحى إلى مواطنيهم بأشد أنواع الشناعة . لذلك لا يجرؤون على لمس جثثهم،

---

(١) Berichte der rheinschen Missionsgeselleschaft سنة ١٩٠٧ ص ١٢٥، ١٨٩٩ ص ٢٣٩ — ٢٤٠

(٢) ا . كزاليس Les bassoutos, E Casalis ، ص ٢١٣

(٣) Missions Evangèliques ، مجلد ١٦ س ٥ — ٦ (ملاحظه)

ويخافون إذا هم أودعوها الأرض أن يغضبوا أعضاء المجموعة الاجتماعية الذين تتوقف عليهم صلاح التربة أو جديها « وهم الاسلاف » . فيجب عليهم اذن أن يقطعوا كل علاقة بهم وأن يلقوهم فى هوة سحيقة . وتجرى هـذه المعامـــلة نفسها على ضحايا الصواعق ، لأن الأهالى يعتقدون أنهم إذا لم يستبعدهم الناس من المجموعة الاجتماعية بأسرع ما يستطيعون ، عرضوا أنفسهم للصعق أيضا . واذا انقضت الصاعقة على رجل فقتلته ، تركوه فى المـكان الذى صعق فيه ، لأنه يحرم إحضاره إلى القرية . « نزلت مرة نحو الطريق العمومى فرأيت بعض رجال مجتمعين فى أحد المنخفضات ، وقد راح اثنان من بينهم يشتغلون فى حفر حفرة . . . فلما رأونى أشاروا إلى غطاء بال مبلل بالمطر وملطخ بالطين ، ثم رفعوا طرفا منه فرأيت « تساى » Tsai مسجى على الأرض ولا يزال جسمه دافئاً ولـكنهم مع ذلك كانوا يستعدون لدفنه بعد لحظة ، دون أن يخبروا جدته وأبويه الذين يقطنون على مسيرة ساعتين بالجياد من المـكان الذى صعق فيه ، لـكى يحضروا الرؤية ولدهم للمرة الأخيرة ، فسألتهم : « لماذا تدفنونه بهذه السرعة قبل أن يبرد جسمه ودون أن تستدعوا أهله ؟ فأجابونى بقولهم : إنه لا يصح إحضار رجل كهذا إلى القرية . فسألتهم عن السبب فقالوا : لأننا إن فعلنا ذلك ، عادت الصاعقة وقتلت أشخاصا آخرين من أهل القرية(١) » .

يبلغ هذا الفزع بأفراد البسوتو أقصى درجاته ، حتى أنهم لا يخاطرون بإغاثة الأشخاص الذين يصابون بالصواعق . « يعتقد هؤلاء المساكين أن الاقتراب من المـكان الذى نزلت فيه الصاعقة قبل القيام بضروب التطهير المعتادة بينهم من شأنه أن يعرض مساكنهم للإصابة بـكارثة مماثلة .(٢) »

---

(١) المرجع نفسه مجلد ٧٤ ، حـ ٢ : ص ١٧٢ ــ ٣ (ديترلن Diéterlen) وقارن الـكولونيل ماكلين Comendium of the Kafir Laws anh customs ، ص ٨٥

(٢) المصدر نفسه ، مجلد ٢٨ ، ص ٣٠٤ (مرتان Martin)

وفى سنة ١٩١٢ انقضت الصواعق على منزل به ستة أطفال وشابان . واشعلت فيه النار فلم يستطيعون فتح الباب ، ونادوا يطلبون النجدة ، وكانت تسمع صيحات الألم المنبعثة منهم على بعد كبير وظلوا يصيحون وقتاً طويلا ، ولكن لم يتحرك أحد لنجدتهم ؛ ومن المؤلم أن هؤلاء الأطفال المساكين كانوا يعرفون أن والديهم على مقربة منهم ، وبعد مدة انهار السقف فجأة عليهم فانطلقت بضع صرخات أخرى من المنكوبين ، ثم سكتوا بعدها إلى الأبد ، إذ لم يجرؤ أحد على الاقتراب من المنازل المحترقة ، لانقاذهم . . . ولم يقبل الأهالى ومنهم أقارب الضحايا أن يشيعوهم إلى مثواهم الأخير[١] » وعند البتشوانيين « إذا نزلت الصاعقة بشجرة فهشمتها اعتقد الأهالى أنها أيضا قد ماتت « موتاسيئا » ، وعملوا على أهلاكها . إذا أتلفت الصاعقة شجرة فى رحاب مدينة أو فى إحدى حدائقها ، حضر الرئيس برجاله اليها وشرعوا فى استئصالها بالحديد والنار . وليس بالأمر الهين إعدام جزع شجرة سنط عتيقة مع كل فروعها ، إذا كانت قد انشبت جذورها منذ عهد الطوفان ،وأصبحت فى صلابة الرخام تقريباً ؛ ولكنهم يبذلون من الحماس والهمة مايكفل فى نهاية الأمر اختفاء كل أثر من أثارها(٢) . » ولا شك أن السود لا يفرضون على أنفسهم مثل هذه السخرة المفنية إلا لأسباب خطيرة .

ونجد فى أفريقية الغربية أعمالا مماثلة لتلك وناشئة عن نفس الاعتقادات السابقة . ففى « داهومى » « يعتبرون أن موت الملاح الغريق وهو مار على المعبرة عقاب له من « هو » Hou (وثن يرمز للمعبرة) . ولذلك يدفنون جسمه فى رمل الشاطىء وقد يرمونه فى البحر[٣] . »

وتعمد قبائل « المسى » Mossi إلى دفن المنتحرين كما تدفن الكلاب عندنا،

---

(١) المرجع نفسه ، مجلد ٢٨٧ ح ١ ، ١٠٥ــ٦

(٢) المرجع نفسه مجلد ١٩ ، ص ٤٠٦ (رمسيير Ramseyer)

(٣) ا . لى هيرسيه ص ١٠٩

ولانقول عندهم ، لأنهم هناك يأكلون الكلاب جميعها . ويدفن المجذومون ليلا بلا احتفال . أما فى حالة الموت المترتب على وقوع حادث ما ، كالسقوط أو لدغة الثعبان أو أى شيء آخر ، فإنهم يرجعون الحادث إلى وجود روح خبيثة ، ويرون أنهم إذا أغدقوا ضروب التكريم الجنائزى على الضحية أثاروا هذه الروح من جديد لتعود إلى قتل آخر من أعضاء الأسرة ، ولهذا يدفنون الأشخاص الذين يموتون فى حوادث دون احتفال ودون حضور الحنوطية ، ولايحلقون لهم رءوسهم ، لاعتقادهم أن الله دعاهم بشعرهم كما تقول قبائل « المسى » فيحفرون لهم الحفرة ثم يلقون بهم فيها دون أى إجراء آخر[1] » . وعند قبائل « الونياتورو » Waniaturu إذا قتلت الصاعقة شخصا ، قالوا أنه قتل عقابا له على سحره[2] » .

وقد بذل الأب ترى Trilles عناية فائقة فى جمع التصورات الجماعيـة والعادات الخاصة « بالموت السيء » فيقول عن قبائل الفان Fan فى الكنغو الفرنسية « لا يسلم الأهالى بأن الشخص الذى مات مصعوقا قد ذهب ضحية لحادث عارض ، لأنهم لا يؤمنون بوجود الحادث العارض على أية حال . ولاسيما فى هـذه الأقاليم ، ويكادون يجمعون على أن السبب فى وقوعه يرجع إلى انتهاك « إيكى » من « الأيكيات » أى حرمة من الحرمات ولذلك يرجئون دفن الميت المصعوق ويحرمون اعتباره وثنا من أوثانهم حتى يقوم خادم الأوثان بالبحث عن أسباب موته وإعلان اسم « الأيكية » التى انتهكت وأدى انتهاكها إلى صعقة . فإذا تم هذا التحقيق حكموا بفرض عقوبتين ، الأولى على شخص الميت والثانية على قبيلته أو عشيرته ، وعلى أسرته بوجه

---

(١) الأب أوجين منجان Les Massi. Eugene Mangin فى Anthlropos مجلد ٩ ، ص ٧٣٢

(٢) ايبرهارد فون سك Eberhard von Sick Die Waniaturu Bässeler-Archiv مجلد ٥ ، كراسة ١ — ٢ ، ص ٥٥

خاص . فتتضامن الأسرة كلها ممثلة فى رئيسها فى دفع الغرامة الأولى وتتضامن القبيلة كلها ممثلة فى رئيسها أيضا فى دفع الثانية .

هذا ويتحتم فرض عقاب آخر على الميت جزاء انتهاكه لإحدى الحرمات. وذلك لأن عقاب الموت الذى فرضته عليه الروح نفسها ، وهو أقصى عقاب يمكن إنزاله بحى ، لا يمكن أن يمنع القبيلة باعتبارها متضامنة معه فى مسئوليته، من أن تفرض عليه أقصى عقاب يمكن إنزاله بميت وحرمانه من القرابين الجنازية أولا ، ثم من التكريم الذى يقام للموتى فيما بعد . فيضربون عن إقامة حفلات الرقص والغناء من أجله فيما عدا ضروب الندب والعويل التى يقوم بها النساء داخل العشة . ويحملون جثته إلى الغابة دون أى احتفال جنائزى خاص بالموتى ، ثم يدفنونها تحت وكر نمل حتى يمزق النمل لحمه فى أسرع وقت ممكن . وكذلك لا يحفظون جمجمته مع جماجم الأسلاف ، لكى تموت ذكراه شيئا فشيئا . وهم يحتفظون بهذه المعاملة لكل الأشخاص الذين يموتون فى إحدى الحوادث ولا يعثر أحد على جماجمهم[1]» .

وبالاختصار إذا مات شخص «موتا سيئا» اضطر أفراد هيئته الاجتماعية إلى استبعاده منها للسبب المتقدم نفسه ، وسارعوا بإقصائه حتى لا يجروا على أنفسهم غضب القوى الخفية التى كان الميت هدفا لها . وهذا هو السبب فى إلغاء الاحتفالات الجنائزية التى تنظم علاقات الميت بمجموعته عادة . ولعله هو السبب أيضا فى اعتياد قبائل «الفان» على دفن مثل هذا الشخص تحت وكر نمل . إذ أن انفصال اللحم عن العظم يعجل بدخول الفقيد فى حالته النهائية[2] .

---

(١) الأب هـ . ترى Le totamisme des fan ، ص ٣٣٨ — ٤٠

(٢) قارن ر . هرتس R.Hertz La représentation collective de : la mort فى Anneé sociologique مجلد ١٠ ، ص ٦٦—٦٧

— ٤ —

إذا كان هذا هو موقف الأهالى نحو من ماتوا موتا سيئا، فما هو احساسهم نحو الذين يشرفون على «الموت السيء»؟ وأعنى أولئك الذين تعرضوا لهذا الموت، ولكنهم نجوا منه بفضل مجهود جبار بذلوه أو مصادفة سعيدة سنحت لهم. أتراهم يهرعون إلى نجدتهم وتخليصهم من الموت الذى يتهدد حياتهم؟ المفروض أن الإنسان فى هذه الحال يشعر بعاطفه إنسانية جارفة تدفعه إلى القيام بواجبه، ولكن هناك عاطفه جارفة من الخوف والفزع تدفع هؤلاء الناس إلى عكس ذلك.

فى كمتشتكا كان الأهالى فيما مضى إذا رأوا أحدهم يسقط فى الماء مصادفه عتبروا أن انتشاله إثم Süde كبير، لأنه إذا كان قد قدر له أن يموت غريقا فمن الخطأ تجنيبه هذا الموت. فإذا نجا هذا الشخص لم يسمح له أحـــد منهم بدخول بيته أو بمحادثته أو إعطائه كسرة خبز. وكان لا يستطيع أن يجد بنفسه زوجة: إذ أنهم يعتبرونه ميتا بالفعل. لذلك كان عليه أن يبحث لنفسه عن أرض أخرى يعيش فيها، وإلا مات جوعا. وكانوا أيضاً إذا رأوا شخصا يسقط فى الماء منعوه من الخروج منه، واستعملوا كل ما فى وسعهم لاغراقه والتأكد من موته [1]. «فهل تستطيع أن تتخيل سلوكا أبعد عن الإنسانية وأقرب إلى الوحشية من هذا؟ ومع ذلك فقد كان أصحاب هذا المنكوب مستعدين قبل وقوعه فى خطر الموت بدقيقة واحدة أن يقتسموا معه كل شيء من طعام وذخيرة ومأوى. ألخ ... نعم كانوا مستعدين أن يدافعوا عنه إذا لزم الأمر، وأن يثأروا له إذا أصابه فرد من جماعة معاديه بضر. وبالاختصار كانوا مستعدين أن يقوموا نحوه بكل ما يقومون به نحو أى فرد آخر من

---

(١) ج. ف. شتلر G. W. Steller
Bescherbung von dem Lande Kamtschatka، ص ٢٩٥

أفراد جماعتهم، وأن يفوا له بجميع الالتزامات المتعددة التى تفرضها روح التضامن بين هذه الجماعات، ولكنه يصبح موضع خوف واشمئزاز بمجرد أن يسقط فى الماء عرضا ويتهدده الغرق. وحينئذ لا يحجم أصحابه عن نجدته فحسب، بل إذا لاح لهم أنه على وشك النجاة منعوه؛ وإذا طفا على سطح الماء أرسلوه إلى القاع. وإذا أمكنه النجاة رغم ذلك لم يعترف أفراد المجموعة بنجاته من الموت ورفضوا التعامل معه وأصبح عضوا مبتورا. ويذكرنا الشعور الذى يوحى به هذا المنكوب والمعاملة التى يعامل بها من كانوا يجرد عليهم سيف الحرمان فى العصور الوسطى. وذلك لأن الحالات التى تدعو إلى هذه المعاملة شديدة الشبه بحالات الموت السىء «فليس الذى يفزع العقلية البدائية فى الموت السىء هو الموت فى حد ذاته، ولا الظروف المادية التى تصحبه بل الكشف عن خطأ ارتكب وعن غضب القوى الخفية الذى يدعوهم إلى التكفير عن هذا الخطأ. وهم يعتقدون أن تعرض الشخص للموت بحادث عارض يعد برهانا قاطعا على صدق الكشف وهو كحدوث الموت نفسه تماما. وذلك لأن هذا الشخص قد «حكم عليه» فعلا ولا يهم بعد ذلك أن يكون التنفيذ قد تم أو لم يتم. فإذا ساعدوه على النجاة؛ كانوا مشتركين فى خطئه وجروا على أنفسهم الكارثة التى وقعت عليه وهذا أمر لا يجرؤ البدائيون على ارتكابه مطلقا. ولا شك اننــــا لازلنا نذكر أولئك الأطفال المساكين الذين كانوا على وشك الاحتراق فى المنزل الذى انقضت عليه الصواعق واشتعلت فيه النار وقد كان ابواهم على بعد خطوتين منهم فلم يخفا لنجدتهم. أما إذا حاول «المحكوم عليه» نفسه أن يتخلص من الموت فإنه يحنق القوى الخفية التى ربما صبت جام غضبها على ذويه، لذلك يجب عليه أن يموت لأن تلك الحادثة (التى ليست بحادثة) تعد نوعا من التحكيم الطبيعى، مادام الاعتباط أمرا مستحيل الوجود فى أذهان البدائيين. وإذا كان من شأن التحكيم لدى كثير من الجماعات الافريقية أن يظهر «بذرة للشر» التى تحل فى الشخص، فإن الحادث العارض ينم عن الخطأ الذى دفع

بالقوى الخفية إلى الحكم على هذا الشخص . وفى كلتا الحالتين يؤدى هذا الكشف إلى ثورة الأهلين فورا . فلا يكاد يقع حتى يصبح الشخص الذى كان زوجا أو صديقا أو قريبا ، شخصا غريبا ، بل عدوا لدودا ومثارا للفزع والبغضاء .

ليست ملاحظة « شتلر » هى الوحيدة من نوعها . فقد اشار غيره إلى ذلك الظاهرة نفسها . فيقول « نانسن » Nansen مثلا : « إذا حلت بأحدهم كارثة وهو فى الماء ورأوا أنه اشرف على الموت أحجموا (الاسكيمو) جميعا عن نجدته ، لأنهم يخشون أن يكون قد مات بالفعل فى اللحظة التى يلمسونه فيها [1] . » ويفسر نانسن هذه القسوة غير الانسانية عندهم بالخوف الذى يعتريهم من لمس الجثث على وجه العموم .

وقد يبدو هذا التفسير أقرب من غيره إلى الحقيقة ، لأنه يشابه طريقتنا فى التفكير والاحساس . ولكن هذا الشبه لا يدل على وجاهته فى شىء ، ويكفى للدلالة على ذلك أن نشـــير إلى الواقع الذى يؤيد تفسير « شتلر » . كذلك يكتب « ج . هلم » Holm عن الجرينلنديين الذين يقطنون الساحل الشرقى فيقول : « يخشون مس الجثث إلى حد أنهم إذا وقعت حادثة لشخص لم يفكروا فى مس جثته ، أو السعى إلى إنقاذه منذ اللحظة التى يرون فيها أن مساعدته اصبحت عديمة الجدوى . ومن ذلك أن رورو « سوياركاك » Suiarkak انحرف ذات يوم فى بداية شهر ابريل ، وهو فى طريقة للنزول على الجليد : فاستطاع « سوياركاك » أن يتخلص من الزورق ولكنه لم يلبث أن غاص فى الماء . وكان أبوه وأشخاص أخرون على شاطىء الجليد حين وقعت الحادثة ، فهرعوا إلى زوارقهم لنجدته . ولكنهم لم يحاولوا انقاذه حين غطس مع أنه كان من السهل رؤيته ومد مجداف إليه . [2] » فتدل تفاصيل هذه الملاحظة نفسها

---

(١) فر . نانسن Eakimo Life Fr. Nansen ، ص ١٣٧ وقارن نفس المرجع ص ٢٤٥

(٢) ج . هلم An ethnological sketch of the Angmagsalik. G. Holm نشر فى Meddelelser on Groenland. ، مجلد ٣٩ ، ص ١٣٧

دلالة واضحة على أن الذى منع الوالد وأصحابه عن مساعدة المنكوب لم يكن هو الخوف من مس الجثة بل الكشف الغيبى الذى تنطوى عليه الحادثة نفسها . لأنه لم يكن هناك جثة حتى يخافها هؤلاء الاشخاص ، كما كان يكفيهم أن يمدوا مجدافا لأنقاذه . ولكنهم لم يجرؤوا على معارضة العقاب الذى أرسلته القوى الخفية . ويقول « هلم » أيضا : « كنا إذا رأينا فى طريقنا شخصا مسافراً على زحافة وسقط فى أخدود فساعدناه ، استقبلنا ذووه كما لو كنا قد قمنا بعمل من اعمال البطولة . » نعم قد يرى الأهالى فى ذلك شيئا من البطولة ، ولكن الأمر ليس كذلك بالنسبة إلى البيض الذين لا يخضعون لنفس القوى الخفية التى يخضع لها الاسكيمو ، أما الاسكيمو نفسه ، فإنه يعتبر هذا الحكم غير قابل للنقض ، أو الاستئناف ، إلى درجة أن الوالد لا يستطيع أن يجرؤ على معارضته ولو كان ذلك فى سبيل تخليص ابنه من الموت لأنه لو فعل ذلك لعرض نفسه وعرض المجموعة كلها للخطر وربما للفناء التام .

وقد روى الباحثون الأولون حوادث مشابهة لتلك عن جماعات افريقيا الجنوبية فمثلا يحكى فان دركمب Van der Kamp أن « الكفرة » يهجرون المحتضر فى بعض الأحيان ، وأنه إذا نجا من الموت ، فقد يتعرض للهجران مرة أخرى . وهم يعللون هذا السلوك القاسى بمعتقد خرافى فحواه أن المرض أو الكارثه يضاعفان من ضحاياهما إذا لم يحاول الناس أن يتخلصوا ممن أصيب بهما ، ولهذا السبب لا نراهم يعينون غريقا مطلقا ولا أى شخص آخر يتعرض لخطر مميت . بل انهم إذا سمعوا شخصا من هذا القبيل يصيح طالبا النجدة ، فروا من المكان الذى هو فيه بأسرع ما يستطيعون ، أو قذفوه بالأحجار لكى يجهزوا عليه . ولذلك تحاول السيدات اللائى يعانين آلام الوضع عدم الصياح ؛ وإلا فر منهن الجميع وبقين دون معين ومجرهن كل انسان . [1] . » وقد لوحظ

---

(١) لشتنشتين Lichtenstein Reisen im südlichen afrika. جـ ١ ، ص ٤٢١ (ملاحظة)

وجود هذه العادة الأخيرة عينها فى إقليم آخر ونعنى لدى قبائل تلنكيت Tlinkit فى كولومبيا البريطانية ، وإن كان المكتشف يفسرها تفسيرا يختلف عن تفسيرنا بعض الشيء ، فيقول . . « كنت كثيرا ما أسمع أنينا حزينا ينبعث من أماكن عديدة فوق التل القريب من مسكنى ، فأسأل من معى من الأهالى عن السبب ، ويجيبوننى بأنه يوجد فى الغابة بعض النساء اللاتى على وشك الوضع ... ويعتذرون عن هجرانهن بأنه لا يمكن لأحد أن يمد اليهن يد المعونة لأنهن غير طاهرات فى هـذه الحالة . وهكذا تراهن يلقين بأنفسهن بعد أن هجرهن ذووهن فى أشد أيام الشتاء ، تحت البرد القارس والمطر الشديد . دون أن يصل صراخهن الحزين إلى قلب انسان واحد ، فيحرك فيه الشفقه : [١] » . وأخذ يروى عن أهل جزيرة سلمون أنه « إذا حاول قرش (حيوان بحرى) مقدس أن يلتقم شخصا ، واستطاع هذا الشخص أن يتخلص من بين فكيه فى نهاية الأمر ، فزع الأهالى وقذفوا به فى البحر من جديد لكى يهلك فيه ، [٢] » ولسنا بحاجة إلى افتراض قدسية القرش لتفسير فزعهم هذا ، إذ لا شك أنهم يعتقدون كالاسكيمو والكفرة أن الشخص الذى تعرض لخطر الموت قد حكمت عليه القوى الخفية حكما مبرما » .

— ٥ —

يجب أن نضع حوادث الغرق فى الصف الأول من سلسلة الحوادث والنكبات التى إذا أصيب بها شخص حرم على الآخرين أن يغيثوه ، بل وجب

---

(١) هلمبرج Holmberg Uber die Volken des reissischen Amerika . Acta societatis scientiarum fennicse ، مجلد ٤ ص ٣١٧ـ١٨

(٢) فقرة يذكرها و . هـ . كدرنجتون R. H. Codrington فى religious beliefs & practicesin Melanesia من مجلة J. A. I. - مجلد ١٠ ص ٣٠٢

عليهم أن يجهزوا عليه ، وكانت تسود هذا العادة فى بعض الجماعات البدائية لسكان جزر « فيجى » Fiji مثلا ، الذين كانوا يقتلون الناجين أو يأكلونهم . « يفترض الأهالى أن الذين ينجون من الغرق لم ينجوا إلا لكى يؤكلوا ، ومن النادر أن يسمحوا لهم بالاستمرار فى الحياة . وقد حدث منذ عهد قريب أن انقلب زورق فى البحر بالقرب من « واكايا » بركانيه وكانوا خمسة عشر شخصا أو سته عشر ففقد الزورق وانتشل الغرقى وشووا وأكلوا [1] » . وكان أحد الرؤساء مع اتباعه يصطادون على صخرة بالقرب من الشاطىء فغرق زورق بالقرب منهم ، ولما رأوه سارعوا نحو حطامه وهم يصيحون قائلين : « سنحصل اليوم إذن على طعام جيد » فأجابهم الرئيس (وكان ممن اعتنقوا المسيحية) بقوله : « لن تمسوا واحـــدا من هؤلاء الأشخاص ، انى أريد الحياة لهم . » فأجابوا بدهشة : « كلا ، لا بد أن يموتوا لأنهم غرقى ! » وأبحر زورق يملكه « أوفالوا » Ovalau قاصـــدا « جو » Gau وانقلب فى الطريق فتعلق به الركاب وجرفهم التيار نحو الجزيرة التى كانوا يريدون الذهاب اليها حتى وصلوا فى سلامة وعافية . ولكن لسوء حظهم كان أثر الماء الملح قد ظل عالقا بوجوههم « على حد تعبير الأهالى » ونزلوا إلى الأرض فى هذا المكان الذى كان يرحب باستقبالهم دون ريب ، لو لم تقع لهم هذه الحادثة المحزنة فى أثناء الطريق . ولكنهم لم يكادوا يضعون أقدامهم على الشاطىء حتى صرعوا وشووا وأكلوا . (٢) » وقد حاول المبشرون الذين شاهدوا هذه العادة القاسية غير القابلة للتفسير فى ظاهرها ، أن يبحثوا عن عللها وأصلها . يقول الاستاذ واترهوس « قتل الغرقى تقليد معترف به ونحن لا نظن أنه يرجع إلى قسوة الأهالى وحدها ، بل لعله بالأحرى من نتاج التربية . فهم لا يكادون يرون بعض الأشخاص يسبحون « للنجاة بحياتهم » حتى يبدأوا فى إعداد الفرن الذى سيشوونهم فيه فورا . وقد دلت تحرياتى على أن ضحايا هـــذه العادة

---

(١) ث. وليامز Th. Williams Fiji and the Fijians ، ح ١ ، ص ٢١٠ (١٨٦٠) .

(٢) ج. واتر هوس J. Waterhouse
The King and people of Fiji ، ص ٢١٠ ، (١٨٥٣)

المتبربرة كلهم تقريبا من سكان « فيجى » الأصليين . ومن الثابت أن هذا العقاب القاسى ليس له من علة غير النكبة التى حلت بضحاياه [١] . إذ يعتقد الفيجيون أن الغرقى قد هجرتهم الآلهة لذلك يرون أن إعدامهم أمر ضرورى لإرضاء هذه الآلهة . أما إذا كانوا من الأجانب فانهم يبقون عليهم بل يسعون إلى انقاذهم ، إذ لا يزال يوجد فى جزر فيجى « قوم من سلالة جزر « تنجا » Tonga الأصليين ، كانوا قد غرقوا هنالك ولكنهم نجوا بحياتهم . » وكتب الأب جوزيف شفرون Joseph Chevron عن هذه العادة يقول : « أخبرنى بعض العارفين أن الأهالى لا يعدون أكل الغرقى المساكين الذين تقذف بهم العاصفة إلى الشاطىء حقا من حقوقهم فحسب ، بل يعتبرونه واجبا دينيا ، حتى لو كان هؤلاء الأشخاص آباءهم أو امهاتهم . وإذا حلت مثل هذه المصيبة ببعض الأوربيون لم ينتظر الأهـــلون ، إذا استطاعوا ، أن يرسو حطام السفينة لينفّذوا فيهم هذا الواجب الشنيع [٢] . »

لا يجهل الفيجى الذى يسقط فى البحر المصير الذى ينتظره إذا استطاع أن يسبح إلى بر النجاة . ويحكى الأب « ليت » حكاية غريق استطاع أن يصل إلى البر ، وأن يجد وسيلة للهرب . ولكن أحد الأهالى اكتشف أمره ، فتقدم اليه بخطى ثابتة وألح عليه فى أن يتبعه إلى المدينة مع أن الغريق كان يفضل كثيرا أن يبقى فى عرض الطريق حتى يعلم الرئيس بوصوله ، ولما وصل إلى المدينة اجتمع الناس حوله فورا ؛ وراحوا يلمسون عينيه ويقولون : « نعم هـذا ماء ملح ، أى إنك سقطت فى البحر : فيجب أن نأكلك [٣] » وهكذا يعتقد الأهالى أن قتل الغرقى التزام دينى لا يجوز التخلى عنه ، وقد رأينا أن المبشرين ينصون عن ذلك نصا . وبمقتضى هذا المبدأ لا يجوز أن تظل الأشياء التى توجد فى

---

(١) المرجع نفسه ص ٣٣٤ـ٥

(٢) Annales de la propagation de la foi ، مجلد ١٤ ص ١٩٢ (١٨٤٢)

(٣) Wesleyan Missionary notices ، مجلد ٧ ، ص ١٥٠ (خطاب من القس ليث Lyth)

الزورق المنكوب ملكا لصاحبها إذا بقى حيا باحدى العجائب . «أبحر قسيس من « لوما لوما » Lomaloma فى صحبته بعض الزوارق المسيحية ، ثم غرق زورقه وانفصلت عنه ساريته فتعلق بها الركاب وبذلك استطاعوا النجاة . ولما وصل الخبر إلى المسيحيين النازلين فى هذه البقعة هرعوا إلى الشاطىء وعلموا أن الزورق الذى كان به القس قد رسا عليه بدفع التيار ، فجمعوا الحصر والأشياء الأخرى التى كانت به وأرسلوها إلى صاحبها . ولكنه ظل يرفض فترة طويلة محتجا بأن هذا العمل جد مضاد للتقاليد الجارية فى فيجى [١] . ولعل هذا البحار اعتبر نفسه سعيدا إذ وقع على أشخاص مسيحيين فلم يحكموا عليه بالموت تكفيرا عن غرق زورقه . ولكنه على كل حال تردد فى أخذ الاشياء التى كانت فى الزورق مخافه ارتكاب خطأ جديد قد يجر عليه كارثة أخرى .

وتوجد عادات مماثلة لذلك لدى كثير من سكان الجزر المتأخرين كما هو معروف . يقول السير سبنسر سان جون Spencer Saint Gohn « هناك عادة جد وحشية تسود بين سكان هذا الساحل (ساحل برنيو) فإذا غرقت سفينة أصبح ركابها ملكا لرئيس الإقليم الذى تسوقهم مصيبتهم إليه [٢] . » ويتجلى طابع الغيبية الذى تتسم به هذه العادة فى زيلندا الجديدة بوجه خاص . «إذا غرق زورق بالقرب من قرية من القرى ، أصبح هو أو حطامه وكل مافيه أمتعة ، ملكا لأهل القرية ، ولا يعنى الأمتعة من هذا السلب أن يكون أصحابها من الأصدقاء أو أن يكونوا قد وصلوا إلى البر سالمين معافين ، أو أن يكونوا قد جاءوا إلى هذه القرية بالذات بناء على دعوة مشددة من سكانها ليشتركوا فى الاحتفال بجنازة مثلا ! ومن الغريب أن أولئك المساكين أنفسهم يعتقدون أن التخفيف عنهم بخرق هذا القانون جرح لكرامتهم ولا يحجمون

---

(١) ج كلفرت J. Calvert
Missionary lalours amoug the cannibals ، ص ٣٠٠

(٢) سير سبنسر سان جون Life in the forests of the Far East ج ١ ص ٢٩٥

عن حمل السلاح فى هذه الحالة للانتقام لأنفسهم[1] لاشك أن كولينسو على حق حين يستبد به العجب من هذه العادة التى يصفها بتلك العبارة المتداولة ، وهى أنها « لا تتفق مع العقل ولا مع الانسانية » . غير أنها تصبح ميسورة الفهم إذا قورنت بالحوادث السابقة . إذ أن الأهالى يعتقدون أن الحادثة قد كشفت عن أن الغرقى ضحايا لغضب القوى الخفية التى أوقعتهم فى هذه الكارثة تكفيرا عن خطأ ارتكبوه ، ولذلك يجب عليهم أن يتحملوا نتائج الحادثة ، لأنهم إذا حاولوا الفرار منها عرضوا من يساعدونهم للوقوع فى الأخطار ، وظلوا هم أنفسهم عرضة للوقوع فى مصائب جديدة . قد تكون أعظم من الأولى ، واستمر هذا الخطر معلقا فوق رءوسهم مادامت المصيبة التى أصابتهم أوقفت فى وسط الطريق ومنعت من أداء عملها . فلا بد إذن من تجريدهم من متاعهم ، وكل تدخل لانقاذهم يعود على الجميع بالوبال ، ولو كان صادرا عن حسن نية ؛ ولذلك نراهم يستعملون القوة لمنع أى تدخل من هذا القبيل أما التدخل الوحيد الذى يمكن قبوله ، فهو ذاك الذى يحقق تنفيذ الحكم الذى صدر ضدهم . وقد رأينا فيما سبق أن الاسكيمو يغمسون فى الماء الشخص الذى أشرف على الغرق وحاول أن يصل إلى بر النجاة .

ولعلنا نذكر تلك الحكاية التى تقدم ذكرها عن أحد هنود فرنسا الجديدة ، فقد رأى هذا الرجل فى المنام أنه وقع فى قبضة قبيلة معادية وما أن أصبح الصباح حتى راح يتوسل إلى أصدقائه لكى يشدوه إلى عمود ويذيقوه أنواع العذاب التى تفرض على الأسرى ، ولم يتردد الأصدقاء فى أن يسدوا اليه هذه المكرمة ، حتى أصيب من جراء ذلك بجروح بليغة لزم لشفائه منها ستة أشهر من العلاج . ولكنه كان قد رأى نفسه فى المنام وقد حلت به إحدى النكبات وهو يعلم أن الحلم حق لا ريب فيه فاعتبر نفسه محكوما عليه من قبل القوى

---

(١) و . كولنسو W. Colenso On the Naori of Newzealand فى Transactions of the Newzealand Institute ، مجلد ١ ص ٢٥ (١٨٦٨)

الخفية وساعده أصدقاؤه على تلقى نصيبه من هذا الحكم . ولا شك أن الغرق كالوقوع فى يد العدو تماما ، إذ أن كليهما يكشفان عن غضب القوى الخفية . ومن ثم كان واجب الغريق ومصلحته على السواء يقضيان بتجريده من متاعه كما يجب على أصدقائه الأوفياء أن يعينوه على ذلك . فسلوكهم «متفق مع العقل والانسانية» بالرغم من قسوة مظهره . لذلك لا تطبق هذه العادة فى حاله الغرق فحسب ، بل قد تطبق أيضاً عند حـــلول أية حادثة خطيرة ، ولا سيما الموت؛ فعند « المنوريين » فى زيلنده الجديدة مثلا ، « إذا مات أحد الرؤساء جاءت « تاوا » taua (عصابة من النهابين) وجردت أسرته من كل ما تملك من أغذية وأمتعة منقولة وغيرها ، فتنزع الحاصلات من الأرض وتستولى على الخنازير المنزلية وتقتلها طعنا بالرماح ثم تلتهمها فى الحال أو تحملها معها . وإذا نجت الأسرة مصادفة من هذا النهب ، شعرت بالمهانه العميقة بسبب الاحتقار الذى حل بها (أى لعدم اهتمام الآخرين بها) ، وبسبب انتهاك حرمة مقدسة كان يجب على مواطنيهم ألا يهملوا رعايتها . وكذلك كانت تعمل التاوا عملها فى حالة انتهاك أية حرمة أخرى أو وقوع أى خطأ أو سهو حقيقى أو مفترض ، وكانت زيارتها ودية فى غالب الأحيان : فكانت تتكون فورا من أقارب الآثم وجيرانه ؛ لأنه إذا لم يكن مناص من تغريمه وتجريده ، فمن الخير أن يقع ذلك على أيديهم بدلا من أن يقوم به آخرون ، حتى لا ينتقل متاعه إلى أيد أجنبية بحته [١] » .

ولهذه الملاحظة قيمة خاصة ؛ لأنها لا تعضد ما جاء فى الملاحظة السابقة فحسب ، بل تفسره وتبرز معناه أيضا ، وذلك لأن عبارات كولنسو تصرح بأن «التاوا» تعتبر ضرورية أيضا إذا ابتليت الأسرة بكارثة أو بموت ، أو إذا وقع منها إنتهاك لحرم ما . والباعث عليها واحد فى كلتا الحالتين ، لأنهما تنطويان

---

(١) و . كولنسو ، نفس المرجع ، ص٤١ . وقارن هـــذه العادة المشابهة فى جزائر «فيجى يعتبر الموت اشارة للنهب . فينقض أقارب الميت الاقربون على منزله ، ويستولون على كل ماتقع يدهم عليه مما يخص اسرة الفقيد . ولذلك تجمع الأشياء القيمة وتخفى قبل فوات الأوان . »
وليامز Wiliams : The Fiji and the Fijians : ج ١ ص ١٨٧

على تصورات جماعية واحدة ، فالمصيبة تكشف عن ارتكاب خطأ . ولذلك أصبحت معادلة للخطأ ووجب التكفير عنها كما يجب التكفير عنه .

كانت تطبق عادة « التاوا » فى أوائل عهد الاستعمار على البيض والأهالى على السواء ، وبالطبع لم يفهم البيض معنى لذلك فى أول الأمر . فكتب إيرل Earle فى سنة ١٨٢٧ يقول : « أطلعتنا هذه الكارثة (كارثة حريق) على عادة أخرى من عاداتهم المتبربرة . وهى أنه إذا أصيبت جماعة أو شخص بكارثة ، انقض عليه كل فرد من أفراد قبيلته بما فيهم الأصدقاء ، وجردوه من كل ما بقى له . وإذا مات أحد الرؤساء فى زيلنده الجديدة ، هجم أصدقاؤه على زوجته وأولاده هجوم الصيادين على الحوت المسكين بمجرد أن يغور فى جسمه الخطاف ، فينهبون متاعهم ويجردونهم مما فى حوزتهم ؛ كما تنقض زوجة المتوفى وأولاده بدورهم على عبيدهم فيسيئون اليهم ويقتلونهم ؛ وبذلك تؤدى المصيبة الواحدة إلى ضروب من القسوة لا عداد لها . وقد أظهر حلفاؤنا من الأهالى فى أثناء حريق وقع لنا أنهم أنشط اللصوص وأمهرهم ، مع أنهم حتى ذلك اليوم لم يمدوا أيديهم إلى شىء من أمتعتنا التى كانت كلها فى حراستهم [١] » . من البديهى أن سلوك الأهالى هذا بعيد كل البعد عن فكرة السرقة ، كما أن عادة تجريد الغريق من كل شىء لا شأن لها بالسلب . فهم يؤدون بذلك العمل واجبا مقدسا نحو حلفائهم ، ويعتقدون أنهم لو قصروا فيه لاستحقوا ملامهم ، بل لجروا عليهم مصائب جسيمة ، إذ أن الكارثة قد كشفت عن الخطر المحدق بالأوربيين ودلت على انتهاكهم لإحدى المحرمات . فلا بد لانقاذهم من غضب القوى الخفيه من تنفيذ حكمها عليهم حتى نهايته ، لذلك لم يدخر أصدقاؤهم أى جهد فى سلب أمتعتهم .

واستطاع الأستاذ إلسدن بست Elsden Best أيضا أن يشهد حوادث من

---

(١) A. Earl ا . إيرل.
A narrative of nine months residence in New Zealand. ، ص ٩٦

هذا القبيل . فكتب يقول :« اختفت عادة » « المورو » muru العتيقة بسرعة، ولكنها كانت تراعى فى الماضى بغاية الدقة ، وكان الأهالى ينفذونها بشتى الطرق. فمثلا إذا إصيب شخص بحادثة أو بكارثة ، تكونت جماعة من أعضاء قبيلته وراحت تجرده هو وذويه من أمتعتهم المنقولة ، وفى بعض الأحيان كان يطبق هـذا الإجراء حينما يموت أحـد الأشخاص . إذ كانت جماعة النهب تنقض على اسرته و تسلبها كل مالديها . وقد تسلك فى تنفيذ خطتها هذه أقسى المسالك و أشدها وحشية (١). » « أتاحت لنا هذه القرية المندسة فى قلب الغابة فرصة نادرة لمشاهدة تلك العادة القديمة المسماة «مورو» muru أو «كاى تاونجا Kai taonga .وتنحصر هـذه العادة فى أنه إذا نـكب شخص أو عـدة أشخاص ، جردوا من متاعهم أو طولبوا بدفع تعويض عن النكبة التى حلت بهم . وقد حدث منذ أيام أن وقعت إحـدى فتيات القرية ضحيـة لاهانة ، فطالبها الأشخاص الذين كانوا معنا بدفع تعويض مناسب . وكم من أشخاص برآء اضطروا إلى دفع التعويض لأن حظهم السعيد رماهم بمصيبة . وهذه مسألة يصعب حلها على الأوروبيين وإن كانت تبدوا بسيطة طبيعية فى نظر الماوريين (٢) . نعم إنها مسألة عسيرة على أفهامنا ولكن حلها غير مستحيل . فمن الواضح أن « المورو » muru التى يتكلم عنها «إلسدن بست» ليست شيئا آخر غير «التاوا » taua التى وصفها إيرل وكولنسو فى عبارات أبين من عبارات السدن بست ، لأن العادة فى زمنهما كانت لاتزال نافذة المفعول واضحة الاهداف مما ساعد كولنسو على أن يدرك معناها جيداً، ويقارنها بحق بالعقوبات التى تتصل بانتهاك المحرمات .

ويعتبر الوقوع فى أيدى العـــدو ، أى فى الأسر ، مصيبة معادلة للغرق وانقضاض الصاعقة الخ ،فهو من تلك المصائب التى تكشف عن غضب القوى

---

(١) السدن بست Elsdon Best

Transation of the New Zealand Institute فى Naori eschatology مجلد ٣٨ ، ٢٢٨ — ٩ .

(٢) السدن بست ، المرجع نفسه ، ص ٢٠٦

الخفية التي لعلها ثارت من غلطة ارتكبها الشخص المنكوب؛ وهكذا يشعر الأهالي نحو الأسير بنفس شعورهم نحو ضحايا تلك المصائب. لذلك قد يستطيع العبد أن يصل إلى أرفع مقام في زيلنده الجديدة إذا كان حاذقا أو نشيطا أو مثابرا أو متحمسا في خدمة سادته الجدد. ولكنه إذا استطاع باحدى المعجزات أن يعود إلى قبيلته لم يمكنه أن يحصل فيها على أقل درجة من السلطة، مهما كانت مكانته فيها من قبل ... ويمكننا أن نفهم ذلك دون عسر، إذا تذكرنا أن قبيلته تعتبر وقوعه في الأسر نتيجة لغضب «الأتوا»؛ وهذا أمر يخشاه المئوريون فوق كل شيء (١). ومن قبل ذلك كتب إيرل يقول: «إذا استطاع عبد أن يفر إلى بلده عومل فيها باحتقار شديد (٢)». وكذلك في أمريكا الشمالية «إذا أسر شخص من المحاربين أو من غيرهم وأبقى سادته الجدد على حياته من باب المصادفة، واتخذوه رقيقا أو عدوه واحدا منهم ثم استطاع الفرار إلى وطنه بعد ذلك، أعرض ذووه عن استقباله بينهم ولم يعترفوا بأنه واحد منهم (٣)». «إذا وقع بعض أشخاص القبيلة (يعني قبائل «الشمشيين» Shimshians، في كولمبيا البريطانية) في الأسر والاسترقاق، ثم استطاعوا يوما أن يرجعوا إلى وطنهم قابلهم مواطنوهم بمنتهى الريب. هذا إلى أن أهل الأسرى من جهتهم لا يقومون بأي مسعى لدى قبيلة مجاورة لكي ترد الحرية إلى أقاربهم الأسرى (٤)».

---

(١) و. كولنسو. On the Maori races of New-Zealand. في: Transactions of the New Zealand Institute، مجلد ١، ص ٢٢.

(٢) إيرل A narrative of nine months residence in New Zealand ص ١٢٤.

(٣) ج كارفر J. Carver، Voyage dans L'Amerique septentrionale، ص ٢٠٨.

(٤) هـ. يفر. Original information resp ecting the natives of the North west Coast of America في Extracts from the Papers and Proceedings of The aborigines Brotection Society مجلد ٢، جـ ٥، ص ١٣٥ (١٨٤١).

والسبب فى ذلك سهل معروف . وهو السبب الذى بينه كولنسو بوضوح عند كلامه عن النيوزيلنديين والذى يلازم القبيلة البدائية فى كل مكان .

يعتقد البدائيون أن الكارثه تحط من قدر صاحبها . فالذى يصاب بها منهم يسقط فى الوقت نفسه من الوجهة الأدبية ، لأنه أصبح خطرا على ذويه وعلى المجموعة الاجتماعية بعد أن صار موضعا لغضب القوى الخفية ، فيبتعدون عنه . لذلك أحسن الأهالى فى « تنا » (هبريده الجديدة) استقبال المبشرين فى مبدأ الأمر ، ولما أصيبوا ببعض الكوارث ، عطفوا عليهم وواسوهم فى أثناء مرضهم . غير أنهم منذ ذلك الحين أعرضوا عن الاصغاء إلى تعاليمهم وقطعوا علاقاتهم بالدين الجديد . وعزوا إصابة المدرسين بالمرض وموت إثنين من بينهم إلى غضب « ألمبا » Aleme ، كبير آلهتهم ، وأستنتجوا من ذلك أن آلهتهم أقوى من إله المدرسين ، وهجروهم هجرا تاماطوال الشهور عديدة ، وكثيراً ما رأى المدرسون أنفسهم فى مآزق شديده من جراء ذلك (١) .

تعبر هذه الجملة Res est sacra miser (البائس شىء حرام) خير تعبير عن فكرة البدائيين وإحساسهم نحو البؤساء ، على شرط أن تدل كلمة محرم على معناها كاملا أى على وجود الشخص فى حالة خاصة تحرم الاقتراب منه ، لا على إستحقاقه للاحترام والرعاية ـ وقد اهتدى المبشر كازاليس « إلى عبارت موفقة للتعبير عن هذه الفكرة إذ يقول : « السعادة والطهارة معنيان مترادفان فى لغة هؤلاء « الطبيعيين » فاذا قال « البسوتو » إن قلبه « أسود » أو « ملح » كان معنى ذلك أن قلبه غير طاهر أو محزون على حد سواء . وإذا قال إن قلبه « أبيض » أو « نظيف » فلا بد من قرينة لتعيين ما إذا كان يريد البراءة أو البهجة . وكان الذين سبقوا باعتناق المسيحية من بينهم لا يتصورون أنه يمكن للشخص المحزون أن يقترب من المائدة المقدسة دون كراهية . فالنجس عندهم يشمل

---

(١) ا . و . مرى A. w. Murray
Missions in western Polynesia ص ١٤٠ .

الإثم والأحداث المختلفة التي تتعرض لها الانسانية ، ولذلك يطلقون عليها هذا الاسم[1] . »

— ٤ —

يعتبر المرض في كل الجماعات البدائية تقريبا مظهرا من مظاهر النجس أو « الحكم الغيبي » ، إذا كان خطيراً طويل المدى . ولذلك ينظرون إلى من يصاب به على أنه Res sacra (شيء حرام) فيكفون عن العناية به ، ويظهرون نحوه عدم المبالاة الذي يبدو في نظرنا شيئا غير إنساني ، (والواقع أنه ليس شيئا آخر غير الفزع) . وكثيراً ما ينتهي بهم الأمر إلى هجرانه هجرانا تاما . وقد حار الباحثون في تفسير هذا المسلك الذي يسلكه الأهالي تجاه مرضاهم . فيعبر الأب جوميلا Gumille عن حيرته بهذه العبارات : « كلما تأملت مسالك الهنود الغربين (أعني هنا جميع الأمم التي أتكلم عنها) لم أستطع مطلقاأن أوفق بين ذلك الحب العظيم الذي يكنونه لأولادهم والتعاطف الذي يسود حياة الأزواج والزوجات وبين الإهمال والهجران التام اللذين يبديهما هؤلاء الأشخاص أنفسهم نحو أعز الأشخاص لديهم إذا انتابهم المرض . بل كيف يمكن التوفيق بين هذا الإهمال الذي يبلغ أقصى حدود التبربر وعدم الأنسانية ويجعل من يشاهده لا يكاد يصدق عينيه وبين تلك الدموع الغزار وضروب الأنين ومظاهر الألم المضني التي تبدو عليهم لدى الدفن أو الطقوس الجنائزية ؟ إنهم يذهبون في قسوتهم إلى حد أنه إذا كان المريض أو المحتضر رب بيت أو أبا لأسرة تعتمد عليه كل الاعتماد ، لم يجد شخصا واحدا من بينهم يهتم به ، ويسأل عما إذا كان قد أكل أم لم يأكل وعما إذا كان قد شرب أم لم يشرب . والواقع أن مسلك هؤلاء الوثنيين لا يوحي إلا بأحد شيئين : فهم إما أن يكونوا متبلدي الحس ، وإما أنهم

(١) كازاليس ، Les Bassoutos ، ص٣٦٩

يتمنون موت المريض . ومع ذلك فان كلا هذين الفرضين غير حقيقى . لأنهم إذا حان موعد الطعام ، وضعوا أمام فراش المريض نفس الأطعمة التى تقدم لغيره . فاذا أكل منها فيها ، وإذا لم يأكل فيها أيضا . هـذا إلى أن المريض لا يسمع طول مرضه كلمة عزاء واحدة ، ولا يرى إشارة تشجعه على استساغة لقمة ما . . وقد يظن القارىء أنى أبالغ ، والحقيقة أن كلماتى مهما بلغت فلن تستطيع التعبير عن مقدار الجحود الجاف الذى تتسم به هذه الحاشية الصلدة القلب [1] . » ومع ذلك فان الأب جوميلا نفسه يعترف بأن تبلد الحس هذا أمر ظاهرى بحت . لذلك نرى أنه إذا كان الهنود الغربيون لا يولون مرضاهم أية عناية ابتداء من وقت معين ، فذلك إما لأنهم على أقل تقدير يرون أن كل عناية أصبحت عديمة الجدوى ، وإما لأن أمرا أقوى من عطفهم الطبيعى على المريض يصدهم عن العناية به . والواقع أن هـذا هو السبب الحقيقى لدى عدد كبير من القبائل . وفى البارجواى « سـواء أكان المريض من السادة المبجلين والقـادة المهابين أم من عامـة الشعب وأحط طبقاته ، فإن اقاربه ومطبببه لا يسألون عما إذا كان قد نام أم لم ينم وعما إذا كان قد أكل أم لم يأكل ، بل يحملون إليه بعض الطعام الذى يقدم لغيره . فإذا عافه لعدم شهية ، أو احتج بأنه غير جوعان ، لم يلحوا عليه مطلقا . وينحصر الحد الأقصى من الرحمة الذى قد يظهرونه نحوه فى أن يذودوا عنه الذباب الذى يسقط على وجه . وإذا عـــبر عن آلامه بأنة شائعة مثل كلمة : آه ! ، أجابوه بـكلمة عطف (٢) . تشهد هذه الرواية بأن سكان « البارجواى » لا يقلون فى اهمالهم

---

(١) ب . جوملا ، B. Gumilla
El Orinoco (الطبعة الثانية) ، ص ٢٣٥ — ٢٣٦
وقارن مكسميليان دى ويد نويويد Voyage en Uaxmilien wied Neuuied
Brésil ، ج ٣ ص ٣٧٠ — ٣٧١ من الترجمة الفرنسية .

(٢) الأب جوزيه سنخيز B José Sanchez
El Paraguay Catolico ج ٢ ، ص ٣٨ — ٣٩ .

لمرضاهم عن هنود « الأورينوك » Orénoque ، ولكن هذا الأهمال لا يرجع إلى عدم المبالاة ، مادامت حاشية المريض تظهر له قليلا من العطف . هذا وقد أشار « شبكس » Spix و« ماريتوس » Martius إلى عدم الاهتمام بإطعام المريض ، إذ يقولان : « تنحصر الوسيلة الوحيدة التي يستخدمونها لعلاج أكثر الأمراض في الامتناع التام عن الغذاء وهم يذهبون فيه إلى أقصى درجاته ، وفي الحقيقة قد تثمر هذه الوسيلة في حالة الأمراض الحادة ، ولكنها كثيرا ماتودى بحياة المريض في حالة الأمراض المزمنة (١) . »

ولكنا نرى ماريتوس نفسه يتكلم في مؤلف آخر عن « طبيعة المرض الشيطانية » في نظر الأهالي ، ثم يشير إلى مسلكهم تجاه المرض ويحاول أن يبين أسبابه فيقول : « إذا لم يكن سبب المرض واضحا كل الوضوح في نظر الأهالي ، اعتقدوا أن المصاب كأن آخر غيره وأن العلاقات التي كانت تربطه بأسرته أصبحت في حكم العدم لأنه صار « مستحوذا عليه » ووقع في قبضة القوى المعادية . ولذلك يقررون أنه لا يستطيع الخلاص من مرضه إلا بتأثير قوته الشخصية ومساعدة بعض القوى الطبيعية . أما مخالطته فتصبح محفوفة بالقلق والخطر ، ولذلك يفعلون ما يستطيعون لتركه إلى نفسه ، والإبتعاد عنه في فزع (٢) . » وقد شهد الأستاذ جروب Grubb أيضا ، وهو من الباحثين المحدثين ، بهذا الإهمال الظاهرى وهذا الهجران الغريب عند قبائل « اللنجوا » Lenguas في « الشاكو الكبرى » Grand Chaco فقال : « إذا مرض عندهم شخص ، حاول الساحر والأصدقاء أن يغمروه بعطفهم ، وعملوا من أجله كل ما يستطيعون ما داموا يأملون في شفائه . وقد شاهدت في كثير من

(١) شبكس Spix . وماريتوس Martius
Reise in Brasilien ، جـ٣ ، ص ١٢٨١ (Rio yapura)
(٢) فون مارتيوس Von Martius
Das Naturell, die Krankheiten das Arztum und die Heilmittel der Urbewohner Brasiliens, P. 132-33

الحالات أن عنايتهم بالمريض وحدبهم عليه يصلان إلى أقصى حد تسمح به معارفهم القاصرة. ولكن الساحر والمريض نفسه وأقرب أقاربه إليه يعدلون عن المقاومة بمجرد أن يفقدوا كل أمل فى الشفاء. فحينئذ يعتبرون أن المريض قد مات بالفعل، ولا يكادون يعيرونه إلتفاتا. وإذا دنا الموت حملوا المحتضر خارج القرية وطرحوه فى العراء، وألقوا فوقه حصيرا، ولو لم يكن قد فقد وعيه بعد. ومنذ هذه اللحظة لا يهتمون مطلقا بما قد يقلق راحته.. فقد تسلط عليه الشمس أشعتها المحرقة وتغمره الأمطار المدرارة، وربما جمدت جسمه رياح الجنوب الباردة دون أن يخف أحد منهم لنجدته. ونراهم غير بعيدين منه يقبلون بنشاط على عمل معدات الدفن العاجل. أما المحتضر فلا يسمع منهم كلمة حنان واحدة ولا تمتد إليه يد صديق لتمسح على يده. وكثيرا ما يلهبه الظمأ بناره فلا يلتفت إلى حاجاته أحد من الحاضرين. ومع ذلك فان موت صديقهم يغمرهم بالأسى: فيألمون لموته ويبكون رحيله. ولكن اعتقادهم القاسى يتغلب على عواطفهم الطبيعية(١)...»

ليس هذا «الاعتقاد القاسى» الذى يشير إليه الأستاذ جروب إلا إعتقاد الأهالى أن عدم دفن الميت قبل غروب الشمس يؤدى إلى أشنع النكبات. فوجوده بينهم فى أثناء الليل يثير فى نفوسهم أشد أنواع الفزع. لذلك لا يألون جهدا فى الاسراع بالتخلص منه. وكثيرا ما يعتبرون أنه قد مات بالفعل وهو فى دور الاحتضار. (يعتبر كثير من البدائيين أن الحياة قد انتهت قبل أن يكف الميت عن التنفس وأن يتوقف القلب تماما عن الخفقان) فاذا رأى أفراد «اللنجوا» أن مريضهم قد دخل دور الاحتضار أصبحوا لا يفكرون إلا فى شىء واحد: ألا وهو التخلص من جثته؛ لأن الفزع يستولى على قلوبهم فلا يدع فيها مكانا لعاطفة أخرى، ولكن من الواضح أن هناك سببا آخر لما يبدو عليهم من عدم

---

(١) و. ب جروب W. B. Grubb
An Unkroun people in an unknoun Land ص ١٦١ – ١٦٢.

المبالاة بحاجات وآلامه فى الفترة التى تنقضى بين فقدان الأمل فى شفائه وبين احتضاره (وكثيرا ما يطول مداها) ، وهذا السبب يرجع إلى « اعتقاد قاس » آخر . فهم لا يستطيعون الاقتراب منه مهما كانت شفقتهم به : لاعتقادهم أن هذا الاقتراب مصدر لكل الأخطار الممكنة وغير الممكنة ، وأن الميت قد أصبح منذ الآن « res sacra » (شيئا محرما) كالشخص الذى يسقط فى الماء فى « كمشتكا » والمرأة التى على وشك الموت من آلام الوضع عند قبائل « التلنكيت » Tlinkît ، والشخص الذى تصرعه الصاعقة فى افريقية الجنوبية ، وكالغريق فى جزائر فيجى . ففى كل هذه الحالات يفسر ما يرى على الحاشية من تبلد حس ظاهرى بأسباب واحدة بعينها . نستطيع أن نستنتج من مسلك هنود أمريكا الجنوبية هذا نحو مرضاهم أنهم يعدون المرض الخطير المستعصى بين أنواع « الحوادث » أو « الكوارث » التى تكشف عن غضب القوى الخفية على الشخص الذى يصاب بها ، ولكنا نجد بعض الأمثلة التى تدل على هذا الاعتبار دلالة قاطعة لدى جماعات أخرى تفوق الجماعات السابقة فى درجة التقدم وأصبح للقوى الخفية فيها مظهر بشرى إلى حد ما ـ كالجماعات البولينيزية مثلا . وهذه طائفة مختارة من بين الأمثلة التى لها دلالة خاصة . يقول إليس Ellis : « لا يكاد الشخص يشكو مرضا حتى يعتبر ملعونا من الآلهة ؛ إذ يعتقد الأهالى أنه أصبح هدفا لغضب الآلهة ، وأن مرضه قد جاء نتيجة لهذا الغضب ، إما لأنه ارتكب جريمة وإما لأنه وقع تحت تأثير عدو ما . وكانت هذه الأفكار الخاصة بأصل المرض تعمل على قتل كل إحساس بالعطف والرحمة فى قلوب الأهالى وعلى صرفهم جميعا عن أفعال الخير التى قد تمس قلوب المنكوبين وتخفف جانبا كبيرا من آلامهم . فكانت عناية أقرباء المريض وأصدقائه تنصرف عنه إلى الآلهة ، فيعملون جهدهم على تهدئة غضبها بالقرابين وتخفيف آثار هذا الغضب بالصلوات والترانيم . أما ضروب العلاج التى تعطى للمريض ، فكانوا ينظرون إليها على أنها المطية أو الوساطة التى يؤثر الآلهة عن طريقها ، لا على أنها تؤثر نفسها فى وقف تقدم المرض .

وكانوا إذا لم يروا نتيجة للصلوات والقرابين وضروب العلاج ، ظنوا أن الآلهة مصرة على عزمها ، وأن المريض مقضى عليه « doomed » بالموت وحينئذ يفترضون أنه ارتكب جريمه منكرة (١) . » ويقول فى مكان آخر : « يعتقدون أن كل مرض نتيجة لقوة مباشرة « مما فوق الطبيعة » وأن الآلهة هى التى تبعث به عقاباً على هتك المرضى لإحدى الحرمات أو نتيجة لقرابين قدمها الأعداء للإضرار بهم . ولعل هذا هو السبب الرئيسى فى هجرانهم مرضاهم وفى الطريقة القاسية التى يعاملونهم بها . . نعم إنهم يعرفون أن لديهم سموماً إذا خلطت بالأطعمة أحدثت نوبات تنتهى بالموت ، ولكن هذه النتائج فى نظرهم ترجع إلى غضب الآلهة التى تؤثر عن طريق هذة المواد ، لا إلى السموم نفسها ؛ ولذلك يعتقدون أن الذين يموتون لأكلهم سمكا ساماً إنما يموتون بفعل الآلهة التى دخلت فى هذا السمك وجعلته ساماً ؛ وأن الذين يقتلون فى موقعة حربية قد ماتوا أيضا بفعل الآلهة التى دخلت فعلا فى أسلحة أعدائهم . ولهذا يقولون عن الأشخاص الذين يموتون فجأة إن الآلهة قد قبضت عليهم (٢) . » هذه عبارات صريحة واضحة . فإذا كان هؤلاء الناس لا يصنعون شيئاً من أجل مرضاهم ، فذلك لأنهم لا يعتقدون أن فى العناية بهم أية جدوى ، إذ أن الآلهة هى التى أصابتهم بالمرض وليس لإنقاذهم إلا وسيلة واحدة ، وهى تهدئة الآلهة واستدرار عطفها . وهم يرون أنهم إذا حاولوا مقاومة الداء بطريق مباشر ، ساءت حالة المريض ، وازدادت الآلهة غضباً عليهم لأنهم قاوموا إرادتها فتبحث لنفسها عن ضحايا جديدة من بينهم . ومما يزيد الطين بله عجز هؤلاء الأهالى عن القيام بالعلاج الصحيح بسبب أفكارهم السقيمة عن الصحة والمرض . لذلك لا يعرفون من وسائل العلاج إلا الصلوات والقرابين والتوسلات والترانيم والضحايا . هذا إلى

---

(١) ر . و . أليس R. W. Ellis
Polynesian researches ج ٣ ، ص ٤٦ — ٤٨
(٢) المرجع نفسه ، ج ١ ص ٣٩٥ — ٩٦ .

أنهم يعزون غضب الآلهة إما إلى فعل الأعداء الذين استمالوها إلى جانبهم ، وإما إلى وقوع اعتداء منهم على أحد المحرمات . ويعتقدون أن خطورة المرض تتناسب مع خطورة الجريمة ، فإذا كان المرض مميتاً . فلا بد أن تكون الجريمة غير قابلة للعفو . ومن السهل فى هذه الحالة أن يقضى خوفهم من انتقام القوى الخفية على عطفهم على المريض .

هناك نصوص أخرى تعضد رواية « إليس » ، فى جزائر « وليس » wallis « تعتقد هذه الشعوب أن كل مرض يرجع إلى غضب الآلهة ، لذلك يسعون إلى استرضائها وثنيهـا عن عزمها بوساطة قرابين « الكافا » Cava . وقد يحملون مرضاهم إلى أحد الرؤساء كما لو كان سلطانه يجعله مقبول الشفاعة لدى الآلهـة [١] . » وفى فوتونا Futuna يرى هؤلاء الجزريون أن الأمراض والعاهات لا تنجم إلا عن غضب السماء . فإذا أصيب واحد منهم بمرض ، هرعوا إلى بيت الآلهة الذى يعتقدون أنه يريد أن يأكله فيحملون إليه الفواكه والمنسوجات وفى بعض الأحيان يخصونه بأقوم ما يملكون ليكون قرباناً ناجعاً فى تهدئة الروح السيئة(٢) . » أما تيرنو فإنه على العكس من ذلك يطرى صفة الإنسانية التى يتحلى بها أهالى « ساموا » Samua ، فيقول « كانت معاملتهم للمرضى فى الماضى معاملة إنسانية كما هى اليوم وكما يمكن أن ينتظر منهم على الدوام .

فهم لا يحرمونهم طعاماً يرغبون فيه ، ما داموا يستطيعون الحصول عليه . وإذا ساءت حالة المريض ، بعثوا إلى الأصدقاء الذين يقطنون بعيداً عنهم ، كى يحضروا لوداع من أوشك على الرحيل(٣) . » إذا كان ذلك كذلك فإن

---

(١) Annales de la propagation de la foi ، مجلد ١٣ ، ص ١٢ (١٨٤١) (الأب بنيون) .

(٢) المرجع نفسه ، مجلد ١٣ ، ص ٣٧٨ .

(٣) ج . تيرنر Nineteen years in Polynesira : G. Turner ص ٢٢٥ .

أهالى « ساموا » ينفردون بهذه المعاملة دون أدنى ريب ، لأن المبشرين والسائحين لا يكادون يشهدون إلا بعكس ذلك . فنى « الجزيرة المتوحشة » Savage Island مثلا « تعتبر المعاملة التى يعامل بها المرضى فى غاية القسوة . إذ أن الأهالى يحملون المرضى إلى الأدغال ، ويضعونهم فى عشة مؤقتة ويتركونهم فيها لكى يبرءوا أو يموتوا . ويحمل أهلهم إليهم الطعام ، ولكن لا يمكث بجانبهم أحد . ومصدر هذه العادة هو الفزع الشديد الذى يوحى به المرض إلى هؤلاء الناس(١) . »

لعل زيلندة الجديدة أصلح الأماكن لدراسة عادة هجران المريض وانعدام الحساسية الظاهرى فى ذويه . فقد استطاع الباحثون الذين جابوها أن يدركوا أن نشوء هذه العادة يرجعُ إلى التصور الغيبى للمرض . يقول الأنبا « سرفان » « لا يعرف الأهالى علاجاً للأمراض الباطنية فإذا أصيب بها شخص منهم ، استلقى على الأرض يائساً ، واستشار كاهناً متورياً ليخبره إذا كان يستطيع الاعتماد على فرصة ما للنجاة . فإذا رأى الكاهن أن الفؤول سيئة أعلن أن المريض سيموت . ومنذ هذه اللحظة يمنعون عنه الطعام ، وتهجره أسرته ، ويدعونه فريسة للإله الذى يعتقدون أنه يلتهم لحمه وأحشاءه . لذلك لا تخيب نبوءة الكاهن الخرف قط ؛ لأنه لا بد أن يموت المريض على أية حال ، إن لم يكن من المرض فمن الجوع على الأقل(٢) . » « لا يجرءون على إعطائه طعاماً لأنهم يعتقدون أن « الأتواء » Atua (الإله) حل فى معدته ، فأصبح هو ومعدته « محرمين » . » — « أصيبت اليوم بالمرض أصغر زوجات « تيبى » Tipi ومحظيته ، وهو كبير رؤساء الإقليم . فنقلت المريضة تبعاً للعادة الراسخة لدى الأهالى فى مثل هذه الحال ، من منزلها إلى عشة مكشوفة قريبة منه ، واعتبرت

---

(١) و . مرى Missions in Western Polynesia ص ٣٦٧ .

(٢) Societé de Marie. Annales des Missions D'oceanie ج ١ ص ٩٣ — ٩٤ (١٨٤٤) .

« محرماً » وبذلك أصبح الأكل حراماً عليها . . .[1] . »

ولعل أدق وصف هذه العادات هو الوصف الذى تركه لنا ج . ل . نيكولا Nikola حيث يقول : «إذا وصل شخص إلى مرحلة معينه من مرضه اعتبر فى الحال هدفا لغضب « الأتوا » Etua (الروح) . ولما كان الأهالى يجهلون كل شىء عن المرض ويجهلون علاجه جهلا تاما ، فأنهم لايرون فيه إلا عقابا فرضته عدالة فوق طبيعيه صارمة ، ومن العبث أن تقاوم بوسائل التبشير . وكم من هؤلاء المساكين كان يمكن ردهم إلى حالة الصحة بقليل من العناية المعتادة ، ولكن هذه الخرافة الشنيعة حكمت عليهم بالهلاك وسط ذويهم دون أن يبذل هؤلاء أقل مجهود لإنقاذهم[2]» . فالأهالى يبيحون لأنفسهم أن يخففوا آلام المريض بكل ما لديهم من وسائل وأن يساعدوه على الشفاء ما دام الأمر يتعلق بانحراف طفيف . ولكن إذا استمر المرض واشتد ، لم يعد فى إمكانهم أن يتجاهلوا غضب القوى الخفية فيصبح المريض « محرما » . وقد شهد « نيكولا » أحد الرؤساء فى نيوزيلندا يعانى أقسى الآلام من جراء هذه الخرافة ، حيث ظل يعانى سكرات الموت بضع أسابيع . وقد « طلبوا »ألا يقدم إليه أى عون بشرى ، ما دام حيا . وكانوا يحتجون لحرمان هذا الرجل المنكوب بقولهم إن « الأتوا » قد صممت على موته ، لذلك استقرت نهائيا فى معدته ، فلا يصح لأية قوة أرضـــية أن تخاطر بطردها منها ، لأنها لن تترك مكانها ، بل ستظل هناك تضاعف آلام المريض حتى تحين اللحظة التى تراها لائقة لوضع حد لوجوده . . . وكان أقرباء « دواترا » Duaterra واحباؤه يظهرون أعمق علامات الحزن وأمرها ، ولكن حزنهم عليه لم يمنعهم من الاتفاق مع بقية أهل المنزل على حرمانه كل عون منذ ذلك الوقت . وبعد أن هجروه كل

(١) ويكفيلد Wakefield : Adventure in New-Zealand (١٨٣٩–١٨٤٤) .

(٢) ج . ل . نيكولا J. L. Nikola Narrative of a voyage to New-Zealand (١٨١٧) ، حـ٢ص٣٠٣

الهجران إرضاء للأتوا ، راحوا يجهزون معدات الدفن التى أصبحت شغلهم الشاغل(١) .» وكانوا إذا سألهم السائح عن المريض ، أجابوا بأن « الاتوا » Etua جادة الآن فى التهام أمعاء الرئيس ، وأنه سيموت بمجرد أن تنتهى من عملها . ويعجل هذا الاعتقاد بنهاية المرضى فى زيلنده الجديدة أكثر مما يفعل الداء نفسه ، إذ لاتكاد الأعراض تنذر بالخطر ، حتى يعتقدوا أن كل دواء لاقيمة له ، بل يعدوه نجسا لاشك فيه . والواقع أن الأهالى لايجرؤون مهما بلغ حزنهم على فقد أحد أقاربهم على التفوه بشىء ضـــد العقاب الغيبي الذى ظل يلتهمه حتى قضى عليه(٢) . » وكذلك يقول أحد المبشرين الكاثوليك : « إذا بدا لأقارب المريض أنه لن ينجو من الداء الذى أصيب به حرموه كل أنواع الطعام فى بعض الأحيان. وقد يصلحون فراشه بعض الشىء، ولكنهم يتركونه وحده بحجة أن الإله يأكله . وهذا تعبير جد مألوف عند « الأقيانوسيين » حتى ليسمعهم المرء يقولون فى كل مناسبة مثلا : مات فلان فى الحرب ، أما فلان فقد أكله الإله ، أى مات بالمرض . ولكن لا ينبغى لنا أن نستنتج من هذه القسوة الظاهرة أن هؤلاء الجزريين لايتأثرون لموت أقاربهم وأصدقائهم . فالواقع أنهم حتى الآن لم يتخلوا عن عاداتهم القديمة فى بكاء موتاهم وتمزيق أعضائهم ووجوههم حزنا عليهم(٣) . »

لماذا صمم « الأتوا » (الروح أو الإله) على إهلاك المسكين بهذه الصورة؟ لاشك أن أسباب هذا « الحكم» متنوعة جدا كما رأينا ، وأن انتهاك أحد المحرمات أهم هذه الأسباب . وها هى ذى إحدى الروايات الواردة عن زيلندة الجديدة أيضا والتى تبين بوضوح الارتباط الوثيق بين ارتكاب المحرم وبين المرض المميت . «عاشت « رنجيتاتو » Rangitattau ، إحدى فتيات «روتروا» Rotorua

(١) المرجع نفسه ، ج ٢ ، ص ١٦٥ — ٧

(٢) المرجع نفسه ، ج ٢ ، ص ١٧٠

(٣) Annales de la propagation de la foi ، مجلد ١٤ ، ص ٢١٠ (ر.ب. بتيجان ، فنجورا — زيلنده الجديدة .)

زمنا طويلا مع البعثة فى « أوتاوهاو » Otawhao . ثم تزوجت وانجبت بنتا ، وفى ذات ليلة ذهبت لزيارة تاراماتاكيتاكى Taramatakitaki ، وهو أحد الرؤساء العظام ولم تكد تستقر فى دار الرئيس حتى شعرت بالبرد ، فاستعارت عباءته للتدثر بها. وفى أثناء الليل انهالت عليها الحشرات وضايقتها. فجعلت تقتنصها وتأكلها كما هى عادة الأهالى هنالك . وما أصبح الصباح حتى كانت طفلتها قد مرضت، فاعتقدت أن السبب فى ذلك يرجع إلى أكلها الحشرات المقدسة التى كانت على ثوب الرئيس ، وهو « محرم » فغضبت الآلهة من هذا العمل وعاقبتها بأصابة ابنتها بالمرض ، ولما رأت أن حال الطفلة تزداد سوءا خنقتها مقتنعة بأنها مسحورة (bewitched).[1] » قد تساورنا بعض الشكوك حول صحة هذه الرواية فى بادىء الأمر . ولكن الأم كانت موقنة بأن إبنتها لن تنجو ، وبأن إشتداد المرض عليها يدل على أن الآلهة مصرة على غضبها . فكيف تمكن المقاومة وما جدواها ؟ بل هل تسمح الأم لنفسها فى هذه الحال بالاستمرار فى تغذية تلك الضحية الصغيرة ؟ اظننا لانزال نذكر الاعتراف الذى أدلى به أحد سكان « نياس » Nias ، من أنه قتل أخته الصغيرة بأمر والديه اليائسين لأن الكاهن أكد لهم أنها لن تستطيع الحياة بسبب انتهاك أبيها لأحد المحرمات قبل ميلادها .

يأمل الأهالى فى عفو القوى الخفية ويبذلون كل مافى جهدهم لتحويلها عن عزمها ، مادام المرض لم يصل إلى درجة اليأس . وإذا كانت الأسرة الأوربية تنفق على مريضها آخر مليم تملكه لدى الأطباء والجراحين والصيادلة ، فان البدائيين يجردون أنفسهم من كل ما يملكون من أجل استشارة العرافين وتقديم الضحايا والقرابين . « إذا رأى أحدهم (فى جزائر فيجى) خط الموت يحوم حول أبيه أو أمه ، لم يتردد فى قطع السلامية الأولى

---

(١) ج . ف . انجاس G. F. Angas
Savage life and Scenes in Australia and New-Zealand
ج ١ ص ١٤٣ — ١٤٤ (١٨٤٧) .

من بنصره لكى يهدىء غضب الآلهه ، وإذا لم يسترد المريض صحته بعد هذا القربان الأول ، شوه نفسه من جديد ، فقطع كل أصابعه على التتابع ، ثم قطع معصمه معتقدا أن هذه التضحية الأخيرة سترضى انتقام الآلهة ، وتحقق الشفاء . وكان كل المتوحشين الذين رأيتهم فى فيتى ليفو Viti levou تقريبا ، تنقصهم إصبع أو إصبعان .[1] »

ونعثر لدى الأهالى فى إفريقية الجنوبية على تصورات مشابهة للسابقة ، ولذلك تؤدى إلى اتباعهم نفس المسلك السابق تجاه مرضاهم . « إذا أصيب أحد « البسوتيين » بمرض شديد تملك الخوف أقاربه وتركوه ملقى على الأرض لا يغطى جسمه إلا ثوب ممزق ، وحرموه من كل عناية طبية أو عاطفية . ولكنى أظن أن كسلهم هو الذى يوحى إليهم بخوف المتاعب التى تتطلبها العناية بالمريض ، ولذلك يبتعدون عنه (٢) » . لعل الأحرى أنهم يخافون مخالطة المرضى الذين يرون أنهم « محكوم عليهم » كما يحصل فى كثير من الجماعات البدائية الأخرى . وقد رأى الأستاذ « كازاليس » جيدا أن « البسوتو » يجعلون هؤلاء المرضى فى عداد تلك الطائفة الواسعة ، طائفة الكائنات المحرمة res sacrae ، فيقول « يعتبر الموت وكل ما يسبقه أو يتبعه مباشرة ، أشد الانجاس جميعها فى نظر هذه الشعوب . لذلك أطلقوا هذه الصفة على جميع المرضى والأشخاص الذين مسوا إحدى الجثث أو كفنوها أو حفروا لها الحفره ، وعلى كل من سار فوق قبر أو جلس عليه سهوا ، وعلى القتلة والمحاربين الذين قتلوا خصومهم فى أثناء القتال . ويعتبرن من هذا القبيل أيضا جميع الحيوانات التى تغتصب من العدو والمدن التى ينزل بها وباء والسكان الذين يقعون فريسة للحرب أو للخصومة ، والقمح الذى تفسده الحشرات أو يدمره الجراد ، والمنازل التى تنزل عليها الصواعق والأفراد الذين يصابون

---

(١) الأب جوزيف شفرون Annales de la propagation de le foi مجلد ١٦ ، ص ١٩٢ .

(٢) Missions Evnangéliques ، مجلد ٣٢ ، ص ٣٢٢ ، (الأستاذ سرمف)

بها (١) » . فنرى أن هذه الطائفة تشمل جميع الكائنات والأشياء التى تعد موضعا لغضب القوى الخفية ومنها المرضى الذين يبدو شفاؤهم متعذرا .

ليس من عادة الأهالى على وجه العموم أن يهجروا الأشخاص الذين يصابون بالعمى . ولكن لما كانت النكبة تحط من قدر صاحبها ، فإنهم ينزلون إلى الحضيض . فعند البتشوانين ، إذا أصيب شخص بالعمى أصبح لا يعتبر فى عداد الأحياء ، حتى لو كان من الرؤساء العظام ، ويقال عنه إنه « أشول »Oshule أى إنه قد مات . »

ولكنهم مع ذلك يعنون بعميانهم ، أى أنهم يقدمون لهم الطعام والشراب وإن كانوا يأبون عليهم الاحترام والتكريم اللذين كانوا يتمتعون بهما من قبل . قال أحد المشوانين mochuanas فى هذا المعنى : « ليس الأعمى عندنا أى تقدير؛ إذ أننا نحمله على البقاء مع النساء ، ونحرم عليه حضور مجالس الرجال . ولكننا لا نحرمه الطعام ، وبذلك نسمو على قبائل « الكورنا » Korannas الذين لا يأخذون العميان معهم حينما يغيرون موطنهم ، بل يتركونهم فى مكان مغلق ويتركون لهم إناء من اللبن لا يكاد يكفيهم وجبة أو وجبتين (٢) . »

أما الجرحى فيعاملون كالمرضى تماما ولنفس الأسباب الغيبية التى أشرنا إليها . ويخشى الأهالى بوجه خاص الأشخاص الذين تجرحهم حيوانات ضارية ، فيفرون منهم (لأن هذه الحيوانات لا تعتبر حينئذ حيوانات عادية بل أدوات للساحر أو لغضب القوى الخفية ، « لاحظت أن جميع البتشوانيين الذين زرتهم يقصون الأشخاص الذين يصابون بجراح ويضعونهم على بعد ما من المدن أو القرى . وقد أصابت سهام البشمن المسمومة شابين ، فأبعدا من « كورومان » Kuruman ، وكنت أذهب لزيارتهما وأسأل عن السبب فى

---

(١) كازاليس E. Cassalis , Les Bassoutos ،ص ٢٧٠

(٢) Missions evangéliques ، مجلد ٢١ ، ص ١٠٥ (الأستاذ لوجا) .

معاملتهما هذه المعاملة . ولكنى لم أظفر بشيء غير قولهم إن هذه هي العادة . ومن شأن هذه العادة أيضاً غير الانسانية أن تعرض الجريح لخطر عظيم؛ وكثيرا ما يكون فى حالة لا تمكنه من الدفاع عن نفسه، فلا يلبث الضبع أو الأسد أن يهاجماه ليلا، إذا لم تحرس العشة التى يقيم فيها أو بالأحرى ذلك المخبأ الذى يقيه الشمس والريح . وقد وقعت كارثة من هذا القبيل عند قبائل « البارولنج » Barolong قبل وصولى بقليل : إذ كان لأحد كبار الزعماء ابن فارع وسيم ، وهاجمته جاموسة فأحدثت به جرحا فحملوه خارج القرية ، تبعا للتقاليد ، إلى أن يبل من جراحه . وكانوا يحملون اليه الطعام كل يوم كما كلفوا شخصا بأن يشعل له النار فى كل مساء . فأطفئت النار ذات يوم واقبل أسد فاختطف الشاب الذى لم يستطع عن نفسه دفاعا ، رغم صياحه الأليم .

قد يظن القارئ أن أصل هـــذه العادة يرجع إلى فكرة الفرار من الأمراض المعدية كالجزام مثلا . ولكن هذا الظن لا يلبث أن يتبدد إذا عرفنا أنهم لم يعزلوا الشخص الوحيد الذى رأيته مصاباً بهذا المرض عندهم(١) » . فهل يجوز لنا أن نذهب إلى أن هذا الرئيس عرض ابنه لمثل ذلك الخطر وهو قرير العين ؟ وإذا كان الجواب بالنفى فلماذا يحتمون على أنفسهم اتباع هذه العادة ؟ لقد أشار «مفات» إلى هذا الحل ، وربما دون قصد، وهو يتكلم عن العدوى . فقرر أن البتشوانيين يعمدون إلى تجنب العدوى ، ولكنهم يعنون نوعاً من الأمراض الغيبية ، وذلك لأن الحادثة فى نظرهم عبارة عن إعلام . فإذا كان ابن الرئيس قد جرحته جاموسة ، فذلك لأنه حكم عليه doomed إما من قبل ساحر وإما من قبل قوى خفية ، كبعض الأسلاف المخيفين مثلا . ولعل أهل المريخ قد استشاروا العرافه ليختاروا بين عدة فروض مختلفة ، وعلموا منها أنه استنزل على نفسه غضب القوى الخفية لهتكه إحدى الحرمات أو لارتكابه مخالفة أخرى للعادات . نعم لعل

---

(١) ر . مفات Missionary Labours and scenes in South Africa ص ٤٦٥

ذلك قد وقع وإن لم يتكلم عنه مفات ، بل ربما لم يكن فى مقدوره أن يعرفه . وفى هذه الحالة لا يصبح الجريح مجرد مصاب بسيط ، بل يصبح «شيئاً حراماً» . وبهذه الصفة يصير منحوس الطلعة ، ويجب عزله حتى يدل شفاؤه على زوال هذا الغضب عنه .

وهذه هى الحال أيضاً عند « الكفرة » فقد دخل ذئب إحدى العشش ذات مرة واختطف بنتاً صغيرة جميلة كانت تنام وراء الباب ، ونبه صياحها بعض الأشخاص فهرعوا إليها واضطروا الذئب إلى التخلى عن فريسته . ولكن أسنان الوحش كانت قد مزقت خد الطفلة تمزيقاً شديداً ، فقرر الأهالى هجرانها تبعاً للعادات ، باعتبار أن الأمل فى شفائها ضئيل[١] » . وعند قبائل السكلاف Sakalaves فى مدغشقر : « إذا حدثت الحادثة (أى إذا عض تمساح أحد الأشخاص لجرحه) أخذ الأهالى هذا الشخص ووجهوا إليه اتهامهم قائلين : لا بد أن تكون قدار تكبت جريمة ضد الأسلاف أو احتقرت (فادى) fady « محرم » . ومن أسوأ الأمور عندهم أن يصاب شخص بعضة تمساح . ولم أر حتى الآن إلا مثالين من هذا القبيل وفى هذه الحال « يتعرض الجريح المسكين للموت فى مكانه ، لأنه يعد ملعوناً ، بل يجب عليه أن يختفى عن الأنظار ، إذ لا يمكن لأحد أن يتصل به ، وإذا شفى ، وجب عليه ألا يتكلم عن حادثته مطلقاً لأن الأرواح قد دلت عليه ، فإذا تكلم عمل على إثارتها من جديد[٢] » . ولا شك أنه يعامل هذه المعاملة لأنه قد طرد من بين الجماعة بسبب جرحه ، كما طرد الشخص الذى سقط فى الماء فى كمشتكا . وكذلك الحال أيضاً فى غنيا الفرنسية . يقول الأستاذ مدرول madrolle من عادات أهل تمنيه Timiné أنهم إذا اعتدى عندهم تمساح أو فهد على أحد الأشخاص فقتله أخلوا القرية

---

(١) و . شو W. Shaw : The story of my mission in South Africa ، ص ٤٦٥

(٢) Missions évangélique ، قسم ٢ ، ص ٢٢٧ — ٢٨ (الأستاذ رسيون Rusillon)

التى ينتسب إليها أو هدموها ، وفرضوا غرامة كبيرة على أعضاء أسرته (ونحن نتذكر بهذه المناسبة « التـاوا » Taua و« المورو muru فى زيلنده الجديدة) «إذ لا بد أن تكون أسرته — على حد تعبير الرؤساء — عريقة فى الإجرام وأن تكون قد ارتكبت كثيراً من الجرائم ، حتى أرسل الله الفهود والتماسيح إلى أحد أفرادها[١] . وقد أورد أحد سائحى القرن السابع عشر فى هذا الصدد ملاحظة مختلطة ، ولكنها مع ذلك تشف عن الخوف الذى يعترى الأهالى فى الساحل الغربى لأفريقيـة من الجرحى وأصحاب المرض الشديد ، كما تكشف عن الحرب الذى يشعرون به نحوهم فى الوقت نفسه فنقول : « لا يوجد أى تعاطف بينهم ، ولا يكادون يقدمون ماء لجرحاهم الذين يتركونهم يموتون كالكلاب بعد أن تتخلى عنهم زوجاتهم وأولادهم فى أغلب الأحيان . ومن أمثلة ذلك أننا رأينا ذات مرة شخصاً مريضاً فى فريدركسبرج Frdrichsburg وقد هجره جميع الناس . وكان هؤلاء « المغاربة » يعجبون لاقترابنا منه ، فعالجنا جراحه ، وكان يشكو من مجرد تلبك فى المعدة ، فلما عاد إلى الأرض رأيناه جالساً يشرب مع مواطنيه الذين راحوا يغمرونه بضروب الملاطفة . وكانت امرأته وأولاده قد هجروه قبل ذلك بثمانية أيام فقط لأنهم لم يعرفوا داءه . . (٢)»

الحقيقة أن موقف الأهالى من مرضاهم يتوقف على الخط البيانى الذى يتبعه المرض ؛ وأن عواطفهم تتغير تبعا لحالة المريض ، فإذا برىء على غير انتظار ، اعتقدوا أنه لم يكن (محكوما عليه) ولم يجدوا باعثا للفرار منه وهجرانه لآلامه ؛ بل يرون فيه صديقا ويقابلونه بآيات السرور ويستقبلونه بينهم دون خوف من إغضاب القوى الخفية : وهذا هو سر الأعمال العرافية المتعددة التى تلجأ اليها

---

(١) ارسان Arcin : La Guinée française ، ص ٤٣٢

(٢) فيو — بلفون Villault - Bellfond
Relation des côtes d' Afrique Appelées Guinée
(١٦٦٩) ، ٣٦٣ — ٦٤

كل هـذه الجماعات بمجرد أن تسوء حالة المريض ليعرفوا ما إذا كان شفاؤه ممكنا أم لا ، هذا فضلا عن أن العرافه تعتبر فى أغلب الأحيان نوعا من الصلاة، وأن العقلية البدائية تنظر إلى ما يخبر به كما لو كان وقع بالفعل . فإذا كان جواب العراف مو ئسا ، اعتبروا أن كل شيء قد انتهى . وأن الصلاة لم تقبل وأن المريض سيموت ، واعتقدوا أن موته قد أصبح أمراً واقعا بالفعل ، ولذلك يهجرونه . يقول الاستاذ « راولى » Rowley : «رأيت ذات يوم (فى افريقية الاستوائية الانجليزية) امرأة تسهر على طفلها المريض والضيق يكاد يخنق أنفاسها . ولست أظن أنى رأيت أما أكثر منها حنانا على فلذة كبدها . وتصادف أن وصل رجلان إلى هـذه القرية لقضاء الليل فيها . وكان أحـدهما « مطببا » فسارعت الأم إلى الاستنجاد بعلمه . فنظر الرجل إلى الطفل ، ثم ألقى زهرة نرد فاتق ليرى إذا كان هناك أمل فى شفائه . وانتظرت الأم النتيجة بنفاذ صبر خانق ، ولـكنها جاءت على غير ما كانت تتمنى . فتوسلت إليه أن يبدأ الاختبار من جـديد ، ووعدته بجائزة حسنة إذا كانت الفؤول طيبة . وعاد الرجـل إلى صلاته . ولـكن النتيجة جاءت هذه المرة أيضا بموت الطفل . ومع ذلك لم تيأس الأم المسكينة وضاعفت من تضرعاتها لـكى يقوم المطبب بمحاولة أخـيرة ، ووعدته بأن تهب اليه كل ما تملك إذا بشرتها العملية العرافية بنجاة الغـلام . ولكن النتيجة لم تتغير : ألا وهى الموت . وحينئذ استلقت المرأة على الأرض فى حالة يأس شديد . لأنها أيقنت بأن طفلها سيموت وأن لا أمل فى انقاذه . بل لقد أصبح منذ هذه اللحظة ميتا فى نظرها . فصارت تنطلق من بين شفتيها أنات جنائزية خافتة . وحاولت أن أعيـد شيئا من الأمل اليها . فقلت لها إن المطبب لا يفهم شيئا فى هذه المسألة ، وأنه يمكن لطفلها أن يعيش إذا أولته عنايتها ، ولـكن كلماتى راحت عبثا لأنها تؤمن بالاختبار العرافى إيمانا أعمى . والواقع أننى لم أكن إلا عابر سبيل ، فلم ألبث أن غادرت القرية ، ولعـل الأم البائسة قد تركت طفلها يموت وحـــده مهجورا دون عناية . ومع ذلك فلا شك أنها كانت تحب طفلها ولا بد أنها تأثرت لفقده وبكته كما تفعل الامهات

فى انجلترا تماما(١). » الحقيقة ان هذه المرأة لم يكن فى وسعها أن تصغى إلى المبشر الذى نصحها بالعناية بطفلها لأن المسألة تنحصر بالنسبة التى فى معرفة ما إذا كان طفلها « محكوما عليه » وماذا كان الحكم نهائيا لا رجعة فيه أم لا . وقد رأينا أن الإجابات التى تلقتها على صلواتها الثلاث كانت كلها سالبة ، ولذلك اعتقدت أن ابنها قد مات بالفعل ، وهى وإن كانت لم تخنقه كما فعلت المرأة الماورية الشابة حين عرفت أن ابنها محكوم عليه . من « الاتوا Etua » إلا أنها بدأت تنشد عليه مراثى الموت وبعثت به إلى خارج القرية ليموت فى وسط البرارى فأنى لها أن تجرؤ على مقاومة هذا السلوك ، بل أن تفكر فى مخالفته مجرد تفكير ، إذا كانت تعتقد أن سلامة المجموعة الاجتماعية تتطلبه ؟ الواقع أنه لم لكن فى وسعها أن تفعل غير ما فعلت بسبب التصورات الجماعية السائدة .

---

(١) القس هـ. راولى H.Rowley
The Universities mission to Central Africa ص ٢١٢ — ١٣ .

الفصل العاشر

التفسير الغيبي لأسباب النجاح

لا شك أن البدائيين يفرقون تفريقا تاما بين نشاط البيض ونشاطهم، ثم بين الأشياء التي يصنعونها هم أنفسهم والأشياء التي يحضرها البيض معهم. فكل ما يأتي من البيض يشارك في طبيعتهم الغامضة غير البشرية، وبالتالي لا يحتاج إلى تفسير لأنه يفسر نفسه بنفسه. فهم مثلا إذا رأوا الأسلحة النارية وشاهدوا فعلها لم يحتاجوا إلى البحث عن كيفية صنعها، ما داموا يعرفون مقدما السبب الذي يجعلها تحدث نتائجها المدمرة: أما بالنسبة إلى منتجاتهم وأسلحتهم وعدد الصيد البري والبحري التي يقومون بصنعها، فإنهم يعرفون كيف يهيئون الوسائل للغايات التي يهدفون إليها، ويشعرون شعورا واضحا بفنهم المهني، وهو فن فائق في غالب الأحيان، ينتقل من جيل إلى جيل بوساطة نوع من التلقين الحقيقي الذي قد يكون سريا في بعض الأحيان. ويشتغل الآن عدد كبير من علماء الأجناس، ولا سيما في أمريكا الشمالية، بدراسة تفصيلية مضنية لهذه الفنون المهنية وتطورها وتقدمها وانحطاطها في جماعة معينة أو في إقليم جغرافي معين). ولا شك في أن هذه الدراسة ستساهم بنصيب كبير في تعريفنا بالعقلية البدائية. ولكن الحقائق التي عرفناها حتى الآن تسمح لنا بأن نؤكد أن دور الفن المهني دور ثانوي في نظر البدائيين: فنجاح الآلات يتوقف في نظرهم على نصيبها من سعادة الطالع أكثر مما يتوقف على على جودة صنعها. وذلك لأنهم يعتقدون أن الأسباب الطبيعية لا تكفي وحدها لاحراز النجاح وأن الوصول إلى النتيجة المطلوبة يتوقف على عون القوى الخفية أولا وقبل كل شي وأنه لا يمكن لأى نشاط بشرى، سواء أكان من قبلهم أم من قبل البيض، أن ينجح إلا بمشيئتها. فالنجاح، على حد قول أحد الباحثين الأمريكيين. «شيء لا يمكن الحصول عليه مطلقا بوسائل طبيعية». وإذا قام البدائي برحلة صيد موفقة أو جني غلة موفورة أو انتصر على عدوه

فى الحرب لم يعز النتيجة الموفقة إلى تفوق آلاته وأسلحته ولا إلى حذقه أو جهوده، بل عزاها أولا وقبل كل شيء إلى مساعدة القوى الخفية التى لاغنى عنها. وهو يفسر تصرفات الأوربيين على هذه النسق تماما. وقد يكون له كل العذر فى أن يعتقد أن البيض سحرة قادرون. ولكنه ماكان ليعتنق هذا الرأى بتلك السرعة، لولم يتصور نشاطهم على نسق تصوره لنشاطه الخاص.

لذلك لا يشرع البدائى فى أى شيء مالم يكن لديه «طب» يضمن له النجاح فيه. فى فرنسا الجديدة مثلا «لا شك أن العقبه الكبرى التى تقف فى سبيل انتشار الإيمان فى هذه الاقطار تنحصر فى تلك الطقوس الشيطانية التى تطغى على نشاط الأهالى جميعه، من علاج وتسلية وصيد وغيرها[1]». (أى تلك الطقوس التى يراد بها الحصول على عون القوى الخفية) ويقول ذلك أيضا المبشرون الإيطاليون الذين عاشوا فى القرن السابع عشر: «فضلا عن الاحتفالات التى تقدم وصفها، يبتكر كل شخص من السود احتفالات أخرى فى جميع المناسبات المحلية تبعا لنزواته، ثم يراعيها بكل دقة لشدة خوفه من الاخفاق بدونها، كما لو كانت هى الأسباب الحقيقية للنتيجة التى يسعى إليها.[2]». تتسم هذه الكلمات الأخيرة بدقة دلالتها، إذ لا يمكن التعبير بخير منها عما سبق أن قررناه من أن التصورات الجماعية لدى هؤلاء السود تجرى فى إتجاه مغاير لتصوراتنا. وأنها تركز فى العالم الخفى كل سببية حقيقية، وترد هذه العبارات على لسان المبشرين الألمان الذين شهدوا حوادث من هذا القبيل فى غنيا الجديدة فيقولون «لا يشرع أحد منهم فى شيء مطلقا قبل أن يقوم ببعض الإجراءات السحرية فهناك إجراءات سحرية للصيد والحرب، وللطيور والأسماك والخنازير، ولضروب التبادل وللحقول وللرعد وللبرق -

---

(١) Relations des Jesuites، مجلد ٢٧، (١٦٤٥ — ٤٦)، ص ٥٢

(٢) كافزى Cavazzi
Istorica descrizione de'tre regni Congo, Matamba ed Angola، ص ١١٥

والمطر والزلازل وللرقص ولضروب العلاج والتشخيص ، كما أن هناك إجراءات سحرية لمقاومة الاجراءات السحرية نفسها ، الخ[1] . » وإذا أردنا الاستمرار فى إحصائها فلن ننتهى منها لكثرتها . لذلك نرى أن نذكر بعضها فقط بمثابة نماذج : يزيدون مهارة الكلاب التى يربونها لصيد الخنزير البرى بوساطة تعاويذ سحرية خاصة يتلونها عليها بطرق متنوعة . فمن ذلك أن يقرأوا التعويذة الآتية على بصلة معينة « أمسك نسر بسمكة بين مخالبه ، وصارت الريح تدوى والبحر يثور ؛ ولكن النسر ظل يمسك سمكته بثبات ، ولم يتخل عنها . » ثم يكسرون البصلة بأسنانهم ويدفعون عصيرها الحاد فى خياشيم الكلاب . وهم يعتقدون أن تلك التعويذة تجعل الكلب لا يتخلى عن الخنزير البرى الذى يقبض عليه(٢) . « أما إذا أرادوا اقتناص الخنازير البرية بوساطة الحفر ، فإنهم يحتمون تلاوة بعض التعاويذ السحرية على هذه الحفر . وهم يؤمنون بضرورة القيام بهذه العملية إلى أقصى حد حتى أن السكان الذين يقطنون شمال « ستلبرج » Sattelberg حتى هذه السنين الأخيرة ظلوا يحجمون عن صيد الخنزير بتلك الطريقة لسبب واحد فقط ، وهو جهلهم بالتعاويذ الخاصة بها ! وذلك لاعتقادهم أن مجرد التفكير فى صيد الخنازير بدونها ضرب من العبث ، وهذه إحدى الحقائق البديهية فى نظر « البابو » وهم يتلون التعاويذ على الحفر بعناية تامة ، ويدخنونها بخشب سرى متوهج ، ويذرون عليها مسحوقا سحريا (زهرة الكبريت) فإذا ما انتهوا من تجهيز الحفرة على هذا النحو وضعوا فيها حجرا يعتقدون أن « روحه » تملك القدرة على اجتذاب الصيد . وبهذا يضمنون إقبال الصيد على حفرتهم دون ريب(٤) » .

---

(١) ر . نويهوس Deutsch Neu Guinea ، حـ ١ ص ٤٠٠—٤١٢

(٢) المرجع نفسه حـ٣ ، ص ٣٣٠ (قبيلة اليابيم Jabim)

(٣) المرجع نفسه حـ ٣ ، ص ١٢٨ (الـكاى Kai)

وتعتبر تجارة الخنازير عندهم على جانب عظيم من الأهمية ، حيث يحاول كل منهم أن تكون له فيها الصفقة الرابحة ؛ لذلك يستعمل البائع طلسما خاصا يعتقد أنه يساعده على الحصول على أعلى ثمن ممكن ، ويستعمل المشترى طلسما آخر للحصول على أسمن خنزير ممكن فى مقابلة الأشياء التى يقدمها ثمناً له . « وعندهم أحجار يعتقدون أنها تضمن النجاح فى هذه المبادلات ويسمونها « برناجا » parnaga وهى تحتوى فى داخلها على « أصل روح الخنازير » ؛ فإذا حفظوها من التأثيرات الضارة بوساطة سائل معين ، فقد حفظوا الخنزير فى الوقت نفسه . . . » وإذا أراد أفراد « البابو » أن يتغلبوا على منافسيهم فى الرقص « فقد يتكبدون المشاق ويقومون بالرحلات الطويلة لتعلم ضروب هذا الفن عند قبيلة مشهورة به . . . أما إذا كان الرقص خاصاً بالطقوس فإنهم يستعملون كل الطلاسم الممكنة لجعل الساقين خفيفتى الحركة(١) . كذلك لا تنجح أعمال الحقول إلا بمعونة القوى الخفية . « فإذا أراد شخص من قبائل « البكاوا » Bakawa أن يزرع أرضه ، تحتم عليه أن يقوم بأشياء كثيرة إن أراد أن يضمن لمجهوداته النجاح . وذلك لأنه يعلم أنه محفوف من كل الجهات بالأخطار التى ترسلها إليه بعض القوى الخفية ؛ فيجب عليه إذن أن يصفى حسابه مع هذه القوى لتظل موالية له ... فإذا شهدناهم فى أثناء اشتغالهم بالبذر سمعناهم يدعون الموتى بأسمائهم ويتوسلون إليهم فى أن يحموا هذا الحقل لكى يجد أبناؤهم (وهم الأحياء الموجودون الآن) ما يطعمونه ويصلحون به شئونهم إلخ . . . ومن عاداتهم أن يدفن مالك الحقل فى الأرض أحجاره السحرية التى ورثها عن أسلافه وهى تشبه درنات البطاطس الصينى . فإذا انتهى الحصاد أخرجها من الأرض وحملها إلى الحقل الجديد(٢) . » وتسلك قبيلة « الجابيم » Jabim المجاورة لقبيلة « الماكاوا » هذا المسلك عينه « يعتقد الأهالى أن أعمال الحقول مرتبطة بأرواح الأموات

---

(١) المرجع نفسه ج ١ ، ص ١٦١

(٢) المرجع نفسه ج ٣ ، ص ٤٣٤

« بالوم » Balum تمام الارتباط ، ولذلك لا يبرمون أمراً من أمور الزراعة إلا مع العناية التامة والاحتياط الشديد . فتراهم ينظفون الأرض ويحرقونها ثم يبدأون بدعاء الأموات قبل أن يضعوا أول فسائل البطاطس الصينى فيها وحينما يشرعون فى الغرس يدعون الأرواح ويعملون على اجتذابها إليهم بتقديم بعض الأشياء الثمينة إليها كعاج الخنزير البرى وأسنان (الكلاب) ، وذلك لكى تحل تلك الأرواح بروح هذه الأشياء . بعد ذلك بزمن ما يذهبون إلى الحقول ببعض الطبول المسماة بالانجليزية Bull-roarers (محدثات الخوار) ثم يدفنونها فيها وهم ينادون أسماء الأسلاف. ويعتقدون أن ذلك يجعل الثمار تنمو وتجود(١) .وبعد مرور فترة أخرى ، أى بين ظهور البواكير وبين الحصاد ، يقومون بالرقص الذى يستمر عادة طول الليل . ومعظم هذا الرقص متصل بالحصاد أشد اتصال ، وهم يعتقدون أنه يؤدى إلى غزارة النبات(٢) » . هذه صور من السحر الزراعى معروفة جيداً وشائعة إلى حد كبير . وتلك أمثلة أخرى من أمثلتها وهى ترينا مقدار تنوع الشروط الغيبية التى تتوقف عليها جودة الحاصل : « يرى الأهالى أن نجاح الزراعة فى الحقول يتوقف إلى حد كبير على بعض الألعاب ، ولذلك لا يقومون بها إلا فى الفترة التى تلى البذر . ومن هذه الألعاب لعبة الأرجوحة التى يمارسونها بوساطة عود من القصب الهندى مثبت فى غصن شجرة . ويعتقد الاهالى أن لها تأثيراً حسنا لإنبات البطاطس الصينى المزروع حديثاً ، ولذلك نرى الرجال والنساء والشيب والشبان فى هذا الفصل من السنة يتمايلون على أراجيحهم ويغنون أناشيد الأرجوحة وهى تتحرك بهم جيئة وذهابا ، ولا تحتوى هذه الأناشيد فى غالب الاحيان إلا على أسماء للبطاطس الصينى بعد اقتلاعها وعلى نداء مرح يطلقونه على لسان الحاصدين ويكررونه فى صور

---

(١) المرجع نفسه جـ ٣ ، ص ٣٢٢ ـ ٣٣

(٢) المرجع نفسه جـ ٣ ، ص ٢٥٣ (تخوم رأس الملك عليوم)

شتى ، مثل لقد وجدت ثمرة جميلة(١) ويقصدون من نداء النباتات بأسمائها أن يساعدوا شجيراتها على الخروج من الأرض ... ويعمد أفراد « البكاى » إلى لعبة المنشار التى يلعبونها بوساطة بعض الخيوط ، وذلك لاعتقادهم أنها تساعد أوراق البطاطس الصينية على النمو والاخضرار والالتفاف لكى تنبت أوراق البطاطس الصينى بغزارة ، وتخضر وتنمو وتلتف وهم يعتقدون أيضاً أنهم إذا مارسوا لعبة الخذروف بوساطة ثمار البلوط المحلى أو التين البرى سارع البطاطس الصينى المزروع حديثاً بالنمو والتفت شجيراتها حول نفسها وغزرت أوراقها . لذلك لا يصح ممارسة هذا اللعب إلا زمن الغرس . وكذلك الحال بالنسبة إلى لعبة أخرى تتكون من ثقب عروق أوراق البطاطس الصينى بوساطة رماح صغيرة متخذة من أضلاع أوراق « الساجو » . ونعثر عندهم على عادة أخرى أكثر دلالة من عادة قصر بعض الالعاب على فصل العمل فى الحقول . وهى أن قبائل « الكاى » لا تسمح بحكاية « قصص العصور البدائية ، والأساطير الشعبية إلا فى الفترة التى تنبت فيها البذور المبذورة حديثاً وحين تبدأ براعمها بالظهور(٢) » . وبعد هذه الفترة يضيف المبشر قوله : « نستطيع أن نفهم بسهولة مس كلمة الختام فى أساطير « الكاى » انهم لا يحكونها إلا لغاية محددة كل التحديد وهى مساعدة نبات البطاطس الصينى المزروع فى الحقل على النمو السريع ، وذلك لاعتقادهم أن ذكر الكائنات البدائية التى يعزون إليها أصل الثمار الزراعية تؤثر على النمو تأثيراً حسنا ، ولذلك يكفون عن حكاية الاقاصيص بمجرد انتهاء الزرع ، ولاسيما إذا بدأت سيقان النباتات الصغيرة فى الظهور .

لاشك أن أفراد « البابو » هؤلاء يعرفون كيف يولون هذه النباتات ضروب العناية اللازمة لها . وهم يستطيعون جيداً أن يميزوا أجناسها وأنواعها وفصائلها المختلفة ، حتى لقد أطلقوا على كل منها اسما خاصاً به ،

---

(١) المرجع نفسه ، حـ ٣ ، ١٢٥ ــ ٢٦ (قبائل الكاى)
(٢) المرجع نفسه ، حـ ٣ ، ص ١٢٥ ــ ٢٦

ولكنهم يؤمنون بأن إيصال البطاطس الصينى إلى درجة النضوج عمل يتوقف أولا وقبل كل شيء على أسباب غيبية . ولذلك يحرصون على مساعدة النبات وتعهده والتعجيل بنموه بوساطة عدد لايحصى من الأعمال السحرية ، ابتداء من اللحظة التى يختارون فيها الأرض ويحرقون أشجارها حتى لحظة جنى المحصول ، وذلك إذا استطاعوا أن يدافعوا عنه حتى النهاية ضد الخنازير البرية والطيور وضروب السلب الأخرى ، وهم لذلك يعتبرون أن الألعاب عمل جدى إجبارى مقدس فى بعض أوقات السنة ومحرم كل التحريم فى أوقات أخرى . وهذا هو موقفهم أيضاً بالنسبة إلى حكاية الأساطير ، فإنها ليست وسيلة للتسلية فى سهرات الليـــل فحسب ، بل وأيضا ضمان لحضور « الكائنات الأولية التى يدين لها الأهالى بأنبات البطاطس الصينى ، وعامل على جعل تأثيرها أنجح وأكثر مباشرة . »

ويقوم أفراد « البابو » الذين يقطنون إقليم « كيواى » Kiwai (غينيا الجديدة الانجليزية) بلعبة المنشار التى يلعبها الناس جميعاً لمجرد التسلية . ولكنهم « يعلقون عليها أهمية خاصة فى بعض الظروف ، إذ يقبلون على لعبها فى أغلب الأحيان حينما تبدأ سيقان البطاطس الصينى المزروعة حديثاً فى الخروج من الأرض ، فنراهم فى هذا الأوان يغرسون عصيا فى الأرض لتكون سنادات تلتف حولها سيقان النبات الجديد ، ويربطون السيقان الأولى فى تلك السنادات بالخيوط التى سبق استعمالها فى لعبة المنشار . وقد يكتفون بتعليق قطع من هذه الخيوط فى الأطراف العليا للسنادات ، بل يقنع بعض الناس بإلقاء شيء منها فوق الأرض فى أمكنة مختلفة من مزارعهم . وهم على كل حال يهدفون من كل ذلك إلى « مساعدة » النبات على النماء والالتفاف . وكذلك ترجع بعض الألعاب الأخرى عند أهل « كيواى » إلى أشغالهم الزراعية أو بعض أمورهم الأخرى[1]

---

(١) ج . لنتمان ، Cats cradles of the Kiwai Papuans : G. Landtman (غينيا الجديدة الانجليزية فى : Anthropos ، مجلد ٩ ، ص ٢٢١

وكثيراً ماترى للعبة المنشار الواسعة الانتشار نفس هذه الخاصة السحرية التي يعزوها إليها أهل غنيا الجديدة . ولكن لنقتصر على ذكر بضعة أمثلة منها فحسب . فأهالى جزيرة « الغزال » (بمرانيا الجديدة) يلعبونها على وجه الخصوص فى الفترة التى تنمو فيها ثمار شجرة الخبز[1] . وعند « الدياك » فى برنيو » يختص كل عيد من الاعياد بضرب من الالعاب . فلعيد البذر ضروب من التسلية غير التى تستعمل فى عيدى الحصاد الصغير والكبير ، وغير التى تقام فى بداية الحصاد أو فى رأس العام . فى عيد البذر يقبل الاهالى على لعبة الخذروف أو يغطون وجوههم بالاقنعة . وفى جنى الأرز يتقاذفون بقذائف ينفخونها بوساطة الأنابيب، الخ . ومما يلفت النظر أن بعض الافعال التى يقوم بها الكهنة فى الاحتفالات يستخدمها غيرهم من أعضاء القبيلة لمجرد التسلية (٢) فهى عندهم ألعاب فحسب وإن كنا نرجح أن دلالاتها الغيبية لا تزال حية وماثلة فى ذهن كل فرد من أفرادهم . وعند الكيانيين « يتسلى الرجال أيضا بلعب الخذروف . وخذاريفهم بيضاوية الشكل مسطحه ملساء ، ويزن الواحد منها من كيلو جرامين إلى ثلاثة كيلو جرامات . فيحاول كل لاعب بدوره أن يطرد خذروف اللاعب السابق بخذروفه هو ، وبذلك يستمر هذا الأخير فى الدوران حتى يأتى الخذروف التالى فيطرده . . . وهكذا نراهم يفتتحون كل عمل جديد فى مزرعة الأرز بمآدب واحتفالات دينية ، يتواصون أثناءها ببعض المحرمات التى تستمر بضع ليال ، ويصحبونها ببعض الألعـــاب والمبارزات والمسابقات والقفز إلى أعلى وإلى الأمام ومسابقات العدو، الخ.[3] » ويقول هذا الباحث نفسه عن سكان أمريكا الجنوبية « مما أدهشنى أن اللعبة

---

(١) القس جورج بوجر سهازن Fadenspiele in Matupit, Georg Bögrshausen gazelle Halbinsel, Neu Pommern . فى Anthropos ، مجلد ١٠ــ١١ ، ص٩٠٨

(٢) ا . و . نيوفنويس Quer durch Borneo. A. W. Nieuwenhuis ، ج ٢ ص ١٣٠ ــ ١٣٤ .

(٣) المرجع نفسه مجلد ١ ، ص ١٦٧ ــ ١٧٠ ، وقارن مجلد ١ ، ص ٣٢٩

المسماة بالشوك Chuke (وهى اللعبة التى تسمى فى أوروبا بلعبة الأوزة) لا تلعب عند قبائل الشروتى Choroti فى « الشاكو الكبرى » Grand Chaco على الأقل ، إلا فى فترة معينة من السنة ، وهى فترة شهر مارس ، حيث ينتهى فصل الأمطار فى « الشاكو » ويبدأ الشتاء . فحينئذ يأخذ الأهالى فى ممارسة هذه اللعبة ، حيث يتجمعون فى القرى لإعداد الزهر اللازم للعب من الصباح الباكر حتى ساعة متأخرة من المساء . وقد كان ذلك وحده كافيا للفت نظرى إلى أن هذه اللعبة مرتبطة ببعض التصورات الغيبية . هذا فضلا عن أنهم يلعبونها بسرعة تكاد تكون جنونية . ويعلنون نتيجة كل دور بصوت مرتفع يسمع على بعد . ولقد أخبرتنى قبائل ، « الشروتى » حرفيا بأنهم لا يلعبون « الشوك » إلا فى بداية الشتاء حين يبدأ الخرنوب والثمار الغدائية الأخرى فى الاختفاء . والواقع أن الهنود الغربيين كثيرا ما يعتبرون هذا الوقت فترة كفاح مر أليم من أجل المحافظة على بقائهم . ولذلك يكثرون من اللعب لاعتقادهم أنه يضاعف الثمار ويزيد رفاهية السكان على وجه العموم ، ويعتقدون أنه يمكن الحصول على هذه النتيجة لأنه يوجد من بين اللاعبين رابح واحد أو اكثر . ومن شأن هذا أن يعود بالفائدة على الجميع بطريقة غيبية [١] »

وقد فسر الأستاذ برهام Berham تأثير الأقاصيص التى من هذا القبيل تفسيرا جيدا ، فقال : « احساس الدياك بالعناصر الغيبية فى حياتهم إحساس فعال ماثل دائما فى أذهانهم . وتبدو الأرواح والشياطين بالنسبة إليهم وكأنها كائنات واقعية كأشخاصهم تماما . فتراهم فى عيد الرءوس يستدعون « سنجالنج بورنج » Singalang Burong للحضور ، وهو فى أساطير الدياك البحريين يقابل « مارس » Mars فى أساطير الرومان ، ويقطن بعيدا فيما وراء السماوات . وليس الكاهن هو الذى يقوم باستدعاء هذا الكائن القادر بوساطه الصلاة التى

---

(١) ر . كارستن R. Karsten
Beriträge zur Siltengeschichte. der Südamerikanischen Indiener
ص ١٠١

يوجهها إليه مباشرة . بل يقوم الأهالى بتمثيل قصة أسطورية يروون فيها أن بطلا أسطوريا اسمه كلنج Kling أو كلينج Klieng ، احتفل بعيد الرؤوس ، ودعا « سنجالنج بورنج » إلى حضور الاحتفال فحضره وهم يعتقدون أن كلنج هذا الذى يروون عنه كثيرا من الاساطير عبارة عن روح يعيش فى مكان ما بالقرب من البشر وأن هذه الروح فى مقدورها أن تصنع لهم خيرا كثيرا . » وهكذا يمثل كهنة الدياك العيد الذى احتفل به « كلنج » تمثيلا عمليا ، ويصفون كيف أن « سنجالج بورنج » قد دعى إلى هذا العيد وأنه أجاب الدعوة ؛ نراهم يفعلون ذلك وهم ينشدون « منجابهم » Mengap (قصصهم) وفى هذه الحالة يعتبر كل شخص من أشخاص الدياك أنه هو « كلنج » ، ولذلك يعتبر أن الاحتفال وحكاية القصة عبارة عن دعوة موجهة منه هو شخصيا إلى « سنجالنج بورنج » وأن هذا الأخير لا يحضر فقط إلى منزل كلنج (الذى تذكره القصة) ، بل إلى منزله هو أيضا فى اللحظة التى يعقد فيها الاحتفال ، حيث يستقبل باحتفال خاص ويقدم له الطعام والضحايا (١) . »

وهكذا يصبح الشخص من الدياك بطل القصة الحقيقى بفضل خاصيتها الغيبية أى أنه يصبح مضيف الإله ، وبذلك ينزل الإله لدى الدياك الذين يستقبلونه استقبالا حقيقيا ، فالحكاية أقوى بكثير من مجرد الاستدعاء بل أقوى من الصلاة ، لأنها تنتج مشاركة يصبح فيها الحاكى والبطل شخصا واحدا ، على حد تعبير الأستاذ برهام . ويصيب الأستاذ برهام أيضا إذ يفسر هذه الظاهرة بطابع الغيبية الذى يسيطر على عقلية الدياك . ويختلف الحال عن ذلك عند « البابو » فى غينا الجديدة . فنراهم إذا حلت فترة معينة من السنة ، يحتفلون بذكرى الحسنات التى قام بها أبطالهم بقصد التعجيل بنماء البطاطس الصينية ؛ وهم إذ يقومون بهذا الاحتفال يشعرون بالحضور الحقيقى لأولئك الذين يقصون أسطورتهم ، وبالاتحاد الذاتى معهم .

---

(١) ج . برهام ، فى هولنج روث . The natives of Sarawak ، ح ٢ ، ص ١٧٤ — ٧٥ .

وفى الجزء الأوسط من جزيرة سيليبس ، لاتحكى الأقاصيص عادة إلا فى موسم حصاد الأرز ، أى فيما بين شهرى أغسطس وأكتوبر . ويحرص الأهالى على وجه العموم على مراعاة هذه القاعدة بكل دقة . وتعتبر حكاية القصص فى غير هذه الفترة انتهاكا لحرمة قد يؤدى إلى فقدان الحاصلات ، وإن كانت حاصلاتهم ضئيلة الثمرة فى غالب الأحيان . وتؤكد هذه الأقاصيص التى يسمونها أقاصيص الأسلاف أن هؤلاء الأسلاف لايزالون أحياءفى صورة أرواح ... لذلك يحرص الأهالى فى هذه الفترة من السنة بوجه خاص على التقرب إلى الاسلاف بحمل القرابين إليهم أو بانشاد أعمال البطولة التى قاموا بها(١) . » ولسنا نقول جزافا إذا قررنا أن قبائل « التوراجا » To - Raja يشترك مع « البابو » فى اعتبارهم حكاية القصص ذات صفات غيبية ، وإن كان الباحث لم يذكر ذلك .

—٢—

لاحظ الباحثون أن العمل الزراعى مقسم تقسيما غير متكافىء بين الجنسين فى أمريكا الجنوبية ولدى جماعات « البنتو » وجماعات أفريقية الغربية ومعظم جزر الاقيانوسية وغيرها . فى كل هذه الجماعات تقع معظم أعمال الحدائق والمزارع والحقول على عاتق النساء مع قيامهن بأعمالهن الأخرى (كالعناية بالأطفال وتحضير الطعام ، الخ) وإذاكان الرجال لا يعفون من أعمال الحقول إعفاء تاما فانهم لا يقومون إلا بالمشاركة فى بعض عملياتها التمهيدية أو النهائية ، فالرجال هم الذين يقتلعون الأشجار من الأرض المراد زرعها ويجتثون الجذور ويصلحون الأرض تمهيدا لاستثمارها ولكن النساء يقمن بكل الأعمال الزراعية بمعنى الكلمة الحقيقى .

---

(١) الدكتور ن. ادريانى Etude sur le litteraturei des Dr. N. Adriani فى Tydschrift voor indische taal-land-en Volkenkunde : To - radja ، مجلد ٦٠ ص ٣٤١ .

وقد رأى كثير من الباحثين فى ذلك نوعا من سوء الاستغلال للقوة، وعدوه حالة خاصة من تلك القاعدة التى قرروها رغم تعرضها للطعن الشديد، وهى أن مركز المرأة يزداد سوءا كلما زادت الجماعات التى تعيش فيها انحطاطا. ورأى آخرون أن هذه الحال نتيجة ضرورية للمشاغل التى تستغرق وقت الرجال فى تلك الجماعات وتصرفهم عن الأعمال الزراعية، كالحرب والصيد والرحلات والمناقشات، الخ. ولعل هذه التفسيرات المختلفة لا تخلو من الصواب خلوا تاما ولكن السبب الحقيقى بعيد عنها كل البعد. فكثيرا ما يقوم الرجل نفسه بأعمال أشق من أعمال الفلاحة، ولكنه لا يستطيع أن يغير شيئا من تقسيم العمل المعتاد ولو أراد وذلك لأن هذا النظام يرجع إلى أصل غيبى. فإذا كان النساء يكدن يتحملن وحدهن جميع الأعمال الخاصة بزراعة النباتات والأشجار؛ فالسبب فى ذلك أنهن يمثلن بذرة الخصب فى المجموعة الاجتماعية. ومن المعلوم أنه يجب لنجاح الأشجار والحقول المستغلة أن يوجد نوع من المشاركة بينها وبين أعضاء المجموعة الاجتماعية الذين يتولون العناية بها، لكى ينتقل إليها شىء من الخصب الذى ينطوون عليه. ومعنى ذلك أنه يتحتم على الأشخاص الذين يفلحون الأرض أن يكونوا حاملين لبذره الخصب فى أنفسهم. لذلك لو أن الرجال هم الذين قاموا بالزراعة وبذلوا من المجهود والقوة فى تقليب الأرض وبذرها وترقيعها قدر ما يبذله النساء أو أكثر؛ لضاعت جهودهم سدى، لأن الأرض لا تخرج فى هذه الحال إلا نتاجا ضئيلا، وعلى كره منها، وتظل أشجار النخيل والموز عقيما أو قريبة من العقم. فعمل النساء دون سواه هو الذى يخصب الحقول والحدائق. وقد جاءتهن هذه الخاصة من ذات جنسهن ولما كان هذا هو سبب التقسيم الذى أشرنا إليه، فقد جعله طابعه الغيبى خفيا على الافهام. فإذا فرضنا أن الرجال أنفسهم أصروا على القيام بهذا العمل لما تيسر لهم أن ينجحوا فيه. بل لعل النساء أنفسهم يرفضن التخلى عنه خوفا من الجماعة.

ليس هذا الرأى مجرد فرض وجيه. فكثيرا ما أشار الباحثون عند

كلامهم على هذه الظاهرة إلى العلة التى يذكرها لها الأهالى ، ولكن دون أن يستخرجوا منها أية نتيجة . فى برنيو « يلعب النساء الدور الرئيسى فى الطقوس والأعمال الخاصة بزراعة البادى pady (الارز) ولا يساهم الرجال فيها إلا باقتلاع جذور الأشجار من الأرض المراد زراعتها وبالمساعدة فى بعض خطوات العمل النهائية . والنساء هن اللاتى ينتخبن البذور ويحفظنها ، وهن اللاتى ينفردن تقريبا بكل معرفة تدور حول هذا الموضوع . ويبدو أن هؤلاء الأهالى يشعرون بوجود شبه طبيعى بين النساء وبين البذرة الخصبة التى يصفونها بأنها « حبلى » . ويذهب النساء أحيانا للنوم فى حقول « البادى » فى إبان طلوعه ، ولعلهن يبغين من ذلك ازدياد خصبهن أو خصب الأرض ، ولكنهن يتحفظن عند الكلام على هذا الموضوع [١] » . وفى كلدونيا الجديدة يحمل الأهالى بعض أسنان النساء العجائز إلى مزارع البطاطس الصينية باعتبارها طلاسم تؤدى إلى جودة الحاصلات ، ويعلقون جماجمهم فى عصى ثم يغرسونها فى الأرض لنفس هذه الغاية أيضا [٢] . « وفى جماعات « البنتو » كثيرا مايطلق الرجل امرأته لأنها عقيم ويخشى إذا أبقاها أصبحت المزرعة التى تفلحها عقيما مثلها . وفى « التوجو » Togo : من المعتاد أن تحمل المرأة الحبلى على رأسها كيسا صغيرا يحتوى على قطع صغيرة من البطاطس الصينى والكساد (نوع من النبات الدرنى) والذرة والبيزانج (نوع من النبات الدرنى) الخ ... ومعها بعض شظايا من الحجر الذى تستعمله النساء فى طحن الذرة ... ويشيرون بهذا الخليط من الثمار إلى أنه إذا كانت المرأة تلد ثمرتها ، فان ما تعمله فى حقلها يؤتى ثمرته أيضا . والحقيقة أن الجزء الأساسى من أعمال الفلاحة فى التوجو يقع على كاهل المرأة [٣] » .

---

(١) هوز Hose ودوجال ThePagan Tribes of Borneo. Dougall جـ ١ ص ١١١ .

(٢) ج تيرنر Nineteen years in Polynesia ، ص ٤٢٥

(٣) ك . شبيس C. Spiess : Zum Kultus und Zauberglauben der Evheer. (Togo) فى Bässler Achiv مجلد ١ ص ٢٢٥

أما الوثائق التى جمعها لنا الباحثون عن قبائل أمريكا الجنوبية فتعتبر قاطعة فى هذا الصدد . فيذكر الأب جوملا Gumilla مناقشة دارت بينه وبين الهنود الحمر حول هذا الموضوع . فيقول : «البذر والزرع وجنى الثمار وتخزينها ، كل ذلك من عمل هؤلاء النساء البائسات . وكنت أقول للرجال: لماذا لا تساهمون أيها الإخوان ، فى أعمال الزرع مع نسائكم المسكينات اللاتى يكدحن فى العمل تحت الشمس وأولادهن بين ازرعهن ؟ ألا ترون أنهن قد يمرضن من جراء هذا الارهاق فتصيب الأمراض أولادكم أيضا ؟ هلموا إذن إلى مساعدتهن ! وكانوا يجيبوننى بقولهم إنك يا أبانا ، لا تفهم شيئاً فى هذه الأمور وهذا هو سبب ألمك ، فاعلم إذن أن النساء هن اللاتى يلدن ، أما نحن فلا نلد وإذا قمن بالزراعة أنتج عود الذرة كوزين أو ثلاثة كيزان ، وعود اليـاكا Uaca رطلين أو ثلاثة أرطال من الجذور ، وهكذا يتضاعف كل شىء ، ولماذا كل ذلك ؟ لأن النساء وحدهن يعرفن كيف يلدن ويعرفن كيف يوصين البذور التى يبذرونها بالولادة . فليقمن إذن بالزراعة ، ما دمنا نحن الرجال لا نعرف منها قدر ما يعرفن[1] .» تظهر لنا بجلاء فكرة المساهمة بين المرأة والبذور من وراء تلك العبارات التى يعزوها الأب إلى هنود أمريكا الجنوبية .

وقد قام الدكتور كارستن Karsten منذ زمن غير بعيد بدراسة هذه المعتقدات لدى قبائل الجيبارو jibaros فذكر : أنه يجب على النساء أن يقمن بزراعة النباتات المؤنثة ، كما يجب على الرجال أن يقوموا بزراعة النباتات المذكرة . ومع ذلك فإن الاعمال الشاقة فى جميع الزراعات تقع على كاهل الرجال دائماً ، فهم الذين يقومون بقطع الأشجار وتمهيد الأرض للزراعة حينما تختار قطعة جديدة من الغابة لجعلها مزرعة . ولكن إذا كان الرجال هم الذين يغرسون شجرة الموز دائماً ، فإن النساء يساهمن فى العناية بها فيما بعد ،

(١) جوملا Gumilla : El Orinoco illustrado (الطبعة الثانية) ج ٢ ص ٧٤ — ٧٥

ويرتلن الترانيم التى تساعد على نمائها . وإذا كانت قبائل «الجيبارو» تنظر إلى آلهة الأرض على أنها امرأة ، فأنها تسلم دائما بأن للنساء تأثيرا خفيا خاصا على نجاح الحاصلات .. وتقوم جميع الأعمال الزراعية عند « الجيبارو » على نهج آلهة النساء الخاصة ، أى «الأم الأرضية ، العظيمة أو «منجوى» Mungui : فهى التى علمت النساء عمل الحقول فضلا عن الأعمال المنزلية بسائر أنواعها [1] . »
ثم يقول بعد ذلك بقليل : « يفترض الأهالى أن هناك صلة داخلية بين المرأة ومنتجات الحقول التى تفلحا ، كما يعتقدون أيضا أن لها تأثيرا خاصا على الحيوانات المنزلية التى تعنى بها . وهذا هو اعتقادهم بالنسبة إلى المرأة المتزوجة بوجه خاص . وإذا كان أحد « الجيبارو » متزوجا وأراد أن ينشىء أسرة جديدة ، أو أن يؤسس مزارع جديدة ، أو يربى حيوانات منزلية كالخنازير والطيور وكلاب الصيد ، فإن أول أمر يقوم به ينحصر فى القيام باحتفال خاص من أجل زوجته الشابة . ويهدف هذا الاحتفال إلى أن يخلع عليها بطريقة خفية القدرة والمواهب الضرورية للأعمال التى سيصبح عليها أن تعملها ويعد هذا العيد أهم الأعياد بعد عيد الرموس ، ويسمى « بعيد التبغ » للنساء . فإذا جهلنا المعنى العام لهذا العيد ، استحال علينا أن نفهم أفكار « الجيبارو » المتصلة بعمل الحقول . [2] » إذا أرادوا إنشاء مزرعة جديدة لنبات المانيوق قام الرجال بالأعمال الشاقة من قطع الأشجار وتنظيف الأرض التى أختاروها وتسويتها ، وبعد ذلك يبدأ عمل النساء اللاتى يتممن تحضير الأرض للزراعة [3] . »

وقد لاحظ الأستاذ نردنسكيولد Nordenskiöld وجود عادة مضادة لتلك فى

---

(١) كارستين R . Karsten Contributions to the sociology of the. Indian tribes of Ecudor ، ص ٧ .

(٢) المرجع نفسه ص ١١ .

(٣) المرجع نفسه ص ١٤ .

« الشاكو » (عندقبال « الاشلوسلاى » Ashluslays و « الشوروتى Chorotis)
فقال : « الرجال وحدهم هم الذين يفلحون الحقول أما عمليتا البذر والحصاد فيقوم بهما الرجال والنساء معا . ولكن النساء والأولاد فقط هم الذين يقومون بنقل الحاصلات ، إذا لم يتيسر حملها على ظهور الخيل والحمير (١) » . ولكن هذه ملاحظة مقتضبة فضـــلا عن أنها تشير إلى ترك جزء من العمل للنساء ؛ ولاسيما الجزء الذى يخص البذر . هذا إلى أنه لا يغير النتيجة التى استنبطناها من الروايات السابقة أن تعارضها رواية فردية ، ولو كانت صحيحة بل حتى لو شوهدت فى قبائل أخرى . فهناك حقيقة ثابتة ؛ وهى أن التصورات الجمعية لدى كثير من الجماعات المنحطة تربط بين خصب الحقول وخصب النساء بطريقة غيبية ومن ثم كان للفلاحة نفسها التى يقوم بها النساء معنى المشاركة . ولذلك ينبغى لنا أن نقتصر على القول بأن فلاحة الأرض تصحب بعمليات سحرية لأنها هى نفسها عملية سحريه تتطلب أن يقوم بها النساء .

— ٣ —

لا يكتفى البدائيون بتأثير النساء الغيبى وحده للحصول على محصول وفير . فقد رأينا أنهم يجمعون أيضا على اكتساب تأثير الاسلاف ويعملون على إرضائهم بكل الوسائل (بالصلوات والأدعية والقرابين والضحايا والصوم والرقص وحكاية الأساطير) . كما تحرص بعض الجماعات على ضمان التأثير الشخصى للرئيس ، وهو نوع من التـأثير الذى يتحقق بمجرد الحضور كتـأثير المعدن يستخدم عاملا مساعدا فى تركيب بعض العناصر . فالرئيس هو الوسيط المجبر بين المجموعة الاجتماعية وقوى العالم الخفى التى تتوقف عليها خصوبة الأرض ونمو النبات . فإذا أهمل فى تنفيذ ذلك الواجب اتخذت هذه القوى ، ومن بينها الأسلاف ، جانب العداء أو جانب الحياد على الأقل ، فتتعرض القبيلة لخطر الموت جوعا .

---

(١) ا. نردنسكيولد La Vie des Indiens dans Les chaco, E.Nardenskiöld ص ٤٨

وهذا يفسر لنا ، إلى حدما نفور بعض الرؤساء من اعتناق المسيحية نفوراً لا يكاد يلين « كان « مافا » Mafa (رئيس من قبائل المسوتو Moussouto) لايشغله شاغل عن القيام بواجبات الرئاسة . وهى تشتمل فى تلك الأقطار على بعض الوظائف العامة التى لاتتفق مع المبادىء والقواعد التى نزل بها كتاب الله . ولذلك نراهم يعتبرون أن الرئيس الذى يعتنق المسيحية فى البلاد التى ظلت غالبية سكانها على وثنيتها قد تنازل عن منصب الرياسة[1] - « كان رئيس جزر « واليس » Wallis يقول لى : « انتظر حتى أموت ، وعندئذ يخلو لك الطريق لتحويل أهالى الجزيرة إلى الدين الجديد . هذا إلى أن آلهتنا هى التى تنمى أشجار « الكاوا » Kawa أو النرجيل والموز ، الخ ، لأن هذه الحاصلات لاتوجد فى أرض البعض ، ولذلك أخشى أن اشيع المجاعة فى البلاد إذا خرجت على عبادة هذه الآلهة(٢) . » ويقول ملك « الأوفيا » Uvéa المبشر : « إن إلهكم هو الذى صنع أشجار بلادكم ، ولكنه لم يصنع أشجار « الكاوا ! » . فالملك لايقتصر فى كلامه هنا على الحد الأدنى من قدرة الله ، بل يتخذ من تنوع النباتات دليلا على تعدد الآلهة . فهو يعتقد أن لكل نبات خالقه الخاص، الذى لايستطيع أن يفعل شيئاً بالنسبة للنباتات الأخرى . » ونحن نعرف أن العقلية البدائية عقلية تشخيصية ، وأن حظها من التجريد العقلى ضئيل جداً . ولذلك كانت فكرة الإله الواحد من أغرب الأفكار فى تصورها ، كما أنها تعتمد فى عملها على المشاركة والتخارج . فلأهالى جزر « واليس » مثلا أرضهم التى تكون جزءا من هيئتهم

---

(١) Missions èvangeliques ج ٢ ، ٥١ ، ص ١٢٤ (مابل)

(٢) Annales des misoions de l' Oceanie Sociète. de Marie ج ١ ص ٤٢٤ (الاب بتيوت)

(٣) الأب منجيريه Mangeret
Mgr Bataillon et les missions de l'océanie Centrale
ج ١ ، ص ١٧٢ — ٣

الاجتماعية على نحو ما ، ومعها جميع النباتات التى تنمو فى تربتها والحيوانات التى تعيش على سطحها والأسلاف والقوى الخفية التى يتوقف عليها رخاء المجموعة . ولاشك أنهم يتصورون جماعة البيض على هذا النسق نفسه ، ولكنهم يعلمون أنها لا تشترك مع جماعتهم فى شىء ، فليس للرؤساء البيض ولا لقوى مجموعتهم الخفية التى يسمونها « الله » أى سلطان على نباتات جزيرة « واليس » التى لا يستطيع أهلها أن يحصلوا على مايبتغون إلا بمعونة رئيسهم المحلى وحده سواء كان حيا أم ميتاً .

وفى كيريوينا Kiriwina — أرخبيل تربرياند Trobriand « جاءنى رئيسنا الكبير بوليتارا Bulitara ذات يوم وسألنى عما إذا كنت أستحوذ على هذه القوى الخفية ؛ فلما أجبته بأنى لا أدعى ذلك ، قال مانصه : « اذن من الذى يصنع الريح والحصاد والأمطار فى بلادكم ؟ فأخبرته أن الله هو الذى يصنع كل ذلك . فقال آه ! إن الله هو الذى يقوم بهذه الوظيفة بالنسبة إلى شعبكم كما أقوم أنا بها بالنسبة إلى شعبى ، إننا متساويان ، أنا والله، وينطق بهذه الجملة الأخيرة وهو مطمئن البال وتبدو عليه مخايل الشخص الذى اهتدى إلى التفسير الصحيح (١) » ويقول برون Brown أيضاً بعد ذلك بقليل : « يعتقد الأهالى أن من شأن الرئيس المستقل ،مباشرةالوظائف الكهنوتية دائماً ،أى أنه على صلة دائمة « بالتبرانات » Tabarans (الارواح) وأنه يستطيع بمعونتها أن يحدث المطر والصحو والرياح المواتية أو المضادة والصحة أو المرض والانتصار فى الحرب أو الهزيمة فيها ، وأنه على وجه العموم يستطيع إرسال النعم أو الارزاء التى يلتمسها منه الاهالى بعد دفع الثمن الكافى(٢) . »ومعنى ذلك بالاختصار أنه يشارك العالم الخفى فى وظائفه

---

(١) الأب فيلوز Fellows فى جورج براون George Brown, Melanesians and Polynesians, ص ٢٣ — ٢٦

(٢) جورج براون Georg Brown نفس المرجع ص ٤٢٩ .

بصورة ما . وهذا الامتياز الذى لا يقدر بثمن هو الذى يفسر لنا السلطة الشاملة التى يباشرها الرئيس ، والاحترام الدينى الذى يتمتع به ، وضروب القدرة الالهيه التى يدعيها لنفسه ويعزوها اليه أتباعه . فهو عبارة عن « إله حى » كما بين ذلك جيداً السير جيمس فريزر James Frazer .

وكثيراما تسرى هذه المانا Mana الشخصية التى تحل فى الرئيس إلى كل ما يتصل به . ولذلك يسأله الناس ، أن يصب لهم التأثير الحسن الذى ينبعث منه فى شيء مادى ، إذا صح لنا هذا التعبير . وذلك لكى يستطيعوا الاستحواذ عليه وحمله معهم . « كان الراجا بروك rajah Brooke يتمتع لدى أفراد « الدياك » باجلال لا مثيل له . وقد وصف لنا ضروب التوسل التى كانوا يتوجهون بها إليه فقال : « كنت إذا جلست على الحصير . تقدم إلى الناس واحداً واحداً وربطوا بذراعى أجراسا صغيرة . وكان بعضهم يحضر إلى نرجيلة ويطلب منى أن أبصق فيها . ومما كانوا يعملونه أيضا أن يقدموا لى دجاجة بيضاء . فأنهض ثم اهزها وأنا اتمتم بهذا الدعاء : « ليسعد « الدياك » ، وتغزر حاصلاتهم . ولتنضج ثمار أشجارهم فى موسمها . وليولد لهم أطفال ذكور . ولتمتلىء منازلهم بالأرز الخ ... فلا أكاد أنتهى من هذه الصلاة حتى يبدأوا فى الرقص . وكانوا يغسلون يدى وقدمى ثم ينضحون بيوتهم وحدائقهم ببقايا هذا الماء . وكانوا يأخذون تبر الذهب والنسيج الأبيض الذى استحضرته لهم معى فيدفنونه فى حقولهم [1] . . يحدثنا شاهد معاصر عن هذه الأعمال نفسها ويحاول تفسير السبب فى تمسك « الدياك » بها إلى هذا الحد ، فيقول : « إذا زار الأستاذ بروك مساكنهم ، لم يضيعوا وقتهم فى التماس دعواتى بل فضلوا أن يجهز له كل منهم قليلا من الأرز الذى يعتزم بذره فى الموسم المقبل ، وأن

---

(١) Narrative of events in Borneo and celebes ج ٢ ص ٤٢ — ٤٣ (يوميات الأستاذ بروك ، ١٨٤٥) .

يناوله حلى زوجته بعد غمسها فى مزيج مجهز من قبل . فيتنـــاولها الأستاذ ويحركها فوق آنية صغيرة تحتوى على البذور . ويظن الأهالى أن هذه العملية تزيد فى خصب البذور » (من المهم أن يلاحظ هنـا أن تأثير النساء الغيبى مرتبط بتأثير الرئيس العظيم .) . « وهناك قبائل أخرى تنزل فى أماكن قاصية لا يستطيع زيارتها، لذلك ترسل إليه الرســـائل فى طلب قطعة من النسيج الأبيض وقليل من تراب الذهب أو الفضة لتدفنه فى حقولها ، وبذلك تحصل على نفس النتيجة التى تحدثها زيارته . وكان إذا دخل إحدى القرى اجتمع حوله النساء وغسلن قدميه بالماء ثم بلبن النرجيل الطازج ثم بالماء من جديد ، واحتفظن بـكل هـذا السائل الذى مس جسمه لتوزيعه على المزارع . وهم يعتقدون أنه يضمن لهم حاصلا موفورا . وقـد لاحظت ذات يوم ضعف حاصل الارز لدى قبيلة سمبـان Samban ، ولما سألت الرئيس عن السبب أجابنى من فورة بأنه لم يكن فى استطاعتهم أن يحصلوا على خير من هذه النتيجة لأن الراجا لا يزورهم مطلقا . ثم رجانى فى أن أتدخل لدى الأستاذ بروك لـكى يأتى لرؤيتهم فيقضى على الأسباب التى تضر بالحاصلات [١] » .

وبالقرب من بحيرة توبا Toba فى سومطرة تسمى الرياح باسم الجهة التى تهب منها أو باسم رئيس هذه الجهة . وهذا يدل على أن قبائل البتاك Battak لا يعتبرون رئيسهم السيد المطلق للأشياء والناس فحسب ، بل يعتقدون أنه إله على نحو ما ، أو على الأقل ممثل للاله . ولذلك كانوا لا يفهمون معنى قولنا لهم : « إننا لا سلطان لنا على الريح . (٢) » وتوجد لدى جماعات افريقية الجنوبية تصورات جماعية من هذا القبيل ، وقد أدت أيضا إلى نشوء عادات مماثلة لتلك العادات : « تنظر قبائل (الماتبليه matébélés) إلى ملكها على أنه سيد السموات والأرض . فإذا امتنع مثلا عن إنزال نعمة المطر المخصب للأرض بالقـــدر الذى يريدونه ، هلعت

---

(١) هولو Hugh Low : Sarawok ، ص ٢٥٩ — ٢٦٠

(٢) Berichte der rheinischen Missionsgesell schaft ، ١٩٠٤ ص ١٠

قلوبهم على الفور واعتقدوا أن انقطاع المطر يرجع إلى أن قلب الملك محنق أو مريض أو أسود (يستعملون هذه العبارات كلا منها مكان الاخرى دون تفريق[1] . » ، وأنه لن يرسل المطر إلا إذا انقشعت عنه هذه العواطف وحلت محلها عواطف أخرى خيرة . فيسعون من فورهم إلى اكتشاف أسباب هذه الغمة ، وهم يحصرونها غالبا فى سبب واحد : وهو الادعاء بأن إحدى المدن أو أحد الاقاليم قد ارتكب جريمة ما احفظت قلب الملك . ولا بد من التكفير فى هذه الحالة ، وهو ينحصر غالبا فى هدم بعض المدن وسبى نسائها وأسر اطفالها أو تشتيتهم، لأن هذه هى الوسيلة الوحيدة لتهدئة غيظ الملك والقضاء على وباء الجفاف[2] . »
نرى من هذه الملاحظة أن إدارة الرئيس لا تلعب دورا جوهريا فى التأثير الطيب الذى تباشره على قوى الطبيعية المحيطه به (على المطر فى الحالة الراهنة) ولكن الحالة التى تسيطر على « قلبه » هى التى تتحكم فى هذا التأثير . وقد يصبح هذا القلب « أسود » بسبب انتهاك بعض الناس لاحدى المحرمات فى محيطه المباشر أو غير المباشر ، وقد يجهل هو ذلك ؛ ولكن جهله به لا يمنع من سخط القوى الخفية . فالأمر يتعلق إذن بتأثير غيبى ينبعث من الرئيس ، أى من ماناه mana الشخصية التى تشع فيما حوله والتى يستحوذ عليها بمقتضى اشتراكه فى وظائف العالم الخفى .

— ٤ —

هذه هى الحال فى ميدان الزراعة ، وهو أحد ميادين النشاط السلمى . فإذا تركناه إلى الحرب التى يكثر وقوعها بين الجماعات المتأخرة ، وجدنا أن العقلية البدائية تؤول حوادثها بهذه الطريقة عينها فتعتقد أن النجاح فيها يتوقف على ضروب من المشاركة مشابهة للسابقة : « يبدو أن سكان فرنسا الجديدة يؤمنون بسيطرة القدر على نتائج الحرب . فهم لا يعزون الانتصار

---

(١) انظر ماتقدمه فى الفصل التاسع ، ص ٣٣١ .
(٢) Missoins evangéliques ، مجلد ٣٩ ، ص ٤٦١ — ٦٢ (توما)

فيها إلى قوة جنودهم وشجاعتهم ، ولا إلى حسن قيادة ضباطهم بل إلى القدر أو « ما نيتو » mani tou الذى يهب طعام إحـــدى الأمم إلى غيرها ، إذا طاب له ذلك ، ولهذا يلتزمون الصوم رجاء أن يتصل بهم هذا « المانيتو » ويظهر لهم ليلا ويخاطبهم بقوله :« سأعطيك طعاماً من طعام أعدائك ؛ فاذهب للبحث عنه[١] . » وكان من عادات الكريكيين Creeks ، أنهم لايسمحون للحملات الحربية بمغادرة المدينة إلا بعد أن يضعوا على رأسها رجلا ذا شجاعة جسميه مجربة ومهارة حربية عظيمة ،وأن يصحبون برجل آخر يسمى « هوبايا Hobaya (النبى) ، يشترط فيه أن يكون ضليعاً فى الأناشيد والاحتفالات التى تضعف العدو وتضرب على أبصار جنوده بالعمى ؛ وأن يكون قديراً على التنبؤ بنتيجة الغارة الحربية أو رحلة الصيد[٢] . » وتدل الرواية الآتية على ماالهؤلاء السكان أنفسهم من ثقة عمياء فى القوى الخفية التى يستطيع قيادتهم إلى النصر . « كان « الكريكيون » يدبرون القيام بضربة قاضية ضد ذوى الأقدام السوداء ، فحشدوا لهذا الغرض كل القوى التى تحت أيديهم وتبلغ أكثر من ثمانمائة رجل . وقبل أن يذهبوا للقاء العدو لجـــأوا إلى كل أنواع الشعوذة والسحر لكى يضمنوا نجاح الحملة . واستقر رأيهم على أن يضعوا على رأس الجيش فتاة معصوبة العينين لتكون مرشدة لجميع المقاتلين . وقرروا أن يكافئوا هذه البطلة ، إذا نجحت الحملة ، بتزويجها من أشجع محارب لديهم . فلما تم لهم ما أرادوا ساروا مفعمين بالثقة والزهو ، وراحوا يتبعـون مرشدتهم الغريبة خلال التلال والوديان والاخاديد والغدران . وكانت تتجه بهم يوما نحو الجنوب ويوما نحو الشمال وآخر إلى الغرب ، ولكنهم لم يأبهوا لهـذا التحفظ العجيب ، لأن

---

(١) Relations des jésuites ، مجلد ٥٨ ، ص ٥٤ (أوتا جاميس)

(٢) ف . ج سبيك The Creek Indians of taskigitown : F. G. Speck

Memoirs of the Ameriaan Anthropolgical Associstion مجلد ٢ ، ص١١٤ .

المفروض أن « مانيتو » الحرب هو الذى تصيدها . واستمر الكريكيون المفتونون على اقتفاء أثر الهندية العمياء(١) . » ويقول شارلفو Charlervoix « على من يريد أن يتولى القيادة (فى كندا) ألا يحلم بحشد الجنود قبل أن يصوم بضعة أيام . ويجب عليه فى أثنائها أن يطلى جسمه بالسواد ، وأن يمتنع عن الكلام ما استطاع إلى ذلك سبيلا ، وألا يكف عن دعاء روحه الحارسة ليلا ونهاراً وأن يراقب الأحلام بعناية خاصة ...

وبعد انتهاء الصيام يسخنون شيئاً من الماء ويغسلون به جسم الرئيس ويصفون شعره ، ثم يدهنونه بالشحم أو يطلونه بطلاءما . فإذا انتهى طلاؤه على هذا النحو ، غنى أنشودة موته بصوت أصم . ثم يتقدم منه جنوده ، أى كل الذين تطوعوا لصحبته (إذ أنهم لا يقسرون أحدا على الخروج) فيترنم كل منهم بأنشودته الحربية . لأن لكل فرد أنشودته التى لا يسمح لغيره بانشادها ، كما توجد أناشيد خاصة بكل أسرة . . فإذا ما انتهوا من الأناشيد أقبلوا على الرقص ... فى حركات تصويرية مليئة بالنشاط والحيوية . وهى حركات تمثل بعض العمليات الحربية وتنطوى مقاطعها على نصيب كبير من الانتظام والرتابة . وفى العادة ينتهى هذا الحفل بوليمة(٢) . » فكل هذه الطقوس التى تستمر حتى رجوع المحاربين من حملتهم ، ولا تكف بعد نفورهم بأية حال ، ذات صبغة غيبية . وهى تهدف إلى ضمان تعضيد القوى الخفية . « يستخرجون الفؤول من كل شيء . ويقع تفسير هذه الفؤول على عاتق المشعوذين . فنراهم يقدمون الركب ويوجهونه كما يحلو لهم . يعسكرون قبل غروب الشمس بزمن طويل . ومن عاداتهم أن يتركوا

---

(١) الأب دى سمت De Smet Vayages dans l' Amérique septentrionale : ص ١٥٠ — ١٥٢ .

(٢) الأب ف . كز دى شارلفو de charlevoix : Journal d'un voyage dan l' Amérique septentrionale ج ٣ ، ص ٢١٦ — ١٨ .

أمام المعسكر فراغا كبيراً ، محاطاً بالأوتاد ، أو بالأحرى بشبابيك تتكون من أوتار متعارضة ، ويضعون فوقها « المانيتوات » متجهة نحو الجهة التى يريدون الذهاب اليها . وهناك يستمرون فى التوسل إلى هذه « المانيتوات » ساعات طويلة ، كما كانوا يفعلون فى كل صباح قبل الرحيل ، وإذا تم لهم ذلك اعتقدوا أنهم أصبحوا فى مأمن من كل خوف ، إذ يفترضون أن الأرواح تقدم لهم مقام الحراس من تلقاء نفسها ، ولذلك يضطر الجيش جميعه فى النوم ثقة فى حراستها له .. وما دام المحاربون فى بلاد العدو ، فانه يحرم عليهم إيقاد النار والصيد والصياح ، بل لا يصح لهم أن يتكلموا فيما بينهم إلا بوساطة الاشارات(١) . (كان هنود أمريكا الشمالية يستعملون لغة الإشارات) .

كانت النظم الاجتماعية والظروف الاقتصادية السائدة لدى قبائل « الكفرة » فى أفريقية الجنوبية تختلف عنها لدى « الايروكوا » Iroquois والهورون Hurons ومع ذلك فاننا إذا أخرجنا من حسابنا هذه الاختلافات ، وجدنا أن قبائل الكفرة تتصور الحرب وتمارسها بطريقة مماثلة لطريقة الايروكيين : « إذا أراد رئيس من رؤساء « الزولو » أن يحارب رئيساً آخر ، أسرع إلى ممارسة السحر ضده ، فيحاول الحصول على شىء ينتسب اليه ، ثم يغسل جسمه « بالانترليزى » interlezi (وهو ماء تنقع فيه أنواع مختلفة من النباتات) لكى يتغلب على خصمه حين تبدأ المعركة ، والواقع أنه يعتقد أن الخصم قد هزم بالفعل وقبل بدء المعركة ، ما دام قد حصل على شىء ينتسب إليه وباشر عليه السحر . وإذا فرت بهائم العدو حاول الجنود أن يستولوا على شىء من فضلاتها ، أو من الأرض التى طبعت عليها آثار أقدامها ، وأحضروه لرئيسهم ؛ فيتناوله الرئيس ويضربه كما تضرب القشدة ، ثم يجلس فوقه . وحينئذ يقول المحاربون : الآن رئيسنا

---

(٢) المرجع نفسه حـ ٣ ، ص ٢٣٦ ــ ٧ (قبائل الايركوا والهورون)

يجلس فوقهم، وقد أكلهم بالفعل، وسنجدهم(١).. وإذا التقوا بهم، صاحوا بقولهم «إن طب رئيسنا طب حقيقي.»

نرى من ذلك مقدار استعداد العقلية البدائية للنظر إلى الحادثة التي لم تقع بعد على أنها قد وقعت في الوقت الحاضر بالفعل، ما دامت قد وثقت من وقوعها لأسباب غيبية، لذلك لما كان هؤلاء المحاربون قد أجروا العملية السحرية الناجعة، فانهم يعتقدون أن الهزيمة قد حلت بالعدو منذ تلك اللحظة ويعتبرون أنهم قد استولوا على بهائمه استيلاء حقيقيا. فهم لا يعتقدون أنهم بسحرهم قد أعدوا للنصر وسائله وأقاموا صروحه فحسب، بل يعتقدون أنهم قد كسبوه بالفعل؛ لأن نتيجة الحرب لا تتوقف على ما يقوم به المحاربون في ميدان القتال بل على ماقررته القوى الخفية بشأنها مقدماً. وهذا يفسر لنا ضروب الرقى الغريبه التي تكلم عنها اشتنشتين Lichtenstein، وقال: «إن رجل الدين يخص بها الحيوانات حينما تلوح حرب في الأفق»، والغرض منها حماية هذه الحيوانات من استيلاء العدو عليها بالقوة، وذلك لأن العمل على تملكها كثيراً ما يكون سبباً في اشعال الحرب(٢)». ولذلك يبادر الرئيس باستخدام سحره في مقاومة سحر الخصم المزعوم قبل أن يقع عبأ سكوكوني Sekukuni سحرته، وكذلك فعل مابخ Mapoch وحاول كل منهما أن يحطم قوة عدوه بوسائل فوق طبيعية. وذات صباح استولى الرعب على المايتبلبين Méíébélé حين وجدوا على باب مدينتهم سفطافيه رأس كيركون ضخم ينظر إليهم بعين ملؤها الشر. وكان لابد من اجتماع السحرة لافساد شر هذا الضيف المخيف... ويلاحظ أن كثيراً من أهالي أفريقية يمارسون ضربا شنيعا

(١) ك. ه كلوى The religions system of the Amazulu، ص ٣٤٥

(٢) ه اشتنشتين Reisen in süldichen Afrika ج ٢، ص ٥٤٢

من السحر يعتقدون أنه قادر على تحطيم العدو . وهو أن يسلخوا أحد الأسرى ويدبغوا جلده ثم يستعملوه فى صنع التعاويذ المقوية[١] . »

وقد تكلم الأستاذ كويار Coillard عن وجود ظاهرة عند البارتسيين Barotse، تشبه تلك التى رأيناها منذ قليل عند « الكريكيين » شبهاً غريباً ، وهى اعتمادهم فى توجيه سير الجيش على فتاة يفترضون أنها ملهمة من قبل القوى الخفية ، « وهى ليست تلك الفتاة .. التى تتبع الكتيبة لتبيع للجنود بعض ما يحتاجون إليه ، بل نبية الكتيبة التى تختار بوساطة نظام العرافة ، ولذلك تصبح ترجمان الآلهة ، فلا يبرم أمر بدونها ، وهى التى تعطى علامة المسير والتوقف ، وتحمل القرن الذى يحتوى على طب الحرب وطلاسمها .. وتظل دائما على رأس المقدمة ، ولا يسمح لأحد بأن يتقدمها ولو فى أثناء الراحة . وإذا تعبت أو مرضت تعين على الشبان أن يحملوها . وهى التى تطلق أول قذيفة من البندقية حين التحام الجيشين ، ولا يسمح لها بالنوم أو الجلوس إلا للأكل أو الشرب . وعند العودة تكافأ هذه النبية الشابة على خدماتها بأن تصبح إحدى المثوريات ma ori ، أى احدى زوجات الملك[٢] . »

ويلعب العرافون فى الكنغو نفس الدور الذى يلعبونه فى أمريكا الشمالية وإفريقية الجنوبية . وهم الذين يشيرون على قومهم باتخاذ القرارات ولا سيما حين يدعوهم الشك فى النتيجة إلى التردد . فيباركون من شاءوا ويلعنون من شاءوا ، ويستنزلون النكبات على العدو . ولما كانوا يعرفون أن لدى العدو سحرة آخرين ينافسونهم ، فإنهم يجتهدون فى قتلهم بوساطة التراتيم .. ويفخرون بأنهم يعرفون عن طريق الوحى كل ضروب النصر والهزيمة ،

---

(١) ميرنسكى Merensky: Eriennerungen aus dem Missisnnl eben in S. O. Afrika ، ص ١٦٣ — ١٦٤ .

(٢) Missions évangéliques ، مجلد ٦٣ ، ص ٣٧٧ — ٧٨ .

وأنهم ينفذون إلى قرارة القلوب ويستحوذون على علم تام بكل ما يجرى في عالم الشهادة وعالم الغيب[١] » . « يعتبر اقتراب وقوع الحرب بين قريتين إيذاناً بقيام نشاط عظيم بين رجال الطب فى كل منهما . إذ يجب عليهم أن يستخدموا علمهم فى اكتشاف نتيجة الحرب التى ستندلع ، وأن يعدوا الطلاسم لحماية المحاربين من الأسلحة النارية والرماح والسهام إلخ[٢] » . « وتعتقد قبائل البنجالا أن الغرض من الأشرطة التى يضعها الضباط البيض على ملابسهم ينحصر فى تحصين هؤلاء الضباط ضد الجراح ، فهى فى نظرهم طلاسم سحرية[٣] » . وهم يرجعون الشجاعة نفسها إلى أسباب غيبية . فتسمعهم يقولون : « كيف يتأتى للأبيض ألا يخاف مع ضعفه وفقدانه القوة التى يصمد لنا بها ؟ لا بد أنه يملك طلسما يجعله غير قابل للإصابة[٤] » . وترينا القصة التالية بعض الأفكار التى تراود الأهالى فى هذا الصدد ، يظنون أن لدينا طلباً سحرياً يحصننا ضد الهزيمة بل يجعلنا غير قابلين للإصابة . فمن ذلك أنى كنت ذات يوم أجلس بالقرب من منكوكوى Mankokowe بعد وصولنا هذا القطر بزمن وجيز . وكان معى طبيبنا الأستاذ دكنسون Dickinson ثم رئيس القرية . وفجأة بدت على الرئيس علامات العطف نحوى ، فلف ذراعه حول عنقى ؛ وفهمت من ذلك أنه يريد منى أمرا . والواقع أنه لم يلبث أن قال لى : أهذا رجل الطب الخاص بكم ؟ ولما أجبته بالإيجاب ، طلب منى أن أسأل صديق أن يعطيه شيئاً من

---

(١) كافتزى Istorica descrizione de' tre regni Congo, Matamba ed Angola ، ص ٢٢٦ .

(٢) جليف ، E. J. Glave : Six years of adventure in Congoland ، ص ١٠٤ — ٥ .

(٣) الفس ج . هـ . ويكس ، J. H. Weeks : Anthro pological notes on the Bangala of the upper Congo - river فى : J. A. I. ، مجلد ٤٠ ، ص ٣٩٢ — ٣٩٣ .

(٤) هـ . فون فسمان ، H. von Wissmann : My sceond journey through Equatorial Africa (الترجمة الانجليزية) ، ص ٤٧ .

طبنا الخاص بالحرب . فضحكت من أعماق قلبي وقلت إننا لا نملك سحراً من هذا القبيل ، فلم يصدق ذلك ، ثم قال : « هذا غير صحيح ، إن عندكم طباً للحرب ؛ لابد أن يكون عندكم ذلك ، ولكنكم تضنون به على . فأتوسل إليك أن ترجوه إعطائى شيئاً منه ، فأخبرته بأنى أقول الحقيقة ، وأننا معاشر الإنجليز لا نملك طباً للحرب غير شجاعة قلوبنا . فلم يصدق ـ ثم قال :

كلا ، هذا غير صحيح . هـذا مستحيل . أنا أيضاً شجاع القلب ، ولكن ما ميزة الشخص الذى يحمل قلباً شجاعا ؟ إن القلب الشجاع وحده لا ينفع بشئ . فأفراد قبائل « المنجانجا » manganja شجعان القلوب . وقد أغارت قبائل « الأجاوا » Ajawa على بلادهم ، فتقدموا لقتالهم ، ولكنهم لم يكادوا يرون جيوش الأجاوا حتى ولوا الأدبار . فلماذا ؟ لاشـــك أن ذلك لا يرجع إلى انعدام الشجاعة ، بل أن سحر الأجاوا أقوى من سحرهم . أما أنتم معاشر الإنجليز فطبكم أقوى من طب الأجاوا أنفسهم . (وكان الإنجليز قد بدءوا شمل الأجاوا منذ عهد قريب) . نعم إن لديكم طباً قويا يجعل الإنجليزى الواحد يتغلب على جميع « الأجاوا » ويجعلهم يولون الأدبار . فأرجوك أن تعطينى قليلا من سحركم الحربى(١) . » فيعتقد هذا الرئيس أنه لا يوجد لانتصار الإنجليز إلا تفسير واحد . وأما القول بغير ذلك هراء لا معنى له . فشجاعة الإنجليز لا تكفى لتعليل تفوقهم على خصمهم ، وكذلك مدافعهم وتجاربهم الحربية . فالحرب صراع بين سحرة وسحرة ، بين طلاسم وطلاسم ، والنصر فيها لمن يملك سحرا حربيا أقوى من سحر غيره ، وقد برهنت الحوادث على أن الإنجليز هم الذين يملكون هذا السحر . وإذا كان الأستاذ « رولى » Rowly ينكر هذه الحقيقة فإنه كمن ينكر الشمس فى رابعة النهار . هـذا إلى أنه من

---

(١) القس ج . رولى J. Rowly
The universities mission in Central Africa
ص ١٤٨ ـ ٤٩ .

الطبيعي ألا يرغب الإنجليز في أن يشاركهم غيرهم في هذا السحر العجيب . لذلك لم يدهش الرئيس الوطني لهذا الرفض .

تدلنا هذه التصورات التي نقابل مثلها في كل مكان تقريباً على أن البدائي يعتقد أنه قد كسب الحرب المنتظرة بالقوة ما دام قد أعدها بعناية . في هذه الحالة يتقدم الغالب (ونسميه بالغالب لاعتقادهم أنه قد انتصر بالفعل) دون أن يلاقي مقاومة ، وتخطئ أسلحة العدو مرماه ويغشى على بصره ، وتأبى أعضاؤه أن تطيعه ، وتقع حيواناته في السبي إلخ . والواقع أن البدائيين لا يقومون بهجومهم إلا مفاجأة وفي طرف النهار . وهذه هي طريقتهم في الحرب التي لا يكادون يعرفون غيرها ، وذلك لأنهم يجهلون المواقع المنظمة ، بل إنهم يضحكون من مجرد سماع فكرتها . سألني أحد الرؤساء البتشوانيين ذات مرة عن طريقة القتال عندنا ، ولا أزال أتذكر تلك الدهشة الشديدة التي بدت على وجه حين أخبرته أن الفريقين المتحاربين في أوربا يصطفان كل منهما في مواجهـــة الآخر ثم يتبادلان إطلاق النار . وسألني من باب حب الاستطلاع عما إذا كان كل فريق يظل بعيدا عن متناول الفريق الآخر . فلما أجبته بالنفي صاح قائلا : « يا لكم من مغفلين ! » ثم أراد أن يعرف أين يقف الرئيس . فأجبته بأنه يظل في المؤخرة ويبعث برجاله إلى المعركة ، وحينئذ انفجر الرجل ضاحكا[1] . »

وهكذا تختلف طريقة البدائيين في الحرب عن طريقتنا كل الاختلاف . فالبتشوانيون Bechuans مثلا يقتربون خفية من القرية التي يريدون أخذها حتى يحاصروها تماما . ويتربصون في أماكنهم حتى تحين الساعة الثانية بعـــد منتصف الليل حيث يغط الأعداء في النوم العميق ، ثم يتدفقون إلى الأمام وهم يصيحون صياحا منكرا ، فيقتلون كل من يقابلهم ، وبذلك يحرزون نصراً

---

(١) القس ماك فارلين Mac Farlane Among the canibals of New Guinea ص ١١٥ .

رخيصا على أناس مساكين قاموا من نومهم مفجوعين ، وقد جمدت أطرافهم من هول الفزع ، فلم يبق أمامهم إلا الاستسلام إلى النار التى تلتهم مساكنهم أو محاولة الخروج إلى الطريق حيث تنتظرهم خناجر العدو . »[1] ولكن الغالب ألا يبدأ المهاجمون هجومهم إلا فى أواخر الليل . فعند قبائل « البنجالا » يبدأ الهجوم عند صياح الديكة ، بين الساعة الخامسة والخامسة والنصف صباحا ، فتنهمر الكتل البشريه على أحياء العدو الذى يغط فى نومه ، حيث ينقسمون إلى عصابات صغيرة يتراوح عدد كل منها بين عشرة رجال وثلاثين رجلا ، وتحيط كل عصابة بعشة من عشش الأعداء ليحرسوا بابها الوحيد . ثم يأخذون فى إطلاق الأسلحة وإشعال النار فى العشش ، فيسارع المحاصرون المساكين إلى أبواب عششهم حيث ينتظرهم الموت . ولا يعفى من القتل غير النساء اللائى يؤخذن أسيرات »[2] . وقد يكون المحاربون أقل عدداً من ذلك ولا يحملون من السلاح غير الرماح أو السهام ، وقد يقتلون النساء بدلا من استرقاقهن . ولكن موعد الهجوم ونظامه لا يكادان يختلفان فى جميع هذه البلدان : أعنى برنيو ، بولينزيا ، أمريكا الشمالية ، أمريكا الجنوبية ، الخ ..

نحن لا ننكر أن يكون البدائيون قد تبينوا أن هذا النوع من الهجوم أكثر نجاحا من غيره ، وأن العدو إذا فوجىء على هذا النحو فى أثناء نومه عجز عن القيام بأى مقاومة جدية . ولكنا لا نظن أن حسبان هذه المنفعة هو السبب الوحيد لعادة منتشرة كل هذا الانتشار ، بل لعله ليس السبب الأساسى ؛ فهم يحرصون على أن يكون الهجوم فجائيا ويترتب على ذلك بطبيعة الحال ألا يقوموا به نهارا ، لأن الأعداء قد لا يكونون داخل مساكنهم بل قد يكونون خارج القرية بأسرها ، هذا إلى أن النهار ييسر لهم الاسراع بحمل سلاحهم وإحباط كل محاولة لحصارهم . ولكن لا شك أن صفة المفاجأة يمكن

---

(١) Missions érangéliques مجلد ١ ، ص ٢١ — ٢٢ (كازاليس Casalis)

(٢) Sur le Haut Congo : C. Coquilhat ، ث . كوكيا ص ٢٩٧ .

أن تتحقق بالهجوم فى أعماق الليل ، ومع ذلك فان الأهالى عادة لا يختارون هذه الساعة لأنهم يكرهون الخروج فى الظلام، حتى فى الليالى القمرية، مخافة أن يتعرضوا لبعض المقـابلات الضارة أو الأرواح الهائمة ، وخصوصا أرواح الموتى . فلا يبقى أمامهم إذن إلا الفجر والغسق : « تقوم قبائل الكاى (غينا الجديدة الألمانية) بغاراتها الحربية فى ساعة مبكرة من الصباح دائما . وبذلك تستطيع أن تجد أمامها نهارا طويلا يتسع لشفاء رغبتها فى الانتقام وأن ترجع إلى مقرها فى أمان قبل أن يرخى الليـل سدوله ويخيم الظلام . وهى فى الظلام تخشى أرواح القتلى التى تصبح عديمة الخطر أثناء النهار [1] » . ولا يختلف الحال عن ذلك فى إقليم « الشاكو » الذى يبعد كثيرا عن هذه الأقاليم لنفس الأسباب التى تقدم ذكرها : « تقوم الحرب عندهم على المفاجآت . ولكنهم يخشون الخروج فى الظلام فيصطدمون بالأرواح الشريرة ، ولذلك يمتنعون عن الهجوم ليلا ليقوموا به قبل شروق الشمس بقليل . وينتظر الهنود (الغربيون) هذه الساعة ولو كانوا قريبين من العدو [2] » . ولكن المهاجمين فى المناطق الاستوائية والمدارية لا يجدون أمامهم متسعا من الوقت ، لأن فترة الغلس فى هذه المناطق جد قصيرة . ولذلك يجب أن يقوموا بهجومهم فى سرعة البرق .

قد يعتقد القارىء أن هذا الهجوم يكلل دائما بالنجاح ، لأنه لا يعدو أن يكون اغتيالا مدبرا ضد أشخاص نيام ، وليس فيه شيء من مخاطر القتال الحقيقى . ولكنه مع ذلك قد يخفق فى بعض الأحيان . ويقول الاستاذ كوكيا Coquilhat : « قد يحدث أن تستيقظ القبيلة المهاجمة فى الوقت المناسب ، وتدفع المهاجمين بهزيمة مخجلة » . فمن الممكن فى الواقع أن يكون أحد الأهالى مستيقظا فينبه الآخرين . هـذا إلى أن المهاجمين لا يستمرون فى هجومهم حتى نهاية المنطقة

---

(١) ر . نويهاوس Deutsch Neu Guinea ، ص ٦٤ (الكاى)

(٢) فويتخ فريك Fojtech Fric
Eine Pilcomayo Reise in dem chaco central, Globus
مجلد ٨٩ ص ٢٣٣

بالرغم من التفوق الذى تحققه لهم المباغتة ، إذ أن جميع الروايات تتفق على القول بأنه إذا لم ينجح الهجوم فى الحال نجاحا تاما ؛ أو إذا منى المهاجمون بأقل خسارة ؛ لم يلحوا فى الطلب ورجعوا القهقرى فى الحال . وذلك لأنهم يعتقدون حينئذ أن الحظ قد ولاهم ظهره وأن السحر الذى قاموا به لم يحدث أثره ، فتخونهم شجاعتهم ويرون أن كل جهد يبذلونه لا يؤدى إلى نتيجة .

ويثق المهاجمون فى إحراز النصر فى اللحظة التى ينقضون فيها على القرية النائمة . ولكنهم لا يرجعون هذه الثقة فقط إلى مهاجمتهم عددا أعزل لا يستطيع الخروج من عششه دون أن تتناهبه الرماح ؛ بل يعزونها أولا وقبل كل شىء إلى تأثير السحر الذى قاموا به من قبل واعتقادهم أنه أخضع لهم العدو وأسلمه اليهم كما يسلم الرجل المسحور إلى النمر أو التمساح . ولذلك يوقنون أنه أصبح عاجزا عن الدفاع عن نفسه . وكثيرا ما تحقق لهم الحوادث هذا الظن وتتم المذبحة دون عقبة . ولكنهم إذا لاقوا مقاومة غير متوقعة ، أو قتل منهم أحد أو أصيب بجراح بليغة ، أوقفوا الهجوم فى الحال أو انسحبوا راجعين ، لأنهم يرون فى ذلك دليلا على أن ضروب السحر لم تؤثر الأثر الذى كانوا يعتقدونه ، أو أن العدو قابل سحرهم بسحر أقوى منه فابطل عمله ، ولذلك يرون أن الإصرار فى هذه الحالة ضرب من الجنون .

وقد أشار الدكتور نيو فنويس Nieuwenhuis إلى وجود هذه السمة فى بورنيو إذ يقول : « وكذلك من السمات المميزة للحرب التى تقع بين هذه القبائل أن المحاربين لا يكادون يرون قتيلا أو جريحا مثخنا من فريقهم حتى يفروا جميعا. والواقع أنهم يرون فى ذلك ، علامة أكيدة على غضب الأرواح. وتدل هذه السمة فى الوقت نفسه على قوة الأثر الذى تحدثه فى نفوسهم مثل هذه الحوادث[1] » . وينحصر السبب الجوهرى الذى يدفعهم إلى هذا السلوك

---

(١) ا . و نيوفنويس Quer durch Borneo ، ج ٢ ، ص ١٦٧ (بهاو)

فى خوفهم من أن تكون القوى الخفية معادية لهم . ولا يكاد البدائى يحس بذلك السخط حتى ينحنى ويخضع لهذا الحكم دون أن ينبس ببنت شفة . وفى جزائر فيجى « لا يكاد أحد الأهالى يخفق فى ضربة دبرها ، حتى يعدل عن فكرة استئنافها . فإذا أشعل النار فى منزل ورأى أن اللهب قد اطفىء فى حينه ، سلم بالهزيمة ولم يُجدد محاولته . وإذا حاول قوم أن يغتالوا شخصا ما وحال حائل دون هذا الاغتيال ، اعتقدوا أن هذا هو ما قدر فى علم الغيب . وإذا وقع منحوس فى الأسر لم يحاول أن يفر ، وانحصرت كل أمنيته فى أن تنتهى آلامه فى أسرع وقت[1] . » وهذا هو السبب فى أن أولئك الفيجيين أنفسهم يهتمون مقدما باتخاذ جميع الاجراءات التى تضمن لهم النجاة إذا لم تدل بوادر المعركة على انتصارهم من أول وهلة . يقول ووترهوس أيضا . « ومما يلفت النظر أنهم إذا أعدوا للحرب عدتها ، عنوا كل العناية بترتيب الاحتياطات التى يتخذونها فى حالة الهزيمة . فكثيرا ما ينفقون الأيام الطوال فى اعداد « الأرنا » orua (المسالك التى يفرون منها فى حالة الهزيمة) ، مع أن هجومهم لا يستغرق فى العادة أكثر من بضع ساعات[2] » . والفيجيون فى الحقيقة لا تنقصهم الشجاعة ، ولكنهم لا يستطيعون أن يعارضوا القوى الخفية ، ويرون من الحكمة أن يحتاطوا الحالة وقوفها ضدهم .

وكذلك فى أفريقية الاستوائية « إذا تحارب رئيسان ، ولم يعتقدا أن النصر يتوقف على قوتهما وشجاعتهما ، كما قد نظن ، بل أيضا على « ضروب السحر » . فاذا سقط بعض الرجال مثلا من أتباع أقوى الرئيسين ، لم يلبث زملاؤهم أن يتقهقروا ، زاعمين أن ضروب السحر التى يملكونها قد أخفقت . وحيئذ لا يستطيع شىء ما أن يقنعهم باستئناف القتال(٣) . » وأخيرا نجد هذا

---

(١) ج . ووترهوس The King and people of Fiji ص ٣٠٧

(٢) المرجع نفسه ص ٣١٧ .

(٣) ف . س . ارنو Garenganze. F. S. Arnot ص ٢٣٧ .

الاقناع نفسه عند الكريكيين الذين لا يختلفون فى سلوكهم عن الجماعات التى أسلفنا الكلام عنها . وقد رأينا من قبل كيف ساروا بثقة تامه وراء فتاة اتخذوها مرشدة لهم فى حملتهم ، حتى انتهوا بمقابلة حزب معاد لهم ، فأجهزوا عليه . يقول الأب دى سميت de Smet : « وكان من نتائج هذه المقابلة أنها ألقت الرعب فى قلوب المنتصرين أيضا ، لأنهم منوا بسبعة قتلى وخمسة عشر جريحا . ولذلك كشفوا الحجاب عن عينى البطلة وعن « المانيتوات manitons اللاتى كانوا قد اعتقدوا أنها موالية لهم . وذلك لأنها قد أظهرت الآن عدم تعضيدها لمشروعاتهم الحربية . ومن ثم تفرق المحاربون على عجل ، وسلكوا أقرب الطرق للعودة إلى بيوتهم[1] . »

يبذل الأهالى عناية فائقه فى صنع الأسلحة التى يستعملونها فى الحرب . والواقع أن هذه الأسلحة كثيرا ما تكشف عن حذق عظيم يجعلها مخوفة قاتلة . ولكنهم لا يعتقدون أن حالتها ترجع إلى صفاتها المادية المرئية فحسب ، بل تتوقف أولا وقبل كل شىء على خاصتها الغيبية التى تتوفر لها بوساطة ضروب « الطب » أو العمليات السحرية التى تجرى عليها . لذلك تعتبر أسلحة المحارب مقدسه ؛ وفى غالب الأحيان لا يجرؤ أحد سواه على لمسها . وهم يحيطونها فى زمن السلم باحتياطات لا عداد لها ، ليركزوا فيها ذلك الأثر السحرى الذى يضمن لها النصر ويحفظوه من الضياع .

كذلك فى بمرانيا الجديدة [شبه جزيرة الغزال] : كانوا فيما مضى يحتفظون بالهراوى فى بيت « الماليرا » malira ، وهى عشة تبنى خصيصا لتحفظ فيها « ضروب السحر » وجميع الأشياء التى تمت إليها بصلة . . . وكانوا إذا أزمعوا القيام بحرب ذهبوا إلى العشة وتلوا التعاويذ المعتادة على الهروات التى فيها ثم أخرجوها . وقبـــل ذلك يكونون قد دلكوها بالماليرا (وهى ورقة ذات

---

(١) الأب . ج . دى سميت voyage dans l'Amérique septentrionale ص ١٥٠ — ٥٢ .

خصائص سحرية)، أو ربطوا شيئا من هذه الوقة لكل هراوة من الهراوات ولكل نوع من أنواع الهروات ماليرا خاصة به . . . وكانوا يهدفون من هذه العمليات السحرية إلى جعل الهراوات قاتلة تكفى ضربة واحدة منها لإلقاء العدو أرضا . وكانو يرعمون أن هذه العمليات والهراوات نفسها قد جاءتهم من بعيد جدا(١) » . ونعثر على مثل هذه الاجراءات فى « بوين » Buin (جزيرة بوجا نفيل Bougainville) ، وهى غير بعيدة عن الاقليم السابق . « انهم يعوّذون الرماح لكيلا تخطىء مرماها ، ومن عاداتهم أن يقيموا لهذه المناسبة حفلة رقص تكريما للموتى . وفى أثنائها يقرعون الرماح فتنكسر سنانها إذ يقذفونها فى هدف يتكون من جثة رجل مات فى حادثة عنيفة (بمناسبة بناء بيت للرئيس مثلا) . وبعد ذلك يجمعون الرماح التى أصابت الهدف ، ويشحذون أسنانها من جديد ثم يريشونها(٢) » .

نأخذ من ذلك أن الأهالى لا يكتفون بأخضاع أسلحتهم للعلاج السحرى ، بل يحرصون على ألا يختاروا من بينها إلا تلك التى أثر السحر فيها ليستخدموها دون سواها ، أى أنهم يعملون على اختبارها قبل استعمالها . ولا شك أننا نحن أيضا نفعل ذلك بالنسبة لمدافعنا ، ولكن هذا الاختبار عند البولينزيين ذو صفة غيبية ، كالأسلحة التى يجروبه عليها تماما .

ذكر الأستاذ كدرنجتون Codrington أن سهامهم مسمومة ، ولكن على غير المعنى الذى يفهمه الأوربيون من هذه العبارة . « يريد الميلانيزيون ، أو فريق منهم على الأقل ، أن يضمنوا السهم قدره خارقه (مانا) على اثخان الجراح . وينحصر مصدر هذه القدره فى المادة التى تصنع منها السهام أو فى الصفات التى تكتسبها من الطلاسم وضروب الاعداد السحرى التى تجرى عليها . . لذلك يصنعون سن السهم من العظم البشرى لأنه يحتوى على

---

(١) ر . باركنسون Dreissig Johre in der Südse in ص ١٣١ — ١٣٢ .

(٢) ر . ترنفالد Im Bismarck Archipel und auf den Salomon Inseln فى : Zeitschrift für Ethnologie ، مجلد ٤٢ ، ص ١٢٨ .

شيء من « المانا » ، ويثبتونه في السهم بوساطة عمليات سحرية جبارة ليزيدوا مقدار ما فيه من « المانا » ثم يصبغونه بمادة حادة محرقة لكي يحدث جراحا حادة محرقه . ويقوم بتجهيز هذا الطلاء « أطباء » السهام التي نصفها نحن بأنها مسمومة وإن كان البدائيون أنفسهم لا يعرفون هذا الوصف . وإذا قذفوا هذا السهم في عدو فأحدث به جرحا ، عملوا على مساعدة الأثر المحتوم الذي أحدثه هذا الجرح وإطالة الألم الذي يحدث منه . فيعمدون إلى استعمال نفس السحر الذي استعملوه في صناعة الرمح لتزويده بقدرته الخارقه . » أما أقارب الجريح « فيسعون إلى مقاومة هذا التأثير ، فيستخرجون السهم من جسمه إذا كان بقي كله أو جزء منه ، ثم يضعونه في مكان رطب أو يلفونه في أوراق منداة لكي يخف الالتهاب ، ويتلاشى بسرعة . ولكن الشخص الذي قذف السهم يعمل من جهته على احباط هذا السعي ، فيجتمع بأصدقائه ، ويأخذون جميعا في شرب المشروبات الكحولية الكاويه أو المحرقة ، ويمتصون أوراقا حادة الرحيق ، ويحرقون أخشابا مرة أو حادة يثير دخانا مثيرا . ثم يضعون القوس الذي قذف به السهم قريبا من النار ليزيد الجرح الذي أحدثه احراقا ، وقد يدعونه في أحد الكهوف التي ترتادها الأرواح (وهذا يحدث في جزيرة الجزومين) . أو يتركونه مشدودا ثم يجذبونه من حين لحين ، لكي يحدث الجرح توترا في الأعصاب ووخزا « تيتانوسيا » [1] . » وهكذا يعتقد البدائيون أن كل أمورهم تجري في عالم الغيب الذي يحوم فيه أصدقاء الجريح وأعداؤه على السواء . وما نعتبره نحن نتيجة جسمية يعده البولونيزيون نتيجة سحريه وإذا أردنا أن نعبر تعبيرا اسلم ، قلنا اننا نميز بين هذين الأمرين أما هم فيخلطون بينهما خلطا تاما . فإذا وصفنا مثلا أحد السهام بأنه مسموم ، كنا نعني أن سنه قد نقعت في مادة سامه ، أما هم فيعنون أنه يحمل « بالمانا » التي تتابع تأثيرها على الجريح حتى بعد الإصابة .

---

(١) ر . هـ . كدرنجتون The Melanesians: R. H. Codrington ص ٣٠٨–٦٠

لا نريد أن نسترسل فى سرد تلك العادات التى لا يكاد يخلو منها مكان . ولكننا نكرر القول بأن هؤلاء الناس لا يثقون إلا فى الأسلحة التى أخضعت لإعداد سحرى خاص . فمثلا « تستخدم قبـــائل « الماكولولو » فى أفريقية الجنوبية ،سحرا يسمى « سحر البندقية » وتعتقد إعتقادا جازما أنه لا يمكن لأى رام أن يطلق الرصاص فى خط مستقيم بدون هذا السحر [(١)] . » وكل ما يجرونه على الأسلحة التى تستعمل فى الحرب ، يطبقونه أيضا على الأسلحة التى تستعمل فى الصيد البرى أو البحرى وعلى جميع العدد والآلات بصفة عامة ، إذ أنهم يعتقدون أن جودتها تتوقف أولا وقبل كل شىء على ما فيها من « المانا » ، ونتيجة الاستعمال وحدها هى التى تبين فى أغلب الأحيان مقدار المانا الذى تحتوى عليه الآلة . وهكذا « يرى أهالى قبائل « الدينيه » Déne أن كل شىء يحتوى على سر غامض . وقد نراهم يضيفون صفات غير قابله للتعليل فى كثير من الأحيان إلى آلة أو سلاح صيد برى أو أداه صيد بحرى إذا واتاها الحظ ولو عن طريق المصادفه ، ودون مراعاة لقيمتها الذاتية أو لتركيبها الخاص ، ويبدوا أن المبدأ القائل " post hoc , ergo propter hoc " (عقب ذلك ، إذن بسبب ذلك) هو القاعدة التى يبنى عليها هؤلاء الناس كل أحكامهم . فمثلا نراهم يفضلون شبكة عتيقة مهلهلة طرحت مرة فى الماء فوقعت مصادفه فوق كومة سمك ، على شبكة جديدة لم تستعمل إلا مرة واحدة ولكن فى مكان يخلو من السمك . وهم يعزون إلى هذه الأشياء الصماء مواهب فوق طبيعية كالتى تعزى إلى الأشخاص (٢) . » هـــذه الملاحظة الأخيرة للأب « موريس » ملاحظة صائبه إلى أقصى حد . لذلك كان يجدر به ألا يعقب عليها بقوله أنهم يسيرون على مبدأ (عقب ذلك ، إذن بسبب ذلك) ، لأنهم فى

---

(١) د . لفنجستون Missionary travels and researches in South Africa ص ١٥٧ ـ ٥٨ .

(٢) الأب ا . ج . موريس A. G. Morice : فى The great Déné race Anthropos مجلد (١٠ ، ١) ، ٤١٦ .

الواقع لا يؤمنون بالمصادفة مطلقا . فإذا كانت الشبكة البالية قد أتت بسمك وافر فمعنى ذلك عندهم أن السمك قد دخلها طائعا مختارا . ولاشك أنه فعل ذلك تحت تأثير خفي جذبه إليها، ولابد أن يكون هذا التأثير راجعا إلى صفة سرية كثيفة موجودة في الشبكة . ولذلك يجب عليهم أن يحتفظوا بهذه الشبكة العتيقة التي برهنت على قدرتها وأن يتخلصوا من الشباك الأخرى ولو كانت جديدة . ومن قبل قال هيرن Hearne عن سكان هذا الأقليم عينه : «كثيرا ما نراهم يبيعون شباكا جديدة لم توضع في الماء إلا مرة أو مرتين، لأنها لم تصادف نجاحا [١] » . نعم فلتكن هذه الأدوات جديدة محبوكة الصنع كما تشاء، ولكن ما فائدة الاحتفاظ بها، إذا كان ينقصها العنصر الجوهري، ألا وهو الخاصة السحرية التي تؤثر على السمك ؟

وكذلك يفعل « الكيانيون » في برنيو، فيحكمون على قيمة الأسلحة تبعا للتوفيق الذي تصادفه طلقاتها . « إذا استطاع صياد أن يقتل خنزيرا بريا أو وعلا برصاصة واحدة ، استخرج هذه الرصاصه من الجثة ليذيبها مع رصاص آخر ثم يصنع من المزيج الناتج رصيدا جديدا من القذائف أو السبائك، مقتنعاً بأن الرصاصة التي واتاها الحظ تستطيع أن تلقح كتلة المعدن بأسرها وتنفث فيها بعض السحر الذي وهبها النجاح . وهم يطبقون شيئا من هذا القبيل على البذور التي تستخدم في الزراعة [٢] » .

هذا هو سلوكهم تجاه الشيء إذا حالفة التوفيق ، أما إذا لم يوفق فإنهم يقفون منه موقفا عكسيا . « إذا هدم الحريق جزءا من منزل أحجم الأهالى عن إستخدام شيء مما أبقت عليه النار في تشييد منزل جديد، لأنهم يشعرون شعورا مبهما بأن استعمال المواد المأخوذة من المنزل المحترق يعرض المنزل

---

(١) س. هرن Hearne : A journey from the prince of Wales's Fort in Hudson's Bay to the Northern ocean (ملاحظة) (١٧٩٥)، ص ٣٢٩.

(٢) هوز Hose وماك دوجال Mac Dougall : The pagan tribes of Borneo، جـ ١، ص ٢٠٤ .

الجديد لنفس المصير ، كما لو كانت هـــذه المواد تصيبه بعدوى النحس اللاصق بها . »

وفى « ساموا » Samoa « يحكم الأهالى على الأشياء بالسعد أو بالنحس فيعتبرون هذا الشيء سعيداً وذاك منحوساً مثلا ، ويعتقدون أن هذه الزوارق أو تلك السفن أقدر من غيرها على اجتذاب السمك وكلاب البحر . وكذلك يحكمون على الأسلحة بالشجاعة أو الجبن[1] . »

وتوجد السمات التى من هذا القبيل بوفرة فى الجماعات البدائية الافريقية. وهذه بعض أمثلة منها : « ينظر الكثيرون من أفراد « البشمان » بعين الاحتقار إلى السهم الذى اخطأ هدفه ؛ ولو مرة واحدة . أما إذا أصاب فانه يزداد قيمة فى نظرهم . لذلك يفضلون أن يصنعوا سهاما جديدة على أن يحاولوا جمع السهام التى استخدمت دون نجاح لاستخدامها من جديد ، مهما كلفهم ذلك من جهد ووقت(٢) . »

وإذا اتفق لسلاح معروف باليمن أن اخطأ الصيد مرة ، اعتقدوا أن طلسما أقوى من طلسمه أثر عليه ليشل من فاعليته ، لأنه لا يمكن أن يكون للإخفاق سبب آخر غير هذا . « كنت إذا قضيت يوما فى صيد الجاموس أو فرس البحر ، رجعت على العموم بواحد من هذه الحيوانات على الأقل . وحدث ذات مرة أن قضيت يومين متتاليين فى الصيد ، فلم أستطع اقتناص شيء بالرغم من وفرة حيوانات الصيد التى صادفتها . فثبط هذا الاخفاق من عزم الرجال الذين كانوا يصحبوننى واعتقدوا أنه راجع إلى تدخل إحدى الأرواح التى سحرت بندقيتى ، ثم رجونى فى إلحاح شديد أن أصرح لهم بطرد هذا الشر الوافد . وقالوا : أعطنا بندقيتك حتى نطرد هذا « الملوكى » molöki . ولما سألتهم عن الاجراء الذى ينتوون استخدامه ، أجابونى

---

(١) جورج براون : Melanesians and Polynesians,

(٢) ه لشتنشين Reisen im südlichen Afrika ، ج ٢ ، ٤٤٢

بقولهم: « لاشيء غير وضع قناة البندقية فوق النار حتى تحمر، وبهذا تفر الروح الشريرة(١) . »

وفى « لوانجو » Loango ، يخاطر الأهالى أحيانا بالذهاب إلى الصيد فى أشد حالات البحر هياجاً ، إذا رأوا أنهم سيعودون بصيد كثير . وفى هذه الحال يسارع « البنجنجا » Banganga بالذهاب إلى الشاطىء ليضعوا فوقه بعض العصى والخرق وشرائح النسيج وقطع الملابس، الخ . فيكون كل هذا خليطا غريباً يعتقدون أنه طلاسم تساعد على اقتناص الصيد ومنع الشباك من التمزيق ، والسفن من الانقلاب ، والصيادين من الهلاك . وهم إذا وضعوها على الشاطىء لهذه المناسبة ، فانهم يتركونها عادة بعد انتهاء الصيد فى مكانها تحت رحمة الأمواج والرياح . ولكنهم إذا رجعوا بصيد كثير دون أن يصابوا بكارثة رغم الظروف السيئة ، أصبحت هذه « الأوثان » المرتجلة ذات قيمة عظيمة لأنها برهنت على حسن طالعها بصفة استثنائية . لذلك يجمعونها ويحفظونها بعناية لكى يستخدموها مرة أخرى(٢) . » والواقع أن كل تجربة تؤدى إلى نتيجة غير معتادة ، سواء أكانت حسنة أم سيئة ، تعتبر فى نظر البدائيين كشفا يشبه الكشف الذى يحصلون عليه عن طريق العرافة والفؤول . لذلك يجب أن يكون لها عندهم هذا الاعتبار وأن يعدوها رمزاً لرغبات القوى الخفية وأن يرتبوا أمورهم تبعاً لتوجيهاتها . ولا شك أنهم إذا وجدوا وسيلة تمكنهم من الذهاب إلى الصيد فى أمان رغم هياج البحر ، حافظوا عليها بكل قواهم . وهاهم أولاء يجدونها فى تلك المجموعة من الأشياء المتنافرة .

يمكننا أن نضم هذه الظواهر إلى تلك التأملات الدقيقة التى كتبها لنا تالبتسر

(١) ا - ج جليف Six years of Adventure in Congoland ص ١١٧ — ١٨

(٢) الدكتور بيشويل لوشه Die Loango Expedition مجلد ٣ قسم ٢ ص ٤٠٢

Thalbitzer عن بعض التمائم المستعملة عند الإسكمو حيث يقول : «لا يعتقد الأهالى أن التميمة تمثل الحيوان الذى تحاكيه أو الشخص الذى صنعها فحسب بل يعتبرونها كائنا حيا . لأن من صنعها تلا عليها تعويذة سحرية أو طلسما يشتمل على الصفات البارزة للحيوان أو الجزء من الحيوان الذى تمثله . لذلك لا يعبأون بأن تكون التميمة مأخوذة من الحيوان نفسه أو من صــورته ، فقيمتها واحدة فى كلتا الحالتين . ولكن هناك فرقاً دقيقاً بين تصورهم لهذا النوع من التمائم وتصورهم للتمائم التى تنتقل بالميراث من جيل إلى جيل . فهذه الأخيرة تتكون من أدوات لا تصلح للاستعمال ، بل من بعض قطعها فى كثير من الأحيان . وأهميتها لا ترجع إلى الصفات الأصيلة للشئ الذى أخذت منه كما هى الحال فى التمائم التى تتكون من صور بعض الحيوانات ، بل إلى صفاته المكتسبة كأن يكون سلاحا ميمون الطالع بدليل أنه عاد على مالكه السابق بالخير العميم . فيصبح هذا اليمن من نصيب التميمة المأخوذة منه (١) .» والواقع أنها لا تعتبر تميمة بالمعنى الحقيقى للكلمة بل مصدر للتميمة .

وهكذا يعتقد البدائيون أن الصفات المادية والمرئية التى تتصف بها الآلة أو الأداة أمور ثانوية بالنسبة إلى صفاتها غير المرئية والغيبية التى لا يكشف عنها إلا الاستعمال وحده . ولذلك قدتراهم يتوقعون خيرا كثيرا وعونا جزيلا من شىء لا يستطيع المرء أن يدرك العلاقة التى بينه وبين الغاية التى يبتغونها منه ، ما دامت التجارب قد دلت ولو مرة واحدة على أن له هذه الميزة . فعند قبائل «الميدو» فى أمريكا الشمالية «إذا عثر شخص على حجر أو شئ عجيب الشكل أو غريب اللون ، التقطــه وحاول أن يبلو قدرته ، يحمله معه وهوذاهب إلى الصيد أو لقضاء أى أمر آخر . فإذا نجح فى رسالته ، احتفظ به على أنه

---

(١) و. تالبتسر Ethnographical collection from East : W. Thalbitzer »
Meddelserom Groenland. and Greenland مجلد ٣٩ ، ص ٦٣

طلسم ميمون الطالع بالنسبة إلى الأمر الذى جرب فيه [1] . » من الواضح ان هـــذا الطلسم يشبه كل الشبه ما يسميه اللاعبون الرياضيون « وثنا » أو تميمة Fétiche،لذلك إذا انطلق شخص من قبائل «الميدو» إلى الصيد ، لم تكن أسلحته بألزم له من هذا الحجر .

وأحياناً يعتقدون أن الشئ الغريب الذى يعثرون عليه ، يستطيع أن يزودهم بقدرة فائقة على التأثير فى كائنات معينة ؛ ولذلك يعدون تملكه غنما كبيرا . وهذه حادثة من هذا القبيل يرويها الأب دى سميه . « روى لنا بعض أفراد « الكيردالين Coeurs d' Alène أن أول شخص أبيض رأوه كان يحمل غطاء أبيض ويلبس قميصاً من النسيج المخطط باللونين الأسود والأبيض الذى يشبه الجدرى فى رأيهم . فتوهموا أن ذلك القميص المدنس هو « المانيتو » manitou الكبير نفسه ، أى السيد الذى يتحكم فى مرض الجدرى ، وأن الغطاء الأبيض هو « مانيتو » الثلج الكبير ؛ واعتقدوا أنهم إذا استحوذوا على هذين الإلهين وغمروهما بضروب التكريم الإلهى تخلصت أمتهم من ذلك الوباء الفتاك ، وجاد صيدهم الشتوى من جراء ازدياد كمية الثلج العظيمة التى تسقط عندهم . ولذلك عرضوا عليه أن يترك لهم هذين اللباسين فى مقابل عدد كبير من الخيول الجياد . فسارع الرجل الأبيض بقبول الصفقة . ومنـــذ ذلك الحين أصبح القميص المدنس والغطاء الأبيض موضع تقديسهم العميق سنين عديدة . وكانوا فى الاحتفالات الكبرى يحملون هذين « المانيتوين » كما تحمل المقدسات فى المواكب الدينية ، ويضعونها على نتوء جد مرتفع مخصص لإقامة شعائرهم الخرافية . وهناك كانوا يطرحونهما فوق العشب بكل إجلال ، ويقدمون لهما غليون السحر الكبير مصحوبا بضروب الاحترام المعتادة عند الهنود الحمر حين يقدمون هذا

---

(١) ر . ب ديكسون B. Dixon : The Northern Maidu ، فى Bulletin of the American Museum of natural history مجلد ١٧ ص ١٢٦٧ .

الغليون للشمس أو للنار أو للأرض أو للسماء ، ثم تأخذ جماعة المشعوذين أو المطببين كلها فى ترنيم الأناشيد تكريما لها(١) . »

يجب علينا إذا أردنا أن نفهم جيدا ضروب القدرة التى تعزوها قبائل « الكيردالين » إلى هـذين الشيئين ، وأنواع التبجيل التى يضفونها عليهما ألا يغيب عن بالنا أنهم اشتروهما من أول رجل أبيض رأوه . ولا شك أنهم نظروا إليه على أنه كائن عجيب ، أو على الأقل على أنه ساحر خطير ، ومن ثم اعتقدوا أن الشيئين العجيبين اللذين يحملهما مزودان بخصائص عجيبة ، وأن لهما تأثيرا حاسما على الجدرى والثاج اللذين يشبهانهما وأنهما يحملان البركة لهم إذا استحوذوا عليهما .

— ٦ —

لا نريد أن نسترسل أكثر من ذلك فى دراسة الاتجاه الغيبى للعقليـة البدائية على ضوء تفسيرها لأسباب النجاح . ولكننا سنتناول بالتحليل هذه النقطة الأخيرة لاعتقادنا أنها تعضد النتائج التى استخرجناها من النقط السابقة . فقد رأينا أن البدائيين يعتقدون أن الآلات والأسلحه والأدوات ووسائل العمل الأخرى لا تكفى وحدها لضمان النجاح إلا بإرادة القوى الخفية ومعونتها . والوسائل فى نظرهم لا تلعب إلا دورا ثانويا ، وإن كانت لا غنى عنها . وعلى هذه القاعدة يؤسس البدائيون سلوكهم فى الحرب والسلم على السواء ، وقد يتجاوزونها فى حالات معينة سنشير إليها فيما بعد. وبذلك تصبح الوسائل المادية نفسها غير ضرورية فى نظرهم ، ويعتقدون أنهم يستطيعون الوصول إلى غايتهم بقوة الرغبة وحدها دون حاجة إلى أدوات من أى نوع كان .

---

(١) الأب . ج . دى سميه ، Voyages dans l'Ameripue septentrinole ص ٢٣٣ — ٣٤ .

في كوينزلندالشمالية (إقليم تلي رفر (Tully river) » يعتقدالسود أنه إذا رغب أحدهم رغبة شديدة فى أن تصل إحدى الثمار إلى درجة النضوج ، كلف إحدى العناكب الكبيرة بإحضارها اليه ـ فتأتيه الثمرة . ويعتقد أهالى الشاطىء على وجه الخصوص اعتقادا جازما فى هذه الوسيلة لإرضاء رغباتهم [١]. »

وإذا أراد أعضاء قبيلة ما أن يحدثوا ضررا برجل من قبيلة أخرى ، خرجوا من معسكرهم واختاروا مكانا رمليا منعزلا ثم حفروا حفرة فى الرمل وضعوا فى قاعها صورة تقريبية لرجل ، وركزوا خواطرهم حول الشخص المقصود بالضرر ، وقاموا ببعض الترانيم : وهم يعتقدون أنهم ان ينتهوا من ترانيمهم حتى يكون هذا الشخص قد أصيب بالضر فعلا وشعر بحمى عنيفة وأصبح عرضة للموت فى ظرف يوم أو يومين [٢]. » وهذه حالة بدائية من الإضرار بالشخص عن طريق صورته . فأغلب الظن أنهم مقتنعون بأن الصورة الساذجة التى صنعوها بأيديهم تمثل الشخص المحكوم عليه . ولكنهم لا يستعملون معها العنف ولا يباشرون عليها أى فعل مادى ، بل يكتفون بتركيز خواطرهم فى الشخص المقصود وتوجيه تفكيرهم اليه ، لاعتقادهم أن قوة الرغبة كافية لقتله . فإذا ما تم التعبير بالرغبة على هذا النحو اعتبروا أن النتيجة محتومة فى بعض الأحيان.

« كان فرد من الأهالى لا ينى عن إزعاج أحد النازلين البيض . فقال له هذا الأبيض فى لهجة شديدة إنى أريد أن أراك ميتا ، وأنى واثق من أنك ستموت فى بحر عام . فتكلف الرجل الضحك وعدم المبالاة ليخفى حالة الهلع التى استولت عليه . ولما عاد الأوربى بعد ما يقرب من عام سأل عنه ، فعلم أن القلق اشتد

---

(١) و ا.روث Superstition, magic and medicine فى North Queensland Ethnography مجلد ٥ ، عدد ١٠٧

(٢) و . ه . بيرد W. H. Bird Ethnographical notes about the فى Buccaneer North West Australia Anthropos ٦ ص ١٧٧

به حتى انتهى به إلى الموت(١) . » من الواضح أن هذا الشخص قد اعتبر نفسه « محكوما عليه (doomed) لاعتقاده أن الرغبه التى صرح بها غريمه تساوى السحر فى مفعولها وأنها لا بد أن تؤدى إلى نتائج السحر المحتومة : ولاحظ كامبل Campbell وجود هذا الاعتقاد نفسه فى إفريقية الجنوبية فقال « مات والد بيلنجى Belangye ، فورث عنه مواشيه العديدة . ثم حدث أن قتل « البشمان » أخا « ماتيب » Mateebe ، فاتهم ماتيب « بيلنجى » بأنه تمنى حدوث هذا القتل ، واتخذ من ذلك ذريعة للاستيلاء على مواشيه ، وحرق بيوته كلها .. والواقع أن بيلنجى كان ذا عينين غريبتين فيهما اتساع واستدارة يفوقان المعتاد ، ولذلك اعتقد « ماتيب » أو ادعى أنه يعتقد بأن « بيلنجى » يملك قدرة سحرية ، وأنه استعملها فى جعل « البشمان » يقتلون أخاه(٢) . » ومن اليسير أن نرى فى فى هذا المثال مصداق ما أشرنا اليه سابقا (٣) من وجود شبه بين « العين الحاسدة » و « بذرة الشر » التى تحل فى الساحر ، إذ نلاحظ أن هذا الشخص أيضا اتهم بمجرد رغبته فى حدوث شرما . وتنتشر هذه الفكرة نفسها فى إقليم الكنغو وافريقية الغربية . « تبحث قبائل « الواريجا » Warega عن العنصر فوق الطبيعى فى كل شىء . ويعتقد أعضاؤها أن جميع الناس فى مقدورهم أن يحسدوا وأن يصلوا إلى تحقيق ما يريدون بمجرد الرغبة . وهم لا يعرفون كيف يمكن أن يتحقق ذلك ، ولكنهم يربطون بين هذا المعتقد وبين فكرة الضرر الذى يصب على الصورة فينتقل إلى صاحبها(٤) . » ومعنى ذلك أنهم يعتقدون أن كل شخص يستطيع إحداث الضرر عن طريق الصورة ، والسحر عن طريق الرغبة . وفى حوض النيجر « سار بالأمس موكب من زوجات ابن الملك الذى توفى حديثاً . ونزلن النهر للتطهر .. ثم حكم عليهن بتناول سم الاختبار ، مخافة أن

---

(١) ب . سيمان B. Seamen : A missisn to Viti ص ١٩٠ .

(٢) القس ج . كامبل Travels in Soath africa (Second Journay) جـ ٢ ، ص ١٨٤ .

(٣) انظر ماسبق فى الفصل الثامن ، ص ٢٨٠ .

(٤) الكمندان دلهيز Les Warega. Dalheise ص ٢١٣

يكن قد تمنين موت زوجهن ... وكان عـدد هؤلاء التعيسات ستين امرأة، فمات منهن إحدى وثلاثون، أما الباقيات فقد قئن السم بمجرد تناوله. وبذلك كتبت لهن النجاة(١) ». وفى كلبار « اقتربت من المكان الذى ينبعث منه الصياح، وكان يبعد عن البحر بعشرين ياردة على وجه التقريب، فرأيت امرأة مكبلة الذراعين والساقين مربوطة فى قطعة من الخشب ليلق بها فى الماء إذا ماجاء المد، فتصير فريسة لكلاب البحر. ولما سألت عن خبرها، قيل لها إنها احدى زوجات رئيس توفى منذ قريب، وأن أخا الفقيد قرر أن يضحى بها على هذا النحو؛ لأنها تمنت موت(٢) زوجها. »

لاشك أن هذه الظواهر تظل غامضة أمامنا، لو أننا أغفلنا التصورات الجماعية التى تؤدى بهؤلاء البدائيين إلى اتخاذ ذلك السلوك. فيجب علينا أن نعرف أولا أنه ليس من الضرورى أن تكون الرغبة التى يسأل عنها المتهم رغبة شعورية محددة معبراً عنها فى كلمات، إذ قد تطغى على المرأة نوبة من الغضب أو الجزع أو الغيرة، فتتمنى موت الفقيد دون شعور منها أو دون أن تكون على بينة مما تمنت. وقد تنكر التهمة بقوة وبحسن نية، ولكن السم الذى يذهب بحياتها أصدق برهان على كذب ادعائها. وذلك لأنه إذا كانت الرغبة قد جالت بخاطرها ولو لحظة واحدة، فمن الممكن أن تحدث أثرها المحتوم، ولا سيما إذا كانت المرأة تنطوى على بذرة الشر التى تميز السحرة. وهذا ما يمكن التحقيق منه بوساطة السم. بل إن وجود هذه البذرة نفسها غير ضرورى لإحداث الأذى، فالرغبة وحدها تستطيع أن تقتل كما يقتل السحر. ويؤمن سكان هذا الجزء من أفريقية بتلك الفكرة

---

(١) مكريجوار Macgregor وليرد Laird والدفيلد Oldfield.
An Expedition into the interior of Africa جـ ٢٢ ص ٢٧٧—٧٨ (١٨٣٧)

(٢) المرجع نفسه، مجلد ١، ص ٣٤٩ — ٥٠.

تمـام الايمان ، ولا شك أنها هى مصدر التعقيدات التى يشير إليها الدكتور « بشويل لوشه » Bechuel Loesche حيث يقول : « إننا لانشك فى أن بعض الأشخاص يعتبرون أنفسهم من السحرة بأسوأ معنى الـكلمة ، بل يعترفون بذلك علنا . أليس يكفى المرء أن يركز بغضه فى شخص ما لـــكى يصيبه بالأذى ؟ فإرادة السوء تؤدى إلى النتيجة التى تؤدى إليها فعل السوء سواء بسواء ؛ وهى تحدث أثرها بصورة أكيدة كما تحدث أشعة الشمس الحرارة ، والريح البروده . . . وكما يحدث سم النبات وسم الحيوان أثرهما . ومن شأن هذا التصور أن يخلع على المصادفة قوة كبيرة . فقد يشعر أحد الأشخاص بأفـكار خبيثة تجول فى نفسه ثم يتفق أن تتحقق هذه الأفـكار بطريق المصادفة . حينئذ يحس هذا الشخص بقلق فى الضمير ويأخذ فى اتهام نفسه ؛ أو على الأقل يبدو فى حالة تثير ارتياب الآخرين فيه وتشجعهم على اتهامه ، ولا سيما إذا عرفنـــا أن بصيرة الأهالى فى غاية الارهاف بالنسبة إلى كل مايمس العلاقات الشخصية[1] . » فإذا كانت الرغبة فى موت إنسان تساوى قتله بـكل مافى هـــذه الـكلمة من معنى ، فذلك لأن صفتها الغيبية تكفى وحدها لتسديد ضرباتها ، كما هى الحال فى السحر والعين الحاسدة وبذرة الشر المستترة فى الأشخاص الشواذ .

وفى فرنسا الجديدة « يتوهم الهنود أن من يتمنى موت شخص أو يرغب فيه ، يصيب هدفه فى غالب الأحيـــان ولا سيما إذا كان ساحراً . ولـكن الساحر الذى تمنى هذه الأمنية يموت بدوره بعد موت من يتمنى موتهم[2] » . وتعتقد قبـــائل « التينـــا » Tèna « أن رغبات « الشامان » Chaman تتحقق جميعها ، إذا صحبتها إرادة مركزة شديدة ، ويرجع نفاذها بطبيعة الحال إلى تدخل شيطانه المـألوف . ويمكننا أن نجد مثالا من هذا

---

(١) الدكتور بشويل لوشه Die Loango Expedition ج ٣ ص ٣٣٥ — ٣٦

(٢) Relations des jesuites ، مجلد ١٢ ، ص ١٢ (الأب لجين Le Jeune)

القبيل فى رواية «التينا» للطوفان . فقد جاء فيها أن الغراب أراد أن تظهر الأرض من جديد، فعبأ كل رغبته وأنفق فى ذلك مجهوداً أفقده الوعى(١). »
— وعند قبائل « الشستا » إذا قتل القتيل فى بعض ظروف معينة ، عمد أهله وأصدقاؤه إلى الصلاة من أجل أن يموت القاتل أو يصاب بحادثة . فإذا أصيب هو أو أحد من أفراد أسرته بمكروه (التى تشملها الصلوات التينا) عزوا حدوثه إلى هذه الصلوات، ووجب عليهم أن يدفعوا الأقاربه الدية ، كما لو كانوا قد قتلوه أو جرحوه فعلا(٢) » . ويحدثنا الأستاذ سابير Sapir فيقول : « يعتقدون أن الشامان Shaman القوى يستطيع أن يصيب ضحيته بمجرد رغبته فى إصابتها أو بمجرد تسميتها بوساطة « التفكير » ، على حد تعبير الهندى الذى كنت أستق منه هذه المعلومات . وكثيرا ما يعزون إلى بعض الأشخاص الأسطورية مثل «كوايوت» Koyote استعمال هذه الطريقة . ويوجد فى لغتهم فعل خاص للتعبير عن هذه العملية ... وإذا مرض شخص ، فكثيراً ما يحدث أن يتهم أحد الشامانات بتسبيب هذا المرض . وفى هذه الحال يتحتم على الشامان المتهم أن يشفى المريض وإلا نفذ فيه حكم الاعدام(٣) . » فتدل هذه السمه الأخيرة أيضاً على أن الرغبة فى الإضرار تعتبر من قبيل السحر . والواقع الذى جرت به العادة فى كل مكان تقريباً ، أنه يتحتم على الساحر الذى يتهم بإمراض

---

(١) جيته Jetté :
On the superstitions of the Tena Indians فى ، Anthropos
مجلد ٦ ، ص ٢٥٠

(٢) ر. ك. دكسن R. C. Dixon : The Shasta , The فى Bulletin of American Maseum of natural history، مجلد ١٧ ، ص٤٥٣

(٣) ا . سابير The religious ideas of the Takelma Indians of Jaur- nal ot The America Folk Lare : فى S. Oregon
مجلد ٢٠ ، ص٤١ (١٩٠٧) .

شخص آخر ، أن يعمل هو نفسه أولا على إزالة الضرر الذى أحدثه ، ثم بعد ذلك ينظر فى أمره . وهذا إجراء ثابت لا يتغير . فإذا رفض أن يرفع أثر السحر عن ضحيته عذب وقتل . لذلك نرى الشخص الذى يتهم بهذه الجريمة لا يجد له مناصاً من الاعتراف حتى ولو كان مقتنعاً ببراءته ، ثم يتظاهر بفك السحر عن الضحية المزعومة . . روى أحد الهنود الغربيين من قبائل « الهيدتساء رواية جاء فيها أن « مطبباً » عاش مع الدببة ، فعلمته السحر وخلعت عليه شيئاً من قدرتها السحرية ، وهذا نص كلامه : « كان يساعد قبيلته بطرق لا حصر لها . فكان إذا جاع الهنود ، تركز ذهنه فى هذه الفكرة : « يجب أن يقترب بعض الجاموس من القرية » ، فلا يكاد ينتهى من تفكيره حتى يأتى الجاموس[1] : » — وفى كولمبيا البريطانية « إذا غضب الهندى من أحد مواطنيه ولم ينتقم منه بالقتل ، حاول إظهار غضبه عليه بقوله له : « ستموت حالا ! » وكثيراً ما يستولى الرعب على الشخص الذى يوجه إليـــه هذا الكلام فيودى به . وإذا تحقق ذلك قرر أقارب الميت أنهم لا يشكون فى سبب موته ، وانتظروا أول فرصة تسنح لهم ليطلقوا النار على ذلك الذى تنبأ لقريبهم بالموت فى حالة غضبه ، اللهم إلا إذا لم يكن لديهم من القوة ما يمكنهم من مواجهة الصراع الذى يترتب على هذا العمل[2] . »

وكذلك ذكر الأستاذ بريس Preuss بعض حوادث من هذا القبيل شاهدها حديثاً فى أثناء إقامته بين قبائل الهنود الغربيين ، فقال : « إنهم يعزون

---

(١) بپر Pepper وولسن Wilson
An Hidadtsa shrine and the beliefs respecting it
فى Memoirs of the American Anthropolgical Association
مجلد ٢ ، ص ١٠٩ — ١٠

(٢) ر. ك. مين Mayne : Four years in British Columbia ، ص ٢٩٢ (خطاب من المبشر لانكان) .

إلى الموتى وإلى الأفكار قوة خارقة للعادة . . . فهم لا يعتقدون أن النشاط الخارجى يكفى وحده لتعليل الواقع، ويؤمنون بأن التفكير يساهم فيه أيضاً؛ بل يرون أن الفعل نفسه أمر تافه بالنسبة إلى التفكير ، وأنه معادل له من نواح شتى ؛ كما أنهم لا ينظرون إلى الكلمات على أنها وسيلة للتعبير فحسب ، بل أيضاً على أنها وسيلة للتأثير الفعلى على الآلهة ، أى على الطبيعة ، شأنها فى ذلك شأن الصياح والموسيقى تماما . . . ويعتقدون أن ماتدل عليه الكلمات يتحقق بالفعل لمجرد النطق بها ، على شرط أن يكون المتكلم مستحوذاً على القوة السحرية الضرورية بطبيعة الحال ... وتبرهن لنا بعض الامثلة على أنهم يعتبرون الأفكار أولى الوسائل التى يستخدمها الشخص للتأثير فى ضحيته، ويعتقدون أن الأفكار تحدث أثرها دون مساعدة الكلمات ودون مساعدة الفعل المادى(١) . » وأغلب الظن أن ما يسميه الأستاذ بريس Preuss « توجيه التفكير » Nachdenken أو التفكير Gedanke لا يختلف عما يسميه الباحثون الانجليز والأمريكيون باسم الأمنية Wish . وعلى كل حال ليست المسألة عند البدائيين مسألة تصورات نظرية ، بل مسألة حالات سيكولوجية معقدة يسود فيها العنصر الوجدانى فى أغلب الأحيان . ومن المعتـــاد لدى قبائل « اللنجو » Lenguas فى إقليم « الشاكو الكبير » Grand chaco بأمريكا الجنوبية أنه « إذا تمنى شخص سقوط المطر أو هبوب ريح الجنوب الرطبة، احتج عليه جيرانه الذين لا يريدون ذلك، ورجوه ألا يصر على أمنيته . وكانوا يظنون أن لى قدرة خاصة على التأثير فى ريح الجنوب ، ويزعمون أنى إذا صفرت أحدثتها تبعاً لإرادتى . ولعل ذلك يرجع إلى أن الأوربيين يسرون لهبوب تلك الريح التى تخفف عنهم وطأة الحرارة المنهكة(٢) » قد يكون هذا التعليل صحيحا ولكن ينبغى

---

(١) ك . ث بريس Die Nayarit - Expedition ، ج ١ ص ٩٦ — ٩٧

(٢) و . ب . جروب An unknown People in an unknown land ص ١٣٨

ألا يغيب عن بالنا ما للرغبة فى نظرهم من قوة خاصة، ولاسيما إذا صدرت عن ساحر قوى . وقد كان الأستاذ « جروب » ساحرا قويا فذا فى نظر قبائل « اللنجوا » Languas ـ وعند قبائل « الأروكان » Araucans « ليس اجتماع النساء للعويل حول الميت مجرد عادة لإظهار الحزن على الفقيـــد ، ولـكنه يشتمل على سلسلة من اللعنات التى تنصب على القاتل . وقد يضفى الأهالى على ذلك قدرة سحرية فى بعض المناسبات . وهكذا يكتفى أولئك الناس بالثأر على هذه الطريقة ماداموا لا يملكون غيرها[1] . »

وأخيراً أخبرنى شخصان من قبائل « التودا » Toda فى الهند « أن الساحر يمكنه الحصول على النتيجة التى يرغب فى الوصول إليها بمجرد أن يفكر فيهـا دون حاجة إلى استعمال رقية سحرية أو طقس خاص [2] . »

يساعدنا هذا الاعتقاد الشائع على تفسير معتقدات أخرى مشتقة منه أو عادات ترجع إليه . فمن ذلك أن الأهـــالى فى كثير من أماكن أفريقية الجنوبية والهند وغيرهما يحرمون العمل فى الحقول إذا نزل المطر بعد انقطاع طويل ، حتى لو كان هذا المطر خفيفا أو يؤذن بالانقطاع بعد وقت وجيز . «إذا بدأ المطر ليلا واستمر فى النزول حتى الصباح ، امتنع الناس عن العمل فى الحقول وبقوا فى دورهم طوال النهار التالى حتى لا يعرقلوا المطر ويوقفوا نزوله [3] . » والواقع أن الشخص الذى يشتغل فى حقله لا يستطيع أن يمنع نفسه من الرغبة فى توقف المطر ، وأن هذه الرغبه قد تحدث أثرها المحتوم . وفى بلاد الهند الشمالية « إذا كانوا فى حاجة إلى الماء ورأوا شخصا يخرج عارى الرأس فى أثناء المطر ، أمروه بالرجوع إلى بيته فورا ، أو ضطروه أن يلبس

---

(١) ت . جويفارا T. Guevara : Peychologia del pueblo araucano ، ص ٢٧١ ـ ٢٧٢ .

(٢) و . هـ . ر . ريفرز W. H. R. rivers : The Todas ص ٢٥٥

(٣) ا . هولوب Holub : Sieben Jahre in Süd Africa ، جـ ١ ، ص ٤٣١

قلنسوته أو عمامته : لأن الشخص العارى الرأس يتمنى توقف المطر على غير إرادة منه ، وبذلك يجلب الضر إلى جيرانه [١] . » هذا وقد يعزون تلك القدرة عينها إلى رغبات الحيوانات . « فى شبه جزيرة . ملكا » يعتقدون أن اقتناء القطط يجلب السعادة ، لأنها تحب النوم على فراش وثير ، ومن ثم تتمنى رغد سيدها بطريق غير مباشر ... ولكن اقتناء الكلاب مدعاة للشقاء ... فالكلب يتمنى موت سيده ليأكل من عظام الذبائح التى تنحر عادة للاحتفال بالجنازة [٢] . » فهذه رغبات غير إرادية ولكنها برغم ذلك تحدث أثرها .

كذلك يساعدنا هذا الاعتقاد على فهم الهلع الذى يلقيه الساحر فى بعض الهيئات الاجتماعية ، والحنق الذى يتجلى فى ضروب العذاب التى يصبونها عليه ، ومحاولة الهجوم عليه بطريق المفاجأة ، حينما يصممون على التخلص منه بعد فترة طويلة من التردد فى غالب الأحيان . وذلك لأن الساحر يستطيع أن يسبب شرا مستطيرا دون جهد كبير ، إذ يكفيه أن يركز تفكيره ويوجه إرادته نحو الشىء الذى يود وقوعه فيقع هذا الشىء حتما ، وهو أقدر على ذلك من غيره . فيمكنه حينئذ ، إذا أراد ، أن يجر الخراب والمرض والموت إلى جاره دون أن يضطر إلى القيام بعمل يلفت إليه نظر الآخرين ، بل دون أن يضطر إلى تحريك أصبع من أصابعه . وإزاء هذا الخطر لا يستطيع المواطنون إلا أن يتخذوا منه أحد موقفين : فإما أن يعملوا على ضمان وده وإما أن يبيدوه . وهذا هو السبب الجوهرى للامتيازات التى يتمتع بها ، والتى لا يجرؤ أحد على أن يعارض فيها أو يمنعها عنه . وهو أيضاً السبب فى النهاية المحزنة التى ينتهى إليها فى غالب الأحيان .

وترتبط هذه القدرة على إحداث الضرر بقوة التفكير وحدها ارتباطا

---

(١) و . كروك ، W. Crooke
The tribes and castes of the North West provinces and Oudh.
ص ٧٨ .

(٢) و.و. سكيت Malay magic : W. W. Skeat ، ص١٨٢–٨٣ و ١٩٠–٩١ .

وثيقا بما يسمى بالحسد والحاسدين «Jettatore» . ويعلل الأستاذ هبلى Hob!ey ذلك فيقول : « يعتقد الناس فى جميع أنحاء الأرض أن هناك أشخاصا من الرجال والنساء قد وهبوا هذه القدرة وأنهم قد ولدوا بها . ومما يساعد على نشوء هذا الرأى فى أذهان الناس شيئاً فشيئاً عن شخص ما أن يروه يمتدح حيوانا لجاره مثلا ثم يمرض هذا الحيوان بعد قليل .. وفى هذه الحالة لا يعتبر الضرر ناشئا من نظرة السوء بل من فكرة الحسد ... وإذا وقع شىء من هذا القبيل بحث صاحب الحيوان عن الشخص الحسود ، وألح عليه فى أن يزيل الضرر . فيبلل هـــذا الأخير إصبعه بلعابه ويمس به فم الحيوان وبعض المواضع الأخرى من جسمه . وهم يعتقدون أن ذلك يذهب بتأثير السحر[١] » نرى من ذلك أن صاحب الحيوان يعتقد أن حيوانه المريض قد وقع ضحية لشر حل به ، وأن فاعل هذا الشر هو الشخص الذى تمنى تملك الحيوان حينما نظر إليه وأطراه . ولا شك أن هذه الأمنية تؤثر على الحيوان سواء أصرح بها صاحبها أم لم يصرح ، وليس هناك علاج لشرها إلا العلاج الذى يستعمل فى حالة السحر : وهو تكليف من أحدث الشر بأن يزيله بنفسه . ومثل هذا الشخص يعتبر ساحراً .

« فى هـــذه اللحظة وقع نظرنا على قطيع صغير من الحيوانات الفارهة . وبينا كنا ننظر إليها بإمعان ، رفع أحد الحاضرين إصبعه مشيراً إليها . فقال « أبا جندا » : AbaG anda : احذروا أن تفعلوا ذلك أمام قبائل « الجلا » Gallas ، وإياكم أن تطيلوا النظر إلى حيواناتهم . فإنهم إذا رأوا شخصاً أجنبياً يعجب بها ظنوا أنه يرغب فى تملكها وغلى مرجل غضبهم ؛ فلا تلتفتوا إلى حيواناتهم ، وإذا تكلمتم عنها ، فليكن كلامكم أقرب إلى الذم منه إلى المديح[٢] » .

---

(١) ك . و هبلى ، Further researches into Kikuyu and Komba religious beliefs and Customs ، فى J. A. I ، مجلد ٤١ ، ص ٤٣٤ .

(٢) ش . نيو . Ch. New :
Wanderings and labours in Eastern Africa ص ٢٤٩ .

« وفى بادية الجزيرة العربية يعتقد الأهالى أنه إذا نظر شخص إلى حيوان شخص آخر برغبة فى تملكه ، اتصلت روحه بهذا الحيوان فيموت حتما إذا احتفظ به صاحبه ؛ لذلك إذا نظر شخص إلى امرأة أو طفل أو ثوب وتمنى تملك ما نظر إليه ، فإنه لا يسلم من ضررة . وفى هذه الحالة إذا انكشف الشخص الذى فعـــل الشر لمن يعنيهم الأمر ، سرقوا قطعة من ثوبه وبخروا بها المصاب . ويعتقدون أن ذلك الإجراء ينجح فى معظم الأحيان ، وإن كان يفشل فى بعضها . وإذا لم يعرفوا الفاعل ، ذهبوا إلى عراف ، فيتكفل لهم بمعرفة من أصابهم أو أصاب حيواناتهم بالضرر[1] . »

ليس التمنى إذن مجرد عاطفة أو رغبة ، وإنما هو حدث إيجابى فعلى يقوم به المتمنى ، لأن التفكير فى هذه الحالة له أثر الفعل على حد تعبير الأستاذ بريس Preuss . وقد لاحظ المبشر كازاليس Casalis أيضا هذه الملاحظة حيث يقول : « للتمنى اسمه الخاص به . وتعترف هذه الشعوب جميعها بقوته الخطيرة ، ويبدو أنهم يؤمنون إيمانا فطريا بأن مقاومة رغبات القلب الجامحة أمر مستحيل . وأتذكر أنه حدث لى بعد وصولى إلى إقليم « اللسوتو » Lessouto بزمن وجيز ، أن رأيت رئيساً يحاول تعداد الوصايا العشر ، فلم يستطع أن يذكر منها إلا تسعا . فلما ذكرناه بالعاشرة التى تقول « لا تتمن شيئاً من أشياء غيرك » أجابنا بقوله : هذه ليست وصـية قائمة بذاتها ، فقد سبق أن ذكرتها حين قلت : لا تسرق ، لا تزن . وهكذا نرى هذا الضمير الوثنى يطلع صاحبه بداهة على ما اضطر عيسى المسيح أن يشرحه لحملة الكتاب(١) . »

وهذه الملاحظة الأخيرة لا تترك عندنا أى مجال للشك . فتمنى متاع الغير وسرقته يعتبران من طبيعة واحدة فى تصورات « اللسوتو » الجماعية . ونحن

---

(١) ا . موزيل A. Musil : Arabia Petraea ، ج ٣ ، ص ٢١٤ .

(٢) كازاليس Coasalis : Les Bassoutos ، ص ٣٢٢ — ٢٣ .

نعلم أن الزنا يتسم عند قبائل « البنتو » بسمة الاعتداء على الملكية . فما نسميه نحن ميلا معنوياً ، يعتبر عندهم تسخيراً لقوة غيبة للتأثير على الشيء المتمنى تأثيراً ضاراً . ويعزو الأستاذان كازاليس وموزيل هذه القوة إلى الروح ، وهي كلمة سهلة التناول ولكنها لا تنطبق تماماً على ما في ذهن هؤلاء البدائيين . إذ أن الشبه الوثيق الذي يجعلونه بين الرغبة والتمني والحسد وبذرة الشر التي يتكون منها السحر ، يدلنا على أنهم يعنون شيئاً آخر غير الروح التي نفهمها ولعلهم يعنون بالأحرى مظهراً من مظاهر « المانا » mara التي تنبعث وتشع من كل شيء ، ومن كل حي ، ومن كل كائن بشرى ؛ والتي تزداد قوة وخطورة إذا كانت منبعثة من الرؤساء أو الأسلاف أو السحرة إلخ . وتشبه « المانا » من بعض الوجوه تلك البذة ر الروحية المسماة « بالروح » ولكنها تختلف عنها من نواح أخرى كل الاختلاف .

ومهما يكن من شيء ، فإنه من المقرر أن التصورات الجماعية عند البدائيين تعتبر أن الرغبة في حـــد ذاتها لها القدرة الغيبية على التأثير في الشيء الذي تنصب عليه دون حاجة إلى رقى سحرية أو طقوس . وليس في ذلك ما يستغرب بالنسبة إلى هذه العقلية التي درجت على اعتبار الأسباب الطبيعية والأدوات بجميع أنواعها كما مهملا ، ووجهت كل اهتمامها إلى الأسباب الخفية وجعلت لها وحدها قوة التأثير .

الفصل الحادى عشر

التفسير الغيبي لظهور البيض

وما حملوه معهم

نعرف أن البيض قد ظهروا بين بعض البدائيين الذين لم يكونوا قد رأوهم من قبل ، بل لم يكونوا قد توهموا وجودهم مجرد توهم فى بعض الأحيان . ولا شك أن العلاقات الأولى التى قامت بين الفريقين تعد من العوامل التى من شأنها أن تجلو لنا الصفات الخاصة بعقلية الجماعات المتأخرة . فكيف إذن كان الأثر الذى أحدثه فى هذه العقلية أول اتصال لها بالبيض ؟ الواقع أنه لو كان لدينا معلومات أكيدة مفصلة عن هذا الاحتكاك الأول لكانت خير عون لنا فى دراستنا . وذلك لأن هذا الاحتكاك يعتبر بمثابة اختبار طبيعى خرجت فيه العقلية البدائية عن عاداتها وتقاليدها ، بعد أن وجدت نفسها فجأة أمام ظروف غير منظورة .

ولكن من سوء الحظ أن الذين شهدوا حدوث هذه الظواهر الهامة ، التى تهم البحوث الإنسانية (الانثروبولوجيا) إلى أقصى حـــد من مكتشفين ومبشرين وعلماء طبيعيين لم يهتموا دائماً بملاحظتهـا مع اتخاذ الاحتياطات الضرورية . فقد فوجئوا بما رأوا أمامهم ، ووجدوا أنفسهم عاجزين عن دراسة أناس يتكلمون لغات لا يعرفونها ويرتابون فى هؤلاء الأجانب الوافدين عليهم . لذلك لم يهتموا فى غالب الأحيان إلا بجمع ما رأوه عجيباً غريباً مخالفاً للمألوف فى المظهر الخارجى لهؤلاء « المتوحشين » وفى طريق سلوكهم ، واقتصر بعضهم على وصف العلاقات السلمية أو العدائية التى قامت بينهم وكيفية قيامها . هـــذا إلى أنه من النادر أن نجد من البدائيين أنفسهم من وصف لنا الأثر الذى أحدثه فيهم أولى تجاربهم مع البيض . وذلك لأسباب لا تحتاج إلى بيان .

ولا شك أن احتكاكهم بالأوروبيين قد أصابهم بصدمة مروعة ، ومما زاد من عنف هذه الصدمة أنهم كانوا يعيشون فى عالم مغلق لا يمكن لكائن أن يعبر جوانبه . وكانت فكرتهم عن الجغرافية الكونية ، قبل وصول البيض إليهم ، على جانب كبير من البساطة . ويمكننا أن نتصور هذه الفكرة مما قيل عن وصفها لدى قبائل « الدياك » فى برنيو : « يعتقدون أن الأرض رقعة مسطحة ، وأن السماء قبة أو ناقوس زجاجى يغطى الأرض ويتقابل معها عند الأفق . ولذلك يظنون أنه إذا سار المرء أمامه فى خط مستقيم ، وصل فى نهاية الأمر إلى حيث يمكنه لمس السماء بيده حقيقة لا مجازاً . ولما كانوا يعرفون أن الأوروبيين قد أقبلوا من آفاق بعيدة على متن البحر ، فقد توهموا بطبيعة الحال أننا آتون من مكان أقرب إلى السماء من مكانهم الذى يعيشون فيه . لذلك كانوا لا يصدقوننى إذا أخبرتهم بأنى لم أذهب إلى القمر . وكانوا يسألوننى عما إذا كان فى بلادى قمر واحد أم عدة أقمار وعما إذا لم يكن لدينا إلا شمس واحدة . وكنت لا أستطيع منع نفسى من الابتسام حين أرى علامات التكذيب التى تثيرها فى نفوسهم إجاباتى السلبية ، أو أعراض الألم التى تبدو على وجوههم إذا سمعونى أؤكد لهم أن الأرض فى أوروبا وفى بورنيو تتساوى فى بعدها عن السماء[1] . »

وكذلك كان « البولونيزيون » يتوهمون أن البحر الذى يحيط بجزائرهم عبارة عن رقعة مسطحة وأن السماء (رى rai) تنطبق على المحيط عند الأفق المرئى أو بعده بمسافة قليلة فتكون قبة أو مخروطاً أجوف يحيط بالجزر المجاورة لهم مباشرة . وكانوا يعرفون جزراً أخرى لجزائر « نوهيفا » Nuuhiva أو المركيزى وفيهى Vihi أو سندوتش ، وتنجاتابو Tongatabou أو جزائر الأصدقاء ، بدليل أن هذه الأسماء ترد فى رواياتهم وأغانيهم . وبعد ذلك سمعوا أيضاً عن بريتانى (بريطانيا) وبنيولا (إسبانيا) ، ولكنهم كانوا يتوهمون

---

(١) أو . بكارى: Wanderings in the forests of Borneo ص٣٣٧ ـ ٨٣ .

أن كل أقليم من هذه الأقاليم له جوه الخاص وسماؤه الخاصة التي تحيط به كما تحيط سماؤهم بأرض بلادهم . وهذا هو السبب في اعتبارهم أن الأجانب أناس « جاءوا من خلف السماء » أو من الجانب الآخرى بسماء بلادهم (١) . »

وكذلك كان الحال في جزائر « مورتلك » Mortlock حيث « رسم الأهالي بالطباشير خرائط حقيقية لأرخبيل « كارولينا » بأسره وجزائر « مريان » المجاورة له . . . . وتشير جغرافيتهم إلى أن هذه الجزائر تقع في آخر العالم ؛ ولذلك لما سألنا أحدهم عما يوجد فيما وراء جزائر « بالاووس » Palaos ، أجاب برسم خط غرب هذه الجزائر ، ثم شرح لنا بصورة واضحة أن القبة السماوية فيما وراء جزائر « بالاووس » تقترب من الأرض إلى حد يجعل الملاحة تحتها متعذره ، وقال أن كل ما قد يمكن للسائح أن يفعله في هذا المكان هو أن يزحف فوق الأرض أو يسبح في الماء . (٢) . » وفي جزائر « جمبيه » Gambiel سألنا الأهالي كثيراً عن بلادنا ، ولما أجبناهم ، بأنها بعيدة جداً ، سألونا عما إذا كانت أرضنا تمس السماء . (٣) » وفي « ساموا » « كان الأهالي فيما مضى يعتقدون أن السماء تنتهي عند الأفق ، ومن ثم جاء هذا الاسم الذي لا يزالون يطلقونه على البيض حتى اليوم ، وهو « پاپالنجي » Pâpàlangi أي خارقو السماء (٤) . » وعند الميلانيزين الذين يقطنون جزائر « لويالتي » Loyalty « يعتقد أهل « ليفو » Lefu أن السماء شيء يمكن لمسه باليد على مسافة ما . وكان يعتقد الكثيرون منهم أنهم لو وصلوا إليها لاستطاعوا تسلقها . (٥) »

---

(١) القس و . إليس W. E. : Polynesian researches ، ج ٣ ، ص ١٦٨ — ٦٩

(٢) فون كيتلتس Von Kittlitz

Denwürdigkeiten einer Reise mach der russischen Amerika, Mekronesièn und durch Kamtschatka ج ٢ ، ص ٨٧ — ٨٨

(٣) Annales de la propagation de la foi ، مجلد ٩ ، ص ٥٠ (خطاب من المبشر كاريه Caret) .

(٤) ج . تيرنر Turner : Nineteen years in Polynesia ، ص ١٠٣ .

(٥) ا. هد فيلد : Among The natives of the Loyalty group ، ص ١٠٦ .

ولا يقتصر هذا التصور على جماعات المحيط الهادى الجنوبى ، بل نجده أيضا فى أفريقية الجنوبية : « يعتقد أفراد التنجا Thonga أن السماء عبارة عن قبة صلبة واسعة ترتكز على الأرض . ويسمون النقطة التى تلتقى فيها السماء بالأرض « بوجيماموسى » Bugimamusi ، وهى كلمة غريبة ، من فصيلة « بو - ما » Bu - ma ومعناها : المكان الذى يمكن فيه للنساء أن يسندن صلاتهن على القبة (لأنهن فى بلادهن يسندنها على حائط أو شجرة . (١) » وفى أمريكا الشمالية « يعتقد الهنود الحمر أن الأرض قرص مستدير يحوطه الماء عادة من جميع الجهات ، وأن السماء نصف دائرة صلبة مجوفة تصل عند الأفق إلى مستوى الأرض . ونسمع فى أساطير قبائل « الشيروكى » Cherokee وبعض الهنود الآخرين ؛ أن السماء ترتفع من فوق الأرض باستمرار ثم تنزل عليها من جديد « كالشق الأعلى من المقص :(٢) » وأن الشمس تعيش عادة خارج هذا القوس ، ولكنها تنتهز فرصة الانفراج المؤقت الذى يحدث فى الصباح بين الأرض وحافة السماء فتنزلق إلى داخل القوس ثم تخرج فى المساء من ناحية الغرب بهذه الطريقة نفسها .(٣) »

فهذا عالم مغلق من جميع الجهات ، لا تعرف كل قبيلة من القبائل التى تعيش فيه إلا نفسها وجيرانها الاقربين ، ولاسيما إذا كانت من القبائل الجزريه .

---

(١) هـ . ا . جونود : The life of a South African Tribe ، ج٢ ، ص ٢٨٠ — ٨١

(٢) ج . مونى J. Mooney
Reports of فى The ghoste dance religion
(Smithsonian Institute), the Bureau of American Ethmdogy
مجلد ١٤ ص ٩٧١

(٣) من شأن هذا التصور للسماء على أنها ترتكز على الأرض عند الأفق ، أن يجعل الأهالى يفسرون كل مايحكيه لهم المبشرون عن السماء على العموم تفسيراً حرفيا ، وألا يدهشوا منه بأية حال . أليس المبشرون يعرفون كل مايجرى فيها لشدة قرب بلادهم منها ؟ ومنذ زمن غير بعيد قال أحد الأهالى فى أثناء الصلاة (فى Bongo بغنيا الجديدة الألمانية) : أنتم يامعشر البيض لاتجهلون بطبيعة الحال شيئا عن السماء ولا عن الله : فإنكم جد قريبين منهما . انظروا كيف ترون أن السماء جد قريبة هناك ، ثم انظروا إلى هنا تجدوها جد مرتفعة من فوقنا ! لنا آلهتنا ولكم آلهتكم . » من Berichte der rheinischen Missions geselleschaft ١٩٠٣ ، ص ١٢٠ .

فما الأثر الذى يمكن أن يحدثه بين هؤلاء الناس ظهور كائنـــات لم يروها من قبل ، كائنـات تشبه البشر ولـكنها تختلف عنهم فى اللون والأسلحة واللغـة وفى كثير من الخصائص الفردية الأخرى ؟ الواقع أنهم لابد أن يبهتوا ويروعوا أمام هذا المنظر الغريب أكـثر من أن يشدهوا بالمعنى الحرفى لهذه الكلمة . نعم إن أساطيرهم وخرافاتهم قد مهـدت لهم الطريق للتسليم بوجود هذه الـكائنات ، إذ أنهم يعتقدون أن العالم الخفى الذى يكوّن مع العالم المرئى شيئاً واحداً ، مأهول بكائنـات مبهمة التحديد إلى حد ما ، وتشبه البشر إن قليلا وإن كثيرا ، كما أنه مأهول بالموتى والأسلاف بوجه خاص ، وهم أيضا من البشر ولـكنهم فى حالة مختلفة . ولـكن لعل الذى أثار دهشتهم من البيض أنهم رأوا هذه الكائنات التى تنتسب إلى العـــالم الخفى تظهر فى وضح النهار ، وتصل إليهم على ظهر أشياء غير معروفة ثم ترسو على الشاطئ وتتكلم ، الخ . . لذلك توجسوا منهم ومن كل ما أحضروه معهم نوعا من الفزع الدينى الذى كثيرا ما وصفه لنا السائحون .

ولعل من الخير أن نروى حديثا رواه رجل عجوز من أهالى كولمبيا البريطانية فى هذا الصدد . فهو على شىء من الطول ولـكنه يعطينا صورة حية لأول اتصال بين الأوربيين والأهالى ، إذ يقول : « كان بعض الهنود يركبون زورقا لصيد « الهاليبوت » halibut [نوع من السمك] فى المجاز . فغشيهم ضباب كثيف وسمعوا فجأة ضوضـاء كتلك التى تصدر عن حيوان يشق طريقه فى الماء . فظنوا أن مسخا خرج من الهوة وراح يطاردهم ، ولذلك أخذوا مجاذيفهم واتجهوا نحو الشاطئ بأسرع مايستطيعون ، ولـكن ضوضاء الماء ظلت تلاحقهم ، وراحوا يتوقعون أن ينقض عليهم حيوان هائل فيلتهمهم بين فكيه ؛ وأخيرا وصلوا إلى الشاطئ وقفزوا إلى الأرض وقد استولى عليهم الفزع ، ثم راحوا ينظرون ليشاهدوا اقتراب الوحش . يلبثوا فلم أن رأوا سفينة تظهر من بين الضباب وعليها رجال ذوو منظر غريب . وحينئذ سرى عن الهنود بعض الشىء ، ولـكنهم ظلوا جامدين مبهوتين من الدهشة . ثم

نزل الأجانب على الشاطىء ، وأشاروا إلى الهنود أن يحضروا إليهم شيئا من السمك . وكان أحدهم يحمل على كتفيه آلة تشبه العصا ، فوجهها نحو طائر محلق فى الجو وانطلقت منها فرقعة شديدة وخر الطائر صريعا فوق الأرض . وهنا سقط الهنود مغشيا عليهم . ولما أفاقوا من جديد أخذوا يتساءلون بينهم عن حالتهم وعما أحس به كل منهم ، ويبحثون عما اذا كان أحد منهم قد مات . وحينئذ أشار إليهم البيض أن يوقدوا نارا . فخف الهنود إلى إيقاد النار على طريقتهم المعتادة ؛ بأن أخذوا ساقين من الخشب ، وراحوا يدلكون كلا منهما بالأخرى . فضحك منهم الأجانب وأخذ بعضهم قبضة من العشب الجاف ووضع تحتها قليلا من البارود ثم اشعل فيه النار ، فحدثت فرقعة جديدة وتوهج لهب من النار . وهنا « مات » الهنود . وبعد لحظة أراد القادمون أن يطهوا شيئاً من السمك وهب الهنود لمساعدتهم ، فوضعوا بعض الماء والسمك فى إحدى عاليهم الخشبية المربعة ، ووضعوا بضعة أحجار فوق النار ليلقوا بها ساخنة فى الإناء فتعمل على إنضاج السمك . فلم يرض البيض عن هذه الطريقة ، وذهب أحدهم إلى السفينة وأحضر منها قدرا من الحديد الأبيض ، ووضع فيه ماء وسمكا ثم وضع القــدر على النار ، وراح الهنود ينظرون إليه فى دهشة متوقعين احتراق الإناء . ولكن النار لم تأكل القدر ولم يسل ماؤه فوقها ؛ وحينئذ « مات » الهنود مرة أخرى . ولما انتهى الأجانب من تناول السمك ، وضعوا قدرا من الأرز فوق النار . فنظر إليه الهنود ثم أخذوا ينظرون بعضهم إلى بعض وهم يقولون بصوت منخفض أكشان ! Akshahn أكشان ! (دود ! دود !) ولما نضج الأرز أضاف إليه الأجانب شيئاً من المسلى ، فحملق الهنود بأعينهم وأخذتهم الدهشة وهمسوا فيما بينهم وهم يقولون « شحم الموتى من البشر ! » ، وبعد أن تم نضج الأرز قدم البيض إليهم شيئا منه ومن المسلى ، ولكنهم تراجعوا باشمئزاز ، فلما رأى البيض منهم ذلك ، أرادوا أن يبرهنوا لهم على حسن نيتهم ، فجلسوا والتهموه حتى آخره فبهت الهنود من هذا المنظر ، و « ماتوا » جميعا من جديد . وهكذا تلاحقت معجزات البيض

وكان الهنود لدى كل معجزة يقعون فريسة لتلك الدهشة العميقة التى يسمونها « موتا » . وبعد ذلك جاء دور الهنود « ليميتوا » الأجانب البيض ، فصبغوا وجوههم وضفـــروا شعرهم واستولى عليهم نوع من النوك نوك nok nok (الروح التى تقوم بصنع المعجزات) ، وتقدموا ببطء وجلسوا فى وقار أمام البيض . ولم تمر لحظة طويلة حتى رفعوا رءوسهم فجأة ، وراحوا يحملقون فيهم ولا يحولون عنهم أبصارهم . فأحدثت أعينهم ذات الاطار الأحمر أثرها المنتظر . و« مات » البيض بدورهم[1] . »

بذلك نجا شرف الهنود من الثلم . أما ضروب « الموت » المتتابعة التى كانت تسببها لهم أسلحة البيض وآنيتهم وأطعمتهم ، فلم تدم إلا قليلا : لأن هذه التجارب الجديدة والأشياء العجيبة وتلك الكائنات الغريبة لم تلبث أن استقرت فى أذهانهم التى الفت تصور القوى الخفية . واعتقدوا أن البندقية التى تقتل الطائر بفرقعتها والقدر التى تبقى فوق النار دون أن تحترق وغيرهما ليست إلا بعض المعجزات الغريبة ، ولكنهم لم يبحثوا عن تفسير لها ؛ لأن الذين قاموا بها ينتسبون إلى عالم القوى الخفية أو يرتبطون به ارتباطا وثيقا . نعم إن كل شىء من هذه الأشياء يعتبر حلم من أحلام اليقظة فى نظر الهندى الأحمر ولكن الهندى الأحمر يعرف أن مايراه فى الحلم لا يقل فى واقعيته عما يدركه فى حالة اليقظة إن لم يزد عليه .

لم يكن الاسكيمو الذين يقطنون الساحل الشرقى من جزيرة جرينلند يجهلون وجود البيض ، ولكنهم لم يكونوا قد رأوهم من قبل . يقول الاستاذ هلم Holm فى سنة ١٨٨٤ : « كانت أول مقـــابلة لنا مع « الانجما جسالك Angmagsalik فى غاية الغرابة . إذ تخيل هؤلاء المساكين أننا كائنات مما فوق

---

(١) The British Columbia Mission, or Metlahkatlah.
y· The missions of the Church missionary socet) ، رقم ٢) ص ٦٣–٦٤ .

الطبيعة تشبه « سكان الداخل » أو « الأناس الكلاب » ، وهي كائنات وهمية يرد ذكرها في أساطيرهم[1] . »

كان هؤلاء الاسكيمو قد سمعوا بوجود الأوروبيين ، أما أهل المحيط الهادى فلم يكونوا قد سمعوا بهم ، ولذلك كانت دهشتهم تامة حينما أبصروهم لأول مرة ، حيث ظنوا أن أمواتهم قد بعثوا من القبر . ففى جزائر «واليس» wallis ، لا يزال هناك بعض البدائيين الذين يتذكرون هذا الحدث . فقد حكى لى رجل هرم ممن يطيب لى أن أسألهم كثيرا أن الأهالى لم يلمحوا أول سفينة قادمة عليهم حتى اعتقدوا أنها قطعه من أرض الآلهة تنزلق فوق الماء . وزاد اعتقادهم فى هذه الفكرة حينما رأوا السوارى التى ظنوها بعض أشجار النرجيل . [2] » ويلاحظ أن المبشرون كثيرا ما يترجمون الكلمة التى تدل على الموتى أو على الاسلاف بكلمه آلهة . وفى « كالدونيا » الجديدة يظن الأهالى أن البيض بعض أرواح الموتى ، وأنهم يجلبون الأمراض ، ولذلك يحاولون قتلهم . (٣) ، وفى جزائر جمبيه ، سألنا رجل هرم من الأهالى عما إذا كنا من بنى البشر ، وقبل أن نجيب أضاف قائلا : أأنتم آلهة(٤)؟ » (يعنى أموات) . ويقول مبشر آخر عن هذا الأرخبيل عينه : « ظهر الأوروبيون على هذه السواحل فأثار ظهورهم أشد أنواع الدهشة فى نفوس الأهالى ثم لم تلبث هذه الدهشة أن انقلبت إلى حالة خوف وفزع شديدين . فكان هؤلاء البسطاء إذا رأوا سفينة تحمل الأجانب على بعد يمنعهم من تمييز ركابها ، ظنوا أن

---

(١) ج . هلم G. Holm ، Ethnological sketch of the Angmagsalik Eskimo ، نشره و. تلبتسر Thalbitzer فى : Meddelelser om Greonland ، مجلد ٣٩ ، ص ٧ — ٨ .

(٢) Annales de la propagation de la foi ؛ مجلد ١٣ ص ٢١ (الأب بثيون) .

(٣) ج تيرنر Nineteen years in Polynesia ، ص ٤٢٤ .

(٤) Annales de la propogation de la foi مجلد ٩ ص ٥ (كتاب المبشر كازيه) .

الزوارق التى ترتبط بها بعض ثمار النرجيل التى تطفو فوق البحر ، ولكنهم كانوا يصابون بالوجوم المفرط حين تقترب السفينة ويرونها ملأى بكائنات لا يعرفونها ، بل لا يتوهمون لها وجودا . وقد حملتهم ملابس الأوروبيين على الاعتقاد زمنا طويلا بأنها نوع من الوشم يغطى أجسامهم . فكانوا إذا رأوا أوروبيا يغطى كل جسمه بالملابس ، عدوه فردا من أفراد « المارابيه » (وهم قوم يغطون أجسامهم كلها بالوشم حتى وجوههم ، ويخافهم أولئك الجزريون أشد الخوف .) وأخيراً اعتقدوا أنهم من آلهة الشر التى جاءت للتنكيل بهم .(١) » ونجد هذا الاعتقاد أيضاً فى استراليا لدى كثير من القبائل التى يتباعد بعضها عن بعض . « أطلق على الأهالى اسم رئيس لهم كان قد قتل فى إحدى المواقع . وأكدوا لى أننى هـذا الرئيس . وقـــد رجعت إليهم فى صورة رجل أبيض . (٢) » . « الكلمة التى تطلق على الرجل الأبيض فى جزائر « أمير الغال » وفى جزيرة دارنلى Darnley وفى « كاب يوورك Cap york هى عين الكلمة التى تطلق على الشبح . وقد كان الأطفال يضايقون السيدة جيوم Giom فى بعض الأحيان (وهى امرأة بيضاء عاشت بين الأهالى عدة أعوام) فكان إذا لمحهم أحـــد الأشخاص المسنين عنفهم وطلب إليهم ألا يقلقوها قائلا « ليست هذه المسكينة شيئا يذكر . إنها مجرد شبح لا أكثر ولا أقل . » وكان أهل « كاب يورك » يذهبون إلى أبعد من ذلك « إذ زعموا أنهم قـــد تعرفوا على بعض أقاربهم الذين ماتوا فى أشخاص بعض ضباطنا وملاحينا بسبب شىء من الشبه ظنوا أنهم وجدوه فيهم ، ولذلك كانوا يطلقون عليهم أسماء هؤلاء الموتى مثل « تاسو » و « تاركا » ، الخ . وكانوا يعتبرونهم من أفراد اسرهم ، ويخلعون عليهم جميع الحقوق التى يخولها لهم هذا اللقب [٣] . » وهذه

---

(١) Annales de la propagation de la fio ، مجلد ١٠ ، ص ٢٠٢ (خطاب من البشر لافال) (١٨٣٧) .

(٢) Letters from Victorian pioneers ، ص ٢٤٨ .

(٣) ج . ماكجلفراى J. Macgillivray

Narrative of the voyage of H. M. S. Battlesnake ، ج ٢ ، ص ٢٩—٣٠ .

كلها ظواهر معروفة تمام المعرفة ، لذلك لن نطيل فى تعدادها .

ولم يكن لون الاوروبيين وحده هو الذى دفع الأهالى إلى اعتبارهم أشباحا . فنحن نعرف أن أهالى جزائر « أندمان » Andaman الذين لم يعرفوا الأوروبيين إلا منذ زمن قريب نسبيا كانوا يجهلون كل شىء عن وجود ساحل برمانيا ، وهو مجاور لهم ، ومن باب أولى عن وجود بقية العالم . . . فكانوا يظنون أن الملاحين القلائل الذين تسوقهم المصادفة إلى النزول على سواحلهم من حين لحين ، من الأسلاف الذين تأتى لهم الرجوع إلى الأرض بنوع من الفضل خصوا به دون سواهم . ولا شك أن هذا هو أصل الاسم الذى يطلقه الأهالى على الهنود حتى الآن ، حيث يسمونهم « أرواح الموتى أو الأشباح . . (١) » مع أن سكان الهند هؤلاء من الملونين .

وفى الكنغو ، كان البيض إذا وصلوا إلى إقليم لم يطؤوه من قبل « ارتاع الأهالى وخافوا أن يؤدى وجودهم إلى إيقاف المطر وإحداث الجفاف . وكان البعض إذا مروا بهم سمعوهم يصيحون قائلين . « اماه ! لن ينزل علينا المطر ! » وكان المبشرون فى حاجة دائمة إلى تذكيرهم بأن المطر بين يدى الله وليس بين أيديهم . (٢) » وهكذا كان وجود البيض مصدر قلق للأهالى بوجه عام . « ما كان البيض ينزلون فى مكان حتى ينتشر الفزع بين الأهالى ويخشوا أن يجروا عليهم ضروب الكوارث والموت ؛ وإذا وصل نبأ وجودهم إلى المناطق المجاورة هز أهلوها رءوسهم وأكدوا أن أهل سلفادور San Salvador مثلا سيموتون سريعاً ، وتنبأوا بانقطاع المطر عنهم وحلول الطاعون والأوبئة المتنوعة بأراضيهم على وجه التأكيد . . وأصبح الناس حيارى مضطربين قلقين حتى فى سان سلفادور نفسها (٣) . »

---

(١) ا . هـ . مان E. H. Man
On the Aboriginal inhabitants of the Andaman Island,
مجلد ١٢ ، ص ١٠٠ .

(٢) و . هـ . بنتلى : Pioneering on the Congo ، ج ٢ ، ص ١٦٦

(٣) المرجع نفسه ، ج ١ ص ١٣٧ .

وكان الكثيرون من أهالى هذا الإقليم نفسه يظنون فى بادىء الأمر أن البيض بعض الأموات السود الذين بعثوا من قبورهم ... كثيرا ما كنت أسمع الناس ينطقون بكلمة « باريمو » حينما يتحدثون عنى فى أثناء الفترة الأولى من إقامتى فى « لوكو ليلا » Lukolala . وأخيرا عرفت أن هذه الكلمة معناها « شبح » إذ أن الأهالى كانوا قد ظنوا أنى من أموات الافريقيين الذين رجعوا إلى الأرض من جديد ببشرة بيضاء[1] » — « دعونا الرئيس إلى الجلوس معنا ذات مرة فجاء وصافحنا بيده ثم راح يتأمل اليد التى قبض عليها مستغربا وقال : لستم بشرا ، ولكنكم أرواح . » وأجبته بأننا بشر حقيقيون ، وأن الحرارة الطبيعية تسرى فى أجسامنا ، وأننا نأكل وننام كغيرنا من البشر (والواقع أن أحد الأصدقاء كان قد جاء إلينا أثناء وجود الرئيس وقدم لنا عنزة لعشائنا) ثم سألناه قائلين : هل تظن أن الأرواح تأكل وتنام؟ ولكنه أجاب مكررا قوله : « لستم بشرا ولكنكم أرواح . » فأريته زوجتى وطفلى فوق الباخرة، وقلت له : هل للأرواح أزواج وأطفال ؟ فضحك من هذه الفكرة ، ولعله قال فى نفسه « ولم لا ؟ » ثم أجاب بقوله : « أنتم أرواح ؛ ليس فيكم من خير . لماذا تجلبون لنا الشرور دائما ؟ إن أهلنا يموتون ، ومزروعاتنا لا تنتج إلا قليلا . وقد تفشى الهلاك فى معيزنا وطيرنا وانهالت علينا الكوارث والأمراض . وأنتم السبب فى كل هذا فلماذا تفعلون ذلك ؟ لماذا لا تتركوننا وحالنا ؟[2] »

وسواء كان البيض أشباحا أم أرواحا ، فإن الأهالى يعتقدون أنهم ينتسبون إلى عالم القوى الخفية أو يتصلون به اتصالا وثيقا على الأقل . وهكذا نرى أنهم اعتبروا مجرد ظهور البيض فألا للمصيبة ، وبالتالى سببا لها . ولذلك كانوا يحملونهم مسئولية الحوادث التى تعقب وصولهم ، ولاسيما إذا كانت

---

(١) ا . ج . جليف Glave :
Six years of Adventure in Congo Land ، ص ٢١٢ .

(٢) هـ . م . بنتلى : The Life and Labor of a Coogo pioneer ، ص ٢١٢ .

من حوادث الأوبئة أو الموت المفاجيء . وكثيرا ما ذاق المبشرون الويل » في الأقيانوسية مثلا ، من جراء هذه المصادفات . والواقع أن أول اتصال الأوربيين بالأهالي كان شؤما على هؤلاء الأخيرين في غالب الأحيان . فكان الواقع يصدق مخاوفهم بصورة غريبة. يقول وليامز : إن معظم الأمراض التي اجتاحت الجزيرة أثنـــاء إقامتي بها جاءت بعد ظهور السفن . . . وكانت ضروب الاتصال الأولى بين الأوربيين والأهالي يعقبها دائما ظهور الحمى والدوسنطاريا أو بعض الأمراض الأخرى التي تذهب بعدد كبير من الناس. وقد هلك من جراء ذلك ما يقرب من نصف السكان في جزيرة رابا Rapa[1] ». وفي « تنا » Tanna [هبريدة الجديدة] « أراد رجال الدين أن يقتلونا لاعتقادهم أن وجودنا قد زاد سعالهم بلا مراء . . . وكان الجميع يعتقدون اعتقادا جازما أن وباء الانفلونزا قد زاد انتشارا وحدة منذ أن زارهم البيض في هذه السنين الأخيرة . بل لعل هذا الاعتقاد مشترك بين سكان المحيط الهادى جميعا وليس قاصرا على سكان « تنا »[2].

بلغ من خوف الأهالي من الأمراض أقصى حدوده . والمرض بمعناه في نظرهم التأثير الغيبي الضار الذي يعمل عمله عن طريق المرض لذلك أصبحوا يعتبرون مواطنيهم الذين يغادرون الجزيرة ثم يعودون إليها بعد فترة خطرا لا يقل عن خطر الأجانب . وقد رأى مرى Murry شخصا منهم يعود إلى « سفيدج ايلاند » Savage Island بعد إقامته فترة في ساموا Somoa فلاحظ أنه : « في اليوم الأول من عودته اجتمع خلق كثيرون مدججون بالسلاح يريدون قتله ، ولم يكد ينزل المسكين فوق اليابسة حتى صمموا على أن يعيدوا حقيبته وأدواته الشخصية والزورق الذي أعطاه إياه أهل سموا فوق السفينة.

---

(١) وليامز Williams :
A narrative of missionary enterprises in the South Sea Islands
ص ٢٨١ — ٨٢ .

(٢) ج . تيرنر Nineteen years in Polynesia ، ص ٢٨ .

نفسها ، بحجة أن هذا الخشب الأجنبي يحمل المرض . فناقشهم ورجاهم أن يختبروا الخشب ليتحققوا أنه من نفس الخشب الموجود فى جزيرتهم. أما عن نفسه هو فقد قال لهم أنتم تعرفون أنى من هذا البلد وأنى لست إلها (أى لست أحد المــوتى ولا الأشـباح) ؛ وإنما أنا بشر مثلكم وليس لى أى سلطان على المرض ... » ولما أقبل الليل لم يعرف له مكانا يأوى اليه، لأنهم رفضوا أن يسمحوا له بالنوم فى بيوتهم خوفا من الدنس[1] . » — « وبعد أن بدأوا يسلمون بركوب السفن الاوروبيه ، ظلوا وقتا طويلا لا يستعملون الأشياء التى يحضرونها منها إلا مع الاحتياط الشديد ، فكانوا يعلقونها أولا فى الخلاء لمدة أسابيع تطهيرا لها (٢) . » — « واجتاحت الدوسنطاريا بعض أجزاء الأرخبيــل [هبريده الجديدة] ، ولكنها كانت على أشدها فى جزيرة « ايرمنجا » Eromanga فعزا الأهالى ذلك إلى بضع بلط بقيت من إحدى السفن التى جاءت للبحث عن شىء من خشب الصنـدل ، ورموها فى البحر . ويقدر عدد الذين ماتوا فى هذه الفترة بثلث سكان الجزيرة (٣) . »

وهكذا نرى أن الأهالى لا يرتابون فى أشخاص البيض فقط ، بل يعتقدون أنهم وكل ما يأتى منهم أو معهم ، وكل ما يتصل بهم يجلبون العدوى والموت . وهم لا يعتقدون ذلك من أجل أسباب العدوى الإيجابية التى نألفها ، فان هذه الأسباب لا ترد على خاطر البدائيين ، ولكنهم يزعمون أن البيض يجلبون الضرر إن طوعا وإن كرها لإنهم ينتسبون إلى العـالم الخفى . يقول الأستاذ جروب ، وهو أول رجـــل أبيض عاش بين قبائل اللنجوا « Languas » فى الشاكو الكبرى : « اعتقدوا أنى قادر على كل شىء ، وأن فى استطاعتى تخدير الناس والحيوانات ، وإثارة ريح الجنوب والعواصف كما أشاء ، وإزالة الأمراض

(١) ا . و . مرى Missions in Western Polynesia : A. W. Murry
ص ٣٦ — ٦٣

(٢) المرجع نفسه ص ٣٨٨ .

(٣) المرجع نفسه ص ١٧٨ .

إذا أردت . . وقالوا إن فى مقدورى أن أحسد وأن أعرف المستقبل ، وأن أكشف عن أسرار الناس ، وأعرف جميع تنقلاتهم فى جميع أجزاء البلاد ... وأن أطرد حيوانات الصيد من أى إقليم كما أريد وأن أتكلم مع الموتى (١) . »

وبالاختصار كان الأهالى يخافون الأستاذ « جروب » باعتباره ساحرا ، ولكنه يفوق غيره من سحرة البلاد الأصليين فى القدرة على فعل الشر ، لأنه جاء من آفاق بعيدة .

وظل الأهالى زمنا طويلا يعتقدون أن الأوربى يتمتع بقدرة غيبية غامضة ، حتى ذهبت عنهم دهشة المفاجأة الأولى ، ورأو البيض يعيشون بجوارهم ويأكلون وينامون ويموتون مثلهم . « فى أفريقية الجنوبية اعتبر الأهالى أن جميع المبشرين الأولين من السحرة دون استثناء . . ولم يستطع أحد من المبشرين الذين نزلوا عليهم (يعنى قبائل كزوسا من الكفرة Les cafres xosa) منذ البداية حتى الآن أن ينجو من تهمة السحر . ولهذا السبب بوجه خاص اضطر « فان دركمب » Van der kemp نفسه إلى مغادرة البلاد . فقد أصيب الإقليم ذات مرة بجفاف عظيم ، وأرسلت اليه الملكة الأم رسولا يأمره بانزال المطر وهددته بأن تعامله معاملة الأعداء الخونة إذا لم ينزل المطر فى ظرف ثلاثة أيام ... ومن حسن الحظ أن تصادف نزول المطر قبل فوات المدة المقررة فنجا « فان دركمب » هذه المرة . ولكن هذه المصادفة أغرتهم بتكرار الطلب كلما خافوا الجفاف . فلما لم ينجح فى إدرار المطر مرتين متواليتين رغم تضرعاته ، اضطر إلى ترك البلاد محافظة على حياته . (٢) » وكذلك الحال عند « الزولو » المجاورين لقبائل الاكزوسا « فكان الأهالى فى بادىء الأمر لا يفهمون حقيقة المبشر ورسالته كما يفهمونها هذه الأيام . لذلك كانوا يتوجهون اليه طالبين أن

---

(١) و . ب . جروب Grubb :
An Unknown people in an unknown land جـ ١ ، ص ٤٧ .
(٢) هـ لشتنشتين ، Reisen im südlichen Afrika ، ص ٤١٠ — ٤١١ .

ينزل عليهم مطراً غزيراً ، حينما يحتاجون إلى الماء . بل يبدو أن الكثيرين منهم لا يزالون يعتقدون حتى أيامنا هـذه أن للمبشر سلطانا سحريا على السحب ... هذا ولما كان المبشر يلبس بطبيعة الحال ملابس سميكة داكنة حينما تهب رياح شديدة ممطرة ، فقد استنتجوا وجود صلة غيبية بين الحـــلة السوداء والمطر الغزير [١] .» «ولم يفت موزيلكاتسه Moselkatze أن يسأل مفات Moffat عما إذا كان يستطيع إنزال المطر [٢] .»

وقد مرت على قبائل « البتشوانا » فـــترة طويلة من الجفاف ، فاتهموا المبشرين فى أثنائها أكثر من مرة بأنهم هم السبب . « لم يمض على عودتى من رحلة قمت بها إلى جركواتون Griquatown غير زمن وجيز حتى اكتشف الأهالى هذا السر العجيب ، وهو أن الذى يمنع المطر عن النزول عمود من الملح كنت قد أحضرته معى إلى القرية .. وهاج الشعب بمضى الزمن وانفجر باللعنات ضدى وضد زميلى « هاملتون » لاعتقادهم أننا السبب فى جميع مصائبهم . وكانوا يزعمون أن ناقوسنا يخيف السحب حينما يصلصل فى أوقات الصلوات . ولم تنج الصلاة نفسها من اتهامهم ولومهم . فقد قال لى أحد الرؤساء وهو يتفجر من الغيظ : أليس صحيحا أنكم تسجدون فى بيوتكم ، وأنكم حين تصلون توجهون كلامكم إلى كائن ما من الكائنات الشريرة التى تحت الأرض ... ، وأخيراً قد يحار صانع المطر الوطنى فى أول الأمر ولا يدرى ماذا يصنع ، فيتهم المبشرين صراحة ويقول « ألا ترون أن هاملتون ومفات ينظران إلى السحب حينما تعبر؟ » فيؤمن على كلامه جميع مواطنيه ، وحينئذ يضيف قائلا إن وجوههم البيضاء تخيف السحب ، وليس لنا أن نؤمل فى نزول المطر ماداموا فى البلاد [٣] .»

---

(١) القس ل . جروت L. Grout : Zululand ، ص ١٣٢ — ١٣٣ .

(٢) ا . ميرنسكى A. Merensky : Erinnerungen aus dem Missionseben in S.-O. Afiika ، ص ١٥٤ .

(٣) المرجع نفسه ص ٣١٩ — ٢٥ .

لوحظ وجود هذه الظواهر فى أماكن أخرى مثل سومطره ، وبرنيو وأمريكا الجنوبية ، الخ فقد اعتقد الأهالى فى كل مكان أن المبشرين الأولين سحرة قادرون ، لا لأنهم مبشرون ،فتلك الصفة لم يكونوا يفهمونها بأية حال ، ولكن لمجرد أنهم من البيض الذين يستحوذون على قوى سحرية مخيفة . « بدأنا نتكلم عن نقل مقر البعثة (لعدم وجود الماء) فسألنا فاكى Fakee قائلا «ولماذا لا تنزلون المطر ؟ إنى أعرف جيدا جفاف هذا المكان ، وقد اخترته لكم قصدا ، ظنا منى أنكم ستنزلون مطرا من أجلكم ، وأننا سنستفيد منه معكم . » فرأيت من العبث أن أجادله فى ذلك . ثم أضاف قائلا : « لماذا تكلمنى عن الله ؟ إنك أنت الله فأعطنا المطر . [1] » وهم يوجهون هذا الطلب إلى كل شخص أبيض يقيم فى بلادهم . فمن ذلك ما رواه أحد الموظفين الأوروبين من أنه تلقى مثل هذا الرجاء من قبائل « البنجالا » فيقول : « جاءنى وفد منهم فى المساء وطلب مقابلتى ، ثم رجانى أن استعمل قدرتى السحريه فى جعل المطر يكف عن النزول . فلما لم يصدقوا اعترافى لهم بعجزى عن ذلك ، رأيتنى مضطرا إلى إلقاء درس فى الجغرافة الجوية على هؤلاء العوام (٢) . »

— ٢ —

إذا كان البيض سحرة قادرين يتصرفون فى قوى العالم الخفى كما يشاءون ، فلا بد أن يكون لأسلحتهم وأدواتهم هذه الخصائص السحرية أيضا . لذلك يفسر البدائيون قوة تأثيرها بهذه الخصائص ، بدلا من أن يلاحظوا صنعها وطريقة سيرها . وهنا تسنح لنا الفرصة النادرة نوعا ما بأن نرى مسلك العقلية البدائية حين تجد نفسها أمام أشياء جديدة كل الجدة بالنسبة اليها . ففى استطاعتنا فى تلك الحالة أن ندرك بصورة حية الموقف الذى تتخذه تجاهها على الفور .

---

(١) ا. ستيدمان : Wadnerings & Adventures in the interior of South Africa ، جـ ٢ ، ص ٢٨٢ .

(٢) ك . كوكيا . Sur le haut Congo ، ص ٢١٤ — ٥ .

وليست الأشياء الجديدة هنا إلا الأسلحة النارية . « الفكرة التي لدى عقلاء « الدياك » عنها فكرة خرافية . فلا يكاد الواحد منهم يسمع انفجار السلاح ، حتى يظن أن القذيفة تتجه اليه فى خط مستقيم . فيجد فى الهرب ولا يعتقد أنه أصبح فى مأمن منها إلا إذا انقطعت ضوضاء البارود . لذلك نرى الشخص من الأهالى يسمع انطلاق مدفع على بعد خمسة أميال ، فيبادر بالعدو بأسرع ما يستطيع ، دون أن تفارقه حالة الفزع التى استولت عليه منذ اللحظة الأولى . وليس لديهم أية فكرة عن مدى قذيفة البندقية . فكثيراً ما خرجت مع سلجى Selgie وغيره من الرؤساء ، وأطلقت النار على بعض القردة والطيور . الخ . فكانوا إذا رأوا طائراً كبيراً يبعد كثيراً عن متناول سلاحى ، طلبوا إلى أن أطلق عليه ، فاذا رفضت غضبوا وظنوا أنى أتعمد رفض مطالبهم . هذا إلى أنهم يعتقدون أن القذيفة لا تخطىء مرماها ، مادامت قد أطلقت ، حتى لو رأوا أن الطائر الذى أطلقت عليه قد طار من جديد . وهم يظنون فى هذه الحالة أن القذيفة تتابعه . ولا بد أن يسقط فى نهاية الأمر .[1] » ، بسبب قوة السلاح السحرية .

لهذه الأسباب إذا رأى هؤلاء « الدياك » بعض الأوربيين يطلقون بنادقهم ، لم يفكروا فى ملاحظة مايحدث فى الواقع ، ولا فى تأمل الظروف التى يحدث فيها ؛ وذلك لأنهم يوقنون بأن السر فى تأثير القذائف القاتل يرجع فقط إلى القوة السحرية التى وضعها البيض فى اسلحتهم . ولذلك يعتقدون أن القذيفة لا بد أن تصيب هدفها مهما بعدت المسافة . فإذا لم تصبه كان معنى ذلك أن الأوروبى لم يرد لها أن تصيبه ، أو أن تأثيرا أقوى من تأثيره قد تدخل لحال دون ذلك . وكل ذلك يدل على أن الأهالى لا يعرفون التحليل ، ولا يستعملون العقل فيما يرونه ؛ لأنهم لا يجدون فيه مادة للتعقل . فأى شىء يظهر

---

(١) ا . ت . دالتون E. T. Dalton ، فى اقتباس ل هـ . لنج روث ، The natives of Sarawak ، جـ ٢ ، ص ١٢٧ .

أمام البدائى لايثير فى ذهنه مسألة جديدة تضطره إلى التفكير . يقول الأستاذ بكارى Beccari : « كان أصدقائى الكيانيون Keyens يثقون فى بندقيتى ثقة عمياء ، ويعتقدون أن القذيفة إذا انطلقت منها ، طاردت الشخص المقصود بها حتى تصيبه وتقتله[1] . » ويقول اندرسن Anderson عند الكلام على أحد رؤساء الأوفمبو Ovambo : « لا يعتقد هذا البدائى أن بنادق البيض معصومة من الهزيمة فحسب ، بل يظن أيضا أن الرجل الأبيض يستطيع قتل أى شخص بمجرد النظر إليه ودون حاجة إلى استعمال السلاح . » إلى أن يقول : « وإلا فكيف تأتى لننجورو Nongoro أن يموت من مجرد انفجار الأسلحة النارية ؟ » ويبدو أن قبائل « الاوفمبو » لم يعرفوا الأثر المروع الذى تحدثه هذه الأسلحة إلا بعد الهزيمة الشنعاء التى انزلها بهم جرين Green وأصحابه ، لأنهم كانوا لايخشونها قبل ذلك ، ولاشك أن عدم خوفهم منها يرجع الى أنهم كانوا عند انطلاق القذيفة يرون النار وحدها دون القذيفة . ولذلك كانوا يقولون « اننا إذا قذفنا أسيجيها Assegai (أى سهما) ، رأيناه يخترق الهواء . ولكنا عند انطلاق بنادقكم لانرى شيئاً ، اللهم إلا نارا لاخطر منها[2] . » وكان ذلك درسا قاسيا لهم فانقلبوا من النقيض إلى النقيض وبدأوا يضفون على الأسلحة النارية قدرة خلاقة بعد أن خدعوا فى قوة تأثيرها خديعة تامة . » وأغلب الظن أنهم قد بدأوا أيضا يعتقدون اعتقاد قبائل الدياك والكيان فى أن القذيفة تلاحق الضحية التى تحاول الهرب ، وأن الفرقعة هى التى تقتل . وهناك فكرة متداولة بين هنود جزائر « الملكة شارلوت » (كولمبيا البريطانية) لها دلالتها فى هذا الصدد . « لقد حار الهنود وغلبوا على أمرهم لأنهم لم يستطيعوا أن يفهموا كيف يمكن للمدفع الواحد أن يصدر طلقتين دفعة واحدة ، ويعنون

---

(١) إد . بكارى Wanderings in the forests of Borneo : Ed Beccari ، ص ٢٩٧ .

(٢) ك . ج . اندرسون The Okawango river. : C. J. Andersson ، ص ١٤٠ .

بالطلقتين الفرقعة التي تحدث عند خروج القذيفة ، ثم انفجار القنبلة على الأرض بعد ذلك بلحظة [1] » . فهذا فعل مزدوج يتكون من الفرقعة الناشئة عند الانطلاق والتي تستطيع القتل في نظرهم ، ثم الانفجار الذي يستطيع القتل أيضاً ، ويرى أولئك الهنود في هذه العملية تدبيرا سحريا يأخذ بلبهم .

وأخيرا ، كثيرا ما يحدث لمن يبدءون منهم باستعمال البندقية ألا يفكروا في التصويب . وهذا السلوك يتفق تمام الاتفاق مع الفكرة التي في ذهنهم عن الأسلحة النارية . « يمكن للشرطي من « البابو » أن يصير راميا مجيدا إذا علم ودرب ، ولا سيما أنه حاد البصر بطبيعته ... ولكن تعليمه اصابة الهدف من أشق الأمور . فهو منساق بدافع طبيعي إلى توجيه بندقيته نحو الهدف ثم اطلاقها ، دون أن يفكر في التصويب [2] . » — « يتحمس أفراد « البابو » لاطلاق النار بوجه عام ، وقد يوجد من بينهم بعض الرماة الجيدين ، ولكن معظمهم يقنع بالضوضاء التي يحدثها الاطلاق أكثر مما يعمل على إصابة الهدف [3] » — « كان من المعجزات حقا أن رأينا هذا القتال ينتهي دون قتلى أو جرحى (يتكلم عن قتال بين قبائل « البتاك » في سومطرة .) ولكن من حسن الحظ أن هذه القبائل لا تعرف « التصويب » لأنهم يعتمدون في اصابة الهدف على « ديبيتا » Debatta (وهي قوة عليا) اعتمادا كليا . وإذا أصيب شخص اعتقد الجميع أنها هي التي وجهت إليه القذيفة (٤) » . وهذا دليل آخر على أنهم يتصورون قوة الأسلحة الأوروبية على النحو نفسه الذي يتصورون عليه قوة اسلحتهم . وفي « رووندا » Ruanda (أفريقية الشرقية) يرى الأهالي أن السهام والرماح والحراب تستمد كل قوتها من البازيمو bazimo (أي

---

(١) ف . بول F. Poole Queen Charlotle Islands ص ١٠٤

(٢) Annual Report , Papua ، ١٩٠٨ ، ص ٨٥ .

(٣) نفس المرجع السابق ، ص ١٠٠

(٤) Berichte der rheinischen Missions gesellschaft ١٩٠٠ ص ١٨٧
وقارن برنر Brenner: Besuch bei den Kannibalen Sumatra

الاسلاف أو قوى العالم الخفى) ،وأن هذه «البازيمو» تستطيع أن تجرد أمضى الأسلحة من قوتها فى طرفه عين .[١] » وهكذا يعتقد الأهالى أنهم يستطيعون أن يقاوموا فعل الاسلحة الأوروبية مهما كان خطرها ، بل أن يقضوا على هذا الفعل قضاء تاما ، إذا سلطوا على قوتها السحرية قوة سحرية أخرى أعلى منها . ولذلك نرى « الكفرة » يعرضون أنفسهم دون خوف للقذائف والقنابل لاعتقادهم الأعمى أن سحرة قبيلتهم قد حصنوهم ضدها ، وهم يصرون على هذا الاعتقاد رغم الكوارث المروعة التى تلم بهم من جرائه ، ولا يستخلصون من البلاء الذى يصيبهم من ورائه إلا شيئا واحدا ، وهو أن سحر البيض قد تغلب فى هذه المرة أيضا على سحر السود . ولكنهم يقررون أن هذه البنادق لابد أن تفقد قدرتها يوم يستطيع السحرة السود أن يجدوا الطلسم الذى يضمن لنفسه النصر . يقول الأستاذ جونود : « بعد أن قام المحاربون بعملية سحرية معينة أصبح كل واحد منهم يعتقد اشد الاعتقاد انه اصبح غير قابل للاصابة ،وأن القذائف ستتحول وتمر من جانب جسمه ، وانها حتى إذا اصابته ، لن تؤذيه بل ستسقط فوق الأرض دون أن تصيبه بأذى (٢) . »

— ٣ —

ليست الكتب والكتابة فى نظر البدائيين بأقل غرابة من الأسلحة النارية ، ولكنهم على كل حال لايحارون فى تفسيرها هى الأخرى ؛ لأنهم يعتقدون أنها من أدوات العرافة . يقول الأستاذ « مفات » فى كلام له عن بعض البتشوانيين : « كانوا يرتابون فى كتبي ويظنون أنها « بولا » bola خاصة بى

---

(١) الأب ا . ارنو P. A. Arnoux Le Culte de la Societé secréte des Imandwa au Ruanda فى Anthropos ، مجلد ٧ ، ص ٢٨٨ .

(٢) ه.ا. جونود H. A. Junod The life of a South African tribe; ، ج١ ، ص ٤٣٩ — ٤٠ .

« البولا زهر يستخدم فى العرافة »(١). » وكذلك يقول لفنجستون : « الفكرة السائدة عندهم هى أن كتبنا أدوات للعرافة . (٢) » وأظننا لانزال نذكر ذلك الحديث الذى دار بين أحد أهالى الترنسفال وبين المبشر الذى كان يلومه على تمسكه باستشارة القداح العظمية ، حتى انتهى الترنسفالى بقوله : هذا كتابنا وإذا كنت تقرأ الكتاب المقدس كل يوم وتؤمن به ، فنحن أيضا نقرأ كتابنا المقدس .(٣) » فهم يعتقدون أن الكتاب ، مثل العظام ، ينبىء بالمستقبل ويكشف عن المستور ، ويقوم بوظيفة النصح والارشاد ، أى أنه بالاختصار قوة غيبية . ويظن « البارتسيون » أن الفرق الوحيد بين « الليكوالو »Lequalo الذى يستخدمونه و « اللكوالو » الذى تستخدمه البعثة ينحصر فى أن هذا الأخير عبارة عن كتلة مختلطة من العلامات الصغيرة السوداء المرقومة فوق الورقة ، فى حين أن اللكوالو الخاص بهم أقرب إلى الفهم دون شك ، لأنه يتكون من أشياء صلبة(٤) . . » — ويقول لفنجستون أيضا : « يعتقد الأهالى الذين لم يتعلموا القراءة بعد ، أن معرفه الحروف لغز لا يمكن الوصول إلى قراره ، لأنها لا تشبه شيئا مما تقع عليه أبصارهم ؛ وإذا أردنا أن نعلمهم رموز الكلمات لم نجد لدينا من وسائل الإيضاح غير السبورة . وهم يعتبرون أن قراءة الكتب والوقوف فيها على بعض الحوادث التى وقعت فى أماكن بعيدة أو فى أزمان ماضية من قبيل المعجزات . ولا يستطيع المرء أن يشرح لهم ذلك بأية وسيلة من الوسائل، ماداموا لم يتعلموا القراءة بعد(٥) . . » — « جاء إلى

---

(١) ر . مفات R. Moffat : Missionary labours and scenes in South Africa ، ص ٣٨٤ .

(٢) لفنجستون Livingstone : Zambesi and its Tributaries, ، ص ٥٥٧

(٣) انظر ما تقدم فى الفصل السابع ، ص ٢١٤ .

(٤) ف . س . ارنوت F. S. Arnot : Garenganze ، ص ٧٥ .

(٥) لفنجستون : Miasionary travels and researches in South Af:ika

سيخوم ذات يوم وسألنى عما إذا كان الأستاذ بريس Erice فى طريقه إلى البعثة، فأجبته بأنى لاأعرف عن ذلك شيئاً . ولكنه رد على بقوله : اذن فاطلب إلى كتبك ، وستراها تنبئك بالخـــبر اليقين . » « لما ذهبت إلى بلاد « الماتبيل » Matibeleرأيت ان جميع من اتصلت بهم من الأهالى تقريباً ينظرون إلى الكتب على انها من « الأشياء المقدسة » او من « ادوات العرافة » فى دين البيض . ولذلك كانوا يعتبرون أن « تعلم الكتب » ترويض جدى على ممارسة عبادة البيض ، وينظرون إلى تعلم القراءة كما ننظر نحن إلى التعمد ، ولم يكن ليدور بخلدهم أنه يمكن للشخص أن يتعلم القراءة ثم يبقى على وثنيته (١) . »

تلقى هذه الملاحظة الأخيرة ضوءا ساطعا على ما تمثله القراءة فى نظر العقلية البدائية فهى عملية سحرية وظيفتها أن توفر للبيض ، دون شك ، كل ما يمكن للسود أن يطلبوه إلى الأحلام والرؤى وقداح العظام . وإذا كنا نحن نطلب ممن يعتنق المسيحية أن يتعلم القراءة ، لكى يستطيع متابعة العبادة والعلم بالكتب المقدسة فإن، الأهالى على العكس من ذلك يعتقدون أن من يتعلم القراءة ينقلب مسيحيا والواقع أنهم حين يهجرون قداح العظام إلى قراءة الكتب يكفون عن دعاء القوى الخفية والأسلاف الذين كانوا يدعونهم ويستشيرونهم من قبل . ولكنهم يظنون أن القراءة ستقوم لهم مقام هذه القوى وتمدهم بضروب الكشف التى كانت تمدهم بها ، غير أن المصادر التى تتصل بالكتابة أعلى من قواهم الأولى ، ولذا لا بد أن تكون المعلومات التى تمدهم بها أكثر من غيرها. « كانوا يتعلمون القراءة لاقتناعهم بأن هذا العلم العجيب ترياق يشفى جميع الأدواء ، وأنه طريق السعادة بجميع أنواعها ؛ ولكنهم كانوا إذا أصيبوا بحادث ما ، ارتابوا فى قوة هذا العلم وألقوا بأبجديته فى سلة المهملات (٢) . فتعلم القراءة معناه فى نظر الأهالى تغيير الدين .

---

(١) ماكنزى Ten years north of the Orange river ، ص ٣٣٦ .

(٢) Missions évangéliques ، مجلد ٤٠ (١٨٦٥) ، ص ١٧٠ .

كيف تستطيع الحروف المطبوعة أن تكشف لمن يقرؤها عن مثل هذه الأشياء ؟ الواقع أن العقلية البدائية لا تبحث عن أى تعليل لذلك، كما لا تسأل عن الطريقة التي يمكن بها للبندقية والمدفع أن يحملا الموت إلى مسافات بعيدة. فالكتب عندهم بمثابة المرايا . «حينما رأى «كفرة الاكزوسا» بعض الاوروبيين ولمحوا معهم الكتاب لأول مرة سموه « نادى Nadi» « مرآة ثم أضافوا إلى هذه الكلمة عبارة أت هيتا (ot'heata) (للكلام) أى « (مرآة) الكلمات » . ومنذ ذلك الحين صاروا يطلقون على المرآة : نادى أك هنجيلا nadi ok'hongeela أى مرآة للنظر (١) ». وكذلك كان الحال فى الكنغو حيث يقول أحد الباحثين «كانت قراءتى فى الكتاب تثير الريب فى نفوسهم . وكانوا يعتبرون الكتاب أداة سحرية تمكننى من رؤية المستقبل البعيد ، بل قد طلبوا إلى ذات مرة أن أقرأ فى هذه « التلا تلا » talla talla (المرآه) لأخبرهم عما إذا كان طفلهم المريض سيبرأ . (٢) » ولكن البدائيين يعتقدون بالأحرى أن الكتاب «يتكلم». «سأل أحد « البتشوانيين» يوما عن تلك الأشياء المربعة التى كانت فوق المنضدة، فقيل له إنها كتب وإن هذه الكتب تأتى بالأخبار . فلم يلبث أن قرب أذنه من الكتاب . ولكنه لما لم يسمع شيئا التفت إلى من حوله وقال « إن هذا الكتاب لا يقول لى شيئا » ثم أخذه بيده وهزه قليلا ثم وضعه ثانية وهو يقول: « لعله نائم ! » وحدث مرة أخرى أن بعثت إلى زوجتى بلفافة مع أحد الأهالى فتناولت منها كتابا وجعلت أقرؤه بصوت مرتفع أمام رئيس يعرف ماهية الكتابة ، فلما سمع الرسول ذلك ارتعد من الخوف وصاح قائلا « لن أحمل خطابات بعد اليوم ، فلو أن هذا الخطاب كلمنى فى الطريق لاعترانى خوف

---

(١) هـ . لشتنشتين Lichtenstein : Reisen im südlichen Africa ، ج ١ ، ص ١٦٥ .

(٢) ا . ج . جليف E. J. Glave : Six years of Adventure in Congo ، ص ٧٤ .

شديد . » وطلب من رسول آخر أن يحمل خطابا ؛ فأبى أن يحمله إلا بعد أن أنفذ فيه رمحه حتى لا يستطيع الكلام فى أثناء الطريق (١) . » . « وذهب بعض شباننا إلى إحدى القرى منذ زمن وجيز لكى يبشروا بالأنجيل ، وأمسك احدهم بالعهد الجديد فى يده ، وأخذ يلوح به ويقول إنه لا يفعل أكثر من ترديد ما يقوله كتاب الله . وحينئذ تناول « سيشاشى » Sechachi الكتاب ورفعه إلى اذنه ثم صاح قائلا : « هذا كذب ، أنى حاد السمع وبالرغم من ذلك لم أسمع من الكتاب كلمة واحدة . فانفجر القوم بالضحك والسخرية (٢) . »

وإذا كان البدائيون يعتبرون أن القراءة مجرد عملية سحرية تمكن صاحبها من الرؤية أو السماع فانهم لا يعتقدون بطبيعة الحال أنها تحتاج إلى تعلم تدريجى وبذل مجهود متتابع الحلقات ، بل يرون أنها تحصل دفعة واحدة . « كانوا (يعنى قبائل البتشوانا) يودون من صميم أفئدتهم أن يستطيعوا قراءة الكتب معى ، ولكن يبدو انهم يفترضون وجود « طريق سحرى » يوصل إلى المعرفة . ولذلك استقر فى روعهم بكل بساطة أن هذا الفن يمكن تحصيله دفعة واحدة ببذل مجهود ذهنى واحد ، أو باستخدام طلسم سحرى يعتقدون أنى استحوذ عليه . وكان قد سبق لى أن عالجت بعض المرضى بالدواء واتفق أن كان أحدهم فى حالة خطيرة فشفى من علته بعد أن أجريت له حجامة فى ذراعه . ولما كان مطببوا البتشوانيين يجمعون عادة بين استعمال الدواء واستعمال الطلاسم ، فقد ظن الأهالى بطبيعة الحال أنى أمتلك طلسما يستطيع إقحام القدرة على القراءة

---

(١) ر . مفات فى Missions évangéliques ، مجلد ١٦ ، ص ٢٠٧ـ٢٠٨ . وقارن جرانتز Grantz ، حيث يقول فى كتابه History of Groenland ج ١ ص ٢٣٠ : « كان الأهالى فى أول اتصالهم بالأوربيين يخافون كثيراً ذلك الورق الذى يتكلم ، وكانوا لا يجرؤون على حمل خطاب أو مس كتاب ، معتقدين أنه لا يمكن لأحد أن يقول لآخر افكاره بوساطة بعض النقوش السوداء التى تسطر على الورقة البيضاء إلا بمساعدة السحر . وكذلك كانوا يعتقدون جديا أن القس ، حين يقرأ لهم وصايا الإله ، لابد أن يكون قد سمع أولا صوتاً آتيا من الكتاب » .

(٢) missions évangéliques ، مجلد ٣٦ (١٨٥٦) ، ص ٩٦ (مارتان) .

فى رءوسهم .(١) » وكذلك الحال لدى قبائل « الأشنتى» Achantis «كان من بين ما قاله لنا أوبوكو Opcku :أعطنى أيضاً شيئاً من سحرك لأدلك به عينى فأستطيع قراءة ما هو مطبوع . » فأجبناه بأنه أصبح هرما وأننا سنعنى بتلقينها لأولاده . وهنا انفجر بالضحك وذهب (٢) .»

ولكن لما يئس السود من الحصول على سحر يهبهم ملكة الكتابة دفعة واحدة ، اتجهوا إلى تعلمها بالطريقة المعتادة ، وإن كانوا لم يؤمنوا بها كثيراً . «بدأ هؤلاء البسطاء عملهم باشمئزاز مفرط ، قائلين إنه من المضحك حقا أن يؤمل أحد السود فى الوصول إلى تحصيل تلك المهارة التى تمكنه من جعل الورق يتكلم . ولكنهم استسلموا للمحاولة تحت الحاحنا الشديد . ولم يلبثوا أن اظهروا شيئاً من النجاح التدريجى الذى لم نكن ننتظره منهم ، وكان كل اجتماع جديد يزيد أملنا فى النجاح النهائى . واخيراً انفجرت المعجزة الكبرى : فى صبيحة يوم مبارك اكتشف عدد من تلاميذنا يبلغ العشرة أوالاثنى عشرة تلميذاً أنهم استطاعوا دون معاونة الأساتذة أن يفهموا بعض الجمل التى لم يكونوا قد دربوا على قراءتها من قبل . فأحدث هذا الحادث دوياكبيراً . وأعلن عرافو البلاد اعتقادهم بأننا نقد حولنا قلوب مواطنيهم بواسطة «مرشح قوى جدا (٣) . » ولهذه الملاحظة الأخيرة دلالتها الهامة فهؤلاء العرافون يعتقدون أن مواطنيهم الذين تعلموا القراءة ، قد غيروا دينهم ، أى أنهم هجروا ما يصح أن نسميه « عبادة الأسلاف » . ولكن المبشرين ، أولئك السحرة العظام ، لم يكونوا ليستطيعوا الوصول إلى ذلك ، لو لم يستعملوا وسائل سحرية جبارة . «الفكرة القائلة بأن الوسائل المادية والخارجية يمكنها أن تؤثر على الروح وأن تغير

---

(١) رءمفات Missionary labours and scenes in South Africa ، ص٥٩٩

(٢) رمسيير وكونه Ramsayer und Käne : Vier yahre in Asanti ص ١٢٣ .

(٣) ا . كزاليس E. Casalis : Les Bassoutos ص ٨٦ — ٨٧ .

اتجاهها فكرة عميقة الجذور عنـــدهم ، حتى إنهم عزوا كل حالات اعتناق المسيحية التي شهدوها في بادىء أمرهم إلى وجود مادة غامضة يستحوذ عليها المبشرون ويعطونها جميع من يترددون عليهم على غير علم منهم . (١) » وبسبب هذا المعتقد » يحاول فاكي Fakee بكل الوسائل أن يصم أذنه حين يكلمه المبشر عن تعليم أولاده القراءة . لأنه كان يشمئز حين يفكر أن من يعرف القراءة يستطيع أن يصور صوت اسمه على الورقة ، ولعـــل ذلك يرجع إلى خوفه الخرافي من أن هذا العمل قد يمكننا من سحره (٢) . » وعند قبائل « البنجالا » في الكنغو العليا « كم يسمع المرء من صياح ومناقشات لا آخر لها عند دفع الأجور ! لذلك سجلت أسماء العمال المشتغلين ولشد ما كانت دهشتهم حينما سمعوني أعيدها على مسامعهم بعد بضع ساعات . وكانت هذه هي المرة الأولى التي فهموا فيها القصد من الكتابة ، مع أني كثيراً ما أخبرتهم من قبل بأن الكتابة تعد حارس الكلام . ومع ذلك فقد استمروا على أن ينسبوا اليها خصائص غير عادية ويزعموا أنها هي التي تمكنني من الاتصال « بناسي Ne'assi (يعني الكابتن هنسنس Henssens وبولا متاري Boula matari (ستانلي) رغم بعد الشقة بيني وبينهم ، وأن الفضل في صنع المنسوجات يرجع اليها . (٣) »

ويظل الأهالي يعتقدون أن الكتابة قوة غيبية ذات أثر فعال ، حتى بعد أن يفهموا ما هيتها ، وبعد أن يتعلموها . وقد لاحظ ذلك الدكتور بشويل لوشه Bechuel Loesche في « اللوانجو Loango حيث يقول : « بقي للقراءة والكتابة احترامهما لدى الأهالي ، وإن كانت الدهشة التي أحدثتها هاتان المعجزتان قد ضعفت قليلا ، بعد أن تمكن بعضهم من تعـــلم القراءة

---

(١) المرجع نفسه ، ص ٢٧٤ .

(٢) ا. ستيدمان A. Steedman : Wanderings and Avuentures in the interior of South Africa ، ج ٢ ص ٢٧٣ .

(٣) ك . كوكيا C. Coquilhat : Sur le Haut Congo ، ص ٢١٦ .

والكتابة .... وكم كان من المناظر المضحكة أن نرى أحدالسود يأخذ بين أصابعه شيئا من الرمل أو التراب ثم يذره بصورة جديه فوق الكتابة التى خطها بالقلم الرصاص . ولكن يجب أن نعتبر هذا العمل مجرد محاكاة مضحكة للبيض ، أذ أن له فى أذهان البدائيين معنى عميقا ؛ فإنهم يعتقدون أن الأرض من شأنها أن تقوى الأشياء وتطبعها بطابع القداسة (١) . »

أما الفائدة الإيجابيه التى تؤديها القراءة والكتابة ، فإنهم لا يقدرونها إلا إلا بعد زمن طويل ... « إذا أراد الرئيس موشيس Moshesh أن يبعث بأوامره إلى رعاياه البعيدين ، استدعى أحد رسله المختصين ،وقال لهما يريد أن يبعث به بكل تفاصيله . فيحتفظ الرسول فى ذاكرته بكلمات سيده بحذافيرها ، ثم يعيدها كما سمعها . وقد برهنت لهم التجارب على أن هذه الطريقـــة فى المراسله أنجع من الخطابات ، لأن من يكتب يضطر إلى أختصار الحديث الطويل فى كلمات قليله ، فى حين أن « المسوتو » mossouto يحتاج إلى التفصيل والاسهاب لكى يفهم ما يراد تبليغه اياه (٢) .»

الملاحظات السابقة مستقاة جميعها تقريبا من جماعات « البنتو » . ولكن نظن أن يجدر بنا ذكر بعض الأمثلة الأخرى للبرهان على أن العقلية البدائية فى كل مكان تتصور القراءة والكتابة على نحو تصورهما فى أفريقيا . فيقول القس سلفادو Salvado : « يسوقنى هذا الحديث بطبيعة الحال إلى الكلام عن مقدار الإجلال الذى يكنه المتأخرون للكتب والأوراق المكتوبة التى يسمونها بالأوراق المتكلمة ، ويعزون إليها قدره سحريه على كشف الأشياء الخفية . وهم مقتنعون بهذه القدرة إلى حد أنهم إذا اختلفوا فى أمر من أمورهم وأرادوا تبرير رأيهم قالوا : « انظر إلى الكتابة أو الورقة التى تتكلم ، وعندئذ

(١) الدكتور بشويل لوشه : Die loango Expedtioin ، ج ٣ ص ٥٨ — ٥٩ .

(٢) missions évangéilques ، مجلد ٣١(١٨٥٦) ، ص ١١٠ (ميدر maeder)

ستعرف من منا على حق (١) . »

وفى استراليا الشمالية « يضفى الأهالى على الأشخاص الذين يحملون رسائل البيض صفة التقديس التى يبعثون بها رسلهم فنراهم دائما يحملون الخطاب فى عصا مشقوقة ، ويرفعونها بشكل يجعلها واضحة للرائين . ولهذه العصا صفة جواز المرور الذى يحمى حامله من الاعتداء عليه . وهم ينظرون إلى الخطاب على أنه كائن مبصر غير اعتيادى . وقد حدث أن سرق أحد الأهالى عودا من حزمة تبغ كان يحملها واكتشف امره . فحمل حملة شعواء على الخطاب الذى كان معه واتهمه بأنه وشى به إلى الرجل الأبيض ، مع أنه أخذ احتياطه حينما سرق العود واخفى الخطاب فى جزع شجرة حتى لا يشى به(٢) . »

وحكى أحد المبشرين عن جزيرة بالك يقول : « كنت ذات يوم مشتغلا بالتدريس فى الفصل ، فلمحت سفينة مقبلة . وقلت فى نفسى لعلها تمر بالشاطىء، ولذلك دخلت فى خلوتى لأحرر بعض السطور . فراح تلامذتى يتأملوننى بأمعان ، وهم على بعد ؛ إذ كانوا يتوهمون أنى وهبت القدرة على التكلم مع الغائبين ؛ وأنى فى سبيل استخدام هذه الموهبه . ولما أقبلت نحوهم سألونى عن نوع المحادثة التى دارت بينى وبين السفينة(٣) . » ومع ذلك فقد كان هؤلاء الأطفال البولينيزيون أنفسهم يتلقون دروسا فى تعلم القراءة . ولم يمنعهم ذلك من الاعتقاد بأن استاذهم الأبيض يخط علامات على الورق ليستطيع التراسل من بعيد مع اشخاص لا يراهم ولكنه يسمع اجابتهم . وفى رارو تنجا

---

(١) ر. سلفادو، Memoires historiques sur l'Australie ، ص ١٨٢ .

(٢) ب سبنسر B. Spencer

Natives Tribes of the Northen territory of Australia، ص٣٦ .

(٣) Annales de la propogation de la foi ، مجلد ٣٨ ، ص١٢٥ (فردريك أوجين إيرو) .

Rarotonga ، كان الأهالى اذ رأوا المبشر يقرأ ، قالوا انه يتحادث مع إلهه . « يعتقدون أن الورقة التى كتب عليها شىء ما تتكلم ، ويدهشون لعدم سماعهم شيئا(١) » ويقول القس لينهارت Leenhardt عن كلدونيا الجديدة: «سبق أن قلنا أكثر من مرة أن أهالى كلدونيا الجديدة يترجمون عبارة «تلقى الإنجيل» بعبارة « تعلم الكتابة(٢) » . » وتكلم بعضهم عن مدينة نياس Nias فقال « طلبنا مرة بعض الترجيلات ثم جلسنا نستريح فى ظل المنزل ، فصاح الرجل قائلا : « احذروا أن يقترب الأطفال من هؤلاء الأجانب لأنهم يحملون بعض الكتب بها . فقد ظن هذا التعس أننا سحرة(٣) .» وفى بورنيو «جاء الكيانيون Kayens إلى الدكتور نيوفنوس ورجوه أن يحمى عششهم بأن يعلق عليها شيئاً من ورق الصحف الذى له تأثير بالغ على سكان وسط الجزيرة ، بسبب تلك الحروف العجيبة التى يرونها مسطورة فوقه . ويعتقد الدياك أن الناس اذا استطاعوا القراءه ، فذلك لأن الحروف المكتوبة تسر فى أذنهم شيئاً ، وتفسر لنا هذه الفكرة اجلالهم لكل ماهو مطبوع ومكتوب(٤) .» وأخيراً نرى أن نختصر هذا السرد بعض الشىء ، فنقول: إن الفكرة التى لدى قبائل « البنهار » Banhars عن الكتابة لاتختلف عن هذه الفكرة عينها «كانوا يقولون للمبشر: «كيف تسمعه فى حين أننا لانسمع صوتا واحدا مما يقوله ! » ثم كانوا يستفهمون منا عن المستقبل لاقتناعهم بأنه لاشىء يخفى على من يعرف « اللابور » Laboor (الكتابة) . فكان بعضهم يسألنا مثلا عن نتيجة حرب

---

(١) ج . ويليامز J. Williams :
A Narrative of missionary enterprises in the South Sea Islands, ص ١٧٥ وقارن ص ١١٨ — ١٢٠ .

(٢) Missions évangéliques ، مجلد ٨٢ ، ج ١ ص ٢٧٦ .

(٣) Berichte der Rheinischen Missionsgesellschaft ، ص ٢١٠ ، ١٨٩١ .

(٤) ا.و. نيو فينويس A. W. Nieuwenhuis : Quer durch Borneo ، ج ٢ ، ص ٣٣٧ .

ما، والبعض الآخر يود أن يعرف مقدار ما بقى له من العمر . وعلى هذا النحو كان يمكننا أن نكسب عيشنا بالاشتغال «بفتح البخت» ، لو اردنا ، ولكنا كنا نجيب بأن الورق لا يستطيع أن يخبر بشيء من هذا القبيل ، فنسمع السائلين يقولون فيما بينهم وهم ينصرفون عنا : انهم يعرفون الجواب جيدا ، ولكنهم لا يريدون أن يتكلموا[1] » .

— ٤ —

هذا هو رأى البدائيين فى الكتب والكتابة ، وهو لا يختلف عن الفكرة التى فى اذهانهم عن الأسلحة النارية وكل الأشياء التى يحملها إليهم الأوروبيون أو تنتجها صناعتهم : إذ أن لديهم تفسيرا معدا من قبل لكل شيء من هذه الأشياء برغم اختلافها فى درجة الغرابة . فهم يعتقدون أن هؤلاء البيض سحرة عظام ، لذلك لا يستغرب منهم أن يحصلوا على كل النتائج التى يريدونها . ولا يعتقد البدائيون بأية حال أن تحقيق هذه النتائج يتوقف على توفر ما نسميه نحن بشروطها الضرورية الكافية ، وانه إذا كان لهذه الشروط من أثر، فهو أثر ثانوى بحت ينحصر دائما فى قدرة البيض على السحر . وهم يفسرون بهذا المعنى كل ما يرونه لدى البيض ، ولو كانوا يجهلونه جهلا تاما . وهكذا كان اسكيموا «الانجماجسالك Angmagasalik يؤمنون بوجود قوة فوق طبيعية فيما كنا نقوم به من مقاييس انثروبولوجية ، مع أننا حاولنا ألا نتيح لهم فرصة لهذا الاعتقاد . وكان الكهول والمرضى أكثر الناس الناس تمسكا بهذه الخرافة . ومن ذلك انى كنت أقوم بقياس جسم أحدهم ذات يوم ، ولم أكد أنتهى من عملى حتى سمعته يصيح قائلا : « لعل يدى تتحسن حالها الآن ! » وكان يشكو منذ زمن طويل من تصلب فى يده ومن آلام فى المفاصل[2] » .

---

(١) Annales de la propagation de la foi ، مجلد ٢٧ ، ص ٤١٢ ـ ١٣ . (خطاب من المبشر كمب Combes) .

(٢) ج . هلم G. Holm : An ethnological sketch of the Amgmagsalik Eskimo ، نشره و . تبلتسر Thabitzer : Meddelelser om Groenland ، مجلد ٣٩ ، ص ٨٦ .

ومن باب أولى يلجأ الأهالى إلى هذا التفسير نفسه ، إذا كانت النتائج المطلوبة تمسهم أو تمس مصالحهم . «كان معز البعثة ينمو ويتكاثر بحالة جيدة ، لذلك أخذ الرؤساء المجاورون ينهالون على الأستاذ بتشانا ليسألوه إعطاءهم السحر الذى يجعل المعز يتكاثر (١) . » - وفى أقاليم آخر من أقاليم افريقية الاستوائية لايبعد عن ذلك كثيرا « طلب إلى الأهالى أكثر من مرة « طبا » لتقوية الكلاب ،لأنهم كانوا يرون كلابنا أقوى وأشد نباحا من تلك الكلاب البائسة التى تهيم على وجهها فى قرى السكان » . ولم يدر بخلد هؤلاء المساكين أن غذاء الكلاب الأوروبية أفضل من غذاء كلابهم ؛ ولعلهم لو أدركوا ذلك ، لظلوا أيضاً يعزون قوة الكلاب الأوروبية إلى السحر ، لأنهم مقتنعون مقدما بأن حالة تلك الكلاب إنما جاءت من سحر يملكه هؤلاء البيض . ويقول المبشر السابق نفسه : « كان الأهالى فى « تيزو » Teso يعتقدون أيضاً أن لدينا سحرا لتبييض الأطفال . وقد اكتشفنا ذلك حين زارتنا زوجة أحد الرؤساء ذات يوم ، ورأت أن طفلنا الذى لم يتجاوز الشهر السادس من عمره أبيض البشرة ، فدهشت لبياضه فى هذه السن المبكرة . وقبل ذلك كانت تظن أن أطفال البيض الأوروبيين يولدون سودا كجميع الأطفال الذين رأتهم من قبل ، ثم يبيضون فيما بعد بفضل مواظبتهم على استعمال طب (سحر) قوى [٢] . » وليست هذه المرأة هى الشخص الوحيد الذى يرى هذا الرأى . ففى « التوجو » Togo « يعتقد الكثيرون من الأهالى أن أى طفل أوروبى يولد بينهم لابد أن يكون أفريقيا ، مادام قد ولد فى افريقية . ومعنى ذلك أنهم يسلمون مقدما أن تأثير الأقاليم أقوى من تأثير الوراثة (٣) . » وعند (البسوتو) « حملت معى إلى العاصمة أول طفل أبيض ولد فى الاقليم ، فهرعت إلينا الأمهات بأطفالهن لمقارنتهم بطفلنا ، ورحن يسألننا عن ذلك العمل الذى عاد

---

(١) الفس ج ماكدونالد . Africana ، ج ١ ص ٤٦ .

(٢) الفس ا . ل. كتشنج On the backwaters of the Nile : A. L. Kitching ص ٢٦٦ .

(٣) ك . مينهوف Afrikanische Religionen : C. Meinhof ، ص ٦٧–٦٨ .

على طفلنا بالصحة للتى يتمتع بها (١) » . والعمل عندهم معناه الطب أو السحر، إذ لاشك أنه لا يعدو فى نظرهم أن يكون طلسما أو طريقة سحرية. ولما كانت الجماعات المفرطة فى البدائية تعتقد أن البيض لا يماثلون غيرهم من البشر ، فإنهم يسرفون فى إغداق الصفات الغريبة على أطفالهم ، بل كانوا ينتظرون ألا يكون لهم أطفال على الاطلاق .فى جزيرة « نياس » Nias « كان الأهالى يظنون، حتى ذلك الحين ،أن أطفال السيد الأبيض لا يخضعون لعارض الموت . . . وكانت الفكرة التى لديهم أنه لا يمكن أن يكون للموت أى سلطان على أطفال التوان (السيد) Tuan ، وذلك على الأقل بفضل ضروب الطب الكثيرة التى لديه (٢) . » ـ وفى غنيا الجديدة الالمانية « لم يدهش الأهالى لشىء مما رأوه مع الأوروبيين حتى الآن بقدر دهشتهم من صغار الأطفال البيض . ولعل السبب فى ذلك أن أفراد « البابو » ظلوا يعتقدون زمنا طويلا أن الأجانب البيض ليسوا بشرا حقيقيين، وأنهم من الأرواح؛ ولذلك لم يولدوا بل خرجوا من الأرض أو نزلوا من السماء التى خلف الأفق (٣) . » ـ وتعتقد قبائل « البنجالا » فى الكنغو العليا أن البيض يخرجون من الماء ، ومنه يحضرون منتجاتهم : « يؤكد الأهالى أننى استخراج القواقع واللآلىء والميتاكو Mitakou من بطن الأرض . ويزعم بعضهم أن هذه البضائع الجميلة تأتى من قاع البحر ، فهم يعتقدون أن الرجل الأبيض انسان مائى، ولذلك كانوا يزعمون أنى أنام تحت النهر . ولكنهم كانوا يعتقدون أيضا أنى أنا الأبنزا Ibonza ، وهو إله أو شيطان يتكلمون عنه كثيراً ، وكنت كلما ألححت فى إنكار هذا النسب فوق الطبيعى، زادوا إلحاحا فى الإعتقاد فيه (٤) . » فمن اليسير أن نرى هنا أثرا لمعتقد منتشر كل الانتشار

---

(١) ا . كازاليس Les Bassoutos ، ص ٨٤ .

(٢) Berichte der rhèinischen missions gesellschaft، ج ١٩٠٦ ص ٣٨ .

(٣) المرجع نفسه ، ١٩٠٢ ص ١٧٤ .

(٤) ك . كوكيا Sur le Haut Congo : C. Coquilhat ، ص ٢١٠ .

بين قبائل البنتو كلها فى إفريقيا ، بل بين غيرها من القبائل . فعندهم أن الأوروبيين يجيئون من قاع الماء . « حينما سألنا « جيكا » Gika (أحد الرؤساء فى قبائل الكفرة) عن سبب قتله بعض أتباعه ، أجاب بأن البيض لا شأن لهم بهذه البلاد ، وما كان عليهم إلا أن يبقوا فى بلادهم، أى فى البحر . وذلك لأن « الكفرة » يعتقدون أن البيض خرجوا من قاع البحر . ومما ساعدهم على ذلك الاعتقاد انهم إذا نظروا إلى سفينة مقبلة ، رأوا ساريتها أولا ثم بقيتها بالتدريج . . . . وهذا ما جعلهم يتوهمون أن البيض من سكان الماء (١) . » ـ « وكثيرا ما سألنى (أحد رؤساء البارتسيين) ، حين وصولنا هذه البلاد للمرة الأولى ، عن السبب فى أننا ظهرنا من جهة الجنوب مع أننا قادمون من الشمال ، وعن الطريقة التى نتبعها فى أسفارنا . والمنسوجات من الأشياء التى دهشتهم إلى أكبر حد ؛ فهم لا يصدقون أنها من صنع أيد بشريه ، ويزعمون أنها تأتى من قاع الماء ، وأن الناس الذين يسافرون على ظهر السفن يجلبونها من هنالك . ويعتبرون أن كل ما هو خارج عن نطاق المعتاد من صنع أهل البحر . وأعتقد أنهم يعتبرون أن هؤلاء السكان نوع من السحرة أو الآلهة الذين يعيشون فى قاع المياه (٢) . » ويقول الأستاذ جونود بدوره : « يبدو لى أن قبائل « التنجا » كانوا يعتقدون فيما مضى أن البيض جميعاً ، لا البرتغاليين وحدهم ، يسكنون الماء (٣) .

ولعل هذا الاعتقاد قد بلغ أقصى درجاته فى الكنغو السفلى : « يعتقد الأهالى الذين يسكنون قريباً من الشواطىء أن البيض يشترون الموتى ، وأنهم يحتفظون بالأرواح فى قاع البحر لتسخيرها فى أعمالهم : فهى التى تنسج لهم

---

(١) القس كامبل Travels in South Africa : Campbell ، ص ٥٢٦ .

(٢) Missions évangéliques ، مجلد ٦١ ، ص ٤٨٠ .

(٣) هـ . ا . جونود The life of a South African Tribe ، ج ٢ ، ص ٣٢٢ .

المنسوجات ، وتصنع الأدوات التي يبيعوها في مقابل الحاصلات المحلية(١)....

... كان « ماتيكو » matiko وآخرون يصحبون أحد المبشرين إلى « بنانا » — فلما وصلوا إليها راحوا يبحثون في خشوع شديد عن موتاهم ، لاعتقادهم أنهم قد يجدون بعضهم بين سكان هذا المكان . ولما رجعوا إلى « سان سلفادور » أخذ مواطنوهم يسألونهم عن أقاربهم المتوفين . ولشد ما كانت خيبة أملهم حين علموا أنهم لم يروا أحدا منهم في « بنانا » . وقد حدث هذا في سلفادور بعد أربعة قرون من استقرار البيض فيها . وكذلك يعتقد الأهالي أن اللحم المحفوظ مأخوذ من لحم الموتى ، فقد كانوا يسمعون دائما أن البيض يشترون أرواح الناس ولا يعرفون غرضهم منها ، والآن زالت حيرتهم بعد أن رأوا علب اللحم ، اذ عرفوا مايفعله البيض بهذه الأرواح . وهم يعتقدون اعتقادا جازما في أن البيض يسكنون في قاع البحر . وذلك لأنهم اذا نظروا من فوق الشاطيء إلى السفن القادمة فوق سطح الماء ، رأوا سواريها أولا ثم مقدمتها وهلم جرا(٢) .»

يمكننا أن نتخيل بسهولة مقدار الدهشة والرعب اللذين استوليا على

---

(١) هناك معتقد من معتقدات غينيا الجديدة يشبه هذا الاعتقاد شبها غريبا . « يعتقد الأهالي أن البيض لم يصنعوا بأنفسهم الأشياء التي يملكونها من بواخر وبلط ومنسوجات ، الخ ، وإنما قد أخذوها من أرواح الموتى . والدليل على ذلك ، مثلا ، أن البلطة إذا كسرت لم يستطع الرجل الأبيض إعادتها سليمة من جديد . فالأرواح تجلب الأشياء من بلادها على ظهر البواخر ، ويخرج البيض للقائها فيستولون على كل ما معها حتى البواخر . وكان الأهالي يرجعون في بادىء الأمر إلى هذا الاعتقاد استئلي المتكررة عما لديهم من أفكار حول الموتى ، فكانوا يظنون أني أريد أن اتصل بالأرواح عن طريقهم بقصد الحصول على حولة أو حولتين من الأشياء الجميلة ... وقد ظن الأهالي أن البيض الأولين الذين وصلوا عندهم من الأرواح «المانا كى» manakai أو «المركاى» markia . وتدل هذه الكلمة على نفس ماتدل عليه كلمة «أوبورو» oboro ، أى «روح شخص ميت » . ويطلقون على الملابس كلمة « أوبورو-تاما » Aboro-toma أى « جلد الروح » ، لندمان Landtman : the folk tales of the kiwai popuan في Acta Societatis scientiarum fennicoe ، مجلد ٤٧ ، ص ١٨١ .

(٢) و . ه . بنتلي ، Pioneering in the Congo ، ج ١ ص ٢٨٢ — ٥٣ .

هؤلاء البدائيين حينما رأوا البوصلة والمنظار المقرب والمرايا الخ، لأول مرة.» ولكنهم لم يلبثوا أن استنتجوا من ذلك أن البيض سحرة قادرون. وقد خرجوا أيضا بهذه النتيجة من رؤية الأشياء المعتادة جدا. يقول الأستاذ ماكدونالد: «الصابون شيء جديد كل الجدة، بالنسبة إلى الأهالى. ويعتبر الاحساس الذى يشعرون به عند لمس النسيج المبلل بالصابون موضع تسلية عظيمة، بالنسبة إليهم. وهم يعتقدون أن الصابون «طب» للمنسوجات، ويعتمدون على قدرته السحرية بوجه خاص أكثر من اعتمادهم على دلك الملابس به[1].»

ونحن نعرف أن البدائيين يعتقدون فى التأثير الغيبي لدواء أطبائهم المحليين. واذا كان هذا رأيهم فى دوائهم، فلا شك أنهم يعتقدون أن دواء البيض لا يؤثر بخصائصه الطبيعية، بل بتأثيره الغيبي. وهم يرون أيضا أن الأشخاص الذين يحولهم المبشرون إلى المسيحية، إنما يتحولون اليها تحت تأثير من هذا القبيل. يقول الأستاذ موفات: «استولى القلق على الكثيرين منهم من جراء هذا التقدم الذى أحرزه «طب كلام الله»، على حد تعبيرهم، وراحوا يجأرون بالشكوى من النظام الجديد الذى بدأ يترعرع، وبلغ من تصميم بعضهم على مقاومة المذهب الجديد أنهم تركوا موطنهم ورحلوا إلى أماكن بعيدة لا تقع تحت تأثير الجو المسيحى. لكن الكثيرين منهم ظلوا يتساءلون فى قلق عما اذا لم نكن قد وضعنا فى ماء النهر الذى يمر أمام منازلنا جرعة من هذا الطب لتحويلهم إلى المسيحية هم أيضا إذا شربوا من مائه (٢).»

وترينا الحادثة الآتية كيف يتصور الأهالى تلك العمليات السحرية المزعومة التى ينشأ عنها اعتناق المسيحية. «فى ١٨٥٦ انتهى احد الشبان من تلقى التعاليم التمهيدية التى تسبق التعميد، فارتاعت اسرته لذلك واعتقدت أنها على وشك

---

(١) الأب ج. ماكدونالد: Africana، ج ٢ ص ٩٦

(٢) ر. مفات: Missionary labours and scenes in South Africa، ص ٥٧٦.

أن تفقده . وحينئذ احتجوا بمرض أبيه وبرغبته فى أن يراه ، واجتذبوه إلى مسقط رأسه بعيدا عن البعثة . وحاولوا فى بادىء الأمر أن يعيدوه إلى الوثنية مستعينين بجميع تصوراتهم وصلواتهم . ولما طال غيابه ذهب بعض سكان البعثة للبحث عنه، فأخبرهم أهله أنه قد مات ودفن . والواقع أنهم كانوا قد كبلوه وأخفوه، ثم راحوا يجرعونه « طبا » (سحرا) يشفيه من « داء الاعتقاد » الكريه ؛ وغسلوا ملابسه وقميصه ليطردوا منها كل ما يمكن أن يكون مستقرا فيهامن مرض الايمان [1] » .

وفى إفريقية الشرقية « يسارع أهالى قبائل البلوبا Baluba باطلاق اسم أدوات السحر (Zaubermittere) على كل الأشياء التى لم يروها من قبل ، والتى يخشون أن تصيبهم بالنجس ... وكانوا إذا رأوا الأدوات التى فى حوزتى اعتقدوا أنى أخطر ساحر وأنى لا أحمل لهم إلا كل شر ؛ وكان يشيع بينهم فزع عام ، إذا رأونى أخرج البوصلة أو الساعة (٢) » . والواقع أنه لا بد أن يكون لهذه الأشياء غير المعروفة لهم أسوأ الخصائص فى نظرهم ، ولذلك كانوا يسارعون بالفرار منها . وقد لوحظ ان أداة التصوير الشمسى تعتبر، فى كل مكان تقريبا ، أشد هذه الأشياء خطرا .

ويقول الأستاذ جونود: « يبدو على الأهالى الجهلة شيء من النفور الفطرى حينما يرون أحد البيض يهم بتصويرهم . ويقولون : « سيسرقنا هؤلاء البيض ويحملوننا إلى بلاد بعيدة لا نعرفها، حيث نظل كائنات محرومة من بعض أنفسها . » « وإذا عرض عليهم الفانوس السحرى، رثوا الأشخاص الذين تعرض عليهم صورهم، وراحوا يقولون : « هذا هو ما يفعلون بنا حينما يأخذون صورنا ! » وذهبت إلى بعض القرى الوثنية النائية، قبل أن تشتعل حرب سنة ١٨٩٤ ،

---

(١) الدكتور فنجهان : Die Berliner Mission in Zululande ص ١٩٧ (خطاب من المبشر بسلت Posselt) .

(٢) هـ . فون فسمان : Wolf Im Innern Afrikas ص ٢٩٩ .

لأعرض الفانوس السحرى على أهلها ، فاتهمونى بأنى أنا الذى تسببت فى هذه الكارثة بيعثى لأناس ماتوا منذ زمن طويل (١) .»

وإذا اعتاد الأهالى رؤية شيء ما ، ثم رأوا فيه تغييرا بعد ذلك . تفشى الفزع بينهم ، حتى لو كانوا يعيشون مع البيض منذ زمن طويل ، فمن ذلك أنهم رأوا ذات يوم باخرة ذات أربع سوارى فى (امبريز) Ambriz ،ولم يكونوا قد رأوا من قبل سفينة ذات اربعة جزوع ! فلم ينتظروا حتى يعلموا حقيقة أمرها .وإنما فروا جميعاً من(أمبريز).وهذا ماوقع ايضاً عندما رجعت الباخرة عائدة من(لواندا) Loanda . ولم يذهب عنهم الخوف إلا بعد ان شاهدوها مرارا عديدة . ولما سئلوا عن سبب فرارهم، أجابوا بأنهم لم يروا شيئا كهذا من قبل ؛ ومن ثم اعتقدوا أن البيض على وشك ان يفعلوا بهم (أى بالسود) شيئا لا يستطيعون فهمه (٢) .»

والأمثلة التى من هـذا القبيل لا تقع تحت حصر ، وسأكتفى بذكر بعض ما شوهد منها فى جماعات المحيط الهادى الجنوبى المتأخرة . وهى ترينا أن انفعال الخوف هو الذى يسيطر على هؤلاء الناس لدى رؤيتهم شيئا يجهلونه ، وأن شدة هذا الانفعال تقضى عندهم على كل انفعال آخر فى بادىء الأمر . فمثلا يروى بعضهم عن قبائل «النارنييرى» Narrinyeri ما نصه: «أنذكر جيدا حين سمع نساء الأهالى دقات ساعتنا الدقاقة لأول مرة فى حياتهن ، فأنصتن إليها فى دهشة ، وسارعن يسألن فى صوت منخفض عما تقول. ثم اندفعن إلى الخروج من المنزل فى حالة فزع شديد، دون انتظار للجواب (٣) .»

ولم يكن الاستراليون قد رأوا ماء يغلى قط ،قبل قدوم الأوربيون إلى استراليا . «وحينما وصل بمفليت Domphlet عندهم ، لم يكن لديهم أية فكرة عن إمكان تسخين الماء إلى درجة الغليان، أو تبريده إلى درجة التجمد . فلما أخذ يسخن شيئاً منه فى إناء من الحديد الأبيض كان قد أحضره من السفينة

---

(١) هـ. ا ، جونود The life of a South African tribe ، ج ٢ ، ص ٣٤٠ .

(٢) ج.ج. منتيريو Angola and the river Congo : J. J, Monterio ، ج١ ، ص ١٢١ — ١٢٥ .

(٣) الأب تالبن The Narrinyeri tribe : G. Talpin ، ص ٦٣ .

الغارقة ، اجتمع أفرادالقبيلة حوله وحول زملائه ، وراحوا ينظرون إلى الإناء حتى بدأ الماء فى الغليان . وهنا أطلقوا سيقانهم للريح يريدون الفرار ؛ وانفجروا بالصياح والصراخ، ولم يستطع أحد اقناعهم بالعودة إلا بعد أن رأونا نلق الماء على الأرض وننظف الإناء . وحينئذ فقط خاطروا بالرجوع متباطئين ، وأهالوا الرمل على المكان الذى صب فيه الماء بعناية تامة ، وظلوا طوال المدة التى أقاءها مواطنى بينهم ينفرون من رؤية الماء الذى يغلى ويفور (١) . »

يبدو أن أول اتصال البدائيين بكل ما هو جديد يشبه تمام الشبه أول اتصال لهم بالماء المغلى ؛ وإن كانوا قد اغرموا به إلى حد الافراط فيما بعد . يقول الاستاذ ماكجلفراى Macgillivray : «استطعت أن أكسب صداقة رجل من الأهالى بما كنت أقدمه اليه من الهدايا الطفيفة من حين لحين ، وكان هذا الرجل على جانب كبير من الذكاء . واتفق أن كنت جالسا معه ذات يوم التقط من فمه بعض الكلمات، فلاحت لى الفرصة أن أريه بأصبعى نصلا مصنوعا من الغاب كان معنا فى الزورق ، وطلبت اليه أن يخبرنى باسمه . ولشد ما كانت دهشتى ، حين أخذ هذا الرجل قطعة من الخشب وأخذ يرينى أن هذا النصل يستخدم فى الحقيقة استخدام السكين . فأردت أن اجاريه وتناولت سكينا ورحت اقطع به قطعة من الخشب بشدة، لأريه تفوق سكاكيننا على سكاكينهم . فذعر الرجل ، وراح يكلم أصحابه بانفعال ويلفت انظارهم إلى ، وهو يحاكى الحركات التى قمت بها عند قطع الخشبة . ولما عرضت عليه السكين رفضها رفضا باتا ثم غادر سفينتنا بزورقه كما ذهبت مجهوداتى فى سبيل إرجاعه عبثا . وقد علمت فيما بعد ان هذا كان موقف الأهالى جميعا بالنسبة إلى أدوات الحديد التى كانت تقدم إليهم. (٢) »

لا يزال اهالى «والان» Ualan من جزائر «كارولينا» ينظرون إلى المرآة

---

(١) وصف رحلة الأستاذ أكسلى Oxley : لمسح مناطق Port Curtis and moreton Bay ، فى النشرات الجغرافية العمليه عن منطقة New Suoth Wales (١٨٢٥) ، ص ٥٩ . وقارن تالين فى The Narrinyeri tribe ، ص ٤٢ .

(٢) ج . ماكجلفراى Macgillivray :
Narrative of the voyage of H. M. S. Rattlesmake,
ج ١ ، ص ٢٩٧ (جزائر باريوارا Pariwara) .

بإعجاب لا حد له بالرغم من طول الفتهم للبيض . وقد أراد بعضهم تجربتها ، فلم اشأ أن أرفض لهم هذه الرغبة ، بالرغم من خوفى ان يسيئوا استعمالها إذا انفردوا بها . والواقع أن أحدهم جرح اصبعه بها ، وكان الجرح بسيطا ولكنه ألقى الرعب فى قلوب الجماعة بأسرها . وصار الجريح فى حالة يأس عميق، حيث أغلق عينيه وجلس فى مكانه بلا حراك، كأنه ينتظر الموت فوراً (١) . » ولم يستطع « فون كتلتس » أن يدخل الطمأنينة على قلبه إلا بكل مشقة وبعد أن أطلعه على ندوب فى جسمه هو .

تبرهن لنا هذه الحادثة على أن الأهالى لا ينظرون إلى المبراة نظرة الأوربيين اليها . إذ يعتقدون أن هذه القطعة من الحديد تنطوى على قدرة خفية غير معتادة ، ولذلك يمكن لأقل جرح تسببه أن يؤدى إلى الموت .

وكذلك سمع الباحثون من أهالى بورت مورسبى Port Morsby أن أشد ما يسترعى اعجابهم هو ذلك الصندوق الصغير الذى يحتوى على أدوات تبين الطرق والاتجاهات ، وتشير إلى الريح وخطوط العرض والمناخ . ففتحت الصندوق أمامهم وأطلعتهم على البارومتر والترمومتر والبوصلة ، وحاولت أن أشرح لهم كيفية استعمالها . فصاحوا بى : « اغلق ! . . اغلق بسرعة ! . . ارفع هذا من هنا وإلا انتابنا المرض جميعا (٢) » !

وبالاختصار لا يجد الأهالى أمامهم إلا طريقة واحدة يطبقونها، دون تردد أو ترو ، كلما أرادوا تفسير أى نشاط للبيض يجتذب انتباههم، ما داموا لم يألفوه تمام الالفة بحكم العادة . فهم يعتقدون أن الطبيب الذى يعالجهم والمكتشف أو التاجر الذى يعبر بلادهم والمبشر الذى يحل بينهم ويفسر لهم

(١) فون كتلتس Von Kittlitz :
Denkwürdigkeiten einer Reise nach dem russischen Amerika, Mekronesien, und durch Kamtschatka ، جـ ٢ ، ص ٢٧ — ٢٨ .

(٢) ج تشالمرز ، و . و . جيل J. chalmers & W. W. Gill
Work and adventure in New Guine a (اقليم كابادى Kababi)

الانجيل ، لا ينجحون فى مشروعاتهم إلا بفضل قدرتهم السحرية التى تتخذ «ضروب الطب» مطايا لها . لذلك لا يقدرون قيمة «هذه الضروب من الطب» إلا بعد نجاحها . وعلى هذا النجاح تتوقف هيبة البيض فى نظرهم .

يتضح لنا من ذلك زيف الاتهام الذى يوجهه إلى البدائيين كثير من الباحثين: وهو أنهم لا يخافون إلا القوة ، ولا يحترمون غيرها . والحقيقة أنهم ، على عكس ذلك ، لا يتصورون مجرد تصور ما يعنيه الأوربيون بهذا الاسم . ولذلك لا يأبهون به . وإذا كانوا ينزلون على حكم القوة الغاشمة ، فانهم يفعلون ذلك دون فهم لها . أما القوة الوحيدة التى يخافونها ويحترمونها ، فهى القوة الغيبية ، أى قوى العالم الخفى التى يعرف البيض كيف يضمنون لأنفسهم عونها والتى تجعل أسلحتهم قوية فتاكة لا يمكن مقاومتها .

الفصل الثاني عشر

النفور من الجديد فى الجماعات المتأخرة

يجدر بنا ، بعد أن حاولنا تحليل العقلية البدائية — من حيث مميزاتها الاساسية ، وتركيبها وطريقة سيرها — أن نبحث عن كيفية تطورها ،وعن القوانين التى يسير عليها هذا التطور . ومما يؤسف له أن العناصر الضرورية لمثل هذه الدراسة لاتزال بعيدة عن متناول أيدينا . فالجماعات البدائية كلها لا تاريخ لها ، فيما عدا حالات جد نادرة . هـذا إلى أن الأساطير مع مالها من قيمة فى البحث لا تحتل مكان هذا التاريخ . ولا يسمح لنا القدر القليل الذى نعرفه على وجه التحقيق عن نظمهم ولغاتهم إلا بأقامة فروض تحكمية .

ومع ذلك فإنه يمكننا منذ الآن أن نقرر ملاحظة عامة تقوم على شهادة عدد كبير من الباحثين : وهى أن الجماعات البدائية على وجه العموم شديدة العداء لكل ما يفد عليها من الخارج ، إلا إذا كان آتيا من قبائل تجاورها وتشبهها وتشترك معها فى الدم والعادات والتنظيم ، وتعيش معها على وفاق . أما الخارج بمعناه الحقيقى ، فان البدائيين لا يستعيرون منه أى شىء ، ولا يقبلون منه أى شىء . فلا بد من أن يفرض عليهم التغير فرضا حتى لو كانت قيمته لا يمارى فيها . أما إذا تركت لهم الحرية فى قبوله أو رفضه فان ناحية اختيارهم لا تدع مجالا للشك. فقد بنيت هذه الجماعات على شكل نظم مغلقة . وكل ما يتسرب إليها يهددها بالتحلل ، لأنها كالكائنات العضوية التى تستطيع الحياة زمنا طويلا ما دام وسطها الخارجى قليل التغير . ولكنها تسارع إلى الفساد والموت إذا اقتحمتها عناصر غريبه .

ونحن نعرف أن اتصال البيض بالجماعات البدائية كان شرا على هؤلاء

الأخيرين ،من الوجهة الفسيولوجية،في جميع الأقاليم التى حدث فيها هذا الاتصال تقريبا (أمريكا الشمالية والجنوبية وبولينيزيا وميلانيزيا . . . ألخ . . .) فقد أنقرض العدد الأكبر منهم ، بعد أن بددت شملهم الأمراض التى حملها إليهم الوافدون الجدد ، ومن بقى منهم فهو فى سبيله إلى الأنقراض . وقد حدث لهم هذا أيضاً من الناحية الاجتماعية ، إذ أن نظم البدائيين ولغاتهم تتحلل بسرعة بمجرد أن يضطروا إلى تحمل وجود البيض والتأثر بهم .

أما عجز الجماعات البدائية عن تحمل هذه الصدمة ، فهو أمر يمكن توقعه من تكوينها الذى يجعلها جد مختلفة عن جماعاتنا ، وأكثر منها تعرضا للدمار . فهم يعتقدون أن الأسلاف المحدثين والأقدمين، والأرواح ، والقوى الخفية بأنواعها المختلفة ، والأجناس التى تعمر الهواء والماء ،والأرض نفسها ، بل الصخور والتضاريس الأرضية ، يعتقدون أن كل هذا وكل ما يوجد داخل حدود القرية التى تحل بها المجموعة الاجتماعية « ينتسب » إلى هذه المجموعة بالمعنى الغيبى للكلمة على نحو ما رأينا فيما سبق . كما أن المجموعة بدورها ترتبط بوساطة شبكة معقدة من ضروب المشاركة بالقرية نفسها وبالقوى الخفية التى تقيم فيها وتدمغها بآثارها المحسوسة.ولذلك فهم يعتقدون أن العلاقات بين الجماعات البشرية التى تبدو لنا طبيعية سلمية . قد تعرض المجموعة لأخطار مبهمة ؛ ومن ثم نراهم يخافونها أشد الخوف . فقد تصاب المجموعة بالكوارث بسبب الاتصال الخفيف بأناس غير معروفين أو بسبب تقبلها منهم بعض الأغذية أو الآلات . إذ قد يكون من شأن هذه الأشياء أن تغضب بعض القوى الخفية فيترتب على غضبها من النتائج مالا يعلم أحد عقباه . وهذا هو السبب فى علامات الخوف والريبة التى يلاحظها البيض فى مسلك البدائيين الذين يحتكون بهم ويعتبرونها نوعا من العداء ، مما يؤدى إلى أراقة الدماء وضروب الانتقام،بل استئصال شأفة المجموعة كلها فى بعض الأحيان . أما فى الحالات التى جرت فيها الأمور على عكس ذلك ،

وقامت علاقات بين البيض والأهالى ،ونشأت بينهم تجارة مستمرة ـ ولاسيما فى الحالات التى ذهب فيها هؤلاء الأهالى للعيش مع البيض والاشتغال عندهم بناء على « اتفاق » اختيارى بشكل ما ـ فان النتيجة لم تكن فى غالب الأحيان أقل شرا على الاهالى منها فى الحالة السابقة . وذلك لأنهم كانوا فى هذه الحالة يتعرضون فجأة لتأثيرات جديدة تغريهم باحتقار تقاليدهم ونسيانها . وعندئذ يجنح مسلكهم الخلق إلى التلاشى والتضاءل ، فيبدءون فى التخاطب بنوع من « السابير » Sabir أو ما يسمى بالبدحن انجلش pidgin english (اللهجة الانجليزية المحرفة) ، ويضعف الشعور الاجتماعى لدى المجموعة وتخور إرادتها للحياة .

بيد أن المجموعة لا تتخلى عن الكفاح : ما دامت قائمة وما دامت تشعر بأنها قوة حيه ، وفى هذه الحالة لا تتوانى عن مقاومة العناصر التى يأتيها بها الأجنبى ، وكأنها تفعل ذلك بدافع غريزى . على هذا النحو ينبغى لنا أن نفهم ما يسمى عادة بالنفور من الجديد الذى يلاحظ لدى الجماعات البدائية ، كما سنرى . فالواقع أن هذه الجماعات إذا تركت وشأنها ، كانت ذات ميول محافظة . ولكن ليس من المؤكد أنها أكثر من غيرها عداء لبعض ضروب التجديد ، فنظمها تتغير ولكن ببطء ، بل يبدوا أنها ترحب بالتغير حينما يأتيها من قبل سلطات تحترمها ، وفى صورة لا تخشى من ورائها أى قلق لها . ويصرح الاستاذان سبنسر وجلن بذلك تصريحا عند كلامهما على قبائل الأرنتا Arunta [1] ، أما فيما عدا هذه الحالة فان أى تغير يفرض عليها ، يوقظ عندها ارتيابا عنيدا لا يستطاع التغلب عليه .

— ١ —

فاولا ، لا نكاد نرى البدائيين مطلقا يقبلون أغذية غير معروفة ، بل يرفضون الأغذية المعروفة أيضا إذا قدمها إليهم الأجانب . وقد لوحظت

---

(١) سبنسر وجلن : The native tribes of Central Australia ، ص ٣٢٤

هذه الظاهرة مرارا عديدة . فى غينا الجديدة لانجليزية مثلا ، حيث يضطر الموظفون بحكم عملهم إلى الاتصال بأقوام من الأهالى لم يروا الأوروبيين من قبل : « أظهرت قبـــائل الأهالى العديدة التى قابلناها فى خلال اكتشافنا ثقتها التامة بنا . فلم تكد تتوطد بعض العلاقات الودية بيننا وبينهم ، حتى أخذوا يأتون إلى مخيمنا ويجلسون فى المساء حول نارنا ، ويصحبون معهم زوجاتهم وأولادهم نهارا ليروا « الوجوه الشاحبه » . ولكنهم كانوا يرفضون جميعاً ودون استثناء أن يذوقوا الأغذية التى نقدمها لهم ، بالرغم من أنهم كانوا يقبلون أخذها بعد أن يلفوها فى أوراق الأشجار ، ولعلهم كانوا يفعلون ذلك باعتبارها من العجائب . (١) » ويقول موظف آخر : « الآن اصبح أهالى نهر « أربى » Arabi River أصدقاء لنا . ولكنهم مع ذلك رفضوا بعض الهدايا والأغذية التى قدمها إليهم مدير المخازن (٢) . » بل يكفى لاثارة اشمئزازهم من الأغذية ألا تكون قد جهزت بالصورة المعتادة . « لا يعرف أهالى قبيلة « مانا جولاسى » managulasi استعمال الآنية الفخارية فى طهى الطعام الذى لا يطهونه إلا على الأحجار . وهم يرفضون تناول الطعام المعد بغير هذه الطريقة . وقد رأيت شخصين من أقليم مجاور يكادان يموتان جوعا ، لأنهما لم يجدا الأحجار الضرورية لطهى طعامهما (٣) . »

ونرى فى الأساطير التى جمعها « لندمار » Landtmar عن قبائل « البابو » فى كيواى Kiwai (غينا الجديدة) أن الخوف الذى يتوجسه الأهالى من الأطعمه التى لا يعرفونها يبدو فى صور مختلفة : « ترك « سيبوز » Sèpuse بالقرب من سيدو « Sido » اصبع موز ناضجا فأكله هذا الأخير ، ولم يكد ينتهى من أكله حتى « مات » (أى أغمى عليه) ؛ لأنه لم يعتد هذا النوع من

---

(١) Amual Report, Papua ، ١٩١١ ص ١٧٠

(٢) المرجع نفسه ، ١٩١٤ ، ص ٧٩

(٣) المرجع نفسه ١٩١٢ ، ص ١٢٨

الطعام (١) . « . . « كان « بيجا » Bidja أول شخص صاد السمك . وكان أهل « مواتا » mawata ، حتى ذلك الحين ، يكتفون بجمع القواقع . أما السمك فكانوا يطلقون عليه اسم « ايبيهار » Ebihare (الكائنات الملغزة) ، ولا يقتربون منه بأية حال. واتفق أن نزلت على « بيجا » تعليمات معينة فى المنام من قبل إحدى الأرواح ؛ فذهب إلى الماء وصاد سمكة « أم شريط » ،واطهاها وأكلها أمام علامات الفزع الأكبر الذى استولى على اصحابه . ولما أصبح صباح الغد ، رأوا على غير ما كانوا يتوقعون أن حالة « بيجا » لم تصب بسوء من جراء أكل « الأيبيهار » . . . ومنذ ذلك اليوم ترك الناس اعمالهم فى الحقول وذهبوا لصيد السمك (٢) . » ونقرأ فى غير هذا المكان أن شخصا اسطوريا رأى بعض التراجيل لأول مرة فى حياته ، فقشر منها واحدة وفتحها ، ثم أراد أن يجربها فى كلب خائب لم يكن يحرص على الاحتفاظ به ، فألقى إليه بقطعة منها . ولكن الكلاب الأخرى كلها هجمت على هذا الكلب وانتزعت منه قطعة النرجيل والتهمتها . ثم أخذت تلحس شفاهها ، وتطلق نباحها طالبة منها المزيد . فانتظر الرجل بعض الوقت ، ولما لاحظ أن الكلاب لم تصب بأى ضرر ، قال فى نفسه مذهولا « لعمرى إنها صالحة للأكل ! » ثم ذاقها هو الآخر ، الخ . (٣) » — وكان يظن من قبل أن الكلاب التى أكلت منها ستموت ضحية لتهورها .

يمكن تفسير حذر الأهالى وارتيابهم هذا بأسباب كثيرة ، وبالسببين التالين على وجه الخصوص . فكل ماهو مجهول مريب : إذ قد توجد قوة ضارة مختفية فى الغذاء الذى يراه الواحد منهم أمامه بالرغم من براءة مظهره .

---

(١) جلندمان: Tke flak toles of the Kiwai Papuans فى Acta Societatis Scientiarum fennicoe ، مجلد ٢٤٧ ، ص ٩٥ .

(٢) المرجع نفسه ، ص ١٢

(٣) المرجع نفسه ، ص ٣١٨

وإذا كان الرجل الأبيض نفسه لا يطعم فاكهة يجدها فى إقليم مجهول إلا بعد اختبارها والتأكد من أنها غير سامة ، فكذلك البدائى ، إذا وجد مادة غذائية جديدة خشيها، لأنها قد تكون مطية لشر قاتل . وحينئذ لا يمكن لأى كائن أن يقنعه بذوقها . هذا إلى أنه لا يرى أن غاية الأكل تنحصر فى سد حاجة أولية فحسب ، بل يعتقد أنه فعل له دلالته فى نتائجه الغيبية الخطيرة ؛ لأن مادة الغذاء تدخل فى جسم الشخص الذى يتناوله ليكون جزءا منه . فالأكل يحقق المشاركة إلى أقصى حد ،لأنه يجعل المادتين مادة واحدة . وكل شىء يأكله البدائى يكون جزءا من ذاته . ونحن نعرف أن كثيرا من البدائيين يحرصون على جمع بقايا وجباتهم بدقة تامة ، ثم يحملونها و يلقون بها فى الماء أو يحرقونها ، أو يعدمونها بأية طريقة من الطرق ؛ لأنها إذا وقعت فى قبضة عدو أصبحوا تحت رحمته جزاء إهمالهم . ومن باب أولى يحرص البدائى على ألا يدخل جسمه مادة لا يعرفها، فتصبح جزءا منه مع أنها قد تكون قاتلة . ولذلك لا يأكلون إلا المواد التى برهنت التجارب السابقة على عدم ضررها ، لأنها دلت بطيب أثرها على حسن علاقاتها الغيبية بالمجموعة الاجتماعية وبأجناس النبات والحيوان التى تنتسب إلى هذه المجموعة . وكثيرا ما تقام احتفالات وراثية خاصة فى فترات معينة من السنه للتعبير عن هذه العلاقات وتحديدها وتقويتها ، لأن حياة المجموعة الاجتماعية نفسها تتوقف عليها .

ويحدثنا الأستاذ « سبنسر » عن إحدى الظواهر التى ترينا اعتقاد الأهالى فى الخطورة التى تنجم من ادخال مادة غذائية جديدة فى نظامهم الغذائى ، فيقول: «كانت بعض الأمهات فى قبائل استراليا الشمالية يلدن أطفالا خلاسيين، وكن يفسرن جميعاً هذه الظاهرة فى مبدأ الأمر بقولهن : « لقد اسرفنا فى الأكل من دقيق البيض » . فهن يعتقدن أن الفرق الجوهرى بين حياتهن قبل الاتصال بالبيض وبعد هذا الاتصال لا ينحصر فى العلاقة الجنسية التى قامت بينهن وبين البيض ، بل فى أكلهن الدقيق الأبيض الذى أثر على لون الجنين

بطبيعة الحال[1] . » والحقيقة أن السود لم يلبثوا أن اكتشفوا عدم كفاية هذا السبب، ولكن بعد أن آمنوا به فترة من الزمن وكان أول سبب طرأ على أذهانهم . وهكذا إذا كان مطبخ البيض يوحى إلى البدائيين باشمئزاز لا يمكنهم التغلب عليه ، فذلك أيضا بسبب التأثيرات الخبيثة التي قد تنبعث من آنيتهم . فيعتقد « مؤوريو » زيلنده الجديدة أنه لا يوجد نجس أخبث من ذلك الذى يأتى من أدوات المطبخ . وعندقبائل «التاراهومار» Tarahumares بالمكسيك «تصادف أن أكل بعضهم فى أطباق وشربوا فى فناجين ، فذهبوا بعدها إلى النهر لتطهير أفواههم وغسل أيديهم بعناية تامة ، حتى يتخلصوا من كل بذرة شريرة قد توجد حول آنية الرجل الأبيض[2] . » ولهذه الأسباب نفسها يرتاب البدائيون أيضا فى جميع الأشياء التى يخشون انطواءها على تأثير خبيث لمجيئها من أصل لا يطمئنون اليه . فنرى سكان « هبريدة الجديدة » الجزريين يرفضون تسلم الاشياءالتى يحضرهاذووهم الذين عاشوا لدى البيض ، فيضعونها تحت المراقبة ، أو بتعبير أفضل ، يخضعونها للحجر الصحى . وقد اعترف « البتشوانيون » فى افريقية الجنوبية للمبشرين ، بعد أن الفوهم ، بأن الهدايا التى ارسلوها إلى ملك البلاد ، لدى نزولهم فيها لأول مرة، لم تسلم إليه ؛وذلك لأن الذين عهدوا إليهم بتسلمها إلى الملك خافوا أن تسبب له كارثة ما . والحوادث التى من هذا القبيل لا تقع تحت حصر . لذلك لن اطيل الوقوف عندها مكتفيا بالإشارة إلى ان وصف الباحثين لها بعبارة « النفور من الجديد» وصف غير دقيق ، فهم لا يرفضون الاغذية والاشياء المجهوله لهم لمجرد أنها جديدة فحسب، بل ايضا ، واولا وقبل كل شيء ، لأنها قد تكون مطايا لتأثيرات مشئومة .

— ٢ —

وإذا اريد حمل البدائيين على هجران عاده تقليدية ، او على تعمد اتخاذهم

---

(١) ب . سبنسر : The native Tribes of the Northern territory of Australia ، ص٢٥-٢٦ .

(٢) ك . لمهلتز : K. Lumholtz Unknown mexico. ، ج ١ ص ٢٢٤ .

عادة لم يعرفوها من قبل ، زادت مقاومتهم شدة وعنادا ، وقد أصاب الباحثون، ولا سيما المبشرون ، منهم فى تعليلهم هـــذه الظاهرة . يقول الأستاذ نيوتن : « إن أهالى غينا الجديدة من المحافظين المسرفين فى المحافظة ، فهم يفعلون ما كان يفعله آباؤهم واجدادهم واسلافهم ؛ ويعتقدون أن ما كان فيه خير لأسلافهم، فيه خير لهم أيضا . ومن ذلك أن أحد اهالى « واداو » Wadau كان يصنع زورقا ، ونصحه بعضهم بأن يضع فى وسطه منصة عريضة مريحة ، كما يفعل أهل « بوياناى » Boianai ، بدلا من أن يضع فيه مقعدين حقيرين فى كلا طرفيه كما يفعل أهالى « واداو ». فرفض النصيحة باحتقار ، وأجاب بقوله : « كلا ، ليس ذلك من عاداتنا . » ولعل أهل « بوياناى » أيضا لو سمعوا بذلك ، لرأوا فيه اعتداء على حقوقهم فى هذا الاختراع(١) . »

ويروى هذا المبشر نفسه أن الأهالى كانوا فى احد أعيادهم الكبرى ينحرون خنازير الضحية بطريقة بطيئة جداً تنطوى على جانب كبير من القسوة . ومنذ ذلك الحين فرض أولو الأمر عليهم أن يقتلوا الضحايا بطريقة اسرع من تلك ، واكثر منها انسانية . فلما جاء العيد بدأوا يذبحون الخنازير فى الصباح الباكر ؛ وما كادوا يشرفون على النهاية حتى بدأ القلق يساور شيوخهم من هذا الانتهاك المخيف لاحدى العادات . وجاء وفد منهم إلى المبشرين يرجوهم السماح لهم بذبح خنزير واحد على الأقل على طريقة الأهالى القديمة ، حتى تتمكن اشجـــار المانجو من سماع صيــاح الحيوان ، وإلا امتنعت عن حمل الثمار(٢) .

وفى غينا الجديدة الألمانية ، « يترك السود صدف السلحفاة الرائع طعمة للنار، فيحترق مع بقية جسمها . هـذه هى العادة ، ولذلك لا يتحولون عنها .

---

(١) هـ . نيوتن : H. Newton In far New-Guinae ، ص ١٢٥ ــ ١٢٦ .

(٢) المرجع نفسه ، ص ١٥٤ .

فأفهمناهم أن هذا الصنف ذو قيمة كبيرة وأنهم يستطيعون بيعه بثمن عال؛ ولكن نصائحنا قد ذهبت عبثا حتى الآن. إذ كانوا يعدوننا دائما بتغيير هذه الطريقة لكي يرضونا، فيقولون: «سنفعل ذلك فى المرة المقبلة». وفى المرة المقبلة كانوا يفعلون بالضبط نفس ما فعلوه فى المرة السابقة. فليس لديهم من الشجاعة ما يحفزهم على هجر العادات القديمة.. إن هذا النشاط هو الذى ينقصهم (١).»

وفى برانيا الجديدة، «إذا سارت السفينة كان ميزانها على اليسار؛ فاذا جاءت الأمواج من هذه الجهة نجح الميزان فى تفريقها. ولما كانت مقدمة هذه السفينة تشبه مؤخرتها، فقد يظن القارىء أن الأهالى يسيرون بطريقة تجعل الميزان على يمين الزورق إذا جاءت الأمواج من الجهة اليمنى. ولكن الذى يحدث غير ذلك، لأن قبائل «الكناك» Canaque يخشون التجديد، إلى حد أنهم يحذرون جعل الميزان على اليمين إذا ساروا، حتى لو جاءت الأمواج من الجهة اليمنى وملأت زورقهم بالماء. وكنت كلما ناقشت الأهالى فى هذه النقطة، سلموا معى بأن تغيير تلك العادة لا يمكن أن يعود عليهم إلا بالخير. لذلك كثيراً ما سألت نفسى عما إذا كان تمسكهم بها يرجع إلى مجرد العناد أم إلى ضعف العزيمة الذى يعوقهم عن اتخاذ الأصلح بالرغم من وضوحه البين (٢).»

وقصارى القول «أن الأهالى، كما يقول عنهم مبشر و «نياس» Nias، لا يعرفون ولا يريدون غير ما هو موجود لديهم بالفعل، وهم راضون به كل الرضاء، ولا يرغبون فى خير منه (٣).» هذا هو الواقع الذى يمكننا إدراك أسبابه دون

---

(١) ب. فرتس فرمان V. Vritz Forman:
Das tägliche Leben der Papua (unter besonderer Berücksichtigung des Valman Stammes auf deustch Neu Guinea)
فى Anthropos، مجلد ١٢ — ١٣ (١٩٠٧)، ص ٩٠١.

(٢) بفيل (الجراف ج.)، Pfeil (Graf, J.)
Studien und Beobachtungen aus der Südsee، ص ٩٢.

(٣) Berichte der rheinnischen missionsgesellschaft، ١٨٩٥، ص ٢١٧.

مشقة ، وهى أسباب واحدة فى كل مكان . وتنحصر فى اعتقاد الأهالى انهم إذا هجروا طرائقهم التقليدية أو عــدلوها ، عرضوا أنفسهم لأخطار لاتحصى، وأخصها غضب الأسلاف الذين يعتبرون أقوى أعضاء الهيئة الاجتماعية ، وكل ذلك من أجل فائدة قد تكون محققة ولكنها غير لازمة . ويعبر أهالى جزيرة « كيواى » Kiwai (غينا الجديدة) عن هذا الخوف بصراحة ، كما نرى ، فى القصة التالية :

« جاءنى أصدقائى وأخذوا يصفون لى بعض الطقوس التى يقومون بها من أجل حماية الحاصلات ، ثم سألونى والقلق يملأ نفوسهم عما إذا كان من الحكمة فى هذه الحال أن يعتنقوا الدين الجديد . وكانوا يعتقدون فى نفس الوقت أن اعتناقه يتطلب منهم هجران هذه الطقوس ، وأنهم إذا كفوا عن فعل ما كان يفعله أباؤهم امتنعت نباتات البطاطس الصينى والساجو عن النمو . ثم أردفوا يقولون : نعم ليس فى هذا الأمر ما يضير « التامات » Tamate (الرجل الأبيض أو المبشر) لأنه يجد طعامه فى علب تأتيه من « ثرزداى أيلاند » Thursday Island ولكن ماذا تكون حالنا نحن (١) ؟ » .

حاول أحد الأوربيين أن يحول قبائل « البشمان » فى افريقية الجنوبية من أهل ترحال إلى أهل حل . « فحاول جهده أن يقنعهم بشراء المعز فى مقابله ريش النعام أو جلود الحيوانات التى يقتلونها فى صيدهم . ولكنهم ضحكوا من هذا الاقتراح حتى دمعت عيونهم . ثم سألوه ساخرين عما إذا كان اسلافهم قد ربوا حيوانات أليفة حتى يقتفوا أثرهم . وأفهموه إنه إذا لم يكن فى عزمهم أن يربوا مثل هذه الحيوانات ، فانهم على أية حال مصممون على الاستمرار فى أكلها ، كما اعتاد أجدادهم أن يأكلوها دائما . (٢) » وقد عرض عليهم أحد المبشرين

---

(١) ا . ك . هدن ، Head hunters, black, white and brown ، ص ٩٨

(٢) ر . مفات : Missionary labours and scenes in South Africa ، ص ٦٣ .

الألمان اقتراحا مماثلا لهذا فاستقبل بتلك الطريقة نفسها وكتب يقول : «ناشدتهم أن يستقروا فى هذا المكان ، وأن يزرعوا حدائق و يبذروا قمحا ، وعرضت عليهم أن أقدم إليهم البذور بالمجان . ولكنهم انفجروا ضاحكين وأجابونى بأنهم لو فعلوا ذلك لماتوا . (١) » وليست روح المحافظة عند قبائل « البنتو » بأقل منها لدى غيرهم ، مع أن النظام الذى تقوم عليه جماعاتهم اكثر تعقيدا من غيره . لذلك حاول المبشرون مثـــلا أن يثنوا قبائل الكفرة عن الأفعال الشنيعة التى يرتكبونها ضد السحرة فلم يفلحوا لأن هذه «هى العادة عندهم» . و « العادة » هى الكلمة السحرية التى تتحطم أمامها كل حجة مهما كانت . وكذلك نسمعهم يقولون : «ماذا تقول أرواح اسلافنا اذا قطعنا عاداتنا ؟ اننا إن فعلنا ذلك ، سلطوا علينا جام غضبهم ، فاصابوا نساءنا بالعقم وحقولنا بالجدب ، وحينئذ يجهز علينا الرجل الأبيض ، بأكل أرضنا[٢] » . ويقول القس فيليب : « كان البتشوانيون فيما مضى يعتبرون الخروج على تقاليد أسلافهم عملا مخالفا للسنة المرعية . فكانوا إذا حثهم أحد على زرع القمح أو أى شيء آخر ، أجابوا بأن أسلافهم كانوا أحكم منهم ، وأنه يكفيهم أن يفعلوا كما كانوا يفعلون . وكانوا ينظرون إلى كل تجديد على أنه تدنيس لذكرى أسلافهم (٣) » . وقد شهد بذلك أيضاً المبشرون الفرنسيون الأوائل الذين ذهبوا إلى هذا الإقليم . يقول كازاليس : « تقرر المبادىء الأولية عند البدائيين أنه لا شيء أجلب لغضب الأجيال المؤلهة المباشر من ترك العادات والمثل التى خلفوها وراءهم (٤) » . ويقول آخر : «لو طلبت إلى أفراد « البسوتو »

---

(١) Berichte der rheinischen missionsgesellschaft ، ١٨٩٧ ص ٤٩ .

(٢) فر . أجيديوس ملر Fr. Ægidus müller : Wahrsagerei bei den Kaffern فى Anthropos ، ج٢ ، ص ٤٨ — ٤٩ .

(٣) القس . ج فيليب J. Philip : Researches in South Africa (١٨٢٨) ، ج ٢ ، ص ١١٨

(٤) Missions évangéliques مجلد ١٥ (١٨٤٠) ص ١٢٢

تعليلا لهذه العادات لعجزوا عن الجواب . فهم لا يفكرون ، وليس لديهم نظريات ولا مذاهب ، ولا هم لهم إلا القيام بأفعال تقليدية معينة والاحتفاظ بصلتهم بالماضى وأهله .(١) »

حينئذ تنحصر القاعدة العليا عندهم فى أن يفعلوا ما فعله الاسلاف وأن يتجنبوا ما لم يفعلوه . وقد روى الباحثون القدامى أمثلة عديدة على ذلك . فيقول كامبل : «تغرم قبائل المتشي Matchappees كثيرا بأكل البطاطس ،ولكن لم يستطع أحد أقناعهم بزراعتها وذلك لأنها لا تشبه شيئاما تركه لهم اسلافهم[٢] . » وكتب أحد معاصرى كامبل عن هـذه القبيلة عينها يقول « لا يدخل التبغ فى زراعتهم ، وهذا أمر جد غريب ، إذا عرفنا أنهم مغرمون بالتدخين ، وأن الأمم القاطنه فيما وراءهم « كالهوتنتوت » و « الكليروو تر Klearwater » يمارسون زراعة هذا النبات بنجاح . فهم إذن قد رأوه وعرفوه جيدا ، ولكن هذا برهان جديد على قوة العادة عند غير المتحضرين وعلى بطئهم فى قبول التقدم حين يتعارض مع عاداتهم التقليدية وما لديهم من أحكام زائفة. والواقع أنهم إذا سئلوا عن أحجامهم عن زراعة هذا النبات الذى يتسولونه من كل سائح يمر ببلادهم ، لم يحيروا جوابا ، ولكن لعل السبب فى ذلك أنهم لم يعتادوا هذا العمل قط . غير أنهم اعترفوا فيما بعد بالفائدة التى تعود عليهم من زراعة هذا النبات وبعض النباتات المعتبرة الاخرى التى أرشدتهم إليها . ويدل هذا الاعتراف على أنهم لا يرفضون القيام بهذه التجربة رفضا باتاً (٣) . » نعم قد يكون الكاتب على حق ولكننا نشك فى صدق ملاحظته الاخيرة . إذ يبدو أن موافقة الأهالى لا ترجع إلا إلى حرصهم على مسايرة

---

(١) المرجع نفسه مجلد ٨٢ جـ ٢ (١٩٠٧) ص ٣٣٦ (ديترلن) .

(٢) القس ج . كامبـل Travels in South Africa ، (الرحلة الثانية) مجلد ١ ص ١٠١ .

(٣) القس ج . براشل J. Burchell
Travels in the interior of southern Africa جـ٢ ، ص٥٨٨ .

الرجل الابيض فى الظاهر فقط ، دون أن تعبر عن شيء مما فى سرائرهم . ويقول الاستاذ « جونود Junod : « يعتبر البدائيون أن الرؤساء الذين توفوا هم آلهة الأمة . فيجب عليهم أن يستمروا فى فعل ما كانوا يفعلون وأن يتخذوا من طريقتهم فى الحياة قانونا أعلى لايحيدون عنه . وتكون التقاليد التى تركها الاسلاف أهم جزء فى دين هؤلاء الشعوب ونظامهم الأخلاقى . وليس القانون عندهم إلا القاعدة التى أنحدرت إليهم من عصور ما قبل التاريخ . فلا يجوز لأحد منهم أن يتخلص من قيودها . إذ يجب على كل فرد من الأفراد ألا يحيد عن طريق الجماعة ، وإلا اعتبر فعله قذفا فى سلطة الاسلاف الإلهية . ويزداد التمسك بهذا المبدأ كلما خلت القبيلة من العناصر الأجنبية .. وبعدت عن الوقوع تحت النفوذ الخارجى [١] . »

وتمتد صفة القداسة هذه إلى جميع العادات ، فتشمل تقسيم العمل بين الجنسين الذى يرتكز فضلا عن ذلك على أسباب غيبية أساسية(٢) . فقد رأى مفات ذات يوم عند « البتشوانيين » زوجة لإحدى شخصياتهم الكبيرة تقوم بمساعدة نساء اخريات فى بناء عشة ، وكانت تستعد للصعود فوق السطح بمساعدة غصن شجرة . فاعترض مفات على ذلك ونصحهن بأن يتركن مثل هذا العمل لأزواجهن . فانفجر الجميع بالضحك . واقتربت الملكة ماهوتو mahuto وبعض الرجال الذين كانوا معها السؤال النساء عما أطربهن إلى هذا الحد، فقصصن اقتراحى الغريب المضحك فى نظرهن ، ثم أغرقن فى الضحك من جديد . وكانت « ماهوتو » امرأة ذكية عاقلة ، فقالت إن فكرتى هى عين الصواب ولكنها غير قابلة للتنفيذ ، واعترفت بأنها كثيراً ما أعجبت بعاداتنا وفضلتها على عاداتهم(٣) . » وهذا رد مهذب من الملكة ولعلها قالته عن عقيدة

---

(١) هـ . ا . جونود Les Bas - Ronga : H. A. Junod ، ص ٢٢٦ — ٢٢٧ .
(٢) انظر ماتقدم فى الفصل العاشر ، ص ٣٦٠—٣٦٥ .
(٣) ر. مفات Missionary labours and scenes in South Africa ، ص ٥٢ — ٥٣ .

وايمان . ولكن لم يكن فى وسعها أن تعمد إلى تغيير عادة مرعية منذ أقدم العصور . فالمبشر يتكلم لغة الأهالى . والأهالى يعرفونه جيداً ، ولذلك لايخفون عنه حقيقة أفكارهم . ومن ثم رأوا أن تكليف الرجال بعمل يعتبر من اختصاص النساء فكرة لا يمكن أن ترد إلا بخاطر رجل أبيض !.

وهكذا تكوّن القواعد التى تفرضها التقاليد شبكة جد معقدة ، ومع ذلك فان كل شخص يرى من الطبيعى أن يسير وفقها دائما دون أن يحيد عنها فى أى نقطة من نقاطها . كتب موخ mauch يقول « تتغلغل الخرافات بشكل ظاهر فى حياة قبائل « الماكولولو » makololo وسلوكهم ، وهى التى تتحكم فى كل شئونهم من أخطرها إلى أتفهها ، مثل طريقة الجلوس فى العشة ، وإمساك المكنسة أو الجروفة وقضاء الحاجة الطبيعية ، الخ .فاذا أراد الحداد مثلا أن يحصل على منفاخ قوى ، فعليه أن يصنعه من جلد معزة سلخت حية ، وإذا أراد لنفسه فرنا يؤدى وظيفته على خير وجه وجب أن يضيف إلى الطين الذى يبنيه منه طبا (سحرا) معينا ، وان يقدم قرابين العصيدة والبيرة عند استخدامه فى اذابة المعادن [1] . » وإذا حدث عندهم تجديد ما ظل واهى الأساس زمنا طويلا ، إذ أننا نعرف جيدا أن العادة القديمة تتوثب دائما للتغلب على العادة الحديثة (لأسباب غيبية) ؛ وأنها قد تصل إلى الإنتصار عليها فى ظروف معينة. ويكفينا هنا أن نذكر مثلا واحداً على ذلك فنقول: « بدأت قبائل « البوشنجو » Buchungo فى استعمال نسيج الليف منذ أكثر من ثلثمائة عام ، ولكنه لازال يعد بدعة فى نظرهم حتى أيامنا هذه . لذلك لا تلبس الشخصيات الكبيرة فى أيام الاحتفالات إلا النسيج المصنوع من لحاء الشجر ، أى من نفس النسيج الذى كان يلبسه أسلافهم . وكذلك الحال فى مناسبات الحداد ، فإذا أرادت

---

(١) كارل موخ Carl Mauch : Reisen Im Innern Von Süd Afrika (١٨٦٥–٧٢) فى : Petermann's mitteilungen. Ergänzungsheft ، رقم ٨٧ ص ٤٣ .

امرأة أن تظهر حدادها على عزيز لديها ، لبست ثوبا من اللحاء ، وكفت عن أكل دقيق الأرروط لأنه هو الآخر حديث الاستعمال عندهم نسبيا ، وكأن اتباعها لعادات الأسلاف يساعد على تهدئة القوة التى سببت لها الألم [1] » .

ولكن ينبغى ألا ننسى أنه إذا كان يوجد فى جماعاتنا بعض الأشخاص المجبولين على حب الابتكار ، فإن الجماعات البدائية أيضا لاتخلو من مثل هذه الاذهان التى تهفو إلى جاذبية الجديد مهما كانت قداسة التقاليد التى ورثتها عن الأسلاف . فماذا يحدث إذا ارتأى شخص من هؤلاء أن يعدل عن إحدى العادات المقررة ؟ لاشك أن نتائج محاولته تعود عليه بأشد الوبال مالم يستعمل منتهى الحكمه ويستخدم كل ما فى وسعه لكى يضمن لنفسه رضاء ذوى النفوذ فى المجموعة ؛ بل أخشى أن أقول إن رضاءهم قد لا يكفى لدرء الشر عنه وأنه لابد من اشراكهم معه ولو فى الشر . ومع ذلك فإذا وجد مثل هذا الشخص فى إحدى الجماعات البدائية ، ولاسيما جماعات افريقية الجنوبية والاستوائية التى كنا بصدد الكلام عنها ، فإنه يغامر بحياته . يقول المبشر ايجديوس ملر AegiduisMüller « ليست حياة الفرد من الأهالى إلا سلسلة من العادة التى يجب عليه أن يقطعها حلقة حلقة ، وإذا حاد عنها جر على نفسه تهمة السحر (٢) » . والأمثلة على ذلك كثيرة نكتفى بذكر بعضها . ففى اقليم الكونغو « يتعرض الاشخاص القادرون على التقدم إلى فتك بنى جلدتهم بهم أكثر من غيرهم . ولما بدأت تجارة المطاط ، قتل الأهالى الاشخاص الذين سبقوا ببيعه باعتبارهم من السحرة ، وكذلك الحال بالنسبة إلى من يقوم بأى تجديد (٣) . » إذ لاشىء فى نظر البدائيين أخطر من أن يفعل المرء غير مايفعل

---

(١) تردى وجويس Torday et Joyce : Les Bushango . فى : Annales du musée du Congo belge ، سلسلة ٣ ، مجلد ٢ ، ص ١٣ .

(٢) ايجيديوس ملر Aegiduis Müller : Wahrsagerei bei den Kaffern فى : Anthropos ، مجلد ٢ ، ص ٥٥

(٣) و . ه . بنتلى Pioneering on the Congo ، (١٩٠٢) ، مجلد ١ ص ٢٧٨ .

الآخرون أو خيرا ما يفعلون ، ولا سيما إذا ابتدع ما لم يبتدعه الأوائل .
« فمنذ حوالى ٢٥ عاما ، عرفت حدادا استطاع أن يصنع سكينا من طوق برميل وكان هذا السكين محاكاة موفقة للسكين الأوروبى . ولما علم الملك بذلك ، وجد أن مهارة الحداد قد تجاوزت حد المعتاد ، فاستدعاه إليه وهدده بتهمة السحر إن عاد إلى مثل هذا الفعل . . وهكذا يحس الأهالى احساسا راسخا أن كل مايخالف المعتاد إنما يرجع إلى السحر ، وينظرون إليه نظرتهم إلى السحر . وقد عرفت منذ سنين امرأة مطببة من الأهالى ، وكانت تعالج بعض الأمراض المستوطنة بنجاح حتى أثرت من وراء ذلك . ولكنها لم تلبث أن رأت الأهالى يتهمونها بإرسال الأمراض إلى الناس بواسطة السحر ، لكى تعالجهم منها وتتقاضى الثمن ، وكانوا لا يفتأون يرددون قولهم : « كيف يمكنها أن تشفى الأمراض بهذه السهوله ، إذا لم تكن هى التى تسببها للناس ؟ » وأخيرا لم يسع المرأة المسكينة إلا أن تتخلى عن مهنتها حتى لا تقتل بتهمة السحر . وكان من عاداتهم أيضا أن يوجهوا تهمة السحر إلى أى شخص يدخل مادة جديدة فى ميدان التجارة أو الصناعة . فيحكى أن الشخص الذى ابتكر استخراج النبيذ من النخيل اتهم بالسحر ودفع حياته ثمنا لاكتشافه . »

لماذا كانت تهمة السحر هى التى تخطر ببالهم على التوفى جميع الحالات المتقدمة وفيما لايحصى من الحالات التى تماثلها ؟ لاشك أن ذلك يرجع إلى مسلك « العقلية البدائية » التى تسارع من فورها إلى البحث عن السبب الغيبى لكل ما تدركه أو تتحقق منه دون أى التفات إلى ما نسميه نحن سلسلة الأسباب والنتائج الموضوعية المرئية . فنحن مثلا لانستطيع إلا أن نعجب بمهارة ذلك الحداد ومثابرته وحذقه وقدرته على الابتكار لأنه وصل إلى صنع سكين على

---

(١) الفس ج . هـ . ويكى :
Anthropological notes on thc Bangala of the uppe Congo river,
فى : J. A. I. ، مجلد ٣٩ ، ص ١٠٨ .

الطريقة الأوروبية من قطعة حديد أخذها من طوق برميل واستطاع أن يبلغ بها هذه الدرجة من الاتقان بما لديه من مواد تافهة وآلات بدائية . ولكن العقليـــة البدائية لاتحسب أى حساب لصفات الجدارة والاستحقاق هذه ، بل لاتشعر بها مجرد شعور ، ولا يلفت نظرها ويجذب انتباهها إلا تلك الجدة المقلقة للنتيجة التى وصل إليها الحداد ، ولذلك تتساءل كيف أمكن لصانع من الأهالى أن يخرج من كيره سكينا مماثلا لسكين البيض ، إذا لم يكن مستحوذا على قوة سحرية ؟ لابد إذن أن يكون شخصاً مريبا . ويتعرض لهذا الاتهام نفسه كل شخص يصل إلى ما وصل إليه هذا الرجل من نجاح لم يفكر فيه أحد قبله ، ولا ينجيه منه أن يعرض على الملأ جميع العمليات التى تخيلها وحققها للوصول إلى هذا النجاح . فالأهالى لا يظنون مطلقا أنه مدين بنجاحه إلى هذه العمليات بل إلى قوة خفية ضمنت له الوصول إلى النتيجة المرجوة . وحينئذ لايلبثون أن يوجهوا إلى أنفسهم هذا السؤال المخيف : كيف تأتى له أن يسخر تلك القوة الغيبية لخدمة أغراضه ؟ ألا يكون ساحرا ؟ وبمقتضى هذا السلوك لا يستطيع جار أن يكون أغنى من جاره ، ولا ينبغى لأحد أن يحصل على ثروته إلا بالوسائل المألوفة الجارية ، أى عن طريق التعامل فى حاصلات القطر الطبيعية ومزروعاته . وإذا رجع أحد الأهالى إلى قريته بعد غياب ، مهما طال أمده ، ومعه كمية من المنسوجات واللآلىء تتجاوز القدر المتوسط ، اتهم بالسحر من فوره ، واضطر إلى توزيع متاعه على الآخرين ؛ بل وكثيرا مايحكم عليه بالغرامة أيضا .[1] » فالنجاح الذى يتجاوز حد المعتاد أو الوصول إلى نتيجة سعيدة لا يصل إلى مثلها الناس عادة ، معناه فى نظر العقلية البدائية فرار الشخص الذى حصل على هذه النتيجة وحده من كارثة تنزل بجميع من عداه ، ولا يتأتى ذلك لإنسان إلا إذا كان يمارس السحر ؛ لأن الصدفة لاوجود لها .

---

(١) ج . ج . منتيرو J. J. Monteiro : Angola and the river Congo ، ج ١ ص ٢٨٠ — ٨١

وقد رأينا فيما سبق عدة أمثلة لذلك [1] . وهذه بعض الأمثلة الأخرى : «نزل الجدري بإحدى عشائر الكفرة فقضى على أفرادها جميعا ولم ينج منهم إلا شخص واحد فقتله بعض أعضاء قبيلته ليلا . وقالوا في تبرير هذا الاغتيال أنه هو الذي جر على العشيرة هذه الكارثة بسحره [2] ». وهذا مثل آخر : «انتشر هنا (جزائر فيجي) أحد الأوبئة منذ بضعة أشهر ، ولما لم ينج من الاصابه به غيرنا توهم الأهالي أننا الذين تسببنا فيه ، واخترعوا لذلك قصة عجيبة . إذ أخذوا يشيعون أني أملك علبة سحرية ، وأني إذا فتحتها خرجت منها الحميات وانتشرت في البلاد [3] . » لكل ذلك إذا عرف أحد الأهالي وسيلة لتجنب كارثة توشك أن تقع به ، لم يحاول تجنبها وفضل أن يصاب بها مع غيره على أن ينجو منها وحده . فعند قبائل « الواشمبا » Waschamba « يعرف كل فرد من الأهالي جيداً أنه يستطيع طرد سحب الجراد بوساطة الصياح أو الضرب على الدف أو بدخان النار . ولكن لا يلجأ أحد منهم إلى هذه الوسائل ؛ لأنه إذا نجح في إبعاد الجراد عن حقله وحده هكذا ، اتهمه جيرانه المنكوبين بالسحر : واستدلوا على ذلك بعدم إصابة حقله . بل قد يتهمونه بأنه هو الذي أرسل الجراد على حقول جيرانه. ولذلك لا يحاولون دفع الجراد عن مناطقهم إلا باستعمال الوسائل السحرية [4] . » والحقيقة أنهم لا يعرفون سببا لإرسال الجراد الذي يلتهم حاصلاتهم غير السحر ويعتقدون أنه يمكن

---

(١) انظر ماتقدم في الفصل الأولى ، ص٣٨

(٢) The South African Commercial Advertiser (١٧ ابريل ١٨٤١)
Extracts from the papers & Proceedings of the Aborig inesProtecttion Society
ج ٢ كراسة ٥ ، ص ١٥٨ — ٥٩ .

(٣) خطاب من الأب ما تيو Annales de la propogation de la foi ، مجلد ٢٨ (١٨٥٦) ص ٣٨٧ .

(٤) كارازك ايشهورن Karasek - Eichhorn :
Beiträge zur Kenntniss. du Waschamba,
في Bässler Archiv ، مجلد ١ (١٩١١) ، ص ١٨٢ .

كتشاف الجانى بهذه العلامة البسيطة ، وهى نجاة حقله من الكارثة دون احقول الآخرين، ويعتبر هذا الدليل من قبيل البديهيات فى نظر العقلية البدائية.

ويحوم هـذا الريب نفسه حول الشخص الذى يعمر طويلا ويظل على قيد الحياة بعد وفاة أفراد جيله جميعا . فى هـذه الحالة يتساءل الناس قائلين : كيف تأتى أن يمتد به الأجل إلى هذا الأمد ، فى حين أن معاصريه قد اختفوا جميعا ؟ وإذا نزلت بهم مصيبة أتجه إليه ارتيابهم على الفور . يحكى بنتلى فيقول: «كان لكيالا Kiala ، رئيس القرية ،أقارب فى مبيت» Mpete على مسيرة ساعتين من محل إقامته ، ومات أحدهم فاتهم ذووه رجلا معمراً فى مبيت بالتسبب فى قتله . وأصر «كيالا» وأهله على أن يتناول الرجل «النكاسا Nkasa . ولم يكن أحد من العرافين قد دل عليه ولم تشر أية علامة إلى اتهامه ؛ ولكنه كان الشخص الوحيد الذى بقى على قيد الحيـاة من بين جميع أفراد جيله ، فاعتقد الناس أنه عاش بعدهم لأنه هو السبب فى موتهم جميعا . فهو ساحر ، ولذلك بقى حيا بطبيعة الحال . ولكننا أنذرنا «كيالا» فأحجم عن اتخاذ الاجراءات المعتادة فى هذه الحالة خوفا من الحكومة . غير أنه صمم على قتل هذا الهرم دون أن يأخذ على نفسه مسئولية قتله . فذهب إلى «مبيت» فى ليلة مقمرة ومعه تجريدة صغيرة ، وأمسك بالهرم فى عشته وكبله . ثم أمر رجاله بحفر حفرة أمام العشة ووضعه فيها . أى أنهم دفنوه حيا وتركوه وشأنه حتى إذا مات فلا ضير عليهم لأن أحدا منهم لم يقتله .[1] »

يعتبر النفور من الجديد الذى يشاهد فى هـــذه الجماعات نتيجة مباشرة للتوافق الجماعى ، وهو أمر جد إجبارى بالنسبة إلى جميع أعضاء المجموعة لأسباب تتعلق بطبيعة العقلية البدائية . فاذا انفرد شخص بمسلك ما ، عرض نفسه للخطر . وعند بعض قبائل «البنتو» مثلا لا يطمع الابن فى حالة أحسن من الحالة التى كان عليها أبوه ، وإذا جرؤ أحدهم على تحسين بناء عشته فأنشأ لها مدخلا أوسع

---

(١) و . هـ . بنتلى Pioneering on the Congo ، ج ٢ ص ٢٣٥ — ٦

من المعتاد مثلا او اتخذ لنفسه ثوبا أجمل من أثواب غيره أو مختلفا عنها. حكم عليه بالغرامة فى الحال؛ وأصبح فى الوقت نفسه موضعا لسخرية الآخرين المرة، حتى أنه لايجرؤ على مجابهتهم مرة ثانيه إلا إذا كان يتمتع حقا بنصيب وافر من الجرأة (١).»

«وليست الطقوس والتقاليد عند قبائل الكفرة من الأمور الهينة التى يستطيع كل شخص اتباعها أو إهمالها تبعا لهواه؛ وإنما عليها تتوقف ثقته فى نجاح شئونه وعلى اطراد تحقيقها تتوقف حياته وحسن حاله. فإذا أخذ فى احتقارها إهمالها جر على نفسه الازدراء وابتعد عنه أفراد أسرته وأصدقاؤه واعتبروه شخصا مريبا واتهموه بممارسة السحر وإلا لما جرؤ على ارتكاب هذه الجريمة المنكرة. وحينئذ إذا نزلت بالعشيرة كارثة ولجأت إلى الكاهن لكى يكشف لها عن الساحر المجرم الذى تسبب فيها، كان هذا المريب أول من يخطر ببال الكاهن. فيتعين عليه أن يلقى جزاء السحرة. وليس هذا هو السبب الوحيد الذى ينأى «بالكفرة» عن التقصير فى أى شىء يتعلق بطقوسهم واحتفالاتهم، بل هناك سبب آخر وهو خوفهم الخرافى من أن يجروا على أنفسهم غضب الأسلاف إذا فعلوا ذلك، فيتعرضوا للكوارث التى تنهال عليهم مما وراء الطبيعة (٢).»

وقد يتوهم أن اتباع الأهالى لهذا التوافق الطغيانى يشق عليهم إلى أقصى حد ويرهقهم من أمرهم عسرا، ولكن الواقع غير ذلك لأنهم اعتادوه منذ الطفولة وأصبحوا، على وجه العموم، لا يتصورون أن الأمور يمكن أن تسير على غير هذا النسق؛ وييسر عليهم تحمله بوجه خاص علاقات الفرد

---

(١) قارن نيو Wanderings and labours in Eastern Africa New، ص ١١٠.

(٢) السكولونيل ماكلين Maclean : ACompendium of Kafir Laws and Customs، ص ١٠٦

بالمجموعة الاجتماعية (الأسرة والعشيرة والقبيلة) . ومن هنا نستخلص أن الفرد فى هذه الجماعات أكثر اتصالا بمجموعته منه فى جماعاتنا . نعم قد لا يكون التضامن الاجتماعى عندهم أوثق منه عندنا ، لأنه أقل منه تعقيدا على وجه التأكيد ، ولكنه أكثر عضوية ، وأشد حيوية مما لدينا . فالضرر فى هذه الجماعات يشبه أن يكون عضوا من جسم واحد بالمعنى الحقيقى للكلمة . ولذلك يعتقد أهل القتيل أنهم قد أخذوا بثأر قريبهم ما داموا قد قتلوا الجانى أو أى فرد آخر من أفراد هيئته الاجتماعية . ويعتبر أعضاء الأسرة كلهم مسئولين عن الدين الذى يدين به أى فرد منهم الخ . » لا يرضى البسوتو على وجه العموم أن يتركوا أمور الحياة الهامة تسير وفقا لمزاج الأشخاص الفردى ، وإنما تقوم الأسرة كلها بتنظيمها وتوجيهها . فالواقع أن الفرد من أفرادهم لا يعد رشيدا قط ، وإنما عليه أن يتقبل وصاية أسرته أو عشيرته أو قبيلته تبعا للظروف . ولا يعتبر الفرد شيئا مذكورا إذا نظرنا إليه وحده ، لأنه جزء من الهيئة الأسرية أو الوطنية [1] . »

إلى هذا الأصل يرجع أحد ضروب النزاع التى كثيرا ما تقع عن غير قصد بين المبشرين والأهالى . فالمبشرون يحرصون على تخليص أرواحهم من الوثنية . ويبذلون كل ما فى جهدهم لإقناع كل رجل وكل امرأة ممن حولهم ، بضرورة ترك العادات الوثنية واعتناق الدين الحقيقى ، ولكن أذهان الأهالى على وجه العموم تخلو من فكرة الخلاص الفردى . فهم يتفقون مع المبشرين فى اعتبارهم أن الموت ليس إلا جسر للعبور إلى صورة أخرى من صور الوجود ، ولكنهم يختلفون عنهم فى أنهم لا يتصورون أن كل واحد منهم يستطيع النجاة أو الهلاك لحسابه الشخصى . وذلك لأن شعورهم العميق

---

(١) ا . جاكتيه : Jacottet : Moeurs, Coutumes et superstitions des Bassoutos فى : Bulletin de la Societé de Geographie de Neuchâtél ، مجلد ٩ (١٨٩٧) ، ص ١٢٣ ، ص ١٢٣ ، ملاحظة ٢ :

الدائم بتضامنهم مع مجموعتهم ومع رؤساء هذه المجموعة إذا كان لها رؤساء ، يمنعهم من فهم ما يتمنى لهم المبشر من أعماق قلبه ، بل من فهم ما يقصده من وراء دعوته . فالبون هنا شاسع بين العقلية البدائية وبين الغاية التى يدعوهم إليها المبشرون . كيف يتأتى للفرد من الأهالى أن يتصور مصيره الفردى فى العالم الآخر على أنه أمر لا يتوقف إلا على إيمانه وأفعاله ، ما دام لا يخطر بباله قط أنه مستقل الشخصية فى وسط الجماعة التى يعيش فيها ؟ ويزيد من بلبلة أفكاره ما يسمعه من المبشر عن الفضل الآلهى .

وهذا هو السبب الأساسى فى أن البدائيين لا يعتنقون المسيحية حين يعتنقونها إلا بصورة جماعية ، ولا سيما فى الأماكن التى استقرت فيها سلطة رئيس تتمثل فيه الحقيقة الجماعيه للهيئة . « الحاجة إلى التبعية طبيعة ثابته عندهم (عند البسوتو) ، وقد لا نعدو الحقيقة إذا قلنا إنهم يولدون وعلامة الطوق تسم أعناقهم . فتعلقهم برؤسائهم فطرة فيهم ، تشبه تعلق النحل بملكته ، وهم لا يتوهمون أن فى استطاعتهم أن يتفاهموا فيما بينهم ويتكتلوا لإلقاء النير من فوق رقابهم ، وإذا كان هذا النير فوق طاقتهم ، حاولوا التخلص منه بصورة فردية وذلك بأن يختاروا لأنفسهم سادة آخرين [1] . » فإذا فرضنا أن هؤلاء السادة أصموا آذانهم أمام تضرعات المبشرين ، كما هى العادة ، صارت الحال على هذه الصورة التى يضعها هؤلاء المبشرون أنفسهم إذ يقولون : « وحينئذ إذا حولنا انظارنا نحو الرعايا تاركين أولئك الرؤساء الصغار الذين يتسمون بنوع من العجرفة المضحكة ، فماذا يقولون لنا ؟ يقولون : نحن كلاب سادتنا واننا أطفال لا عقل لنا ، فكيف يتأتى لنا أن نتقبل الأشياء التى يرفضها سادتنا [2] . » وكذلك الحال عند « البارتسيين » « إذ يجب أن يصدر كل شىء عن رئيس القبيلة حيث يقول الافراد : إذا أمرنا « ليوانيكا » Lewanika أن نتعلم فسنتعلم ، وإذا رفض تعليمكم ، فمنذا الذى يجرو على أن يخالف أمره؟ »

---

(١) Missions évangéliques ، مجلد ٦١ (١٨٨٦) ، ص ٤٤٧ (خطاب من دفوزان)

(٢) المرجع نفسه ، مجلد ٢٣ (١٨٤٨) ص ٢٨٥ (شرمف .

وليس للأمة إلا روح واحدة وإرادة واحدة . وهذا هو الأهمال التام لفردية الفرد وتركيز السلطة كلها فى يد الرئيس ، أو بعبارة أخرى موت الجميع لمصلحة فرد واحد . [١] » وإذا لم يذهب الرئيس إلى الكنيسة بقيت خاوية على عروشها . « مما لاحظناه فى « سيشاكيه Seshaké أنه لايحضر أحد إلى صلواتنا إذا تغيب عنها الرؤساء ، حتى لو كانت القرية مكتظة بالناس [٢] . » هذا إلى أن المبشر نفسه قد اعترف أكثر من مرة ، فى شىء من الإشفاق ، بأن الاعتناق الفردى للمسيحية يكاد يكون أمرا مستحيلا أو اشتطاطا فى الطلب بالنسبة إلى الأهالى . فيقول « يعتبر الفرد من المسوتو ، هذا المسكين أن تلقى الإنجيل معناه رفض المشاركة فى الاحتفالات التى يأمر بها الرئيس والتى تعتبر ضرورية للصالح العام ؛ ومعناه رفضه حمل الرمح ضد الشعوب المجاورة ، وبالأختصار معناه التخلى عن لقب «المسوتو» الذى يحمله، والتعرض لفقدان البقرات التى يملكها والتى تعتبر الوسيلة الوحيدة لإقامة أوده وأود أولاده [٣] . »

ولكن المبشر لا يذكر إلا النتائج المادية المترتبة على فصم الرباط الاجتماعى الذى يمكننا أن نتخيل طبيعته بصورة كامله . يقول الأب « ترى » Trilles، « لا يعد الفرد شيئا مذكورا فى تصور البنتو للنظام العالمى ، أما الجموعة المنظمة فإنها على العكس من ذلك تعتبر هى الكون بمعناه الحقيقى ، لأنها هى وحدها ذات الوجود الحق . نعم إنها الجوهر ، وهو العرض ؛ إنها باقية ، أما هو فزائل (٤) . »

---

(١) المرجع نفسه ، مجلد) ١٨٨٧٦٢)، ص ٢١٧ جاميريه

(٢) المرجع نفسه ، مجلد ٦٣ (١٨٨٨) ، ١٠٥ جاميريه

(٣) المرجع نفسه ، مجلد ٦٣ (١٨٨٨) ص ١٠٥ (جاميريه)

(٤) الأب هـ . ترى Le totémisme de Fân : H. Trilles ، ص ٣٠٩ .

وتقابل مثل هذه الظواهر بصفة دائمة عند غير « البنتو » أيضا ، ولكن لنقتصر على ذكر مثل واحد منها عن سكان « نياس » Nias فقد اقتنع المبشرون الألمان أكثر من مرة باستحالة اعتناق الأهالى المسيحية أفرادا . يقول قائلهم : « لا يستطيع أحد منهم أن يتخذ قرارا شخصيا فى هذا الصدد وإنما على مجلس القدامى أن يقرر ما إذا كان يصح للجماعة أن تغير دينها أم لا ، لأن الدين أيضا من شئون الدولة ، عند أهالى نياس . فإما أن يشمل التغيير الجميع وإما ألا يشمل أحدا . . . فالرباط الاجتماعى الوثيق يعفى الفرد من كل مسئوليه ، ولكنه فى الوقت نفسه يحرمه حرية الاختيار الشخصى . ومن هذا التضامن الاجتماعى الوثيق ، وما يترتب عليه من ضآلة القيمة التى تعزى للشخصية الفردية تنشأ بعض المواقف الغريبة التى لا يمكن للباحث فهمها إلا مع طول الزمن وكثرة التجارب . (١) »

— ٣ —

هذه هى الأسباب الموضوعية والغيبية التى تفسر لنا استمساك الجماعات البدائية بعاداتها ومعاداتها لكل جديد . ولكن هناك سبب أخير لا يقل أهميه عنها ؛ وهو أن العقليه البدائية شديدة الغيبية ضعيفة التصور المعنوى . فهى مرهفة الأحساس جدا ، ولكنها قل أن تحلل أو تجرد . ولذلك فهى إذا كونت أحكاما عن القيمة لتعبر بها عن ضروب حبها وبغضها ، عن عواطفها ونزعاتها بوجه عام ، اضطرت إلى تصور موضوع هذه الأحكام بصورة شخصية جزئية وبعبارة أخرى يمكننا أن نقول إن العقلية البدائية لا تكون معانى تجريدية عامة كما أنها لا تصوغ أحكاما عامه عن القيمة ، تقوم على مقارنة بعض الأشياء المتباينة فى ظاهرها مقارنة إيجابية . إذ أن الأحكام التى من هذا القبيل تستلزم عمليات عقلية تبدو بالنسبة الينا فى غاية البساطة لأننا قد ألفناها ، لكن العقلية البدائية لا تستسيغها ولم تعتد عليها . ولذلك تتجنبها بفطرتها ، إذا جاز لنا هذا التعبير .

---

(١) Berichte der rheinischen missionsgesellschaft ، ١٩٠٧ ، ص ٢٧٤

ويضاف إلى ذلك أن هذه العقلية لا تقدر ما للإجراء أو الطريقة أو الآلة أو الأداة أو ما لأية وسيلة أخرى من نصيب فى التأثير وإصابة الهدف المرجو، وذلك على خلاف ما تعودنا نحن أن نفعل ، فقد درجنا على تقدير ذلك النصيب بملاحظة إنتاج الطريقة أو الآلة أو الوسيلة ومقارنتها بغيرها مقارنة موضوعية دون الالتفات إلى أى اعتبار آخر . نعم أغلب الظن أن هذه العقلية تستطيع أن ترى مقدار ما للطرق والأدوات المستعملة من قيمة فى النجاح . ولكنها لا تجعل هذه القيمة وحدها موضوعا لاختيار خاص . أى أنها لا تحكم عليها حدة ، بل لا تفتأ تدخل فى حكمها عليها تلك العناصر الغيبية التى تعلق عليها نجاح المشروع أو العمل أيا كان . ولذلك تظل أحكامها على القيمة أحكاما شخصية كثيرا ما يحار الباحثون الأوروبيون فى شأنها . فهم لا يفهمون كيف يمكن للأهالى أن يروا أمامهم نموذجين من أداة واحدة بعينها : أحدهما أهلى ساذج عسير الاستعمال والآخر أوروبى جيد الصنع يسير العلاج ، ثم يستمرون على تفضيل الأول كما يحصل فى غالب الأحيان ، ولاسيما فى الأزمان الأولى من اتصالهم بالأوروبيين . يقول الأهالى «إن هذه المنازل (منازل المبشرين) على درجة كبيرة من التفوق ، ولكنهم يضيفون متسائلين : لماذا لا يمكننا أن نعيش فى منازل مماثلة لتلك التى عاش فيها آباؤنا ؟ وكذلك الحال بالنسبة إلى السفن . فها هى ذى سفننا أمامهم ، وهى تفضل زوارقهم ، ولكنهم رغم ذلك لا يريدون بديلا . وكذلك الحال أيضا بالنسبة للثياب واللحم ، الخ . فهم يظهرون رضاءهم عن التقدم ، ولكنهم لا يقومون بأى مجهود فى سبيله ، ويمتدحون الطرق التى يتبعها الأوروبيون ، ويستمرون فى ممارسة طرقهم الخاصة . (١) » .

لاشك أن رضاء الفيجيين هذا يعتبر من قبيل المجاملة البحته . فمن النادر

---

(١) wesleyan missionary notices ، مجلد ٦ (ديسمبر ١٩٤٨) ص١٩٩ يوميات القس لورى .

ألا يحاول البدائي ارضاء محادثه باظهار انفاقة معه في الرأي . أما فيما عدا ذلك فإنه لا يمكننا تفسير سلوكهم بطبيعة أحكامهم على القيمة . فهم يعتقدون أن منازل الأوروبيين وسفنهم جيدة بالنسبة إلى الأوروبيين ، كما أن منازل الفيجيين وسفنهم جيدة بالنسبة إلى « الفيجيين » . هذا هو اعتقادهم ثم لا يعنيهم بعد أن يبحثوا عن معرفة أي البيوت في حد ذاتها أنسب للسكنى ، ولا أي السفن في حد ذاتها أقدر على التوازن فوق سطح الماء . فهذا السؤال لايخطر ببالهم مطلقا . وإذا كانت سفنهم تسمح لهم بالانتقال من جزيرة إلى جزيرة أخرى بل تقطع مسافات طويلة نوعا ما ، فأنهم لا يتعقدون أن ذلك يرجع فقط إلى صفاتها الملاحية بل يرجع أولا وقبل كل شيء إلى القوى الخفية التي توالى «الفيجيين» وتستجيب لأدعية رؤسائهم وتمنح القدرة على قطع المسافات، وتجنبها العواصف والرياح المضادة ، وتقاوم القوى الخفية المعادية لهم وتنتصر عليها ، الخ . يستخلص من ذلك كله أن نجاح هذه الزوارق يستلزم في نظر الفيجيين قيام مجموع معقد من ضروب المشاركة المحددة بين مجموعتهم وبين القوى الخفية التي تسهر على راحتها . فهل يظن ظان أن الفيجيين ينظرون إلى سفن البيض غير هذه النظرة ؟ بل لابد أنهم يعتقدون أن هذه السفن الفخمة خاضعة هي الأخرى لجملة الحياة الغيبية التي تسيطر على مجموعة البيض ، لاسيما وأن كل شيء يدعو إلى الاعتقاد بأن الأوروبيين متصلون بقوى خفية جبارة وهي قوى أجنبية بالنسبة إلى سكان فيجي وقد تكون معادية لهم . وإذا كان ذلك كذلك فماذا يمكنهم أن يصنعوا بمثل هذه السفن ؟ ومن يدري إذا كانت هذه القوى لا تثور بسبب اغتصابهم لسفنها فتعمل على اهلاكهم ؟ اليس من أبسط ضروب الحكمة أن يظلوا أوفياء لعاداتهم التقليدية في هذه النقطة ، كما هي حالهم في غيرها . نعم إذا تحقق المستحيل وأصبح « الفيجيون بيضا » ، أي إذا امتزجت مجموعتهم بمجموعة البيض واختلط أسلاف المجموعتين وتآخت قواهما الحارسة معاً ، فعندئذ ، وعندئذ فقط ، يمكنهم أن يتقابلوا ويتخذوا آلات البيض وطريقتهم في الحياة مع عدم الخوف

من الخطر ، بل مع توقع الفائدة . ولكنهم حتى هذه اللحظة لا يستطيعون إلا أن يظلوا متمسكين بعاداتهم الخاصة ، لأنها هي وحدها التى تضمن لهم النجاة . فهم حين يسلمون أمام الأوروبيين بأن طرائق البيض خير من طرائقهم إنما يريدون أن يقولوا : « إنها خير بالنسبة إليكم يا معشر البيض ! » أما الحكم على شيء ما بأنه « خير فى حد ذاته » فذلك ما لا معنى له فى لغتهم .

وكثيراً ما نرى هؤلاء الفيجيين أنفسهم « يلفظون الوثنية » إذا أصيبوا بداء واضطروا إلى تعاطى بعض الأدوية الأنجليزية ؛ وذلك لاقتناعهم بأن اعتناق المسيحية أمر لا بد منه لنجاح الدواء » ! وهذا مثال حى لطريقتهم فى التفكير والتعليل ويدل على خلو أذهانهم من فكرة التأثير الفسيولوجى للدواء ؛ فهم لا يتصورون أن له أى تأثير غير التأثير الغيبى . ومعنى ذلك أن دواء المسيحيين لا يمكن أن يكون جيدا فى حد ذاته ولا بالنسبة إلى جميع الناس ، بل بالنسبة إلى المسيحيين وحدهم . إذن فليكونوا مسيحيين حتى يستطيع هذا الدواء القوى أن يشفيهم ، كما يشفى الانجليز . ويقول أيضاً القس « ووترهوس » : « اعتنقت إحدى زوجات الملك « تانو » Tano الديانة المسيحية ، لكى تضمن لنفسها حسن تأثير الطب الإنجليزى . ولم تكد تبل من مرضها حتى أجبرها تاكمبو Thakombou على الرجوع إلى الوثنية ، وهو يقول لها : إنك لم تعتنقى المسيحية إلا لتفرى من الموت بعد أن يموت ابى . [1] »

وإذا نظرنا إلى الجماعات البدائية الأخرى ، سواء أكانت متقدمة عما كان عليه « الفيجيون » منذ قرن أم متأخرة عنه ، رأينا أهلها يسيرون على هذا النهج

---

(١) ج. ووترهوس The King and people of Fiji : J. Waterhouse ، ص ٤٢٠ .

(٢) المرجع نفسه ، ص ١٠٨ .

عينـــه ، فيجعلون حكمهم على القيمة حكما خاصا قاصرا، ولا يستطيعون أن يتصوروا أن ما هو مفيد للبيض يمكن أن يكون مفيدا لهم أيضاً وأن الدواء الذى يبرىء البيض يمكن أن يبرئهم أيضاً ، وأن فى استطاعتهم أن يستعملوا طرق الأوروبيين وأن يعتنقوا دينهم وينتفعوا بثقافتهم ، وأن يلاقوا فى الحياة الأخرى نفس المصير الذى يلاقونه . «كان افراد «البابو» يقولون المبشر : إنك على حق ، ولكنهم يستدركون من فورهم قائلين : ولكن هذه عاداتنا منذ الأبد ، فنحن نعتقد أن «الروتوا» rotoi (الروح أو الإله) هو الذى اخرج «الآى» ai ، وانتم تعتقدون أن كلمة الله هى التى اخرجت عيسى . نحن سود وانتم بيض [١] .» وفى غينا الجديدة الإنجليزية «سمعت ان ابنة احد معلمى البعثة الوطنيين قد ماتت ، فأتهم ابوها ساحر الصقع بالتسبب فى موتها . ولما أنبه المبشر على اعتقاده فى «البورى بورى» pouri pouri (السحر) اجابه بقوله : إنك رجل أبيض لا تفهم شيئا فى (طب) غينا الجديدة ، أما أنا فمن أهل هذه الجزيرة وأفهم طبها [٢] .» وهكذا لم يستطع هذا الرجل أن ينسى تضامنه الوثيق مع هيئته الاجتماعية برغم اعتناقه الظاهرى لدين البيض. وفى جزيرة «نياس» ، «يرتبط الفرد من الأهالى بعاداته العتيقة أشد ارتباط ، ويشيح بوجهه عن كل تقدم ولو كان خارجيا ، مع أن الأشياء الجديدة التى يراها ويسمعها تبدو له أرقى من أشيائه وخيرا منها . وهذا احــــد الأسباب التى تعوق المدارس عن التقدم والنجاح : فان أهل نياس يعتبرون القراءة والكتابة وكل معرفة عقلية أخرى على وجه العموم من الأمور التافهة التى لاجدوى من ورائها [٣] .» أى أنهم يريدون أن يقولوا بعبارة اخرى : إن هذه الأمور قد تكون مفيدة بالنسبة إلى الرجل الأبيض ، لأنها تكون جزءا من مجموع نشاطه ، كما أنه يعرف من تجاربه الماضية ما يضمن له الاستفادة منها .

---

(١) Berichte der rheinischen Missionsgesellschaft ، ١٨٩٩ ، ص ١١٥—٦ (غنيا الجديدة الألمانية) .

(٢) Annual Report, Papua ، ١٩١٢ ، ص ٦٣ .

(٣) Berichte der rheinischen Missionsgesellschaft ١٨٩٠ ، ص ٢٣٦

أما اهالى « نياس » فلا شأن لهم بها، وإذا اتخذوها فاغلب الظن انهم لن يلبثوا أن يندموا على مافعلوا . تغرم قبائل « الجيبارو » Jibaros « بالأكرا دو » بتدخين التبغ ، ولكنهم لم يتعلموا تدخينه إلا من البيض . ويدلنا على ذلك أنهم لا يدخنون إلا التبغ يأخذونه من البيض . أما التبغ الذى يزرعه أفراد «الجيبارو» بأنفسهم،فلا يستعملونه إلا فى الاحتفالات ،كما أنهم لايستعملون تبغ البيض فى الإحتفالات مطلقا . إذ يبدو أنهم لا يثقون فى صلاحيته لهذا الاستعمال(١) . »

— ٤ —

لاتلبث هذه الأفكار والعواطف التى يشعر بها الأهالى نحو البيض وما يجلبونه معهم أن تتحور بتأثير الاتصال الطويل . ويحدث هذا التغير بصور شتى تبعا لعدد البيض الوافدين وتبعا لما إذا كانوا يحتلون البلاد أم يترددون عليها فقط ، ولما إذا كانوا يرغمون الأهالى على العمل معهم أم لا ، ولما إذا كانوا يعاملونهم بقسوة أو بلطف ، الخ . وفى أغلب الاحيان لاتستطيع الجماعة الأهلية أن تعيش بعد هذه الأزمة : لأن ضروب الانهيار الخلق والأمراض الفتاكة التى يجلبها البيض معهم تعجل بالقضاء عليها . وقد لاحظ الباحثون أن العادة الجديدة تبدأ ببطء فى بادىء الأمر ، ثم تسرع الخطى بعد ذلك . كما لاحظوا ايضا أن الأهلى لايحاولون فى بداية اتصالهم بالأوربيين أن يهيئوا أنفسهم لطريقة الحياة الأوربية ، بل يعملون بالأحرى على تهيئة مايستعيرونه من البيض لكى يساير طرقهم الخاصة . يقول « إيلمان » Eylmann: «من الغريب أن نلاحظ مبلغ إعراض الأهالى عن التأثر بالأوروبيين فيما يتعلق بالأسلحة. فانهم قد احتفظوا بأشكالها التقليديه فى جميع البلاد التى عرفتها ، بل لقد ظلوا إلى حد كبير يستعملون فى صنعها نفس المواد التى كانوا يستعملونها من قبل . إذ لايزال أفراد القبائل النازلة بين بحيرة « إير » Eyr وتنانتس كريك

(١) كارستين Karsten :
Beiträge zur Sittengeschichte der südamerikanissher Indianer. (١٩٢٠)، ص ٥٠٦ .

Tennants Creek يصنعون اسلحتهم من الخشب والاحجار ، كما كانوا يفعلون حينما كانوا ينفردون بالسيادة على بلادهم . ومع ذلك فان الأهالى القاطنين فى شمال « تنانتس كريك » يستعملون الحديد والزجاج فى صنع اسنة الرماح الكبيرة(١) . »

اقام الأستاذ « ستينسبى » Steensby فترة ما بين الاسكيمو القطبيين . وقد وجه جل عنايته إلى دراسة الطريقة التى كان يتبعها البدائيون فى استقبال وسائل التقدم التى جلبها إليهم البيض فى العهود الأولى ، أى قبل أن تنشأ علاقات مستمرة بين الأوربيين وقبائل الاسكيمو . وقد وصل ستينسبى إلى نتائج لاتخلو من فائده، ومن ذلك قوله : «من الخطأ أن نعتقد بأن اسكيمو القطب قد قابلوا الآلات الأوربية كلها بالترحاب. فالواقع أنهم اتجهوا اتجاها غريبا فى اختيار الأشكال التى رأوا أنها تناسب حاجاتهم اكثر من غيرها . وانتهوا إلى أن المبرد انفع الآلات الأوروبية التى يستطيعون الحصول عليها ... نرى من ذلك أن الاسكيمو قد اختاروا من الآلات مايتفق ووسائلهم القديمة، وإن كان يؤدى إلى اختصار المجهود الذى كانوا يبذلونه من قبل ، وبذلك لايضطرون إلى تعديل هذه الوسائل بسبب استعمال الآلات الجديدة . وهكذا نراهم يعيشون دائماً فى العصر الحجرى إلى حد كبير ، فيقبلون المعونه التى تقدمها لهم الطرق الميكانيكية الحديثة دون أن يستعيروا العقلية التى تصحبها . ولذلك يعتبرون أن مادة الحديد ومادة العظام من طبيعة واحدة، ويستخدمون الحديد بنفس الطريقة التى كانوا يستخدمون بها العظام أى عن طريق المبرد. وقد وجدت مثلا ممتعاً على ذلك فى سن خطاف صنعه مانجسوك manigosok الاسكيمو القطبى من قطعة حديد بمهارة فائقة ،واستخدم المبرد فى صناعته(٢) .»

---

(١) ا . إيلمان E. Eylmann :

Die Eingebornen de Kolonie Süd Australien. ، ص ٣٦٣ .

(٢) هـ . ب ستينسلى H. P. Steensly :

Contributions to the Ethnology and Anthropology of the Polar Eskimos : فى meddelelser Von Groenland ، مجلد ٢٤ (١٩١٠) ص ٣٤٨ — ٩

وهكذا فما دامت النظم الجوهرية للهيئة الاجتماعية باقية على حالها ، فان عقلية اصحابها تظل على ما كانت عليه بالرغم من عظم التغيرات الخارجية التى تطرأ على حياتهم . وكثيرا ما لاحظ البصيرون من المبشرين أنفسهم هـــذه الملاحظة . فاعتناق المسيحية لايزيد الأهالى قدرة على أن يتصوروا فكرة الخلاص الفردى . وذلك لأن احساسهم بتضامنهم العضوى مع هيئتهم الاجتماعية ومع رئيسهم لا يتلاشى باعتناقهم الدين الجديد ليحل محله شعور واضح بشخصيتهم الفردية ، بل كل مايجد عليهم أنهم يضعون المبشر فى نفس الوضع الذى كانوا يضعونه فيه الرئيس من قبل . « تكلمت طويلا عن ذلك الجحيم من النار الذى أنبأنا به « بطرس القديس » — ثم صحت بمستمعى قائلا : أين لكم المفر إذن من غضب الله ؟ فأجابنى بضعة أشخاص من بينهم قائلين فى صوت واحد : نحوك يا « موروتى » moruti (يامبشر) ، نحوك يا أبانا[١] ! » فهم يعتقدون أن من وظائف المبشر أن يضمن للمجموعة باسرها ، وبالتالى لكل فرد من أفرادها ، رضاء الله والحصول على نعمائه ، كما كان من شأن رئيس القبيلة قبل اعتناق المسيحية ، أن يضمن لهم تعضيد الأسلاف والأرواح عن طريق الاحتفالات والقرابين التقليدية . بل إن الشخص منهم يسعى بكل جهده إلى المحافظة على تقديسه للعادة فى نفس اللحظة التى يقبل فيها على تغييرها : فيتبع تجاه العادة الجديدة نفس المسلك الذى كان يتبعه تجاه العادة القديمة . « يمتاز المسيحيون منهم بطابع المحافظة الصارخه ؛ لأن العادة التى كانوا يعتبرونها قبل اعتناقهم المسيحية قانون الحياة الذى لا ينازع تصبح ، فى الكنيسة قانونا منزلا من عند الله . فيعتبرون كل تغيير يعتريها تحديا لإرادة الله[٢] . »

يوجد فرق شاسع بين عقلية البدائيين الغيبية اللامنطقية ، وبين طريقة التفكير عند البيض ؛ ولذلك يتعذر علينا أن نتصور انتقال الأولى إلى الثانية انتقالا مفاجئاً . ولكن لاشك أن ملاحظة التحول التدريجى البطىء الذى

---

(١) missions evungéliqes ، مجلد ٦٣ (١٨٨٨) ص ١٩ (كويار) .
(٢) المرجع نفسه ، ج ٧٧ ، مجلد ٢ (١٩٠٢) ، ص ١٨٧ (كرستلر) .

ينتقل بالأولى إلى الثانية مما يزيدنا معرفة بالكائن البشرى ويقدم علمنا به إلى أبعد مدى . غير أن الظروف التى مرت بنا حتى الآن لم تسمح لنا لسوء الحظ بملاحظة هذا التدرج . ونخشى ألا تكون هذه الظروف فى المستقبل خيرا منها فى الحاضر . فأغلب الظن أن الجماعات البدائية القليلة التى بقيت حتى الآن سيصادفها نفس المصير الذى صادف اخواتها التى خبا أوارها من قبل . لذلك يتحتم علينا منذ الآن أن نتذرع بكل عناية، ونسارع بجميع كل ما يتعلق بموقف العقلية البدائية فى اللحظات التى تضطرب فيها حياة البدائيين فجأة بدخول بعض العناصر الجديدة عليها .

الفصل الثالث عشر

البدائيون والأطباء الأوروبيون

تعد علاقة المرضى بالطبيب من أولى العلاقات التي تقوم بين الأهالي والأوروبيين في جميع الأصقاع التي حلوا بها تقريبا . ومن النادر ألا يضطر إلى ممارسة الطب أي أوروبي ينزل بهذه البلاد، سواء أكان مكتشفا أم مبشرا أم من دارسي التاريخ الطبيعي أم من الموظفين الإداريين . فكيف يتلقى الأهالي علاجهم وعلى أي وجه يفهمونه ؟ الوقع أن لدينا في هذا الصدد كثيرا من الوثائق التي يعضد بعضها بعضا : فلعلنا إذا بحثناها عن كثب ، وجدناها تؤكد تحليلنا السابق للعقلية البدائية .

يقول الأستاذ بنتلي : « كنا في كل صباح نقضي ساعات ثلاثا في تضميد قرح ضخمة مقززة ، وكانت سرعان ما تصل إلى حالة مرضية بتأثير مراهمنا الناجعة الموفقة . وقد يظن القارىء أن نجاحنا في القضاء على القرح التي يرجع منشؤها إلى خمس سنوات أو أكثر ، وشفاءها في بضع أسابيع ، من شأنه أن يثير دهشته الأهالي وإعجابهم . وقد يظن أيضا أن هذه العناية الطبية التي كنا نبذلها بمثابرة وعن طيب خاطر ، وأن حرصنا على إيواء هؤلاء المرضى وتغذيتهم في أغلب الأحيان ، وجهودنا الدائمة في سبيل تقريب الأهالي منا وكسب ثقتهم بنا ، قد يظن المرء أن كل ذلك كان من شأنه أن يوحي إليهم بشيء من العرفان بالجميل ، ولو في بعض الأحيان . ولكن الواقع أننا لم نكن نرى في سلوك هؤلاء الناس ما ينبىء بالدهشة أو العرفان بالجميل، بالرغم من أنهم ليسوا من ذوي الطبع البارد . لذلك قد يتساءل المرء بصورة جدية عما إذا كان عدم العرفان بالجميل فطرة طبيعية في هذه الشعوب، اللهم إلا في بعض المناسبات النادرة .[1] »

---

(١) و . هـ . بنتلي . Pioneering on the Congo ، جـ ١ ، ص ٤٤٤ — ٥

وهذه حالة أخرى يعبر فيها المبشر عن خيبة أمله بصورة أمر من السابقة، فيقول . « بعد وصولنا إلى « فانا » Vana بيوم أو يومين وجدنا أحد الأهالى يعانى أشد الآلام من جراء نزله شعبية . فعنى به كمبر Comber وواظب على إعطائه شيئا من حساء الدجاج حتى نجاه من الموت المحقق . وقد بذلنا كثيرا من الوقت والجهد فى العناية به ، لأن منزله كان قريبا من مخيمنا . ولم نوشك على الرحيل حتى كان قد استرد صحتـه كاملة . ولشد ما كانت دهشتنا حينما جاء يطلب إلينا أن نقدم له إحدى الهدايا . ولما رفضنا ، كانت دهشته ، بل صدمته من رفضنا لا تقل عن دهشتنا من طلبه . وأفهمناه أنه هو الذى كان ينبغى له أن يقدم إلينـا بعض الهدايا وأن يظهر لنا شيئا من العرفان . . ولـكنه اجاب قائلا : كيف !! ألا تستحون أيها البيض ؟ لقد تناولت دواءكم وشربت حساءكم ، وفعلت كل ما أمرتمونى به . والآن ترفضون إعطائى قطعة من النسيج الجميل لأكتسى بها ! حقا إنكم لا تستحون ! وبالرغم من هذا الاحتجاج لم نقدم له شيئا (١) . »

ربما نظن أن المبشرين قد صادفوا هنا شخصا ثقيل المزاح ، ولـكن الحالات التى من هذا القبيل لا تكاد تحصى . فمثلا « حكى لنا « نلموو » Nlemwo (رجل من الأهالى كان فى صحبة « بنتلى ») أنهم وصلوا ذات يوم إلى قرية كان فيها شخص مريض جدا . فأعطاه الطبيب شيئا من الدواء . وحينما مروا بهذا المكان ثانية فى أثناء عودتهم ، بحث الطبيب عن هذا الرجل وسأله عما إذا كانت حالة قد تحسنت . فأجاب بأنه أصبح على خير ما يرام ثم طلب إلى الطبيب أن يدفع له أجره على تناوله دواءه (٢) . » — ويقول بنتلى أيضا : « أعجب الناس كلهم بنجاحى فى شفاء الرئيس فى فترة وجيزه ، وأصبحوا لا حديث لهم غير ذلك الأمر . وصرت أعرف بينهم باسم الأبيض الذى شفى « دون دنيل

---

(١) المرجع نفسه مجلد ١ ، ص ٤١٤

(٢) هـ . م بنتلى The life and ladours of a Congo Pioneer ، ص ١٢٨

don Daniel أكثر من اسم « بنتيل » الذى كانوا يطلقونه على من قبل . ولكنى لما ذهبت لرؤيته ذات مرة ، لم يظهر لى أى عرفان بالجميل رغم اعترافه بأنى أنا الذى شفيته ، ثم قال لى : « ماذا عملت لى : إننى أكلت طيورا وطعاما مغذيا ! يالغرابة أطواركم أيها البيض ! ولماذا لم تقدم لى هدية قبل أن تذهب ؟ يالك من بخيل ! (١) » .

فهل هذه خلة انفرد بها أهالى أقليم الكنغو ؟ كلا ، لأننا نجدها فى غير الكنغو من الأقاليم الافريقية ، بل فى غير افريقية أيضا . فمثـــلا عالج « ماكنزى » أحد الأهالى حتى شفاه ، وكان قد اعتدى عليه نمر فمزق وجهه ، وترك فيه جرحا بليغا . فجاءه يوما ؛ وحسب ماكنزى أنه جاء ليخبره أن جرحه قد التأم ، وليعبر له ، على الأقل فى عبارات أخاذه ، عمايدين به نحوه من عرفان بالجميل . وجلس الزائر وراح يحكى قصة جرحه منذ البداية دون أن ينسى دواء واحدا من الأدوية التى تناولها ثم ختم حديثه بقوله : « لم يصبح فمى فى الموضع الذى كان فيه من قبل بالضبط .. ولكن الجرح قد برىء تماما .. وكان الناس قد أجمعوا على أنى لن أبرأ منه ؛ فشفانى أعشابك . فأنت الآن « رجلى الأبيض » . ولذلك أرجوك أن تعطينى سكينا . فلم أصدق أذنى وسألته : ماذا تقول ؟ فأجاب : ليس عندى سكين ، فأعطنى سكينا من فضلك . ثم أضاف قائلا ، وأنا مشدوه أبحث عما يمكن أن أجيبه به : أنت الآن رجلى الأبيض ، ولن آتى إلا إليك كلما أردت الحصول على شىء ! فبدا لى أن ذلك قلب غريب للأوضاع ، وبدأت أظن فم الرجل لم يكن الشىء الوحيد الذى انحرف عن مكانه فيه ! وأخذت ألمح له فى لطف بأنه كان من الأليق أن يشكرنى على دوائى على الأقل . فقاطعنى قائلا : « ألم أقل لك أنك أصبحت منذ الآن رجلى الأبيض ؟ ألست أطلب منك سكينا لا أكثر ؟

(١) المرجع نفسه ، ص ٣١٧ ١٩١١ .

فأنهيت المناقشة معتبرا أن هذا الرجل مثال غريب من إختلاط التفكير (١) ».

وقد يصادف بعض الأوروبيين حالات فيها شيء من العرفان بالجميل ، ولكنهم حين يذكرونها يحرصون دائماً على القول بأنها حالات استثنائية . « . . . . فى اليوم الثلاثين تلقيت هدية ، وكانت هذه هى المرة الوحيدة التى أتلقى فيها علامة للشكر على خدماتى الطبية (بعد سنين من الممارسة) ؛ وذلك لأن الاعتراف بالجميل عندهم من الأمور النادرة (٢) . » — « كان أغلبهم يذهبون بعد العلاج دون أن يفوهوا بكلمة شكر واحدة ؛ مالم أطلبها منهم بنفسى . وقد تلقيت مرة واحدة طبقاً من الطعام رمزا للشكر ، وكان ذلك من امرأة بطبيعة الحال . ولكن ليس من النادر ، على العكس من ذلك ، أن يطلب اليك المريض أن تقدم له إحدى الهدايا رمزا غريباً على الصداقة الناشئة بينكما (٣) . » ويقول مبشر آخر عن هـــذا الإقليم نفسه ما يلى : « كدت آلف مناظر الشحاذة التى تسود فى هذه الأقاليم حتى صرت أرى من المألوف ألا أتلقى كلمة شكر واحدة من مريض ، بل أن يطلب إلى المريض قطعة من النسيج أو هدية أخرى بعد الانتهاء من علاجه . ولم أستطع اقناع المرضى بأن يحيونى لدى دخولهم وخروجهم إلا بعد مشقة كبيره . فالكثيرون منهم يطلبون منك الدواء على أنه دين واجب لهم . ولكن هناك حالات استثنائية ، من حسن الحظ ؛ إذ قد أتلقى من هنا أو من هنـاك علامة شكر تثلج صدرى . فبالأمس مثلا جاءتنا صبية كنت قد عالجتها ، وأحضرت لطفلنا كوزا كبيراً من الذرة بعد أن عبرت لى عن شكرها (٤) . »

ويسير الحال فى غنيا الجديدة على هذا النحو بالضبط . يقول الأستاذ

---

(١) ماكنزى Mackenzie : Ten years north of the Orange-river ، ص ٤٤ — ٥ .

(٢) ا . و . ا . جلا A et E. Jalla : Pioneers Parmi les Parotse ، ص ٦٧

(٣) Missions évangéliques ، مجلد ٨٦ ، ج ٦ (١٩١١) ، ص ٢٧ (دى بروسن) .

(٤) المرجع نفسه ، مجلد ٧٩ ، ج ١ ، (١٩٠٤) ، ص ٤٠٤ .

نيوتن : « كان من المناظر المألوفة فى بادىء الأمر أن يأتينا مثلا رجل تغطى ساقه قرح مخيفة ، ثم يطلب منا أن ندفع له الأجر ليسمح لنا بتخفيف كربته . وقد يبدو من المستغرب أن يكون المريض هو الذى يطلب « الأتعاب » من الطبيب(١) ». ويقول آخر : « تستطيع كل بعثة من بعثاتنا أن تقص عليك قصصاً عديدة لمرضى عولجوا وخرجوا بعد شفائهم ، ثم راحوا يتساءلون عن مقدار ما سيعطيهم المبشرون (فى صورة هدية من التبغ) جزاء تناولهم دواء البيض ، وثمنا لمجيئهم من بعيد إلى مقر البعثة طوال هذه الأيام(٢) » .

وقد مر المبشرون الألمان فى سومطره بتجارب مماثلة لتلك تماما . « يتقبل أفراد « البتاك » Bttacks العلاج الطبى الذى نشير عليهم به . . . دون أن يظهروا أية علامة للشكر أو عرفان الجميل ». ويروى المبشر « ماكس باروخ max Baruch عن هذا الأمر مثلا نموذجيا حقا . فقد أغاثت زوجته امرأة من « البتاك » كانت مهددة بخطر شديد ، واعتنت بها حتى نجتها من الموت . وبعد ذلك رفض ذووها أن يصحبوا زوجة المبشر إلى بيتها ؛ ولما ألحت عليهم فى ذلك قبلوا فى النهاية أن يرجعوا بها . ولكنهم طلبوا من زوجها بعض التبغ جزاء لهم على هذه المشقة التى تكبدوها(٣) . » هـذا إلى أن هؤلاء المبشرون أنفسهم يقررون « أن الكثيرين منهم يظهرون عرفانهم بالجميل من أجل العلاج الطبى ؛ ولكن هناك أشخاصا آخرين على درجة كبيرة من السذاجة ولذلك يظنون أنه يجب على المبشر أن يقدم إليهم هدية ، لأنهم أتاحوا له سرور العلاج على يديه(٤) » .

---

(١) هـ . نيوتن H. Newton : In far New Guinea ، ص ٢٧٢ .

(٢) ا . ك . تشينيل A. K. Chignel : An Outpost in Papua ، ص ٢٠٦ .

(٣) Berichte der rheinischen Missionsgesellschaft ، ١٩٠٠ ، ص ٢٩٤ .

(٤) المرجع نفسه ، ١٠٩٢ ، ص ٢٥٠

« كنت أعالج أحد الشبان من جرح خطير أصيب به وهو يقطع إحدى الأشجار . ولما التأم جرحه بعض الشيء وأصبح قادرا على ركوب الحصان ، طلبت إليه أن يأتى إلى مقر البعثة لكى أضمد له جرحه ، وقلت له : « ستأتى إلى بعد غد . » ولكنه أجابنى بأنه يفضل أن أذهب أنا إليه . فقلت له «ولكن وقتك أفسح من وقتى . » فرد على بسذاجة قائلا : « ولكن لا تنسى ياتوان Tuan (ياسيد) أن الحصان ليس بالمجان . » وكانت السفرة تكلفه خمسة سنتات (بضع ملاليم) ، فقلت له : «وهل يجب على أن استمر فى الذهاب إليك فى بيتك لالشىء إلا لنستطيع اقتصاد خمسة سنتات، مع أنك غير فقير ! » وقد كدت أصعق حين رأيت أن خدماتى الطبية ليس لها إلا هذه القيمة الزهيدة ، وأن هذا الشاب لا يعيرها أى اهتمام[١] . »

وفى بورنيو . « كنت أمر بإحدى القرى (على نهر لمبانج Limbarg) فأعطيت قليلا من سلفات الزنك إلى رجل يشكو من ألم فى عينيه . وأغلب الظن أن الدواء أفاده ، لأنه عاد إلى يحمل قليلا من العرق علامة على الشكر وألح على أن أشربه .... أذكر هذه السمة ، وذلك لأن الأهالى ، لا يظهرون عرفانهم بالجميل من أجل خدمة أسديت إليهم قط ، مهما كان مقدار شعورهم بهذا العرفان فى صميم قلوبهم . والواقع أنى لم أر من هذا القبيل طوال إقامتى بينهم إلا حالات تعد على أصابع اليد[٢] . »

وكتب الأستاذ وليامز Williams بدوره يقول : « علمتنى تجارب أربع سنوات قضيتها مع قبائل « السوموسومو » Somosomo (فى جزائر فيجى) أنى إذا أعطيت مريضا منهم بعض الدواء ، ظن أنى ملزم بأن أقدم له الطعام أيضا .

---

(١) المرجع نفسه ، ١٩٠٩ ص ٥٠ و ٢ .

(٢) سير سبنسر سان جون Sir spenser Saint John
Life in the forests of the Far East ، ج ٢ ، ص ١٣٨ — ٣٣ .

وإذا قدمت له الطعام اعتقد أنه أصبح له الحق فى طلب الملابس . وإذا حصل على الملابس رأى أنه صار منذ الآن فى حل من طلب كل ما يريد ، وأن له الحق فى سبى إذا لم أحقق مطالبة الطائشـــة . وقد حدث لى أن عالجت « تويتكاتو » الثانى Tuitkatau ، ملك « سوموسومو » الهرم ، من مضاعفات خطيرة لمرض لم يستطع المطببون المحليون أن يخففوا من وطأته . فكان طوال اليومين أو الأيام الثلاثة التى استلزمها علاجه يرسل لاستحضار الشاى ودقيق الأرو روت من منزلى . وبعد شفائه جاءتنى ابنته وقالت لى إن إياها لا يستطيع الأكل بسهولة ، وطلبت منى إناء من الحديد لطهى طعامه ! وهذا مثل آخر : حدث لربان إحدى سفن الصيـد أن أخذ على عاتقـه علاج رجل من الأهالى تهشمت يده من طلقة بندقيته . فاستأصل البحار يده واستضافه على سفينته قرابة شهرين من الزمن للعناية به . ولما برىء أخبر الربان أنه يريد العودة إلى البر ، وأنه يطلب منه بندقية ثمنا لبقائه كل هذا الزمن الطويل فوق السفينة . فرفض الربان طلب هذا الشخص الطائش بطبيعة الحال ، وأرساه على البر بعد أن ذكره بالجميل الذى أسداه إليه والذى يرجع إليه الفضل فى تخليصـه من الموت . فأراد البدائى أن يبدى شكره للربان فعلا بأن أشعل النار فى المكان الذى يجفف فيه سمكه ، وحرق كمية من السمك لا يقل ثمنها عن ثلثمائة دولار (١) . »

— ٢ —

هكذا كان سلوك الأهالى نحو الأطباء الأوروبيين الذين قاموا بعلاجهم . وهو سلوك شاذ غريب ، بل مستحيل التفسير فى جميع الحالات التى ذكرناها والتى يمكننا أن نذكر منها مالا يحصى . وذلك مما يجعل الأوروبيين يشعرون بالدهشة أو بالغضب أو بفتور الهمة أو بالسخط ، كل بحسب طبيعته . فمنهم من يغضب حقا ومنهم من يكتفى بهز كتفيه . ولكن يبدو لنا أنه لم يدر بخاطر

---

(١) ث . وليامز Th. Williams : Fiji and the Fiji ans ، ص ١٢٨ — ٩

أحد منهم أن يتساءل عما إذا كان هذا السلوك يخفى وراءه مسألة سيكولوجية يجب حلها، وعما إذا لم يكن سوء التفاهم الذى يقع بين الطبيب ومريضه ناشئا من سوء فهم متبادل. فى ذهن الطبيب فكرة معينة عن المرض والعلاج، وتبدو له هذه الفكرة أمراً طبيعيا حتى ليفترض وجودها لدى الأهالى أيضا بعينها. والواقع أن الفكرة التى لدى الأهالى عن المرض والعلاج تختلف عن فكرة الأوربيين كل الاختلاف. فلو أن الطبيب الأبيض كلف نفسه ببحث الطريقة التى يتبعها الأهالى فى تفسير العلاج الذى يتلقونه على يديه، لخفف من دهشته حين يراهم يسيئون فهم علاجه ولا يقدرونه حق قدره، بل حين يأتى إليه من عالجهم ليطالبوه بتعويض.

فنحن نعرف أولا أن شفاء مرض ما، معناه فى نظر العقلية البدائية قهر الطلسم الذى سبب هذا المرض بوساطة طلسم أقوى منه. «والواقع أن اللنجاكا Lingaka (المطببون من الأهالى) يلقون فى روع الناس، حتى فى أبسط الحالات، أنهم هم الذين يسببون الشفاء، وأن الأدوية التى يعطونها المرضى ليس لها أثر يذكر؛ ويزعمون أنهم يؤثرون على المرض تأثيراً سحريا عن طريق القدرة التى يستحوذون عليها، وأن العقاقير التى يعطونها للمريض ليست هى التى تقضى على المرض (١)». فالعلاج ينحصر جوهريا فى تأثير روح على روح، على حد تعبير «مس كنجسلى» Miss Kingsley. وإذا عزا الأهالى شيئا من الفضل إلى الأدوية نفسها، فذلك فقط لأنها مجرد مطايا لقوة سحرية. فهل يظن أن فكرة الأهالى عن دواء الأوروبيين تختلف عن فكرتهم فى الدواء الذى يصفه لهم أطباؤهم؟ الحقيقة أنهم يعتقدون أن المرض يأتى من وجود قوة ضارة فى الجسم وأن المريض يبل من مرضه حين ينجح الطبيب فى طردها منه. والطبيب الأبيض، حين يعالج قرحة المريض مثلا، يفترض بداهة أن مريضه يدرك العلاقة الواضحة التى توجد بين الضمادات والأدوية ووسائل العلاج الأخرى

---

(١) ماكنزى، Ten years north of the Orange river، ص ٣٨٩.

من جهة ، وبين الجرح الذى يراد تطهيره وحصره وشفاؤه من جهة أخرى . ولكن هذه العلاقة تخفى فى الحقيقة على العقلية البدائية، أو على الأقل كانت تخفى عليها قبل أن تتغير من جراء الاتصال الطويل بالبيض . فهذه العقلية لا تهتم مطلقا بالرابطة التى بين الأسباب الطبيعية ونتائجها ، حتى حينما يكفيها أقل مجهود لاكتشافها ، ولذلك تعمى عن رؤيتها أو على الأقل لا تقف عندها : لأن اهتمامها جميعه موجه إلى غيرها . فعندها أن الأسباب الثانية أو الطبيعية ليست أسبابا حقيقية ، بل آلات على أكثر تقدير ، وكان يمكن استخدام غيرها .

لذلك قد يقبل الأهالى أن يخضعو لعلاج طويل معقد ، ولكنهم يحارون فى استكناه السبب الذى يوجب عليهم اتباعه . إنهم لا يفهمون شيئا من ذلك ، وكثيرا ما يوئسون أطباءهم بسبب اهمالهم تطبيق الوصفات التى لا مندوحة عنها . إذ أنهم يعتقدون أنها عديمة الأهمية وأنه يجب حدوث الشفاء دفعة واحدة ، ولو بدونها . وهم على وجه العموم يتناولون الأدوية الأوروبية عن طيب خاطر ، إذا كانوا يثقون فى الشخص الذى يقدمها لهم ، يتناولونها من باب التسلية ولافتراضهم أنها محملة بخصائص غيبية خيرة . ولكن ليس معنى ذلك أنهم يدركون ضرورتها أو حتى فائدتها . كتب أحد المبشرين عن « البارتسيين » يقول : « مما يثبط همة الطبيب عجزه التام عن اقناع المرضى باتباع علاج منظم طويل المدى ، سواء اكان علاجا طبيا أم جراحيا . فكثيرا ماكان يذهب الأشخاص الذين أجريت لهم عمليات جراحية غداة يوم العملية نفسه ؛ ثم لا يرجعون إلا بعد بضعة أيام ، وقد انتزعوا الضمادات وتركوا جراحهم عارية . ومن حسن الحظ أن تكوينهم المتين البنيان يسمح لهم بالشفاء فى ظروف لا يمكن أن تؤدى إلى الشفاء فى أوروبا(١) . » — « أصيب أحد الأهالى فى « الكاروتيد » (شريان العنق) . وأستطعت أن أوقف له

(٢) Missions èvengéliques ، مجلد ٧٩ ج ١ (١٩٠٤) ، ص ٤٠٤ (ريتر) .

النزيف ، وألححت على أهله فى أن يأتو إلى به فى المحطة ، ولكنهم رفضوا . فذهبت أنا لعلاجه بضعة أيام متتاليه حتى تناقص الالتهاب والورم وأصبح قادرا على تناول الطعام والكلام دون مشقة كبيرة . ولكنهم رأوا ذات يوم أن يرفعوا له الضمادة ، (أهل الزمبيزى يعتقدون أن أدويتنا تحدث أثرها من فورها كالطلاسم)[1]. ولما وصلت ، وجدته يلفظ روحه بعد أن فقد الكثير من دمه . » ويقول الأستاذ جرمون Germond : « يزدرد الأهالى بسهولة كل ما يعطى لهم . ولكنهم يتوقعون دائما أن يكون تأثير الدواء الذى يتعاطونه تأثيرا فوريا . أما إذا كلمتهم عن نظام يتبع وعلاج منظم وإجراءات صحية ، فأنهم لا ينصتون إليك[2]. » ويقول مفات : يولع « البتشوانيون » بالأدوية ولعا شديدا ولا يحجمون عن تناولها مهما كانت مقززة ، حتى تراهم يزدردون الحلتيت مثلا بنهم شديد . ومن ذلك أنى كنت أعالج شخصا يقطن بعيدا عن مخيمنا بعض الشىء ، واتفق أن أرسلت إليه ذات يوم لكى يبعث بأحد من قبله ليأخذ له بعض الدواء . فجاءت زوجته . وحضرت لها مشروبا مرا ، ثم سلمتها اياه وأوصيتها أن تقدمه لزوجها على مرتين ، مرة عند غروب الشمس ومرة فى منتصف الليل . فمطت وجهها وطلبت إلى من فورها أن أسمح له بأخذه مرة واحدة ، لأنها تخشى ألا تستيقظ هى أو زوجها فى منتصف الليل . فقبلت . . . وعندئذ ابتلعت المرأة الشراب ! فقلت لها : « ولكنه ليس لك . » فمصت شفتيها بهدوء تام ، ثم سألتنى عما إذا كان شربها إياه لا يجدى فى شفاء زوجها[3] . » والقصص التى من هذا القبيل لا تكاد تحصى ، بالرغم من صعوبة تصديقها : « بذل الطبيب مجهودا كبيرا فى إقناعهم بالسكون حتى تبرأ قرحهم : لأن الطبيب الذى يحب

---

(١) ا . وا . جلا ، Pionniers parmi les Marotse ، ص ١٨٩ .

(٢) miss ons évangéliqnes ، مجلد ٧١ (١٨٩٦) ، ص١٩ (بول جرمون) .

(٣) ر . مفات R. moffat :

Missionaray labours and scenes in South Africa ، ص ٥٩١ — ٢ .

يحب مهنته حقا لا تفتر همته امام عناد المرضى السود . فهم يزدردون كل ما يطلب إليهم ازدراده من الكرات الصغيرة (هكذا يسمون الحبوب)، ولكنهم يهملون جميع الوصفات الأخرى . وقد حدث ذات مرة أن كانت إحدى الفتيات تعبث بمسدس فسقط من يدها فوق الأرض ، وانطلقت منه قذيفة نفذت من ساقها ثم خرجت منه واستقرت فى فخذها الآخر . ومن حسن الحظ أن الدكتور لوس دى لفنجستونيا Laws de Livingstonia كان هنالك . فضمد جراحها وطلب منها أن تلتزم الفراش وتظل ساكنة لا تتحرك. وكنا قد ظننا جميعا أنها ماتت لساعتها . ولكن لشد ما كانت دهشة الدكتور حينما جاء لعيادتها فى المساء فقابلها على عتبة الباب ! (١) » .

وفى الأوفمبو لاند Ovamboland يشاهد كثير من الأفراد الذين يقبلون من أماكن بعيدة ويتقدمون إلى المبشر طالبين منحهم بعض الدواء . فيسألهم قائلا : « بماذا تشكون ؟ » ويجيبون دائما بقولهم : « لا ندرى شيئا . إنما جئنا فقط للبحث عن طب . فيبدو من ذلك أن الأهالى يعتقدون أن المبشرين لديهم نوع من المركب الطبي الذى يمكن استخدامه فى جميع الحالات (٢) . » ومن الأشياء التى تحار قبائل الفان fan فى تفسيرها « أنهم يرون الطبيب الأبيض يقدم الدواء إلى المريض دون أن يتلو عليه بعض الأناشيد أو الرقى أو التعاويذ من أى نوع كان . وقد قال لى رجل طيب من السودذات يوم، وكان يتكلم الفرنسية بعض الشيء : « لا يدهشنى ألا يكون لهذا الدواء أى أثر ، لأن الطبيب لم يقل شيئا قبل تناوله أو بعده . » ثم أضاف قائلا : « بل لقد قال كلمة واحدة وهى : « ازدرد أيها الزنجى القذر ! » ولذلك لم يكن له أية نتيجة كما ترى .. » ومن ذلك أيضاً أننا عرفنا طبيباً طيب القلب واتخذناه صديقاً لنا

---

(٤) الفس ماكدونالد Africana : macdonald ، ج ٢ ، ص ٢١٧ .

(١) Berichte der rheinischen Missionsgesellschaft ، ١٩٠٥ ، ص ١٨٩ .

وكان من عادات هذا الطبيب أن يقوم بالكشف على مرضاه ويجرى لهم العمليات الجراحية وهو ينشد إحدى الأغانى البهجة ليسرى عنهم، كما أخبرنا. وكانت ثقة السود فيه عظيمة، حتى قال عنه أحدهم ذات يوم: «إن هذا الطبيب على الأقل، يختلف عن الآخرين، فهو يغنى كأطبائنا!» فليت صاحبنا هذا عرف سبب شهرته التى كان يفخر بها ويعزوها إلى علمه الغزير![1]، وهناك جماعات بدائية أخرى تبعد عن تلك كل البعد، ولكنها لا تختلف عنها فى فهم طبيعة العلاج الطبى والجراحى لدى الأوروبيين. وإذا كانوا يخضعون له فإنهم يفعلون ذلك لأسباب متنوعة لا يتوهمها الأطباء. فليس لدى هؤلاء الأهالى أية فكرة عن الغرض الحقيقى من استخدام الأدوية، كما أنهم لا يشغلون أنفسهم بشىء من ذلك. ففى جزائر الأصدقاء، جاء رجل إلى الأستاذ «توماس» وطلب منه أن يصلح له نظارته التى كان يخزن البعثة قد صرفها له منذ حين. وقال إنها لا تناسبه جيدا بالرغم من فرط عنايته بها وحرصه على تغطيتها بطبقة من زيت النراجيل (٢).» (لعله فعل ذلك إظهارا لاحترامه وتوقيره لها). وكان الأهالى المقيمون على نهر «ميميكا» Mimika (غنيا الجديدة الألمانية)، لا يعرفون فى بادىء الأمر حدة الباط والسكاكين التى كنا نقدمها إليهم، لذلك كانوا يتعرضون للاصابة بجراح بالغة من جراء استعمالها، وكانت جراحهم تبرأ بسرعة غريبة... ولكنهم طالما سببوا لنا القلق حين كنا نراهم ينتزعون ضماداتهم ليجعلوا منها زينات شخصية(٣).» ويذكر الأستاذ تشنيل Chignel أمثلة من هذا القبيل عن «البابو» فيقول: «من العسير، بل من المستحيل فى بعض الأحيان، أن أرانى أنجح فى إفهام الأهالى ما أريد. يأتيك شخص منهم مصاب بقرحة خطرة. فتضمدها له وتربطها وتطلب إليه أن يأتيك غدا دون

---

(١) الأب ترى، Le totémisme des Fân . Trilles، ص ٤١٢ (ملاحظة ٢).

(٢) The Wesleyan missionary notices، مجلد ٦ (١٨٤٨)، ص ١٧٠ (يوميات القس لورى).

(٣) ا. ر. ولستن Pygmies and Papuaus . Wallaston، ص ٦٧.

تأخير ، فينسى كل ما قلته له ، ثم يفاجئك بظهوره أمامك من جديد بعد أسبوع ، ويقول لك إنه يعتقد أن « الفيو » fio عديم الجدوى . . . فلعل ذلك يرجع إلى أن أفراد البابو يعتقدون أن الدواء نوع من الطلاسم ، فيجب أن يحدث أثره فى الحال(١) . » هذه هى فكرتهم عن الدواء بلا ريب : وقد صرح بذلك باحثون آخرون دون تردد ، فقال بعضهم : « كان أولئك المرضى المساكين يبدون دهشتهم وخيبة أملهم حين يرون أن الأستاذ باتسون Batteson لا يشفيهم بمعجزة (٢) . » . وفى « كوالا كبواس » Kwala Kapuas « ببرنيو » . ينتظر الأهالى أن يشفيهم الدواء من فوره ، فاذا حقق الدواء لهم هذا الأمل ، شعروا بالسرور وشكروا الله على نعمائه . وإذا لم يكن النجاح فوريا بدأوا يشكون فى الله وحبه لفعل الخير(٣) .» وعندقبائل البتاك Battaks فى سومطرا « لم يكن المبشر شراى Shray يفتح محله الصغير ، حتى راح الأهالى جميعا يدعون المرض ويطلبون منه الدواء ، فهذا يسعل وذاك مصاب بالحمى والآخر يشكو من ألم فى المفاصل ، الخ . وكان كل واحد منهم يأخذ دواءه ويذهب راضيا مستبشرا . ولكنهم كانوا يظهرون دهشتهم حين يرون أن الدواء لم يذهب بالمرض فى الحال(٤) » .

وقد لاحظ الأستاذ « نردنسكيولد » Nordenskiöld ملاحظة مشابهة لتلك تماما فى « الشاكوا الكبرى » فى أمريكا الجنوبية ، فكتب يقول: « سنحت لى الفرصة ، أثناء إقامتى بين الهنود الغربيين ، أن أمارس بنفسى مهنة الطب فى بعض الأحيان . وقد لاحظت أن من المستحيل إلزام الهندى بالخضوع

---

(١) ا . ك . تشنيل : An outpost in Papua ، ص ٢٠٥ .

(٢) ا . ج . أرمسترنج E. G. Armstrong : The history of Melanésian Missions ، ص ٤٤

(٣) Berichte der rheiniscben Missionsgesellschaft ، ١٨٨٨ ، ص ١٤١ .

(٤) المرجع نفسه ، ١٩٠٦ ، ص ١٧٤ .

للعلاج مدة طويلة ؛ لأنهم إذا لم يبرأوا فورا ، امتنعوا عن أخذ الدواء . والأدوية الوحيدة التي يقدرونها حق قدرها هي المورفين والكوكايين والأفيون[1] . »

لاشك أن « بنتلى » أخطأ فى حسابه حين توقع من أهل الكنغو أن يظهروا إعجابهم به ، لأنه استطاع أن يشفى قرحا مزمنه فى خمسة أسابيع . والواقع أنه لو شفاها فى خمس دقائق لما أدهشهم ذلك أيضا . فاختفاء القرحة إنما يرجع فى نظرهم إلى تأثير أحد الطلاسم ، فلماذا لاتختفى فى غمضة عين ، إذا كان فى الطلسم القوة الكافيه لإحداث هذا التأثير ؟ وهم يعتقدون أن الأبيض ساحر عظيم ، فلو أنه أراد تخليص المريض من مرضه فى لحظة واحدة لتم له ذلك . فلماذا إذن كل هذه الأدوية المتعددة وتلك الوصفات الكثيرة وضروب الحيطة والنظام الغذائى وغير ذلك ؟ تفسر لنا هذه الفكرة إلى حد كبير ، نفور الأهالى من النزوح إلى حيث يقيم البيض بقصد العلاج ، ورفضهم البقاء فى المستشفى ، إذا نجح الطبيب فى إقناعهم بدخوله ؛ وذلك لأنهم لا يفهمون أن العلاج قد يستلزم زمنا طويلا ، كما أنهم لا يدركون مطلقا فائدة الوصفات التى تفرض عليهم . ويضاف إلى كل هذا شعورهم بالريبة والخوف حيال الطبيب . وقد أجاد الدكتور « بلامى » Bellamy وصف عواطف « البابو » « بغنيا الجديدة » الانجليزية فى هذا الصدد ، فقال : « إنهم لا يرغبون فى الاستسلام للعلاج عن طيب خاطر ، ولا يدركون حتى الآن أن المستشفى إنما وجد لخيرهم[2] ... » وفى جزائر « تربرياند Trobriand » ، يرتاع الشخص من الأهالى إذا بدا له شبح الخضوع لعلاج منظم يبعده عن قريته وحقوله وجميع أهله . هذا إلى أنهم يعرفون جيدا أن مطببى « تربرياند » ، ويسمونهم « التوميجانى » Tomegani ، قد عالجوا حالات كثيره من هذا القبيل ، ومع ذلك فإن الناس لا يزالون يموتون . لذلك يجدون من حقهم أن ينتظروا

---

(١) إر . نردسكيولد La vie des Indiens dans le Chaco, ص ٩٥ .

(٢) Annual Report . British New Giunea ، ١٩٠٢ ، ص ٧٦

العثور فى دواء البيض على آية جديدة تدل على أنه كفيل بشفاء أمراض «البابو». هذه هى طريقتهم فى الاستدلال. أما تاريخ المستشفى فى الشهور الستة الأولى من وجوده، فلم يكن إلا تاريخ الصراع الذى يقوم به الضعيف ضد سوء ظن الأهالى وخرافاتهم وغبائهم. أما عـــدم اعتقادهم فى أدوية «الجوهانوما Guhanuma (الأوروبيين)، فلم يكن إلا ظرفا معوقا. وكان من سوء المصادفات أن كثيراً من الحـالات التى دعينا لعلاجها فى بادىء الأمر كانت من أسوأ الحالات التى يمكن أن تصادف الطبيب (كالأمراض الجنسية المزمنة). وكان المرضى مستعدين لتجربة العلاج لمدة لا تزيد على ثلاثة أيام، فاذا لم يصلح حالهم بعد ذلك، عدلوا عن الاستمرار فيه ورجعوا إلى حقولهم وصيدهم وزوارقهم التى تنتظرهم. وهـــكذا كانوا ينتهزون ظلام الليل ليهربوا تحت ستاره من المستشفى وحـدانا أو أزواجا [1]». ثم تحسن الموقف بمضى الزمن، وعرف الأهالى أن يقدروا الخدمات التى يسديها إليهم المستشفى.

وكان على القائمين بالأمر فى إفريقية الجنوبية أيضا أن يتغلبوا على هـذه الألوان من الشك والريبة. «اتفق أن كان هناك رجل هرم يعمل رئيسا لبضع قرى، فأصيب بالعمى؛ وكان قد سمع عنى واعتقد مما قيل له أنى أستطيع أن أرد اليه بصره... ورضى أن أجرى له عملية جراحية... لم أكد اشترط عليه لتنفيذ رغبته أن يقضى بضعة أيام فى ثابوبسيو Thabu Bossiou بمنزل أحد المسيحيين العاديين، حتى تغير كل شىء. وكان كلما حاولت اقناعه يجيبنى بقوله: «أخشى أن أقيم لدى المسيحيين، أخاف أن يمارسوا على شيئا من سحرهم.» وعدل عن إجراء العملية [2]..» «إن لهم أطباءهم الخصوصيين الذين يسمونهم «نجاكيه» ngakè.» وهم يعتقدون أن عقاقيرهم لا تصلح إلا للسود، كما أن

---

(١) المرجع نفسه، ١٩٠٨، ص ١٩٠ — ١١٠ وقارن هذا المرجع أيضـا، ١٩١٠ ص ١٥٠

(٢) Missions évangéliques، مجلد ٢٢ (١٨٤٧)، ص ٤٠٦ — ٧ (الدكتور اتريه).

عقاقيرنا لا تأثير لها إلا على البيض وحدهم ، وليس هذا السلوك خاصا بسكان الزمبيزى وحدهم ، ولكن لعل الزمبيزيين أكثر من غيرهم عزوفا عن العلاج العلمى .

وهم على أية حال يبدون خوفا فطريا من استئصال بعض أجزاء من الجسم . » وكتب الدكتور برش Brosch أيضا يقول : « يعزف السود عندنا عن دخول المستشفى إلى حد كبير ، وذلك رغم وفرة الطعام وضمان وجوده ونظافة المسكن وضروب العناية التامة . فكل هذه المميزات غير كافية للتغلب على الريبة التى لا تزال تخامر أولئك الناس الذين لم يعرفونا عن قرب ... هذا إلى أنهم لا يفضلون شيئا على رياشهم الوثنى ، إذا جاز لى أن اطلق هذا الإسم على البيئة القذرة المقززة التى يعيش فيها هؤلاء المساكين . فنحن لا نتصور إلى أى حد يضيق الأهالى بطريقتنا فى الحياة ، وليس فى وسعى أن أحصى جميع الحالات التى هرب فيها أشخاص مصابون بأمراض خطيرة ، فرارا من الإحسان المسيحى وذلك برغم التسهيلات التى أغدقها عليهم واستضافتى لأهليهم فى بيتى وتقديمى لهم أطباق اللبن الرائب (١) »

وهكذا نرى أن طول اختلاط الأهالى بالأوروبيين لم ينجح النجاح المرجو فى تضييق الهوة التى تباعد بين الطب الأوروبى والمستشفيات الأوروبية من جهة ونفوس أفراد البسوتو من جهة أخرى رغم أنهم على درجة ما من التقدم . «وضعت حكومة «لسوتو Lessouto أطباء فى القرى الإدارية ، وعملت على أن يتمكن السود جميعا ، غنيهم وفقيرهم ، من الاستفادة من خدمة هؤلاء الأطباء ، فجعلت أجر الاستشارة الكاملة أو العلاج الكامل خمسين سنتيما . ولم تكتف الحكومة بذلك ، بل أنشأت مستشفيين ثابتين أيضا . فماذا كان جواب «البسوتو» على ذلك ؟ لقد راحوا يقولون : « إن دواء الأطباء الحكوميين لا يساوى شيئا ، لأنه لا يحتوى غير الماء . إذ ماذا يمكنهم أن يعطونا غيره فى مقابل

---

(١) المرجع نفسه ، مجلد ٨٦ ، ج ١ (١٩١١) ، ص ٢٠ — ٢٩ .

بضعة ملاليم ؟ نعم يمكن المريض منا أن يذهب إلى الطبيب الأبيض مرة أو مرتين لا ثالثة لهما ، وإلا اتهمه بالإسراف فى تبديد دوائه ، ثم ناوله قارورة مليئة بالسم ليتخلص منه . أما إذا ذهب شخص إلى مستشفاهم فإنهم يحرمونه الطعام وينزعون عنه ملابسه ويحتجزونها لديهم إلى الأبد . وإذا مات فيه شخص وضعوه فى منزل خاص وقطعوه إربا . وهلم جرا (١) . »

ويرى الأستاذ « ديترلن » Diéterlen أن هذا الإعراض يرجع إلى أن « السود يرتابون فى نوايا البيض نحوهم ، ويعتقدون أنهم لا يريدون بهم خيرا على أى حال ، وأنهم غير منزهين عن الأغراض . وهم يرون أنهم إن أصغوا للبيض ، خدعوهم وجردوهم من متاعهم وجروا إليهم المصائب . وهذه أحاسيس طبيعية فيهم لاصقة بفطرتهم ، ولا يمكن انتزاعها أو مقاومتها . . » هذه تجربة مرة يبوح بها مبشر حزين ، ولكنه غير يائس . وقد يكون قوله صحيحا ومع ذلك فقد رأينا أن نفور الأهالى من دخول المستشفى والبقاء فيه ، لا يرجع فقط إلى شكهم فى نفعه ، بل أيقنا إلى أنهم لا يفهمون شيئا من ضروب العلاج التى يتلقونها فيه ، ولا سيما حين يطلب إليهم الطبيب أن يظلوا فيه أياما أو أسابيع أو شهورا لكى يحصلوا على نتيجة كان يجب أن يحصلوا عليها فورا فى نظرهم . فطول الإقامة هذا هو الذى يثير شكوكهم ويجعلهم يتساءلون : ما عسى أن يريد بنا الطبيب الأبيض ، هذا الساحر الكبير ؟ لماذا يحتجزنا فى مستشفاه كل هذا الوقت ؟ وماذا تراه سيجرى علينا من أفاعيله . وهكذا تحدد لنا هذه المواقف معنى عبارات سوء التفاهم التى تقع بين المريض المحلى والطبيب الأوروبى والتى أشرنا إليها منذ قليل . فالطبيب يعتقد أن له الحق فى عرفان المريض الذى عالجه أو سماع كلمة شكر منه على الأقل ، ولاسيما إذا كان العلاج صعبا معقدا يتطلب منه مضاعفة الجهد وإيواء المريض فى المستشفى وإطعامه والعناية به وإلزامه باتباع نظام خاص . ولكن المريض

---

(٣) المرجع نفسه ، مجلد ٨٣ ، جـ ١ (١٩٠٨) ، ص ٣٠٨ (ديترلن) .

المحلى من جهته يعتقد أنه لا يدين للطبيب بأى شــكر اللهم إلا إذا كان هذا الطبيب قد شفاه فى طرفة عين كما توقع ، أو إذا كان الدواء قد أحدث الأثر الذى يحدثه مس العصا السحرية . وهكذا نجد أن جميع الظروف التى تجعل الطبيب جديراً بالشكر فى نظرنا تضايق المريض الأسود وتقلقه : إذ تمر الأيام تلو الأيام وتتابع العقاقير تلو العقاقير والضمادات تلو الضمادات والمريض يستسلم للعلاج فى شىء من التململ ؛ ويرى أن الطبيب يدين له بشىء من العرفان بالجميل ، وأنه هو الذى يستحق شكر الطبيب . وكلما طال العلاج زاد واجب الطبيب نحو المريض الذى يخضع له . وهذا هو ما لاحظه الأب ترى Trilles حين كتب فى الفقرة التى اقتبسناها له منذ برهة يقول « كثيرا ما أذهل الأوروبيين وأدهشهم أن يروا الأهالى الذين عنوا بهم إلى أقصى حد ، لا يوجهون إليهم كلمة شكر واحدة ، وأنهم على العكس من ذلك يطلبون منهم الأجر . والواقع أن الطبيب والمريض على حق ، كل منهما على طريقته : فالطبيب بأفكاره الأوروبية المسيحية يسخط ، بحق ، إذ يرى إنكار الجهد الذى تفانى فى بذله دون غرض شخصى فى جميع الأحيان تقريبا ، والمريض أيضا على حق لأنه يعتقد أنه لم يكن فى كل ذلك إلا مجرد حالة ممتعة لإجراء التجارب عليها . »

— ٣ —

رأينا مقدار الإلحاح الذى يبديه المريض من الأهالى حين يطالب الطبيب بتقديم هدية له جزاء عنايته به ، بل رأينا أيضا أنه لا يتورع فى كثير من الأحيان عن إخباره بالعودة إليه لطلب هدايا أخرى ، ورأينا أنه إذا رفض الطبيب هذا الطلب تعرض لغلاظة المريض وسبابه ثم انتقامه إن كان جريئا ومن الغريب أن المريض يبدو كمن يطالب بحق مغتصب حين يغضب ويظهر دهشته لرفض طلبه مما يدل على جديته وصدق عواطفه . والآن نعتقد أنه يجب علينا تفسير هذه الظاهرة . ولكن إذا أردنا فهم هذه الظوهر ومعرفة أصلها وجب ألا يغيب عن بالنا أنها لا تظهر فقط فى حالات العلاج الطبى طويل المدى الذى يتلقاه أحد الأهالى على يد طبيب أوروبى ، بل تظهر أيضا بمناسبة أية خدمة

أخرى يؤديها أحد الأوروبيين إلى شخص من الأهالى ، ولاسيما إذا كانت هذه الخدمة تنحصر فى تخليصه إياه من الموت فى حادثة ما . وهذه بعض أمثلة على ذلك . « ثارت عاصفة على نهر الكنغو فانقلب قارب أمام المكان المسمى « أندرهل بوينت » Underhill Point ، وسقط راكبوه الثلاثة فى الماء . ولكن الزورق الذى سارع بإرساله « كردجتن » Crudington لإغاثة الغرقى استطاع أن ينجى أحدهم ، وأن يحضره حيا إلى البر . فطلب هذا الرجل قبل أن يذهب لحاله فى صباح الغد من كردنجتن أن يكسوه . ولما رفض المبشر طلبه راح يعلن سخطه على بخل البيض فى وقاحة شديدة . فلم يسع كردجنجتن إلا أن يحبسه فى المخزن ولم يطلق سراحه إلا بعد إرغامه على دفع عنزتين : عنزة للشخص الذى انتشله من الماء والأخرى لكردنجتن نفسه أجرا للزورق الذى استخدم فى انتشاله . ودفع العنزتين بالفعل . فنأمل ألا يضيع هذا الدرس هباء.[1] » لاشىء أقرب إلى الشك من فائدة مثل هذا الدرس ؛ إذ يبدو أن كردجنجتون وبنتلى لم يخطر ببالهما شىء مما دار فى ذهن الرجل . وها هى ذى حادثة أخرى مشابهة للسابقة تماما يرويها بنتلى أيضا : « كان توالنجو Tawalango الرئيس الأعلى لمحلة « نداندنجا » Ndandanga ، وكان ماتوزامبنجو Matusa Mborgo رئيسا ثانويا ولكنه وصل إلى درجة عظيمة من النفوذ . وقد حدث أن ماتت زوجته وهى تضع ، وراجت إشاعة بأنها قبل موتها رأت تاوالنجو فى الحلم . فانتهز « ماتوزا » هذه الفرصة ليزيل من طريقه آخر عقبة تحول بينه وبين الدرجة العليا . . . ولما كان من المناظر المسلية للأهالى أن يروا هذا الشيخ الهرم يشرب بنفسه سم الاختبار (nkasa) فيترنح ويسقط ثم يقذف به فى النار ، لم يروا من الضرورى استدعاء العراف ليقرر ما إذا كان ساحرا أم لا . ألم تره الزوجة فى الحلم ؟ وهل هناك دليل أوضح من هذا ؟ إذن « فتاوالنجو » رجل ساحر . » وقد تدخل المبشرون

---

(١) و . هـ . بنتلى Pioneering on the Congo ، حـ ١ ، ٤٧٦

فى الأمر وأمكنهم أن يحصلوا على وعد بإلغاء هذا التحكيم . ولكن الأهالى ، مع ذلك ، لم يبروا بوعدهم حرفيا ، وحملوا رئيسهم على شرب « النكاسا » nkasa . غير أن الجرعة كانت خفيفة فقاءها الرجل ، وبذلك برهن على براءته . وبعث الرئيس إلى برسالة شكر يعلن فيها أنه يدين لى بالحياة ، ولى وحدى . . وكان هذا رأى الكثير من مواطنيه . ومع ذلك فقد جاءنى بعد أيام خالى اليدين ، وأخبرنى أنه يأمل منى أن احتفل بنجاته من الخطر ، وذلك بأن « أكسوه » فأعطيته مترين من النسيج وسكينا وقبعة ثم بعض أدوات أخرى صغيرة ، رغم أنى لم أر ضرورة لإعطائه أى شيء . ولكنه بدلا من أن يشكرنى على هذه المكرمة الجديدة ، أخذ يسبنى لأنى لم أقدم له أكثر مما قدمت له واتهمنى بالبخل المخجل ، وانصرف ثائرا ضدى (١) . » وكذلك الحال فى « الجابون » Gabon « إذا أنقذت حياة شخص ما من الهلاك ، وجب عليك أن تتوقع زيارته لك بعد ذلك ، لأنك أصبحت أسير فضله ، ولن تستطيع التخلص منه إلا بالهدايا والعطايا (٢) . »

ويتقدم الأهالى بمثل هذه المطالب بمناسبة أى معروف آخر يسدى إليهم ، ولا سيما إذا كان يتعلق بتعليم أطفالهم والعناية بهم . « نربى أولادهم ونقدم لهم الطعام والثياب ونؤويهم ونقوم برعايتهم عقليا وخلقيا . ولكنهم مع هذا يعتقدون اعتقادا جازما أنه يجب علينا أن ندفع ثمن كل ذلك لهم ولأولادهم (٣) » . ويقول الأب بليون أيضا : « يعيش التلاميذ على نفقة البعثة فى كل شيء . فهى التى تطعمهم وتكسوهم وتعلمهم وتلقنهم إحدى الحرف دون أى جزاء . بل لك أن تعد نفسك سعيدا إذا لم يأتك آباؤهم يطلبون منك الهدايا والمنح ثمنا للسعادة التى تغتنمها أنت من وراء تعهدك أطفالهم بالعناية ! ثم لا تنسى

---

(١) المرجع نفسه ٧ ، جـ ١٥ ، ص ٦٤ .

(٢) القس بليون Bulleon : Sous le ciel de l'Afripué ، (١٨٨٨) ، ص ٦١

(٣) Missions évangéliques ، مجلد ١٥ (١٨٨٣) ، ص ٣٩ ، خطاب من الأب أنجوار Angouard (موسورنجو Moussorongo ، بالكنغو العليا .

ننا لا نأخذ إلا أبناء الأحرار ، وهم فى الغالب من أبناء الملوك ورؤساء القرى (١) . » وعند البتشوانيين « كف الآباء عن إرسال أبنائهم إلى المدرسة ، مفضلين أن يرسلوهم إلى الحقول لتنظيف القمح أو لرعى الماشيه ؛ ولما سألناهم عن السبب فى ذلك أجابونا بأننا لا ندفع لهم الثمن أو ندفع ثمنا بخسا(٢) » . وكذلك الحال فى « تاهيتى » إذ يبدو أن بعض التلاميذ يعتقدون أنهم يقدمون مكرمه للمبشرين حينما يجيئونهم للتعلم ، وأن لهم الحق فى أن يأخذوا الثمن لهذا السبب(٣) » .

وهذه الحادثة الأخيرة ذات دلالة كبيرة فى هذا الصدد . وفيها يحكى الكابتن ليون Lyon قصة امرأة عجوز مهجورة عثر عليها فى طريقه ، بعد أن أوشكت تتجمد من البرد وأصبحت فى حالة احتضار تقريبا ، فيقول : لن أنسى مطلقا حالة البؤس والاشمئزاز التى كانت عليها هذه المرأة . لذلك حملناها إلى سفينتنا للعناية بها . ولكنها لم تكد ترى الغذاء والغطاء اللذين أحضرناهما لها حتى راحت تسألنى عن الثمن الذى سأدفعه لها جزاء عنايتى بها ؛ فكدت أصعق من هول الدهشة(٤) » .

تدل هذه الحوادث كلها على سوء التفاهم المتبادل الذى أشرنا إليه وحللناه فيما سبق . فالرجل الأبيض يرى أن « إلحاف الأهالى فيما يطلبونه من ثمن ، أمر مستغرب مناف للمعقول وغير قابل للتفسير ؛ كما أن الشخص من الأهالى الذى يطلب تعويضا يعتقد أنه حق له ، لأن الرجل الأبيض أنقذه وأبقى على حياته ، أو أخذ على عاتقه تربية أطفاله . ومن جهة أخرى يغضب الأهالى

---

(١) الأب بليون ، المرجع نفسه ، ص ١١٠ .

(٢) Missions évangéliques ، مجلد ١٥ (١٨٣٧) ، ص ٤٠ (أربيه)

(٣) الأب و . اليس W. Ellis :
History of the London Missionary Society ، ص ١٩٠ .

(٤) اليوميات الخاصة للكابتن ج . ف . ليون ٢ ص ٣٠٥

من ضنك الأوربى وشحه وبخله المخجل ، لأنه بالرغم من ثرائه الواسع لايخجل من أكل حقوق الفقراء ! ولعل السبب فى سوء التفاهم هذا يتضح لنا إذا حاولنا هنا أيضا أن نبذل بعض المجهود لكى نرى الأشياء من وجهة نظر الأهالى ونتمثل طريقتهم فى الحكم عليها ، بدلا من أن نفترض مقدما أنهم يفسرون الحوادث على طريقتنا ويحسونها إحساسنا إياها .

أنقذ المستر كردجنجتون أحد السود الكنغويين وكان على وشك الغرق : وتوقع أن يتلقى منه آيات الشكر والعرفان بالجميل على ما أسداه إليه : ومعنى ذلك أن كردجنجتون يفترض فى هذا الفرد من الأهالى نفس العواطف التى كان يشعر بها هو نفسه لو وجد مكانه معتقدا أنها مجرد عواطف إنسانية مشتركة . والواقع أن الأسود ينظر إلى المسألة نظرة أخرى ، ويعتقد اعتقادا جازما أنه قد طوق المبشر بمنة كبرى حين سمح له بإنقاذه من الموت : ونحن لا نرى باديء ذى بدء ما عسى أن تكون هذه المنة . ولكن المسألة فى غاية البساطة من وجهة نظر العقلية الأوروبية الإيجابية . فهى ترى أن الكونغوى يدين بحياته للاستاذ كردجنجتون الذى لايدين له بشيء . وإذن فان كانت هناك منة ، فهى فى عنق الكنغوى . وهذه مسألة بديهية . أما الأسود فإنه لا ينكر هذه الواقعة . ولكن اتجاه ذهنه يجعل للعناصر الغيبية ، فى جميع الأحداث ، أهمية كبيرة تفوق أهمية الجانب المادى منها ، إذ لا وجود للصدفة فى نظره .

وليس ما نسميه بالحادث العرضى إلا كشفا أو مظهرا من مظاهر القوى الخفية . فكيف وقع الزورق فى الدوامة ؛ وما السبب فى وقوعه ؛ أهو ياترى من فعل ساحر ، حكم عليـــه وعلى صاحبيه البائسين ، أم نتيجه لغضب أحد الأسلاف بسبب إهماله لشأنه ؛ ألا يمكن أن يحوم حوله الشك لأنه بقى وحده وغرق صاحباه ؛ أفلا يجوز أن توجه إليه تهمة إسلامهما إلى الخطر ؟ الواقع ان هذا أمر لا مفر منه . وكيف تأتى لزورق البيض ان يكون مستعدا فى هذه اللحظة بعينها لكى ينقذه ؟ وبأى حق ؟ إن البيض ، لما قاموا نحوه

بهذا العمل ، قد اتوا أمرا مثقلا بالمسئوليات التى لا مفر له هو عن تحمل نتائجها أمام القوى الخفية وأمام مجموعته الاجتماعية نفسها . لذلك كان لزاما على هؤلاء البيض ان يعوضوه عما ورطوه فيه على أقل تقدير .

ولم يصدق الكابتن « ليون » اذنيه حين سمع المرأة العجوز تسأل عن مقدار ما سيدفع لها ثمنا لحملها إلى سفينته والعناية بها وانقاذها من حالة الضعف والبرد والجوع التى أشرفت بها على الهلاك . فالعقلية الأوربية ترى أن هذه المرأة تدين بحياتها للكابتن ليون الذى لا يدين لها بشىء : وهذا أمر لا جدال فيه بأية حال . ولكن هذه المرأة تنظر إلى المسألة كلها من وجهة نظر أخرى . فهى قد قبلت أن تلف فى فراء هؤلاء الأجانب وأغطيتهم . وليس بينهم وبين هيئتها الاجتماعية أى اشتراك ، ثم استسلمت للانتقال إلى سفينتهم والأكل من طعامهم ومست الأشياء التى تنتسب إليهم . وليس هناك أخطر من هذه الأمور فى نظرها . فالأوروبى لا يرى إلا الحقيقة الموضوعية : وهى أن هـــذه المرأة ستنال قسطا من الدفء والراحة والطعام ، وبذلك تنجو بحياتها . أما هى ، فتتساءل أولا وقبل كل شىء عن ضروب التأثير السحرى التى ستصبها عليها كل هذه الأشياء غير المعروفة لها . ما النتائج الغيبية التى سيحيق بها من جراء اقامتها على ظهر السفينة ، وما مدى الأخطار التى ستتعرض لها من وراء المعونة التى تلقتها من البيض ؛ ولا شك أنها أخطار فظيعة ، ويزيد فى فظاعتها أنهـا تجهلها ولا تستطيع مجرد التكهن بهـا جميعا ؟ فإذا كانت قد استجابت لهذا الأجنبى ، فقد وجب عليه على الأقل أن يعوضها عن تفضلها بالاستجابة له !

لعل ذلك لا يحل الصعوبة حلا كاملا ، إذ يبقى علينا ان نفسر هـــذه الحقيقة تفسيرا مرضيا ، وهى أن الوطنى يدين للأبيض بحياته ويعترف له بذلك الدين ، وأن هذا الصنيع يطوق عنقه بحقه نحوه مهما كانت الأخطار الغيبية المترتبة على تدخله : هذا من جهة ومن جهة أخرى يجب علينا ايضا تفسير غضب الاهالى ، بل حنقهم وسخطهم فى بعض الأحيـان على من انقذ حياتهم أو أسدى إليهم معروفا ، إذا رأوا أنه يرفض التسليم لهم بجميع المطالب .

المترتبة على صنيعه . فقد رأينا ذلك الفيجى الذى بترت يده يقضى شهرين على ظهر السفينة المخصصة لصيد السمك المسمى ؟ Lê béche-de-mer تحت عناية ربانها ورعايته ، وحينما صلح حاله طلب منه أن يمنحه بندقية ، ولما رفض الربان هذا الطلب انتقم منه بأشعال النار فى سمكه المجفف. وقرأنا أيضاقصة هـــذا الأسود الذى نجاه كروجنجتون من الموت ، ولما لم ينل ماطلبه من كروجنجتون راح يكيل له السباب مما أدى إلى حبسه . ويلاحظ البيض فى بعض الحالات التى من هـذا القبيل أن الأهالى لا يكتفون بالسكوت عن اظهار شعورهم وعرفانهم بالجميل ، بل يلجأون إلى الوقاحة حينما لا تجاب مطالبهم « الخارجة عن حد المعقول » وأنهم إن استطاعوا لجأوا إلى التهديد : فما هى تلك الشهوة الداخلية التى يصدرون عنها فى مجابهتهم الأوروبى على هـذا النحو ؟ لن يتأتى لنا أن نفهم ذلك إلا إذا غصنا فى أعماق عواطفهم وتصوراتهم الجماعية ، ولكننا لا نشك فى تشويهنا إياها، إذا حاولنا وصفها بعبارات صريحة ، فى حين أنهم أنفسهم يحيونها ويترجمون عنها بأفعال وإن لم يحددوها أو يعبرو عنها بحدود تجريدية .

نحن نعرف أن العقلية البدائية لا تتصور حياة الأفراد ولا شخصياتهم على نحو ما نفعل. فهى تتصور أن حياة الفرد معناها اشتباكه حاليا فى شبكة معقدة من المشاركات الغيبية مع أعضاء الهيئة الاجتماعية الآخرين ، الأحياء منهم والأموات ، ومع أعضاء المجموعات الحيوانية والنباتية التى أنجبتها الأرض التى تعيش عليها ، بل الارتباط بهذه الأرض نفسها والقوى الخفية الحارسة لذلك المجموع كله وللجموع الأخرى التى ينتسب اليها بوجه خاص . فإذا أشرف هذا الفرد على الموت جوعا أوبردا أو مرضا أو غرقا ، ثم تدخل الرجـــل الأبيض لانقاذه فقد يؤدى تدخله إلى إبعاد الخطر عنه وحفظ حياته بالمعنى الأوروبى والموضوعى البحت لهذه الكلمة ،وهذا كل مانراه نحن الأوروبيون فى المسألة . ولكن البدائى يرى فيها رأيا آخر ، فهو يعتقد أن هذا التدخل الذى ينقذه من الهلاك يفسد حياته فى الوقت نفسه بالمعنى الأهلى الغيبى للكلمة . إذ

من يدرى إذا كان هذا التدخل لا يؤدى فى الحقيقة إلى أوخم العواقب؟
أولها ، إثارة القوى الخفية التى صدرت عنها «الحادثة» وثانيها ، إغضاب القوى الخفية التى تحميه ضد الأخطار التى تهدده من كل جانب، وضد ذلك الجيش العرمرم من الأرواح الشريرة! وهو يعرف أن البيض سحرة قادرون ، تنبعث منهم ومن كل ما ينتسب إليهم تيارات غيبية ذات قوة لا يمكن دفعها. وإذا أصابت هذه التيارات أحد الأهالى ، أدت إلى التفرقة بينه وبين القوى التى لا يستطيع الحياة بدونها. لذلك نراه يخشى منذ البداية أن تؤدى معونة الأوروبيين إلى قطع ضروب المشاركة التى لا حياة له بدونها ، ويعتقد أنه إذا قبل علاجهم الطبي أو النزول فى مسكن أحدهم أو على ظهر سفينته أو الاقامة فى أحد مستشفياتهم أو انقاذ أحدهم لحياته من الهلاك فى حادثه ، فقد فقد عون القوى الخفية التى بدونها لا يعتبر شيئا يذكر .

فماذا يصبح موقفه إذا تخلت عنه هذه القوى ، ثم رأى أن الرجل الأبيض الذى تسبب له فى هذه الكارثة قد تخلى عنه هو الآخر؟ لاشك أنه يصبح مهددا بعزلة قاسية ، أقسى من الموت نفسه ، إذا كان منقذه الأبيض قد أفسد حياته بالفعل إلى غير ما رجعة ، ووضع ما يصح أن نسميه حالته الشخصية الغيبية موضع الخطر ، ثم هجره بعد ذلك . نعم إنه يعتبر أن الرجل الأبيض قد أخذ على عاتقه فى هذه الحالة أمرا خطيرا حين اهتم به أو آواه أو أطعمه أو انقذه ، ويعلم أنه حمل نفسه مسئوليته والتزم به . وأغلب الظن أنه كان يعرف ما هو مقدم على عمله حين اضطلع بهذه المسئولية . وقد رأينا الرجل الذى عالجه ما كنزى من جرح فظيع فى وجهه يقول له : «أنت رجلى الأبيض منذ الآن ، وأنت الذى سآتى اليك كلما أردت أن أطلب شيئا .» ومعنى ذلك بعبارات أخرى «انك أصبحت ملاذى وعدتى فى المستقبل ، وأصبح لى حق الاعتماد عليك لاستعيض بك عما فقدته بفضل تدخلك من عون القوى الخفية التى تعيش عليها مجموعتى الاجتماعية والتى كنت أعيش عليها أيضا مع مجموعتى من قبل .» وقد أصاب الأستاذ إلسدون بست Elsdon Best حين

لاحظ أن البدائى إذا فقد الجو الغيبى الذى لاغنى له عنه ، حاول أن يجد له عوضا عنه فى كنف الأوروبيين (١) وهو لذلك ينتظر من الشخص الذى تدخل فى حياته هذا التدخل العميق بمحض اختياره أن يعطيه كل ما يطلب فى الحاضر ، كما يتوقع منه أن يكون سخاؤه معينا لا ينضب . وإذا تحلل من هذا الرباط أو رفضه ، كان رفضه ينطوى على ما هو أكثر من البخل ، لأنه كمن يرفض الوفاء بتعهد مقدس : فهو خائن أو مغتال تقريبا . ولذلك يعمل الشخص من الأهالى الذين يعتقد أنه ضحية لمثل هذا الغادر على الانتقام منه شر انتقام إذا كانت عنده الجرأة الكافية .

وإذا كان الأمر كذلك ، كان من الطبيعى ألا يشعر البدائى مطلقا بأنه مدين للأبيض . بل إنه على العكس من ذلك يشعر شعورا حادا بالمسئولية التى حملها الأبيض بالنسبة إليه ، وإذن فليس من الصواب أن نعتبره « جحودا » أو « غير معقول » كما يبدو حتما فى نظر الشخص الذى عنى به أو أنقذه ، والذى يحس بأنه أسدى إليه معروفا كبيرا بدافع إنسانى بحت ، دون استهداف لغرض ما فى غالب الأحيان . ولكن ينبغى ألا تقف انسانيتنا هذه عند تضميد قرحة فحسب ، بل يجب عليها أن تتذرع بالحلم ، وأن تجتهد فى النفاذ إلى طوايا شعوره الغامضة الذى لا يعرف كيف يعبر عن نفسه .

---

(١) وقارن كتاب المؤلف :

Les fonctions Mentales dans les sociétés inférieures ، ص ٣١٢ .

الفصل الرابع عشر

خاتمة

رأينا فيما سبق أن العقلية البدائية عقلية غيبية فى جوهرها . وتتضح لنا هذه الحقيقة مرة آخرى من تحليل الحوادث السابقة التى يعضدها كثير غيرها. وهذه الصفة الأساسية تطبع طريقتها فى التفكير والإحساس والعمل بطابعها. وهذا هو مصدر الصعوبة القصوى التى تعترى كل من يتصدى لفهم هـذه العقلية وتتبع خطواتها . فهى تساير عقليتنا فيما يتعلق بالخواطر الحسية التى تتشابه عندنا وعند البدائيين . ولكنها لا تكاد تخرج من نطاقها حتى تتجه اتجاها آخر وتسير فى طريق غير الطريق التى نسلكها نحن . ولا نكاد نصل إلى مفترق الطرق هذا حتى يختلط الأمر علينا . فإذا سعينا إلى تقدير السبب الذى يبعث البدائيين على فعل شىء ما أو الإحجام عنه ، ومعرفة الأمور التى تحفزهم إلى إجراء معين والعلل التى تحملهم على احترام عادة ما ، اتسع مجال الخطأ أمامنا وترامت أبعاده . نعم إننا لا نعدم العثور على « تفسير » تبدو عليه مسحة الصواب إلى حد ما ، ولكنه تفسير زائف فى تسعة أعشار الحالات التى تصادفنا .

ومن أمثلة ذلك ضروب التحكيم الإفريقية . فقد نرى أنها تستهدف اكتشاف الجانى ، ونرى فيها نوعاً من الإجراء القضائى مماثلاً للمبارزات التى كانت تسمى « بحكم الله » فى العصور الوسطى ، أو مشابها لضروب التحكيم فى بلاد الإغريق القديمة ، والواقع أنها تبعد عنها بعداً شاسعاً ، وأننا حين نفسرها هذا التفسير نسد على أنفسنا طريق فهمها ، فنقف مبهوتين أمام ما يتجلى فى ضروب التحكيم التى يقوم بها البدائيون من شناعة عقلية مفرطة . ولكن طريقة تفسيرنا للتحكيم هى التى أدت إلى وصمه بهذه الوصمة التى هو براء منها والتى ظل المبشرون يلصقونها بالزنوج المساكين طوال قرون عديده فى

أفريقية الغربية والجنوبية ، مع أننا لو تعمقنا فى فهم طريقة إحساس الأهالى وتفكيرهم ، وتتبعنا العواطف والتصورات الجماعية التى تصدر عنها أفعالهم ، لرأينا أن سلوكهم يخلو من الشناعة العقلية خلوا تاما ، بل لاتضح لنا على العكس من ذلك أنه نتيجة طبيعية لهذه الأمور . فالتحكيم فى نظرهم «كشاف» فريدفى بابه، يستطيع الكشف عن وجود أى قوة شريرة تكون قد استقرت فى جسد عضو أو بضعة أعضاء من المجموعة الاجتماعية . ويمتاز هذا الاختبار على ماعداه بخاصة غيبية فريدة ، وهى القدرة على إهلاك هذه القوة أو منعها من الأضرار على الأقل . ولذلك لايمكن للأهالى أن يعدلوا عنه بأى ثمن ، وإلا تتابعت عليهم الكوارث وحصد الموت أرواحهم حصداً . وإذا سمعوا البيض يتوسلون إليهم فى تركه ، أصموا آذانهم واعتقدوا أن كلامهم بعيد عن العقل بقدر ماتبدو طريقتهم الخاصة فى السلوك بعيدة عن المعقول فى نظر البيض الذين لم يكتشفوا عللها بعد .

وهناك أيضاً سوء التفاهم الخاص بالعناية الطبية التى يتلقاها البدائيون من الأوروبيين ، وقد حللناه فيما سبق . ومن المعلوم أن نتائجه أقل أذى من نتائج التحكيم ، وإن لم يكن هو نفسه أقل من التحكيم فى دلالته . ولا بد لتبديد سوء التفاهم هذا من استخلاص الأفكار التى فى ذهن الأهالى عن المرض والشفاء والأدوية، وعن النظام الذى يصفه لهم «الأطباء البيض» ، والنتائج التى يعتقدون أنها تنجم من الخضوع لهذا النظام ، الخ . وينبغى أن نبحث عن أصل هذه الأفكار المختلفة عن أفكارنا كل الاختلاف فى تصورهم الغيبي البحت للمشاركة وللسببية ، وهو ذلك التصور الذى يعد أساساً لبناء العقلية البدائية .

ولو أن البيض الأوائل الذين عاشوا مع الأهالى قد جمعوا لنا حالات سوء التفاهم التى من هذا القبيل بعناية تامة ، لوجدنا فيها مادة قيمة تساعدنا على الدراسة التى حاولنا القيام بها هنا ، ولكنهم لم يعنوا إلا بالقليل منها . أما الآن فقد ضاعت الفرص المواتية للقيام بهذا العمل إلى غير رجعة . ولعل

السبب الذي حدا بالأوروبيين الأوائل الذين قامت بينهم وبين الجماعات البدائية علاقات متصلة إلى إهمال هذه الناحية ، يرجع إلى اهتمامهم بمسائل أخرى غير ملاحظة إحساس الأهالي وطريقة تفكيرهم ونقلها إلينا بأمانة تامة . ولكن لاشك أنهم حتى لو فرضوا على أنفسهم القيام بهذه المهمة الدقيقة المعقدة التي تستغرق وقتاً طويلا ، لما أحسن معظمهم القيام بها . فالواقع أن النجاح في مثل هذا البحث يتطلب المعرفة الدقيقة بلغة الأهالي ، ولا يكفي من يتصدى له أن يعرف من تلك اللغة القدر اللازم للتفاهم معهم في الأمور الجارية دون مشقة ، أو لإيصال الرغبات والأوامر إليهم ، أو لتلقي بعض الأخبار المفيدة للحياة اليومية من أفواههم . وذلك لأن لغات البدائيين كثيراً ما تنطوي على تعقيد في النحو وثراء في المفردات يلفتان النظر ، كما أنها من فصيلة تختلف عن فصيلة اللغات الهندية الأوروبية واللغات السامية التي تعودناها . لذلك يتحتم القبض على ناصية اللغة جملة وتفصيلا لإدراك مافي تصورات الأهالي من دقائق تضل في فهمها عقولنا أحياناً ، ولمعرفة الطريقة التي ترتبط بها هذه التصورات بعضها ببعض في غضون الأساطير والقصص والطقوس . ولا شك أن الحالات التي توفر فيها هذا الشرط ، ولو على وجه التقريب ، لا تكاد تذكر .

يقول أحد الموظفين الإداريين الإنجليز في غنيا الجديدة عن قبائل «البابو» . « تنحصر العقبة الكبرى التي تعترض علاقاتنا مع الأهالي في أفهامهم معنى ما نقوله لهم بالضبط وفي اقتناص معنى ما يقولونه لنا بالضبط[1] ». فالواقع أن كلا من العقليتين تعتبر أجنبية بالنسبة إلى الأخرى ، وأن وسائل التعبير مختلفة والعادات متباينة جداً ! فالأوروبي يباشر التجريد دون تفكير تقريباً ، وقد يسرت عليه لغته إجراء العمليات المنطقية المبسطة حتى أصبحت لا تكلفه

---

(1) Annual Report : Papua ، ١٩١١ ، ص ١٢٨ .

أى مجهود . أما تفكير البدائيين فيكاد يكون تشخيصاً بحتاً . يقول أحد الباحثين : « يبدو لنا أن طريقة التفكير عند الإسكيمو سطحية إلى أبعد حد ، لأنهم لم يعتادوا أن يتابعوا ما نسميه نحن « سلسلة محددة من الحجج » مهما كانت مبسطة ، ولا أن يربطوا تفكيرهم بموضوع واحد . وبعبارة أخرى لا يرتفع تفكيرهم إلى درجة التجريد أو الصيغ المنطقية ، بل لا يتعدى الصور المشاهدة أو المواقف التى تتتابع بمقتضى قوانين لا نستطيع نحن أن نتتبعها إلا بصعوبة[١] . «نستخلص من ذلك أن عقليتنا «تقوم على التصور المعنوى » ، أما عقليتهم فليست من ذلك فى شئ كثير . فمن العسير جداً ، بل يكاد يكون من المستحيل على الأوروبى أن يفكر مثل الأهالى مهما ظن أنه يتكلم مثلهم ، بل حتى لو تعمد ذلك تعمداً وكان مالكاً لزمام لغتهم .

لما سجل الباحثون النظم والأخلاق والمعتقدات التى رأوها تحت بصرهم ، استخدموا عبارات كانت تبدو لهم مطابقة للواقع الذى أرادوا التعبير عنه . وهل كان فى وسعهم أن يفعلوا غير ذلك ؟ نعم ، ولكن مثل هذه العبارات كان من شأنها أن تشوه ما أرادت أن تعبر عنه ، وليس ذلك إلا لأنها عبارات محاطة بالجو المنطقى الخاص بالعقلية الأوروبية ، فكان هذا النوع من الترجمة مرادفاً للخيانة . والأمثلة على ذلك لا تحصى . فمثلا استعمل الباحثون كلهم تقريباً كلمة «الروح âme» للتعبير عن الكائن الخفى ، أو بالأحرى عن الكائنات غير المرئية التى تكون هى والجسم شخصية الإنسان فى نظر البدائى . ونحن نعرف ضروب الخلط والخطأ التى نجمت عن استعمال ذلك التعبير للدلالة على تصور لا يوجد عند البدائيين . فقد ترتب عليه ظهور نظرية كاملة نالت تعضيداً كبيراً فيما مضى ، ولا يزال لها بعض الأنصار حتى يومنا هذا ، وكانت تقوم على تلك البديهية الضمنية ، وهى وجود تصور « للروح » عند البدائيين .

---

(١) هـ . ب . ستينسبى H. P. Steensby :
Contributions to the Ethnology and Anthropology of the Polar Eskimo, Greenland : فى Meddelelser om ، مجلد ٣٤ (١٩١٠) ، ص ٣٧٤ـ٥

مشابه لما عندنا . وكذلك الحال بالنسبة لعبارات « الأسرة » و« الزواج » و« الملكية » . إلخ . فقد استخدمها الباحثون لوصف نظم زعموا أن بينها وبين مدلولات هذه العبارات عندنا وجوه شبه صارخة ؛ ومع ذلك فإن الدراسة العميقة ترينا أن التصورات الجماعية الخاصة بهذه المسائل لا تستطيع الدخول فى إطار تصوراتنا التجريدية ، دون أن يعتريها الزيف .

ولنأخذ من ذلك مثالا بسيطا لا يحتاج إلى تحليل طويل : يطلق الباحثون اسم « النقود » ، بكل سهولة ، على القواقع التى يستخدمها أهالى بعض الأقاليم فى مبادلاتهم ، كميلانيزيا . وقد بين الأستاذ ريتشارد تورنفالد Richard Thurnwald أن هذا النقد القوقعى (muschelgeld) لا يقابل تماماً ما يسمى بالنقد عندنا . فالنقود التى لدينا لا تعدو أن تكون وسيطاً من المعادن أو من الورق لتسهيل مبادلة شئ بشئ آخر مهما كان ، أى أنها أداة عامة للتبادل . ولكن من العسير أن يوجد تصور عام من هذا النوع لدى الميلانيزيين ، لأن تصوراتهم تظل شخصية جزئية . ويستعمل أهالى جزائر سليمان القواقع فى المبادلة مثل جيرانهم أيضاً ، ولكن فى نواح جد معينة . كتب الأستاذ تورنفالد يقول : « يستعمل هذا النقد عادة فى غايتين أساسيتين : (١) فى الحصول على امرأة (بالزواج) ، (٢) فى الحصول على حلفاء فى الحرب ، ودفع التعويض اللازم للموتى ، سواء أكانوا قد قتلوا اغتيالا أم فى معركة حربية . ونفهم من ذلك أن هذا النقد لا يستخدم حقيقة لأغراض اقتصادية وإنما يخصص لتأدية وظائف اجتماعية معينة . ومن هذه الأغراض التى يستخدم فيها نستطيع معرفة السبب الذى يحدو بالرئيس أولا وقبل كل شىء إلى الانفراد بجمع رصيد من القواقع والاحتفاظ بها فى عشش خاصة ... لاستخدامها مثلا فى القروض التى يقدمها لأتباعه حينما يريدون شراء امرأة . . . أما « نقد » القواقع الدقيقة فيستخدم أيضاً فى « الحلى » . . . وإلى جانب هذا النقد تلعب الأساور دوراً هاماً فى « بوين Buin » لتمثيل رموز القيمة . وأهالى هذه البلاد يستوردونها من « شوازل » Choiseul . ويوجد عندهم ممثل آخر للقيمة ، وهو الخنزير الذى

يستخدم فى بعض أغراض النقد ، ولا سيما مآدب الأعياد الكبيرة التى يضطر الأهالى إلى إقامتها فى مختلف الظروف » .

أما المعاملات التجارية بمعناها الحقيق ، فيبدو أنها لا تعرف استعمال النقد بجميع أنواعه ومنها نقد القواقع ؛ لأن الأهالى يتبعون فيها طريقة المقايضة . لكن هذه المقايضات كلها مخصصه وليست عامه ؛ ولذلك أصبحت تسير على نظام مستقر . يقول الأستاذ تورنفالد : « يسير الأهالى فى معاملاتهم على نظام مقايضة « السلع بالسلع » . ولكن ليس للسلع عندهم قيمة عامة ، بل لا بد للحصول على سلعة معينه من إعطاء سلعة أخرى بعينها . فمثلا يستبدل الرمح بالسوار ، والفاكهة بالتبغ ، والخنازير بالسكاكين . كما يميل هؤلاء الأهالى مثلا إلى مقايضة الأشياء التى تصلح للأكل بعضها ببعض : وهكذا يستبدلون البطاطس الصينية أو النراجيل بالتبغ ، والأسلحة بالحلى ، والرماح بالأساور أو اللآلىء الزجاجية[1] ، الخ . »

لنكتف بهذا القدر من الوصف الممتع الذى يورده لنا الأستاذ تورنفالد عن الحياة الاقتصادية لأهالى جزائر سليمان . فما ذكرناه منه يكفى للبرهان على أن تصورنا « للنقد » لا يتناسب تماما مع « نقد القواقع » الذى يستعملونه . ولذلك إذا قلنا إن عندهم هذا « النقد » أو ذاك ، أدى هذا التعبير إلى إعطاء فكرة مضللة زائفة عن تصوراتهم . ولكننا إذا قمنا بدراسة عميقة دقيقة للأغراض الخاصة التى يستخدم فيها « نقد القواقع » ، استطعنا أن نصل إلى معرفة عميقة ببعض نظم البدائيين ، وأمكننا أن نفهم فهما صحيحا عقلية هؤلاء الأهالى الذين لا يتبعون طريقة التصورات العامه التجريدية ، وإنما يسيرون فى مقايضاتهم على استبدال أشياء معينة بأشياء معينة أخرى لانعدام ما نسميه نحن بالنقود عندهم . وقد كان فى وسعنا أن نقوم بنقد من هذا القبيل لجميع العبارات التجريدية الأخرى التى استخدمها الباحثون فى الجماعات البدائية للتعبير عن تصورات البدائيين ووصف نظمهم . ولكن ذلك يخرجنا عن الخطة التى رسمناها لأنفسنا .

---

(١) ر . ترنفالد R. Thurnvaldt :
Forschungen auf Bismarck - Archipel und den Salomo Inseln,
مجلد ٣ ، ص ٣٨ — ٤٠ .

وهكذا نرى أن معظم الوثائق التى فى متناول العالم الذى يتصدى لدراسة العقلية البدائية لايمكن الانتفاع بها إلا مع الاحتياط الشديد ، وبعد اخضاعها لنقد دقيق . وذلك بسبب تلك الضرورة الناشئة من طبيعة الأشياء نفسها ، أى بسبب الاختلاف الشاسع بين العقليتين واللغتين . فالباحثون الأولون ، سواء كانوا دينيين أو مدنيين ، لايكفون عن تشويه النظم والمعتقدات التى يصفونها والعمل على تحريفها بكل حسن نية . وذلك لأنهم يستعملون فى التعبير عنها نفس العبارات التجريدية المألوفة لديهم ، دون تحرج أو تحفظ . أما الباحثون الذين أتوا بعدهم ، فقد ساروا على نهجهم مع إضافة ذلك الظرف المضعف ، ألا وهو أن نظم البدائيين ومعتقداتهم كانت فى ذلك الحين قد بدأت تصاب بالعدوى من جراء احتكاكها بالبيض ، وأن عقليتهم ولغتهم أصبحتا مهددتين بالإنحلال السريع إلى حد ما . هذه هى حال الوثائق التى لدينا ، ومع ذلك فنحن مضطرون إلى الاعتماد عليها . وإلا فمن أين يتأتى لنا الحصول على المدركات الضرورية لدراسة هذه العقلية إلا من كتابات أولئك الذين رأوا البدائيين عن كثب ، وعاشوا بقربهم أو بينهم ، وشهدوا طريقة حياتهم اليومية والاحتفال بعباداتهم ، إن كان لهم عبادات منظمة : نعم ليس فى متناول العلم إلا هذه الوثائق . ويكفى ما يعتورها من نقص لايمكن تجنبه ، وما تنطوى عليه من افراط أو تفريط لتعليل البطء الشديد الذى تتقدم به خطى هذا العلم وتفسير صفة الضعف التى تتسم بها النتائج التى أمكن الوصول إليها حتى الآن . غير أن هذه الصعوبة ليست مستحيله العلاج . فهى موجودة بدرجات مختلفة بالنسبة إلى جميع العلوم التى تنحصر موادها الأولية فى وثائق وروايات . إذ لاشك أن القواعد المقررة للنقد الخارجى والداخلى أصبحت تطبق الآن على الوثائق الخاصة بدراسة الأجناس ، وقد وصلت فيها إلى درجة النجاح التى وصلت إليه فى غيرها . هذا إلى أنه كلما تقدم الباحثون فى العقليه البدائية ووصلوا إلى نتائج يمكن اعتبارها نهائية ، وجدوا فى متناول أيديهم معايير عديدة أكيدة لتمحيص قيمة الروايات القديمة والحديثه ، فتزداد بذلك

قدرتهم على التمييز بين ما ينبغى طرحه منها وما ينبغى إبقاؤه . وأخيراً نعتقد أن معرفتنا الكافية بالصفات الجوهرية التى تميز العقلية البدائية من شأنها أن تسمح لنا بالقيام بدراسة نظمهم دراسة قوية عميقة . ولست أقول إن تخطى هذه المرحلة يؤدى إلى قطع المراحل التالية عدواً ، كلا ، ولكنى أعتقد أنه ييسر لنا تناولها .

— ٢ —

تهتم العقلية البدائية، كما تهتم عقليتنا، بالبحث عن أسباب الحوادث والظواهر التى تقع أمامها؛ ولكن كلا من العقليتين يسير فى إتجاه مخالف لاتجاه الأخرى. فالعقلية البدائية تحيـــا فى عالم مأهول بقوى خفية لا عداد لها ، وكلها تمارس نشاطها فعلا أو على استعداد لممارسته . وقد رأينا فى الجزء الأول من هذا الكتاب أن هذه العقلية تنظر إلى كل حادثة تحدث ، ولو كانت جد مألوفة لها ، على أنها مظهر لقوة أو أكثر من هذه القوى . فإذا أمطرت السماء ، فى وقت تشتد فيه حاجة الحقول إلى الماء ، لم يكن لذلك معنى فى نظرها إلا أن أسلاف المكان وأرواحه راضون ،فاختاروا هذه الطريقة لأظهار رضاهم . وإذا حل جفاف شديد فأحرق الزرع وأهلك الضرع ، فلعل مرجع ذلك إلى انتهاك أحد المحرمات ، أو غضب أحد الأسلاف لاعتقاده أنه أهين ؛ فلا بد إذن من تهدئة غضبه . كذلك لا يمكن نجاح أى مشروع دون عون من القوى الخفية . ولا يذهب أحد إلى الصيد أو يخرج فى حملة ما ، أو يبدأ فى فى زراعة حقل أو تشييد بيت ؛ إلا إذا ظهرت له الفؤول الحسنة ، ووعدته القوى الغيبية الحامية للهيئة الاجتماعية بعونها بصورة قاطعـــة ، ووافقت الحيوانات نفسها التى يراد اقتناصها ، وبوركت الآلات التى سيستخدمها فى ذلك كله وزودت بالخصائص السحرية ، الخ . وقصارى القول أن العالم المرئى والعالم غير المرئى لا يكونان فى نظر العقلية البدائية إلا عالما واحدا ، وأن قوى العالم المرئى مرتبطة دائما بقوى العالم الآخر . ومن ثم كانت حياة

البدائيين تعلق أهمية كبرى على الأحلام والفؤول والعرافه بصورها المختلفة ، والضحايا والترانيم والاحتفالات الطقسيه والسحر . وهذا أيضا هو السبب فى تغاضيهم عما نسميه نحن بالأسباب الطبيعية وتوجيه كل همهم إلى السبب الغيبي الذى يعتقدون أنه هو وحده الذى يؤثر حقا . فاذا مات لديهم شخص من مرض عضوى أو لدغته أفعى أو سقطت عليه شجرة فسحقته أو التهمه نمرأوتمساح ، لم يعتقدوا أن المرض أو الأفعى أو الشجرة أو النمر أو التمساح هو الذى قتله ؛ وذلك لأنه لم يمت إلا لأن ساحرا « حكم عليه » doomed أو « اسلمه » . أما الشجرة القاتله أو الحيوان القاتل فأداتان فقط . وإذا انعدمت إحدى الأدوات ، أمكن أن تقوم غيرها مقامها . والأدوات ، يمكن أن تقوم بعضها مقام بعض كما يقال .

لا شك أن العقلية التى تتجه هـــذا الاتجاه ،لا تعترف بوجود الحادث الطبيعى البحت . لذلك لا يمكن أن يخطر لها سؤال خاص بظواهر الطبيعة كما يخطر لنا . فنحن إذا أردنا أن نفسر إحدى الظواهر ، بحثنا فى سلسلة هذه الظواهر نفسها عن الشروط الضرورية الكافية لهذا التفسير . وإذا وصلنا إلى تحديدها، لم نجد أنفسنا فى حاجة إلى طلب المزيد ، لأن معرفة القانون تكفينا . ولكن مسلك البدائى يخالف هذا المسلك كل المخالفة . نعم نحن لا ننكر أن البدائى قد يفطن إلى وجود سوابق ثابتة للظاهرة التى تهمه ، وأنه يراعى نتيجة تجاربه السابقة كل المراعاة حينما يريد القيام بعمل ما . ولكنه يبحث دائماً عن السبب الحقيقى وراء ما نسميه بالطبيعة ، أى فى « الميتافيزيقا » بالمعنى الحرفى للكلمة. وقصارى القول أن مسائلنا ليست مسائله ، كما أن مسائله أجنبية عنا . ولذلك نرى من العبث البحت أن نتساءل عن الحل الذي يحل به إحدى مسائلنا ، أو أن نفترض وجود هذا الحل ،ثم نرتب عليه بعض النتائج التى تفسر لنا هذا النظام أو ذاك من النظم البدائية .

وهذا ما فعله السير جيمز فريزر James Frazer . فقـــد اعتقد أن فى

استطاعته تأسيس نظرية للطوطمية على ما ادعاه من جهل البدائيين بعملية الحمل الفسيولوجية . وقد أثار بذلك مناقشات طويلة متواصلة حول تصور البدائيين لوظيفة التكاثر عند الإنسان ، وحول فكرة الحمل على العموم لدى المغرقين منهم فى التأخر . ولكن لعله كان يجدر بهؤلاء الباحثين أن يبدأوا بدراسة تلك المسألة الأولية ، ألا وهى : هل تعرض مسألة الحمل للعقلية البدائية فى حدود تسمح لهذه المناقشات بالوصول إلى نتيجة حاسمة ؟ يمكننا ، وقد عرفنا وجهة هذه العقلية ، أن نجزم ، دون خوف من الخطأ ، بأنه لا يمكن لظاهرة الحمل أن تسترعى انتباهها من جهة شروطها الفسيولوجية . إذ أنه يستوى عندها معرفة هذه الشروط وجهلها ، مادامت تهملها وتبحث عن السبب الحقيقى فى غيرها ، أى فى عالم القوى الغيبية . وإلا كان لزاماً علينا أن نفترض أن البدائيين قد نظروا إلى هذه المسألة وحدها ، دون سائر المسائل التى تفرضها أمامهم الطبيعة من وجهة نظر مختلفة . ولكان علينا أن نسلم بأن العقلية البدائية قد لجأت إلى هـــذا الاستثناء الغريب ، وسلكت تجاه هذه الظاهرة مسلكاً لم تعتده من قبل ، واهتمت فجأة بالبحث عن الأسباب الثانية أو الطبيعية . ولكن لا شىء يسمح لنا بذلك . فإذا كان البدائى لا يعتبر الموت نفسه حادثاً « طبيعياً » ، فمن البديهى ألا يكون الميلاد أيضاً من الأمور الطبيعية فى نظره بأية حال ، وذلك للأسباب نفسها .

والواقع أن البدائيين الاستراليين مثلا ، قد لاحظوا بعض شروط الحمل الفسيولوجية ، ولا سيما الاتصال الجنسى ، وذلك قبل أن يحدث بينهم وبين البيض أى اتصال . ولكن سلوكهم فى هذه المسألة لا يختلف عنه فى غيرها ، فهم لا يحسبون أى حساب لما نسميه نحن بالسبب الثانى أو الطبيعى ، ويعتبرون السوابق الضرورية الكافية فى نظرنا ، من الأمور الثانوية البحتة .

والسبب الحقيقى عندهم يرجع إلى وجود جوهر غيبى . فإذا لاحظوا أن الطفل لا يأتى إلا بعد حدوث الأخصاب ، لم يستبينوا من هذه الملاحظة

نتيجتها الطبيعية . بل نراهم يصرون على الاعتقاد بأن المرأة لم تحمل إلا لأن « روحا » دخلت فيها ، وهم يقررون بصفة عامة أنها روح أحد الأسلاف التى كانت تنتظر التجسد من جديد ، أى التى كانت فى « الاحتياطى » المعد للميلاد من جديد . ولذلك يجب أن تكون المرأة من نفس العشيرة أو فرع العشيرة ومن الطوطم الذى يناسب هذه الروح . وفى قبائل « الأرنتا» Arunta إذا مرّ النساء أمام المكان الذى توجد فيه الأرواح المرشحة للحياة الأرضية وخشين الحمل ، أسرعن فى المسير واتخذن جميع الاحتياطات لمنع دخول إحدى هذه الأرواح فيهن(١) . »هذا مارواه الاستاذان سبنسر وجلن ، ولكنهما لم يقولا بأن النساء يمتنعن عن الاتصال الجنسى إذا رغبن عن الحمل ؛ لأنهن يعتقدن أن الاتصال لا يتبعه الحمل إلا إذا دخلت « الروح » فى المرأة .

ويتساءل الأستاذ فكس Fox عما إذا كان السبب الفسيولوجى للحمل معروفا فى « سان كرستوفال San Cristoval بجزائر سليمان ، ثم يجيب عن سؤاله بقوله : « هذا أمر محتمل فى الوقت الحاضر ؛ فإننا إذا سألنا الأهالى عن السبب الذى من أجله يئدون أول طفل يولد لهم بعد الزواج ، أجابوا بأنهم يفعلون ذلك من باب الاحتياط ، مخافة أن يكون الطفل الأول قد جاء من رجل آخر غير الزوج . ولكن من المؤكد أن هناك أيضا بعض الظواهر التى تشهد للفرض المضاد . فيقال إن الجنين يوضع فى حشا المرأة بوساطة « أدارو » adaro يسمى « هودى إوافى » Haudi Ewavi ويعيش على « جواد الكنار » Guadalcanar وبمارو ساوند Marau Sound ، وهو المكان الذى تذهب إليه أرواح الموتى بعد الوفاة ، أو بوساطة « كوراها » Kouraha ، وهى روح « أفعى(٢) . » والواقع أن كلا الفرضين لا يتنافيان . إذ قد يكون سكان

---

(١) سبنسر وجلن، The native tribes of Central Australia، ص ١٢٥.

(٢) ك . ا . فكس C. E. Fo، Social organisation in San Cristoval، فى I. A. J.، مجلد ٤٩ (١٩١٩) ص ١١٩ .

« سان كرستوفال » قد عرفوا من البيض ، أو لاحظوا هم أنفسهم ، وجود العلاقة الوثيقة بين الاتصال الجنسى والحمل . ولكن ذلك لم يقض على الاعتقاد بأن السبب الحقيقى سبب غيبى ، ألا وهو عزم إحدى الأرواح على الدخول فى إمرأة معينة .

ويعد عقم المرأة كارثة حقيقية وسبباً وجيها لفصم عرى الزواج لدى كثير من الجماعات البدائية ، ولاسيما قبائل « الننو » . ويرجع السبب فى ذلك إلى فكرة المشاركة المعروفة التى أشرنا إليها من قبل . فمن المقرر عندهم أنها تعوق نماء الزرع المملوك لشخص متزوج بامرأة عقيم . ولذلك ينبغى له أن يطلقها . ويرجع العقم عنـــدهم إلى المرأة دائماً . وهم مع ذلك لا يجهلون الدور الفسيولوجى للاتصال الجنسى ، ولكنهم لا يجعلون الحمل يتوقف عليه حقيقة . ولذلك لا يتخيلون أن انعدام الحمل قد يرجع إلى نصيب الرجل فى التلقيح ، إذ لاشك عندهم فى أنه يرجع إلى سبب غيبى . أى أن العقم معناه فى نظرهم إحجام أى روح من أرواح الأطفال عن الدخول فى هذه المرأة لكى تصير طفلا . ولا تعتقد المرأه التى يقض العقم مضجعها أن فى مقدورها الشفاء منه بغير التوسل إلى القوى الخفية وإلى الأسلاف حتى يرضوا عنها ، ولذلك تكثر من تقديم القرابين والضحايا . وإذا كانت هذه هى أفكار البدائيين عن مسألة الحمل ، فإنها تجعل من العسير علينا أن نحدد بالضبط ما تتصوره أية قبيلة من قبائلهم عما نسميه نحن بشروط الحمل الفسيولوجية . فهذه العقلية لا تقف عند هذه الشروط ، لأنها عديمة الأهميه فى نظرها ؛ ولذلك قد لا يكون لديها فكرة واضحة عنها ؛ بل قد لا تفطن هى نفسها إلى رأيها فيها ، ما دام انتباهها غير موجه إليها . وقد تمتاز بعض الهيئات الاجتماعية عن بعضها الآخر فى دقة التقاليد التى لديها عن هذا الموضوع ، ولـكن هـذا الخلاف لا يساعدنا على استنتاج شىء جديد . ولذلك قد تختلف روايات الباحثين فى هـذا الشأن مع صدقها جميعاً . ولهذا السبب أيضاً نرى هذه العقلية التى نعلم عدم مبالاتها

بالتناقض فى كثير من الأحيان ، تسلم فى آن واحد بأن الاتصال الجنسى شرط الحمل المعتاد ، وبأن الحمل قد يحدث دون فعل جنسى . ولعلها تعتبر الوضع دون اتصال جنسى أمراً استثنائياً ، ولكنها لاترى فيه شيئاً من الغرابة . فإذا دخلت روح فى امرأة ، فى أثناء الحلم مثلا ، فلا بد لها أن تحمل وتلد . والقصص والأساطير والخرافات مفعمة بالحوادث التى من هذا القبيل ، دون أن ترى فيها العقلية البدائية مثاراً للدهشة . ولكن لا يصح لنا أن نستنتج من ذلك جهلها بوظيفة الاتصال الجنسى ، وإن كانت لا تعتقد أن الحمل يتوقف عليه وحده . فهى على علم به ولكن علمها به لا يخلو من الغموض[1] .

— ٣ —

نرى مما تقدم أن الأسئلة التى تثيرها مسائل الطبيعة فى نفوسنا تختلف كل الاختلاف عن الأسئلة التى تثيرها أمام العقلية البدائية ، بل لعلها لا تثير أمامها أسئلة قط . يقول أحد المكتشفين فى معرض الحديث عن قبائل « الساكايس » بسومطره : « أن حاجة هذه القبائل المتأخرة إلى السببية ضعيفة للغاية ... ولا يستثير لديهم ردفعل إلا الخواطر المفرطة فى الحدة والفورية[2] . » ومعنى الحاجة إلى السببية هنا « يقظة » الإنسان إلى الظواهر التى تحدث حوله . والواقع أن الباحثين كثيراً ما أطنبوا فى الكلام على مظاهر الخمول والغفلة

---

(١) عند قبائل الأزند Azande فى الكنغو العليا : « الأفكار المتعلقة بالحمل غريبة جدا ، بالنسبة الى الأوربى على الأقل . فهم يعتقدون أن عناصر الجنين لاتوضع على مرة واحدة بل على عدة دفع متتابعة من تلقيح البيض ، وتمتد الى عدة أيام » Notesn of the Azande tribes هارولدرينولدس فى : Harold Revno'ds Journal African Society of the Congo مجلد ١١ (١٩٤) ، ص ٢٩٣ . ويوجد هذا التصور نفسه عند قبائل « البابو » الذين درسهم الأستاذ لندمان Landtman ، حيث يقول « اذا رغب الزوج فى أن يكون له طفل ، وجب عليه أن يباشر زوجته باطراد حتى يتم الطفل » فى : The folk tales of the Kiwai Popuans ، مجلد ٤٧ ، ص ٤٦٠ Acta Societatis Scientiarum fenreoe (ملاحظة) .

(٢) مسكوفسكى Moszkowski :
Aufneuen Wegendurch Sumatra ، ص ٩

التى شاهدوها لدى القبائل الموغلة فى التأخر ، ولا سيما بعض قبائل أمريكا الجنوبية ، وقد خرجوا من ذلك بنتائج غير صحيحة عن العقلية البدائية على وجه العموم . وإذا أردنا تجنب الوقوع فى هذا الخطأ ، وجب علينا أولا ألا نبحث فى هذه الجماعات مهما كانت درجة تأخرها ، عن «حاجة السببية» تشبه حاجتنا نحن إليها . فقد رأينا من الظواهر والنظم التى حللناها فى هذا الكتاب أن لهذه الجماعات حاجتها إلى السببية ، وأن هذه الحاجة خاصة بها ، ولكنها تخفى بسهولة على الباحثين المتعجلين أو المتأثرين بأفكار سابقة . . إذ نعلم تمام العلم أنها عقلية غيبية غير منطقية فى جوهرها ، وأنها تسير نحو أغراض أخرى غير أغراضنا ، وفى طرق أخرى غير الطرق التى تسلكها أذهاننا . ويكفى فى الدلالة على مانقول أن نلاحظ مقدار الأهمية التى اتخذتها العرافة والسحر فى نظرها .

وإذا أردنا أن نتابعها فى خطواتها وأن نستخرج المبادىء التى تسير عليها ، فلا بد لنا أن نضرب بعاداتنا عرض الحائط ، إذا صح هذا التعبير ، وأن نأخذ أنفسنا بعاداتها هى . وقد يقال إن هذا المجهود يكاد يكون مستحيل التحقيق ، ومع ذلك فقــد يؤدى انعدامه إلى استمرار جهلنا بهذه العقلية ، التى نحاول فهمها .

وهكذا نرى أننا ميالون دائماً إلى تصوير العقلية البدائية على غرار عقليتنا ، وأن هذا الميل الذى يكاد يستعصى على الحل يعوقنا عن فهم هذه العقلية . وهناك أمر آخر يعوقنا عن استجلاء الخصائص المميزة لعقلية البدائيين ؛ وهو أننا نراهم فى حياتهم العملية يتابعون غايات نستطيع فهمها دون مشقة . ونلاحظ أنهم يسلكون فى تعقبها مسلكا لا يكاد يختلف عما نفعل نحن لو كنا فى مكانهم . ويؤدى بنا تشابه المسلكين من الوجهة العملية إلى طرح التقصى وإلى القول بأن عملياتهم العقلية مشابهة لعملياتنا على وجه العموم . ولكن إمعان البحث والتحليل هو الذى يستطيع وحده أن يبصرنا بالاختلاف

الشاسع بين العقليتين . وقد بينا فى كتابنا « الوظائف العقلية فى الجماعات المتأخرة » أن العقلية البدائية التى لا تبالى بالتناقض فى كثير من الأحيان تستطيع تجنب هذا التناقض حينما تقتضى حاجات العمل منها ذلك[1] . ونقول الآن إن هناك أيضاً بعض البدائيين الذين لا يبدو عليهم أى اهتمام ظاهر بروابط السببية مهما كانت واضحة ، ولكنهم رغم ذلك يجيدون استخدامها فى سبيل الوصول إلى كل ما هو ضرورى لهم ، كالطعام وصنع بعض الآلات أو استعمالها . والواقع أنه لا تكاد توجـــد جماعة مهما بلغت من التأخر إلا ونعثر لديها على اختراع أو إجراء صناعى أو عمل فنى أو سلعة صناعية تحملنا على الإعجاب بها : كالزوارق المحفورة فى جزوع الأشجار والأوانى الفخارية والأسفاط والحلى إلخ ، فهؤلاء الناس المجردون من كل شئ ، الذين يبدون كأنهم وضعوا فى أحط درك بشرى ، يستطيعون المثابرة فى العمل لإنتاج أداة ما والوصول بها إلى درجة فائقة من المعرفة واللطف . فنرى الاسترالى مثلا يصنع الرماح المسماة boomerang بمهارة فائقة ، و« البشمانى » و« البابو » يبديان موهبة فنية حقة فى الرسم ، والميلانيزى يزود مصائد السمك الذى يستعملها بأمهر الوسائل إلخ .

لا شك أن الأبحاث التى يقوم بها العلماء الآن عن الفن المادى عند البدائيين ستكون لنا خير معين على تحديد مراحل التطور التى قطعتها عقليتهم . ولكنا نستطيع منذ الآن أن نورد هـذه الملاحظة العامة ، بالرغم من تسليمنا بأن عمليات الاختراع التى لا تعرف عنها جماعاتنا إلا القليل مجهولة كل الجهل لدى هذه الجماعات ؛ وتدور هذه الملاحظة حول تفسير القيمة الفائقة التى تبدو فى بعض أعمال البدائيين وإجراءاتهم الفنية ولا تتفق بأية حال مع ما فى ثقافتهم من بدائية وخشونة . فنقول إن هذه القيمة الاستثنائية فى الناحية العملية ليست ثمرة للتفكير والاستدلال المنطقى . ولو أنها كانت نتيجة

(١) Les fonctions mentales dans Les sociétés infèrieures ص ٧٩ .

للتفكير لما شاهدنا لديهم هذا التنافر . ولأمكن لتلك الأداة العامة المسماة بالفكر أن تؤدى إليهم هذه المعونة نفسها فى ميادين أخرى . والواقع أن ذلك التفوق يرجع إلى نوع من الحدس الذى يعمل على توجيه يدهم . أما هذا الحدس نفسه فيرجع إلى ملاحظتهم الحادة للأشياء التى لها أهميـــة خاصة فى نظرهم ، وهذا وحده كاف لإيصالهم إلى تلك الدرجة من التفوق فى الأمور العملية : إذ أن القدرة على ترتيب مجموعة من الوسائل ترتيبا وقتيا ملائمـا للوصول إلى غاية ما، لا تتطلب بالضرورة استعمال الذكاء النظرى ، ولا المعرفة القادرة على التحليل والتعميم وتهيئة نفسها لحالات غير منظورة . بل يمكن أن تنحصر المسألة كلها فى مجرد المهارة العملية التى ساعد المران على تكوينها وتنميتها والاحتفاظ بها . وفى وسعنا أن نقارن تلك المهارة إلى حد كبير بمهارة لاعب البليارد الذى لا يعرف شيئا فى الهندسة ولا فى الميكانيكا ولا يحتاج إلى استعمال التفكير ، ولكنه ينطوى على الحدس السريع الأكيد بالحركة التى يجب عليه القيام بها حينما يرى الكرات فى وضع معين .

ويمكننا أن نسير على هذا النهج أيضاً فى تعليل الدقة والبصيرة اللذين يبرهن عليهما البدائيون فى ظروف مختلفة . فمثلا يذكر « ڤون مارتيوس Von martiuus أن هناك قبائل من أحط قبائل الهنود الغربيين فى البرازيل تستطيع أن تميز أجناس النخيل جميعها بعضها من بعض ، بل تستطيع أن تميز فروع الأجناس أيضا . ويقول إن لديها اسماً لكل جنس منها . ويعرف الاستراليون الآثار التى تتركها أقدام كل فرد من أفراد الجماعة على حدة ألخ . أما فى ميدان المعنويات ، فكثيراً ما أطرى الباحثون بلاغة الأهالى الفطرية فى عدد كبير من الجماعات ، وأشادوا بثراء الحجج التى يدلون بها فى مناقشاتهم ، وأعجبوا بمهارة الهجوم والدفاع التى تبدو فى اعتراضاتهم . وكثيراً ما تشهد قصصهم وأمثالهم بملاحظة دقيقة لاذعة ، وتكشف أساطيرهم عن خيـــال شعرى خصب فى بعض الأحيان . كل هذا قد شهد به باحثون لا يمكنهم اتهامهم بالتحيز لهؤلاء « المتوحشين » .

وهكذا قد نجد بين البدائيين حكماء أخلاقيين وأشخاصا بارعين فى الفراسة أو خبيرين بأسرار النفوس البشرية ، « بالمعنى العملى لهذه الكلمات » . وقد يكون هؤلاء الأشخاص مثلنا فى هذه الميادين أو خيراً منا فى بعض الأحيان، فيشق علينا أن نعتبرهم فى بعض النواحى الأخرى ألغازاً لا تكاد تحل ، وأن نقول بأن هوة عميقة تفصل بين عقليتهم وعقليتنا . ولكن يجب أن نعلم أن نقط التشابه بيننا وبينهم تتصل دائما ببعض طرائق النشاط العقلى التى يتبع فيها البدائيون المسلك نفسه الذى نتبعه نحن أيضا ، وذلك لأنها تقوم على الحدس المباشر والخوف الوقتى ، أى على التفسير السريع الفورى لما تدركه الحواس. فإذا أرادوا مثلا أن يقرأوا ما على وجه شخص من عواطف لا يفطن إليها هو نفسه ، أو أن يجدوا الكلمات التى تهز الوتر الحساس المراد تحريكه ، أو أن يقتنصوا الجانب المضحك من حدث أو موقف معين إلخ ، فإنهم يسيرون فى ذلك على هدى الحس الفطرى . ومن شأن التجارب أن تنمى هذا الحس وترهفه حتى لقد يصبح معصوماً من الخطأ دون أن يكون بينه وبين العمليات العقلية بمعناها الحقيقى أية وشيجة . فإذا ما دخلت هذه العمليات العقلية الحقيقية فى الميدان ظهرت الفروق بين العقليتين بشكل صارخ يغرى المشاهدين لها بدورهم على الغلو فى تقديرها . وذلك لأن الحيرة تستولى على المشاهد الذى كان يرى بالأمس أن ذكاء البدائى يتساوى مع ذكاء أى شخص آخر ، فيصفه اليوم بالبلادة التى لا حد لها ، لأنه رآه عاجزاً عن القيام بأبسط الاستدلالات .

يرجع وصف العقلية البدائية عادة بأنها « لغز » إلى ما فيها من طابع الغيبية وعـــدم المنطق . والواقع أن تفكيرنا المنطقى التصورى يرى نفسه أمام التصورات الجماعية التى تعبر بها هذه العقلية عن نفسها ، والروابط الزائفة التى تربط هذه التصورات بعضها ببعض والنظم التى ترتسم فيها فى الخارج ، فيشعر بالحرج كما لو كان أمام تركيب عقلى أجنبى عنه ، بل معاد له ، وذلك لأن العالم الذى تجول فيه العقلية البدائية لا يتفق مع عالم عقليتنا إلا جزئيـا

فنى عالمنا تمتد شبكة الأسباب الطبيعية إلى مالا نهاية له. أما فى عالم البدائيين فتظل هذه الشبكة مستترة فى الظلام حيث لا يستطاع أن تدرك، فى حين أن القوى الخفية والأفعال الغيبيـــة وضروب المشاركة بجميع أنواعها تختلط فيها بالمدركات الوقتية، لتكون مجموعا من الواقع ممزوجا بما وراء الواقع؛ وبهذا المعنى يعد عالم البدائيين أكثر تعقيدا من عالمنا نحن، ولكنه من جهة أخرى عالم متناه مغلق. فمعظم البدائيين يتصورون أن القبة السماوية ترتكز كالناقوس على صفحة الأرض أو المحيط المسطحة. وعلى هذا النحو ينتهى عالمهم عند دائرة الأفق. وهم يحسون بالمسافة أكثر مما يتصورونها، كما يعتقدون أن اتجاهات العالم مشحونة بالصفات وأن كل إقليم من أقاليمه، كما رأينا [1] يساهم مع جميع ما يوجد فيه عادة. وتصورهم للزمن تصور وصفى على وجه الخصوص، ولذلك يظل مبهما فى أذهانهم: واللغات البدائية جميعها تقريبا فقيرة فى وسائل التعبير على العلاقات الزمنية بقدر ما هى ثرية فى التعبير عن الصلات المكانية.

فكثيرا ما نرى البدائيين يحسون بالحادثة المستقبلة على أنها حاضرة بالفعل، إذا كانوا متأكدين من وقوعها وكانت تثير فى نفوسهم انفعالا قويا.

فى هذا العالم المغلق، بما فيه من مكان وزمان وسببية مختلفة بعض الشىء عما لدينا، تشعـــر كل جماعة بالتضامن مع الجماعات الأخرى ومع مجموعات الكائنات المرئية وغير المرئية التى تعيش معها. وتحتل كل جماعة من هذه الجماعات، تبعا لما إذا كانت رحالة أو مستقرة، رقعة من الأرض محدودة الامتداد واضحة المعالم على وجه العموم، معروفة الحدود بالنسبة إلى هذه الجماعة نفسها وإلى جيرانها. وهم لا يعتبرون أن الجماعة هى صاحبة الحق المطلق فى هذه الأرض وأنها تنفرد بحق الصيد فيها وجنى ثمارها فحسب، بل يعتقدون أن الأرض «تنتسب» إليها بالمعنى الغيبى للكلمة: فهناك علاقة

---

(١) قارن ما تقدم فى الفصل السابع، ص ٢٣١ — ٢٣٩

غيبية تربط بين أحياء هذه الجماعة وأمواتها وبين القوى الخفية المختلفة الأنواع التى تعمر هذه الأرض والتى تسمح لتلك المجموعة دون سواها بالعيش فيها . هذا ونحن نعلم أن هناك نوعا من المساهمة الوثيقة يقضى بأن كل ما يتصل بالشخص اتصالا مباشرا ، كالملابس والحلى والأسلحة والبهائم ، يعد « هو » ذلك الشخص نفسه . وهذا هو السبب فى أنه إذا مات شخص من البدائيين ، عارضوا فى أن تؤول هذه الأشياء إلى شخص آخر بعد موته ، وقرروا ضمها إليه فى وضعه الجديد . وكذلك الحال بالنسبة لقطعة الأرض التى تعيش عليها الهيئة الاجتماعية ، فإنها تعتبر « جوهر » هذه الهيئة التى لا تستطيع العيش فى غيرها ، كما لا يستطيع غيرها أن يستولى عليها أو يستقر فيها ، وإلا عرض نفسه لأشد الأخطار . ولذلك قد نسمع ببعض المنازعات والحروب التى تقوم من حين لحين بين قبيلة وأخرى بسبب عدوانها على أرضها أو إغارتها عليها ، ولكنا لم نسمع مطلقا بأمر فتح حقيقى . فقد تستأصل جماعة ما شأفة جماعة أخرى معادية لها ، ولكنها لا تضم أرضها إليها قط ؛ لأنها لا ترى فائدة من وراء ذلك ما دامت تعرف أنها إن أقدمت عليه اصطدمت بأشد أنواع العداوة من جانب الأرواح المتنوعة ومن جانب الأجناس الحيوانية والنباتية التى تعتبر سيدة البلاد والتى لا بد أن تنتقم للمغلوبين . لذلك لا تستطيع الهيئة الاجتماعية الجديدة أن تعيش فيها لأنها تعلم علم اليقين أنها إن فعلت لاقت حتفها . ولعلنا نجد أحد الأصول الرئيسية لما يسمى بالقرابة الطوطمية فى هذه الروابط ، أعنى روابط المشاركة الجوهرية والمحلية التى تربط مجموعة أو فرع مجموعة بشرية بأحد الأجناس الحية .

ويعتبر هذا التشابك نوعا غريبا بين ضروب التشابك والتخارج التى يعيش الفرد فى وسطها . ولا شك أن التصورات التى يكونها الفرد الذى يحيا هذه الحياة عن نفسه ، حيا وميتا ، وعن الهيئة الاجتماعية التى « ينتسب » إليها ، لا تشبه ما نعرفه نحن باسم الأفكار أو التصورات المعنوية إلا من بعيد . فهى

من التصورات التى يحس بها صاحبها ويحياها أكثر من أن يجعلها موضوعا لتفكيره . كما أن مضمونها وروابطها لا تخضع لقانون التناقض بصورة صارمة . وبالتالى لم تستطع ذاتية الفرد والهيئة الاجتماعية والعالم الذى يحيط بهما ، سواء أكان مرئيا أم غير مرئى ، أن تصل فى هذه التصورات إلى درجة التحديد التى قد تبدو لنا حين نحاول إدراكها بتفكيرنا التجريدى المعنوى . كما لا يمكن لهذا التفكير ، مهما اتخذ من احتياطات ، إلا أن يقيس مواضع تلك العقلية على مواضيعه المعتادة ، وبذلك يجردها من صفات التشخيص والانفعالية والحيوية الأولية التى تميزها . وهذا هو ما يجعل من العسير علينا ، بل من المشكوك فيه فى جميع الأحيان تقريباً ، أن نفهم تلك النظم التى تعد انعكاسا لعقلية الجماعات البدائية فهما صحيحا ؛ وذلك لأنها عقليه غيبية أكثر منها منطقية.

الفهرس

صفحة


تليجرام
معنا
سور الأزبكية

يطلب من

مكتبة مصر

٣ شارع كامل صدقي " الفجالة "